موســـوعة تـــاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

موســـوعة تـــاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

في العـــــصر العباســـــي

- ١ -

المجلد السابع

المؤلف

حسين علي الهنداوي

الموسوعة مسجلة في:

١ – مكتبة الإسكندرية

٢ – مكتبة بيت الشباب في الشارقة

٣ – مكتبة جمعة بن ماجد – الإمارات

٤ – مكتبة الفهد الوطنية

٥ – مكتبة بن ادريس المغرب – مراكش

٦ – مكتبة بن باديس – الجزائر

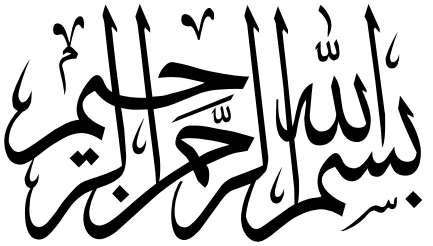

ترجمة صاحب الموسوعة

حسين علي الهنداوي

أ – أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي

ب – له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية

ج – نشر في العديد من الصحف العربية

د – مدرس في جامعة دمشق – كلية التربية – فرع درعا

هـ – ولد الأديب في سوريا – درعا عام ١٩٥٥ م

و – تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا

ح – انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب – قسم اللغة العربية وتخرج فيها عام ١٩٨٣

ك – حائز على إجازة في اللغة العربية

ص – حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق

ع – عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين – قسم اللغة العربية في مدينة درعا

ف – انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك.

– عضو اتحاد الصحفيين العرب

– عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب

– عضو تجمع القصة السورية

– عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله:

١ – الكويت (الرأي العام – الهدف – الوطن)

٢ – الإمارات العربية (الخليج)

٣ – السعودية (الرياض – المدينة – البلاد – عكاظ)

٤ – سوريا (تشرين – الثورة – البعث – الأسبوع الأدبي)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله:

١ – مجلة المنتدى الإماراتية

٢ – مجلة الفيصل السعودية

٣ – المجلة العربية السعودية

٤ – مجلة المنهل السعودية

٥ – مجلة الفرسان السعودية

٦ – مجلة أفنان السعودية

٧ – مجلة السفير المصرية

٨ – مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته:

أ - الشعر:

١ – هنا كان صوتي وعيناك يلتقيان/ ١٩٩٠

٢ – هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير/ ١٩٩٤

٣ – أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤

٤ – سأغسل روحي بنفط الخليج / ١٩٩٦

٥ – المنشّى يسلم مفاتيح ايلياء/ ١٩٩٦

٦ – هذه الشام لا تقولي كفانا / مخطوط

ب - القصة القصيرة:

شجرة التوت / ١٩٩٥

ج – المسرح:

١ – محاكمة طيار / ١٩٩٦

٢ – درس في اللغة العربية / ١٩٩٧

٣ – عودة المتنبي / مخطوط

٤ – أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د – النقد الأدبي:

١ – محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢ – النقد والأدب / ١٩٩٤

٣ – مقدمتان لنظريتي النقد والشعر / مخطوط

٤ – أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الدينية:

١ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الأول

٢ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الثاني

٣ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الثالث

٤ – فتاوى واجتهادات / جمع وتبويب

٥ – هل أنجز الله وعده؟

الصحف الالكترونية التي نشر بها:

١ – قناديل الفكر والأدب

٢ – أنهار الأدب

٣ – شروق

٤ – دنيا الوطن

٥ – ملتقى الواحة الثقافي

٦ – تجمع القصة السورية

٧ – روض القصيد

٨ – منابع الدهشة

٩ – أقلام

١٠ – نور الأدب

مقدمة

الأدب في العصر العباسي

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبع هداهم إلى يوم الدين... وبعد:

لقد كان لتوسع رقعة الدولة العباسية مساحةً، وازدياد عدد السكان وتنوعهم عرقاً ولوناً وجنساً ومذاهبَ أثرٌ كبير في تنوع الثقافات والتنافس في حمل لواء الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أن القرآن الكريم بمفهومه الإنساني الداعي أولاً إلى المساواة بين جميع الناس عربهم وعجمهم دون النظر إلى أعراقهم وألوانهم وأجسامهم، والمفسح المجال ثانياً لكل أمة أن تقود مسيرة الحضارة الإسلامية ضمن شروط إسلامية صحيحة نظرياً وتطبيقياً، وقد ترك الباب مفتوحاً لقيادة المسيرة الإسلامية من قِبل أي فئة من الناس تحقق شروط القيادة دينياً ودنيوياً، مما جعل الشعوب الإسلامية تتنافس فيما بينها على هذه القيادة.

ولكن هذا التنافس اتخذ صوراً غير دينية، فاتخذ من الدماء وسيلة للوصول إلى ذلك وتحول التنافس الثقافي والمعرفي والقيادي إلى سفك دماء للوصول للخلافة وقيادة الأمة من خلال استخدام مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) شعاراً لا محيد عنه فكانت السيوف تتصارع والدماء تسفك دون حرمة دينية أو خلقية أو إنسانية، والهدف الوصول للسلطة وحكم الناس، فكما أن الأمويين سفكوا الكثير من الدماء في سبيل المحافظة على الخلافة ولم ينجحوا، كذلك سفك العباسيون الكثير من الدماء في سبيل سلب الخلافة من أبناء عمومتهم الأمويين، وهكذا كانت كل فئة تدعي أحقية الخلافة لها، ومثلما أن الأمويين اعتبروا أنهم سادة العرب قبل مجيء الإسلام كذلك اعتبر العباسيون أن العباس رضي الله عنه عم الرسول هو أحق من يرث ابن أخيه بالخلافة، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال: (نحن الأنبياء لا نورث) والخلافة ليست حكراً على أحد إنما هي أمانة في عنق من يتسلمها وهي (مهمة تكليف لا مهمة تشريف) وقد

وعاها الخلفاء الراشدون المهديون وأكدوا على صعوبتها، واعتبروها مسؤولية عظيمة أمام الله تعالى أولاً وأمام الناس ثانياً.

لقد استلم العباسيون مقاليد الخلافة بالسيف، فتوقفت الفتوحات التي من أجلها وجه الخلفاء الراشدون والأمويون الجيوش وهي رفع لواء (التوحيد ونشر الدين الجديد) وتخليص الناس من عبادة العباد، ونقلهم إلى عبادة رب العباد وأخذ العباسيون يتنعمون بغلال الخلافة ويبنون دولتهم على غرار الدولة الفارسية مظهرين العظمة والأبهة والكبرياء، وأخذت الثقافات تصطرع وتتنافس وبدا كل عرق ولون يتعصب لأبنائه، وأخذت شوكة العرب تضعف رويداً رويداً حتى لم يبق للعرب من الخلافة سوى اسمها وانتشرت الزندقة والشعوبية، وأخذ الأدب يرتقي كماً وكيفاً وزاد عدد الشعراء الذين وضعوا أنفسهم تحت راية الخلافة وكثر شعر المدح والهجاء واختلق الشعراء أنواعاً عديدة من الأغراض فرضتها طبيعة الحياة الجديدة: شعر التصوف – شعر الزندقة – الغزل – الشعر التعليمي، واهتم الشعراء بالصنعة والتصنع وتنافسوا على من يكون شاعر الخليفة، كذلك في فن النثر فقد كثرت المنافسة بين كتاب الديوان وزحف النثر باتجاه التوسع والانتشار، وأصبح له كتابه المختصون كالجاحظ وابن الزيات وغيرهم، وتململت الفلسفة وعلم الجدل والمناظرة والرسائل.

وانقسم الأدب إلى قسمين قسم ارتقى بقيمه الإيجابية، وقسم انحط نحو الحضيض يحرك النعرات العرقية عرب – عجم يتغزل بالذكور على عادة غير العرب ويدعو للفسق والمجون والانحلال، وأخذ النقد الأدبي مكانه الصحيح فتشكلت حركة نقدية واعدة استطاعت أن توفر للحركة الأدبية أبعادها الصحيحة فكونت نظرية عمود الشعر، ودعا بعض أفرادها إلى الثورة على الشكل والمضمون وصار للأجناس الأدبية مكانة مهمة كل بحسب حاجة المجتمع إليه وصار للأديب العباسي مكان مرموق عند الخليفة وعند عامة الناس.

الباب الأول

الحياة العامة في العصر العباسي

الباب الأول

الفصل الأول

الدعوة العباسية

أ - العباس محور الدولة العباسية:

روي في بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم العباس باستيلاء ولده على الخلافة بعد بني أمية (وهو خبر يحتاج إلى التحري والكشف عن صحته)، وقد كان العباس أسنّ من رسول الله عليه الصلاة والسلام بثلاث سنين وأولاده (الفضل - عبد الله - عبد الرحمن - قثم - معبد - أم حبيب) وأمهم " لبابة بنت الحارث " أخت ميمونة زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة بنت خويلد.

ب - أولاد العباس وتزعم الخلافة:

وقد حنّك رسول الله عليه الصلاة والسلام عبد الله بن العباس بريقه المقدس ودعا له قائلاً: (اللهم بارك فيه وانشر منه). وأولاد عبد الله بن العباس (العباس - علي - السجاد - الفضل - عبد الله - لبابة) ومن ولده **"علي السجاد"** وهو أبو الخلفاء، وقد اتفق العباسيون مع أبي مسلم الخراساني في الثورة على الأمويين، ونجحوا بذلك وأصبحت الخلافة عباسية، وقد تزعمها أبو العباس السفاح الذي بويع له عام ١٣٢ هـ، ويقال له المرتضى وكان قد ولد في أيام هشام بن عبد الملك وقد توفي ١٣٦ هـ وقد قتل في عهده خلق كثير فلقب بالسفاح وفيه يقول الشاعر:

فكانت أمية في ملكها ... تجور وتظهر طغيانها

فلما رأى الله أن قد طغت ... ولم تطق الأرض عدوانها

رماها بسفاح آل الرسول ... فخر بكفيه أذقانها

ومن أولاده " محمد " مات صغيراً و"ريطة" تزوجها المهدي، ومن أهم وزرائه " خالد بن برمك " جد البرامكة.

ج - خديعة وغدر:

ثم جاء بعده الخليفة أبو جعفر المنصور الذي بويع له بالخلافة بعد أخيه أبي العباس، زار بيت المقدس وحج البيت الحرام، غدر بعمه عبد الله بن علي بعد أن أعطاه الأمان؛ لأنه طالب بالخلافة وبنى له داراً أساسها ملح فلما سكنها أجرى الماء في الأساس فوقعت الدار عليه فمات، وكان قد كتب العهد بين المنصور وبين عمه عبد الله بن علي ابن المعتصم وقال فيه: " فمتى غدر أمير المؤمنين والمنصور بعمه عبد الله بن علي سراً أو علانية فنساؤه طوالق ودوابه حبيس وعبيده أحرار لوجه الله تعالى والمسلمون في حل من بيعته".

د - البيعة:

وكان أمر البيعة إثرها وقد قتل ابن المقفع بأمر من المنصور غدراً، وكان قد قام بالدعوة العباسية أبو مسلم الخراساني وله إحدى وعشرون سنة وفي ذلك يفتخر قائلاً:

أدركت بالصبر والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

ما زلت أسعى إليهم في ديارهم ... والقوم في غفلة بالشام إذ رقدوا

حتى طرقت لهم بالسيف فانتبهوا ... عن رقدة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

وكان أبو مسلم قد قتل خلقاً كثيراً أكثر من ستمئة ألف، وتوفي غدراً حيث أجلسه الخليفة عنده وخرج عليه القوم بأسيافهم والمنصور ينشد:

اشرب بكأس كنت تسقي بها ... أمرَّ في فيك من العلقم

كذلك ضرب المنصور أبا حنيفة النعمان على مرأى من الفقهاء بعد أن رفض توليه وحبسه حتى مات.

توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ عن ثلاث وستين سنة ودفن بالحرم الشريف وقضى خليفةً اثنين وعشرين سنة، وترك من الأولاد (محمد المهدي - جعفر - صالح - سليمان - عيسى - يعقوب - القاسم - عبد العزيز - العباس - خالد) ووزراؤه: (أبو أيوب المرياني - والربيع وخالد بن برمك).

هـ - أول من قتل الزنادقة:

ثم جاء المهدي المولود/ ١٢٧/ هـ وبويع بالخلافة / ١٥٨ / هـ وهو أول من قتل الزنادقة وألبس الكعبة الخز والديباج وطلاها بالمسك، واشترى ما حول الكعبة وجعلها بالوسط كما هي الآن وكانت بجانب المسجد، ولما دخل أبو دلامة الشاعر على المهدي قال له: كيف أنت؟ فقال أبو دلامة:

إني حلفت لئن رأيتك سالما بقرى العراق وأنت ذو وفر
لأصلين على النبي محمد ولتملأن دراهماً حجري

وأرادت إحدى زوجتيه أن تسم الأخرى فعثر المنصور على الرسول بينهما فأطعمه الحلوى المسمومة.

وقد خرج في زمنه " حكيم المقنع " يقول بتناسخ الأرواح فحاصره المهدي فشرب المقنع السم مع أولاده وبناته فماتوا، توفي المهدي ١٦٩ هـ وأولاده (هارون الرشيد – موسى الهادي – علي – عبد الله – منصور – يعقوب – اسحق – المأمومة – العالية – العباسية – سليمة) ومن كتابه (معاوية بن عبد الله – يعقوب بن داود) وقد حبس الأخير حتى أطلقه الرشيد وقضاته (محمد بن علامة وعافية بن يزيد)، ومن حجابه (سلامة الأبرش) ومن شعره:

أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورود
أراح الله من جسدي فؤادي وعجل بي إلى دار الخلود

وقد قيل في رثائه:

وأفضل قبر بعد قبر محمد نبي الهدى قبر سبذان
عجبت لأيد جثت الترب فوقه غداة فلم ترجع بغير بنان

و - شجاعة موسى الخليفة:

ثم جاء بعده موسى الهادي وأمه أم الرشيد الخيزران بويع له، مات أبوه وهو يحارب أهل طبرستان وبقي خليفة سنة وشهر، ثم توفي وصلى عليه هارون، وكان قد أخذت له البيعة وكان عمر موسى ٢٤ سنة وكان موسى شجاعاً بطلاً أديباً جواداً صعب المرام، قال فيه سلم الخاسر:

لقد قام موسى بالخلافة والهدى ومات أمير المؤمنين محمد
فمات الذي عم البرية جوده وقام الذي يكفيك من يتفقد

وقد كان موسى الهادي يحب الشعر وإنشاده. قال الضحاك الشاعر أنشدته هذين البيتين:

موسى الإمام أبان مشتبه الهوى بعد الدروس فصار نهجاً معلما
بسط الأنامل بالعطاء أظنه أن ليس يترك في الخزائن درهما

وقتل موسى الهادي جاريتين له بلغه أنهما كانتا تتحابان وتأتيان ما لا يحل لهما، وتكلم الناس بذلك فقال:

يلومني من جهل الأمر فكيف لي إن يسمع العذرا
يزعم إني آثم والذي فعلته أرجو به الأجرا
ومن له صبر على مثل هذا فلست فيه أملك الصبرا

وأولاده (عيسى - إسماعيل - جعفر - عبد الله - إسحق - موسى - وهو أعمى وله أم عيسى تزوجها المأمون).

وزراؤه "(الربيع بن يونس - ثم عمر بن بزيع) وحجابه (الفضل بن الربيع) وقاضيه (أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم).

ز - هارون الرشيد عقل وعلم وجهاد:

ثم جاء أخوه هارون الرشيد الذي بويع بالخلافة يوم مات أخوه، وولد له المأمون، كان شجاعاً سمحاً كثير الغزو والحج، يحج سنة ويغزو سنة، وقد قال فيه أبو العسلي:

فمن يطلب لقاءك أو يُردْه فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طِمِرٍّ وفي أرض الثنية فوق طور
وما حاز الثغور سواك خلق من المستخلفين على الأمور

وقد كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء في مواضعهم كمالك بن أنس وسفيان بن عينية وعبد الرزاق بن همام والفضيل بن عياض، وقد كان يدافع الروم في الثغور،

وكان الرشيد مضطلعاً في العلم والأدب والشعر ويميز بين الشعراء وقد فضل العباس بن الأحنف على جميل، قال جميل:

إلا ليتني أعمى وليت تقودني بثينة لا يخفى علي كلامها

قال العباس:

طاف الهوى في بلاد الله كلهم حتى إذا مر بي من بينهم وقنا

قال الرشيد:

أما يكفيكِ أنك تملكيني وأن الناس كلهم عبيدي

وأنكِ لو قطعتِ يدي ورجلي لقلت من الهوى أحسنتِ زيدي

وخرج على الرشيد الوليد بن الطريف الشاري واستولى على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وهزم جيوش هارون وقال:

أنا الوليد بن الطريف الشاري أخرجني ظلمكم من داري

ولكن بعض الأعراب قتل الوليد وحمل رأسه للرشيد، ورثته أخته الفارعة بنت طريف قائلة:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يعد الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف

وخرج عليه أبو الخصيب فقتله الرشيد وقضى على الخرمية بأذربيجان وسبى صبيانهم ونسائهم وخرج عليه الخزر وقتلوا من المسلمين وأهل الذمة وسبوا مئة ألف وأربعين ألفاً وقتلوا من الرجال والنساء والولدان، وأحرقوا المدن وقد قال إسحق بن هلال الموصلي في الرشيد وفي يحيى البرمكي:

ألم تر أن الشمس كانت مريضة؟ فلما أتى هارون أشرق نورها

تلبست الدنيا جمالاً بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها

ثم إن الرشيد سخط على البرامكة بعد أن اصطفاهم لإظهارهم الزندقة وإفساد الملك فنكبهم وقتلهم وطلب لعنهم على المنابر، وقيل:إن جعفر البرمكي كان باراً للعباسية أخت

هارون فزوجها الرشيد منه على أن لا يمسها ليكون لها محرماً إذا حضرت المجلس فقضى أنها حملت بتوءمين فغضب هارون وضرب عنقه ونقم على البرامكة.

ح - خلافة الأخوين:

وقد كتب كتاباً بالبيعة للأمين ومن بعده المأمون، أولاده (الأمين - المأمون - المعتصم - صالح - محمد أبو عيسى - القاسم - علي - إسحق - أبو أيوب - أبو أحمد) وبعض البنات، ومن وزرائه " يحيى البرمكي - وأبناؤه جعفر والفضل بن الربيع ومن قضاته " نوح بن دراج وحفص بن غياث - وعون بن عبد الله المسعودي وحجابه " بشر مولاه - محمد بن خالد بن برمك - الفضل بن الربيع " ثم جاء بعده محمد الأمين. والده هارون وأمه العزيزة وهي هاشمية بويع له سنة/ ١٩٣/ هـ وكانت ولايته أربع سنين ونصف كان سمحاً بالمال قبيح السيرة سفاكاً للدماء ضعيف الرأي.

وقد كان الرشيد قد ولى الأمين ثم المأمون العهد، فنكث الأمين وولى ولده العهد وخرق عهد أخيه وحدث بعده صراع عسكري جاؤوا بعده برأس الأمين لأخيه وقد قتل سنة/ ١٩٨ هـ/ ومن أولاده " موسى - عبد الله - إبراهيم - وكان وزيره الفضل بن الربيع ثم إبراهيم بن صبيح، وحاجبه العباس بن فضل بن الربيع وقضاته إسماعيل بن حماد البحتري ومحمد بن سماعة.

ثم جاء من بعده المأمون وقد كان كامل الفضل عظيماً عفواً حسن التدبير وقد أخذ البيعة لأخيه المعتصم وأحيا العلم القديم وأظهر علم النجوم والفلسفة واتخذ الأتراك للخدمة، وفي أيامه تحركت الخرمية وقام رئيسهم بابك وقضى عليهم وغفا عن عمه إبراهيم بن المهدي. جالس العلماء وناظرهم وكان يحضر مع الناس الطعام يتفقد عسكره والناس، يحب الناس ولا ينام حتى يقف على قضاياها غزا الروم وفتح قلاعاً وحصوناً ونفذ أمره من إفريقية إلى السند وأسلم على يديه ملك التيبت بعد أن قدم له صحناً من ذهب أرسله المأمون للكعبة.

وقال المأمون بخلق القرآن واعتبر علياً بن أبي طالب أفضل الناس بعد الرسول الكريم، ورد " فدكاً " على ولد فاطمة بنت رسول الله، وفي عهده توفي الإمام الشافعي رحمه الله،وكان يحب رياضة الشطرنج.

من أولاده " محمد الأصفر – عبد الله – علي – الحسن – إسماعيل – الفضل موسى إبراهيم – يعقوب – الحسين – سليمان – جعفر – إسحق – أحمد – هارون – عيسى – وعدة بنات). ووزراؤه: الفضل بن سهل – وأخوه الحسن وقضاته محمد بن عمر الواقدي – يحيى بن أكثم.

ط - المعتصم الملبي للصريخ:

ثم جاء من بعده المعتصم بن هارون أمه ماردة بويع له يوم مات المأمون ٢١٨ هـ وتوفي بسامراء ٢٢٧ هـ، وخلا فيه حوالي ٩ سنوات كان شجاعاً فتح عمورية بعد أن نزلت الروم في زبطرة، وقاد الحملة بنفسه وقتل ثلاثين ألفاً وأسر مثلهم وقصيدة أبي تمام فتح عمورية:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

قيلت في ذلك، وخرج في عهده بابك فحمله الأفشين للمعتصم بسامراء فقطعت يداه ورجلاه وصلب، ثم بعثت جثته ورأسه إلى بغداد وقيل بالاثنين:

إنما الاثنان سلَّه قدر الله بكف المعتصم

ثم قتل المعتصم الأفشين، لأنه أراد نقل الملك إلى العجم وقد بنى المعتصم سامراء وأبعد الجند عن بغداد امتحن ابن حنبل في خلق القرآن، وكان أمياً وقد ضربه وسجنه. أولاده (هارون – الواثق – جعفر – المتوكل – محمد أبو المستعين) ووزراؤه الفضل بن مروان – أحمد بن عمار – الزيات) وحجابه(وصيف مولاه)وقضاته محمد بن سماعة وأحمد بن أبي داود الأيادي).

ثم جاء بعده الواثق بالله أبو جعفر واسمه هارون بن المعتصم بويع له ٢٢٧ هـ وتوفي ٢٣٢ هـ وخلافته ست سنين، وكان يعاقب من امتنع عن القول بخلق القرآن فقد حبس ابن حنبل، وكذلك كان يحب النساء وكثرة الجماع ولما احتضر بسبب كثرة جماعه ردد هذين البيتين:

الموت فيه جميع الخلق مشترك لا سوقة منهم تبقى ولا ملك

ما ضر أهلُ قليلٍ في تنافرهم وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا

أولاده " محمد المهتدي – عبد الله – أحمد – إبراهيم – عائشة"، وزيره محمد بن عبد الملك الزيات، وحاجبه إيتاخ – ووصيف. وقاضيه أحمد بن أبي داود.

ي - رافع الفتنة في الدين:

ثم جاء بعده جعفر المتوكل على الله بن المعتصم وأمه تركية اسمها شجاع، بويع له ٢٣٢ هـ وقتل ٢٤٧ هـ ودفن في القصر الجعفري بسامراء، وخلافته ١٥ سنة رفع الفتنة في الدين وحض على قراءة الحديث وأخرج ابن حنبل من السجن وخلع عليه، وأخرج ذا النون المصري من السجن وأكرمه، وقد منع المتوكل النصارى واليهود من التزيي بلباس المسلمين والركوب على السرج وجعل أزر النساء عالية ليعرفن وأمر بهدم البِيَع المحدثة وتحويل الواقع منها لمسجد وأمر بجعل صور الشياطين على أبواب النصارى واتخذ تنوراً من خشب فيه مسامير من حديد للتعذيب، قبض على وزيره الزيات وعزل عن القضاء محمد بن أبي داود وحجز أمواله، قتل المتوكل ولده محمد وكان معه وزيره الفتح بن خاقان ودفنا معاً ورثاه البحتري بقصيدة غاية في الصدق.

أولاده " محمد - موسى - المعتز - إبراهيم - أحمد - الموفق - إسماعيل " وزراؤه " الزيات - الجرجاني - ابن خاقان " وحجابه " وصيف التركي وقاضيه يحيى بن أكثم.

ك - الخليفة البخيل:

ثم جاء من بعده المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن جعفر قاتل المتوكل أمة رومية تسمى جشيلة، بويع له عام ٢٤٧ هـ مات مسموماً وولايته ستة أشهر، وكان ذا شهامة وإمساك، خلع أخويه المعتز، والمؤيد وكان يسيء للعمال ويبخل بالمال، قال عن نفسه: " عاجلت فعجلت "، ومن أولاده " أربعة ذكور، وزيره أحمد بن الخصيب وحاجبه وصيف، ثم بغا، ثم ابن المرزبان.

ل - الخليفة الصالح:

ثم جاء بعده المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم وأمه مخارق، بويع له عام ٢٤٨ هـ وخلافته حوالي ثلاث سنين ونصف، ورد الخلافة للمعتز؛ لأن الأمور اضطربت عليه فقد كان ليناً ومنقاداً لأتباعه مهملاً لأموره شديد الخوف على نفسه؛ لأنه كان رجلاً صالحاً وقد نفي إلى واسط وقد قتل وحمل رأسه إلى المعتز ٢٥٢ هـ، أولاده ستة ذكور ووزراؤه أحمد بن الخطيب، ثم أحمد بن صالح بن رداد.

م - الخليفة الشاعر والناقد:

ثم جاء بعده المعتز بالله أبو عبد الله واسمه محمد، وقيل: الزبير بن جعفر بن المتوكل بويع له سنة ٢٥٢ هـ بعد خلع المستعين وأخرج أخاه المؤيد من الحبس وخلع عليه، ثم عاد وسجنه لتآمره عليه واختلف في طريقة قتله وفي سنة ٢٥٥ هـ خلع بعد أن لطم على وجهه وكان حكمه ثلاث سنين وسبعة أشهر ومن أولاده عبد الله بن المعتز ومن وزرائه جعفر بن محمد الإسكافي.

ن - سنة من الخلافة:

ثم جاء بعده المهتدي بالله أبو عبد الله محمد بن هارون الواثق أمه رومية اسمها " قرب"، بويع له ٢٥٥ هـ، وكان المعتز أول من بايعه وقتل في ٢٥٦ هـ وله تسع وثلاثون سنة وخلافته أحد عشر شهراً، كان ورعاً كثير العبادة بقي صائماً منذ جلس للخلافة حتى قتل وله خمسة عشر ذكراً.

ص - الخليفة المغلوب على رأيه:

ثم جاء المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن جعفر المتوكل أمه " قينان"، بويع له ٢٥٦ هـ وتوفي ٢٧٩ هـ وله خمسون سنة مسموماً وكانت خلافته ٢٣ سنة، وكان مقبلاً على اللذات مشغولاً عن الرعية مضطرب الأحوال كثير الغزل والتوليه مغلوباً على رأيه ومن أولاده (عبد العزيز وجعفر وإسحق ومحمد) ووزراؤه " عبيد الله بن يحيى بن خاقان – سليمان بن وهب – الحسن بن سهل – صاعد بن مخلد – إسماعيل بن بلبل)، وحجابه موسى بن بغا وقضاته " الحسن بن أبي الشوارب.

ع - الخليفة المنفتح على الحياة:

ثم جاء المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل وأمه ضرار، بويع له ٢٧٩ هـ وتوفي ٢٨٩ هـ قيل: سمه وزيره إسماعيل بن بلبل وخلافته تسع سنين وتسعة أشهر) كان عادلاً ضابطاً ذا تجربة وحنكة أسقط المكوس وبذل المال وحج وغزا وجالس المحدثين وأهل الفضل والدين وتسلم الخلافة وبيت المال ليس فيه دينار فأحسن التدبير وقمع الذعار وأباد الأشرار وأنصف بالمعاملة ورفق بالرعية، وفي أيامه خرج " زكرويه بن مهرويه " داعية القرامطة فقتل منهم الكثير، تزوج المعتضد قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن

طولون، وأولاده " المكتفي – المعتمد – القاهر – هارون – وإحدى عشرة بنتاً، ووزراؤه عبيد الله بن سليمان بن وهب ومن قضاته إسماعيل بن إسحق بن حماد بن يزيد.

ف - الخليفة كثير الحروب:

ثم جاء بعده المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد بالله أمه " خاضع " بويع له ٢٨٩ هـ وتوفي ٢٩٥ هـ وخلافته ست سنين وتسعة أشهر، أمواله جمة وعساكره متوافرة، بنى جامع القصر في بغداد وأنفق أموالاً كثيرة في حرب القرامطة، استرد أنطاكية من الروم، أولاده " المستكفي بالله وثمانية ذكور تولى الخلافة من أولاده " المستكفي – المقتدر – القاهر " وزيره العباس بن حسن.

ص - الخليفة الذي غلب النساء على أمره:

ثم تولى بعده المقتدر بالله جعفر بن المعتضد. أمه " شغب"، بويع له بالخلافة ٢٩٥ هـ وقتل ٣٢٠ هـ وسنه ثمان وثلاثون سنة ومدة خلافته ٢٥ سنة، تولى الخلافة وعمره ثلاث عشرة سنة وقد دبر الخلافة وغلب النساء على أمره والخدم، وكانت جارية أمه ثمل القهرمانية تجلس للمظالم ويحضرها القضاة والوزراء والفقهاء.

وبطل الحج في عهده لدخول سليمان القرمطي صاحب البحرين وأخذه الحجر الأسود وقتل الحجيج ورمى القتلى في زمزم وخلع باب الكعبة وعراها وبقي الحجر الأسود معه ٢٢ سنة، ثم رده الله تعالى على يد أبي محمد بن سنبر بمبلغ ٥٠ ألف دينار يولى وزيراً، ثم يخلعه بالرشا، قتله مؤنس المظفر بالسيف وأخذ برأسه وتركه عارياً فستره رجل من الأكراد بحشيش ودفنه، وفي أيامه ظهر المهدي بالمغرب وخلع المقتدر مرتين، وفي عهده ظهر الحلاج فقطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرق بالنار، وقد كان المقتدر سمحاً جواداً كان يبذل المال على الحرمين والثغور ويجزي القضاة والفقهاء ومن يتولى الحسبة والمظالم، أولاده " الراضي – المتقي – إسحق "، ووزراؤه أبو الحسن بن الفرات – محمد بن عبيد الله بن خاقان. ابن الجراح.

ق - الخليفة الظالم:

ثم جاء القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد وبويع له ٣٢٠ هـ وخلع وسملت عيناه ٣٢٢ هـ وولايته سنة ونصف، كان موصوفاً بالظلم مقدماً على سفك الدماء أهوج محباً لجمع المال قبيح السياسة، صادر أمهات أولاد المقتدر وضرب أم المقتدر وعلقها بحبل.

ر - الخليفة المستبَّد بأمور دولته:

ثم جاء الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر وأمه ظلوم، بويع له ٣٢٢ وتوفي بالاستسقاء ٣٢٩هـ ومدة خلافته أقل من سبع سنوات وعاش ٣٢ عاماً، وكان أولياؤه مستبدين بالأمور وكان أديباً شاعراً، ومن شعره:

كل صفو إلى كدر ... كل أمر إلى حذر

ومصير الشباب فيه ... للموت أو الكبر

أين من كان قبلنا؟ ... درس الشخص والأثر

وقد كان أصحابه ينفردون به بالأمر دونه ولا يقدر أن يغير الأمر البلاد تتقسم ويظهر الفساد حيث استرجع الروم عامة الثغور، وممن أفسد دولته ابن مقلة فقطعت يده وكان ينوح عليها وفي وقت الراضي محمد بن أبي العراف الذي ادعى الربوبية فقتل وصلب. أولاده " أبو جعفر أحمد – أبو الفضل عبد الله".

ش - الخليفة الذي نديمه المصحف:

ثم جاء بعده المتقي بالله أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر وأمه خلوب، بويع له ٣٢٩ هـ وتوفي ٣٥٧ هـ وعمره ستون سنة حدث في عهده غلاء شديد ونادى الناس الجوع، وكان المتقي عابداً كثير الصلاة والصوم ولم يشرب النبيذ وكان يقول: نديمي المصحف لم يغدر بأحد، أشار عليه أصحابه بالخروج إلى الرقة هرباً من البريدي وأعطي العهود للعودة لبغداد، ثم سملت عيناه ٣٣٣ هـ، أولاده أبو منصور ولي عهده.ثم جاء المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله وبويع له ٣٣٣ هـ وكان عمره ٤١ سنة تلقب بإمام الحق قبض عليه معز الدولة بن بويه ٣٣٤ هـ وعمره ست وأربعون وخلافته سنة وأربعة أشهر، ثم صارت الخلافة لابن عمه.

ت - خليفة له الاسم فقط:

ثم جاء المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر بويع له ٣٣٤ هـ وبقي في الخلافة إلى ٣٦٣ هـ وقضى في الخلافة ٢٩ سنة ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم بينما الحاكم الفعلي معز الدولة أحمد بن بويه.

كان المطيع لله كريماً حليماً وصل العلويين والعباسيين في يوم واحد ثلاثين ألف دينار، وكان ينفق على ثلاثة خلفاء خلعوا. وهم (القاهر - المستكفي - المتقي) كذلك الإنفاق على الحجرة النبوية ووضع قنديل ذهب في الكعبة وقد أعيد الحجر الأسود في عهده إلى موضعه في البيت الحرام ٣٣٩ هـ، وفي عهده تحكمت الديلم على الخليفة ومات القائم صاحب المغرب ٣٣١ هـ ومات ابنه المنصور ٣٤١ هـ ودخل جوهر الصقلي مصر من قبل المغرب ٣٥٨ هـ، وخرجت مصر والشام والحجاز والمغرب وصقلية عن بني العباس، ثم عادت بعد ذلك وفي عهده تغلب نقفور على ثغور المسلمين وملك حلب، أولاده " أبو بكر الطائع - عبد العزيز - جعفر".

ث - الخليفة الموحد:

ثم جاء الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن الفضل أمه اسمها عتب، بويع له عام ٣٦٣ هـ وعمره ثمان وأربعون سنة وأقام فيها خليفة حوالي ١٨ سنة انحدر مع سبكتكين للحرب.

ولما ملك عضد الدولة بغداد وهزم الأتراك عنها أصعد الطائع معه إلى تكريت، وفي عهده عاد الشام مع الحرمين إلى الدولة العباسية وخلع الطائع من الخلافة ورمي عن السرير ونهبت دار الخلافة ٣٩٣ هـ.

خ - الخليفة المحتسب:

ثم جاء بعده القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحق بويع له ٣٨١ هـ بلغ من العمر ستين سنة، ولما تولى الخلافة جعل علامته " حسبنا الله ونعم الوكيل " كان حسن الدين والتهجد والورع وكان أيضاً صالحاً ورعاً تقياً حسن الخليقة جميل الطريقة طلق النفس كثير المعروف، وبلغ من العمر حوالي ٨٧ سنة توفي في ٤٢٢ هـ وقد فتحت السند والهند في عهده. أولاده " أبو جعفر عبد الله ولي العهد".

ذ - إصلاح الدين:

ثم جاء بعده القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر وأمه بدر الدجى، بويع له ٤٦٧ هـ وعمره حوالي ٧٥ سنة وخلافته حوالي ٤٥ سنة كان كريماً حليماً حسن السيرة مجتهداً في إصلاح الدين وزال في أيامه حكم العجم ممن تحكم بالخلافة ودعي له بإفريقية وفي أيامه غرقت بغداد بالماء حتى خرج هذا الماء على سريره. ومن شعره:

سـهرنا عـلى سـنة العاشـقين وقلنـا لمـا يكـره الله نعـم
ومـا خيفتـي مـن ظهـور الـورى إذا كـان رب الـورى قـد علـم

ومن شعره أيضاً:

قـالوا الرحيـل فأنـشبت أظفارهـا في خـدها وقـد اعـتلقن خـضابا
واحمـر تحـت بنانهـا فكـأنما غرسـت بـأرض بنفـسج عنابـا

ض - صرامة وشهامة:

ثم جاء بعده المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس محمد بن القائم بأمر الله، توفي والده (ذخيرة الدين) وله أربع عشرة سنة فحفظ الله به دولة بني العباس وبويع له ٤٦٩ هـ، وتوفي ٤٨٧ هـ فكانت خلافته ١٩ سنة وكانت به صرامة وشهامة ولم يكن له أعوان على ذلك تذب عنه، بل كانت له دعوة مجابة قد جربت منه وقد طلب منه جلال الدولة ابن عضد الدولة أن يخرج من بغداد فطلب منه أن يمهله عشرة أيام مات بعدها جلال الدولة في اليوم العاشر ٤٨٥ هـ حيث سمته شمس النهار - القهرمانة في الطعام، وروي للمقتدي من الشعر:

أردت صـفاء العـيش مـع مـن أحبـه فحـاولني عـما أريـد مريـد
ومـا اخـترت بـت الـشمل بعـد اجتماعـه ولكنـه مهـما يريـد أريـد

ومن شعره أيضاً:

أمـا والـذي شـاء غـير مـا بنـا فـأهوى بقـوم في الثريـا إلى الثـرى
وبـدلنا مـن ظلمـة الجـور بعـدما دجـا ليلهـا صـبحاً مـن العـدل مـسفرا

ومن وزرائه فخر الدولة - عميد الدولة - أبو شجاع محمد بن الحسين.

ظ - الخليفة حسن المعاشرة:

ثم جاء المستظهر بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبي عبيد الله المقتدي بالله، بويع لـه ٤٨٧ هـ وتوفي ٥١٢ هـ وله إحدى وأربعون سنة وخلافته ٢٦ سنة، ذكره أبوه على المنابر بولاية العهد وعلى السكة ودبر أمر خلافته عميد الدولة وقهرمانة والدة شمس النهار - وكتم أمر موت

المقتدي بأمر الله ثلاثة أيام. كان ليّن الجانب كريم الأخلاق يحب فعل الخير ويسمح بالمال والإحسان والإقطاعات حسن المعاشرة كثير الميل لخواصه حسن الخلق.

وقد أخذ الإفرنج في أيامه بيت المقدس ٤٩٢ هـ وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس وهزم الأفضل شاهنشاه بعسقلان أقبح هزيمة.

أولاده " أو منصور الفضل المسترشد بالله – أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله"، وزراؤه " ربيب الدولة – أبو المعالي هبة الله".

غ - الخليفة المغدور به:

ثم جاء بعده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله وبويع له ٥١٢ هـ وقتل بخراسان ٥٢٨ هـ فكانت خلافته ١٧ سنة، وقد كان ذا نفس أبية وعزمة قرشية يسمح بالأموال ويخرج بنفسه للقتال وكان أديباً شاعراً ومن شعره:

أقول لشرخ الشباب اصطبر ... فولى ورد قضاء الوطر

فقلت قنعت بهذا المشيب ... وإن زال غيم فهذا مطر

فقال المشيب أيبقى الغبار ... على حجرة ذاب منها الحجر

وقد قامت جماعة من الباطنية بقتل الخليفة بعد أن أرسلهم السلطان سنجر وقد قتلوا جميعاً وحرقت جثثهم بالنار وحمل المسترشد مقتولاً ودفن في المراغة ٥٢٩ هـ في بغداد وكان له من العمر ٤٣ سنة. أولاده أبو جعفر منصور الراشد بالله ووزراؤه عضد الدين أبو شجاع عميد الدولة.

آ - الخليفة راد المظالم:

ثم جاء بعده الراشد بالله أبو جعفر المنصور، بويع له ٥٢٩ هـ فجلس للمظالم ورد على الناس الأملاك المصادرة فصلحت أحوالهم وأعاد عليهم خطوطهم ووثائقهم ودبر أمره، وتولى البيعة له ناصح الدولة وحسن بن الهاروني للخليفة الخروج على السلطان مسعود فخلع الخليفة لكنه جمع عساكره ونزل أربيل وجرد سيفه في بلاد الباطنية فقتل منهم جماعة عظيمة، ولكن الباطنية عادت وقتلته على باب أصبهان بعد أن تظاهروا بخدمته فتزين بلباس الخراسانية، وقيل: قتل مسموماً ومن شعره:

زمـــان قـــد اســـتنَّت فـــصال صروفـــه وذلّـــل آســـاد الكـــرام لـــدى القرعـــى
أكولتـــــه تـــــشكو صروف زمانـــــه ولـــيس لهـــا مـــأوى ولـــيس لهـــا مرعـــى
فيـــا قلـــب لا تأســـف عليـــه فـــربما تـــرى القـــوم في أكنـــاف آفاقـــه صرعـــى

ب - الخليفة المحب للمال:

ثم جاء بعده المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله وبويع لـه ٥٣٠ هـ وتوفي ٥٥٠ هـ وكانت خلافته ٢٥ سنة وصحب الأعيان وعرف الزمان كان محباً للمال وجمعه، قبض على كثير من أهل بطانته جعل قاضياً ابن المرخم يتولى عقوبة عماله ووجوه دولته وأخذ أمواله.

قال فيه أحد الشعراء:

ســـــخمي وابـــــك والطمـــــي قـــــد ولّى ابـــــن المـــــرخم
واه عـــــلى الحكـــــم والقـــــضاء واه عـــــلى كـــــل مـــــسلم
وأرى إلى المقتفـــــي الإمـــــام عـــــن الحـــــق قـــــد عمـــــي

فنكّل المقتفي بالشاعر وعذبه ولما مات السلطان مسعود وقتل أتابك زنكي صفت للخليفة الدنيا، وكان اختياره للوزير ابن هبيرة توقيتاً جيداً لعلمه وحنكته واستخلاصه العراق وجميع أعماله من يد السلجوقية. ومن أولاده يوسف ولي عهده.

ج - شربة مسمومة:

ثم جاء بعده المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله بويع له ٥٥٠ هـ فرد الأموال التي غصبها ابن الرقم من أموال المسلمين إلى أصحابها وسجن قوماً ينسبون للظلم وأسقط مكوساً كانت تأخذ في الطرق وأطلق ضريبة الغنم ببغداد، وقد كان شاعراً ومن شعره:

عيرتنـــي بالـــشيب وهـــو عـــار ليتهـــا عيرتنـــي بـــما هـــو عـــار
إن تكـــن شـــابت الـــذوائب منـــي فالليـــالي تزينهـــا الأقـــمار

توفي ٥٦٦ وهو على أحسن الأحوال على يد مملوكه قايماز برأي طبيبه ابن صفية النصراني بعد أن شفي من مرضين حيث دبر له قايماز شربة مسمومة وأغلق عليه الحمام وكانت خلافته ١١ سنة.

د - خليفة استطاب الناس بيعته:

ثم جاء بعده ابنه الحسن بن يوسف المستنجد بالله، بويع له ٥٦٦ هـ وكانت ولادته ٥٣٦ واستطاب الناس بيعته وهاجر إلى بغداد لحسن سيرته وعدله حيث أطلق المسجونين وفرق الكثير من الأموال وأمر بإسقاط المكوس والضرائب، وخلع على الفقهاء والعلماء والأشراف والغرباء ورد الشريد وأغنى الفقير وأمن الخائف، وأنشد الشاعر الحيص بيص:

أقول وقد تولى الأمر خير ... ولي لم يزل براً رقياً
وفاض الجود والإحسان حتى ... حسبناه حناناً أو أقيا
بلغنا فوق ما كنا نرجّي ... هنيئاً يا بني الدنيا هنيا
سألنا الله يرزقنا إماما ... نسر به فأعطانا نبيا

وفتحت مصر في أيامه وأعمالها على يد الملك المنصور أسد الدين، ثم الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب

هـ - المستضيء بأمر الله:

أقام المستضيء بأمر الله في الخلافة ١٠ سنين وتوفي سنة ٥٧٥ هـ، وأولاده أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ولي العهد وأبو منصور هاشم.

و - الناصر لدين الله:

ثم تولى بعده الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بالله، بويع له ٥٧٥ هـ البيعة العامة وأخذ الأمر حقاً وقوة وفتح البلاد طاعة وعنوة وطبقت دعوته جميع الآفاق وطلعت شمس كلمته باهرة الإشراق.

الباب الأول

الفصل الثاني

الحياة السياسية في العصر العباسي

١ - زمانية العصر العباسي:

يمتد العصر العباسي من عام ١٣٢هـ وينتهي عام ٦٥٦هـ وقد قسمه المؤرخون إلى أربعة عصور، تميز بعضها بالقوة،وتميز البعض الآخر بالضعف بحيث لم يستطع الخلفاء في نهاية الأمر أن يحموا أنفسهم، فكان سقوط بغداد واجتياحها من قبل هولاكو، وانتهاء هذه الخلافة.

٢ - مكانية العصر العباسي:

بسط العباسيون نفوذهم على مساحة شاسعة من الكرة الأرضية، تضم أجزاء من قارة آسيا وقارة إفريقيا، وتشتمل بلاد فارس والجزيرة العربية وبلاد الشام، ووادي النيل، وشمال إفريقيا.

وأقاليم الخلافة العباسية بعضها حار، وبعضها معتدل تضم الساحل والجبل والسهل والصحراء بحيث أضحت متكاملة اقتصادياً.

٣ - المعطى السياسي للخلافة العباسية:

ينتسب العباسيون إلى العباس عم الرسول محمد عليه السلام ذي المكانة العالية، والذي كان يستسقي به عمر بن الخطاب بعد موت الرسول الكريم إذا شحّ المطر، وقد كان هؤلاء العباسيون يؤازرون علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في طلب الخلافة أولاً إلا أنّهم ما لبثوا أن تنبهوا إلى قيادة الصراع.

جنّدوا الأمويين، ووثقوا العلاقة مع أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية إمام الشيعة الكيسانية من خلال محمد بن عبد الله بن العباس والذي تولى الإمامة لهذه الفرقة بعد موت أبي هاشم،

ثم تبع محمداً بن العباس بعد موته أخوه إبراهيم بن عبد الله بن العباس الذي انتصر العباسيون في زمنه على الأمويين بقيادة أبي مسلم الخراساني في معركة الزاب شمال العراق عام ١٣٢هـ - ٧٥٠م.

٤ - حكم العباسيين ومعارضوهم:

بعد انتصار العباسيين على الأمويين، نقلوا مركز الخلافة من دمشق إلى العراق،وبرز منهم خلفاء أقوياء: ((أبو العباس السّفاح - أبو جعفر المنصور - المهدي - الرشيد - المأمون - المعتصم)) وقويتْ شوكة العناصر الفارسية والتركية في أيامهم وبرزت معارضة لهم من العلويين في الداخل ومن البيزنطيين في الخارج، وأخذ العنصر العربي يضمحل، وتُفقد الثقة به كرجل دولة، وكثر الاعتماد على العناصر الأعجمية، ودبّ الضعف في الخلفاء الذين كان منهم (الواثق - المتوكل) ثم ضعف مركز الدولة في بغداد لتنفصل بعض من الإمارات عن الدولة: (الحمدانية في حلب - العقيلية في الموصل - الإمارات العلوية في طبرستان - الطولونية - الأخشيدية - الفاطمية في مصر والشام - البويهية في فارس).

وتنتهي الخلافة العباسية بخلع هولاكو الخليفة العباسي وشنقه عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م. وكانت معركة الزاب الأعلى أحد روافد دجلة الذي ينصب قرب الموصل نهاية العصر الأموي وبداية عصر جديد، فقد تحطم ملك مروان بن محمد عام (١٣٢هـ) وطورد الأمويون في كل مكان، ولم ينج منهم سوى نفر قليل على رأسهم صقر قريش عبد الرحمن الداخل الذي أسس ملكاً جديداً لبني أمية في الأندلس.

وجاء عهد جديد انتقلت فيه عاصمة الخلافة إلى العراق وجعل أبو العباس الهاشمية (مدينة قرب الكوفة) قاعدة انطلاق له حيث أتم تأسيس الدولة وأخضع الثائرين، وفكر في تأسيس عاصمة جديدة كانت محط أنظار المهندسين هي بغداد، وبناها الخليفة أبو جعفر على شكل مستدير قصره في وسطها وقصور الحاشية والوزراء حوله، وقد تميزت هذه الدولة سياسياً بحقبتين:

أولاً - الحقبة الأولى (العراقية).

ثانياً - الحقبة الثانية (المصرية).

أولاً - الحقبة العراقية في بغداد:

امتدت هذه الحقبة من١٣٢هـ - ٦٥٦هـ أي حتى سقوط بغداد بيد التتار وقد قسمها المؤرخون إلى:

آ - فترة القوة والعمل ومدتها ١٠٠عام (١٣٢هـ - ٢٣٢هـ).

ب - فترة استبداد المماليك الأتراك ومدتها ١٠٢عاماً (٢٣٢هـ - ٣٣٤هـ).

ج - فترة استبداد الملوك البويهيين ومدتها ١١٣عاماً (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ).

د - فترة استبداد الملوك السلاجقة وتمتد حوالي ٨٥عاماً.

هـ - فترة استعادة الخلفاء العباسيين بعض نفوذهم السياسي مع غلبة القادة العسكريين وتمتد (١٢٠عاماً).

ثانياً - الحقبة المصرية:

وقد امتدت منذ سقوط بغداد (٦٥٦هـ) حتى عام (٩٢٢هـ) وذلك بسقوط الحكم المملوكي بيد العثمانيين عام / ١٥١٦م/ في معركة مرج دابق حيث بدأت فترة جديدة، وقد بنيت في الحقبة المصرية مدينة القاهرة، وكانت السلطة في هذه الحقبة اسمية للخلفاء وفعلية للمماليك:

آ - المظهر السياسي والإداري في العصر العباسي

بدا المظهر السياسي والإداري عند العباسيين من خلال الدواوين والحجابة والسفارات، والديوان أصلاً كلمة فارسية معناها السجل، وأول من أنشأه الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لتسجيل الجند(ديوان الجند) وتبعه الأمويون الذين أنشؤوا أيضاً ديوان الرسائل والإنشاء وديوان الخاتم والبريد، ثم جاء العباسيون وأضافوا لها ديوان الطراز الخاص بلباس الخليفة وأقاموا ديوان العزيز (المجلس الأعلى للخليفة) وديوان الجهبذة (النظر في مصالح أهل الذمة) وديوان الحجابة.

ومن حيث السفارات العربية في هذا العصر فقد ازداد نشاطها حيث أوصل العباسيون سفاراتهم إلى بلاد الفرنجة (سفارة الرشيد لشارلمان) ويعد من يقوم بذلك بمثابة وزير

الخارجية، وقد عرفت السفارات العربية قواعد اللباقة (البروتوكول) كمراسيم الاستقبال وأوراق الاعتماد وجواز السفر والحصانة الدبلوماسية.

وقد اهتم العباسيون بالجيش والأسلحة الفردية (الدروع - الخوذ - الدبابة - رأس الكبش - البرج المتحرك - سلالم الحصار) ورتبوا الجيوش ووضعوا طرق القتال وشكلوا طلائع الاستطلاع وعرفوا كلمة السر ووضعوا أسطولاً بحرياً للقتال.

ب - المظهر القضائي والتشريعي في العصر العباسي:

تطور القضاء في زمن العباسيين وتجددت سلطات القاضي واختصاصاته في الإقليم واستحدث الرشيد منصب قاضي القضاة بمثابة (وزير العدل) وللقاضي مناصب عدة (النظر في المنازعات المدنية - النظر في الأوقاف - تنصيب الأوصياء - المظالم - الشرطة - بيت المال) وكان لصاحب المظالم سلطة أعلى من سلطة القضاة في ردع الخصوم ومنع التسلط ومن اختصاصه أيضاً مراقبة تعدي الولاة على الرعية، والنظر في أجور العمال فيما يجبونه من مال وتصفح أعمال كتاب الدواوين وأعمال رجال الدولة.

أما الحسبة فقد كانت مهتمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن اختصاص المحتسب المحافظة على الآداب والنظام ومراعاة أحكام الشرع ومراقبة الغش والتدليس والأسواق ومراقبة الأسعار ومخالفة الطرق العامة والأبنية وتعديات الجيران والنظر في أهل الصنائع ومنع أصحاب الدواب من استعمالها فيما لا تطيق.

الباب الأول

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية
في البيئة العباسية

أولاً - العصر العباسي مجتمع طبقات:

نظراً لامتداد العباسيين في فترة القوة واقتدارهم وسيطرتهم على مقاليد الخلافة، توسعت الحياة وتدفقت الأموال وتوافدت إلى العاصمة عناصر أعجمية طبعت الحياة الاجتماعية بمنهاج تفكير جديد حيث اختلطت العادات والأعراف الأعجمية مع الأعراف العربية، وقويت شوكة الحركة الشعوبية واهتمت الدولة بالزراعة وشق الأقنية للري وعززت الصناعة، ومال الناس إلى اللهو وشاع الفراغ فتفننوا في المأكل والملبس والمشرب وراحت أسواق الغناء والرقص وشاع التسري، وانتشرت تجارة الرقيق ومال الناس إلى ممارسة هويات مختلفة كالصيد والشطرنج وسباق الخيل، وزاد الاهتمام بالعلماء والأدباء والشعراء والمغنين والموسيقيين فأصبحت مجالس هؤلاء تعج بها بلاطات الخلفاء والأمراء.

ونظراً لاتساع الدولة العباسية، وكثرة الفتوح وتدفق أموال الخراج والفتح، نشأت مجموعة من الطبقات في العصر العباسي تتمثل في طبقة السادة، وطبقة التجار، وطبقة الموالي، وطبقة العامة، وطبقة الرقيق والجواري.

وتنوعت مذاهب العيش في هذا العصر بسبب اتساع رقعة الدولة، وانتشار العلم والأخذ عن الشعوب الأخرى علومها وعاداتها، فكان مذهب الزهد بزعامة أبي العتاهية، ومذهب الزندقة بزعامة ابن المقفع والمجون بزعامة أبي نواس، والتصوف بزعامة السهروردي.

ثانياً - النزعات المتضاربة:

١ - **النزعة القومية والشعوبية:** واحتدام الصراع بين العرب والفرس فقومية العرب يمثلها الأصمعي والجاحظ وابن قتيبة والمتنبي وأبو فراس.... وغيرهم، أما قومية الشعوبية يمثلها بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو نواس.... وغيرهم.

٢ - **النزعة الإقليمية والإنسانية:** وذلك من خلال تصوير البخلاء من أهل مرو، ومن خلال تأملات أبي العلاء المعري لإنسانية الإنسان وكتابات الجاحظ.

٣ - **الصناعة اللفظية والعمل الذهني:** وقد تمثل ذلك بالاهتمام بالشكل تأثراً بالثقافة الفارسية واعتماد الصنعة الزخرفية في الكلام، ومثل ذلك مسلم بن الوليد، والاهتمام بالمعنى تأثراً بالثقافة اليونانية كما عند أبي تمام، والمعادلة بين الشكل والمعنى كما هو عند ابن المقفع والمتنبي.

الاتباع والابتداع في الشكل والوزن بين قديم وحديث وظهور أوزان جديدة وأشكال جديدة للشعر.

ثالثاً - الحركات الاجتماعية في العصر العباسي

أ - حركة إخوان الصفا.

قامت هذه الحركة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي، وقد كانت عبارة عن جمعية سرية اتخذت من البصرة مقراً لها، وجاءت تسمية هذه الجمعية من العشرة الصافية، والصداقة النقية منهم الأصدقاء الأوفياء توادوا وتحابوا وأقبلوا على العلم وتعاونوا فيه. وهي جماعة سرية باطنية مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية بالعقيدة الإسلامية في خليط متضارب، وبالتالي فهي أول ثمار الحركة الباطنية التي استغلت التصوف الفلسفي ستاراً لنشر رسائلهم وأفكارهم، وكان أول ظهورها في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

وقد ألّفوا ما يقارب الخمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة عملياً وعلمياً، وأفردوا لها فهرساً وسموهما رسائل إخوان الصفا التي تعتبر برنامج العمل السري الذي يستهدف القضاء على الإسلام ودولته لتأسيس دولتهم التي تضم شتى العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية، وكان للمذهب الأفلاطوني الجديد تأثيره البالغ في هذه الرسائل:

١ – بوحدة الوجود على قول أفلاطون.

٢ – وقالوا: إن الإمام إلهي الذات وإنه معصوم بينما لا يرى الإسلام معصوماً سوى الرسول عليه السلام بما عصمه الله تعالى فيه.

٣ – وأيضاً دعوا إلى وحدة الأديان وإلغاء التعصب الديني.

٤ – على أنه لا حاجة للشرائع للخاصة من الناس.

٥ – ودعوا إلى التملص من الفرائض إلا في حق العامة.

٦ – وقالوا: إن العلم له باطن وغير ذلك مما يدل على انحرافهم، وخروجهم على مفهوم الإسلام الأصيل هدماً للمفاهيم الأساسية للإسلام، وهدماً للنبوة وحرباً للإسلام، وطعناً في الصحابة.

ب - ومن أهم أعلام هذه الحركة:

١ – محمد بن شيرا البستي.

٢ – وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني.

٣ – ومحمد بن أحمد النهرجودي.

٤ – والعوضي.

٥ – وزبير بن رفاعة.

ج - رسائل إخوان الصفا:

وصلنا من إخوان الصفا اثنان وخمسون رسالة من أهم مؤلفيها زيد بن رفاعة ومحمد بن نصر المقدسي، وقد جمعت هذه الرسائل شتات العلم وتقسم هذه المسائل من الناحية العلمية إلى أربعة أقسام:

١ – الرسائل التعليمية الرياضية وتبحث في العدد والهندسة والنجوم والموسيقا.

٢ – الرسائل النفسانية العقلية وتبحث في مبادئ الموجودات العقلية والعقل والمعقول والبعث والقيامة.

٣ – الرسائل الجسمانية الطبيعية وتبحث في الحركة والزمان والمكان والعالم والسماء والكون.

٤ – الرسائل الشرعية والدينية وتبحث في الآراء والديانات والطريق إلى الله عز وجل، وقد استوعبت فلسفتهم المذاهب جميعاً، فللإنسان العاقل حسب رأيهم حرية اختيار المذهب والرأي الذي يراه، ولكنهم لا يسيرون في هذا الرأي بلا حدود، بل يذكرون رأي الدهرية التي تقول بقدم العالم وبأنه لا صانع له، وقد دعوا إلى تفهم جديد للدين أي تفسيره بالفلسفة والعلوم الطبيعية، ورسائل إخوان الصفا لا تنتهج في كتابها منهجاً علمياً حيث خلطوا العلم بالسحر والفلك بالتنجيم، ولكنهم كانوا أول من وضع كتاباً بالعربية يحوي بين دفتيه آراء فلسفية في الفيزياء وما وراء الطبيعة وبقية فروع الفلسفة، وهم يعدون من الأوائل الذين فتحوا باب عبثية الفكر على مصراعيه في الإسلام.

٢ - الشعوبية وأثرها في إقصاء العنصر العربي عن قيادة الدولة العباسية:

أ - ماهية الشعوبية:

الشعوبية إحدى حلقات مسلسل المؤامرة والكيد للإسلام وأهله متسترة أحياناً بحب آل البيت والتشيع لهم، وأحياناً بستار الأدب والفنون، وقد انتظمت في طياتها عدة دعوات هدّامة من بينها الباطنية والقرامطة والزنادقة والجهمية. وتهدف في مجموعها إلى إذاعة موجة الإلحاد التي ترمي إلى إنكار الأديان كلها ومن بينها الإسلام.

ب - منهاجها:

وكان منهاج عملها يقوم على أساس:

١ – الزندقة الفكرية.

٢ – والانحلال الاجتماعي.

٣ – ومهاجمة القيم الأخلاقية.

٤ – والسخرية بأصول الدين والنظم الاجتماعية.

٥ – وإثارة الجدل والشك في تحريم الخمر وغيرها من المحرمات.

٦ – الهجوم على الثقافة العربية واللغة والأدب والتاريخ.

٧ – الانتقاص من شأن العرب.

٨ – التشكيك في السواعد التي حملت الإسلام، ومحاولة إسقاطها.

٩ – إسقاط قواعد الفكر الإسلامي.

١٠ – إعلاء الشخصيات غير العربية في التاريخ الإسلامي سواء من الصحابة أو من غيرهم.

١١ – واتخاذ حركة الترجمة والنشر وسيلة لإحياء المجوسية، ونشر كتب المانوية، والمزدكية، والزنادقة.

١٢ – وكذلك إعلاء شأن الفلسفة اليونانية والعقل الإنساني على الروح الرباني مما أوجد في المجتمع الإسلامي طبقة من المترفين والدعاة لإحياء المجوسية.

ج - رد أئمة السلف الصالح عليها:

ودعا ذلك أئمة السلف الصالح مثل الحسن البصري وتلميذه محمد بن سيرين إلى مواجهة هؤلاء بقوة، وظهر خالد وبرنامجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب الإصلاح، وأيضاً سهل بن سلامة الأنصاري كما قامت فرق من الحنابلة للأمر نفسه؛ وكان للمعتزلة كذلك دور كبير في التصدي لفتنة الشعوبية، فألفوا في ذلك الكتب وأقاموا المناظرات معهم، وكانت هذه الفتنة أحد العوامل الرئيسية لنشأة علم الكلام لاستخدام هذا العلم في مواجهة الزنادقة.

د - ومن أبرز دعاة الشعوبية: لقد حمل لواء هذه الدعوة كثيرون في مختلف الميادين ومن أبرزهم:

١ – أبو النواس حيث دعا الناس إلى الخمر وحث الناس عليها مستتراً بالظرف.

٢ – وبشار بن برد حامل لواء نشر الفساد الخلقي وإشاعة الفسوق بالنساء.

٣ – وحماد عجرد.

٤ – وإخوان الصفا، حيث عارضوا الشعوبية الإسلامية بنظام جديد نظموه من خليط من الأفكار القديمة، مما حدا بهم إلى إنكار البعث وفسروا الآخرة وأحوالها تفسيراً باطنياً.

٥ – وابن الراوندي.

٦ – ومحمد بن زكريا الرازي حيث أثاروا الشكوك حول مفهوم الإسلام، وإنكار الوحي.

٧ – وعبيد الله بن ميمون القداح حيث استخدم الباطن كوسيلة لضرب الدين وإنكار المفاهيم الأساسية للإسلام، وذلك من خلال تفسير القرآن الكريم تفسيراً باطنياً فلسفياً.

هـ - ومن أبرز سمات الأدب الشعوبي:

١ – الإباحية ونشر الانحلال في مجال الشعر.

٢ – انحراف الشعراء في أشعارهم إلى التغزل الفاحش والمنادمة والإغراء بالخمر والحسان، وكلها عوامل دخيلة على الأدب الإسلامي، بل هي من مخلفات المجوسية الفارسية بمذاهبها، والمزدكية، والمانوية، وما زال للشعوبية امتداد في الساحة العربية بين مدعي الثقافة من أدباء ومفكرين يعلون من شأنها ومن شأن دعائمها بالإضافة إلى إحياء تراثها.

٣ - الاتجاه الفلسفي:

الفلسفة والتفكير الفلسفي طريقة اجتماعية سلكها الكثير من المفكرين والأدباء والشعراء، وقد بدأ الشعراء العباسيون التأثر بالأفكار الفلسفية من خلال الترجمات البيزنطية للفكر، ومن خلال صراع الأفكار والمذاهب الدينية التي تبنَّت بعض الأفكار الفلسفية، كما هو عند المعتزلة،ومن خلال اطلاع أبي تمام على فلسفات البيزنطيين، ومزاوجته بين الشعر، والفلسفة، وإدخاله قضية الديالكتيك "الجدلية" في شعره، كذلك ما بثّه المتنبي من حكم يونانية في شعره، وما صنعَه المعري في تأملاته في الكون والقدر، والنجوم، والحديث عن العقل والروح،والبعث والنشور، وما صنعه ابن سينا في حديثه عن النفس واتصالها بالبعث.

قال أبو النواس في وصف الخمرة مستعملاً كلمات فلسفية:

رقّت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة وجفا عن شكلها الماء

ويقول أبو تمام:

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا فأنت لا شك فيك السهل والجبل

ويقول المتنبي:

لأتركن وجوه الخيل ساحمةً والحرب أقوم من ساق على قدم

بكل منصلت مازال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

ويقول المعري:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادِ

ويقول ابن سينا في وصف النفس:

هبطت إليك من المحلِّ الأرفع ورقاءُ ذاتُ تعزز وتمنّع

وصلت على كرهٍ إليك وربّما كرهت فراقك وهي ذات توجّع

٤ - اتجاه اللهو والمجون:

وهو اتجاه فشا بين الكثير من الناس نظراً لكثرة تدفق الأموال وانتشار القيان والجواري اللواتي أسهمن في نشر اللهو والمجون ؛ فقد أكب قسمٌ من الشعراء على وصف أماكن الخمرة ومجالسها كمنطقة - الكرخ - في بغداد، ومنطقة

- قطر بّل - ، ومن الشعراء الذين وصفوا الخمرة وأكثروا من الخمر والمجون في شعرهم: أبو نواس ومطيع بن إياس وابن عجرد، والشاعر بشار بن برد، ومسلم بن الوليد وغيرهم....

ويقول بشار بعد أن أصدر الخليفة أمراً بمنعه من وصف الخمر والغزل المخجل:

نهاني الخليفة عن ذكرها وكنت بها سرَّه أكدحُ

فأعرضتُ عن حاجتي عندها وللموتُ من تركها أروحُ

ويقول أبو نواس بعد أن سجنه الأمين لشربه الخمر:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ

ويقول أبو نواس:

تفتـــــير عينيـــــكَ دليـــــلٌ عـــــلى أنـــــك تـــــشكو ســـــهر البارحـــــة
عليـــــكَ وجـــــهٌ ســـــيئ حالـــــه مـــــن ليلـــــةٍ بـــــتَّ بهـــــا صـــــالحة

٥ - ظاهرة الزهد:

وقد جاءت هذه الظاهرة رداً على اللهو والمجون ووصف الخمرة، وفي الوقت الذي كانت فيه حانات بغداد مملوءة بأصحاب الخمرة، كانت مساجد بغداد مملوءة بالعباد والنساك والعابدين، وقد عرف العباسيون لونين من الزهد.

أ - زهد إسلامي مستقى من القرآن الكريم والسنة الشريفة معتمدة على قوله تعالى: ((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك)). وكذلك من قوله عليه السلام: ((من بات آمناً في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها)).

ب - زهدٌ مانوي نسبة إلى زعيم فارسي اسمه ((ماني)).

وهذا الزهد مرتبط بالديانة الزردشتية والبوذية والنصرانية، وقد كان من زعماء هذا اللون: صالح بن عبد القدوس ؛ أما الديانة الزردشتية فتؤمن بعقيدتي النور والظلمة، وإباحة زواج الآباء من بناتهم وأخواتهم ؛ أما البوذية فتؤمن بقضية تناسخ الأرواح، وتحريم ذبح الحيوان والطيور، وأما النصرانية فتؤمن بالنسك والزهد، وليست الرهبانية إلا جزءاً من ذلك. ويعد المعري من الذين دعوا لاعتزال الدنيا:

أغنـــى الأنـــام تقـــيٌّ في ذرا جبـــلٍ يـــرضى القليـــل ويـــأبى الـــوشي والتاجـــا
وأفقـــر النـــاس في دنيـــاهم ملـــكٌ يـــضحى إلى اللجـــب الجـــرار محتاجـــا

ويعتبر عبد الله بن المبارك الذي جمع بين الزهد والجهاد في رسالةٍ إلى الفضيل بن عياض الناسك الذي كان مجاوراً مكة المكرمة ما معناه: (إن العبادة تتجاوز اللبث بالبيت الحرام إلى الجهاد وترك الدنيا) ويخاطب أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عليَّة وكان قد ولي الصدقات بالبصرة أن يتزهد في الدنيا، ولا يجعل الدين له بازياً يصطاد أموال المساكين ولا يحتال للدنيا ولذّاتها بحيلةٍ تذهبُ بالدين، ومن عجب أن الذين أقبلوا على الزهد وسعوا إليه وقالوا فيه

شعرهم هم أنفسهم الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم إثماً ومعصية وانحرافاً، أو على وجه أدق هم بعض أولئك الذين انغمسوا في طلب اللذة المحرمة حتى جرفهم تيارها وغمرهم عبابها وإن منهم أبا نواس، ومسلم بن الوليد، وصالح بن عبد القدوس، وأبا العتاهية الذي قيل: إنه تاب فيما بعد، كما كان هناك أيضا محمود بن الحسن الوراق الذي لم يكن من فريق العصاة، ولذلك فإن شعره في الزهد والحكمة أنقى منهم روحاً وأصفى محتوى وأقرب إلى النفس تقبلاً وأسرع إلى الخاطر تلقياً.

أما أبو نواس فلم يقل ما قال من شعر الزهد إلا بعد أن قعدت به الصحة عن أن يستمر فيما ظل يخوض فيه من وحل وما يرتكبه من إثم ورجس طوال حياته، ومن ثم فإن مرارة الندم قد ألّحت عليه فعدل إلى جانب النسك، ويؤوب أخيراً من رحلة العصيان الطويلة إلى رحاب الله فيؤدي فريضة الحج ويكبر مع المكبرين ويلبي مع الملبين وهو يطوف بالبيت العتيق: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك). وتنساب إلى قلب الشاعر ومضات الإيمان لتصب في وجدانه فيتذوق روحانيتها فيقول:

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك

ويتفكر أبو نواس في مصير كل حي ولكن بعد أن انقضت شهرته فيرعوي ويستجيب إلى نداء عقله، ويلجأ إلى المحسن الرحيم بكل رجائه وبتوسل المعترف بخطئه وضراعة النادم غير اليائس من رحمة الله معبراً عن صدق إسلامه، ومن شعراء الزهد الذين دعوا للاستقامة صالح بن عبد القدوس.

وأشهر شعراء الزهد في تلك الفترة العباسية أبو العتاهية، فهو يدعو إلى ترك الدنيا وتحقيرها حيناً، ويدعو إلى التقى وصالح الأعمال حيناً آخر، ويذكر الموت وملاحقته للخلق ويلح في ذلك إلى الحد الذي يصد الناس فيه عن ترك أية متعة ولو كانت حلالاً، ويقف على القبور ويناجيها حيناً ويسائل ساكنيها آونة أخرى ويقرن بين الدنيا والآخرة أو بالأخرى بين الحياة والموت، ثم النشور والحساب والثواب والعقاب ويرجو الثواب ويخشى العقاب.

٦ - ظاهرة التصوف:

وهي ظاهرة قامت على فلسفة خاصة شهد العباسيون نوعاً منها، ذلك أن التصوف ظاهرة – على حد قول أصحابها – قائمة على إرضاء الخالق وذم التعلق بالدنيا: ((الأموال – الأبناء – النساء)) ولكن هذا التصوف خرج في معظمه عن تعاليم الإسلام بفعل الترجمات اليونانية والهندية واعتمد هذا التصوف على مجموعة من ركائز:

أولها: فكرة المحبة الإلهية.

وثانيها: فكرة إنكار الذات.

وثالثها: الاعتماد على القلب والكشف ونظرية التوحد وحدة الوجود، ووحدة الخالق والمخلوق حيث يمزج الصوفي روحه في روح خالقه – كما يقول الحلاج – كما تمزج الخمرة بالماء الزلال،فإذا مسّ الخالقَ شيءٌ مسًا لعبد فإذا كلاهما في كل حالٍ واحدة، وهذا شذوذ في التفكير؛ لأنه كلام خطير يخرج عن حدود الشرع الإسلامي.

الباب الأول

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية في العصر العباسي

ازدادت أهمية الاقتصاد في هذا العصر عما كانت عليه بسبب اتساع رقعة الدولة.

١ - **الزراعة**: ففي مجال الزراعة نجد ازدهاراً كبيراً حيث كثرت كتب الزراعة والنبات وبرز علماء طوروا الزراعة كابن البيطار وأبي حنيفة الدينوري صاحب كتاب النبات، واستعمل العرب الأسمدة وأدخلوا فن التلقيح فيها وعرفوا تطعيم الأشجار واستخرجوا أصنافاً جديدة، وأدخلوا إلى أوروبا زراعة الأرز وقصب السكر والزيتون والمشمش، واعتنى العباسيون بمشروعات الري وأنشؤوا (ديوان الماء) في خراسان وشقوا الأبنية والترع وبنوا السدود واستخدموا الدولاب والناعورة والشادوف، وأعادوا لسواد العراق خصبه ونماءه، وأهم المحصولات التي زرعوها (الشعير - القمح - الأرز - التمور - السمسم - القطن - قصب السكر - الأزهار - الرياحين - الزيتون - الأشجار المثمرة).

٢ - **الصناعة**: وفي مجال الصناعة فقد تقدمت صناعة الأسلحة وازدهرت صناعة الأثاث والرياش والنسيج بأنواعه (الحرير - القطن - الصوف - الكتان) والبسط والسجاد والخيام والسفن والخزف والزجاج وضرب النقود والأوسمة والفسيفساء والساعات وأدوات الجراحة الطبية والأدوية واستخراج الكحول والصابون والورق والجلود.

٣ - **التجارة**: وفي مجال التجارة فقد اتسعت البلاد وتنوعت منتجاتها وتوحد النقد وارتقت الصناعة مما زاد النشاط التجاري بين الأقطار داخلاً وخارجاً، وأتقن التجار العرب التجارة علماً وعملاً فطافوا الدنيا وكانوا رواد العلم وصار لهم قوافل تجارية بحرية هامة وكبيرة وتعاملوا مع غيرهم بالدراهم الفضية والدنانير والصكوك (الشيكات) والسفنجة (الكمبيالا) وحاربوا الربا، ومن المواد التجارية التي تاجروا فيها (الذهب - القصدير -

الخزف – الأحجار الكريمة – التوابل – الزيوت العطرية – القطن – الكتان – الصوف – الحرير – البسط – خشب الأبنوس – الجلود – الفراء).

ومن أشهر المراكز التجارية (دمشق وحلب بغداد – البصرة – مصر – الأندلس – المغرب العربي – فارس – خراسان – القاهرة – الإسكندرية – طرابلس – القيروان – طليطلة – غرناطة – بخارى – سمرقند).

الباب الأول

الفصل الخامس

الحياة الفكرية في العصر العباسي

أ - المظهر الفكري عند العرب في العصر العباسي

عرف العصر العباسي تطوراً فكرياً متميزاً تمثل في اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى كالفرس والهنود واليونان وتطورت حركة التعريب والترجمة ونقل ما لدى الشعوب الأخرى من أعمال فكرية وأدبية وفلسفية ودينية ؛ فقد اهتم أبو جعفر المنصور بالحركة الفكرية، فاستقدم العلماء إلى عاصمته، وأرسل في طلب الكتب العلمية ونقل الطبيب ابن البطريق بعض الكتب ورعى هارون الرشيد (بيت الحكمة) في بغداد وحلب إليها الكتب الكثيرة.

ب - بلغت الحركة الفكرية أوجَها:

بلغت الحركة الفكرية في عهد المأمون أوجَها، وحشد لها علماء أجلاء وكان يكافئ المعربين على عملهم بمثل وزن الكتب المعربة ذهباً، وأرسل موفديه في طلب الكتب اليونانية واتصل بالإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث لتسهيل مهمة موفديه وشهد العصر العباسي ازدهاراً كبيراً في إنشاء المكتبات العامة والخاصة الملحقة بالمدارس والمساجد، وقد ضخّت هذه المكتبات نفائس الكتب العلمية والأدبية والدينية، وفي المجال الأدبي فقد ظهر عباقرة الشعراء والنثر العربي وفي علوم التاريخ والجغرافية والفلسفة، ومن أشهر الفلاسفة (الكندي - الفارابي).

أما في علوم الطب فقد ازدهر بفضل مركز (جند نيسابور) وبعض الأطباء السريان وبفضل حركة التعريب والترجمة وشجع العباسيون دراسة الطب وفتحوا المستشفيات وألحقوا بها الصيدليات وتطور الطب في هذا العصر من خلال التخصص والتشخيص

والعلاج الوقائي والاهتمام بالطب النفسي والعصبي والأمراض السارية والتشريح والجراحة، كما واخترعوا الأدوات الجراحية المتنوعة واستعملوا المخدر في العمليات الجراحية واكتشفوا الدورة الدموية الصغرى والكبرى، ومن أشهر الأطباء (ابن النفيس – ابن سينا). ومن أشهر الكتب الطبية (الأرجوزة في الطب) (كتاب القانون).

وكذلك أدى التبدل السياسي في الحكم، والاعتماد على العناصر غير العربية إلى التطلع إلى حياة أكثر جدة وأعمق فكراً، خاصة وأن الخلفاء شجعوا أصحاب الثقافة على النقل والترجمة عن الهندية، والفارسية، والسريانية، كما أنه نقلت العلوم من مكانها ونقلت الآداب والفنون وطرق الجيش.

الباب الأول

الفصل السادس

الحياة الدينية في العصر العباسي

تجذَّر الإسلام في حياة الناس وأصبح القرآن الكريم المصدر الثرَّ للأحكام الحياتية والدينية، وإن حاول الكثير من الأدباء والشعراء والمفكرين من غير العرب حرف مسيرته بإدخال الأفكار المانوية والأفلوطنية في تعاليم الدين الإسلامي وبرزت تيارات متعددة على رأسها الفكر الاعتزالي، وقد كان الفكر الاعتزالي من أهم التيارات الجارفة في العصر العباسي حتى إن المأمون اعتنق هذا المذهب رسمياً وشايعه على ذلك المعتصم والواثق، وتفرعت المعتزلة إلى فرق أهمها (البشرية) نسبة إلى بشر بن المعتمر الهلالي، و(الثمامية) نسبة إلى ثمامة بن أشرس، والهذلية نسبة إلى أبي الهذيل العلاّف و(النظاميّة) نسبة إلى أبي إسحق النظّام، و(الجاحظية) نسبة إلى أبي عثمان عمرو الجاحظ.

وكانت البصرة المرتع الخصيب للاتجاه الاعتزالي والتي كانت قد احتضنت الجاحظ فكراً وأدباً وشخصيته إذ أنها مركز حساس يصل إيران بالعراق والجزيرة العربية بالشام أيضاً، وبقي الفكر السني على مسيرته التي خطها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

الباب الأول

الفصل السابع

الحياة الأدبية

في العصر العباسي

أ - مقدمة:

قامت خلافة بني العباس على أنقاض الدولة الأموية إثر اشتعال الثورة العباسية واستوى الأمر للعباسيين واستقرت دعائم الدولة إلى حد بعيد فنتج عن هذا الاستقرار نشاط هائل في جميع نواحي الحياة ولاسيما الناحية الأدبية والفكرية ونبغ كثير من الأدباء والعلماء وزاد من نشاط حركة التأليف تمازج الحضارة العربية بالحضارات الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية عن طريق الترجمات الواسعة، عنها ونخص بالذكر الترجمة عن اللغة الفارسية لتمازج العنصرين العربي والفارسي وطغيان العنصر الآخر على جسم الدولة العباسية ولقد أغنى هؤلاء وأولئك الأدباء المكتبة العربية وقدموا للتراث العربي أدباً رفيعاً لم تستطع أن تبيده جحافل الطغيان المغولي.

وقد حاول الخلفاء العباسيون بناء دولتهم على غرار بناء الدولة الفارسية فاهتموا بالأدباء والشعراء لما لهم من أثر كبير في بناء الدولة وتقدم سيرها وفتحوا أمام أرباب العقول والمذاهب ورجال الفكر حرياتٍ واسعة، وكثر الباحثون والدارسون وأئمة المذاهب الدينية وتم تدوين الحديث وتسجيل اللغة والشعر، وكثر المترجمون عن اليونانية والسريانية، ونشأت فلسفات حياتية ودينية وزهدية انطلقت من مزج الدين بالفلسفة أحياناً، وتسلح العلماءوالأدباء بالجدل والمنطق، وتميزت الحياة الأدبية بالغنى والتنوع والاتساع وغلبت عليه الحرية والتكامل شعراً ونثراً وأصبح لأدب العباسيين خصائص متميزة.

ب - خصائص أدب البيئة العباسية:

ومن خصائص أدب البيئة العباسية:

أن الأدب العباسي صورة حقيقية عن البيئة العباسية، وقد امتاز هذا الأدب بمجموعة من الخصائص تمثلت في:

١ – العلمية.

٢ – والسماح بحرية الفكر: وقد مثل ذلك المعتزلة وإخوان الصفا.

٣ – الواقعية والاجتماعية: وذلك من خلال ما صوره لنا ابن المقفع والجاحظ في كتابيهما (الأدب الكبير والأدب الصغير – البخلاء). وكذلك الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي.

٤ – التجديد والمحافظة: وذلك بانقسام الأدباء إلى قسمين، قسم مقلد يحافظ على السلوك الأدبي الموروث (كالأصمعي – البحتري – أبي فراس) وقسم يمثل التجديد: (كابن المقفع – الجاحظ – أبي نواس – أبي تمام).

٥ – الالتزام السياسي والمذهبي والمعاناة الفردية: وقد تمثل ذلك في صراع العباسيين مع العلويين، وانقسام الشعراء إلى موالٍ للعباسيين كمروان بن أبي حفصة والبحتري، وموالٍ للعلويين كدعبل الخزاعي وابن الرومي والسيد الحميري. وكذلك

٦ – وكذلك وجود صراعات سياسية قومية عبّر عنها المتنبي وأبو فراس.

٧ – الحسية والغنائية: وقد تمثلت بتصوير الشعراء للمحسوسات والمرئيات كالغزل الحسي عند بشار، وتصوير ابن الرومي للخبّاز وصاحب الزلابيا والحمال الأعمى، وتمثل الاندفاع نحو الغنائية باستلهام الوجدان الفردي، والعروبي.

الباب الثاني

التغيرات التي طرأت
على الأدب العباسي

الباب الثاني

الفصل الأول

التغيرات الجمالية الفنية في الأدب في العصر العباسي

أ - تغيرات جديدة:

شهد العصر العباسي تغيرات فنية في الأدب مستفيدة من التجارب الفنية في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، وقد حدث التغيير الفني في نطاق التطور الذي يأخذ بعض الوقت مهما كانت سرعته، لقد حدثت النقلة السياسة من الأموية إلى العباسية فجائية، وأما النقلة الفنية في ميدان الشعر والحضارة فقد اتخذت عدة مراحل. والنتاج الأدبي الذي يحتاج إلى فترة تحول، ثم نضوج، ثم تألق، ومن ثم فقد تخبو الجذوة السياسية وتتألق الجذوة الأدبية والفنية:

١ - إن ابن الرومي وابن المعتز وأضرابهما ظهروا في بداية فترة الانهيار السياسي للدولة العباسية.

٢ - والمتنبي ظهر مع سقوط بغداد تحت سنابك خيل الديلم وعاش في عهد تمزق الدولة العباسية شر ممزق وأخذ يتنقل من إمارة الحمدانيين في حلب، إلى إمارة الإخشيديين في مصر، إلى إمارات الديلميين من بني بويه في العراق، والعراق العجمي.

٣ - وكذلك كان أبو العلاء المعري.

وليس معنى سقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس أن يتحول شعر الشعراء بين يوم وليلة إلى لون آخر وفن آخر يسمى اللون العباسي، فإن للسياسة أن تغير نفسها في أي وقت تشاء، وأما الشعر فهو كالكائن الحي الذي لا ينتقل من مرحلة الطفولة إلى دور الشباب مرة واحدة، بل يأخذ مراحل متتابعة متدرجة.

ب - خضرمة من نوع آخر:

فالأدب شعره ونثره تتقدم به الأيام:

١ – بعضه ناظراً إلى الماضي مستمسكاً بعاداته وتقاليده.

٢ – والبعض الآخر يأخذ من بيئات الماضي بعض سماتها ويأخذ من البيئة الحاضرة قدراً قد يكون مساوياً لما أخذه من بيئته الماضية.

٣ – وبعض ثالث يكون تأثره بالبيئة الجديدة أكثر من سابقته، فيطور نفسه معها، ولكن بحكم سنة الطبيعة تظل أعماقه مرتبطة ببيئته القديمة يحنُّ إليها وتهفو نفسه إلى آثارها.

و يكون شعر مخضرمي الدولتين قد سار على مراحل ثلاث:

١ – مرحلة المحافظين المتمسكين بالأرضية الفنية الأموية.

٢ – مرحلة تقف بجسمها على ((الأموية)) وتطل برأسها على ((العباسية)).

٣ – ومرحلة تقف بنصفها على ((الأموية)) وتضع نصفها الآخر في العباسية.

١ - مرحلة نقاء الأسلوب وإشراقه وجزالة القول وفحولته، ويمثله:

أ – الأحيمر السعدي الذي عاش أكثر حياته في الصحراء وفي الخلوات قاطع طريق، إذا ما خلا لنفسه رّجعت الصحراء أصداء شعره، وردّدت الفيافي رجع قصيده، وتلقى الوحش من وديع ومفترس عربون صداقته له في قوله:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطير

ب – والسائب بن فروخ الذي اشتهر باسم أبي العباس الأعمى، وكان ذا ولاء فريد لبني أمية مدحهم في أيام ملكهم وبكاهم بعد اندثار دولتهم، وهجا أعداءهم من بني الزبير وإن لم يجرؤ على هجاء بني العباس، كما عرض لبعض كبار شعراء زمانه هاجياً مثل البعيث المجاشعي وعمر بن أبي ربيعة، وأبو العباس في أسلوبه ومعانيه من الفحولة والصفاء والبعد عن أسلوب الحضر بحيث يعتقد أنه أصر على أن يظل مقيماً في العصر الأموي رغم مجيء عصر آخر هو عصر بني العباس، يتنفس أنسامهم ويعيش في ذكرياتهم ويترحَّم على أيامهم، وهو بذلك يصرُّ على ((الأموية)) إصراراً عنيداً لم تنفع معه محاولات الملك العباسي أبي جعفر المنصور.

ج – الشاعر الراجز ابن ميادة الذي كانت المحافظة طابعاً له وميزة ظاهرة فيه، لقد التزم ((الأموية)) التزاماً كاملاً، وأحيا تقاليدها وحافظ على معالم تراثها بخبرة وشره، فمن ناحية أخيرة التزم العفة في الغزل الذي برع فيه براعة سابقيه من زعماء مدرسته، والتزم الأصالة في المديح مقتفياً آثار سابقيه من الشعراء الفحول أسلوباً ودرباً، بحيث يمكن أن نلحقه في كل من فني الغزل والمديح بمدرسة جرير ونعتبره امتداداً لها، وإن إصراراً ما على الهجاء والنقائض يمكن ملاحظته في يسر عند ابن ميادة، وكأنما قد شق عليه أن تموت ظاهرة فنية شعرية ((أموية)) حتى ولو كانت هذه الظاهرة جديرة بالزوال.

د – محمد بن ذؤيب المعروف باسم العماني الذي مدح الأمويين والعباسيين على حد سواء ابتداء من مروان بن محمد المرواني حتى الرشيد العباسي، وكان يجمع بين قول الرجز والقصيدة، إلا أنه كان بدوي الطبع في كليهما مع صعوبة وإغراب.

هـ – الحكم الخضري الذي من خلال معاركة مع ابن ميادة ومن خلال النماذج الشعرية التي قالها ويضم إلى مدرسة هذه المرحلة المخضرمة المحافظة التي حافظت على الوجه ((الأموي)) للشعر ورفضت في إصرار الانتقال من جو الفحولة والجزالة والإشراق والنقاء والتزام عمود الشعر إلى مرحلة تالية فيها شيء من التطور أو التجدد.

٢ - مرحلة المحافظة على أصالة الجو الأموي للقصيدة والتطلع للجديد: راضوا أنفسهم على شيء من التطور في غير ما إسراف أو تسرع، وظلوا يلتفتون إلى الماضي بين الحين والحين حتى لا تغيب عنهم صورته، فيفقد شعرهم سماته التي لا يرضون عنها بديلاً من إشراق ونضرة ونقاء وجزالة والتزام لعمود الشعر، والذين يمثلون هذه المرحلة:

١ – سديف وأبي عدي العبلي، فسديف حمل على بني أمية في أيام ملكهم وكان يؤلب الناس عليهم، وحين تقوم الدولة العباسية وتبقي على بعض الأمويين يسارع إلى استخدام شعره في القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، ويقول للسفاح في مواجهتهم:

لا يغرنّك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داءً دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

وسديف في نطاق عيشه فنياً في مرحلته يلاحق الأحداث السياسية وينقلب من عباسي الهوى إلى حسني العقيدة، ويدعو لمحمد بن عبد الله بن الحسن، وأما في ميدان الغزل فهو يجمع بين رقة غزل البادية وتأنق غزل الحضارة.

٢ – أبو عدي العبلي الأمير الأموي الذي يكره بني أمية ويشايع بني علي، فيغضب قومه ويرضي بني الحسن ويؤيدهم ويعمل والياً لهم على جنوب الحجاز، وهو على أمويته ينجو من محنة الإبادة التي قام بها السفاح، وهو شاعر متدفق ثرٌّ هطَّال كالغيب، ولكن تطوره كان وئيداً، فهو وإن لم يغيِّر أسلوبه البياني الأموي إلا أنه فتح موضوعاً جديداً هو رثاء الدول، فرثى دولة قومه رثاء جعل محمد بن عبد الله بن الحسن يبكي عليهم رغم ما ألحقوا بأهله من عذاب واضطهاد، والعبلي خير الشعراء من أبناء بني أمية مقدرة على الشعر.

٣ – أبو نخلية الراجز الذي مثل عند العباسيين دور مسكين الدارمي عند الأمويين، فإذا كان مسكين هو الذي أثار في بلاط معاوية أخذ ولاية العهد ليزيد دون بقية رؤوس بني أمية، فإن أبا نخلية هو الذي أثار أخذ ولاية العهد في بلاط المنصور لابنه المهدي، وكان الأمر ثابتاً لعيسى بن موسى، ولكن في حالة مسكين استطاع معاوية أن يحميه، أما أبو نخلية فقد دفع حياته ثمناً لأرجوزته التي دعا فيها إلى تحويل ولاية العهد إلى المهدي.

ولكنَّ شكل التحول الفني عند أبي نخلية ينحصر في تطوير الأرجوزة وتمهيد الطريق أمامها بحيث جعلها تسير على نسق قصيدة المديح خطوة خطوة من وقوف على الطلل ونسيب ورحلة إلى الممدوح مع التخفيف من أعباء الألفاظ الوحشية التي تعتبر لازمة من لوازم الرجز. ومن هنا تكون خطورة الخطوة التي خطاها أبو نخلية إلى الأمام في ميدان يستعصي التحول عن إطاره بحيث فرض نفسه أستاذاً لكبار الشعراء الذين حاولوا قول الرجز في نطاق تمدّنهم مثل الوليد بن يزيد وبشار وأبي نواس.

٤ – أبو حية النميري، نفَسُه في الشعر طيب، وغنائيته صادقة الحب، شفافة الحس، مهتاجة الوجد، وهو رقيق حواشي الشعر رائع الغزل اكتملت له تماماً أسباب رسم الصورة الشعرية وهو أبرع من وصف حديث المرأة، ومن أبرع من وصفوا الشيب.

٥ – مروان بن أبي حفصة، فهو نجدي من اليمامة واشتهر بمدح معن بن زائدة الشيباني ورثائه، وحاول أن يمدح الملوك العباسيين فلم يوسعوا له صدرهم ولم يفسحوا له في بلاطهم أول الأمر لإفراطه في مدح معن، ثم إفراطه في البكاء عليه، حتى ظنوا أنه لم يعد في كنانته من جديد القول ما يتلاءم مع مكانتهم التي هي بطبيعته الحال أرفع من مكانة عاملهم معن بن زائدة، فكان على مروان أن يطوِّر نفسه.

ولعله حاول ذلك في نطاق المعاني الجديدة فلم يستطع، فحاول في نطاق الموضوع فأفلح معهم؛ لأنه طرق بابهم من ناحية ((أحقيتهم)) بالخلافة والملك، وفي الوقت نفسه عمد إلى غمز آل علي والتطاول عليهم، فكان أن أصبح أقرب شاعر إلى قلوب بني العباس وأكثر الشعراء نوالاً من عطائهم، وأما من ناحية الأسلوب فقد لزم مروان طريقاً وسطاً بعيداً عن الصحراوية في جزالة، قريباً إلى الحضرية في غير ما تهافت عليها.

٣ - مرحلة التطور والخلق والإبداع:

ظل أصحاب هذه المرحلة في إطار التقليدية، ويمثل هذه المرحلة:

١ – آدم بن عبد العزيز.

٢ – والحسن بن مطير.

٣ – وإبراهيم بن هرمة.

٤ – وبشار بن برد.

وهم رؤوس التجديد الحقيقي في الشعر العربي كانوا دائماً يتمسكون بشخصيتهم الفنية ((الأموية)) على الرغم من انطلاقاتهم التجديدية أو الإبداعية.

أ – فهم إذا مدحوا – والمديح خلال العصور الأموية والعباسية هو محك مقدرة الشاعر – كانوا يلتزمون السمة الأموية.

ب – وكذلك الحال في الرثاء.

حتى إن فناناً كإسحق الموصلي كان يفضِّل مروان بن أبي حفصة على بشار ومروان محافظ كل المحافظة وبشار منطلق في بعض شعره كل الانطلاق، ولكن مهما نظر شعراء هذه المرحلة

إلى الخلف فإن كل واحد منهم قد خَطا في ميدان التجديد والخلق والإبداع بقدر ما، وإن اختلف من حيث الشكل أو تباين من حيث الموضوع.

١ – فآدم بن عبد العزيز يقف على إيوان كسرى ويرثي مجد حضارة زائلة، وهو في هذا يمثل الحلقة الثالثة لترتيب المراحل المتتابعة الثلاث لشعر المخضرمين وشعرائهم.

٢ – إن أبا العباس الأعمى من شعراء المرحلة الأولى يبكي ذهاب بني أمية ولا يتنكر لهم حتى في مواجهة الملك العباسي المنصور.

٣ – ثم يجيء أبو عدي العبلي ويمثل الحلقة الثانية بقصيدتين إحداهما همزية والأخرى سينية يرثي بهما بني أمية ودولتهم رثاء يؤثر على واحد من أعدائهم هو محمد بن عبدالله بن الحسن فيبكيه، ويثير واحداً آخر من أعدائهم هو أبو جعفر المنصور فيطرده من مجلسه، ثم تجيء الحلقة الثالثة التي تشكِّل فناً جديداً وإن يكن مبتدئاً وهو رثاء الأمم، ويكون صاحب أبيات الرثاء – وهو شيء لا يدعو إلى الغرابة – آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، ومن بعد آدم تكتمل لهذا الموضوع الجديد أسباب ثباته حين يجيء البحتري بعد ذلك مما يناهز قرناً من الزمان ليقول سينيته المشهورة في إيوان كسرى. وبعد ذلك يصبح بكاء الدول فناً أصيلاً في الشعر العربي عند شعراء الأندلس.

و الشعراء الثلاثة أبو العباس الأعمى وأبو عدي العبلي وآدم بن عبد العزيز لم يعيشوا في أزمان متعاقبة، لقد عاشوا جميعاً في وقت واحد، ولكن كان كل واحد منهم يمثل مرحلة من مراحل الكيفية الفنية للشعر، هذا محافظ، وذاك متطور، ولكن جذور المحافظة تشده إليها بعنف، والثالث متطور، ولكن إغراء التجديد خطوته إلى الأمام تغلب نظراته إلى الماضي.

ولا يقف الأمر بآدم بن عبد العزيز عند حد معين من التجديد والإبداع، وإنما يعمد إلى قول شعر صوفي رقيق يدهشنا لما بينه وبين أبيات رابعة العدوية من شبه، بل مشاركة في الألفاظ والمعاني والبحر والروي إلى حد المطابقة، ومع هذا الشعر الصوفي يقدم لنا آدم نماذج من الشعر الفكه الساخر – يشاركه في ذلك معاصرة أبو دلامة صاحب النوادر الطلية الذي يمكن أن يعتبر القالب الذي احتذاه ابن الرومي بعد ذلك بحوالي قرن من الزمان.

٤ – ومن شعراء هذه المرحلة الثالثة الحسين بن مطير الفحل الصوغ الخصب الشاعرية الرائع الموسيقي البارع تخليق المعاني، الذي أعاد العذرية إلى الغزل فبدأنا من خلال نماذجه الشعرية نرى لوناً جديداً في الإلحاح على المذهب الأخلاقي والحرص على إظهار معاني العفة في الحب، كما بعث شعر الحكمة من جديد بعثاً قوياً وراسخاً، هذا ما كان منه في ميدان التجديد، وأما في ميدان الخلق والإبداع فهو من أوائل من وصفوا الروض وأحسنوا الهجوم على المعاني المبتكرة والأساليب الرائقة وجاؤوا باستعارات جديدة وتشبيهات محبوكة وفنون بديعية من تشطير وطباق ومقابلة.

ويجيء على رأس هؤلاء جميعاً في المرحلة الثالثة شاعران مجيدان في نطاق الفحولة والشموخ من حيث ثبات الأقدام على الأرض الأموية زماناً وفناً، مبدعان كل الإبداع في نطاق الانتقال بالصورة الشعرية إلى مرحلة فيها جدة فنية ورقة موضوعية، إن هذين الشاعرين هما إبراهيم بن هرمة وبشار بن برد اللذان يمثلان المعبر الحقيقي العريض الذي عبر عليه الشعر من عصر إلى عصر ومن صورة إلى صورة، وهو معبر يثري من يمر عليه ويرفد من يعبره بما نما على جنباته من ورود وأزاهير وضعت في أناقة وصفت في افتنان ونسقت في ذوق وحسن ابتكار، تلك الأزاهير هي الصور الجديدة في الشعر التي جاء بها كل من ابن هرمة وبشار موضوعاً وأسلوباً.

إن أبا عمرو الجاحظ وهو ليس بعيد العهد عن القافلة الضخمة من شعراء تلك الفترة يقول: (لم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة).

إن لكل من الشاعرين الكبيرين صفات وسمات بعضها مشترك بينهما وبعضها الآخر مختلف متباين، فهما:

أ – في نطاق المديح كانا يقفان على الأرض الأموية من حيث بناء القصيدة.

ب – ولكنهما من حيث المعاني أتيا بكل عجيب.

ج – لقد ابتدعا ضروب القول وتوليد المعاني التي سار على نهجها جمهرة الشعراء العباسيين بعدهم.

د – وفي مجال الهجاء كان ابن هرمة يوجع ولا يفحش، ويؤلم ولا يتدنى إلى الهاوية الكريهة التي كان يتردى فيها بشار.

هـ – ولذلك فقد نجد متعة في قراءة هجاء ابن هرمة، ولكننا نتقزز ونحن نقرأ هجاء بشار اللهم إلا بعض القصائد القليلة التي ضغط فيها على نفسه وراضها على تجنب ذكر العورات وفاحشات الألفاظ وجارحات المعاني.

و – ومن الناحية السياسية كان ابن هرمة فاطمي الهوى وأما بشار فكان أموي المشرب.

ز – وكلاهما مدح العباسيين لنيل العطاء، على أن مدائح ابن هرمة في العباسيين أجود من مدائح بشار.

ح – ولقد اصطنع كل من الشاعرين الحكمة فجاءت عذبة رخاء، واستقرت أبياتهما في أسماع الناس وقلوبهم ينشدونها ويتمثلونها حين تدعو الحاجة إلى حسن التمثيل، وإن كانت ثروة الحكمة من أقوال بشار أكثر عدداً، ربما لأن نصف ديوان بشار بين أيدينا، وأما ديوان ابن هرمة الذي قيل: إن الصولي قد جمعه فمفقود، وكل شعره الذي بين أيدينا هو ما وقعت عليه عيوننا في بعض كتب الأدب والطبقات.

ط – وأسهم كل من الشاعرين بنصيب وافر في قول الغزل:

١ – غير أن غزل ابن هرمة غنائي وجداني رفيع في مجمله.

٢ – وأما بشار فقد جمع في غزله بين العذب الفاتن الرفيع والغث الساقط الرقيع،وهو نفسه يعترف بذلك حينما اعترض بعض المتأدبين ولا حظوا تأرجحه بين الجيد الممتاز والرديء الساقط، فقال مدافعاً عن نفسه: إنما الشاعر المطبوع كالبحر، مرة يرمي صدفة ومرة يقذف جيفة. إن شاعراً مخضرماً آخر من شعراء المرحلة الأولى من المخضرمين أجاب نفس الإجابة عندما ووجه بنفس الاعتراض، إنه ابن ميادة حين دافع عن تباين وجه شعره قوة وضعفاً، قال:إنما الشعر كنبل في خفيرك ترمي به الغرض، فطالع وواقع، وعاصد وقاصد فالدفاع واحد عند الشاعرين، وإن اختلفت لغة كل منهما اختلاف ما بين البصرة بلدة بشار والمدينة بلدة ابن ميادة.

ي – كلا الشاعرين – بشار وابن هرمة – مزج رقة البداوة وصفاءها ببهجة الحضارة وطراوتها، فجاء شعرهما في هذا الدرب الذي اختطاه لنفسيهما على سمات من الملاحة استهوت القلوب إليه وحببته إلى الأسماع، فوعته القلوب وردّدته الألسنة، ك – شعر بشار في هذا الدرب أكثر رواجا من شعر ابن هرمة الذي لم يفرق نفسه في دنيا الحضر إغراق بشار نفسه فيها، ومن ثم أيضاً كان بمنأى عن السقطات التي تردى فيها بشار وبخاصة الأقوال التي جنحت به إلى الزندقة.

ك – ولكن بشاراً من ناحية أخرى قد اختطفت منه بريق الشهرة، ولذلك قال عنه الحصري: إنه أرق المحدثين ديباجة كلام، وسمي أبا المحدثين؛ لأنه:

١ – فتق لهم أكمام المعاني.

٢ – ونهج لهم سبيل البديع فاتبعوه.

م – كلمة ((البديع)) تكررت عند كل من الجاحظ والحصري:

١ – فإذا كانت كلمة البديع هنا بمعناها اللغوي وهو ((الجديد)) فقد يكون الأمر صحيحاً بالنسبة إلى بشار.

٢ – وأما إذا كانت بمعناها الفني أي الصفة البديعية فإن ابن هرمة أقرب إلى هذا الفن من بشار، بل لقد عمد إليه عمداً من لعب بالألفاظ وإكثار من الجناس والطباق، وذهب به الولوع بالتلاعب بالكلمات إلى الحد الذي جعله ينشئ قصيدة من أربعين بيتاً كل حروف ألفاظها مهملة.

ل – إن الناقد المنصف لا يستطيع أن يصدر حكماً مجملاً على أي الشاعرين كان أقرب إلى التطور والتجديد، طالما كان ديوان ابن هرمة مفقوداً، ولكنه يستطيع أن يضعهما سوياً على رأس مدرسة هزت الشعر العربي هزة صحية عنيفة دفعت به إلى كثير من المسالك والدروب فكثرت دوحاته وظلاله وتنوعت رياضه وثماره.

الباب الثاني

الفصل الثاني

التلاقح في الشعر في العصر العباسي

ازداد التلاقح الشعري في العصر العباسي عمقاً وتنوعاً وغنى واتساعاً باتساع الحياة العباسية والمساحة الجغرافية لهذه الخلافة.

١ – فقد ظهر التلاقح الشعري في العصر العباسي من خلال أشجع السلمي، الذي يمدح الرشيد والبرامكة ويسحر الخليفة بميميته المشهورة وبخاصة البيتان التاليان:

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان: ضوء الصبح والإظلام

فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

ويعيش أشجع عصره، ويحيا حياة شعراء زمانه من خلاعة وشراب وغزل ومجون، فيتقمص شخصيتين شاعرتين، فالشاعر في مواقف الوقار أو التوقر، إذا لم يكن وقوراً بطبعه، يرى نفسه مدفوعاً إلى نسج الديباجة الصافية، والتزام عمود الشعر، واصطناع البحور الطويلة، مع إجادة الوصف والحرص على الإيقاع الموسيقي الجميل، فكان أن ظهرت مدرسة الديباجة والوصف عند البحتري.

و الشاعر نفسه الذي التزم هذه السمات الشعرية يصطنع الفكرة العميقة في شعره لكي ينال التقدير والاحترام من خاصة النقاد والقارئين، وفي الوقت نفسه يعمد إلى الصيغة البيانية والصنعة البديعية.

٢ – وكان هذا التلاقح وذاك الصراع أكثر ظهوراً عند علي بن جبلة المشهور بالعكوك، في اختياره جانب الأوزان القصيرة ينظم فيها قصائد المديح التي جرت العادة إن تصاغ على الأوزان الطويلة الفخمة الجزلة، ومن العجيب أن قصائده في نطاق هذه المغامرة ذاعت وشاعت وسارت في الآفاق – حسب تعبير ابن المعتز – مسير الشمس والريح، وحفظها

الناس، ووعاها الخاصة، وردَّدها الخلفاء، بل غاروا منها، وكثيراً ما طرده العظماء وحالوا بينه وبين أبوابهم مثلما فعل المأمون وعبدالله بن طاهر بن الحسين حينما أبلغاه متسائلين: ما عسى أن يقول فيهما بعدما قال في أبي دلف العجلي:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه إلى حضره

فإذا ولّى أبو دلف ... ولّت الدنيا على أثره

إن المديح في مثل هذا الوزن لم يكن مألوفاً كثيراً - إذا استثنينا قصيدة أبي نواس: أيها المنتاب - ومع ذلك فقد ذاعت القصيدة على هذا النحو الذي ذكرنا، كما انتشرت مثيلات لها آخر نظمت على أوزان أقصر من هذا الوزن.

وفي مجال المديح أيضاً فترة الصراع والتفاعل يأمل الشاعر أن يأتي بصورة جديدة بعد أن ملت الأسماع كل المعاني التي طرقت في هذا السبيل، فيعمد العكوك إلى الإسراف في خلع صفات التمجيد على ممدوحه إلى الحد الذي يجعله لا يتحرج من إلباسه بعض صفات الخالق، فذاع هذا الأسلوب من الإسراف في المديح عند الشعراء المتأخرين، وهذا النوع من المدح لا مكانة له في نفوس الشعراء العرب.

والعكوك أعمى يريد أن يلحق بالمبصرين ويتحداهم، وربما كان خير مجال لهذا التحدي هو مجال الوصف، فيتوفر عليه ويصف فرس أبي دلف وصفاً ربما لم تنعم بمثله فرس من قبل، بل إنه يصف المرأة وأجزاء جسمها، قطعة قطعة، وقسمه قسمة، من أعلى الرأس متدرجاً إلى أسفل حتى يصل إلى مكان الخلاخيل من قدمها، غير متحرج ولا خجل، وهو في ذلك يكثر من التشبيهات التي يتحدى بها المبصرين، ولا يقف به الأمر في الوصف عند الفرس التي تحسس أعضاءها قبل الوصف، ولا عند المرأة التي له بها خبرة من منطلق مجانته وبشريته وجرأته على القول غير العفيف، ولكن الأمر يصل به إلى وصف المعارك الحربية التي خاض غمارها ممدوحوه من القواد، وهذا من تخليط الشعراء الذي أشار القرآن الكريم إلى حسن وصف الشعراء بقوله: (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون).

٣ - ويأتي عوف بن محلم الخزاعي الذي عاش متنقلاً بين رأس العين وبغداد وخراسان، وهو مرافق لطاهر بن الحسين وولده عبدالله من بعده.

وعوف بن ملحم في نطاق التلاقح الشعري يقول شعراً بدوي السمات بسيط الصوغ إذا ما ألح عليه الحنين إلى أهله وهو مغرب بعيد عنهم، فإذا جنح إلى الوصف كان عليه أن يواكب الزمن، فيعمد إلى الاستعارات العذبة والصناعة البديعة التي يتحرى فيها المحسنات اللفظية ورقة الجرس وزنه الإيقاع، وإذا قال في الخمر مجن أشد المجون معنى وتعبيراً، واستعمل أساليب الحضر البغداديين في وصفها والحديث عنها، وإذا ما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة قال أبياتاً اصطنع فيها الحكمة وأخرى ساق من خلالها فخراً يصدق أقله ويكذب أكثره.

لقد كانت فترة التلاقح، مسيطرة على خواطر الشعراء، متحكمة في توجيه ملكاتهم، فكان الشاعر الواحد يأتي بالعديد من النماذج والصور والأفكار والأساليب، الأمر الذي انتهى بالشعر العباسي في أزمنة معاصرة لهؤلاء أو تالية لهم إلى التخصص في ألوان بعينها مثل الفكرة الشعرية أو الديباجة الشعرية أو الصورة الشعرية.

وهناك بعض الشعراء الذين عاشوا في العصر العباسي، ولكن ظلوا على بداوتهم مقيمين بعيداً عن المدينة مثل ناهض بن ثومة الذي كان يعيش في البادية ويأتي إلى البصرة بين الحين والحين فيأخذ بعض الناس عنه اللغة، وله نوادر مضحكة مثل تلك التي تحدث للبسطاء الريفيين في كل زمان. وشعر ناهض بدوي خالص بحيث لا يفترق في شيء عن شعر الجاهليين والإسلاميين وأصحاب النقائض، ولم تكن مرحلة التكامل الشعري مقصورة على الرجال وحدهم، بل اجتذبت المرأة وصهرتها فقالت الشعر في كثير من أغراضه، وإن كانت الغالبة عليه هي الغزل، ولقد كان بين الشاعرات حرائر وقيان، فمن الحرائر عليه بنت المهدي أخت هارون الرشيد والمغني إبراهيم بن المهدي، وكان الأول يطرب لغنائها وعزفها، وكان الثاني يأخذ عنها الألحان، ومن الحرائر أيضاً - ولكن في غير ما تحرر وانفلات - الفارعة بنت طريف الشيبانية وولادة المهزمية.وأما الجواري الشاعرات فمنهن عريب، وفضل الشاعرة الذكية التي ارتبط اسمها بسعيد بن حميد، وعنان الناطفية صاحبة النوادر والأخبار مع أبي نواس ودعبل والعباس والأحنف وغيرهم.

الباب الثاني

الفصل الثالث

شعراء
على الخارطة الإسلامية

أ – لم تجتذب بغداد على ترفها كل الشعراء المجيدين، ولكن وفد إليها شعراء كثر من الإمبراطورية الإسلامية، فمن الجزيرة وفد عليها مروان بن أبي حفصة والحسين بن مطير وإبراهيم بن هرمة.

ب – ومن العراق وفد عليها مسلم بن الوليد وأبو نواس ودعبل الخزاعي وأبو الشيص وسلم بن عمرو المعروف بالخاسر ووالبة بن الحباب والحسين بن الضحاك وأشجع السلمي وغيرهم، وبشار بن برد وأبو دلامة والحمادون الثلاثة: حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الراوية، وصالح بن عبد القدوس وأبو الشمقمق وغيرهم.

ج – ومن الشام والجزيرة وفد أبو تمام والبحتري والعتابي وتلميذه منصور النمري وأبو يعقوب الخريمي وعوف بن ملحم الخزاعي، وكان ربيعة الرقي يستدعي من موطنه الرقة ليمدح أو لتسمع جواري القصر إنشاده ويعود إلى موطنه.

د – ولا نكاد نقع بين الشعراء الكبار من البغداديين إلا على عدد قليل جداً مثل علي بن جبلة ((العكوك))، وعلي بن الجهم، وعلي بن العباس ((ابن الرومي)) وعبد الله بن المعتز.

هـ – ولم تستهو بغداد كل شعراء الزمان، فلقد ظل بالبصرة والكوفة عدد من الشعراء الكبار، ولقد ظل ببلاد الشام عدد آخر من الشعراء آثروا الإقامة في بلدهم لم يبرحوها وفضلوها على بغداد.

و – وقد حجب الشهرة عن كثير من هؤلاء عدم قدومهم لبغداد، وإن عبقرية بعض هؤلاء الشعراء قد فرضت نفسها على بغداد، فسعت بغداد بأبنائها إليهم كما هو الحال بمحمد بن يسير في البصرة، وديك الجن في حمص الذي سعى إليه وشهد له كل من دعبل وأبي نواس

دون أن يهم بترك حمص. بل إن بغداد كانت تفرض نفسها على ربيعة الرقي الأعمى الذي كان يستدعي إلى بغداد فلا يطيق البقاء فيها طويلاً.

ز – وهجر بعض الشعراء الكبار العظام ببغداد كمسلم بن الوليد، وهذا أبو تمام يتركها ويعمل على بريد الموصل فيموت فيها، وهذا علي بن الجهم البغدادي الولد يضيق ببغداد و((بمتوكلها)) فيهجرها إلى خراسان، فيغادرها إلى حلب، ومن حلب يخرج للغزاة فيخرج عليه وعلى جماعته لصوص من بني كلب، فيقتتل الفريقان ويجرح علي جراحاً مميتة قضت عليه، فلما نزعت ثيابه وجدت فيها رقعة وقد كَتب فيها هذين البيتين الجليلين:

وارحمتا للغريب في البلد النازح ... ماذا بنفسه قد صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا

وهذا أبو عبادة البحتري يقول لابنه: هيا بنا يا ولدي.....، ويصطحب ولده ويتجهان إلى مسقط رأسه منبج غير بعيد عن حلب،فلا يقر به المقام فيها طويلاً حتى يلقي منيته.

ح – لم تكن مدينة كل الشعر ولا مقر كل الشعراء. لقد وجد من الشعراء من فضلوا الإقامة في بلادهم على الإقامة في بغداد ففي الكوفة، على سبيل المثال عاش محمد بن عبد الله بن كناسة الأسدي الشاعر المتدين المحدث ذي الشمائل. روى عنه عدد كبير من المحدثين في جملتهم سفيان الثوري ومن عذب شعره قوله:

فيّ انقباض وحشمة فإذا ... صادفت أهل الوفاء والكرم

أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما شئت غير محتشم

ومن شعره حيث رقت حاله بعد يسر قوله:

ضعفت عن الإخوان حتى جفوتهم ... على غير زهد في الإخاء ولا الود

ولكن أيامي تخرمن منتي ... فما أبلغ الحاجات إلا على جهد

ولقد كان ابن كناسة محباً للكوفة مغرماً بالإقامة فيها، وله فيها شعر رقيق:

في محل الخيام في النجف المعرض ... فوق الجنان والأنهار

فـــالرحى فالـــسدير فـــالحيرة البيـــضاء ذات الحـــــــصون والأحبـــــــار

فالمخلبـــــات الفراتيـــــات تهـــــدي لهـــــا الـــــشمال الـــــصحاري

فـــالفرات المغـــير يحنـــي عـــلى الكوفـــة ذات الربـــــــا وذات القـــــــرار

والحق إن لابـن كناسـة شـعراً كثـيراً جميلاً أكثـره في الثنـاء عـلى الكوفـة والنجـف، وفي الموضوعات التي تتصل بالجوانب الإنسانية الرفيعة في حياة الناس.

واتسم شعر أبي فرعون الساسي بالفكاهة وخفة الـروح كوصـف منزلـه وعلامـات الفقـر الكامنة فيه:

لـــــيس إغلاقـــــي لبـــــابي أن لي فيـــه مـــا أخـــشى عـــليه الـــسرقا

إنـــما أغلقـــه كـــي لا يـــرى ســـوء حـــالي مـــن يجـــوب الطرقـــا

منـــزل أوطنـــه الفقـــر فلـــو دخـــل الـــسارق فيـــه سرقـــا

لا تـــراني كاذبـــاً في وصـــفه لـــو تـــراه قلـــت لي: قـــد صـــدقا

ط – و أكثر الشعراء الذين وفـدوا عـلى البـصرة مـن الأربـاض أو البـوادي القريبـة منهـا وفضلوا الإقامة فيها كانوا من الأعراب، وشعرهم يعود بنا إلى أيام نقائض الفحـول، ويمثـل هذا الفريق من الشعراء ناهض بن ثومة.

ي – وهناك شعراء في شعرهم سماحة الصحراء حين ترق، ويسر البداوة حين تصفو، فمن هؤلاء أبو البيداء الرياحي فقد كان بدوياً وأقام بالبصرة أكثر عمره.

ولأبي البيداء شعر ساذج كثير، فلما مات رثاه أبو نواس بمرثية قافية هازلة.

ك – ومن شعراء البصرة الذين فضلوها على بغداد لبداوتهم أبو فرعـون الـساسي التيمـي، وكان يسأل الناس وشعره لطيف، ومنهم أيضاً معبد بن طوق العنـبري وكـان شـاعراً مجيـداً. على أن معبداً رغم بداوته تلك كان متديناً زاهداً في الحياة، وقد اتسم شعره بهذه الظاهرة فمـن ذلك قوله:

تلقـــــى الفتـــــى المنيـــــة هاربـــــا منهـــا وقـــد حـــدقت بـــه لا يـــشعر

نـــصبت حبائلهـــا لـــه مـــن حولـــه فـــإذا أتـــاه يومـــه لا يـــنظر

إن امـــرأً أمـــسى أبـــوه وأمـــه تحـــت الـــتراب لحقـــه يتفكـــر

حـــسناتها محـــسوبة قـــد أحـــصيت والـــسيئات، فـــأي ذلـــك أكثـــر

ل – ومن الشعراء الذين رفضوا الإقامة في بغداد وأقاموا في الشام، ديك الجن والبطين بن أمية البجلي ومحمد بن يزيد الحصني المسلمي الذي يمثل أخلاق البداوة مع عزة أبناء الملوك في شعره وسلوكه.

م – وفي حلب عاش شاعر عباسي المنتمى والنسب هو محمد بن علي بن صالح الذي عرف بالحماحمي، ولقد وصفه أبو هفان الراوية بأنه ليس في بني العباس بعد إبراهيم المهدي والعباس بن الحسن العلوي أشعر منه في الغزل، ومن رقيق غزله قوله:

كـــم موقـــف لي ببـــاب الجـــسر أذكـــره بـــل لـــست أنـــسى، أينـــسى نفـــسه أحـــد

نزهـــت عينـــي في حـــسن الوجـــوه بـــه حتـــى أصـــاب بعينـــي عينـــي الحـــسد

غير أن الحماحمي كان أيضاً هجّاء مفحشاً وشاعراً بذيئاً.

وللبطين بن أمية البجلي وكان من حمص أشعار لطيفة،ومن طريف شعره ما رواه من أنه قدم على علي بن يحيى الأرميني يريد مدحه، فشاء أن يعمد إلى خلق صورة جديدة من المدح فقال:

رأيـــت في النـــوم أني راكـــب فرســـا ولي وصـــيف وفي كفـــي دنـــانير

فقـــال قـــوم لهـــم حـــذق ومعرفـــة رأيـــت خـــيراً، وللأحـــلام تعبـــير

رؤيـــاك فـــسر غـــداً عنـــد الأمـــير تجـــد تعبـــير ذاك وفي الفـــأل التباشـــير

فجئـــت مستبـــشراً مستـــشعراً فَرِحَـــا وعنـــد مثلـــك لي بالفعـــل تيـــسير

ولكن الممدوح كان من ((الظرف بحيث وقع في أسفل كتابي: (أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)، ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في كتابي ورأيته في منامي))وأكثر شعر البطين من هذا القبيل الفكه الخفيف، لقد كان البطين موضع اهتمام كثير من رجال الأدب

والنقد وأصحاب التراجم، وأقام ربيعة الرقي الضرير في الشام في الرقة، وهو صاحب الوصف الطريف لبلدته:

حبذا الرقة داراً أو بلد ... بلد ساكنه ممن تود

ما رأينا بلدة تعدلها ... لا ولا أخبرنا عنها أحد

إنها بريئة بحرية ... سورها بحر وسور في الجدد

يسمع الصلصل في أشجارها ... هدهد البر ومكاء غرد

لم تضمن بلدة ما ضمنت ... من جمال في قريش أو أسد

ن - ولقد كان شعر ربيعة وهو في بلدته يصل إلى أسماع الخلفاء في بغداد، بل أسماع جواريهم، فقد اشتهت جواري المهدي أن يسمعنه، فوجَّه إليه المهدي من أخذه من مسجده بالرقة، وحمل على البريد إلى بغداد، وأدخل إلى المهدي، فسمع حساً من وراء الستر، فقال: إني اسمع حساً يا أمير المؤمنين فقال له: اسكت يا ابن اللخناء، واستنشده ما أراد فضحك وضحكن، ثم شكا إلى المهدي حمله إلى بغداد على هذه الصورة وطلب أن يعاد إلى بلدته الرقة البيضاء قائلاً:

يا أمير المؤمنين ... الله سماك الأمينا

سرقوني من بلادي ... يا أمير المؤمنينا

سرقوني فاقض فيهم ... بجزاء السارقينا

فقال المهدي قد قضيت فيهم يردوك إلى حيث أخذوك، ثم أمر به فحمل على البريد من ساعته إلى الورقة.

قال دعبل لمروان بن أبي حفصة: من أشعركم؟ قال: ربيعة الرَّقِّي الذي يقول:

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم

يقصد يزيد بن أسيد السلمي ويزيد بن حاتم المهلبي. وقصة هذا البيت الذي بنى عليه مروان حكمه على ربيعة من الطرافة بمكان فقد مدح الشاعر كلا من يزيد بن أسيد السلمي -

وهو قريبه - ويزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة فبخل عليه الأول وقصر، وأجزل الثاني له العطاء فقال:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية ... يمين امرئ إلى بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال، والفتى ... أخو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله ... وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب التمتام أني هجوته ... ولكنني فضلت أهل المكارم
فيا أيها الساعي الذي ليس مدركا ... لمسعاته سعي البحور الخضارم
سعيت ولم تدرك نوال ابن حاتم ... لفلك أسير واحتمال العظائم
كفاك بناء المكرمات ابن حاتم ... ونمت، وما الأزدي عنها بنائم
فيا ابن أسيد لا تسام ابن حاتم ... فتقرع، إن ساميته سن نادم
هو البحر، إن كلفت نفسك خوضه ... تهالكت في آذيه المتلاطم

وقد كان يجمع بين الظرف والمرارة كقوله متوجهاً بالمدح إلى يزيد بن حاتم ومعرضاً فيه بيزيد بن أسيد:

يزيد الأزد إن يزيد قومي ... سميك لا يجود كما تجود
تقود كتيبة ويقود أخرى ... فترزق من تقود ومن يقود

وربيعة الرقي على الرغم من أنه مكفوف البصر وأنه يسكن قرية بعيدة في أطراف الشام شرقاً هي الرقة، فقد كان من أقدر شعراء زمانه على القول في المديح والهجاء على حد سواء، وكان إذا مدح فلم يجزل له العطاء أسرف في هجاء ممدوحه، فمن ذلك أنه مدح العباس بن محمد ابن عم الرشيد بقصيدة من عيون شعر المديح قال فيها:

لو قيل للعباس: يا ابن محمد ... قل: لا، وأنت مخلد، ما قالها
ما إن أعد من المكارم خصلة ... إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملـــــوك تـــــسايروا في بـــــلدة كـــــانوا كواكبهـــا وكنـــت هلالهـــا

إن المكـــــارم لم تـــــزل معقولـــــة حتـــى حللـــت براحتيـــك عقالهـــا

ص – وأما ابن يسير فهو صورة للبصرة بكل تناقضاتها، ففي البصرة مجون وخلاعة وشعر وأدب وثقافة وعلم، وحياة اجتماعية نشطة ذات أشكال وألـوان، وفي البـصرة زهـد وحكمـة فيذهب ابن يسير إلى إجادة تصويرها، إنه يصف السكارى، ويصف نفـسه سـكرانَ، ويـصف نفسه ماشياً إلى غاية بعيدة؛ لأن جاره رفض أن يعيره حماراً، ويصف نعليـه مثقـوبين وحـذاءه بالياً، ويبكي كتبه التي أكلتها نعجة جاره ويهجوها ويهجـو صـاحبها، ويبكـي ألواحـه التـي يكتب عليها حين سرقت منه، ويلتذ بمصاحبة الكتب فيـصفها، وينقلـب ابـن يـسير في آخـر حياته زاهداً أو مصطنعاً الزهد ويقول في ذلك شـعراً جمـيلاً، ويقـول في الحكمـة شـعراً رائقـاً عذباً سهل المأخذ حسن الترديد.

ع – وأما ديك الجن فقد كان شعوبياً خليعاً ماجناً، بارع الشعر سعى إليه أبو نواس وأبدى إعجابه بشعره، وكذلك فعل دعبل، وتتلمذ عليه وأخذ عنه أبو تمام.

فقد جمع شعر ديك الجن بين الفحولة والمحافظة من ناحيـة، وبـين التطـور والتجديـد مـن ناحية أخرى، تجديده واضح صارخ لفت أنظار سكان العاصمة.

إن حادث قتله زوجته والبكـاء عليهـا أثـرت في شـعره وأمدتـه بطاقـات مـن العواطـف وشحنات من الأحاسيس. لقد جمع الـشاعر الحمـصي بـين الأضـداد، فهـو خليـع موغـل في خلاعته حين يقول شعراً منحرفاً، وهـو حكـيم العقـل رصـين القـول حـين ينـشئ شـعراً في الرثـاء،وهو مـن كبـار شـعراء الرثـاء في العربيـة تجـلى التجديـد عنـده في الـصنعة البديعيـة واستحداث حركات داخل الأوزان العروضية التقليدية مع تلاعب بالقوافي في نطاق القصيدة الواحدة، وهو رائد الصورة الشعرية ومبتكرها حين وصف الديك، وقد سبق بذلك كلاً مـن ابن الرومي وابن المعتز.

ف – و منصور النمري شاعر من الشام جزري غزا بغداد بعد أن تتلمذ على شاعر المثقفين العتابي وصاحبه وروى شعره، وهو، إذ يصل إلى مقـر الخلافـة ويـصل إلى منتـدى الخليفـة –

وكان الرشيد – سرعان ما يأسره بمبادراته الشعرية الفنية الرائقة، ويـزاحم مـشاهير الـشعراء المقيمين في بغداد من أمثال مسلم بن الوليد ومروان بن أبي حفصة.

وله لون خاص ومذهب في الشعر أنيق جعله يفرض نفسه على مجتمع شعراء بغداد فرضاً.

الباب الثاني

الفصل الرابع

الشعراء المتميزون في العصر العباسي

تميز في المرحلة العباسية العديد من الشعراء:

١ - ولقد كان العتابي أكثر قرباً من الثقافة بأعماقها البعيدة وآفاقها الرحيبة، وكان أدنى مورداً إلى مناهل المعرفة بلججها الغامرة وأمواجها المتواكبة. تعلم الفارسية من تلقاء نفسه حتى يقرأ الحضارة الفارسية في لغتها الأصلية، وكان يتكلمها في طلاقة، وزار مكتبة بلخ مرات عديدة، وكان هو نفسه صاحب مكتبة خاصة تحوي من المراجع النفيسة ما يعينه على إشباع رغبته من المعرفة، وكان كاتباً بليغاً بالإضافة إلى كونه شاعراً فريداً، وهو بذلك من القليلين جداً في تاريخ الشعر العربي الذين جمعوا إلى خصوبة الشعر ورقته رونق القلم وبراعته، فكان الشاعر المبدع والكاتب الساحر.

والعتابي بالإضافة إلى ذلك علم من أعلام البلاغة العربية، له تصوره الخاص لها، وتعريفه الذاتي بها، النابع من عقلية أحسن تكوينها، والعتابي أستاذ صاحب كتب وتآليف حوت من المعرفة ألواناً ومن العلوم فنوناً، الأمر الذي جعل الخلفاء يحتفلون به في مجالسهم، ويستدنونه إلى بلاطهم.

وكان لشعره لون متميز ووجه متفوق في حال مقارنته بالآخرين. إنه شعر المفكرين أو شعر الفكرة، أي الفكرة العميقة النفسية تصاغ في قالب شعري أنيق رقيق، وافر الموسيقا عذب الإيقاع، وتلك الصفات الأخيرة تعني شيئاً جديداً في الأسلوب إنه جدير بأن يكون أستاذاً لأبي تمام ومن سار على دربه.

وللرجل مدرسة في الأخلاق، ومذهب في الحكمة يكمل الواحد منهما الآخر، وعالج من خلالهما موضوع الصداقة والصديق.

٢ – وكذلك كان أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي. الذي كان يكره تعصب العرب على غيرهم وتعاليهم على سواهم، وهو في ذلك منسجم مع الإسلام الذي سوى بين الناس جميعاً، بحيث لا فضل لإنسان على آخر إلا بما يقدم من خير. والخريمي بلاغي كبير ومعلم بلاغة ثقة، وكان الجاحظ يطرز صفحات البيان والتبيين – أعظم كتبه – بآراء الخريمي وأقواله محيطاً إياه بهالة من التقدير هو بها جدير جاعلاً آراءه مصدراً من مصادره ومرجعاً من مراجعه.

هذا فضلاً عن كونه ناقداً ذواقة، وصيرفياً في الشعر لا تخطئ معاييره ولا تتهافت أحكامه ولا تنبو نظراته. والخريمي يطبق معاييره البلاغية على شعره، سبك إنشاء وانتقاء لفظ وتحري معنى وسهولة مأخذ، وقد سُئل: ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته؟ فيجيب لأني أجاذب الكلام إلى أن يساهلني عفواً فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه.

والخريمي صاحب مذهب في الأخلاق والحكمة ضمنه شعره بالأسلوب نفسه يقول شعراً كثيراً جزلاً جميلاً نابعاً من علم وتحصيل، صادراً عن خبرة ومعرفة وتجربة،منبعثاً من خلق ودين عرف الرجل بهما وذكرتهما له بالحمد كتب التاريخ والأدب والسير التي تُرجمت، تأثر به أبو حيان التوحيدي ومسكويه، ونظراؤهما من علماء الأخلاق قد تأثروا بأفكاره وأفكار العتابي حول الفضيلة والشجاعة والحكمة والصداقة والصديق، وكان الخريمي صاحب أطول قصيدة قيلت في رثاء بغداد حين تعرضت للمحن الكثيرة الشديدة أيام حرب المأمون والأمين ابني هارون الرشيد في صراعهما على عرش بني العباس، فكان بذلك رائداً في الشعر التاريخي ريادته في الشعر الأخلاقي والحكمي.

والخريمي يتحرى المدرسة المحافِظة على عمود الشعر، ويحرص على جزالة الصياغة متخذاً من ذلك أسلوباً ومذهباً، وهو ركيزة من ركائز عمود الشعر ومدرسة الديباجة.يعد أستاذاً أصيلاً للبحتري في مذهبه الأسلوبي وهو في جزالة لفظه وفخامة صوغه وحكمة قوله وأخلاقيات معانيه أستاذ أصيل صريح لأبي الطيب المتنبي، وهو في قصيدته الطويلة في رثاء بغداد أستاذ مباشر لابن المعتز في أرجوزته الطويلة في التاريخ لبني العباس وأحمد بن عبد ربه في تاريخه لعبد الرحمن الناصر.

الباب الثالث

الشعر العباسي

الباب الثالث

الفصل الأول

الأغراض التقليدية في الشعر العباسي

١ - المدح:

وقد ازدهر هذا العرض بسبب تشجيع الخلفاء للشعراء ومحاولتهم إبراز عظمة الملك لديهم، بينما أمعن الشعراء بالمدح استدراجاً للأعطيات، وقد زاد الشعراء ثروة المدح معاني جديدة أضفت على المعاني القديمة أشكالاً أخرى فمدحوا الخلفاء إضافة إلى الكرم والشجاعة والقوة بالتقوى وحسن الإدارة والقيادة السياسية والذبّ عن الدين داخلياً وخارجياً وقد أشار أبو تمام إلى مهمة الشعر:

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى بغاة الندى من أين تؤتى المكارمُ

وغدت المدائح وثائق تاريخية تقوم برسم مسيرة الخلفاء كما تصنع الصحافة، فهذا البحتري يصوّر دور يوسف بن محمد الثغري الطائي الذي هزم بابك الخرمي وصلبه في سامراء:

ما زلت تقرع باب - بابك - بالقنا وتزوره في غارة شعواء

حتى أخذت بنصل سيفك عنوة منه الذي أعيا على الخلفاء

ويقول البحتري أيضاً مادحاً المتوكل بأنه قيم الدنيا وقيم الدين:

خلق الله جعفراً قيّم الدنيا سداداً وقيّم الدين رشدا

أظهر العدل فاستنارت به الأر ضُ رعمَّ البلاد غوراً أو نجدا

ويقول أبو تمام في فتح عمورية مادحاً المعتصم:

تدبير معتصم لله منتقم في الله مرتغبٍ لله مرتقب

ويقول علي بن الجهم في مدح المتوكل:

لــه المنــة العظمــى عــلى كــلِّ مــسلمٍ وطاعتـــه فـــرض مـــن الله منـــزلُ

ولما تمزقت الدولة إلى الإمارات، أصبحت كلّ إمارة تسابق الأخرى في استجلاب الشعراء وتبني أحد هؤلاء كشاعرٍ للأمير كما صنع الحمدانيون مع أبي الطيب المتنبي الذي يقول في مدح سيف الدولة:

لـــيس إلاك يـــا عـــلي همـــام ســـيفه دون عرضـــه مـــسلول

أنـــت طـــول الحيـــاة للـــروم غـــار فمتـــى الوعـــد أن يكـــون القفـــول

٢ - الهجاء:

وقد بقي هذا الفن نشيطاً في هذا العصر، ولكنه لم يعد قائماً على العادات القبلية كما كان في شعر النقائض، وقد تنافس الشعراء في رسم صورة الهجاء من خلال القيم الجديدة فهذا نشوان الحميري يرد على الهجاء الذي ورد من قبل عبد الله بن القاسم الزبيدي، فيقول بعد أن يسمه عبد الله بن القاسم بفساد الأصل:

أمّـا الـصحيح فـإن أصـلك فاسـدٌ وجـــزاك منـــا ذابـــلٌ ومهنـــدُ

فيجيبه نشوان:

مـــن أيـــن يـــأتيني الفـــساد ولـــيس لي نـــسبٌ خبيـــث في الأعـــاجم يوجـــد

لا في علـــوج الـــروم جـــدٌّ أزرق أبـــداً ولا في الـــسود خـــالٌ أســـود

وقد استخدم الشعراء في هجائهم مختلفَ العيوب النفسية والخلقية ولم يتورعوا عن هجاء الخلفاء والوزراء إذا رأوهم منحرفين من الصواب:

يقول بشار في هجائه لرجل شديد البخل:

إذا جئتـــه للعـــرف أغلـــق بابـــه فلـــم تلقـــه إلاّ وأنـــت كمـــين

وهذا حمّاد عجرد يستخف ببشار بن برد ويحقره قائلاً:

وأعمـــــى يـــــشبه القـــــردا إذا مـــــا عمـــــي القـــــردُ

دنيء لم يـــــــرح يومـــــــا إلى مجـــــــدٍ ولم يغـــــــدُ

وقد يتهم المهجو بالزندقة التي تنتهي بالحكم بالموت كما حصل مع بشار لقوله:

تفـــاخر يـــا ابـــن راعيـــة وراع بنـــي الأحـــرار حـــسبك مـــن خـــسار
وكنـــت إذا ظمئـــت إلى قـــراح شركـــت الكلـــب في ولـــغ الإطـــار

ومن تصوير ابن الرومي وصفه لصاحب الأنف الطويل:

حملـت أنفـاً يـراه النـاس كلـهم مـن ألـف ميـل عيانـاً لا بمقيـاس
لـو شـئت كـسباً بـه صـادفت مكتـسبا أو انتـصاراً مـضى كالـسيف والفـاس

وكذلك وصفه للحمّال الأعمى:

رأيـــت حمّـــالاً مبـــين العمـــى يعثـــر في الأكـــم و في الوهـــدِ
بـــين جمـــالاتٍ وأشـــباهها مـــن بـــشرٍ نامـــوا عـــن المجـــد
والبـــائس المـــسكين مستـــسلمٌ أذلُّ للمكـــروه مـــن عبْـــدِ
وكلهـــم يـــصدمه عامـــدا أوتائـــهَ اللـــبِّ بـــلا عمـــد

ووصفه اللحية الطويلة قائلاً:

إن تطـــلْ لحيـــة عليـــك وتعـــرض فالمخـــالي معروفـــةٌ للحمـــير
علّـــق الله في عـــذاريك مخـــلا ة ولكنهـــا بغـــير شـــعير
لـــو غـــدا حكمهـــا إليّ لطـــارت في مهـــب الريـــاح كـــلَّ مطـــير
لحيـــة أهملـــت فـــسالت وفاضـــت فإليهـــا يـــشير كـــلُّ مـــشير
لـــو رأى مثلهـــا النبـــي لأجـــرى في لحـــى النـــاس ســـنة التقـــصير

وكذلك قوله في وصف وجه عمرو:

وجهـــك يـــا عمـــرو فيـــه طـــول وفي وجـــه الكـــلاب طـــول

وقد يكون الهجاء سياسياً كما حصل عند موت المعتصم حيث هجاه دعبل الخزاعي قائلاً:

خليفـــة مـــات لم يحـــزن لـــه أحـــدٌ وآخـــر قـــام لم يفـــرح بـــه أحـــد

واستمر الهجاء في عصر الدول والإمارات يتخذه الشعراء غرضاً إذا تأخرت الأعطيات كما صنع أبو العلاء الأسدي في هجاء الصاحب بن عباد وزير البويهيين:

إذا رأيت مسجَّى في مرقعةٍ يأوي المساجد حراً ضرَّه باد
فاعلم بأن الفتى المسكين قد قذفت به الخطوب إلى لؤم ابن عباد

٣ - الرثاء:

بقي الرثاء نشيطاً في العصر العباسي، وإن اتجه بمعاينة إلى صفاتٍ جديدة يصفها الشاعر على صفات من يقوم برثائه من القادة والأمراء والخلفاء إضافة إلى التأمل بحقائق الكون والوجود والموت والحياة وانتشر رثاء المدن والحيوانات المستأنسة والأصدقاء والزوجات.

يقول أبو العلاء المعري في رثاء أحد أصدقائه معرضاً لحقائق الموت:

ربّ لحدٍ قد صار لحداً مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ضجعة الموت رقدةً يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهادِ

ويقول أبو تمام الطائي في رثاء ابن حميد الطوسي:

فتىً مات بين الضرب والطعن ميتةً تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلاّ وهي من سندس خضرُ

ويقول محمد بن عبد الملك الزيات في رثاء زوجه:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كلَّ أمٍّ وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان

وهذا الشاعر الخريمي يرثي بغداد في أيام الخلاف بين الأمين والمأمون:

حلت ببغداد وهي آمنةٌ داهيةٌ لم تكن تحاذرها
يحرّقها ذا وذاك يهدمها ويشتفي بالنهاب شاطرها

ويقول ابن العلاف النهرواني يرثي قطاً (هراً):

يا هرُّ فارقتنا ولم تعد وكنت منا بمنزل الولد

صـــادوك غيظـــاً عليـــك وانتقمـــوا منـــك وزادوا ومـــن يـــضْد يـــصد

٤ - الفخر:

يتمحور الفخر عند الشعراء العباسيين في ثلاثة مجالاتٍ:

أولها: ما يخص نفس الشاعر، يقول المتنبي مفتخراً بنفسه:

لا بقـــومي شرفـــت بـــل شرفـــوا بي وبنفـــسي فخـــرت لا بجـــدودي

والثاني: ما يخص نسبه وقبيلته.

والثالث: ما يخص عقيدته وهواه السياسي.

ويقول بشار مفتخراً بأصوله الفارسية:

هـــل مـــن رســـول مخـــبر عنـــي جميـــع العـــرب

بـــأنني ذو نـــسب عـــالٍ عـــلى ذي الحـــسب

جـــدي الـــذي أســـمو بـــه كـــسرى وساســـان أبي

٥ - الغزل:

نظراً لاختلاط العرب بالأعاجم، وانتشار الفتوح والغزو وتدفق الأموال، وكثرة الجواري والقيان، توسعت أبواب الشعر الغزلي، فبعد أن كانت في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي لا تعدو أن تكون معانيَ سامية وصفات لمفاتن جسدية عند المرأة فتح الشعراء العباسيون بابين جديدين:

- الأول: هو باب الغزل الإباحي الذي تجرأ فيه العباسيون على وصف خلواتهم بجرأة وفحش.

- والثاني: غزل الغلمان الذي لا عهد للعرب به.

يقول بشار بن برد في الغزل الجريء:

يـــا ليلتـــي تـــزداد نكـــرا مـــن حـــب مـــن أحببـــت بكـــرا

حـــوراء إن نظـــرت إلي ك ســـقتك بـــالعينين خمـــراً

ومع ذلك فقد تعفف قسم من الشعراء بغزلهم كما عند العباس بن الأحنف الذي وصف ما يجول بخاطره باتجاه محبوبته فوز:

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم ... فعندكم شهوات السمع والبصر

لا يضجر السوء إن طال الجلوس به ... عفا الضمير ولكن فاسق النظر

وقد انصرف قسم من الشعراء إلى غزل الأعرابيات معرضاً عن غزل النساء المتحضرات بسبب كثرة اللهو والمجون.

قال المتنبي:

هام الفؤاد بأعرابية سكنت ... بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

وقد أشار هذا الشاعر بجمال الأعرابيات قائلاً:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتخلية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

وبرز من الشعراء العفيفين الشريف الرضي في (حجازياته) التي فرج بها حنينه للحجاز والنساء اللواتي قصدن أداء فريضة الحج:

من معيد لي أيا مي بجزع السمراتِ

وليالي بجمعٍ ومنى والجمرات

وظباءً حاليات كظباء عاطلات

راميات بالعيون ال نجل قبل الحصيات

ومن الشعراء الذين تغنوا بالحب الصافي مهيار الديلمي:

قل لجيران الغضا آهٍ على ... طيب عيش بالغضا لو كان داما

وقد استفاد المتصوفة من الغزل البدوي فمزجوه بالغزل الصوفي كما في قول عيسى بن سنجر الحاجري:

أأحبابنا بنتم عن الخيف فاشتكت ... لبعدكم آصالها وضحاها

كـــأنكم يـــومَ الرحيـــلِ رحلـــتمُ بنـــومي فعينـــي لا تـــصيب تراهـــا
رعـــى الله لـــيلاتٍ بطيـــب حـــديثكم تقـــضّت وحيّاهـــا الحيـــا وســـقاها

٦ - الوصف:

إنّ امتداد الحياة العباسية وتوسع هذه الحياة، ورخاءَ العيش جعل الوصف غرضاً مهماً، اتّسع مداه بين الأشياء المادية، والمعنوية فوصف الشعراء في هذا العصر آثار الحضارات القديمة، وقصور الخلفاء وحدائقهم وملاهي الناس والصيد، كما وصفوا في الجانب الآخر البؤس الاجتماعي والأمراض، الطباع، والغرائز والأزهار والرياض، والأطعمة، فوصف البحتري إيوان كسرى، ووصف ابن الرومي الخباز والحمّال الأعمى والنرد والشطرنج، ووصف نطاح الكباش وصياح الديكة.

يقول ناصح الدين الأرجاني في وصف حصان كسرى:

وقـد بـان حتـى عرقـه تحـت جلـده وإن لم تـــبنْ في صـــفحتيه نـــدوب

ويقول المعري في وصف ديكٍ أحبَّ له الحياة، فكان هذا الديك طعاماً لأحد الصائمين:

أيـا ديـك عـدت مـن أياديـك صـيحة بعثـت بهـا ميـتَ الكـرى وهـو نـائم
ولـو كنـت لي مـا أرهفـت لـك مديـة ولا رام إفطـــاراً بأكلـــك صـــائم

ويقول البحتري في وصف القصر الكامل للمتوكل:

لبـست مـن الـذهب الـصقيل سـقوفه نـــوراً يـــضيء عـــلى الظـــلام الحافـــل
وكـــأنّ حيطـــان الزجـــاج بجـــوّه بحـــجٌ يمجـــن عـــلى جنـــوب ســـواحل

ويقول علي بن الجهم يصف لعبة الشطرنج وما يدور على رقعتها من معارك:

أرض مربعـــــة حمـــــراء مـــــن أدم مـــا بـــين إلفـــين موصـــوفين بـــالكرم
هـــــذا يغـــــير هـــــذا وذاك عـــــلى هـــذا يغـــير، وعـــين الحـــرب لم تـــنم
فـانظر إلى الخيـل قـد حاشـت بمعركـةٍ في عـــسكرين بـــلا خيـــلٍ ولا علـــم

ويقول أبو نواس واصفاً كلب صيد له اسمه (سرياح):

ما البرق في ذي عارض لمّاح ولا انفضاض الكوكب المتضاحِ
ولا انبتاتُ الدّلو بالمتّاح ولا انسياب الحوت بالمنداح
حين دنا من راحة السبّاح أجدَّ في السرعة من سرياح
يطير في الجو بلا جناح يفترُّ عن مثل شبا الرماح

ويقول الشاعر أبو فرعون الساسي في وصف منزله المتواضع الخالي من الحضارة والحياة:

منزل أوطنه الفقر فلو دخل السارقُ فيه سرقا

ويصور الشاعر أبو الشمقمق واصفاً حاجة عياله للخبز والإدام:

وقد دنا الفطر وصبياننا ليسوا بذي تمرٍ ولا أرز
فلو رأوا على شاهق لأسرعوا للخبز بالجمز

الباب الثالث

الفصل الثاني

الأغراض الجديدة
في أدب العصر العباسي

وقد تمثلت في:

١ - الشعر التعليمي:

وهو الشعر الذي نظم فيه العلماء مختلف العلوم المعاصرة لهم، وقد غلب على هذا النوع من الشعر العقل والمنطق وخلا من العاطفة واعتمد على إظهار الحقائق، وقد نظم فيه العلماء علوم الفرائض. علم المواريث - العبادات - السلوك - الأخلاق والسير والتاريخ والنحو. كما صنع أبان بن عبد الحميد اللاحقي في نظمه (كليلة ودمنة) وابن مالك في (ألفيته) وابن المعتز في أرجوزته (مسيرة الخليفة العباسي المعتضد).

- يقول أبان اللاحقي:

هـــذا كتـــاب أدبٍ ومحنـــةٍ وهـــو الـــذي يـــدعى ككليلـــة ودمنـــة

فيـــه دلالات وفيـــه رشـــد وهـــو كتـــابُ وضـــعته الهنـــدُ

- ويقول ابن المعتز واصفاً تسلط الأتراك على أموال الخلافة:

كـــذلك حتـــى أفقـــروا الخلافـــةْ وعوّدوهـــا الرعـــب والمخافـــةْ

٢ - الشعر الفلسفي:

وقد بدأ الشعراء العباسيون التأثر بالأفكار الفلسفية من خلال الترجمات البيزنطية للفكر، ومن خلال صراع الأفكار والمذاهب الدينية التي تبنَّت بعض الأفكار الفلسفية، كما هو عند المعتزلة، ومن خلال اطّلاع أبي تمام على فلسفات البيزنطيين، ومزاوجته بين الشعر، والفلسفة، وإدخاله قضية الديالكتيك "الجدلية" في شعره، كذلك ما بثّه المتنبي من حكم يونانية في

شعره، وما صنعَه المعري في تأملاته في الكون والقدر، والنجوم، والحديث عن العقل والروح، والبعث والنشور، وما صنعه ابن سينا في حديثه عن النفس واتصالها بالبعث.

قال أبو النواس في وصف الخمرة مستعملاً كلمات فلسفية:

رقّت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء

ويقول أبو تمام:

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا ... فأنت لا شك فيك السهل والجبل

ويقول المتنبي:

لأتركن وجوه الخيل ساحمةً ... والحرب أقوم من ساق على قدم

بكل منصلت مازال منتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ... ويستحل دم الحجاج في الحرم

ويقول المعري:

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شادِ

ويقول ابن سينا في وصف النفس:

هبطت إليك من المحلِّ الأرفع ... ورقاءُ ذاتُ تعزز وتمنّع

وصلت على كرهٍ إليك وربّما ... كرهت فراقك وهي ذات توجّع

٣ - شعر اللهو والمجون:

نظراً لكثرة تدفق الأموال وانتشار اللهو والمجون فقد أكب قسمٌ من الشعراء على وصف أماكن الخمرة ومجالسها كمنطقة الكرخ في بغداد، ومنطقة قطربّل، ومن الشعراء الذين وصفوا الخمرة وأكثروا من الخمر والمجون في شعرهم: أبو نواس ومطيع بن إياس بن عجرد، والشاعر بشار بن برد، ومسلم بن الوليد وغيرهم....

ويقول بشار بعد أن أصدر الخليفة أمراً بمنعه من وصف الخمر والغزل المخجل:

نهاني الخليفة عن ذكرها ... وكنت بها سرَّه أكدحُ

فأعرضتُ عن حاجتي عندها وللموتُ من تركها أروحُ

ويقول أبو نواس بعد أن سجنه الأمين لشربه الخمر:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهرُ

ويقول أبو نواس

تفتير عينيكَ دليلٌ على أنك تشكو سهر البارحة

عليكَ وجهٌ سيئ حاله من ليلةٍ بتَّ بها صالحه

٤ - شعر الزهد:

وقد جاء هذا العرض رداً على اللهو والمجون ووصف الخمرة، وفي الوقت الذي كانت فيه حانات بغداد مملوءة بأصحاب الخمرة، كانت مساجد بغداد مملوءة بالعباد والنساك والعابدين، وقد عرف العباسيون لونين من الزهد.

أ - زهد إسلامي مستقى من القرآن الكريم والسنة الشريفة معتمدة على قوله تعالى: ((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك)). وكذلك من قوله عليه السلام: ((من بات آمناً في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها)).

ب - زهدٌ مانوي نسبة إلى زعيم فارسي اسمه ((ماني)):

وهذا الزهد مرتبط بالديانة الزردشتية والبوذية والنصرانية، وقد كان من زعماء هذا اللون: صالح بن عبد القدوس، أما الديانة الزردشتية فتؤمن بعقيدتي النور والظلمة، وإباحة زواج الآباء من بناتهم وأخواتهم، أما البوذية فتؤمن بقضية تناسخ الأرواح، وتحريم ذبح الحيوان والطيور، وأما النصرانية فتؤمن بالنسك والزهد، وليست الرهبانية إلا جزءاً من ذلك. ومن أمثلة الزهد الإسلامي قول أبي العتاهية:

لدو للموت وابنوا للخراب فكلكم يصيرُ إلى ذهابِ

ويقول أبو نواس:

.....في أمـــــــــــــــــــــلي وقـــــــد قـــــصّرت في عمـــــــلي

فأيـــــــــــامي تقربنـــــــــــــي وتـــــــــــدنيني إلى أجـــــــــــلي

ويقول المعري:

أغنـــى الأنـــام تقـــيٌّ في ذرا جبـــلٍ يـرضى القليـل ويـأبى الـوشي والتاجـا

وأفقـــر النـــاس في دنيـــاهم ملـــكٌ يـــضحى إلى اللجـــب الجـــرار محتاجـــا

وقـــد علمـــت المنايـــا غـــير تاركـــة ليثـــاً بخفـــان أو طبيـــاً بفرتاجـــا

ويقول عبد الله بن المبارك الذي جمع بين الزهد والجهاد في رسالةٍ إلى الفضيل بن عياض الناسك الذي كان مجاوراً مكة:

يـــا عابـــد الحـــرمين لـــو أبـــصرتنا لعلمـــت أنّـــك في العبـــادة تلعـــب

مـــن كـــان يخـــضبُ جيـــده بدموعـــهِ فنحورنـــــا بـــــدمائنا تتخـــــضبُ

ويقول ابن المبارك يخاطب أحد أصحابه وهو إسماعيل بن عليَّة، وكان قد ولي الصدقات بالبصرة:

يـــا جاعـــل الـــدين لـــه بازيـــاً يـــــصطاد أمـــــوال المـــــساكين

احتلْـــــت للـــــدنيا ولـــــذّاتها بحيلـــــةٍ تـــــذهبُ بالـــــدين

ويقول ابن الرومي في أجمل صورة للزهد والورع:

بـــات يـــدعو الواحـــد الـــصمدا في ظـــــلام الليـــــل منفـــــردا

كلـــــما مـــــر الوعيـــــد بـــــه ســـــح دمـــــع العـــــين فـــــاطّردا

قـــــائلاً يـــــا منتهـــــى أمـــــلي نجنـــــي ممـــــا أخـــــاف غـــــدا

ومن عجب أن الذين أقبلوا على الزهد وسعوا إليه وقالوا فيه شعرهم هم أنفسهم الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم إثماً ومعصية وانحرافاً، أو على وجه أدق هم بعض أولئك الذين انغمسوا في طلب اللذة المحرمة حتى جرفهم تيارها وغمرهم عبابها، إن منهم أبا نواس، ومسلم بن الوليد، وصالح بن عبد القدوس، وأبا العتاهية، كما كان هناك أيضاً محمود

بن الحسن الوراق الذي لم يكن من فريق العصاة، ولذلك فإن شعره في الزهد والحكمة أنقى منهم روحاً وأصفى محتوىً وأقرب إلى النفس تقبلاً وأسرع إلى الخاطر تلقياً.

أما أبو نواس فلم يقل ما قال من شعر الزهد إلا بعد أن قعدت به الصحة عن أن يستمر فيما ظل يخوض فيه من وحل وما يرتكبه من إثم ورجس طوال حياته، ومن ثم فإن مرارة الندم قد ألحت عليه فعدل إلى جانب النسك.

و يؤوب أخيراً من رحلة العصيان الطويلة إلى رحاب الله فيؤدي فريضة الحج ويكبر مع المكبرين ويلبّي مع الملبّين وهو يطوف بالبيت العتيق: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وتنساب إلى قلب الشاعر ومضات الإيمان لتصب في وجدانه فيتذوق روحانيتها فيقول:

إلهنا ما أعدلك ... مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك

لبيك إن الحمد لك ... والملك، لا شريك لك

ما خاب عبد سألك ... أنت له حيث سلك

لولاك يا رب هلك

لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك

كل نبي وملك ... وكل من أهل لك

وكل عبد سألك ... سبّح أو لبّى فلك

لبيك إن الحمد لك ... والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك ... والسابحات في الفلك

لبيك إن الحمد لك ... والملك، لا شريك لك

اعمل وبادر أجلك ... واختم بخير علمك

لبيك إن الحمد لك ... والملك...لا شريك لك

ويفتكر أبو نواس في مصير كل حي، ولكن بعد أن انقضت شهرته فيرعوي ويستجيب إلى نداء عقله:

أيهـــا الغافـــل المقـــيم عـــلى الـــسهو ولا عـــــذر في المقـــــام لـــــساه
لا بأعمالنـــــا نطيـــــق خلاصـــــا يـــوم تبـــدو الـــسماء فـــوق الجبـــاه
غـــير أني عـــلى الإســـاءة والتفـــ ـــــريط راج لحـــــسن عفـــــو الله

ويلجأ أبو نواس إلى المحسن الرحيم بكل رجائه وبتوسل المعترف بخطئه وضراعة النادم غير اليائس من رحمة الله معبراً عن صدق إسلامه قائلاً آخر شعر صدر عنه:

يـــا رب إن عظمـــت ذنـــوبي كثـــرة فلقـــد علمـــت بـــأن عفـــوك أعظـــم
إن كـــان لا يرجـــوك إلا محـــسن فـــبمن يلـــوذ ويـــستجير المجـــرم
أدعـــوك رب كـــما أمـــرت تـــضرعا فـــإذا رددت يـــدي فمـــن ذا يـــرحم
مـــا لي إليـــك وســـيلة إلا الرجـــا وجميـــل عفـــوك ثـــم إني مـــسلم

ومن شعراء الزهد صالح بن عبد القدوس الذي يقول في الدعوة إلى الإيمان والاستقامة:

فوحـــقِّ مـــن ســـمك الـــسماء بقـــدرة والأرض صـــير للعبـــاد مهـــادا
إن المـــصر عـــلى الـــذنوب لهالـــك صـــدقت قـــولي أو أردت عنـــادا

و أشهر شعراء الزهد في تلك الفترة العباسية أبو العتاهية فهو يدعو إلى ترك الدنيا وتحقيرها حيناً، ويدعو إلى التقى وصالح الأعمال حيناً آخر، ويذكر الموت وملاحقته للخلق ويلح في ذلك إلى الحد الذي يصد الناس فيه عن ترك أية متعة ولو كانت حلالاً، ويقف على القبور ويناجيها حيناً ويسائل ساكنيها آونة أخرى ويقرن بين الدنيا والآخرة أو بالأحرى بين الحياة والموت، ثم النشور والحساب والثواب والعقاب ويرجو الثواب ويخشى العقاب:

تـــصبر عـــن الـــدنيا ودع كـــل تائـــه مطيـــع هـــوى يهـــوي بـــه في المهامـــه
دع النـــاس والـــدنيا فبـــين مكالـــب عليهـــا بأنيـــاب وبـــين مـــشافه
ومـــن لم يحاســـب نفـــسه في أمـــوره يقـــع في عظـــيم مـــشكل متـــشابه

وما فاز أهل الفضل إلا بصبرهم عن الشهوات واحتمال المكاره

ويقول أبو العتاهية في قصيدته التي نالت شهرة عريضة وتكررت ترديداً على ألسنة معاصريه، وفي مقدمتهم الخليفة المأمون:

فما لي لست مشغولاً بنفسي وما لي لا أخاف الموت ما لي
لقد أيقنت أني غير باق ولكني أراني لا أبالي
أما لي عبرة في ذكر قوم تفانوا ربما خطروا ببالي
كأن ممرضي قد قام يمشي بنعشي بين أربعة عجال
وخلفي نسوة يبكين شجوا كأن قلوبهن على مقال
سأقنع ما بقيت بقوت يوم ولا أبغي مكاثرة بمال
هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى زوال
خبرت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير ختال وفال
وذقت مرارة الأشياء طرا فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الأمور أشد وقعا وأصعب من معاداة الرجال
ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على الكمال

يقول أبو العتاهية في آخر أبيات قالها قبل موته:

إلهي لا تعذبني فإني مقر بالذي قد كان مني
وما لي حيلة إلا رجائي وعفوك إن عفوت وحسن ظني
فكم من زلة لي في البرايا وأنت عليَّ ذو فضل ومنِّ
إذا فكرت في ندمي عليها عضضت أناملي وقرعت سني
يظن الناس بي خيراً وإني لشر الناس إن لم تعف عني

٥ - شعر التصوف:

شهد العباسيون نوعاً من الزهد أفضل من التصوف القائم على إرضاء الخالق وذم التعلق بالدنيا: ((الأموال – الأبناء – النساء)) ولكن هذا التصوف خرج في معظمه عن تعاليم الإسلام بفعل الترجمات اليونانية والهندية، واعتمد هذا التصوف على مجموعة من ركائز:

أولها: فكرة المحبة الإلهية.

وثانيها: فكرة إنكار الذات.

وثالثها: الاعتماد على القلب والكشف ونظرية التوحد ((وحدة الوجود، ووحدة الخالق والمخلوق)).

يقول الحلاج:

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة بالماء الزلال

فإذا مسَّك شيءٌ مسني ... فإذا أنت أنا في كل حالِ

وهذا كلام خطير يخرج عن حدود الشرع الإسلامي.

ويقول عبد الكريم القشيري متمثلاً:

يا من تقاصر شكري عن أياديه ... وكلَّ كلٌّ لسانٍ عن معاليه

لا دهر يخلقُه لا قهر يلحقُه ... لا كشفَ يظهره لا ستر يخفيه

ويقول السهروردي من عشقه الإلهي:

أبداً تحنُّ إليكم الأرواح ... ووصالكم ريحانها والسّراح

وا رحمتا للعاشقين تكلّفوا ... ستر المحبة والهوى فضّاحُ

٦ - شعر تحليل الصفات الخلقية:

رسم الشعراء العباسيون الصفات العظيمة عند ممدوحيهم كما رسموا الصفات الذميمة عند مهجوييهم، ولم يقتصروا في معانيهم الشعرية على الكرم والحلم والحياء والعفة، وإنما تجاوزوا ذلك إلى واجبات الأخوة والصداقة واختيار الأصدقاء والصبر على أخطائهم، وقد صوّر ذلك ابن المعتز قائلاً:

يـــا مـــن ينـــاجي ضـــغنه في نفـــسه ويـــدبُّ تحتـــي بالأفـــاعي اللـــدغ
وبيـــت تـــنهض زفـــرةً في صـــدره حـــسداً وإن دميـــت جراحـــي يولـــغ

ويصف ابن الرومي الصبر والجزع محللاً عمق هاتين الصفتين:

وقـــد يظـــن النـــاس أن أســـاهم وصـــبرهم فـــيهم طبـــاعٌ مركَّـــب
وليـــسا كـــما ظنوهمـــا بـــل كلاهمـــا لكـــل لبيـــب مـــستطاع مـــسبّب

٧ - شعر الشكوى من الزمان ونوازله:

وقد كثر ذلك في العصر العباسي بسبب المفارقات السياسية والاجتماعية والثقافية وبرز نوعان من الشكوى:

أ - نوع فردي بثّ فيه الشعراء همومهم الشخصية.

ب - نوعٌ عام جاء بسبب فساد الأحوال السياسية وتولي المناصب من قبل غير الأكفاء.

يقول ابن المعتز في الشكوى العامة:

لم يبـق في العـيش غـيرُ البـؤس والنكـد فـاهرب إلى المـوت مـن هـمٍّ ومـن نكـد
مـلأت يـا دهـرُ عينـي مـن مكارهها يـا دهـرُ حسبك قـد أسرفـت فاقتـصد

ويقول المتنبي في الشكوى الفردية:

عيـد بأيـة حـالٌ عـدت يـا عيـد بـما مـضى أم لأمـرٍ فيـه تجديـد
أصـخرة أنـا مـا لي لا تحركنـي هـذي المـدام ولا هـذي الأغاريـد

ويقول الطغرائي في لاميته العجمية شاكياً من الدهر والزمن:

والـدهر يعكـس آمـالي ويقنعنـي مـن الغنيمـة بعـد الكـدِّ بالقفـل
أهبـت بـالحظ لـو ناديـت مـستمعاً والحـظ عنـي بالجهـال في شـغلٍ

٨ - شعر النوادر والفكاهات:

وهو غرض استجد في العصر العباسي كرد فعلٍ على صعوبة العيش وانقسام الناس إلى مذاهب يحاول بعضها هدم البعض الآخر، وقد برز من شعراء هذا الغرض أبو دلامة، وقد تندر الشعراء على البخلاء والأكلة والجشعين، وأصحاب اللحى الطويلة، ولابن الرومي باع طويل في وصف العيوب الخلْقية والخلُقية كوصف الأعمى والأحدب والأصلع، وطويل الأنف وغيرهم...

يقول بشار بن برد واصفاً قصة حبٍّ عذري أجراها على لسان حمارٍ له مات عشقاً وقد رآه بشار في اليوم فقص عليه قصته:

سيدي مَلْ بعناني ... نحو باب الأصبهاني

إن بالباب أتانا ... فضلت كلَّ أتان

تيمتني يوم رحنا ... بثناياها الحسان

ولها خدٌّ أسيلٌ ... مثل خدِّ الشيفران

٩ - شعر التهكم والعبث:

وقد اعتمد فيه أصحابه على فحش القول وهجر الكلام، وقد ساهم في إبرازه شعراء من أمثال: ((ابن سكرة – ابن حجاج – صريع الدلاء الذي عارض مقصورة ابن دريد)).

يقول صريع الدلاء يعارض مقصورة ابن دريد:

من لم يرد أن تنتقب نعاله ... يحملهُ في كفِّه إذا مشى

ومن أراد أن يصون رجلهُ ... فلبسه خيرٌ له من الحفا

من طبخ الديك ولا يذبحه ... طار من القدر إلى حيث يشا

١٠ - شعر التهاني والهدايا:

وقد برز هذا الغرض في المناسبات والأعياد والتهنئة بقدوم المواليد الجدد، كما صنع البحتري في وصف موكب المتوكل في عيد الفطر.

يقول ابن الرومي في وصف قدحٍ أهداه إلى علي بن يحيى المنجم:

وبـــــديع مـــــن البـــــدائع يـــــسبي كـــل عقـــلٍ ويطبـــي كـــلَّ طـــرفِ

الباب الثالث

الفصل الثالث

التحولات التي طرأت على الشعر العباسي

١ - في بناء القصيدة:

لم يلتزم العباسيون التزاماً كاملاً بنهج القصيدة العربية التي رسم أسسها الجاهليون، وكان بعضهم قد حاول ترسم خُطا الجاهليين في الوقوف على الأطلال ووصف قصور بغدادٍ، ووصف الخلفاء بالصفات التي تتلاءم مع البداوة، وقد أعرض بعض الشعراء عن ذلك، ونددوا بطريقة الوقوف على الأطلال كما قال أبو النواس:

عاج الشقي على رسمٍ يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد

ولكن شاعراً كأبي تمام والبحتري وابن المعتز حاولوا تغيير مطالع قصائدهم، فهذا أبو تمام صنع لقصيدته في مدح المعتصم مقدمة في وصف الطبيعة فقال:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر ... وغدا الثرى في حلية يتكسَّر

يا صاحبيَّ تقصّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصوَّر

تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... وجه الضحى فكأنما هو مقمر

كما وبدأ قصيدته في فتح عمورية بالحكمة:

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب ... في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللّعب

وهذا ابن المعتز يخاطب الخليفة المعتضد الذي نفاه وأبعده عن مجالسه قائلاً:

أتسمع ما قال الحمام السواجع ... وصائح في ذرا الأيك واقع

منعنا سلاماً وهو محلل ... سوى لمحات أو تشير الأصابع

أما المتنبي فقد سلك في بناء قصائده مسلكاً مغايراً بحيث جعل لكل قصيدة مطلعاً يتناسب مع مضمون القصيدة كقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وقوله:

إذا كان مدحاً فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً مقيم

٢ - الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية:

نظراً لتغير مظاهر الحياة العباسية عن سابقتها وازدياد الاهتمام بالشكل عند الإنسان أكثر من المضمون، فقد انعكس ذلك الشعر فأخذ الشعراء يهتمون بشكل الشعر لديهم أكثر من المضمون، ونشأ فن البديع القائم على المحسنات والزخارف اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق والمقابلة والإرصاد، وتحول الشعر من مطبوع إلى مصنوع، كما عند أبي تمام في قوله:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

وقد تحول الاهتمام بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية من كونها وسيلة إلى كونها غاية وأصبحت في العصور التالية عبئاً ثقيلاً على الشعر العربي.

٣ - الأوزان والقوافي:

لم يتجاوز شعراء العصر الجاهلي والإسلام والأموي الأوزان الخليلية، لكن شعراء العصر العباسي بسبب انتشار الموسيقا والغناء حاولوا أولاً أن يوجدوا أوزان البحور الست عشرة وزناً،وأضافوا أوزان جديدة (المواليا)، وكان أبو العتاهية يقول: أنا أكبر من الوزن الخليلي ونوع الشعراء بالقوافي فظهرت أوزان كالمزدوج – المسحطات – المربعة – المخمسة.

واهتم الشعراء بالأوزان المجزوءة التي تتناسب مع الغناء والموسيقا. يقول بشار:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وقوله:

سـلاف دن كـشمس دجـن

كـدمع جفـن كخمـر عـدن

٤ - التصوير الفني:

لم يرتض العباسيون الطريقة العربية الجاهلية والإسلامية القائمة على الإيضاح والاقتراب من الحقيقة، وملاحظة التناسب في وجه الشبه بين المشبه والمشبه به، والحرص على الدقة في الوصف في التصوير الفني في شعرهم، بل حاولوا أن ينهجوا نهجاً جديداً في هذا التصوير، كما صنع بشار حينما حاول أن يجعل العلاقة مضطربة بين المشبه والمشبه به، وأن يمازج بين الحواس ويعتمد الإبهام كأن يشبّه (المسموع بالمنظور) و(المنظور بالمذاق) يقول بشار في وصف جارية:

حـوراء إن نظـرت إليـك سـقتك بـالعينين خمـرا

وكـأن رجـع حـديثها قطـع الريـاض كـسين زهـرا

فكأنّ الحديث المختص بحاسة السمع مشبّه بقطع الرياض الخاصة بحاسة النظر، وقد بلغ التصوير الفني منتهى الإبداع الذي غدا ركناً أساسياً عند أبي تمام في تجديده حيث اختفت الصور المستوحاة من البادية واعتمدت الصور المستوحاة من حياة الترف. يقول ابن المعتز واصفاً الهلال:

انظـر إلى حـسن هـلالٍ بـدا يهتـك مـن أنـواره الحندسـا

كمنجـلٍ قـد صـيغ مـن فـضة يحـصد مـن زهـر الربـا نرجـسا

٥ - في المعاني الشعرية:

كما أن العباسيين لم يقبلوا بشكل القصيدة الجاهلية، كذلك رفضوا معانيهم، وحاولوا تجديدها وقد أسرهم في تغير المعاني في ثلاثةِ أشياء:

أ - قضية الفكر الإسلامي: الذي تمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية وما فتحه هذان الكتابان من آفاق جديدة للعقل في ذلك كمناقشة وسائل الكون والحياة والعقل والخالق والمخلوق والروح والجسد، وما نتج عن ذلك من علمٍ سمّي فيما بعد الكلام الذي تبناه أصحاب المذاهب بالإضافة إلى المعتزلة.

ب - الثقافة الفلسفية: التي ترجمت من كتب الأمم التي مازجها العرب المسلمون والتي تمحورت حول ديانات تلك الشعوب كالمانوية والمزدكية وأثر ذلك على بعض الشعراء، كما حصل مع المعري حينما حرّم على نفسه أكل اللحوم.

جـ - تغيرات الحياة الجديدة: التي فرضت نفسها من خلال امتزاج الحضارات الأخرى وحياة الشعوب الأخرى وما ابتدعه المفكرون من طرائق جديدة للفكر، فقد نقل العرب حكمه الفرس ووصاياهم وآدابهم وأساليبهم في الحياة السياسية والصداقة والمشورة. قال بشار:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريشُ الخوافي قوةٌ للقوادم

ونقل العرب أيضاً حكمة الهند وعلومها في الحساب والفلك والطبيعة، فقد زعم علماء الهند أن الشيء إذا أفرط في البرودة عاد حاراً، وقد أخذ هذا المعنى أبو نواس:

قل لزهير إذا حدا وشدا ... أقلك أو أكثر فأنت مهذارُ

سخنت من شدة البرودة حتى ... صرت عندي كأنك النارُ

ويقول المعري:

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ... ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح

ونقل العرب الثقافة اليونانية وفلسفتها المعتمدة على المنطق والأقيسة والأدلة واستخدام الشعراء مصطلحات فلسفية، كفكرة الجوهر، والكل والتعليل والتضاد، يقول أبو العتاهية في سكون الحركة:

يا عليُّ بن ثابت بان مني ... صاحبٌ حلَّ فقده يوم بنتا

قد لعمري لي غصص الموت ... وحرَّكتني لها وسكنتا

ويقول أبو نواس في فكرة الجزء الذي لا يتفكك:

يا عاقد القلب مني ... هلا تذكرت حلا

تركـــــــت منـــــــي قلـــــــيلا مـــــــن القليـــــــل أقـــــــلاّ

يكـــــــــــاد لا يتجـــــــــــزّأ أقـــــــلّ في اللفـــــــظ مـــــــن لا

ويقول أبو تمام في التضاد فصوّر جمال إحدى صواحبه:

بيـــضاء تـــسري في الظـــلام فيكتـــسي نـــوراً وتـــسرب في الـــضياء فـــيظلم

الباب الرابع

الشعراء الصعاليك

في العصر العباسي

لم تكن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي صحيحة مستقيمة، بل كانت مضطربة مختلة لا تحقق الخير ولا توفر الحياة الحرة الكريمة، فقد تمتع الخلفاء والوزراء ومن في حكمهم بهذه الحياة، وعاش الباقون حياة بائسة بسبب سوء توزيع الثروة وهذا ما استدعى اختلالاً اقتصادياً من مظاهره:

١ - العنف في جباية الخراج.

٢ - زيادة الخراج.

٣ - خيانة العمال (جباة الضرائب).

٤ - عزل الخلفاء للوزراء واسترداد ما جمعوه بغير حجة.

٥ - إنفاق الأموال على سبل لا تفيد الناس.

٦ - كثرة المتمردين الذين استدعوا أموالاً طائلة للقضاء عليهم.

٧ - إغداق الأموال على القادة العسكريين لضمان ولائهم.

٨ - إجراء الأعطيات على بعض الأمصار كالحجاز، وهذا ما دعا الناس إلى محاولة رد المظالم عنهم تارة برفع الشكاوى للخليفة أو الولاة وتارة بالامتناع عن دفع الخراج وأخرى بالثورة على العمال ومحاربتهم. وقد انقطعت الصلة بين بيوت المال والرعية، ولم تعد بيوت المال تدفع للمعوزين ما فرضه القرآن الكريم لهم مما أدى لانتشار الفقر والعجز عن التماس العيش بالطرق المشروعة، وهذا ما كانت عليه نتيجة التمرد على الأوضاع السيئة والسعي لكسب الأقوات بطرق غير مشروعة والإغارة على المدن وسرقة الأسواق والتجار.

ولقد ساعد في انتشار الصعاليك كثرة الفتن والاضطرابات بسبب استبداد العباسيين بالحكم واستئثارهم بالحكم والخلافة والفتك والتنكيل بمعارضيهم وهذه الفتن التي وقعت كان بعضها بسبب الصراع على الحكم والتنازع على السلطان، وكان بعضها الآخر بسبب نزعة الانفصال والاستقلال عن الدولة العباسية بينما كانت تارة بسبب البغي والطغيان في

الحكم، وقد عبر أبو العتاهية عن الحالة المتردية والحاجة المزرية شاكياً غلاء الأسعار وظلم العمال وانتشار البطالة إلى الخليفة:

من مبلغ عني الإمام ... نصائحاً متوالية
إني أرى الأسعار ... أسعار الرعية عالية
وأرى المكاسب نزرة ... وأرى الضرورة قاسية
وأرى غموم الدهر ... رائحة تمر وغادية
وأرى اليتامى والأرامل ... في البيوت الخالية
يشكون مجهدة بأصوات ... ضعاف عالية
من يرتجي للناس ... غيرك للعيون الباكية
من للبطون الجائعات ... والجسوم العارية

وقد سجل لنا القدماء أخبار بعض الفقراء اللصوص في هذه الاضطرابات والفتن، وأكثر ما كان ذلك في صراع الأمين مع المأمون حيث انتهز العيارون هذه الفرصة ونهبوا أموال التجارة، وكثر اللصوص وقطاع الطرق في مصر وفي خراسان كذلك، مما يدل على أن الاختلال الاقتصادي والاجتماعي كان له السبب الأكبر في ظهور الصعلكة. وحركة الصعلكة العباسية تختلف أبعادها وأدواتها عما كانت عليه في العهد الأموي والجاهلي؛ لأن الإسلام وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والعهد الراشدي جفف منابع ذلك.

إن حركة الصعلكة العباسية كان مكانها الحواضر والمدن لا الصحراء كما كان سابقاً بحيث استقر الصعاليك العباسيون مع أزواجهم وأولادهم في هذه الحواضر، وهذا ما جعلهم يحرصون على العناية بأولادهم ويعطفون عليهم بعكس الصعاليك الجاهليين الذين كانوا مغامرين لا يبالون بالموت ولا يخافون المكاره.

ومن الطرق التي اتبعها الصعاليك في العصر العباسي الهجاء الساخر الذي يلقونه إلى العامة والصبيان ليردِّدوه، وبالتالي ليجبر التاجر البخيل على دفع إتاوة للشاعر، كما صنع أبو فرعون الساسي وأبو الشمقمق وأبو الينبعي والحمدوني فهم هجاؤون كثيرو الفحش خبيثو

الألسنة سريعون إلى أعراض الناس قبحاً ورذالة، ومن ذلك ما قاله أبو الشمقمق في داود بن بكر والي فارس والأهواز عندما مدحه ولم يعطه:

ولـــــــه لحيـــــــة تـــــــيس ولـــــــه منقـــــــار نـــــــسر

ولـــــــه نكهـــــــة ليـــــــث خالطـــــــت نكهـــــــة صـــــــقر

وكذلك هجا أبو الينبعي الفضل بن مروان فأغرى به الواثق بحبسه حتى مات.

وعلى العموم فإن اللصوص لم يستخدموا السلاح والإغارة على فرائسهم، بل كانوا يحتالون لسرقة حاجاتهم يحتملون الضرب ويصبرون على العذاب حتى لا يفشوا أسرارهم، وبينما كان الطفيليون يشبعون حاجاتهم بالدخول إلى الأعراس وحضور الولائم دون دعوة.

وليس معنى ذلك أن الصعاليك العباسيين لم يكن فيهم من يغير أو يسلب وينهب كجعفر بن علبة الحارثي، دنيئاً يشرب ويلهو مع كونه فارساً شجاعاً شرب مرة فحبسه السلطان فقال:

لقـد زعمـوا أني سـكرت وربـما يكـون الفتـــى ســـكران وهـــو حلـــيم

لعمـرك مـا بالـسكر عـار عـلى الفتـى ولكـــن عـــاراً أن يقـــال لئـــيم

وإن امـــرأً دامـــت مواثيـــق عهـــده عـــلى دون مـــا لاقيمتـــه لكـــريم

وقد قتل على يد والي مكة بعد أن حوصر مع رفيقيه علي بن جندب الحارثي والنضر بن مضارب المعاوي، وفي ذلك يقول:

خلعـــت يمينـــاً بـــرة لم أرد بهـــا مقالـــة تـــسميع ولا قـــول باطـــل

ليخـــتطمن الهنـــدواني مـــنهم معـــاني قـــد يخـــشاها الطبيـــب المـــزاول

وهذا يدل على معاني عباسية لها جذور جاهلية، أما أبو الندى فقد قاد جيشاً من اللصوص وأغار على قرى الشام يتربص بالقوافل، وفي ذلك يقول بعد معركة بينه وبين ابن الوزير الجزري:

أقـــول إذا الرفـــاق بـــدت لـــوجهي ألا حلـــوا رحـــالكم وطـــيروا

وإن لم تتركوهـــــا فاســـــتعدوا لحـــرب مثـــل خاصـــية تغـــور

أقـــول لـــصحبتي كـــروا علـــيهم فلـــيس يهـــزهم إلا الكـــرور

ويعد بكر بن النطاح الشاعر من الصعاليك التوابين إذ كان بطلاً شجاعاً فارساً مقداماً حيث كان في صدر حياته صعلوكاً يصيب الطرق، ثم ما لبث أن تاب والتحق بجيش يزيد بن مزيد الشيباني القائد المشهور في عهد المهدي والهادي والرشيد فأجرى له راتباً، ثم غضب الرشيد منه؛ لأنه مدح يزيد فانتقص من شأن قريش في مدحه وانتقد الخلافة العباسية وما تقوم عليه ما من استبداد حين قال:

فـإن يـك جـد القـوم فهـر بـن مالـك فحـسبي فخـراً فخـر بكـر بـن وائـل

ولكـــنهم فـــازوا بـــإرث أبـــيهم وكنـــا عـــلى أمـــر مـــن الأمـــر باطـــل

كذلك اتصل بكر بن الفطاح بأبي دلف العجلي القائد المظفر لعصر الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم، فجعله من جنده وأجرى عليه رزقاً وانعقدت بينهما مودة وصداقة وقاد له جيوشاً لردع من كانوا يعيثون بعمله فساداً أو كان يريد التمرد والخروج على السلطان، وبقي معه ومع مالك بن علي الخزاعي حتى قتله الشراة بحلوان، وكان قد هزمهم قبل ذلك، فرثى بكر بن النطاح مالك بن علي الخزاعي قائلاً:

عـــز الغـــواة بـــه وذلـــت أمـــة محبـــوة بحقـــائق الإيـــمان

وبكـــاه مـــصحفه وصـــدر حـــسامه والمـــسلمون ودولـــة الـــسلطان

أفتحمـــد الـــدنيا وقـــد ذهبـــت بمـــن كـــان المجـــير لنـــا مـــن الحـــدثان

أما الصعاليك الفقراء فقد أكثروا من وصف فقرهم وإملاقهم وبؤسهم وتعاستهم وضيق حياتهم وحرمانهم ويأسهم لانقطاع أسباب رزقهم بينما عاش الأغنياء في سعة من العيش ونعم كثيرة على حساب فقر الناس، وإن هؤلاء الأغنياء سبب محنة الفقراء وبلائهم، وقد لخص الحمدوني وضع الشعراء الصعاليك الفقراء الهجائين قائلاً:

مـــن كـــان في الـــدنيا أخـــا ثـــروة فـــنحن مـــن نظـــارة الـــدنيا

نرمقهـــا مـــن كتـــب حـــسرة كأننـــا لفـــظ بـــلا معنـــى

وقد وصف هؤلاء الصعاليك عري أبنائهم وجوعهم واصفرار وجوههم وهزال أبدانهم، ومن ذلك قول الساسي:

وصـــبية: مثـــل صـــغار الـــذر ... ســـود الوجـــوه كـــسواد القـــدر
جـــاء الـــشتاء وهـــم بـــشر ... بغـــير قمـــص وبغـــير أزر
تـــراهم بعـــد صـــلاة العـــصر ... وبعـــضهم ملتـــصق بـــصدري
وبعـــضهم ملتـــصق بظهـــري ... وبعـــضهم منحجـــر بحجـــري
إذا بكـــوا علـــتهم بـــالفجر ... حتـــى إذا لاح عمـــود الفجـــر
كـــأنهم خنـــافس في حجـــر ... هـــذا جميـــع قـــصتي وأمـــري

كذلك كان أبو الشمقمق همه خبز عياله شأنه شأن الشعراء الصعاليك، ولقد استخدم الشعراء الفقراء من الصعاليك وسائل عدة لنيل أرزاقهم كاستخدام الرقاع ورفع الشكوى لكبار رجال الدولة من القضاة والوزراء والإشراف طالبين مساعدتهم كما صنع أبو فرعون الساسي حين كتب إلى قاضي البصرة:

يـا قـاضي البـصرة ذا الوجـه الأغـر ... إليـك أشـكو مـا مـضى ومـا غـبر
عفـا زمـان وشـتاء قـد حـضر ... إن أبـا عمـرة في بيتـي انحجـر
يـضرب بالـدف وإن شـاء زمـر ... فـاطرده عنـي بـدقيق ينتظـر

فأجابه القاضي إلى ما سأل.

وهذا أبو الشمقمق يستعدي بعض الهاشميين على الفقر قائلاً:

يـا أيهـا الملـك الـذي ... جمـع الجلالـة والوقـاره
إني رأيتـك في المنـام ... وعـدتني منـك الزيـارة
فغـدوت نحـوك قاصـداً ... وعليـك تـصديق العبـارة
إن العيـال تـركتهم ... بالمـصر خبـزهم العـصارة
وشرابهـم بـول الحـمار ... مزاجـه بـول الحـمارة

ضـــــجوا فقلـــــت تـــــصبروا فـــــالنجح يقـــــرن بالـــــصبارة

حتـــــــى أزور الهاشـــــــمي أخـــــا الغـــــضارة والنـــــضارة

وكان هؤلاء الشعراء الصعاليك يمدحون " العمال والكتاب " وبعض أبناء البيت الهاشمي مما لم يكن لهم شأن كبير وأكثر مديح الصعاليك متضمن الشكوى والاستعطاف مما دفع ممدوحيهم للصدود عنهم، ومديح أبي فرعون الساسي للحسن بن سهل وزير المأمون أوضح مثال لذلك:

إليـــك أشـــكو صـــبية وأمهـــم لا يـــشبعون وأبـــوهم مـــثلهم

قـــد أكلـــوا اللحـــم ولم يـــشبعهم وشربـــوا المـــاء فطـــال شربهـــم

وامتـــذقوا المـــذاق فـــما أغنـــاهم والمـــضغ إن نـــالوه فهـــو عرســـهم

لا يعرفـــون الخبـــز إلا باســـمه والتمـــر هيهـــات فلـــيس عنـــدهم

ومـــا رأوا فاكهـــة في ســـوقها ولا رأوهـــا وهـــي تنحـــو نحـــوهم

وكذلك اتخذ الشعراء الفقراء طريقة الهجاء سلاحاً لكسب قوتهم، وكان هؤلاء الشعراء يستخدمون فاحش القول وخبث اللسان، ومن هذا النوع قول أبي الشمقمق يهجو رجلاً يسمى معبداً:

يـــا مـــن يؤمِّـــل معبـــدا مـــن بـــين أهـــل زمانـــه

لـــو أن في اســـمك درهمـــا لاســـتله بلـــسانه

وكذلك قوله يهجو القائد سعيد بن سلم الباهلي هجاءً مزج فيه بين التحقير والسخرية مع بيان بخله:

هيهـــات تـــضرب في حديـــد بـــارد إن كنـــت تمطـــح في نـــوال ســـعيد

والله لـــو ملـــك البحـــار بأسرهـــا وأتـــاه ســـلم في زمـــان مـــدود

يبغيـــه منهـــا شربـــة لطهـــوره لأبـــى وقـــال تـــيممن بـــصعيد

ويقول الحمدوني هاجياً الجاحظ:

لـــو يمـــسخ الخنزيـــر مـــسخاً ثانيـــا لرأيتـــه مـــن دون قبـــيح الجـــاحظ

ويقول في هجاء أحمد بن حرب المهلبي بعد أن وهبه طيلساناً قديماً لم يعجبه:

رأينـــا طيلـــسانك يـــا ابـــن حـــرب يزيـــد المـــرء ذا الـــضعة اتـــساعا

إذا الرفّـــاء أصـــلح منـــه بعـــضا تـــداعى بعـــضه البـــاقي انطواعـــا

ولقد شكل اللصوص في العصر العباسي حركة قوية، ومنظمة أفرادها على درجة عالية من الوعي الاجتماعي والثقافة الواسعة والمعرفة الصحيحة بمفاسد الحكام وطغيانهم واختلال الأوضاع الاقتصادية وطمع التجار وعدم أداء حقوق الفقراء الواجبة على الأغنياء، وقد كان لهؤلاء اللصوص لباسهم الخاص بهم مع كونهم أذكياء يدربون بعضهم على اللصوصية وقد حملوا مبادئ رفيعة حافظوا عليها حيث كان أفرادها يتخذون شكل العصابات التي تنتشر في المدن حيث يقوم كل فرد من العصابة بعمل بعينه ودور خاص به، وقد كان اللصوص العباسيون يمارسون أعمالهم بالحذر والحيطة والمراقبة من الأعوان والمساعدين حين يريدون السطو على الأسواق أو سرقة التجار.

وبما أن اللصوص العباسيين قد نشؤوا في بيئة حضرية ومجتمع مستقر ومدن كبيرة فقد غيَّروا وسائلهم وبدلوها بحسب الواقع والحال فاعتمدوا الخداع والحيل اللطيفة والخدع الخفيفة حتى يضمنوا النجاح لأعمالهم في كل مكان، فقد ابتدعوا للمسجد حيلة وللسوق حيلة وللمسافر حيلة وللسائر في الطرق حيلة وللتجار حيلة وللدور حيلة.ففي المساجد التي يأوي إليها التجار ينتظرون التاجر حتى يدخل ويصلي ويضع ماله تحت رأسه وينام يربطون رجله بحبل متين مشدود إلى وتد قوي، ثم يستلون صرته أو كيسه، فإن لم يشعر بهم فروا آمنين وإن أفاق وأحس أنه سرق وانطلق يعدو خلفهم لم يمكنه الاستمرار بالعدو.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء اللصوص كانوا ذوي مبادئ وأهداف فلا يسرقون إلا التجار الذين يمتنعون عن الزكاة أو التجار الكاذبين المخادعين الذين يأكلون أموال الناس ظلماً وعدواناً أو التجار الخونة، أما الأثرياء الكرماء فكانوا يحترمونهم ويقدرونهم ولا يصيبونهم بسوء، وكذلك كانوا يسطون على البخلاء وفي ذلك يقول أحدهم:

وعيابـــة للجـــود لم تـــدر أننـــي بإنهـــاب مـــال البـــاخلين موكـــل

غـــدوت عـــلى مـــا احتـــازه فحويتـــه وغادرتـــه ذا حـــيرة يتململـــل

وقد يلص أحـدهم كعـثمان الخيـاط عـلى حـواشي الخلفـاء المتمتعـين بزينـة الحيـاة الـدنيا والشحاذين وقطاع الطرق والفاسقين العابثين والأغنياء المترفين:

ســأبقي الفتـــى إمـــا جلـــيس خليفـــة يقـــوم ســـواء أو مخيـــف ســـبيل

وأسرق مـــال الله مـــن كـــل فـــاجر وذي بطنـــة للطيبـــات أكـــول

ومع ذلك فكان هؤلاء اللصوص مراعين لحق الجوار لا يجازون سيئة بسيئة صادقين أوفياء بالعهد والأمانة في المعاملة، وقد اصطلحوا على تسمية أعمالهم بالفتوة.

ولا ينبغي أن ننسى فئة العيارين أولئك الأحباش والأفارقة الذين جُلبوا للخدمة في مختلف الميادين كالقصور والمزارع فشعروا بالضيق ووعورة العيش وظُلموا فاضطروا للثورة والتمرد والاكتساب الرزق بالتلصص والسرقة مما جعلهم يدخلون السجون.

وفي ذلك يقول أحدهم:

ومـــا قتـــل الأبطـــال مثـــل مجـــرب رســـول المنايـــا ليلـــه يتلـــصص

وقد أثبت هؤلاء العيارون مقدرتهم الحربية في أصعب المواقف:

خرجـــت هـــذه الحـــروب رجـــالا لا لقحطانهـــــا ولا لنـــــزار

معـــشراً في جواشـــن الـــصوف يعـــدون إلى الحـــرب كالأســـود الـــضواري

وكذلك يجب ألا نغفل اللصوص الشطار الفتيان الذين تركوا أهلهم مراغماً وتمـردوا عـلى مجتمعاتهم بالتلصص والسرقة يتفننون أوقات الفوضى في المدن ويغيرون على التجار والأغنياء والقرى ويتسولون على ما يستطيعون نهبه وحمله يحملون مبـادئ وأهـداف محمـودة ويعرفـون بالفتيان وقد حمل العوز إسحق الحنفي على الانضمام لركب الشطار لكي يوفر لابنة أخته التـي يتبناها ورباها بُلغ العيش ويجنبها السؤال:

لـــولا أميمـــة لم أجـــزع مـــن العـــدم ولم أجـــب في الليـــالي حنـــدس الظلـــم

وزادني رغبـــة في العـــيش معرفتـــي ذل اليتيمـــة يجفوهـــا ذوو الـــرحم
أحـــاذر الفقـــر يومـــاً أن يلـــم بهـــا فيهتـك الـستر عـن لحـم عـلى وضـم
تهـوى حيـاتي وأهـوى موتهـا شـفقا والمـوت أكـرم نـزَّالٍ عـلى الحُـرَم
أخـشى فظاظـة عـم أو جفـاء أخ فكنـت أبقـي عليهـا مـن أذى الكلـم

وقد عدل الشاعر عن اللصوصية إلى المدح والهجاء للتأثير على كبار رجال الدولة علهم يواسونه ببعض المال. وكذلك ظهرت فئة التطفيل الذين كانوا يأتون الولائم من غير أن يدعوا إليها بسبب عدم حيائهم وشح الأثرياء وقعودهم عن مساعدة الضعفاء ومواساة الجائعين،وقد عبر عن ذلك أحدهم حين قال:

ولمـا رأيـت النـاس ضـنوا بمالهـم فلـم يـك فـيهم مـن العـيش إلى الفـضل
ولم أر فـيهم داعيـاً لابـن فاقـة يمـن إلى شرب ويـصبو إلى أكـل
ركبـت طفيليـاً وطوفـت فـيهم ولم أكـترث للحلـم والعلـم والأصـل

ومن أعلام التطفيل "طفيل بن زلال" و"عثمان بن درج" الذي يقول:

لـذة التطفيـل دومـي وأقيمـي لا تريمـي
أنـت تـشفين علـيلي وتـسلين همـومي

فالطفيليون والشطار والعيارون فقراء جائعون لا يميلون إلى التلصص على الناس ونهبهم، بل إلى الحيلة لتحصيل رزقهم.

الباب الخامس

أبرز أعلام الشعر
في العصر العباسي

كثر الشعر الذي كتبه الرجال في العصر العباسي وكذلك النساء،ولم يكن الشعر النسائي في المجتمع العباسي مقصوراً على الحرائر وحدهن دون القيان،فقد غض ذلك المجتمع بالكثير من الجواري اللائي سكن القصور واستولين في كثير من الحالات على قلوب أصحاب القصور أنفسهم، وإذا كانت أساليب القيان في الاستيلاء على إعجاب مواليهن قد قامت في وقت ما على ما تملكه الجارية من لباقة وجمال وإظهار أسباب الدلال، ثم أضيف إلى ذلك عزف بارع وصوت حسن وغناء متقن أخّاذ، فإن الأمر ما لبث أن تطور فأصبح القيانون يحرصون قدر استطاعتهم على أن يعدوا جواريهم إعداداً أدبياً ويخرجوهن على اللغة ويدربوهن على قول الشعر، فنبغ من بينهن القينات الشاعرات الموهوبات، وبعض أولئك جمعن إلى إجادة الشعر جمال الصوت وإتقان العزف وبراعة الضرب وحسن الأداء مع جمال وافر وبديهة حاضرة ونكته سريعة في غير تحرج من فحش اللفظ سماعاً أو قولاً. لقد وجد عدد غير قليل من هؤلاء الشاعرات القيان اللاتي فرضن أنفسهن على بغداد فشغلن الناس فيها ابتداء من الخليفة في قصره مروراً عبر طبقات المجتمع وصولاً إلى الفقير في كوخه، وأكثر هؤلاء كن منحرفات منحلات وراء ستار من التظاهر بالظرف واصطناع الفكاهة، ولعل أشهر من شغل مجتمع ((العباسية) من هؤلاء القيان عنان جارية الناطفي – أو النطاف – وفضل التي عرفت بأنها جارية المتوكل وعريب التي عرفت باسم عريب المأمونية لشدة تعلق المأمون بها.

غير أن هذا السلوك المنحرف عن جادة الفضيلة لم يكن ظاهرة عامة بحيث شمل جميع الجواري والقيان الشاعرات، لقد وجد من بينهن الصالحات الفاضلات من أمثال سكن جارية محمود بن الوراق وخنساء جارية هشام المكفوف وسنذكر أهم الشعراء والشاعرات. إننا نضع الشعر العباسي من حيث موضوعاته وأساليبه في إطارين متباينين لفريقين مختلفين.

الإطار الأول: هو إطار البيت السهل التركيب في القصيدة أو المقطوعة الناعمة الإنشاء، وأكثر هذا الشعر لا يكاد يصدر عن عاطفة، ولكنه يصدر عن اصطناع للعاطفة أو ابتداع للظرف، وأكثره شعر اجتماعي أو شعر مناسبات، ولا نستطيع أن نسجل لهذا الفريق من الشاعرات شيئاً أكثر من أنهن عايشن مجتمعهن، وكان شعرهن في نطاق أنوثتهن سهلاً بسيطاً

محدود ملكة الإبداع إلا في حالات قليلة، إن الفريق الذي يتمثل داخل هذا الإطار هو فريق الشاعرات القيان ومن كن في سلوكهن وعيشهن قريبات من سلوك القيان، ومن ثم فإن الشاعرة علية بنت المهدي تعتبر واحدة من هذا الفريق.

والإطار الثاني: فهو إطار القصيدة النسائية العربية المتماسكة المصقولة ذات الموضوع والرونق والديباجة والأحكام، ولا شك في أن هذه السمات الموضوعية والأسلوبية مرتبطة أيضاً بطبيعة هذا الفريق الثاني من الشاعرات وبالموضوعات التي كن يعالجنها من خلال قصائدهن، إنهن فريق الحرائر اللائي كابدن قضايا كبيرة وعشن حياة جليلة خطيرة دفعت بهن إلى القول الجاد الذي ارتفع إلى مستوى الأحداث والقضايا التي عايشنها وعالجنها، ونحن نعني بهذا الفريق الفارعة بنت طريف الشيبانية وولادة المهزمية، ونلحق بهما من الجواري من سلكن سبيل الحرائر، وبالتالي يندرج في نفس الإطار ((سكن)) جارية محمود الوراق ((وخنساء)) جارية هشام المكفوف.

أ - الشواعر الإناث

(١)

علية بنت المهدي

عرفت المرأة العربية بقول الشعر سلساً فصيحاً بليغاً في الجاهلية والإسلام وعصر بني أمية، وكان أمراً طبيعياً أن تنبغ شاعرات من بين النساء في عصر بني العباس، غير أن طبيعة البيئة العباسية التي فصلنا الكثير من جوانبها في فصول سلفت لم تقدم لنا الشاعرة الحرة القول العفيفة المشاعر النقية الحب على ما ألف الشعر العربي وإلفنا نحن بالنسبة للعصور السابقة. صحيح أنه وجد بين الشاعرات الجاهليات والإسلاميات من غرقن في الحب واكتوين بلوعة، ولكن واحدة منهن لم تخرج عن الجادة ولم تترخص أو تتهافت كما فعلت أكثر شاعرات ((العباسية)) ولا زالت بعض أنغام العفة تترنح في دلال على عتبات أسماعنا في قول ليلى الأخيلية لصاحبها توبة الحميري وقد ظنت أنه أراد بها ريبة:

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

أما في العصر العباسي فإن هذه القيم قد انمحت أو كادت، بل إن الشاعرات قد تناقص عددهن بالنسبة إلى عددهن في العصور السابقات. على أن أشهر الشاعرات العباسيات على الإطلاق كانت أميرة عباسية أبوها كان خليفة هو المهدي بن المنصور، وثلاثة إخوة لها كانوا خلفاء، أحدهم أشهر خلفاء بني العباس على الإطلاق وهو هارون الرشيد، والأخوان الآخران هما موسى الهادي وإبراهيم بن المهدي، وهذا الأخير ولي الخلافة في بغداد لبعض الوقت حين خلع المأمون.

وكذلك شهدت ابنين من أبناء أخيها جلسا على عرش بني العباس هما الأمين والمأمون، تلك هي الأميرة العباسية الشاعرة علية بنت المهدي أخت الرشيد والهادي وإبراهيم من

الأب، أما أمها فكانت جارية مغنية اسمها مكنونة، اشتراها المهدي في حياة أبيه بمئة ألف درهم فولدت له علية التي تعرف أحياناً باسم العباسة.

لم تكن علية شاعرة وحسب وإنما كانت تجيد العزف وتحسن الغناء، وكان الرشيد يذهب إليها لكي يطرب بالاستماع إليها تغني شعراً في مديحه من إنشائها وغنائها، وكذلك كان يستمع إليها ابنا أخيها الأمين ثم المأمون. أما أخوها إبراهيم فكان مثلها شاعراً عازفاً مغنياً، وكان يأخذ عنها الألحان ويرددها، حتى أن الأصبهاني يردد خبراً مفاده أنه ما اجتمع في الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته علية، وعلى الرغم مما ذاع عن علية من مغامرات في الحب مع غلاميها ((رشا)) و((طل)) وما ذاع من قصائد التشبيب بهما، فإن الأصبهاني ينسب إلى أحد المقربين من بني العباس قوله: إنها كانت حسنة الدين لا تغني ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة.

فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ولا تلذ بشيء غير قول الشعر، وينسب إليها كلام جميل المعاني مثل قولها: ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل فيما حلل منه عوضاً، فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته؟ أو قولها عن نفسها: لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط، ولا أقول الشعر إلا عبثاً.

على كل حال كانت تشرب وتغني وتعبث وتتغزل، ولقد سبق لعمر بن أبي ربيعة أن قال كلاماً شبيهاً بهذا فنرجو أن يكون كلاهما صادقاً، والله أعلم بالسرائر.

على أن الأمر الذي لا شك فيه أن عليّة كانت شاعرة رقيقة وكانت ذكية واسعة الثقافة الشيء الذي يبدو جلياً في شعرها ما كان منه في الغزل أو في أغراض أخرى على قلتها وأكثرت ما قالت عليه من شعر قالته في الغزل والحب وأتت فيه بأفكار شتى، وطلعت على الناس منه بصور عديدة فيها حلية ورقة ولطف وفكاهة، ويبدو أنها نفسها كانت فكهة مرحة شأن أكثر أصحاب الفنون، ولكنها كانت موجعة في هجائها مسرفة فيه مريرة في سبابها، فقد هجت جارية اسمها ((طغيان)) لوشاية قامت بها تجاه من تحب فقالت فيها أبياتاً ثلاثة من أشنع ما تهجى به امرأة نذكر منها اثنين فقط ونمسك عن الثالث:

لطغيان خف مذ ثلاثين حجة جديد فلا يبلى ولا يتحرق

وكيف بلا خف هو الدهر كله على قدميها في الهواء معلق

فإذا ما انتقلنا إلى غزلها فإننا نلمس أنه مر في أطوار عدة:

١ - الطور الأول هو مرحلة التكبر والاستعلاء على الناس أجمعين، وأنها تخلو وحدها إلى الراح تنادمها؛ لأنها لم تجد الصاحب الكفء الذي يصلح لمنادمتها ومشاركتها فتقول:

خلوت بالراح أناجيها آمنها وأعاطيها

نادمتها إذ لم أجد صاحبا أرضاه أن يشركني فيها

ثم لا تلبث الأميرة أن تعشق، وتفصح عن عواطف حبها، ولكنها تلوذ بالكتمان وتتسربل بالحياء، وتود السفر إلى بلد ناء بعيد حتى تنطق باسم الحبيب:

كتمت اسم الحبيب عن العباد ورددت الصبابة في فؤادي

فواشوقي إلى بلد خلي لعلي باسم من أهوى أنادي

ويبدو أن الحب قد ملك عليها بعد زمان أمرها، فأصبحت لا البعد يسليها، ولا القرب يشفيها، فراحت تفلسف الحب وتجعل منه قضية منطقية ذات مقدمة ونتيجة ولكنها قضية تنمُّ عن يأس ولوعة:

إذا كنت لا يسليك عمن تحبه تناء ولا يشفيك طول تلاقي

فما أنت إلا مستعير حشاشة لمهجة نفس آذنت بفراق

وتمضي الشاعرة الأميرة المحبة المثقفة فتدلف بالحب إلى منعطفات فلسفية ذاتية وتحاول أن تصبغ حالاته معها بصيغة الحكمة، وربما تصورت أن أبياتها سوف تذيع يوماً ما وتجري مجرى الأمثال، فتقول هذا الشعر اللطيف الذي ربما عمدت فيه إلى التظرف أكثر مما عمدت فيه إلى نهج من الجدية:

بُني الحب على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمج

ليس يستحسن في وصف الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج

لا تعيبن من محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج

وقليـــل الحـــب صرفـــاً خالـــصا لـــك خـــير مـــن كثـــير قـــد مـــزج

وعليّة ذكية فطنة ذات ثقافية دينية الفقهية فيما يبدو، أنها تستعمل المصطلحات الفقيهة في شعر الغزل برشاقة تحسد عليها وأسلوب ينمُّ عن نفس صافية عذبة وشاعرية خصبة تنثال عليها المعاني ميسرة الأسباب متى استدعتها، إنها تشكو الحب وخطبه - فالحب عندها من المصائب - بهذا الأسلوب الرائق الصوغ:

لـــيس خطـــب الهـــوى بخطـــب يـــسير لـــيس ينبيـــك عنـــه مثـــل خبـــير

لـــيس أمـــر الهـــوى يـــدبر بـــالرأي ولا بالقيـــــــاس والتفكـــــــير

ويلح سلطان الحب على شاعرة بني العباس فتشكو الأم الحب ولوعة الجوى شكوى صريحة بعيدة عن الاستتار واصطناع الأقنعة الكلامية، وتحاول أن تجامل محبوبها بخلع صفات الجمال عليه، ولا تنسى نصيبها هي الأخرى من إطراء نفسها ترغيباً له وإثارة وإشفاقاً فتقول بأسلوب يكاد يقترب من أسلوب الصوفية:

لم ينـــــسنيك سرور لا ولا حـــــزن وكيـف لا كيـف يُنـسى وجهـك الحـسن

ولا خـــلا منـــك لا قلبـــي ولا جـــسدي كـــلي بكلـــك مـــشغول ومـــرتهن

وحيـدة الحـسن مـا لي عنـك مـذ كلفـت نفـــسي بحبـــك إلا الهـــم والحـــزن

نـــور تولـــد مـــن شـــمس ومـــن قمـــر حتـــى تكامـــل فيـــه الـــروح والبـــدن

ويحدث تطور في شعر الغزل عند عليّة حين تعلن حبها لإنسان بعينه، وتفصح عن أنها تقول فيه شعرها، ولكنها تعلن في نفس الوقت أنها تعمد إلى التعمية فتكني عنه باسم زينب، ولم تكن زينب هذه سوى غلامها رشا الذي قالت فيه شعراً كثيراً.

وجـــــد الفـــــؤاد بزينبـــــا وجـــــداً شـــــديداً متعبـــــا

أصـــبحت مـــن كلمـــي بهـــا أدي ســـــــقيماً منـــــــصبا

ولقـــد كنيـــت عـــن اســـمها عمـــــداً لكـــــي لا تغـــــضبا

وجعلـــــت زينـــــب ســـــترة وكتمـــــت أمـــــراً معجبـــــا

قالـــت لقـــد عـــز الوصـــال ولـــم أجـــد لـــي مـــذهبا
والله لا نلـــت المـــودة أو تنـــال الكوكبـــا

ولم يكن ((رشا)) الفتى الوحيد الذي استولى على قلب عليّة، بل كان هناك فتى آخر يصارع قلبها حبه ربما أكثر مما كان يحتله رشا منه، إن هذا الفتى الثاني هو ((طل)) ويبدو أن علية كانت تحب ((طلاً)) حباً حقيقياً فبعض شعرها فيه شبيه إلى حد ما بشعر العذريين، وكانت تعمد إلى التورية حين تتغزل فيه ذاكرة اسمه، ولكنها تورية عذبة لطيفة، إنها تقول في أبياتها تلك الغزلية التي جمعت بين التورية والعذرية:

أيـا سروة البستان طـال تشوقي فهـل لي إلى ((طـل)) لديـك سـبيل
متى يلتقي من ليس يقضي خروجه وليس لما يقضي إليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا فيلقى اغتباطاً خلة وخليل

ويستبد حب علية لطل ويحتجب عنها فترة زمنية تطول بعض الوقت ربما خشية على حياته من بطش الرشيد فيدفع الشوق بالأميرة إلى أن تخاطر بالسعي إليه على ميزاب وتحس علية بالمخاطرة التي أقدمت عليها وهي مخاطرة لا يقدم عليها العاشقون من الرجال، فما بالك إذا كان الذي قام بها ليس مجرد أنثى ولكنها أميرة خطيرة، إنها على كل حال لا تخفي مشاعرها نحو هذة الحادثة وتذكرها في هذين البيتين:

قـد كـان مـا كلفتـة زمنـا يـا طـل مـن وجـد بكـم يكفـي
حتـى أتيتـك زائـراً عجـلا أمـشي عـلى حتـف إلى حتفـي

ويعلم الرشيد بقصة غرام أخته وفتاها (طل) فينهرها ويأخذ عليها عهداً ألا تكلم (طلاً) ولا تسميه باسمه وتستجيب الأميرة لرغبة أخيها الخليفة، ثم تلعب المصادفات الطريفة دوراً فكهاً حين يمر الرشيد على مقربة من أخته وهي تدرس آيات من سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله تعالى: (فإن لم يصبها وابل فطل) وتفطن الأميرة إلى لفظ (طل)الذي ورد في الآية وتتذكر أنها أقسمت ألا تنطق هذه الكلمة أخذت علي فتقرأ الآية هكذا: فإن لم يصبها وابل فالذي

نهانا عنه أمير المؤمنين، وهنا يدخل الرشيد ويمد يده إليها ويقبل رأسها ويقول لها قد وهبت لك (طلاً) ولا أمنعك بعد ذلك من شيء تريدينه.

وكأنما أخذت علية من أخيها بهذا التصريح ميثاق تحرر وانطلاق وانفلات فطفقت تقول في الحب والغزل قول من لا يخشى ولا يتحرج، وكأنما جعلت من نفسها سادنة لفن الغزل وأساليب القول فيه، فأخذ أسلوبها يرق ومعانيها تعذب إلى أن وصلت إلى هذه المرتبة في الحديث إلى العاشقين وحضهم على العشق قائلة:

تحبب فإن الحب داعية الحب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبصَّر فإن حدثت أن أخا هوى ... نجا سالماً فارج النجاة من الحب

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا ... فأين حلاوات الرسائل والكتب

إن عليّة شاعرة كبيرة ما في ذلك شك، ولكنها شاعرة في نطاق أنوثتها بحيث إذا ما قورن شعرها بشعر الشعراء من الرجال فربما خبا ضوءه وخفت صوته، إنها أستاذة الشاعرة الأميرة ولادة بنت الخليفة المستكفي بالله الأندلسي، التي ظهرت هناك بعد ذلك مما يناهز ثلاثة قرون من الزمان، ولكن علية على كل ما نسب إليها حقاً كان أو باطلاً، لم تنس أنها من بيت الخلافة فلم ترد في غزلها كلمة نابية أو معنى خارج على حدود المألوف اللهم إلا في حالات قليلة، ربما لم تقصد بشعرها الذي قيل في تلك الظروف الخاصة إلى إذاعته وروايته وترديده. ثم إنها حين مدحت لم تمدح غير أبناء أسرتها مثل الرشيد وولديه الأمين والمأمون، ولكننا ينبغي أيضاً أن نحكم ربطها بالبيئة الاجتماعية للدولة العباسية فهي تغني ويسمعها أخوها الخليفة وابنا أخيها الخليفتان، وهي تعشق وتتغزل وتهذي بمن تحب تحت سمع الخليفة وبصره فلا يفعل أول الأمر أكثر من أن يزجرها بلطف، ثم لا يلبث أن يهبها الغلام الذي ملأت الدنيا صراخاً بحبه وهجره، إنها ظاهرة اجتماعية عباسية فارسية غير عربية على كل حال..

ولذلك فإن كلاً من علية هذه وأخيها إبراهيم بن المهدي كانا من السوءات التي استغلها الشعراء من أعداء بني العباس وبخاصة شعراء الشيعة، واستطاعوا أن ينالوا من خلق الخلافة العباسية ومن سمعة البيت العباسي بسببهما نيلاً كثيراً، خصوصاً حينما كانوا يجرون

المقارنات بين حشمة وطهارة نساء آل البيت ورجاله وبين مجون وانفلات نساء بيت بني العباس ورجاله.

(٢)

الفارعة بنت طريف

إذا كانت علية قد نشأت في بيت الملك وتحت سقوف القصور المذهبة فإن الفارغة بنت طريف الشيبانية كانت على العكس من ذلك، إن الفارعة التي اختلفت المصادر في اسمها الحقيقي فسمتها ليلى تارة وفاطمة تارة أخرى شاعرة فارسة خاضت غمار الحب ممتطية صهوة جوادها لابسة درعها ممسكة بجوشنها شاهرة سيفها غير هيابة ولا رعديدة، إنها أخت الفارس الخارجي الوليد بن طريف الشيباني الذي لقب بالشاري، وهو اللقب الذي اصطلح الخوارج على تسمية الواحد منهم به، وكان الوليد رأساً للخوارج على أيام الرشيد مقيماً بنصيبين والخابور وما حولهما من نواح، وكان شجاعاً صاحب بأس وصولة، جريئاً مقداماً جسوراً قوي الشوكة بحيث كان سكان ضواحي بغداد لا يأمنون نزوله إليهم وغارته عليهم، فبعث إليه الرشيد قائده الفارس المشهور يزيد وقتل الوليد، كان ذلك سنة ١٧٩ هـ.

وتعلم الفارعة بمقتل أخيها البطل المغوار فتلبس لباس الحرب وتهاجم جيش يزيد الذي يكشف أمرها فيواجهها ويطاردها، ويضرب بسيفه مؤخرة فرسها قائلاً: اغربي، لقد فضحت العشيرة، يريد عشيرة بني شيبان التي ينتسب إليها كل من يزيد والوليد وأخته الفارعة.

ويبلغ التأثر بالفارعة مبلغاً عظيماً لفقد أخيها البطل الشجاع، وكانت شاعرة بليغة مالكة ناصية القصيد، فتقول في رثائه من جزل الشعر ما يجعلها شبيهة بالخنساء في رثاء أخيها صخر، غير أن الفارعة ربما كانت أطول نفساً وأجزل عبارة، فأنشأت قصيدتها الفائية الرائعة في رثاء الوليد واقفة على القبر في المكان الذي صرع فيه قائله:

ألا قاتل الله الجُشا كيف أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عيوف

فإلا تجبني دمنة هي دونه ... فقد طال تسليمي وطال وقوفي

وقد علمت أن لا ضعيفاً تضمنت ... إذا عظم المرزى ولا ابن ضعيف

ولهول الفجيعة في أخيها البطل تطلب الفارعة من الدنيا كلها أن تحزن لقتله، إنه جدير بأن تحزن الدنيا عليه، فهو ثائر على الظلم خارج على الجور متعشق للحرية، تقدَّم إلى ساحة المعركة التي قتل فيها بعد أن أبلى أحسن البلاء وهو يقول:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلى بناري

جوركم أخرجني من داري

إن من كانت هذه شجاعته يستحق أن يحزن عليه عديد من الناس، بل الأرض التي خرَّ فيها صريعاً في منطقة الخابور الخضراء ذات الأشجار المورقة، الأمر الذي يجعل الفارعة تؤنب الشجر على اخضراره وإيراقه وتطلب إليه الجفاف والتعري، ثم تمضي خالعة أنبل الصفات على أخيها البطل الفارس الصريع قائلة:

فيا شجر الخابور ما لك مورقا كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يلوم السيف حين يهزه إذا ما اختلى من عاتق وصليف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قناً وسيوف

ولا الخيل إلا كل جرداء صلدم وأجرد ضخم المنكبين عطوف

فقدناه فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف

وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدو أو لجاً لضعيف

حليف الندى إن عاش يرضى به الندى وإن مات لا يرضى الندى بحليف

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيا رب خيل فضها وصفوف

وتمضي الفارعة في قصيدتها الحزينة الجزلة الباهرة مصورة صنوفاً من الحزن، مولدة ألواناً من الجزع على الوليد وما أصاب قومه فيه من رزء،فقد كان يشتمل بصفات من البطولة والحمد لا تكاد تتجمع في أحد من بني قومه، وتمضي الأبيات هكذا:

ألا يا لقومي للنوائب والردى ودهر ملح بالكرام عنيف

وللبدر من بين الكواكب إذ هوى وللشمس همت بعده بكسوف

ولليث فوق النعش إذ يحملونه ... إلى حفرة ملحودة وسعوف
بكت تغلب الغلباء يوم وفاته ... وأبرز منها كل ذات نصيف
يقلن وقد أبرزن بعدك للورى ... معايد حلي من برى وشنوف
كأنك لم تشهد مصاعاً ولم تقم ... مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تشتمل يوم الوغى بكتيبة ... ولم تبد في خضراء ذات رفيف
دلاص ترى فيها كدوحاً من القنا ... ومن ذلق يعجمنها بحروف
وطعنة خلس قد طعنت مُرِشَّة ... على يزني كالشهاب رعوف

وتطرق الفارعة معاني كثيرة عديدة في رثاء أخيها وذكره والبكاء عليه وتوبخ قومه لعدم الثبات معه في الحرب فضيعوه وضيعوا أنفسهم،بل إنها توبخ السيوف التي أصابت جسمه،ولو قد علمت من تصيبه لنبت عنه وارتدت هيبة وخوفاً،وهو معنى جميل وتعليل بارع جرى على لسان الشاعرة الفارسة:

ذكرت الوليد وأيامه ... إذ الأرض من شخصه بلقع
فأقبلت أطلبه في السماء ... كما يبتغي أنفه الأجدع
أضاعك قومك فليطلبوا ... إفادة مثل الذي ضيعوا
لو أن السيوف التي حدها ... يصيبك تعلم ما تصنع
نبت عنك إذ جعلت هيبة ... وخوفاً لصولك لا تقطع

(٣)

ولادة المهزمية البصرية

واحدة من الشاعرات الحرائر، وهي قريبة لأبي هفان عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي الراوية المعروف. لقد روى أبو هفان لولادة شعر جزلاً فخماً، فيه فحولة الأوائل ورصانة المجيدين وقوة المتمكنين.بل إن الأنموذج الذي وصل إلينا من شعرها ربما لم يرق إلى مستواه الفني بعض شعر كثير من الشعراء الكبار.

إن ولادة المهزمية البصرية المشرقية – وهي غير ولادة بنت المستكفي بطبيعة الحال – تفخر بشمائلها ومكانتها وبقومها بهذه الأبيات الجليلة البناء البارعة الإنشاء فتقول:

لولا اتقاء الله قمت بمخفر ... لا يبلغ الثقلان فيه مقامي

بأبوة في الجاهلية سادة ... بزوا العلا أمراء في الإسلام

جادوا فسادوا مانعين أذاهم ... لنداهم بذل على الأقوام

قد أنجبوا في السؤددين وأنجبوا ... بنجابة الأخوال والأعمام

قوم إذا سكتوا تكلم مجدهم ... عنهم فأخرس دون كل كلام

إن هذا الضرب من الشعر فن جزل، حافظ على رونق الشعر العربي وفخامته،بحيث يشكل نمطاً وسطاً بين رقة المدينة وخشونة البداوة، ولعل حياء المرأة غير الحضرية أو عدم احتفالها بنشر شعرها كان يحول بينها وبين أن تنشر ذلك الشعر،وهناك سبب آخر وجود هذا النوع من الشاعرات بعيدات عن عاصمة الدولة،ومن ثم يكون القليل منه الذي وصل إلينا هو بعض الذي جرى على ألسنة الرواة فردَّده بعض المتأدبين.

(٤)

عنان الناطفية:

٠٠٠ - ٢٢٦ هـ

كانت عنان من أشهر جواري زمانها لفصاحتها وبلاغتها وسرعة بديهتها وحدة خاطرها، ولانحراف مولاها الناطفي الذي كان يجمع لها الشعراء في بيته على موائد الخمر فتتناشد معهم الشعر الجيد والرديء والعف والبذيء، أو بالأحرى الذي كان أقله جداً وأكثره بذاءة، ولا غرابة في ذلك فقد كانت هذه طبيعة هذا القطاع وسليقته من مجتمع ((العباسية)).

المهم إن ((عناناً)) هذه قد شغلت مجتمع الأدباء والشعراء في بغداد على عصر الرشيد مثل أبي نواس، ودعبل الخزاعي، ومروان بن أبي حفصة والعباس بن الأحنف، واليزيدي الحميري مؤدب المأمون، وأبي النضير شاعر البرامكة، وأبي زهير رزين العروضي الشاعر نزيل بغداد فضلاً عن بعض الأعراب الذين كانت المصادفات تلقي بهم في ناديها أو بالأحرى نادي مولاها لمطارحتها الشعر.

بل لقد كان على رأس هؤلاء جميعاً الخليفة نفسه الذي هم بشرائها من صاحبها ذات يوم، ثم رأى أن يرجع عن قوله، ثم ما لبث أن اشتراها بعد عدة أعوام بعد وفاة مولاها الناطفي، ودفع فيها مسرور الخادم في المزايدة على شرائها مئتين وخمسين ألف درهم لحساب سيده.

لقد كانت عنان جديرة بأن تشغل مثل ذلك المجتمع الذي كان الشعر والموسيقا والشراب والمجون يشكل بعض سماته، وكانت هذه باستعدادها الفطري من ذكاء وموهبة وطبيعتها الأنثوية من جمال وشباب، وانحرافها السلوكي من مجون وخلاعة، كل ذلك كان قميناً أن يلفت إليها الأنظار، وبخاصة إذا كان مولاها من هؤلاء الذين يتاجرون بالرذيلة ويغضون الطرف عما لا ينبغي لكرام الناس أن يغضوا الطرف عنه.

وكانت عنان تكتب على عصابتها بالذهب ((ليس في العشق مشورة)) بحيث جعلت من هذا المعنى شعاراً لها، وذلك في حد ذاته لون من تحريض الناس ومراودتهم عمّا لا يحسن الظن

به، ولقد شجعت هذه الحلة عدداً من الشعراء المجان على أن يكاتبوها بشعر كل معانيه وانحلال مثلما فعل أبو النضير كما شجعت عدداً آخر مثل دعبل وأبي نواس على أن يطرحوا عليها أبياتاً من الشعر ويطلبون إليها أن تقطعها في تفعيلات عروضية بحيث ينتج عن تقطيعها ألفاظ نابية فاحشة معيبة فتضحك هي ويضحك الآخرون، وهي بعد ذلك تستطيع أن تجيز أي بيت من الشعر مهما كانت جودته، ومهما كان قائله، بشعر إن لم يفقه طرافة معنى أو براعة صياغة فأن لا يقصر دونه، ثم هي بعد ذلك لها من أصالة القول ما يجعلها تقول شعراً فخماً جزلاً تستطيع أن تواجه به الفحول من الشعراء من غير ما تردد أو وجل، فلقد فعلت ذلك عندما هجت أبا نواس بأبيات موجعة سلكت فيها مذهب بشار نذكر البيت الأول منها ونعف عن بقيتها:

مت متى شئت قد ذكرتك في الشعر وجرر أثواب ذيلك فخرا

ولقد فعلت ذلك عندما أفحمت العباس بن الأحنف وقد طارحها يوماً ببعض شعره، ولقد فعلت ذلك عندما مدحت يحيى بن خالد البرمكي بقصيدة يضاهي نهجها وأسلوبها نهج الفحول وأساليبهم.

كانت ((عنان)) بارعة في إجازة أبيات الشعر، والحق أن بعضاً من الشعراء قد نازلوها في هذا الميدان فإذا هي تستولي على مجامع إعجابهم، وأحياناً تصرعهم، يدخل مروان بن أبي حفصة بيت الناطفي وقد ضرب جاريته موضوع حديثنا هذا، ويشهد دموعاً تنحدر على صفحة وجهها فلا يلبث أن يقول:

بكت عنان فجرى دمعها كالدر قد توبع في خيطه

وإذ بها ترد عليه في الحال والعبرة في حلقها على حد تعبيره:

فليت من يضربها ظالما تجف يمناه على سوطه

فيفزع مروان لهذه العارضة القوية ويقول: هي والله أشعر الجن والإنس.

ويقع بصر أحد المتأدبين على هذا البيت من الشعر:

وما زال يبكي الحب حتى سمعته تنفس من أحشائه أو تكلما

فيقع البيت من نفسه موقع الإعجاب وهو لا يعرف قائله، ويطلب من يجيزه فلا يجد أحداً فيذهب إلى عنان وينشدها إياه،ما تلبث أن تقول:

ويبكـــي فـــأبكي رحمـــة لبكائـــه إذا مـــا بكـــى دمعـــاً بكيـــت لـــه دمـــا

ويذكر أبو زهير رزين العروضي أنه دخل على عنان وعندها أعرابي فقالت له: يا عـم جـاء الله بك على حاجة، فيقول لها: وما هي؟ فتقول: هذا الأعرابي يـسألني أن أقـول بيتـاً ليجيـزه، وقد عسر عليَّ الابتداء، فابتدئ أنت عليَّ بالقول فقال أبو زهير:

لقـــد قـــل العـــزاء فعيـــل صـــبري غـــداة حمـــولهم للبـــين زمـــت

فقال الأعرابي:

نظـــرت إلى أواخرهـــا ضـــحيا وقـــد رفعـــوا لهـــا عـــصباً فرنـــت

فقالت عنان:

كتمـــت هـــواهم في الـــصدر منـــي عـــلى أن الـــدموع عـــلي نمـــت

ويعلق أبو زهير على ذلك فيقول: فكانت عنان أشعرنا.

ولعل أطرف ما يروى عن براعة عنان في إجازة الـشعر أن تغنـي في مجلـس سـمر الرشـيد أبيات جرير:

إن الـــذين غـــدوا بلبـــك غـــادروا وشـــلاً بعينـــك مـــا يـــزال معينـــا

ويطرب الرشيد طرباً شديداً ويعجب بالأبيات وبالغناء، ثم يلتفت إلى جلسائه قائلاً: هـل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهن وله هذه البدرة؟ وكان بين يديه بدرة من دنانير، فحاولوا فلم يوفقوا إلى شيء من الشعر ذي قيمة، فقال خادم على رأسه: أنا بها لـك يـا أمـير المـؤمنين. قال: شأنك. فاحتمل البدرة ثم أتى الناطفي، فقال له: استأذن لي على عنان. فأذنت له. فـدخل وأخبرها بالخبر. فقالت: ويحك! وما الأبيات؟ فأنشدها إياها. فقالت له: اكتب:

هيجـــت بـــالقول الـــذي قـــد قلتـــه داء بقلبـــي مـــا يـــزال كمينهـــا

قـــد أينعـــت ثمراتـــه في حينهـــا وســـقين مـــن مـــاء الهـــوى فروينـــا

كـــذب الـــذين تقولـــوا يـــا ســـيدي إن القلـــــوب إذا هـــــوين هوينـــــا

فقالت له: دونك الأبيات، فدفع إليها البدرة ورجع إلى هارون. فقال له: ويحك! من قالها قال: عنان، جارية الناطفي. وعنان بعد ذلك شاعرة قديرة متمكنة إذا ما عالجت صناعة الشعر أو مارست عمل القصيد. إن العباس بن الأحنف كان قد تعلق بها فؤاده، وما كان أكثر ما يتعلق فؤاده بالغواني والقيان، فطارحها ذات يوم شعراً أظهر فيه عشقاً ودلاً، فأجابته عنان قائلة:

مـــــن تـــــراه كـــــان أغنـــــى منـــــك عـــــن هـــــذا الـــــصدود

بعـــد وصـــل للـــشعر لـــك منـــي فيـــــه إرغـــــام الحـــــسود

فاتخـــــذ للهجـــــر إن شئـــــت فـــــؤاد مـــــن حديـــــد

مـــــا رأينـــــاك عـــــلى مـــــا كنـــــت تجنـــــي بجليـــــد

وأما الشعر الذي عمدت فيه عنان إلى انتهاج الأسلوب الجزل مقلدة في ذلك فحول الشعراء فقصيدتها في مدح يحيى بن خالد البرمكي حيث تقول:

نفـى النـوم مـن عينـي حـوك القـصائد وآمـــال نفـــس همهـــا غـــير نافـــد

إذا مـا نفـى عنـي الكـرى طـول ليلـة تعـوذت منهـا باسـم يحيـى بـن خالـد

وزيـــر أمـــير المـــؤمنين ومـــن لـــه فعـــالان مـــن حمـــد طريـــف وتالـــد

مـــن البرمكيـــين الـــذين وجـــوههم مـــصابيح يطفـــي نورهـــا كـــل واقـــد

عـــلى وجـــه يحيـــى غـــرة يهتـــدى بهـــا كـــما يهتـــدي ســـاري الـــدجى بالفراقـــد

تعـــود إحـــساناً فأصـــلح فاســـدا ومـــا زال يحيـــى مـــصلحاً كـــلّ فاســـد

وكانـــت رقـــاب مـــن رجـــال تعطلـــت فقلـــدها يحيـــى كـــرام القلائـــد

عـــلى كـــل حـــي مـــن أياديـــه نعمـــة وآثـــــاره محمـــــودة في المـــــشاهد

حياضـــك في المعـــروف للنـــاس جمـــة فمـــن صـــادر عنهـــا وآخـــر وارد

وفعلـــك محمـــود وكفـــك رحمـــة ووجهـــك نـــور ضـــوءه غـــير خامـــد

(٥)

فضل

٠٠٠ - ٢٦٠ هـ

اقتضت ظاهرة كثرة القيان والاجتهاد في الإعداد إعداداً جيداً للمشاركة في الأدب والرواية والشعر والغناء أن يلمع بينهن شاعرات محسنات وعازفات مجيدات ومغنيات بارعات، وبسرعة غريبة تسلقن مراقي سلم المجتمع وأصبحن صاحبات منتديات في دورهن يؤمها الوزراء والرؤساء والقواد والشعراء، وأصبحت الواحدة منهن أملاً كبيراً لهذا الوزير أو ذاك الرئيس أو ذياك الشاعر، يرضى بها من نظرة عابرة ويقنع منها بتحية خاطفة.

كانت ((فضل)) واحدة من هؤلاء القيان اللائي عرفن بالفصاحة واللباقة وجودة الشعر. وكانت ذات جاه على الكبراء، وصاحبة نفوذ في الحكم، تقضي حوائج الناس وتشفع لهم، وكانت ذات علاقة بالوزير الأديب الشاعر سعيد بن حميد ولكل منهما في الآخر شعر رقيق، ومن الطريف أنها كانت متشيعة إلى درجة الغلو، وكان هو ناصبياً، ومع ذلك فما أفسد اختلاف مذهبيهما شيئاً من حبهما أو كان سبباً في تعكير العلاقات بينهما.

واشتهرت ((فضل)) بحضور البديهة وسرعة الخاطر، وبخاصة في إجازة بيت ببيت أو معنى بمعنى، بل إن ((فضلاً)) كانت ترتجل الشعر على البديهة في اللحظة نفسها التي يطلب إليها ذلك، فقد سألها الملك العباسي المتوكل: أشاعرة أنت؟ فقالت: كذا يزعم من باعني واشتراني، فقال لها: أنشدينا، فأنشدت على البديهة:

استقبل الملك إمام الهدى ... عام ثلاث وثلاثينا

خلافة أفضت إلى جعفر ... وهو ابن سبع بعد عشرينا

إنا لنرجو يا إمام الهدى ... أن تملك الناس ثمانينا

لا قدس الله امرأً لم يقل ... عند دعائي لك آمينا

وقد ارتبط اسم فضل بعد ذلك بالمتوكل أكثر من ارتباطه بسعيد بن حميد فكانت تذكر باسم ((فضل جارية المتوكل)) وكانت تبعث إليه بالكثير من المدائح التي لم تكن تجد لديه صدىً وقبولاً نظراً لما كان ينشد بين يديه من روائع شعر البحتري وغيره من صفوة شعراء ذلك الزمان.

إن أكثر شعر فضل كان في الغزل والشكوى والغيرة واللوعة والصد والهجر، إلى غير ذلك من المعاني المتعلقة بالغزل، وقليل منه كان في المديح أو الهجاء.

ومن شعر ((فضل)) اللطيف أبيات ترتبط بقصة طريفة. كان سعيد قد افتصد فبعثت إليه فضل بهدايا قيمة، بالغ الأصفهاني في وصفها كثيراً، فكتب سعيد إليها يرجوها الحضور ليتم سروره وسرور أضيافه، فلبت دعوته، وتصادف أن دخل إلى الندوة بنان بن عمرو المغني وكان شاباً وسيماً حسن الغناء، فأظهرت فضل نحوه الكثير من التودد والإعجاب الأمر الذي جعل سعيداً يتميز غيرة ويستشيط غضباً، فما كان من فضل إلا أن أمسكت بقلمها وكتبت هذه الأبيات الطريفة.

يا من أطلت تفرسي ... في وجهه وتنفسي
أفديك من متدلل ... يزهى بقتل الأنفس
هبني أسأت وما أسأت ... بلى أقر أنا المسي
أحلفتني ألا أسارق ... نظرة في مجلسي
فنظرت نظرة مخطئ ... أتبعتها بتفرس
ونسيت أني قد حلفت ... فما عقوبة من نسي

ولكل من سعيد وفضل شعر كثير مليح في صاحبه، وكان كلما اشتاق أحدهما إلى الآخر أسرع فكتب إليه من رائق الشعر ما يبث من خلاله وجده ولوعته من ذلك ما كتبته فضل إلى سعيد في رقعة بعثت بها إليه وهو جالس في دار الحسن بن مخلد:

الصبر ينقص والسقام يزيد ... والدار دانية وأنت بعيد
أشكوك أم أشكو إليك فإنه ... لا يستطيع سواهما المجهود

إني أعـــوذ بحرمتـــي بـــك في الهـــوى مـــن أن يطـــاع لـــديك في حـــسود

وهذه الأبيات من أرق الشعر وأعذبه وأكثره تصويراً لبعض حالات العاشقين وبخاصة البيت الأخير فيها.

وعلى عادة القيان العاشقات تحاول فضل أن تشكو لوعة الحب وصبابة العشق ومرارة الكتمان هذه الأبيات:

لأكـتمن الـذي بالقلـب مـن حـرق حتـى أمـوت ولم يعلـم بـه النـاس

ولا يقـال شـكا مـن كـان يعـشقه إن الـشكاة لمـن تهـوى هـي اليـأس

ولا أبـــوح بـــشيء كنـــت أكتمـــه عنـد الجلـوس إذا مـا دارت الكـأس

وتعمد فضل في أبيات أخريات لها في مطارحة سعيد بن حميد الهوى إلى ما تعمَدُ إليه القيان العاشقات من أشعار المحب المعجب، إنه الأثير الوحيد لديها فتكتب إليه هذه الأبيات الخفيفة السهلة:

وعيشك لـو صرحـت باسـمك في الهـوى لأقـصرت عـن أشـياء في الهـزل والجـد

ولكننـــي أبـــدي لهـــذا مـــودتي وذاك وأخلـو فيـك بالبـث والوجـد

مخافـة أن يغـرى بنـا قـول كاشـح عـدو فيـسعى بالوصـال إلى البعـد

والأمر الذي لا شك فيه أن فضلاً كانت تغار على صديقها الوزير الوسيم الشاب سعيد حتى إن هجرته وتعلقت بالمغني بنان بن عمرو الذي مر ذكره، بلغها أنه عاشق لإحدى القيان فكتبت إليه أبياتاً توبخه فيها وتحذره من القيان وتظهره على حقيقة أخلاقهن وخبايا سلوكهن؛ لأنها من أهل الخبرة في هذا الشأن، إذ هي واحدة منهن وإن فضلتهن حظاً وجمالاً، ورجحتهن ثقافة وبياناً قالت فضل في أبياتها لسعيد:

يـــا حـــسن الوجـــه ســـيّئ الأدب شـــبت وأنـــت الغـــلام في الأدب

ويحـك إن القيـان كالـشرك المنـصوب بـــين الغـــرور والكـــذب

لا تتـــصدين للفقـــير ولا يتـــبعن إلا مواضـــع الـــذهب

بينـــا تـــشكى إليـــك إذ خرجـــت مـــن لحظـــات الـــشكوى إلى الطلـــب

تلحـــــظ هـــــذا وذاك وذا لـــــح ظ محـــــب بعـــــين مكتـــــسب

واستطاعت فضل أن تمزج البكاء بحكمة القول حين رثت المعتز فقد رئيت صبيحة قتله تبكي وتقول:

إن الزمـــان بـــذل كـــان يطلبنـــا مـــا كـــان أغفلنـــا عنـــه وأســـهانا

مـــا لي وللـــدهر قـــد أصـــبحت همتـــه مـــــا لي وللـــــدهر لا كانـــــا

و((لفضل)) شعر آخر كثير في أغراض شتى أكثره شعر إخواني مما يقال في المنتديات في شكل مطارحات أو مساجلات، ولم تكن فضل تتحشم في بعض شعرها، وبخاصة حين تتناول أحوال النساء وصفاتهن من عذارى وثيبات، ونعني بذلك المساجلة الشعرية التي جرت بينها وبين أبي دلف في قوله:

قـــالوا عـــشقت صـــغيرة فـــأجبتهم أشـــهى المطـــي إلى مـــا يركـــب

(٦)

عريب

١٨١ - ٢٧٧ هـ

يذكر الأصفهاني أن ((عريباً)) ابنة جعفر البرمكي من إحدى العاملات في قصور البرامكة، ولدت سنة ١٨١ هـ وماتت أمها وهي طفلة فعهد بها جعفر إلى سيدة تتولى شؤونها، ولكن ما لبثت النكبة أن حلت بالبرامكة فنهبت قصورهم وبيوتهم وخدمهم وقيانهم وأموالهم، وسرقت عريب الطفلة آنذاك وتداولتها أيدي النخاسين حتى اشتراها عبد الله بن إسماعيل صاحب مراكب الرشيد.

خرج بعريب مولاها واتجه بها إلى البصرة، وكانت البصرة لا تزال مركز احتكاك الثقافات ومقصد الشعراء والمغنين والمتأدبين، فأدبها وخرجها وعلمها الخط والنحو والشعر والغناء، فبرعت في ذلك كله، برعت في الغناء إلى الحد الذي أحصي لها فيه ما يربو على ألف صوت، ونبغت في الكتابة وحكيت بلاغتها لبعض الكتاب، فقال معلقاً على ذلك: فما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر البرمكي، وكانت هي بدورها حين تذكر الفضل بن يحيى البرمكي تقول: ((عمي الفضل)).

ولعل قينة من القيان الشاعرات لم تشغل أهل زمانها من خلفاء ووزراء وقواد وعمال وخدم كما شغلتهم هذه القينة المغنية الشاعرة؛ لأنها جمعت كل أخلاق القيان وصفاتهم، كانت جميلة فصيحة شاعرة عذبة الصوت بارعة الضرب سارحة الإيقاع، واستطاعت أن تستأثر بقلوب عدد من خلفاء بني العباس ابتداء من الأمين، ثم المأمون، ثم المعتصم، ثم الواثق، ثم المتوكل، ثم المعتز، ولها مع كل واحد من هؤلاء الخلفاء أخبار أكثرها بطبيعة الحال مما لا يلتقي مع الفضيلة في شيء، هذا فضلاً عن أبناء الخلفاء من أمثال أبي عيسى ابن الرشيد وجعفر بن المأمون، وإن كانت قد فضلت أبا عيسى ابن الرشيد على جميع إخوته وأبنائهم وكانوا جميعاً من الخلفاء.

وقد يتساءل المرء: كيف يتسنى لمثل هذه القينة أن تفتن هذا العدد الكبير من ملوك بني العباس الذين احتل حكمهم حقبة زمنية طويلة؟ والواقع أن الأمر صحيح، ذلك أن عريباً عاشت ستة وتسعين سنة مليئة بالخلاعة والمجون والإباحية المطلقة، تلقي بشباكها على هذا وعلى ذاك من خاصة القوم وعامتهم، وقد تفتن بواحد من العامة فتواصله وفي الوقت نفسه تنفر من خليفة أو رئيس.

والحق أن الأخبار التي ترتبط بعريب كلها مما يشين إذا ما وزنت بمعايير الفضيلة، ويبدو أنها كانت تعيش في شيء من النعمة، وكان الرؤساء يتهافتون عليها، بل كان المأمون على سبيل المثال يصطحبها معه وهو ذاهب إلى حرب الروم. وقد ذكرت هي نفسها كيف كان يتهافت الخاصة عليها ويجتهدون في التقرّب إليها لقد طلبت من اليزيدي - أحد رجال المأمون - أن ينشدها بعض الشعر في إحدى أسفارها مع المأمون فأنشدها:

ماذا بقلبي من دوام الخفق ... إذا رأيت لمعان البرق

من قبل الأردن أو دمشق ... لأن من أهوى بذاك الأفق

فما إن سمعت هذا الشعر حتى تنفست تنفساً كادت ضلوعها تقصف منه، فقال لها: هذا والله تنفس عاشق، فقالت له: اسكت يا عاجز، أنا أعشق؟ والله لقد نظرت نظرة مربية في مجلس فادعاها عشرون رئيساً ظريفاً.على أن عريباً رغم كل أخبارها مع الخلفاء والرؤساء فإن بيتاً واحداً من شعرها الذي وصل إلينا لم تقله في خليفة أو أمير، بل إن أكثر شعرها قالته في شخصين أحدهما صالح المنذري الخادم وكانت أحبته وتزوجته بعض الوقت، والثاني هو محمد بن حامد الخاقاني أحد قواد خراسان.

أما المنذري الخادم فكان المتوكل قد أرسله إلى مكان بعيد في حاجة له، فقالت عريب في ذلك شعراً وصاغت لحنه قائله:

أما الحبيب فقد مضى ... بالرغم مني لا الرضا

أخطأت في تركي لمن ... لم ألق عنه عوضا

وأما محمد بن حامد الخاقاني الذي كان - فيما يبدو - أشقر أصهب الشعر أزرق العينين، فقد غنَّت عريبٌ تتغزل فيه وفي شقرته كما لو كان امرأة جميلة فتقول:

بـــــــــاب كـــــــــل أزرق أصـــــــهب اللـــــــون أشـــــــقر

جـــــن قلبـــــي بـــــه وليـــــ س جنـــــــــــوني بمنكـــــــــــر

ومرة أخرى تكتب إليه تشكو صبابتها ولوعتها وبكاءها فتقول:

تبينـــــت عـــــذري ومـــــا تعـــــذر وأبليـــــت جـــــسمي ومـــــا تـــــشعر

ألفـــــت الـــــسرور وخليتنـــــي ودمعـــــي مـــــن العـــــين مـــــا يفـــــتر

ويبدو أن عريباً كانت صادقة العاطفة نحو محمد بن حامد هذا، فشعرها فيه وسمات الشكوى والصبابة، هذا والشاعرة المحبة الغانية تجتهد في أن تدفع عن نفسها تهمة الخيانة حياله، ولو لم تكن تحمل له مودة فيها صدق واهتمام لما حفلت بأن تدفع تهمة عن نفسها مهما كان مبلغ كذبها. إنها تقول هذه الأبيات الدفيئة وترسل بها إلى ابن حامد.

ويـــــــلي عليـــــــك ومنكـــــــا أوقعـــــــت في الحـــــــق شـــــــكا

زعمـــــــــت أني خـــــــــؤون جـــــــــوراً عـــــــليَّ وإفكـــــــا

إن كـــــان مـــــا قلـــــت حقـــــا أو كنـــــت أزمعـــــت تركـــــا

فأبـــــــــدل الله مـــــــــا بي مـــــن ذلـــــة الحـــــب نـــــسكا

وكان لعريب شعر لطيف تقوله على البديهة في بعض مجالس الشراب، فقد ذهب علي بن يحيى المنجم إلى عريب يزورها فسألته عن أخبار أمسه، فذكر لها سهرة له مع الخليفة استمع فيها وإياه إلى المغني بنان يغني:

تجـــــــافي ثـــــــم تنطبـــــــق جفـــــــــون حـــــــــشوها الأرق

وذي كلـــــف بكـــــى جزعـــــا وســـــفر القـــــوم منطلـــــق

فوجهت في الحال رسولاً إلى بنان يستدعيه - وهو الذي أحبته وهجرت بسببه سعيد بن حميد - فحضر من وقته وقد بلل المطر ثيابه، فأمرت له بخلع فاخرة فخلعت عليه، وقدمت له

الطعام والشراب وطلبت إليه أن يغني الصوت الذي غناه للخليفة بالأمس فغناها إياه، فأخذت على الفور قلماً ودواة ورقعة وكتبت هذه الأبيات في وصف المجلس والغناء والشراب:

أجـــــاب الوابـــــل الغـــــدق وصـــــاح النـــــرجس الغـــــرق

وقـــــد غنـــــى بنـــــان لنـــــا ((جفـــــون حـــــشوها الأرق))

فهـــــات الكـــــأس مترعـــــة كـــــأن حبابهـــــا حـــــدق

ويبدو أن طول عمر عريب قد أثَّر في أفكارها وأقوالها فقالت بعض الشعر الذي يصور صروف الزمان وتغير الأيام،

وكـــــل شيء وإن طالـــــت إقامتـــــه إذا انتهـــــى فلـــــه لابـــــد أقـــــصار

(٦)

سكن

تعد سكن من القيان الشاعرات ممن كان نصيبهن من الجمال وفيراً، وحظهن من الأدب وقرض الشعر كبيراً، وقدرهن في الغناء جليلاً، ما انحرفت عن الجادة ولا زجت بنفسها في مواطن الريب، إنها سكن جارية الشاعر محمود بن الحسن المشهور بالوراق من أحسن خلق الله وجهاً، وأكثرهم أدباً وأطيبهم غناء تأتي بالمعاني الجياد والألفاظ الحسان.

لقد حاول بعض الطاهريين أن يشتري((سكناً)) وأعطى فيها محموداً الوراق مئتي ألف درهم فامتنع عن بيعها، ولكن في أحيان كثيرة كان الوفاء يدفع بالجارية - حين ترى مولاها في ضيق مالي شديد - إلى أن تعرض عليه أن يبيعها، أو تسعى هي نفسها إلى ذلك، وقد حاولت ((سكن)) أن تفعل الشيء نفسه حين دست رسولاً إلى المعتصم أن يشتريها، ولكن المعتصم خرق رقعتها التي كانت بعثت بها إليه، فانتهزت ((سكن)) الفرصة وبعث إليه بقصيدة من جيد الشعر تعاتبه في لطف، وتعطيه درساً في الأخلاق الفاضلة، ولكن في لباقة ولياقة، وتنتقد بعض أساليب الحكم ولكن في فطنة وحرص، وهي في نطاق هذا الإطار من الشعر تسدي إليه قدراً من المديح المنسوج بجمع من الألفاظ العذبة الإيقاع التي تشكل قافلة من المعاني السامية، فبدت القصيدة غير متهافتة ولا متخاذلة:

ما للرسول أتاني منك بالياس	أحدثت بعد رجاء جفوة القاسي
فهبك ألحقت بي ذنباً بظلمك لي	فما دعامك إلى العينين والراس
إني أحبك حباً لا لفاحشة	والحب ليس به في الله من باس
قل للمشارك في اللذات صاحبها	ومدمن الكأس يحسوها مع الحاسي
إن الإمام إذا أوفى إلى بلد	أوفى إليه بعمران وإيناس
أما ترى الغرس قد جاءت أوائله	والعود نضر الذرا مستورق كاس

يـا غـارس الآس والـورد الجنـى بهـا غـرس الإمـام خـلاف الـورد والاس
غراسـه كـل عـات لا خـلاق لـه عبـل الـذراع شـديد البـاس قنعـاس

وتمضي الأيام ويبدو أن حال محمود يظل على ما هو عليه من رقة حال وشدة فقر، فيعرض على سكن أن يبيعها حتى يجنبها مرارة الفقر وشظف الحياة قائلاً لها:

((قد ترين يا سكن ما أنا فيه من فساد الحال، وصعوبة الزمان، وليس بي وجلال الله ما ألقاه في نفسي، ولكن ما أراه فيك، فإني أحب أن أراك بأنعم حال وأخفض عيش، فإن آثرت أن أعرضك على البيع فعلت، لعل الله عز وجل أن يخرجك من هذا الضيق إلى السعة، ومن هذا الفقر إلى الغنى. قالت الجارية: ذلك إليك. فعرضها، فتنافس الناس ورغبوا في اقتنائها، وكان أحد من بذل فيها أحد الطاهريين مئة ألف درهم، وأحضر المال، فلما رأى محمود تلك البدر سلس وانقاد ومال إلى البيع، وقال: يا سكن البسي ثيابك واخرجي. فلبست ثيابها وخرجت على القوم كأنها البدر الطالع وكان محمود - وهي كذلك - معها، فقالت سكن وأذرفت دمعها: يا محمود، هذا كان آخر أمري وأمرك أن اخترت عليَّ مئة ألف درهم؟ قال محمود: فتجلسين على الفقر والخسف؟ قالت: نعم، أصبر أنا وتضجر أنت، فقال محمود: أشهدكم أنها حرة لوجه الله، وأني قد أصدقتها داري وهي ما أملك، وقد قامت عليَّ بخمسين ألف درهم. خذوا مالكم بارك الله لكم فيه. قال الطاهري: أما إذ فعلت ما فعلت فالمال لكما ووالله لا رددته إلى ملكي. فأخذ محمود المال وعاش مع سكن بأغبط عيش)).

وهكذا تجمع ((سكن)) بين الشعر والغناء والاستقامة والوفاء. وهناك مثال ثان لهذا الفريق من القيان والجواري، والمثال جارية أخرى لمحمود الوراق اسمها نشوى كان المعتصم يبغي شراءها وبذل في ثمنها سبعة آلاف دينار فامتنع محمود عن بيعها؛ لأنه كان يهواها هي الأخرى، فلما مات محمود اشتريت هذه الجارية من تركته للمعتصم بسبعمئة دينار، وما إن دخلت نشوى على المعتصم - مولاها الجديد - حتى بادرها بقوله: كيف رأيت؟ تركتك حتى اشتريتك من سبعة آلاف بسبعمئة!! ولكن الجارية التي علمت فأحسن تعليمها ترمق المعتصم بنظرة فيها الكثير من المعاني، ثم تردف قائلة: أجل، إذا كان الخليفة ينتظر لشهواته المواريث فإن سبعين ديناراً لكثير فيَّ فضلاً عن سبعمئة، فخجل المعتصم من كلامها.

ب - الشعراء الرجال

- ١ -

إبراهيم بن هرمة
٧٠ - ١٥٠ هـ

واسمه إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة وكنيته أبو إسحق. وهو من أبرع الشعراء المخضرمين بين ((الأموية)) و((العباسية)) ولعله أوفر حظاً من حيث معرفة اسمه دون أدبه من زملائه الشعراء المخضرمين، وهو من أبناء المدينة، بل من القرشيين أرومة أو انتساباً.

وأخبار ابن هرمة - بفتح الهاء وسكون الراء - صورة صادقة للفترة الزمنية التي عاشها من الناحيتين الاجتماعية والسياسية. مدح ملوك بني مروان وبقي إلى آخر أيام المنصور، وينسب الأصبهاني إلى الأصمعي قوله: ختم الشعر بابن هرمة والحكم الخضري وابن ميادة وطفيل الكناني ومكين العذري، ولقد مدح الوليد بن يزيد كما مدح أبا جعفر المنصور، يمثل في شعره وسلوكه الصورة الواضحة المعالم لبيئته زمنياً واجتماعياً، الأمر الذي يستدعي تطور التناول الشعري معنىً وأسلوباً.

لقد عاصر ابن هرمة المراحل الأخيرة من حياة جرير والفرزدق، وتأثر بهجائهما كما تأثر بفحولتهما في الصوغ والقول والالتزام بالأصول الشعرية لا يحيد عنها، ومن ثم فإنه آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم على قول البغدادي فضلاً عن أنه معاصر لابن ميادة والحكم وأبي العباس الأعمى وبشار، ومن الناحية الأخرى فقد كان يحمل شهادة من جرير لا شك أنها أثّرت في حياته الأدبية جعلته لا يتخلف ولا يسف، ذلك أن جريراً كان قدم المدينة فأتاه ابن هرمة وابن أذينة فأنشداه شعراً لهما، فقال جرير: القرشي أشعرهما - يعني ابن هرمة - والعربي أفصحهما يعني ابن أذينة.

وهو هجّاء بارع الهجاء ليس امتداداً لمدرسة جرير والفرزدق والأخطل في ذلك وحسب، بل إن له نسباً فنياً في هذا المضمار يلحقه بالحطيئة أظرف الهجائين وأمرهم. هجا ابن هرمة نفسه وأمه وأباه وقومه.

وكان ابن هرمة لا يهتم أن يقترن اسمه بقريش التي ودَّ كل عربي فضلاً عن الأعاجم أن ينتسبوا إليها.

وهجاء ابن هرمة من نوع جديد، فهو يهجو أحياناً في شكل مدح أو هو يهجو أشخاصاً ويتظاهر بمدح أخ لهم، فقد كان عبد الله وحسن وإبراهيم أبناء الحسن بن الحسن وعدوه شيئاً، ثم أخلفوه، فاصطحب ابن ربيح راويته واتجها إلى قصور الحسن ابن زيد فسأله عن حاجته فقال: أبيات قلتها، قال: هات، قال:

أما بنو هاشم حولي فقد قرعوا ... نبل الضباب التي جمعت في قرن

فما بيثرب منهم من أعتاته ... إلا عوائد أرجوهن من حسن

الله أعطاك فضلاً من عطيته ... على هن وهن فيما مضى وهن

وانصرف ابن هرمة من لدن الحسن بن زيد بعد أن أعطاه بغيته، وبينما هو في طريق عودته لقيه محمد بن عبد الله بن حسن وقد بلغه الشعر، فغضب لأبيه وأعمامه، وقال لابن هرمة: أي كذا (لفظة سباب) أنت القائل:

على هن وهن فيما مضى وهن

فقال: لا والله، ولكنني الذي أقول لك:

لا والذي أنت منه نعمة سلفت ... نرجو عواقبها في آخر الزمن

لقد أتيت بأمر ما عمدت له ... ولا تعمده قولي ولا سنني

فكيف أمشي مع الأقوام معتدلا ... وقد رميت بريء العود بالابن

ما غيرت وجهه أم مهجنة ... إذا القتام تغشّى أوجه الهجن

فكان ابن هرمة في أشد هجاء وأنفذ إيلاماً؛ لأن أم الحسن أم ولد. وإذن فلقد كان ابن هرمة صورة للهجاء المتطور في عصر ما بين الدولتين، تغيرت الألفاظ ولكن هدف الإيلام والإيجاع والنيل من مروءة المهجو واحد.

وابن هرمة فارس أيضاً في ميدان الخمر، نفِّذ عليه حد الشراب وابن هرمة محب للخمر، بل هو محب للسكر إلى الدرجة التي تجعله يترنح في الطرقات حتى يطارده الصغار مردِّدين: سكران سكران، إنه يرجو ذلك من الله وكأنها أمنية عزيزة:

أسأل الله سكرة قبل موتي وصياح الصبيان: يا سكران

وابن هرمة إذا أعوزه ثمن الخمر رهن ثيابه ليشتريها، بل إنه يرهنها ليشتريها لصديق يشاركه المنادمة.

إن ابن هرمة، وهذا حبه للشراب، يجد نفسه بين أمرين أحلاهما مر، إما أن يقلع عنه وهذا شيء صعب تحقيقه، وإما أن يجلد تمشياً مع الحد الشرعي، ولكنه يفكر في حيلة تعفيه من الحد بحيث يظل عاكفاً على شرابه، ولم يكن إمامه في ذلك من سلاح إلا شعره يقدمه مدحاً للملك العباسي، فيشد الرحال إلى أبي جعفر ويصب في مسامعه هذا الشعر الجزل الفحل:

له لحظات عن حفافي سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل

لهم طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسودّ من لؤم التراب القبائل

إذا ما أتى شيئاً قضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل

وما يكاد المنصور يسمع هذا الشعر الرائق حتى يقول لابن هرمة: سل حاجتك، ويجد الشاعر المغرم بالخمر الفرصة سانحة فيطلب من أبي جعفر أن يكتب إلى عامل المدينة ألا يحده إذا جيء به سكرانَ، فيقول له أبو جعفر: ويحك، هذا حد من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله، فيقول ابن هرمة: احتل يا أمير المؤمنين، فيكتب المنصور إلى عامل المدينة: ((من أتاك بابن هرمة سكران فاجلده مئة واجلد ابن هرمة ثمانين)) فكان رجال الشرطة يمرون بابن هرمة مطروحاً من السكر في سكك المدينة فيقولون: من يشتري مئة بثمانين؟

ويتولى إمرة المدينة الحسن بن زيد في فترة حكم محمد النفس الزكية فيدخل عليه إبراهيم بن هرمة فيقول له الحسن: يا إبراهيم، لست كمن باع لك دينه رجاء مدحتك أو خوف ذمك فقد رزقني الله تعالى بولاة نبيه ﷺ المادح وجنبني المقابح، وإن من حقه عليَّ ألا أغضي عن تقصير في حق وجب، وأنا أقسم لئن أتيت بك سكران لأضربنك حداً للخمر وحداً للسكر، ولأزيدن موضع حرمتك مني، فليكن تركك لها لله عزّ وجل تعن عليه، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم، فينهض ابن هرمة وهو يقول:

نهاني ابن الرسول عن المدام ... وأدبني بآداب الكرام

وقال لي اصطبر ودعها ... لخوف الله لا خوف الأنام

وكيف تصبري عنها وحبي ... لها حب تمكن من عظامي

أرى طيف الخيال عليَّ خبثا ... وطيب العيش في خبث الحرام

و ابن هرمة واحد من المؤمنين بحب آل البيت يكره بني أمية ويحمل عليهم ويؤلب الناس ضدهم، ثم هو بعد ذلك لا يتردد في مدح العباسيين ربما تقية أو هرباً من أذاهم، يقول في محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية:

ومهما ألام على حبه ... فإني أحب بني فاطمة

بني بنت من جاء بالمحكمات ... والدين والسنة القائمة

وحين خرج محمد النفس الزكية على المنصور لم يستطع ابن هرمة أن يجاريه خوفاً من أذى المنصور، وكراهيته لبني أمية لم تمنعه من أن يتصل بالوليد بن يزيد، ويقول فيه مديحاً حتى حين علم بقتله، وما يكاد يسمع بقتل الوليد حتى يردد أبياتاً لعلها كانت قيلت في حياة الوليد وقبل مصرعه:

وكانت أمور الناس منبتة القوى ... فشد الوليد حين قام نظامها

خليفة حق لا خليفة باطل ... رمى عن قناة الدين حتى أقامها

وله شعر رقيق عذب في مدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، يقول فيه:

إذا قيل من خير من يحتذى ... لمعتمر فهر ومحتاجها

ومـــن يعجـــل الخيـــل يـــوم الـــوغى بإلجامهـــــا قبـــــل إسراجهـــــا
أشـــــارت نـــــساء بنـــــي مالـــــك إليـــــك بهـــــا قبـــــل أزواجهـــــا

أو قوله فيه:

فاســلم ســلمت مــن المكــاره والــردى وعثارهـــا ووقيـــت نفـــس الحـــسَّد

يدل على أنه فاطمي الهوى والحب كاره للأموية والمروانية، ولكنه في الوقت نفسه مساير للعباسيين خوفاً منهم وطمعاً في عطائهم واستهدافاً لتكريمهم إياه.

ولذلك فليس غريباً أن يمدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور مدحاً ذا نغمة جديدة:

كـريم لـه وجهـان: وجـه لـدى الرضـا طليـــق ووجـــه في الكريهـــة باســـل
ولـيس بمعطـي الحـق مـن غـير قـدرة ويعفـــو إذا مـــا أمكنتـــه المقاتـــل
لـــه لحظـــات مـــن حفـــافي سريـــره إذا كرهـــا فيهـــا عقـــاب ونائـــل
أتينـــاك نزجـــي حاجـــة ووســـيلة إليـك وقـد تحظـى لـديك الوسـائل
ونـــــذكر وداً شـــــدة الله بيننـــــا عـــلى الـــدهر لم تـــذبب إليـــه الغوائـــل
فأقـــسم مـــا أكبـــى زنـــادك قـــادح ولا أكـــذبت فيـــك الرجـــاء القوابـــل
ولا لام فيـــك البـــاذل الوجـــه نفـــسه ولا احتكمـــت في الجـــود منـــك المباخـــل

وهو في حقيقته مدّاح أكثر منه هجاء فهو في مدائحه يختار المعاني الجياد التي يمكن أن تشكل صورة للمدح كريمة كما أنه يختار المواقف التي يمكن أن تمد شاعريته بما يجعلها تخرج شعراً مصقولاً من حيث الشكل والمعنى.

يقول ابن هرمة مفتخراً بنفسه مدافعاً عن بعض تبذله سالكاً نهج الحكمة:

عجبـــت أثيلـــة أن رأتنـــي مخلقـــا ثكلتـــــك أمـــــك أي ذاك يـــــروع
قـــد يـــدرك الـــشرف الفتـــى ورداؤه خلـــق وجيـــب قميـــصه مرقـــوع
إمـــا ترينـــي شـــاحباً متبـــذلا كالـــسيف يخلـــق جفنـــه فيـــضيع
فلـــرب ليلـــة لـــذة قـــد بتهـــا وحرامهـــا بحلالهـــا مـــدفوع

إن ابن هرمة هنا يلبس شعره ثوب الوقار وينحو الفحولة وينهج نهج الصنعة الفخمة في اختيار واحد من البحور الطويلة، ويظل يرسم على نفس المنوال طالما كان غناؤه لنفسه كما في قوله:

إني وتركي ندى الأكرمين وقدحي بكفي زنداً شحاحا
كتاركة بيضاً بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحا

وتبدو قسمات التشبيه واضحة رائعة حسنة النسج بينة حدود المعالم في قول ابن هرمة:

أشم من الذين بهم قريش تداوي بينها غبن القبيل
كأن تلألؤ المعروف فيه شعاع الشمس في السيف الصقيل

إن التشبيه هنا فضلاً عن روعته الظاهرة يحمل بين ثناياه آية جديدة وانطلاقة بديعة هي تشبيه الشيء المعنوي بالشيء المادي وهي سابقة بيانية لها خطرها وهكذا تجد وتتحرك الصور أكثر رشاقة على لوحة ابن هرمة حين يفخر بكرمه، ويصور كلابه:

وإذا أتانا طارق متنور نبحت فدلته عليَّ كلابي
وفرحن إذ أبصرنه فلقينه يضربنه بشراشر الأذناب

ومرة أخرى يرسم صورة لكلبه فرحاً بضيفه يكاد يكلمه ويرحب به رغم أعجميته:

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

إن المستقرئ لأشعار ابن هرمة في مختلف مصادرها يعرف أن الرجل عمد إلى التجديد والصنعة، كان المسور بن عبد الملك المخزومي يعيب شعر ابن هرمة، وكان للمسور مكانة في عالم الشعر والنسب، وربما كان عيبه لهذا الشعر ما لاحظه من صور غريبة جديدة لم يألفها الشعر نفسه من قبل، فينبري له ابن هرمة هاجياً مسخفاً مشيراً إلى أن هذا الضرب الجديد من الشعر مصوغ مخطط له معتنى به، ولكن صياغة لسان وليس صوغ كفين:

إني امرؤ لا أصوغ الحلي تعلمه كفاي لكن لساني صائغ الكلم
إن الأديم الذي أمسيت تقرظه جهلاً لذو نغل باد وذو حلم

ولا يـــئط بأيـــدي الخـــالقين ولا أيـــدي الخوالـــق إلا جيـــد الأدم

وابن هرمة منتبه لفنه، ساهر عليه، مخلص له، عامد إليه، وهو يعبر عن ذلك في قوله:

وعميمـــة قـــد ســـقت فيهـــا عـــائرا غفـــلاً ومنهـــا عـــائر موســـوم

طبقـــت مفـــصلها بغـــير حديـــدة فـــرأى العـــدو غنـــاي حيـــث أقـــوم

و لم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة. وان كنا نرى فرقاً كبيراً بين كل من ابن هرمة وبشار من حيث وصف الجاحظ لكل منهما بالمولد.

إن إبراهيم بن هرمة وهذه سمات شعره متأرجحة بين القديم والجديد من حيث الموضوعات والصياغة، ومن حيث الإبداع الفني، ومن حيث تمثيل شخصية الشاعر نفسه لبيئة عصره فنياً واجتماعياً وسياسياً، كل ذلك يجعل منه معبراً مهماً عريضاً سهلاً لانتقال الشعر من المرحلة الأموية بسماتها الأكثر محافظة إلى المرحلة العباسية بسماتها الأكثر تطوراً وتغيراً، بل لكي يكون الأمر في نصابه، إن ابن هرمة يمثل التجديد في ثوب من وقار الجزالة وإشراق الديباجة ورقة الأسلوب، وهو قمة في الصنعة في مجتمع المحافظين وذروة التطور في بيئة عمود الشعر.

- ٢ -

آدم بن عبد العزيز
بن عمر بن عبد العزيز
... - ١٦٠ هـ

آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز واحد من بقايا الأمراء الأمويين الذين نجوا من مذبحة السفاح بسبب صلته بالخليفة عمر بن عبد العزيز، فأبوه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان وأمه هي عاصم بنت سفيان بن عبد العزيز بن مروان، وآدم شاعر رقيق عاش عيشة أمراء الشعر الذين لا يتكسبون بشعرهم، كان محلاً لعطف المهدي وإكرامه، على أن هذا الإكرام لم يحدث إلا بعد تجربة أليمة مر بها آدم تحت سياط المهدي نفسه، فقد كان آدم ماجناً في صدر شبابه، يشرب الخمر وينشد الشعر.

لقد قال آدم شعراً رقيقاً في الخمر جاوز في تعبيره من خلاله بعض الحدود التي تدخل في روع سامعه أن بقائله شبهة من زندقة، فبعث إليه المهدي وأمر بضربه بالسياط حتى يقر بالزندقة، ولكنه أبى وقال: والله ما كفرت بالله قط ولا شككت فيه فخلّى سبيله.

وأما الأبيات التي كانت موضع الامتحان فهي قول آدم:

اسقني واسق خيلي في مدى الليل الطويل
قهوة صهباء صرفا سبيت من نهر بيل

والقرينة تؤكد أن هذه الأبيات أموية العصر؛ لأن المهدي وهو يتلمس موطناً للخطيئة عند الشاعر الأموي فوجئ بإجابة تفيد أن ذلك كان شيئاً في الماضي، و كانت هذه الحادثة بداية رابطة مودة وصداقة بين المهدي وآدم.

وكان لآدم مشاركة في الظرف والدعابة، ولعل ذلك كان سبباً من أسباب تقريبه إلى المهدي ومجالسته إياه، فقد كان للمهدي صديق من أهل الموصل يقال له سليمان بن المختار،

وكان لسليمان هذا لحية عظيمة مفرطة الطول، فأراد يوماً أن يركب فوقعت لحيته تحت أقدامه في الركاب فذهبت وتقطعت فقال آدم مازحاً:

قد استوجب في الحكم سليمان بن مختار
بما طول من لحي تـه جزّاً بمنشار
أو السيف أو الحلق أو التحريق بالنار
فقد صار بها أشهر من راية بيطار

وذاعت الأبيات بين الناس واشتهر أمرها حتى رويت في حضرة المهدي، فضحك لطرافتها، ولكن أحد الحاضرين من ذوي المكانة، هو أسيد بن أسيد، وكان وافر اللحية أبدى امتعاضاً وضجراً وقال: ينبغي لأمير المؤمنين أن يكف هذا الماجن عن الناس، فبلغ آدم فقال مداعباً أسيد:

لحية تمت وطالت لأسيد بن أسيد
كشراع من عباء قطعت حبل الوريد
يعجب الناظر منها من قريب أو بعيد
هي إن زادت قليلا قطعت حبل الوريد

وليس من شك أن هذه الأبيات تمثيل أساساً لشعراء الهجاء المجسم الذي تزعم مدرسته ابن الرومي بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان على أن الشيء الأهم من ذلك هو تجديد آدم فيما طرق من موضوعات شعرية لم يطرقها أحد قبله وهو الوقوف على الآثار الدراسة وليس على الأطلال والدمن كما كان يفعل الشعراء قبله وكما فعل بعضهم بعده.

إن آدم يقف على بقايا إيوان كسرى وينشد أبياتاً تدل على معاني خطيرة متزاحمة في نفسه وعلى حسرات مكتومة في قلبه على ملك قومه الضائع ومجدهم السالف، ويألم آدم حينما يجد الإيوان العظيم وقد أصبحت بقاياه مربطاً للبغال بعد أن كانت مرتعاً للحسان.

أقول وراعني إيوان كسرى برأس معان أو أدر وسفان

وأبـــصرت البغـــال مربطـــات بـــه مـــن بعـــد أزمنـــة حـــسان

يعـــز عـــلى أبي ساســـان كـــسرى بمـــوقفكن في هـــذا المكـــان

شربـــت عـــلى تـــذكر عـــيش كـــسرى شرابـــاً لونـــه كـــالزعفران

ورحـــت كـــأني كـــسرى إذا مـــا عـــلاه التـــاج يـــوم المهرجـــان

ومن ثم فهو يستجلب لنفسه عزاء في مقام كريم من التماسك والإباء حين يقول:

وإن قالـــت رجـــال قـــد تـــولى زمـــانكم وذا زمـــن جديـــد

فـــما ذهـــب الزمـــان لنـــا بمجـــد ولا حـــسب إذا ذكـــر الجـــدود

ومـــا كنـــا لنخلـــد إذ ملكنـــا وأي النـــاس دام لـــه الخلـــود

ومن الثابت أن آدم قد تصوف في آخر حياته، وأنه كان طيب النفس متصوفاً، ومات على توبة ومذهب جميل وأنه قد نسك بعدما عُمِّر ومات على طريقة محمودة:

أحبـــك حبـــين لي واحـــد وآخـــر أنـــك أهـــل لـــذاك

فأمـــا الـــذي هـــو حـــب الطبـــاع فـــشيء خصـــصت بـــه عـــن ســـواك

وأمـــا الـــذي هـــو حـــب الجـــمال فلـــست أرى ذاك حتـــى أراك

ولـــست آمـــن هـــذا عليـــك لـــك المـــن في ذا وهـــذا وذاك

فا الأبيات غزل صوفي وليست غزلاً مادياً، وهي من أرق ما قيل في الشعر الصوفي في مضمون العشق الإلهي حتى أن الأبيات المشهورة المنسوبة إلى رابعة العدوية لا تكاد تختلف مع أبيات آدم إلا في ألفاظ قليلة، فهي تقول:

أحبـــك حبـــين حـــب الهـــوى وحبـــاً لأنـــك أهـــل لـــذاكا

فأمـــا الـــذي هـــو حـــب الهـــوى فـــشغلي بـــذكرك عمـــن ســـواكا

وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــل لـــه فكـــشفك لي الحجـــب حتـــى أراكـــا

فـــلا الحمـــد في ذا ولا ذاك لي ولكـــن لـــك الحمـــد في ذا وذاكـــا

وربما تكون رابعة قد اقتسبت أبيات آدم معنى وثوباً.

إن آدم بن عبد العزيز على قلة حجم شعره الذي وصل إلينا يعتبر واحداً من المعـابر المهمـة التي انتقل الشعر إليها من الأموية إلى العباسية، وفي شعره يبدو التدرج واضحاً والتجديد بينـاً سواء أكان ذلك في طبيعة الموضوع أم في نطاق الأسلوب.

- ٣ -

مروان بن أبي حفصة
١٠٥ - ١٨٢ هـ

مروان بن أبي حفصة شاعر من أسرة لها في الشعر نصيب وإسهام، فجده الكبير أبو حفصة كان شاعراً، وجده الأول يحيى بن أبي حفصة كان هو الآخر شاعراً، وله مقطوعات من جيد الشعر قيلت في المدح والفخر والذود عن الحمى، ويدل شعره حتى في نطاق المديح على نفس عالية غير متهالكة ولا متخاذلة شأن كثير من شعر المدائح.

أصاب مروان شهرة واسعة ومالاً كثيراً عن طريق شعره الذي وقفه على المديح دون غيره من أغراض الشعر إلا في حالات قليلة جداً من رثاء أو وصف، فأكثر الأبيات التي رويت له منفردة في غزل أو وصف شيب أو طيف خيال كلها أنشئت في الأصل في ركاب مديحة من مدائحه في هذا أو ذاك من الكبار الذين كان يمدحهم مروان.

ومروان مداح أصيل مدح كوكبة كبيرة من كبار الملوك والعظماء الذين صادفهم في حياته الطويلة من خلال دولتي بني أمية وبني العباس أو بني هاشم كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم لقد مدح الوليد بن يزيد من بني أمية ومدح المنصور والمهدي والهادي والرشيد من بني العباس، ومدح البرامكة وزراء بني العباس، كما مدح معن بن زائدة الشيباني، ممدوحه الأصيل الذي توفر على قول الشعر فيه فاشتهر كلاهما بالآخر اشتهار زهير بهرم بن سنان واشتهار المتنبي بسيف الدولة.

فمن ذلك قوله في الوليد بن عبد الملك لما بويع بالخلافة بعد موت أبيه:

إن المنايا لا تغادر واحدا ... يمشي ببزته ولا ذا جنه

لو كان خلق للمنايا مفلتا ... كان الخليفة مفلتاً منهنه

بكت المنابر يوم مات وإنما ... بكت المنابر فقد فارسهنه

لـــو غـــيره قـــرع المنـــابر بعـــده لنكرنـــــه فطرحنـــــه عنهنـــــه

ولقد كان مروان بخيلاً بخلاً شديداً يضعه في مكان الصدارة مع المشهورين من البخلاء. فربح من شعره ما لم يربحه شاعر على الإطلاق من شعراء العربية، فقد كان يتقاضى من بني العباس ألف درهم على كل بيت من الشعر يقوله فيهم، وهو أول شاعر يتقاضى عن قصيدة واحدة فضلاً عن قصائد عديدة رقم المئة ألف، هذا فضلاً عن الأموال الكثيرة الضخمة التي حصل عليها من معن بن زائدة في حياته ومن ولده شراحيل بعد مماته.

وأخبار الأموال والمنح التي حصل عليها مروان من ممدوحيه من ملوك بني هاشم ومعن بن زائدة وابنه شراحيل والبرامكة كثيرة تحفل بها كتب تاريخ الأدب الأمر الذي لا يستدعي البخل الموغل في الشدة بحيث نال من مروءة الشاعر وسمته وهيئته وسمعته.

لقد كان يصل إلى باب المهدي وعليه فرو كبش وقميص خشن وعمامة كرابي صنعت من الكرباس، وهو القماش الخشن الرديء، وخف رخيص وكساء غليظ تصدر منه رائحة تؤذي الأنوف في الوقت الذي يصل فيه الشعراء إلى مجلس الملك الهاشمي وهم أشد ما يكونون عناية بلباسهم وأناقة في هندامهم تفوح منهم رائحة الطيب وتأخذهم العين لنظافتهم ورونقهم وهم أقل منه مالاً ومنحاً.

وكان بخل مروان يمتد إلى مأكله ومسلكه في الحياة، قال ذات مرة: ما فرحت بشيء قط فرحي بمئة ألف وهبها لي أمير المؤمنين المهدي فوزنتها فزادت درهماً فاشتريت به لحماً.

وروي أن جماعة نزلوا على مروان في موطنه باليمامة فأطعمهم تمراً وأرسل غلامه بفلس ووعاء ليشتري له زيتاً، فلما عاد الغلام بالزيت قال له مروان: خنتني، فقال الغلام: من فلس كيف أخونك؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت.

وكان مروان إذا اشتاق إلى اللحم بعث بغلامه فاشترى له رأساً فأكله، فسُئل لماذا لا يأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فقال: الرأس أعرف سعره ولا يستطيع الغلام إن يغبني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه.

غـــدا اللـــؤم يبغـــي مطرحـــاً لرحالـــة فنقـــب في بـــر الـــبلاد وفي البحـــر

فلـــما أتـــى مـــــروان خـــيم عنـــده وقـــال رضـــينا بالمقـــام وبالحـــشر
ولـــيس لمـــروان عـــلى العـــرس غـــيرة ولكـــن مروانـــاً يغـــار عـــلى القـــدر

وقد يكون بخله وحرصه على المال هما السبب الرئيسي في أنه لم يكن يذيع القصيدة بمجرد الانتهاء من إنشائها وإنما كان على حد قوله يقولها في أربعة أشهر وينتخلها في أربعة أشهر ويعرضها في أربعة أشهر، ثم هو بعد ذلك يجعل دائماً الجود والعطاء عنصراً واضحاً صريحاً من عناصر قصيدته مثال قوله:

لـــه راحتـــان الجـــود والحتـــف فـــيهما أبـــى الله إلا أن تـــضرا وتنفعـــا

أو قوله:

هـــم القـــوم إن قـــالوا أصـــابوا وإن دعـــوا أجـــابوا وإن أعطـــوا أطـــابوا وأجزلـــوا

أو قوله:

لا تعـــدموا راحتـــي معـــن فـــإنها بـــالجود أفتنتـــا يحيـــى بـــن منـــصور
لمـــا رأى راحتـــي معـــن تـــدفقا بنائـــل مـــن عطـــاء غـــير منـــزور
ألقـــى المـــسوح التـــي قـــد كـــان يلبـــسها وظـــل للـــشعر ذا رصـــف وتحبـــير

أو قوله:

أبـــر فـــما يرجـــو جـــواد لحاقـــه أبـــو الفـــضل ســـباق اللهـــاميم جعفـــر

أو قوله:

كـــان البرمكـــي بكـــل مـــال تجـــود بـــه يـــداه يفيـــد مـــالا

أو قوله:

إن معنـــاً يحمـــي الثغـــور ويعطـــي مالـــه في العـــلا وأنـــت كـــذاكا
لـــك مـــن فـــضل بأســـه يعـــرف البـــأ س كـــما مـــن نـــداه فـــضل نـــداكا

إن مروان كان يتمثل المال دائماً وهو يمدح، يـذكره تـصريحاً ولـيس تلميحـاً، ويلـح عليـه إلحاحاً شديداً في قالب من تزلف خلق الممدوح وتوريطه، وهو إذا بكى أو رثى فـلا يرثـي ولا

يبكي إلا معاني النوال أولاً، ثم تأتي بقية الصفات الأخرى التي كان يتحلى بها الفقيد في الدرجة الثانية:

أقمنا باليمامة بعد معن مقاماً لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

والجدير بالذكر أن هذه الأبيات قد حالت بينه وبين الملك العباسي المهدي في أول رحلة له إليه بعد موت معن، فحين دخل مروان عليه قال له المهدي ألست القائل، وذكر البيتين، وأردف: لقد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا، لا شيء لك عندنا، ثم أمر به فجر برجله حتى أخرج. ولكن مروان المحب للمال الطامع في العطاء يفكر في الصيغة الشعرية التي يرضي بها الملك العباسي فيما لو عاد إليه حتى يجبره على الاستماع إليه، وبالتالي إجزال عطائه وصلته، فيهديه ذكاؤه إلى ناحية الحق السياسي في الحكم يجعلها مدخلاً إلى المهدي، وكان المهدي ذا علم ولماحيّة وذكاء حافظاً للقرآن، ومروان يبني فكرته على الآية الكريمة من سورة الأنفال ((والذين آمنوا من بعد، وهاجروا وجاهدوا معكم، فأولئك منكم، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، إن الله بكل شيء عليم)) وقد تفسر الآية على أن العباس عم الرسول وجد المهدي قد هاجر مع الرسول وجاهد في الدعوة فأصبح أولى بإرث الرسول حسب التخريج الذي شاءه مروان، ومن ثم فإن آل العباس أولى بالخلافة من بني أمية، ويلبس مروان فكرته ثوباً جميلاً آخذاً من اللفظ الرائق والإيقاع الجميل، ويطرق باب المهدي في العام التالي في مجموعة الشعراء الذين كان الملوك العباسيون يفتحون لهم أبوابهم مرة في كل عام فيستهل قصيدته استهلالاً يلفت نظر المهدي قائلاص:

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالها

قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فينصت الخليفة وينصت الناس وينطلق مروان في إنشاده حتى يصل إلى بيت قصيده ولب فكرته وأوج خطته قائلاً:

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها

أو تجحـــدون مقالـــة عـــن ربكـــم جبريـــل بلّغهـــا النبـــيَّ فقالهـــا

شـــهدت مـــن الأنفـــال آخـــر آيـــة بـــــتراثهم فـــــأردتم إبطالهـــــا

وهنا يزحف المهدي من صدر مصلاه حيث كان جالساً حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع، ثم يقول لمروان: كم هي؟ فيقول: مئة بيت، فيأمر له بمئة ألف درهم، فكانت أول مئة ألف أعطيها شاعر في أيام العباسيين.

لقد كان مروان على جانب كبير من الذكاء في اقتناص المنح والعطايا ساعدته على ذلك قدرته الشعرية وصناعته المستغنية فعوَّض ما قد حرمه في العام الفائت.

ولكن هذه الحيلة الطريفة التي لجأ إليها مروان في قصيدته اللامية هذه تصلح لمرة واحدة، ومروان يريد أن يوطد صلته بملوك بني العباس وبمن حولهم، فهدفه واضح وهو المال، ولذلك فقد فكر في موضوع يربطه ببني العباس ربطاً طويلاً دائماً، فهداه ذكاؤه إلى الشعر السياسي وطرق موضوع أحقيتهم بالخلافة من بني أمية وتقربه إليهم بهجاء منافسيهم، وكان العباسيون شديدي الحساسية من هذه الناحية؛ لأن الدعوة الشيعية كانت على أشدها، ولأن العباسيين أنفسهم كانوا قد استغلوا صلتهم بالرسول وبآل علي رضي الله عنه في القضاء على بني أمية. فصادفت هذه الخطة التي رسمها مروان لنفسه رضاً وقبولاً وحماسة عند المهدي ومن جاء بعده من الملوك العباسيين.

ولم يكن مروان بن أبي حفصة مخلصاص في ولائه لبني العباس، وإنما كان أموي الهوى والولاء، فجده أبو حفصة كان مولى لعثمان، ثم وهبه لمروان بن الحكم، وجده الأقرب يحيى كان عاملاً من عمال بني أمية، كما أنه كان شاعراً من شعراء الوليد بن يزيد، وإن مروان لا ينكر هذا الولاء وإنما يسجله شعراً في قوله:

بنـــو مـــروان قـــوم أعتقـــوني وكـــل النـــاس بعـــدهم عبيـــد

ولكنه اصطنع الولاء للعباسيين طلباً للمال وانتجاعاً للنوال، فالولاء هنا ولاء للمال الذي أحبه مروان وكنزه وأصبح حارساً عليه وحرم نفسه من طيبات الحياة التي ييسرها وجود المال، ولذلك فإن شعره السياسي لا تبدو فيه سمات الصدق أو آيات الانفعال.

لم يقل مروان شعراً إلا في المديح والرثاء والتهنئة ولم يتعد هذه الفنون إلا في القليل النادر، وهو يجيد في هذه ولا يجيد في تلك، وحياة مروان الشعرية تنقسم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مع بني أمية فقد اتصل بالوليد بن يزيد ودخل عليه مادحاً وعنده حماد الراوية يدله على مواطن الضعف والقوة في المدائح التي تلقى بين يديه والمصادر التي استقى الشعراء منها.

المرحلة الثانية: من شعر مروان فهي علاقته بمعن بن زائدة الشيباني الفارس الجواد الكريم ذي المكانة في عهدي بني مروان وبني العباس على السواء، والذي حارب بين يدي المنصور يوم الهاشمية حتى كتب له النصر، فأصبح جديراً بتقدير العباسيين له كما كان محلاً لتقدير الأمويين من قبل.

على أن بداية اتصال مروان بمعن بن زائدة كانت بداية غير كريمة تدل على خسّة في مروان والسعي إلى جمع المال والحصول على النوال من أي سبيل وعن أي طريق طاب أو خبث، فقد كانت أول قصيدة مدح مروان بها ((معناً)) ليست من شعره وإنما هي لرجل من بلدته اليمامة سمعه ينشدها بين جماعة من الناس وكان قد أعدها ليمدح بها مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين غير أنه قتل قبل أن ينشده إياها وفيها يقول:

مروان يا ابن محمد أنت الذي زيدت به شرفاً بنو مروان

فأعجبت القصيدة ابن أبي حفصة فأمهل صاحبها حتى قام من مجلسه، ثم أتاه في منزله وعرض عليه شراءها منه بثلاثمئة درهم فوافق الرجل، فحلفه مروان بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المحرجة ألا ينشدها ولا يعود ينسبها لنفسه، ثم غير منها أبياتا وزاد فيها بعض الشيء وجعلها في معن وجعل استهلالها هكذا:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً إلى شرف بنو شيبان

وبهذه القصيدة نال مروان رفد معن وأصاب غنىً وشهرة واسعتين.

على أن مروان ما لبث أن أخلص القول لمعن فأنشد فيه عدداً من عيون قصائد المديح في الشعر العربي كله بحيث أدخلت قصائده فيه الغيرة في قلوب الملوك، فلقد دخل معن على

المنصور العباسي ذات مرة، فقال له بلسان لا يخلو من عتب وتقريع مقنع: يا معن أعطيت ابن أبي حفصة مئة ألف درهم عن قوله فيك:

معن بن زائدة الذي زيدت به ... شرفاً إلى شرف بنو شيبان

فقال له: كلا يا أمير المؤمنين، ولكن لقوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلماً ... بالسيف دون خليفة الرحمن

فاستحيا المنصور من بادرته وتبسم وقال: أحسنت يا معن في فعلك.

على أن لمروان في معن روائع لا تنسى سارت بذكرها الركبان لقوتها وجزالتها وحسن سبكها رغم ما فيها من إلحاح على طلب العطاء، فمن ذلك لاميته المشهورة:

تجنب لا في القول حتى كأنه ... حرام عليه قول لا حين يسأل

تشابه يوماه علينا فأشكلا ... فلا نحن ندري أي يوميه أفضل

أيوم نداه الفخر أم يوم بؤسه ... وما منهما إلا أعز مفضل

ويمدح مروان قوم معن في نفس القصيدة فيقول:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها في بطن خفان أشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل

لهاميم في الإسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم في الجاهلية أول

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا ... أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

وما يستطيع الفاعلون فعالهم ... وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

ثلاث بأمثال الجبال جباهم ... وأحلامهم منها لدى الوزن أثقل

ولمروان في معن قصيدة عينية جزلة الصوغ فخمة الأسلوب تطرب لسماعها الأذن أكثر من ترحيب العقل والوجدان بها، ذلك لأن معانيها محدودة بوصف معن بالشجاعة ووسمه بصفات الكرم، وهو يجري فيها على السنن التقليدي من استهلال بالنسيب ووصف الرحلة إلى الممدوح، ثم إسباغ صفات الفضل عليه كيلاً بلا حساب، وتبدأ القصيدة بقوله:

أرى القلب أمسى بالأوانس مولعا ... وإن كان من عهد الصبا قد تمتعا

وفيها يصف رحلته إلى الممدوح قائلاً:

ولما سرى الهم الغريب قريته ... قرى من أزال الشك عنه وأزمعا

عزمت فعجلت الرحيل ولم أكن ... كذي لوثة لا يطلع الهم مطلعا

فأمت ركابي أرض معن ولم تزل ... إلى أرض معن حيثما كان نزعا

نجائب لولا أنها سخرت لنا ... أبت عزة من جهلها أن توزعا

تدارك معن قبة الدين بعدما ... خشينا على أوتادها أن تنزعا

وما أحجم الأعداء عنك بقية ... عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا

رأوا مخدراً قد جربوه وعاينوا ... لدى غيله منهم مجراً ومصرعا

وليس بثانيه إذا شد أن يرى ... لدى نحره زرق الأسنة شرعا

له راحتان الحتف والغيث فيهما ... أبى الله إلا أن تضرا وتنفعا

وحين يموت معن بن زائدة تتوالى مرثيات ابن أبي حفصة عليه، وهي جميعاً مع جودة إنشائها وروح ألفاظ مروان الجزلة التي ينسج خيوطها في براعة، فإننا نكاد نحس ببكاء مروان على عطايا معن وليس على معن نفسه، فهو في مرثيته الدالية يقول:

يا من بمطلع شمس ثم مغربها ... إن العطاء عليكم غير مردود

قل للعفاة أريحوا العيس من طلب ... ما بعد معن حليف الجود من جود

قل للمنيّة لا تُبقي على أحد ... إذ مات معن فما ميت بمفقود

وكذلك يقول:

مضى لسبيله معن وأبقى ... مكارم لن تبيد ولن تنالا

كأن الشمس يوم أصيب معن ... من الإظلام ملبسة جلالا

هو الجبل الذي كانت نزار ... تهد من العدو به جبالا

تعطلت الثغور لفقد معن ... وقد يروي بها الأسل النهالا

وأظلمت العراق وأورثتها مصيبته المجللة اختلالا
وظل الشام يزحف جانباه لركن العز حين وهى ومالا
وكادت من تهامة كل أرض ومن نجد تزول غداة زالا
أصاب الموت يوم أصاب معنا من الأحياء أكرمهم فعالا
وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالا

ويظل مروان يعدد مناقب الكرم والجود والهبة والعطاء في معن، وكأن معناً لم يكن له عمل في الحياة إلا أن يعطي الناس وإلا أن يقف الشعراء ببابه سائلين مستمنحين ويقول:

فلهف أبي عليك إذ العطايا جعلن منى كواذب واعتلالا
ولهف أبي عليك إذ اليتامى غدوا شعثاً كأن بهم سلالا
ولهف أبي عليك لكل هيجا غدت تلقي حواضنها السخالا
ولهف أبي إليك إذ القوافي لمتدح بها ذهبت ضلالا
أقمنا باليمامة إذ يئسنا مقاماً لا نريد له زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

هي إذن معان مكررة تسير على نسق واحد وضرب من القول غير متنوع ولا متباين، هذه القصيدة بذاتها تسبب لمروان موقفين متباينين موقف مع المهدي حين دخل عليه مادحاً ممتاحاً، فما كاد الملك العباسي يراه ويسمع استهلال مديحته حتى يأمر بطرده على ما مر بنا في صدر هذا الحديث، وأما الموقف الثاني فهو على النقيض تماماً ويدعو إلى الطرافة، فقد دخل مروان على جعفر البرمكي يمدحه، وكان مروان يتخير ممدوحيه من بين الذين يسفحون المال على مادحيهم، وكان له في هؤلاء فراسة عمّقها في نفسه حب المال، وما كاد مروان ينشد جعفراً بيتين من قصيدة رائية حتى سارع جعفر قائلاً: ويحك، أنشد مرثيتك في معن:

وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالا

فأنشدها إياه حتى أتى على آخرها وجعفر يرسل دموعه، فلما سكن قال: هل أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شيئاً؟ قال: لا، قال جعفر: فلو كان معن حياً وسمعها منك، كم كان يثيبك عليها؟ قال: أربعمئة دينار، قال جعفر: لكني أظن أنه كان لا يرضى لك بذاك، وقد أمرنا لك عن معن بضعف ما قلت وزدنا نحن مثل ذلك، فاقبض من الخازن ألفاً وستمئة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك.

المرحلة الثالثة: يستخدم مروان في هذه المرحلة نغمة السياسة وأحقية العباسيين بالخلافة دون غيرهم من المطالبين حيث يصب مديحته لخليفة بغداد في قالب من الألفاظ حضري وفي ثوب من الأقوال مترف رقيق، ومن حيث الجانب الشعري الفني فيتمثل في استهلال رقيق بالغزل ورحلة إلى الممدوح، ثم في توجيه صفات المديح إلى المهدي. يقول مروان مستهلاً قصيدته:

طرقتك زائرة فحي خيالها بيضاء تخلط بالحياء دلالها

إن المطلع الذي رسمه مروان لقصيدته لا شك مطلع رائق في نطاق المعايير الإيقاعية للشعر، فهو يطرق موضوعاً كلف به شعراء زمانه وهو وصف الخيال، أو بالأحرى زيارة خيال الحبيب، بل إن المصراع الأول من المطلع ذاته يدعو إلى الالتفاف؛ لأنه يشكل قضية بذاته:

(طرقتك زائرة فحي خيالها)ومن الطريف أن هذا المطلع الذي لم يعجب اليزيدي قد أعجب شيخاً من شيوخ الأدب هو خلف الأحمر الذي حكم لمروان بسببه أنه أشعر من الأعشى في قوله: (رحلت سمية غدوة أجمالها) والحق أن كثيراً من مطالع القصائد كانت تثير بعض أسباب الحرج للشعراء.

المهم أن مروان بن أبي حفصة ينشد مطلعة الجميل، ثم يثني ببيت قد أحكم نسج وشائج رقته في تلاعب محبب باختيار اللفظ المونق والمعنى الندي في ظلال قافية رضية تريح السمع والخاطر:

قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

وفي رواية:

مالـــت بقلبـــك فاســـتقاد ومثلهـــا ... قـــاد القلـــوب إلى الـــصبا فأمالهـــا

وكـــأنما طرقـــت بنفحـــة روضـــة ... ســـحت بهـــا ديـــم الربيـــع ظلالهـــا

باتـــت تـــسائل في المنـــام معرســـا ... بالبيـــد أشـــعث لا يمـــل ســـؤالها

في فتيـــة هجعـــوا غـــراراً بعـــدما ... ســـئموا مراعـــشة الـــسرى ومطالهـــا

فكـــأن حـــشو ثيـــابهم هنديـــة ... نحلـــت وأغفلـــت العيـــون صـــقالها

ثم ينطلق مروان بعد ذلك إلى مدح رقيق لم يلحف فيه كعادته في طلب النوال فهو يريد أن يأسر قلب محمد المهدي بطريق ما أول الأمر،وإنما يذكر بعض الخلال الطيبة التي يطرب لها الممدوح،ومتى طرب أجزل الصلة وجاد بالعطاء،يقول مروان:

أحيـــا أمـــير المـــؤمنين محمـــد ... ســـنن النبـــي حرامهـــا وحلالهـــا

ملـــك تفـــرع نبعـــة مـــن هاشـــم ... مـــد الإلـــه عـــلى الأنـــام ظلالهـــا

كلتـــا يـــديك جعلـــت فـــضل نوالهـــا ... للمـــسلمين، وفي العـــدو وبالهـــا

وقعـــت مواقعهـــا بعفـــوك أنفـــس ... أذهبـــت بعـــد مخافـــة أوجالهـــا

أمنـــت غـــير معاقـــب طرادهـــا ... وفككـــت مـــن أسرائهـــا أغلالهـــا

ونـــصبت نفـــسك خـــير نفـــس دونهـــا ... وجعلـــت مالـــك واقيـــاً أموالهـــا

ويمضي مروان في مدح المهدي في قصائد أخرى عديدة ولكن على الدرب السياسي نفسه محاولاً أن يجعل من نفسه محامياً للخلافة العباسية مدافعاً عن شرعيتها، فيقول كلاماً هو إلى النظم أقرب منه إلى الشعر:

يـــا ابـــن الـــذي ورث النبـــي محمـــدا ... دون الأقـــارب مـــن ذوي الأرحـــام

الـــوحي بـــين بنـــي البنـــات وبينـــكم ... قطـــع الخـــصام فـــلات حـــين خـــصام

مـــا للنـــساء مـــع الرجـــال فريـــضة ... نزلـــت بـــذلك ســـورة الأنعـــام

أنـــى يكـــون ولـــيس ذاك بكـــائن ... لبنـــي البنـــات وراثـــة الأعـــمام

ومن الطريف أن الشعراء يدخلون في جدل حول من هم أحق بميراث النبي، وهم جميعاً منافقون كاذبون؛ لأن الأنبياء لا يورثون، وليست النبوة ملكاً فتورث، وحتى لو تصورنا المستحيل وكان هنا حكم يحتاج إلى من يليه، فالولاية الطبيعية هي عن طريق الشورى واختيار جمهور المسلمين.

إن مروان لا يكاد يخرج في شعره عن نطاق المدح أو الرثاء، وقد مُرِّن على هذين الموضوعين من فنون الشعر، فإذا خرج عن نطاقهما لا نكاد نلمس له إبداعاً أو إطراباً، إنه قد امتلك حديقة وهبها له المهدي فقال يصفها:

نواضر غلباً قد تدانت رؤوسها ... من النبت حتى ما يطير غرابها
ترى الباسقات العمَّ فيها كأنها ... ظعائن مضروب عليها قبابها
ترى بابها سهلاً لكل مدافع ... إذا أينعت نخل فأغلق بابها
يكون لنا ما نجتني من ثمارها ... ربيعاً إذا الآفاق قل سحابها
حظائر لم يخلط بأثمانها الربا ... ولم يك من أخذ الديات اكتسابها
ولكن عطاء الله من كل مدحة ... جزيل من المستخلفين ثوابها

إنه شاعر أصيل ولكن في فن السؤال والاستجداء، يجيد وسائلها ويتفوق في انتهاج الطريق الموصول إليهما، وبالرغم من الفترة القصيرة التي عاشها مروان في عهد بني أمية والفترة الطويلة التي عاشها في عهد بني العباس، والتي امتدت إلى عهد المأمون، فإن مروان بن أبي حفصة يعتبر نموذجاً لشعراء المرحلة المتوسطة من المخضرمين بين الدولتين.

- ٤ -

الحسين بن مطير
٠٠٠ - ١٦٩ هـ

أ - حياته ونشأته:

والحسين بن مطير بن مكمل الأسدي عاش في زمن الدولتين الأموية والعباسية إلا أن أخباره مع الأمويين قليلة،وهو من أهل الجزيرة العربية من قرية يقال لها زبالة في طريق الحجاج بين الكوفة ومكة، والأخبار تذكر لنا أن هذا الشاعر مدح هذا وذاك من بني أمية وهذا وذاك من بني العباس، ونجد الشعر الذي قيل في بني العباس بين أيدينا وفيراً وأما ذلك الذي قيل في بني أمية فهو نادر أو قليل أو غير مسجل.

فمن المؤكد أن الحسين بن مطير قد دخل على الوليد بن يزيد ومدحه، فقد لقي الحسين بن مطير يوماً المهدي العباسي فأنشده مادحاً:

أضحت يمينك من جود مصورة لا بل يمينك منها صور الجود

فقال المهدي: كذبت يا فاسق، وهل تركت من شعرك موضعاً لأحد بعد قولك في معن بن زائدة:

ألما بمعن ثم قولا لقبره سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا

وأنشد القصيدة كلها بيتاً بيتاً في مواجهة الشاعر حتى أتمها.

إن الملك العباسي قد صدمته الغيرة من قصيدة قالها الشاعر في رثاء أحد عماله، وقد مر موقف مماثل له من مروان بن أبي حفصة مع نفس الممدوح وهو معن بن زائدة، فمن باب أولى سوف تكون القصيدة أكثر إثارة للغيرة إذا كانت مديحاً، وهي بالتالي سوف تكون مثيرة للغضب والحفيظة والكراهية لو أنها قيلت في عدو أو خصم، وإذن فليس ببعيد علينا أن نتصور أن هؤلاء المخضرمين كانوا يعملون على إخفاء شعرهم ذي اللون السياسي الأموي، وفي أضعف الإيمان كانوا يعملون على الحيلولة بينه وبين أن يذاع.

ب - شخصيته الشعرية:

والحسين بن مطير شاعر كبير متقدم في الرجز والقصيد، وهي ملكة قلما توفرت إلا للقليل من الشعراء، وإن البداوة والصحراء تشدانه إليهما في كثير من طرق تعبيره وشحطات خياله، ولكن الشاعر كان ذكياً طموحاً ثقف نفسه وراد شعره على معان ابتكرها، وموضوعات استحدثها وأساليب جديدة ابتدعها، وخيالات بارعة صاغ من خلالها شعراً رائعاً كما سوف يستبين لنا من نماذج شعره التي سوف نقدمها بعد قليل.

ج - موضوعات شعره:

لقد تماوج شعره بين المديح والرثاء، وبين الغزل والوصف، ثم أسهم بعد ذلك في الحكمة بنصيب، وهو في كل ذلك يجمع بين النهج التقليدي القديم في إنشاء القصيدة والأسلوب المستحدث الجديد، أو بعبارة أدق الأسلوب الذي استحدثه في نطاق النزعة إلى التجديد، ومن خلال النبوغ الذي دفع به إلى تبني صور جديدة ومعان حديثة وقعت موقع الرضا عند كثير من النقاد والمتأدبين على أيامه. وإنه ليقع من شعره الشيء بعد الشيء فيكثر التعجب من كثرة بدائعه، وشعره كأنه الديباج، بل نظم الدر في حسن وصف وإحكام رصين، ويعد من الفحول وهو من الشعراء القليلين الذين أجادوا القول في الرجز والقصيد:

ألما على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعاً ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جودة ... وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت ... ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى معن مضى الجود فانقضى ... وأصبح عرنين المكارم أجدعا

ولعل الشاعر قد استطاع أن يأسر عاطفة السامع ويشدها إليه من زاويتين أساسيتين:

١ - **الزاوية الأولى:** أنه جعل رثاءه من خلال خطابه القبر الذي توسده معن، وأنى له أن يسع خلقه وفضله وجوده.

٢ - **والزاوية الثانية:** هي العاطفة الوافر التي ضمنها الشاعر معانيه، وألبسها كلماته في أطار من القول الأسر والقافية الموسيقية الحزينة فأصبحنا ونحن نقرأ القصيدة كأننا نستمع إلى قطعة رائعة من الموسيقا الحزينة. إن ابن مطير قد ذهب ينتجع النوال والشهرة عند معن بن زائدة، ولكنه يمر بتجربة طريفة؛ لأنه لم يلق قبولاً عند أول لقاء، فاستعد للقاء ثان سريع يصل من خلاله إلى مبتغاه على ما سوف نفصل بعد قليل.

أولاً - مدائحه: لكن لعل أولى مدائحه كانت في معن، وكان معن فارساً كريماً من أعيان بني شيبان ومن أجود العرب وإذا أخضعت هذه الأبيات لمعايير النقد التقليدية نجد الشاعر استهل قصيدته بالرحلة إلى الممدوح، ثم وصفه بالمجد والأدب وجمال الطلعة ورحابة الأخلاق والشجاعة والإقدام والهيبة والعفة، وأما إذا أخضعت لمعايير الذوق الفني وجدنا شعراً سلساً رقيقاً تنساب فيه الموسيقا بوفرة، ولا نحس فيه تصنعاً يصدم السمع ولا تعسفاً يقلق الخاطر، كما أن المعاني التي طرقها وإن لم تكن جديدة الخلق فهي جديدة الصوغ بارعة التجميع مستريحة الترتيب، فليس كل الشعراء يأتون بالجديد من المعاني، وليس كل من يأتي بمعنى جديد يحسن صوغه وتقديمه، ولعل معنى مألوفاً صيغ صياغة رقيقة سمحة خير ألف مرة من معنى جديد صيغ صياغة مريضة سمجة.

لذلك فإن المهدي وقد طرب إلى مدحه طربه إلى عذوبة الشعر الذي سمعه فإنه أمر للشاعر بسبعين ألف درهم وحصان جواد. وللحسين بن مطير في المهدي قصيدة من عيون الشعر توفرت لها كل سمات الفحولة، اعتمد فيها المبالغة في مخاطبة العواطف مع احتشاد للمعاني وإتقان في النسج مع التطرف في المقابلة بين المعاني بحيث جعل من أبياته بناء شامخاً استحقت به أن تنال شهرة ربما لم تقل عن شهرة أبياته في معن مع أن هذه مديحة والأخرى مرثية، يقول الحسين في مدح المهدي:

لـه يـوم بـؤس فيـه للنـاس أبـوس	ويـوم نعـيم فيـه للنـاس أنعـم
فيمطـر يـوم الجـود مـن كفـه النـدى	ويقطـر يـوم البـأس مـن كفـه الـدم
ولـو أن يـوم البـأس خـلَّى عقابـه	عـلى النـاس لم يـصبح عـلى الأرض مجـرم

ولـــو أن يـــوم الجـــود خـــلَّى يمينـــه على النـاس لم يـصبح عـلى الأرض معـدم

إنه فحل الصياغة خصب الشاعرية متمكن من القصيد رائع الموسيقا بارع تجميع.

ثانياً - غزله:

وأما غزلياته فقد عرض لنا منها ألواناً من القصائد ومجموعات من المقاطع التي نلمس من جملتها عفة تتمشى في أردنه، وروحاً أخلاقية تحول بينه وبين أن يتهتـك أو يتهافـت، ومـن ثـم فإنه يبدو مطبوعاً بطابع غزل أهل البداوة الـذين لا يستـسيغون مـا يتقبلـه أهـل الحـضر مـن عبارات تخرج أحياناً عن مألوف الأسماع وتند عن متعارف الأذواق، وقد ظـل ذلـك البـدوي المستمسك بعادات قومه وزي أهلـه وأسـلوبهم في الحيـاة والكـلام. وإن لابـن مطـير أحيانـاً شطحات غزلية عمد فيها إلى التقعر في الألفاظ والتوعر في القوافي، وهو من ناحية أخـرى لـه صور فيها جدة وطرافة تخرج به عن النطاق التقليدي من الشعر الجيد إلى مدرسـة التجديـد في نطاق الشعر الجيد أيضاً. وشاعرنا بعد ذلك كله فياض العاطفة حين يعبر عـن نفـسه، عميـق التأثير في غزلياته. يقول ابن مطير من غزليه طريفة عمد فيها إلى بساطة التعبـير ويـسر الترجمـة عن كوامن حبه وخوافي مشاعره نحو صاحبته ((سهمة)) من بني عمرو:

خلـــيلي مـــن عمـــرو قفـــا فتعرفـــا لـــسهمة داراً بـــين لينـــة والحبـــل

وفـــيهن مقـــلاق الوشـــاحين طفلـــة مبتلـــة الأطـــراف ذات شـــوى خـــدل

حـــصان لهـــا لونـــان جـــون وواضـــح وخلقـان شيء مـن لطيـف ومـن عـسل

وســـنتها بيـــضاء واضـــحة الـــسنا وذروتهـــا مـــسودة الفـــرع والأصـــل

فيـــا عجبـــاً منـــي ومـــن حـــب قـــاتلي كـــأني أجازيـــه المـــودة عـــن قـــتلي

ومـــن غنيـــات الحـــب أن كـــان أهلهـــا أحـــب إلى قلبـــي وعينـــي مـــن أهـــلي

ولابن مطير طاقة فريدة على تصوير وجدانه المهتاج وصبابته الحارة، وهو يربط بين تـصرير عشقه وبين وصف المحبوبة التي يجيد رسم صورتها ويخلع عليها نفحات مـن الجـمال بحيـث يبدو الانسجام بين وصفه الحبيبة ووجده بها، ومن أرق ما أنشأ في هذا السبيل قوله:

لقـد كنـت جلـداً قبـل أن توقـد النـوى عـــلى كبـــدي نـــاراً بطيئـــاً خمودهـــا

ولـــو تركـــت نـــار الهـــوى لتـــضرمت ولكـــن شـــوقاً كـــل يـــوم يزيـــدها
وقـــد كنـــت أرجـــو أن تمـــوت صـــبابتي إذا قـــــدمت أيامهـــــا وعودهـــــا
فقـــد جعلـــت في حبـــه القلـــب والحـــشا عهـــاد الهـــوى تـــولي بـــشوق يعيـــدها
وصـــــفر تراقيهـــــا وحمـــــر أكفهـــــا وســـود نواصـــيها وبـــيض خـــدودها
محـــضرة الأوســـاط زانـــت عقودهـــا بأحـــــسن ممـــــا زينتهـــــا عقودهـــــا
يمنيننـــــا حتـــــى تـــــرف قلوبنـــــا رفيـــف الخزامـــى بـــات طـــل يجودهـــا
وفـــــيهن مقـــــلاق الوشـــــاح كأنهـــــا مهـــــاة بتربـــــان طويـــــل عمودهـــــا
وكنـــت أذود العـــين إن تـــرد البكـــا فقـــد وردت مـــا كنـــت عنـــه أذودهـــا
خلـــيلي مـــا بـــالعيش عيـــب لـــو أننـــا وجـــدنا لأيـــام الـــصبا مـــن يعيـــدها
ولي نظـــرة بعـــد الـــصدود مـــن الجـــوى كنظـــرة ثكـــلى قـــد أصـــيب وليـــدها
هـــل الله عـــاف عـــن ذنـــوب تـــسلفت أم الله إن لم يعـــــف عنهـــــا معيـــــدها

وهذه الأبيات هي من مدرسة جرير وأبي حية النميري في الغـزل مـن حيـث روح الجزالـة الموشاة بالرقة والصدق التي اتسم بها شعر الشاعرين العظيمين السابقين

على أن الأمر لم يقف بالحسين في غزله عند حد الإجادة وانتزاع الإعجاب.

و يخطو الحسين على درب التجديد:

وصـــــفر تراقيهـــــا وحمـــــر أكفهـــــا وســـود نواصـــيها وبـــيض خـــدودها

والحسين بن مطير يحرص دائماً في غزله على أن يجعل لمعاني العفة مكان الصدارة، وربما كان أحرص الشعراء العاشقين جميعاً على إظهار هذه المعاني، وهو يفعل ذلك دون أن ينال من رقـة القول أو حرارة الشوق أو حرقة اللوعة أو الاهتمام بالعاذلين، يقول الحسين من قـصيدة حـب طويلة:

أحبـــك يـــا ســـلمى عـــلى غـــير ريبـــة ولا بـــأس في حـــب تعـــف سرائـــره
ويـــا عـــاذلي لـــولا نفاســـة حبهـــا عليـــك لمـــا باليـــت أنـــك خـــابره

بنفسي من لابد أني هاجره ومن أنا في الميسور والعسر ذاكره
ومن قد لحاه الناس حتى اتقاهم ببعضي إلا ما تكن ضمائره
أحبك حباً لن أعنف بعده محباً ولكني إذا لم عاذره
لقد مات قبلي أول الحب فانقضى ولو متّ أضحى الحب قد مات آخره

ولا يلبث ابن مطير أن يشطح في بعض قصيده فتبدو منه بدوات تجعل البون شاسعاً بين ما قصد إليه من حب، وما سعى إليه من وسائل التعبير، إن الحب معنى رقيق وإحساس رفيق وهذا المعنى وذاك الإحساس يحتاجان لا شك إلى أن يصاغا صياغة سهلة سمحة عذبة، ولكنه هنا كان بدوي الألفاظ:

هل يدنينك من سلمى وجيرتها قلائص أرحبيات حراجيج
هدل المشافر، أيديها موثقة زج، وأرجلها زل هزاليج

ولعل الشاعر كان قد عمد إلى ذلك عمداً حتى يثبت أن له قدرة على الإغراب إذا أراد، وإذا كان لنا إن نشير إلى بعض المعاني المستحدثة التي تضع ابن مطير في طبقة المؤسسين الأوائل لاتجاهات التجديد فعلينا بهذه الأبيات الغزلية الرقيقة:

أين أهل القباب بالدهناء أين جيراننا على الأحساء
جاورونا والأرض ملبسة نور الأقاحي تجاد بالأنواء
كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء

وهذه الأبيات محدثة من وجوه شتى، فهي ضرب جديد رقيق من وصف الطبيعة لم يعمد إليه الشعراء قبله، ثم هي تعتمد على الكثير من الاستعارات الرائقة من الناحية البيانية، وهي إلى ذلك قد تمخضت عن صنعه بديعية باكرة في المطابقة اللطيفة ((تضحك الأرض من بكاء السماء)). لقد كان ابن مطير أسبق من المحدثين جميعاً في هذا الضرب من القول، ولكنه كان مغموراً عند كثير من النقاد الذين عجبوا من قوله دعبل:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

والمعنى مأخوذ كما هو واضح من أبيات الحسين بن مطير سالفة الذكر، وهي بدون شك أوفر صنعة وأرق صياغة، ولم يكن دعبل الشاعر الوحيد الذي أخذ معنى الحسين بن مطير، بل إن مسلم بن الوليد الذي يلقبه بعض النقاد بإمام المحدثين من الشعراء قد أخذ هذا المعنى من قوله:

مستعبر يبكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

وأخذ ابن المعتز المعنى نفسه في قوله:

ألحت عليه كل طخياء ديمة إذا ما بكت أجفانها ضحك الزهر

وللحسين أكثر من صورة طريفة مستحدثة تبدو الصناعة البديعة الباكرة واضحة فيها كل الوضوح، مثل ذلك قوله:

بيضاء تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو جعد أسحم

فكأنها منه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم

فالمقابلة بين النهار المشرق والليل المظلم في نطاق المعاني الرقيقة التي تضمنها البيتان ظاهرة جديدة في صناعة الشعر حتى عصر الحسين بن مطير على أقل تقدير. وإذاً فلئن أغرب ابن مطير في باب الغزل بقصيدته الجيمية الحوشية التي مر نصها، فلقد عوضنا عن توعره ذاك ما قد أرضى أذواقنا في قصائده الغزلية العفة الأخلاقية، وفي صور الصناعة الجديدة المبكرة التي مرت في الأبيات السابقة والتي سوف نعرض لصور أخرى منها بعد قليل.

ثالثاً - الحكمة:

وكان للحسين بن مطير مشاركة طيبة في قول الحكمة تجري على قلمه مطواعة لينة لولا أنه يأتي بها ترجمة لتعامله مع الحياة وخبرته بها وتجريبه إياها وحلبه أشطرها، يقول الحسين:

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح

أباها عليَّ الناس لا يشترونها ومن لا يشتري ذا علة بصحيح

وابن مطير يقدم حكمته الأصيلة في ثوب أنيق من الإيقاع وإطار رائق من الألفاظ بحيث لا تدخل من أذن وتخرج من الأخرى، وإنما تدخل لكي تستقر في العقل وتنغمس في الوجدان

وتبقى معهما طويلاً كحصيلة دراسة عميقة واقعية لصروف الزمان ومعاملات الإخوان، يقول الحسين بن مطير الحكيم:

تقلبت في الإخوان حتى عرفتهم ... ولا يعرف الإخوان إلا خبيرها
فلا أحرم الخلان حتى يصارموا ... وحتى يسيروا سيرة لا أسيرها
فإنك بعد الشر ما أنت واجد ... خليلاً مديماً شيمة لا يديرها
وإنك في غير الأخلاء عالم ... بأن الذي يخفى عليك ضميرها
فلا تك مغروراً بمسحة صاحب ... من الود لا تدري علام مصيرها
وما الجود عن فقر الرجال ولا الغنى ... ولكنه خيم الرجال وخيرها
وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها ... فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها
وكائن ترى من حال دنيا تغيرت ... وحال صفا بعد إكدار غديرها
ومن طامع في حاجة لن ينالها ... ومن يائس منها أتاه بشيرها
ومن يتبع ما يعجب النفس لا يزل ... مطيعاً لها في فعل شيء يضيرها
فنفسك أكرم عن أمور كثيرة ... فما لك نفس بعدها تستعيرها

وأبيات الحكمة التي يقولها الحسين تدخل إلى الأذن وتستقر في العقل والوجدان فينشغل العاقل بها كثيراً، ولقد كانت بعض هذه الأبيات سبباً في تسهيد ملك كبير تجمعت له كل أسباب السعادة المادية والمعنوية والاستقرار السياسي والهناء النفسي المهدي العباسي الذي قال للمفضل الضبي ذات يوم: أسهرتني البارحة أبيات الحسين بن مطير الأسدي، قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟

قال: قوله:

وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها ... فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقرب الأمر الحرام فإنه ... حلاوته تفنى ويبقى مريرها
وكم قد رأينا من تغيّر عيشة ... وأخرى صفا بعد إكدار غديرها

فأجابه المفضل الضبي إجابة عاقلة غير منافقة، إجابة العلماء: مثل هذا فليسهرك يا أمير المؤمنين.

رابعاً - الوصف:

وإذا عرض ابن مطير للوصف، وجدناه ثابت القدم راسخ البناء، مبدعاً مجدداً مستحدثاً من المعاني والصور والصيغ ما لم يسبق إليه.لقد مرت أبياته الهمزية التي أضحك الأرض فيها من بكاء السماء، ومر أيضا بيتاه في وصف الفتاة الحسناء التي بدا وجهها بين شعرها كالنهار المشرق، وشعرها بالقياس إلى وجهها كالليل الأسحم، وللحسين تصوير جديد للمطر لم يسبق إليه ضمنه قصيدة طويلة بعض الشيء جمع فيها ألواناً من صور البيان والبديع من تشبيهات واستعارات وطباق ومقابلة وتشطير، ولم يفسد معانيه ولم يجعل الألفاظ سيدة لها، يقول ابن مطير في المطر:

وكأن بارقة حريق يلتقي ... ريح عليه وعرفج وألاء

وكأن ريّقه ولما يحتفل ... ودق السماء عجاجة كدراء

مستضحك بلوامع، مستعبر ... بمدامع لم تمرها الأقذاء

فله بلا حزن ولا بمسرة ... ضحك يؤلف بينه وبكاء

حيران متبع صباه تقوده ... وجنوبه كنف له ووعاء

ودنت له نكباؤه حتى إذا ... من طول ما لعبت به النكباء

ذاب السحاب فهو بحر كله ... وعلى البحور من السحاب سماء

ثقلت كلاه فنهرت أصلابه ... وتبعجت من مائه الأحشاء

غدق ينتج بالأباطح فرقا ... تلد السيول وما لها أسلاء

غر محجلة دوالج ضمنت ... حمل اللقاح وكلها عذراء

سحم فهن إذا كظمن فواحم ... سود وهن إذا ضحكن وضاء

لو كان من لجج السواحل ماؤه ... لم يبق من لجج السواحل ماء

لقد نزع الشاعر إلى الصورة الجديدة والصنعة المبتكرة والغرض المتجدد في رحاب الطبع الأصيل، ولقد رسم للشعر في مستهل العهد العباسي خطاه، وأسهم فيه إسهاماً فعالاً وإن بدا في ثوب من التواضع وإطار من البعد عن الصخب والتضجيج.

- ٥ -

منصور بن الزبرقان
بن سلمة النمري

أ - حياته ونشأته:

منصور النمري شاعر وافد على بغداد منحدر من بلده ((رأس العين)) في الجزيرة، وكان سكان الجزيرة يحسبون لفترة طويلة من الزمان على أهل الشام عربي صليبة من النمر بن قاسط واسمه - كاملاً - منصور بن الزبرقان بن سلمة - وقيل: ابن سلمة بن الزبرقان - بن شريك بن مطعم الكبش الرخم بن ربيعة بن نزار.

ب - شخصيته الشعرية:

ومنصور النمري تلميذ الشاعر العبقري المثقف الحكيم كلثوم بن عمرو العتابي وروايته، عنه أخذ ومن بحره استقى، وبمذهبه الفني تشبه. ولكنه لم يلبث أن انقلب على أستاذه، وأخذ يكيد له عند الرشيد حتى كاد يفتك به، الأمر الذي اضطر الرجل الوقور - العتابي - إلى أن يقابل سوء الصنيع بمثله فما كان منه إلا أن سمم فكر الرشيد تجاه منصور، وروي له بعض شعره الذي كان يتشيع فيه لآل البيت تشيعاً شديداً يؤلب فيه الناس على ملك العباسيين.

على أن خصومة منصور للعتابي قد نبعت من نخوته العربية وعصبيته في الغيرة الشديدة على أهل بيته حين سخر العتابي بمنصور وزوجه وقد تعثرت في الولادة.

ولكن مهما كان الأمر في نهاية العلاقة بين منصور وأستاذه على هذه الصورة المحزنة، فإنه أفاد من صلته بالعتابي ورواية شعره والتلميذة عليه فائدة جليلة جعلته يواجه كبار الشعراء فيما بعد وينتزع منهم مكان الصدارة عند الرشيد.

وهذا ومنصور النمري على الرغم من مدحه الرشيد ونزوعه إلى الصيغة السياسية في ذلك ومحاولة ترجيح حق العباسيين في الخلافة على حق الهاشميين كان متشيعاً لآل البيت متحمساً لهم، باكياً لما أصابهم من تعذيب واضطهاد على يد العباسيين والأمويين بحيث يقول ابن

المعتز: إن أشعار النمري في آل الرسول عليهم السلام كثيرة جداً، وهي من أجود ما مدحوا به كما يصفه بأنه من فحول المحدثين.

وإن منصوراً النمري لم يمدح أحداً من الخلفاء غير الرشيد، وإن كان قد مدح وزراءهم من البرامكة وبعض قوادهم مثل يزيد بن مزيد الشيباني.

إن النمري قد نفذ شعره إلى قلب الرشيد بما لم ينفذ إليه شاعر آخر، فقد أنشد منصور الرشيد قصيدته الرائية التي مطلعها:

أمير المؤمنين إليك خضنا غمار الهول من بلد شطير

وهي من أرق شعره.

وإنك حيث تبلغهم أذاة وإن ظلموا لمحترق الضمير

انتفض الرشيد في مجلسه انتفاضة الرضا والإعجاب وقال له: ويحك، ما هذا؟ شيء كان في نفسي منذ عشرين سنة لم أقدر على إظهاره فأظهرته بهذا البيت. ثم قال الرشيد للفضل بن الربيع: خذ بيد النمري فأدخله بيت المال ودعه يأخذ ما يشاء. يقول الشاعر: فأدخلني الفضل إلى بيت المال وليس فيه إلا سبع وعشرون بدورة فاحتملتها جميعاً.

إن الرشيد كان قد أقام بالرقة في فصل الصيف وأطال المكث فيها، فقد كانت أثيرة لديه لطيب هوائها ورقة اتسامها، فاشتاقت زبيدة إلى بغداد، وفكرت في حيلة تستعجل بها الرشيد في العودة إلى عاصمة الخلافة، فجمعت الشعراء وقالت لهم: من يصف مدينة السلام وطيبها في أبيات يشوق أمير المؤمنين إليها أغنيته، فتسابق الشعراء إلى القول في فضل بغداد، ومن بينهم النمري قال أبياتاً في هذا المقام أولها:

ماذا ببغداد من طيب أفانين ومن عجائب للدنيا وللدين

إذ الصبا نفحت والليل معتكر فحرشت بين أغصان الرياحين

فوقعت أبيات النمري في قلب الرشيد بحيث أسرع في الانحدار إلى بغداد، أما الجائزة التي حصل عليها النمري من زبيدة فكانت جوهرة ثمينة وهبتها له، ثم دست إليه من اشتراها منه بثلاثمئة ألف درهم.

فإذا ما انتقلنا إلى تسجيل السخط والغضب اللذين أثارهما النمري في قلب الرشيد بأسلوب وطراز من الفكرة الشعرية لما تسنحا لشاعر آخر.

فأما الأولى التي تشير إلى نبل في سلوك الرشيد قبل أبناء عمومته من العلوية فتتمثل في أن منصوراً وقف ينشد الرشيد قصيدة مدحة بها وهجا آل علي وثلبهم، فضجر الرشيد وغضب غضباً شديداً وأردف قائلاً موجهاً حديثه للشاعر: يا ابن اللخناء: أتظن أنك تتقرب إليَّ بهجاء قوم أبوهم أبي ونسبهم نسبي، وأصلهم وفرعهم أصلي وفرعي؟ فقال الشاعر ممعناً في نفاقه أو استرضاء للخليفة الغاضب: ما شهدنا إلا بما علمنا. وهنا استبد الغضب بالرشيد وأمر مسروراً السياف فوجأ في عنقه، ثم أمر به فأخرج.

وأما الثانية فإنه في غمار الخلاف الشديد بينه وبين العتابي أثر الخبر الذي أوردناه في صدر هذا الحديث حول سخرية العتابي من روايته حين تعسرت زوجته في الولادة فأشار عليه ساخراً بكتابة بيته على مكان ما من جسمها:

إن أخلف الغيث لم تخلف مخايله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

نذر النمري لئن سلمت زوجته ليشكون العتابي إلى الرشيد، وقد سارع الشاعر بشكوى العتابي إلى الخليفة مما جعله يستشيط غضباً من العتابي، الأمر الذي جعل هذا الأخير يتوارى لفترة طويلة عند الفضل بن الربيع، فلما أن هدأت ثورة الخليفة وأذن له بالمثول بين يديه سأله عن السبب الذي دفع به أن يهزأ بالنمري وبزوجه وبالخليفة جميعاً، فأجاب العتابي قائلاً: والله يا أمير المؤمنين ما حمله على التكذيب عليَّ إلا وقوفي على ميله إلى العلوية، فإن شاء أمير المؤمنين أن أنشده شعره في مديحهم فعلت، فقال أنشدني: فأنشده قصيدة النمري:

شاء من الناس راتع هامل يعللون النفوس بالباطل

حتى بلغ إلى قوله:

ألا مساعير يغضبون لها بسلة البيض أو القنا الذابل

ثار الرشيد وغضب غضباً شديداً، وأمر الفضل بن الربيع أن يحضره الساعة، فبعث الفضل في طلبه في الرقة فوجده قد توفي، والناس منصرفون من تشييع جنازته، فأمر بنبش قبره ليحرقه، ولكن مازال الفضل يلطف له حتى كف من طلبه.

للنمري مجموعة من القصائد والمقطوعات مدح بها الرشيد في مناسبات مختلفة، ولكنه لم يحفل فيها بالجانب السياسي، وهو الأمر الذي حرص على التزامه في الكثير من شعره كوسيلة ((للتقية))حتى لا ينكشف أمر تشيعه للرشيد.

إن منصوراً يحسن استهلال قصائده ويفتتحها بالغزل الرقيق الذي يستولي على عواطف الأدباء والفنانين بحيث كان الكثير من شعره مما يتعنى به. فمن هذا اللون من القصيد ميميته التي يتغنى بها، والتي يقول في مستهلها متغزلاً:

يا زائرينا من الخيام ... حياكما الله بالسلام

لم تطرقاني وبي حراك ... إلى حلال ولا حرام

هيهات للهو والتصابي ... وللغواني وللمدام

أقصر جهلي وتاب حلمي ... ونهنه الشيب من عرامي

وبعد هذا الاستهلال الرقيق من الغزل والشكوى الذي يطيل فيه بعض الشيء ينتقل إلى مدح الرشيد قائلاً:

بورك هارون من إمام ... بطاعة الله ذو اعتصام

يسعى على أمة تمنى ... أن لو تقيه من الحمام

لو استطاعت لقاسمته ... أعمارها قسمة السهام

يا خير ماض وخير باق ... من النبيين في الأنام

لقد جاء النمري بأسلوب خفيف رقيق مطرب، الأمر الذي جعل المغنين يتغنون بأبياته هذه لاتساقها نغماً، وخفتها إيقاعاً، بحيث تمكن المغني من الترديد والتنغيم والتلوين وحسن الأداء.

ج - موضوعات شعره:

١ - المديح الشخصي:

لمنصور النمري أبيات أخرى في مدح الرشيد ينحت فيها المديح نحتاً فيمزح المعنى الجيد بالصورة المهتزة كما في قوله:

إن هـــــارون إمـــــام الهـــــدى كنـــزين مـــن أجـــر ومـــن بـــر
يـــريش مـــا تـــبري الليـــالي ولا تـــريش أيـــديهن مـــا يـــبري
كـــأنما البـــدر عـــلى رحلـــه ترميـــك منـــه مقلتـــا صـــقر

إن النمري كان يعني في مدائحه للرشيد أمير المؤمنين علياً وليس الرشيد نفسه، وهو في ذلك يستلهم الحديث الشريف: (علي مني بمنزله هارون من موسى) ومما يؤيد من ذهب إلى هذا الرأي قول النمري:

آل الرســـول خيـــار النـــاس كلهـــم وخـــير آل رســـول الله هـــارون
رضـــيت حكمـــك لا أبغـــي بـــه بـــدلا لأن حكمـــك بـــالتوفيق مقـــرون

وأما في نطاق المدائح السياسية فلمنصور النمري أكثر من قصيدة بارعة الصنع ذائعة الصيت تجري على ألسنة المتأدبين بالإطراء والإعجاب، وأشهر هذه القصائد على الإطلاق عينيته التي مطلعها:

مـــا تنقـــضي حـــسرة منـــي ولا جـــزع إذا ذكـــرت ســـباباً لـــيس يرتجـــع

وقد ذهب الشريف المرتضى إلى أن هذه القصيدة هي أول شعر يمدح له النمري الرشيد، صنعها وأنشدها الرشيد في جمع من قومه ربيعة حين أوقع الرشيد بهم. ويذكر المرتضى أن الشاعر ما كاد ينشد المصراع الأول من مطلع قصيدته حتى قال له الرشيد - بملل - : قل حاجتك وعد عن هذا. وما زال النمري ينشد والخليفة يستمتع طرباً معجباً حتى إذا انتهى منصور من الإنشاد أمر الرشيد برفع السيف عن ربيعة.

والقصيدة ذات فكرة ومنهج وصناعة، فلا شك أن النمري كان على علم بدراية الرشيد بالشعر وتمييزه الجيد من الرديء، ومن ثم فقد استهل قصيدته بالشكوى من ذهاب الشباب

وإبداء الجزع على فراقه بهذه الأبيات الفريدة في التعبير عن إحساس كل من بان عنه الشباب مردفاً ذلك بشيء من التشبيب وذلك في قوله:

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع ... إذا ذكرت سباباً ليس يرتجع

أودى الشباب وفاتتني بشرته ... صروف دهر وأيام لها خدع

ما كنت أوفي شبابي كنه غرته ... حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

ما كنت أول مسلوب شبيبته ... مكسو شيب فلا يذهب بك الجزع

إن كنت لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... تشجي بغصته فالعذر لا يقع

إن ناقداً كبيراً مثل ابن المعتز – من منطلق ذوقه الخاص – يقول عن منصور أنه أقام القيامة في تشبيبه وذكر الشباب في هذه القصيدة.

٢ - المديح السياسي:

وحين يقصد النمري إلى مدح الرشيد من باب السياسة فإنه يطرق الباب من خلال تقرير أحقية بني العباس بالخلافة دون بني علي، وقد كان أكثر شعراء الرشيد يفعلون ذلك. إن منصوراً النمري بضرب على الوتر نفسه، ولكنه يفوق غيره في بعض المعاني، ويسبقه في خلقها وطرقها فيقول:

يا ابن الأئمة من بعد النبي ويا ابن ... الأوصياء أقر الناس أم دفعوا

لولا عدي وتيم لم تكن وصلت ... إلى أمية تمريها وترتضع

إن الخلافة كانت إرث والدكم ... من دون تيم وعفو الله متسع

وما لآل علي في إمارتكم ... حق وما لهم في إرثكم طمع

يا أيها الناس لا تعزب عقولكم ... ولا تضفكم إلى أكنافها البدع

العم أولى من ابن العم فاستمعوا ... قول النصيح فإن الحق يستمع

إن منصوراً يطرق المعنى نفسه الذي طرقه مروان بن أبي حفصة في بيته المشهور:

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبني البنات وراثة الأعمام

فجاء النمري وصاغه صياغة أبرع وأذكى: لأنه واجه قارئه بقضية مقررة،وليس بصيغة استغراب واستنكار.

أما وقد اطمأن منصور إلى أنه استحوذ على إعجاب الرشيد ورضاه في تلك المرحلة الثانية من قصيدته، فإنه ينتقل إلى المرحلة الثالثة التي يطلب إليه فيها العفو عن بني قومه مركزاً على الخليفة بمدح مكثف غمره به كالسيل، في شعر يجمع بين فحولة القول وترف الصوغ وجلال المعنى، وذلك في قوله:

ركب من ((النمر)) عاذوا بابن عمهم ... من هاشم إذ ألح الأزلم الجذع
متوا إليك بقرى منك تعرفها ... لهم بها في سنام المجد مطلع
أي امرئ بات من هارون في سخط ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تتسع
إذا رفعت امرأً فالله يرفعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
نفسي فداؤك والأبطال معلمة ... يوم الوغى والمنايا بينها قرع

ومن مشهورات المدائح التي قالها منصور النمري في الرشيد قصيدته الرائية التي مطلعها.

أمير المؤمنين إليك خضنا ... غمار الهول من بلد شطير

وكانت هذه القصيدة أول شعر ينشده منصور في مدح الرشيد بحضور شاعره المفضل مروان بن أبي حفصة، وتذكر الروايات أن مروان قد جزع حين عرف بأمر إنشاد منصور وقال في نفسه: هذا شامي وأنا حجازي، أفتراه يكون أشعر مني ودخله من ذلك غم وحسد.

والحق إن هذه القصيدة الرائية من أرق شعر المديح السياسي، ومن ألينه إيقاعاً، وأبلغه معنى، وأقربه إلى الهدف، وكان الشاعر فيه من المكر والحصافة بحيث عرض ببني علي بما لا يجرحهم حتى يخلص من خلال ذلك إلى الحيلولة بين الرشيد وبين أن يوقع بهم - وكان الشاعر على ما مر بنا متشيعاً متحمساً.

وقف منصور وأنشد الرشيد في جمع من الحضور يتقدمهم مروان بن أبي حفصة، فقال:

أمـــير المـــؤمنين إليـــك خـــضنا غـــمار الهـــول مـــن بلـــد شـــطير
بخـــوص كالأهلـــة خافقـــات تلـــين عـــلى الـــسرى وعـــلى الهجـــير
حملـــن إليـــك أحمـــالاً ثقـــالا ومثـــل الـــصخر والـــدر النثـــير
فقـــد وقـــف المـــديح بمنتهـــاه وغايتـــه وصـــار إلى المـــصير
إلى مـــن لا يـــشير إلى ســـواه إذا ذكـــر النـــدى كـــف المـــشير

وما إن يصل منصور إلى هذا البيت الذي يعتبر من عيون معاني المديح حتى يقول مروان: وددت والله أنه أخذ جائزتي وسكت.

ويطرق منصور موضوع الشيعة طرقاً رقيقاً بارعاً يبدي الحملة عليهم ويهدف إلى الرحمة بهم، ويذكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فيقول:

بنـــي حـــسن وقـــل لبنـــي حـــسين علـــيكم بالـــسداد مـــن الأمـــور
أمطيـــوا عـــنكم كـــذب الأمـــاني وأحلامـــاً يعـــدن عـــدات زور

ويخاطب الشاعر الرشيد ممجداً صنيعه الرحيم بيحيى بن عبد الله وقومه قائلاً:

مننـــت عـــلى ابـــن عبـــد الله يحيـــى وكـــان مـــن الحتـــوف عـــلى شـــفير
ولـــو جاريـــت مـــا اقترفـــت يـــداه دلفـــت لـــه بقاصـــمة الظهـــور
يـــدٌ لـــك في رقـــاب بنـــي عـــلي ومـــن لـــيس بـــالمن الـــصغير
وإنـــك حـــين تـــبلعهم أذاة وإن ظلمـــوا لمحـــترق الـــضمير

وما إن ينتهي الشاعر من ذكر هذا البيت حتى يقول الرشيد قولته النبيلة التي مر ذكرها: ويحك! ما هذا؟ شيء كان في نفسي منذ عشرين عاماً لم أقدر على إظهاره فأظهرته بهذا البيت!!

وإذ يطمئن النمري على آل البيت من خلال إظهار الرشيد العطف عليهم، يمضي الشاعر في التعريض بهم مستعيناً ببعض المعاني القرآنية مقلداً فعل غيره من الشعراء في هذا السبيل فيقول:

ألا لله در بنـــــــي عـــــــلي وزور مـــــن مقـــــالتهم كبـــــير

يـــــسمون النبـــــي أبـــــاً ويـــــأبى مـــــن الأحـــــزاب ســـــطر في ســـــطور

يريد قوله عز وجل:((ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين))

وهو يعلم حق العلم أنه يلوي عنق الآية ليلبسها هذا المعنى، تماماً كما فعل مروان بن أبي حفصة مع المهدي حين أنشده قصيدته الهائية التي قال فيها:

أو تجحـــدون مقالـــةً مـــن ربكـــم جبريـــل بلّغهـــا النبـــي فقالهـــا

شـــهدت مـــن ((الأنفـــال)) آخـــر آيـــة بـــــتراثهم فـــــأردتمُ إبطالهـــــا

وواضح أن مروان قصد بقولة الآية الكريمة من سورة الأنفال ((والـذين آمنـوا مـن بعـد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم، وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، إن الله بكل شيء عليم))

ويمضي النمري في قصيدته ملحاً على هذا المعنى السياسي مركزاً على أحقية بني العباس دون بني فاطمة، غير قانع بآية سورة الأحزاب، وإنما يسعى إلى توثيق دعواه بالزبور كتاب اليهود، ولعله ذكر ((الزبور)) تمشياً مع القافية التي تستجيب لها لفظه ((الزبور)) كل الاستجابة فقال:

فـــإن شـــكروا فقـــد أنعمـــت فـــيهم وإلا فالندامـــــــــة للكفـــــــــور

وإن قـــالوا بنـــو بنـــت فحـــق وردوا مـــا يناســـب للـــذكور

ومـــا لبنـــي بنـــات مـــن تـــراث مـــع الأعـــام في ورق الزبـــور

لقد كان الإطار العام الذي نسج منصور النمري من خلاله مدائحه في الرشيد هو إطار السياسة، ومحاولة إسباغ الشرعية على الحكم العباسي.

وللنمري مدائح في رجال الرشيد، وبخاصة الفضل وجعفر ابني يحيى البرمكي، وهي مدائح سياسية على الأغلب، ومتصلة بمناسبات سياسية أو عسكرية. إن الفضل بن يحيى يستطيع أن ينتزع من الفرس في منطقة ((مرو)) الموافقة على جعل ولاية عهد الرشيد لولده محمد الذي عرف بالأمين، ويرى منصور النمري أن امرأ كهذا يدخل السرور دون شك إلى قلب الرشيد، فيمدح الفضل بهذه الأبيات التقليدية:

أمست بمرو على التوفيق قد صفقت على يد الفضل أيدي العجم والعرب
ببيعةٍ لولي العهد أحكمها بالنصح منه وبالإشفاق والحدب
قد وكد الفضل عهداً لا انتقاض له لمصطفى من بني العباس منتخب

وفي مديحه لجعفر يحلق في سماء الشعر عندما تثبت فتنة في الشام سنة مئة وثمانية، فعقد الرشيد لجعفر عليها وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا، واهتم الرشيد لذلك هما شديداً، فقال له جعفر: بل أقيك بنفسي يا أمير المؤمنين، وخرج ثم دخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضي واستمع إليه، واقتنع بكلامه فانتقل إلى الرفض، أي إلى مذهب الشيعة، وتوفَّر على مدح آل البيت، يزور قبورهم، وينشد الأشعار فيهم، حتى قال عنه ابن المعتز: إن أشعاره في آل الرسول عليهم السلام من أجود ما مَدحوا به.

يقول النمري باكياً آل البيت معرضاً بخصومهم العباسيين، حاضاً على الثورة والثأر:

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل
أمن النصارى واليهود وهم من أمة التوحيد في أزل

إنها دعوة صريحة إلى ثورة دامية على العباسيين، ثورة مسلحة، جندها الرجال الشجعان الكماة، وعدتها السيوف الصوارم والرماح الحادة. إن هذه الأبيات هي التي أثارت حفيظة الرشيد عليه فأمر بقتله، وأرسل رسوله إلى رأس العين لينفِّذ حكم الخليفة فيه فوجده قد مات.

٣ - حب آل البيت عنده:

ومن قصائد الشهيرة في - آل لبيت - لاميته التي يحمل فيها على الناس، كل الناس، ويعرض بالحكم العباسي الذي يعمل القتل في ذرية النبي في وقت يتظاهر أولو الأمر فيه بالتقوى، ويسوق النمري أفكاره الشيعية، ويصوغ غضبه، ويترجم عن سخريته، ويعلن ما في نفس من مرارة على مقتل الحسين واستكانة الناس وخذلانهم له على هذا النحو.

شاء من الناس راتع هامل يعللون النفوس بالباطل
تقتل ذرية النبي ويرجون جنان الخلود للقاتل

ويلـــك يـــا قاتـــل الحـــسين لقـــد بـــؤت بحمـــل ينـــوء بالحامـــل
أي حبـــــاء حبـــــوت أحمـــــد في حفرتـــــه مـــــن حـــــرارة الثاكـــــل
بـــأي وجـــه تلقـــى النبـــي وقـــد دخلـــت في قتلـــه مـــع الـــداخل
هلـــم فاطلـــب غـــداً شـــفاعته أو لا فَـــرِدْ حوضـــه مـــع الناهـــل
مـــا الـــشك عنـــدي في حـــال قاتلـــه لكننـــي قـــد أشـــك في الخـــاذل
نفـــسي فـــداء الحـــسين يـــوم غـــدا إلى المنايـــا غـــدو لا قافـــل
ذلـــك يـــوم أخنـــى بـــشفرته عـــلى ســـنام الإســـلام والكاهـــل

ويمضي منصور في إظهار تشبثه بحب آل البيت رغم عذل العاذلين، ذاكراً مذهبه السابق الذي كان يدعوه إلى جفوة آل البيت، وهو هنا لا يقصد العباسية أو الأموية بطبيعة الحال، ولكنه يسير دون تصريح واضح إلى سابق اعتناقه مذهب الشراة الذين ناصبوا علياً وآله العداء، فيقول هذا القول الماضي على نهج من المرارة غير قليل:

وعـــاذلي أننـــي أحـــب بنـــي أحمـــد، فـــالترب في فـــم العـــاذل
قـــد دنـــت مـــا ديـــنكم عليـــه فـــما وصـــلت مـــن ديـــنكم إلى طائـــل
ديـــنكم جفـــوة النبـــي ومـــا الجـــافي لآل النبـــــــي كالواصـــــــل
مظلومـــــة والنبـــــي والـــــدها تـــــدير أرجـــــاء مقلـــــة حافـــــل
إلا مـــــصاليت يغـــــضبون لهـــــا بـــــسلة البـــــيض والقنـــــا الـــــذابل

لقد سبقت الإشارة إلى أن العتابي في مجال الدفاع عن نفسه أمام الرشيد من شكوى كان النمري قد وجهها إلى الخليفة أنشد هذه القصيدة، فما كاد يصل إلى البيت الأخير حتى أمر الخليفة، من يذهب إلى الرقة لقتله على النحو الذي سبق ذكره فيما سلف من صفحات، ذلك أن القصيدة تحوي حشداً من العواطف، وإن كانت دون مستوى شعر الشاعر من حيث الصوغ والديباجة.

ولقد شوهد النمري واقفاً على قبر الحسين بكربلاء ينشد بكائية موجعة من بكائياته فيه وفي آل البيت، يصف فيها آل البيت بالشجاعة والصمود في القتال، لا يفرون ولا يولون الأدبار، وآية ذلك أن جراحاتهم وإصاباتهم كلها في الوجوه، ودماءَهم كلها تجري في الحجور، وليس للسيوف من آثار على أكتافهم أو أقفائهم. وفي هذه القصيدة يبكي الشاعر الإمام الحسين بكاء موجعاً، ويذكر ما حل به على يد عبيد الله بن زياد، وما حل بجدثه الطاهر على أرض كربلاء. ويمضي النمري مناجياً الأرض والجدث، مسترحماً الرسول متبرئاً ممن أوقع الأذى بآله الأطهار، ويقول منصور النمري في قصيدته هذه:

فما وجدت على الأكتاف منهم ... ولا الأقفاء آثار النصول
ولكن الوجود بها كلوم ... وفوق حجورهم مجرى السيول
أريق دم الحسين ولم يراعوا ... وفي الأحياء أموات العقول
فدت نفسي جبينك من حبين ... جرى دمه على خد أسيل
أيخلو قلب ذي ورع ودين ... من الأحزان والألم الطويل
وقد شرقت رماح بني زياد ... بري من دماء بني الرسول
بتربة كربلاء لهم ديار ... نيام الأهل دارسة الطلول
فأوصال الحسين ببطن قاع ... ملاعب للدبور وللقبول
تحيات ومغفرة وروح ... على تلك المحلة والحلول
برئنا يا رسول الله ممن ... أصابك بالأذية والذحول

هذه القصيدة من أطيب الشعر، وأصدقه إحساساً، وأوفره عاطفة، وأعمقه انفعالاً.

٤ - المراسلات الشعرية:

كان والعتابي صديقين حميمين، بل إنه رواية العتابي وتلميذه، وكانت هناك مناسبات من الفرح أو الضيق أو الشوق تدفع بالشاعر إلى مراسلة صديقه بأبيات تدخل في باب المطارحات، لأن الصديق ما يلبث أن يقرأها، ثم يسارع إلى الإجابة عليها من البحر والقافية

والروي نفسه. لقد حلت بالعتابي ذات يوم ساعة ضيق فرأى أن يكتب لتلميذه وروايته هذه الأبيات:

تقضت لبانات ولاح مشيب ... وأشفى على شمس النهار غروب
خلا بين ندماني موضع مجلسي ... ولم يبق عندي للوصال نصيب
وودعت إخوان الصبا وتصرمت ... غواية قلب كان وهو طروب
ومما يهيج الشوق لي فيرده ... خفيف على أيدي القيان صخوب
وأي امرئ لا يستهش إذا جرت ... عليه بنان كفهن خضيب

ولا يكاد منصور يتسلم هذه الأبيات المفرطة الرقة حتى سارع إلى الرد على أستاذه بهذه الأبيات، فأجابه النمري وقال:

أوحشة ندمانيك تبكي؟ فربما ... تلاقيهما والحلم عنك عزوب
ترى خلفاً من كل نيل وثروة ... سماع قيان عودهن قريب
يغنيك يا بنتي فتستصحب النهى ... وتحتازك الآفات حين أغيب
وإن امرأً أودى السماع بلبه ... لعريان من ثوب الفلاح سليب

وللنمري نصيب من قول الحكمة، في هذه الأبيات:

لو كنت أخشى معادي حق خشيته ... لم تسم عيني إلى الدنيا ولم تنم
لكنني عن طلاب الدين محتبل ... والعلم مثل الغنى والجهل كالعدم
يحاولون دخولي في سوادهم ... لقد أطافوا بصدع غير ملتئم
ما يغلبون النصارى واليهود على ... حب القلوب ولا العباد للصنم

٥ - الوصف:

الوصف محك لأصالة الشعر وبراعة الشاعر وميزان لقدرته الشعرية، ومن ذلك وصفه لفرس الرشيد وسيفه، فقد كان الرشيد قد اصطحب النمري إلى معركة في بلاد الروم بين من

كان اصطحبهم، وعلى الرغم من النصر الذي حازه الرشيد، فقد تعرض في وقت ما لشدة كادت تعطبه، فقال الرشيد للنمري: كيف رأيت فرسي فأجاب على الفور:

على فأس اللجام كأنه ... إذا ما اشتكت أيدي اللجام يطير

فظل على الصفصاف يوم تباشرت ... ضياع وذؤبان به ونسور

فاقسم لا ينسى لك الله أجرها ... إذا قسمت بين العباد أجور

والوصف هنا على قصره وإيجازه ينم عن تملكه في صيغة الشعر، وامتلاك لناصية المعاني يصرفها الشاعر كيف شاء.

غير أن لمنصور النمري وصفاً بارعاً فريداً في السيف ربما لم يتكرر عند شاعر قبله وهو قوله:

ذكر برونقه الدماء كأنما ... يعلو الرجال بأرجوان ناقع

وترى مساقط شفرتيه كأنها ... ملح تبد من وراء الدارع

وتراه معتماً إذا جردته ... بدم الرجال على الأديم الفاقع

وكأن وقعته بجمجمة الفتى ... خدر المدامة أو نعاس الهاجع

د - مذهبه في الشعر ومكانته:

يحتل منصور مكانه رفيعة بين شعراء زمانه، وبخاصة بين شعراء الرشيد، وهو الشامي الجزري الوافد على أصحاب الدار غير المقيم، ولم يكن هناك سبب لهذا التقديم والتفضيل إلا:

١ - **نكهة غريبة في شعره** ومذاقاً خاصاً به.

٢ - **واحتفالاً واضحاً بصنعته**، فهو يهتم بصناعة قصيدته وتجويدها قبل عرضها على الناس، يتصف بصفات الفنان الأصيل الذي يحتفل بفنه، ويهتم بعمله قبل أن يخرجه للناس.

٣ - **احتفال الشاعر بالفكرة الشعرية** قوله: (وإنما الشعر عقل المرء يظهره)، وهذا يعني احتفال الشاعر بالفكرة الشعرية أنه بذلك تلميذ أمين لأستاذه العتابي صاحب مدرسة الفكرة الشعرية في الأدب العربي.

٤ - **احتفاله بالصورة البيانية**، إنه بذلك تلميذ أمين لأستاذه العتابي وهو صاحب أمدح بيت قاله محدث، والذي قال بهذا الرأي هو الناقد الكبير أبو هلال العسكري، وأما البيت فهو قوله في الرشيد في العينية المشهورة:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلك الله منها حيث تجتمع

وهو صاحب أجود بيت قيل في الفراق.

وذلك قوله:

إن المنية والفراق لواحدٌ أو توءمان تراضعا بلبان

وهو صاحب أشهر مطلع لقصيدة، وذلك قوله مستهلاً قصيدة في مدح المأمون وهو ولي عهد:

لعل لها عذراً وأنت تلوم وكم لائم قد لام وهو مليم

وأخذ المتنبي عن النمري:

رضيت بأيام المشيب وإن مضى شبابي حميداً، والكريم ألوف

أخذه المتنبي فقال بيته الذي استفاض شهرة ورواية:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وقال النمري:

وإذا عفوت عن الكريم ملكته وإذا عفوت عن اللئيم تجرما

أخذه المتنبي فقال:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ولقد مر بنا قبل قليل الوصف الرائع الذي صنعه النمري للسيف فأخذه المتنبي وقال:

يبس النجيع عليه فهو مجرد من غمده وكأنما هو مغمد

إنه يجمع بين البراعة في تقديم الفكرة الشعرية والديباجة الشعرية، وقد مر بنا قوله: الشعر عقل المرء يظهره، فالشعر وإن كان من المسلم به أنه عطاء العاطفة وفيضها، فإنه عند منصور فيض من العقل المتأني، وعطاء من الوجدان المنفعل.

إن منصوراً استولى على إعجاب الرشيد في المواقف الكثيرة التي مر ذكرها بالفكرة الشعرية مصبوبة في قالب أنيق من بارع القول وناصع البيان، ونستطيع في هذا السبيل أن نردد مرة أخرى قول منصور في الرشيد.

أي امرئ بات من هارون في سخط ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن المكارم والمعروف أوديةٌ ... أحلك الله منها حيث تجتمع

وإن النمري في وصفه السيف قد أضاف إلى الفكرة الشعرية وإلى وضاءة الديباجة الصورة الشعرية.

ومن الأبيات التي جرت على لسان النمري فجمع فيها بين الفكرة والصورة والديباجة والصنعة قوله في الرشيد:

ترى الخيل يوم الحرب يظمأن تحته ... ويروى القنا في كفه والمناضل

حلال لأطراف الأسنة نحره ... حرام عليه منه متن وكاهل

يعمد إلى الصنعة البيانية والبديعية في خفة وبراعة دونما ما إثقال على المعنى بتغليب الصورة اللفظية عليه، وهو سيد من سادة صناع التشبيه المتقن المعجب:

ذكر برونقه الدماء كأنما ... يعلو الرجال بأرجوان ناقع

وترى مساقط شفرتيه كأنها ... ملح تبدد من وراء الدارع

وكأن وقعته بجمجمة الفتى ... خدر المدامة أو نعاس الهاجع

ويمكن أن نقف أيضاً معجبين بوصفه الفرس وما صاغ فيه من تشبيه في قوله:

مضمز على فأس اللجام كأنه ... إذا ما اشتكت أيدي اللجام يطير

أو هذا التشبيه الذي يمكن أن يكون من أبرع التشبيهات لو أنه قيل في غير الخليفة:

كـــأنما البـــدر عـــلى رحلـــه ترميـــك منـــه مقلتـــا صـــقر

وفي نطاق البديع يعمد النمري عمداً إلى ألوان من المقابلة والطباق والجناس، ولكنه لا يكثر منها ولا يسف في رصفها، بل يدعها وكأنها تأتيه عفو الخاطر، فلنقرأ له هذا الطراز من الشعر الذي جمع أكثر من سبب من أسباب التجديد من حيث تضمين فحولة القول بحراً من البحور القصيرة:

ومنـــازل لـــك بـــالحمى وبهـــا الخلـــيط نـــزول

أيـــامهن قـــصيرة وسرورهـــن طويـــل

وســـعودهن طوالـــع ونحوســـهن أفـــول

و المقابلة واضحة في البيت الأخير، وقد سبقها طباق في البيت السابق لها. ونستطيع أن نلمس طرفاً آخر من المحسنات البديعية في قصيدة النمري التي مدح بها جعفراً البرمكي وهو في طريقه إلى الشام، وتقع أعيننا على مقابلة يتلوها طباق في هذين البيتين:

لقـــد نـــشأت بالـــشام منـــك غمامـــة يؤمـــل جـــدواها ويخـــشى دمارهـــا

فطـــوبى لأهـــل الـــشام يـــا ويـــل أمهـــا أتاهـــا حياهـــا أم أتاهـــا بوارهـــا

وقد يجري الجناس بين دفتي البيت من شعر منصور النمري، ولكنه يكون من النعومة بحيث لا نكاد نلتفت إليه، لأنه لم يكن هدفاً في حد ذاته، بل هدف الشاعر ينصب دائماً على الفكرة الساطعة والنغمة الصادعة والعبارة الجزلة:

لنـــا منـــك أرحـــام ونعمـــد طاعـــة وبأســـاً إذا اصـــطك القنـــا والقنابـــل

فعلى الرغم من الجناس الواضح بين لفظي ((القنا)) و((القنابل)) فإن رنين البيت من خلال بكارة الفكرة وفحولة التقديم وجلال الصوغ قد جعلت الصنعة البديعية تجيء في مرتبة غير سباقة، ويمكن أن تسري هذه الأحكام على أبيات أخرى مكملة لمعنى البيت السابق وردت في قصيدة النمري في استرحام الرشيد، مثل قوله:

ومـــا يحفـــظ الأنـــساب مثلـــك حـــافظ ولا يـــصل الأرحـــام مثلـــك واصـــل

وأنـــت إذا عـــاذت بوجهـــك عـــوذ تطـــامن خـــوف واســـتقرت بلابـــل

- ٧ -

أشجع السليمي
٠٠٠ - ١٩٥ هـ

أ - حياته وشعره: هو أشجع بن عمر السليمي واحد من الشعراء الفحول.

ب - شخصيته: لم ينل أشجع بن عمر السليمي حظاً وافراً من عناية الدارسين على الرغم مما يحمله شعرة من سمات أدبية أصيلة تمثل الفترة الزمنية التي عاشها أدق تمثيل، بل إن شعره كان إرهاصاً بما سوف يؤول إليه فن الشعر في المرحلة العباسية من التزام اتجاهات بعينها ومدارس بذاتها إنه من هؤلاء الذين يمثلون مدرسة وسطى بين المحافظة والتجديد والانطلاق يتشح شعره برونق الديباجة المشرقة والأسلوب المونق حيناً المتلفع بالفكر الرحيبة والخاطرة المتوهجة حيناً آخر المصور لطبيعة البيئة اجتماعياً وسياسياً وثقافياً حيناً ثالثاً.

ولم تكن الطريق معبدة أمام أشجع حتى برتقي في يسر سلم الشهرة الذي لا يتم الصعود إليه إلا عن طريق الخلفاء والوزراء في ظرف كانت فيه بعض مؤهلاته غير مشجعة على ذلك فقد كان رديء المنظر قبيح الوجه في عينه عور، ومن ثم فقد كان فاقداً الوسامة التي تيسر الطريق وتمهدها إلى ساحات الكبار، ويبدو أيضاً أنه كان ثقيل الروح غير مقبول المصاحبة ولكنه استطاع أن يفرض احترامه وتقديره من منطلق براعة شعره وقوة عارضته حتى أن الرشيد قال له ذات يوم بعد أن أسمعه قصيدته الميمية:

قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام

لقد دخلت عليَّ وأنت أثقل الناس على قلبي وإنك لتخرج من عندي وأنت أحب الناس إليَّ. لقد صار أشجع بفضل شاعريته الخصبة أحد الشعراء المفضلين لدى الرشيد كما كان مختصاً بالبرامكة أيضاً وبجعفر بن يحيى بصفة خاصة، وكان حسبما ذكرنا في مستهل هذا الحديث سفير الشعر لدى مدرسة اللفظ والديباجة حيناً ومدرسة الفكرة والخاطرة حيناً آخر

ج - أشجع ومدرسة الديباجة وعمود الشعر:

كانت الديباجة الشعرية وضوحاً وإشراقاً وسلاسة وانسياباً أمر يحرص أشجع في أكثر شعره وبخاصة ذلك الشعر الذي يمدح به الرشيد، فإن الملوك والخلفاء يطربون لهذا اللون المحافظ من الشعر ويفضلونه، ولا بأس من الفكرة اللامعة تسري في حواشيه إن وجدت السبيل، وبخاصة إذا كان الممدوح أديباً يتذوق الشعر وينقده ويحفظ الكثير منه مثل هرون الرشيد، فمن هذا اللون من الشعر المؤنق الديباجة مع تصرف حسن في المعاني ووفرة موسيقي ورقة إيقاع قول أشجع في الرشيد:

قصر عليه تحية وسلام ... ونثرت عليه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقت ... للملك فيه سلامة وسلام
قصر سقوف المزن دون سقوفه ... فيه لأعلام الهدى أعلام
نشرت عليه الأرض كسوتها التي ... نسج الربيع وزخرف الأوهام
أدنتك من ظل النبي وصية ... وقرابة وشجعت بها الأرحام
برقت سماؤك في العدو وأمطرت ... هاماً لها ظل السيوف غمام
وإذا سيوفك صافحت هام العدا ... طارت لهن عن الرؤوس الهام
أثنى على أيامك الأيام ... والشاهدان الحل والإحرام
وعلى عدوك يا ابن عم محمد ... رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رُعته وإذا غفا ... سلت عليه سيوفك الأحكام

لقد أجمع النقاد المعاصرون لأشجع على أن البيتين الأخيرين هما أرق أبيات القصيدة معنى وبناء:

ويذهب الرشيد إلى الغزو في هرقلة ببلاد الروم، ثم يعود ليقضي آخر شهر رمضان وعيد الفطر في الرقة، وكان يتخذ منها مصيفاً مفضلاً ويجلس للشعراء يستمع إلى مدائحهم وإذ بأشجع يتقدمهم منشداً:

لازلت تنشر أعياداً وتطويها ... تمضي بها لك أيام وتثنيها

مستقبلاً زينة الدنيا وبهجتها أيام عز لا تفنى وتفنيها
ولا تقضت بك الدنيا ولا برحت يطوي لك الدهر أياماً وتطويها
وليهنك الفتح والأيام مقبلة إليك بالنصر معقوداً نواصيها
أمست هرقلة تهوي من جوانبها وناصر الله والإسلام يرميها
ملكتها وقتلت الناكثين بها بنصر من يملك الدنيا وما فيها
ما روعي الدين والدنيا على قدم بمثل هرون راعيه وراعيها

لقد كان لهذه القصيدة ديباجة وإيقاعاً في سمع الرشيد وخاطرة ما جعله يجزل صلته ويطرح ويطرب بحيث أصدر أمراً بألا ينشده يومذاك أحد بعد أشجع، والطريف في الأمر أن أشجع لا يكاد يسمع ذلك حتى يقول معلقاً: والله لأمره بألا ينشد أحد بعدي أحب إليَّ من صلته. إن هذه القصيدة ببحرها وقافيتها ورقتها هي في نظرنا الموحية إلى البحتري قصيدته المماثلة في بركة المتوكل، ولأشجع عديد من القصائد التي يتسامق فيها عمود الشعر وتتألق فيه ديباجة وضاءة وحبكة من نسج القول النفيس، ولعل في مقدمتها قصيدته التي قالها بين يدي جعفر البرمكي بعد أن وّلاه عملاً، ثم صرفه عنه لشكوى الناس منه مطلعها:

أمسفدة سعاد عليَّ ديني على طول الحنين
وما تدري سعاد إذا تخلت من الأشجان كيف أخو الشجون

وفي مقام الرثاء لم يتخلف أشجع عن مدرسة الجزالة والاحتفال بالديباجة الصافية والتزام عمود الشعر وإن مرثيته في ابن سعيد تمثل هذا النهج تمثيلاً واضحاً وفيها يقول:

مضى ابن سعيد حين لم يبق مشرق ولا مغرب إلا له فيه مادح
وما كنت أدري ما فواضل كفه على الناس حتى غيبته الصفائح
فأصبح في لحد من الأرض ميتاً وكانت له حياً تضيق الصحاصح
كأن لم يمت ميت سواك ولم تقم على أحد إلا عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها لقد حسنت من قبل فيك المدائح

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تفض فحسبك مني ما تكن الجوانح

لعله ليس في القصيدة من جديد من ناحية المعاني فكلها عيال على قصيدة الحسين بن مطير العينية في رثاء معن بن زائد غير أن للقصيدة مستواها من حيث الاستواء والصوغ والإتقان، وارتباطها بالمدرسة المحافظة التي تعني بالديباجة الوضاءة ووقار الشعر.

د - مدرسة الفكرة الشعرية عنده:

ليس معنى تجويد أشجع لقصائده من الديباجة والإيقاع انصرافه عن الإتيان بالأفكار الرفيعة والمعاني الرهيفة في شعره، فلم يكن الأمر كذلك على الإطلاق، وإنما كان لشاعرنا نهجه الآخر الذي يحتفل فيه بالمعاني الجسام ويحتشد من خلاله بالأفكار العظام يصوغها شعر الهم به سيد مدرسة الفكر أبا تمام. لقد ذكرنا أن أشجع كان مختصاً بالبرامكة وأكثر اختصاصه كان بجعفر بن يحيى وجعفر هو من نعرف سعة ثقافة وعمق معرفة ودهاء سياسة وبراعة أدب، فماذا يقول له أشجع حين يمدحه إنه يقول:

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مذهب الشمس

ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس

فإذا تراءته الملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس

ساد البرامك جعفر وهم الألى بعد الخلائف سادة الأنس

ما ضر من قصد ابن يحيى راغبا بالسعد حل ب هام النحس

ليس من شك في أن أشجع كان يحسن اختيار نهج الشعر فكراً وصوغاً بحيث يعجب ممدوحه، لقد كان من الفطنة بحيث يعلم أن ذاك الطراز من فن القول ديباجة وخطابة يعجب الخلفية المتشح بجلالة الملك ويطربه فيعزف على وتره وإن هذا النهج من الشعر رقة إيقاع وعمق يعجب الوزير المتحلي بالرأي الثاقب والفكر الصائب فيعمد إلى النسج الذي ينتزع إعجابه، ومن هنا كان أشجع وبعض أترابه من الشعراء يمثلون مفترق الطريق بين شعر الديباجة والإشراق وشعر الفكر والأعماق.

وإذا كنا لا نعلم شيئاً كثيراً عن النشأة الثقافية لأشجع فإننا نستحضر في خواطرنا أنه ولد باليمامة في نجد حيث اللسان القوم والمنطق السليم، ثم نشأ في البصرة حيث موجات الفكر ترغي وتزيد ومدارس الثقافة تتقابل وتتصادم، فكان لشاعرنا من ذلك حصيلة شعرية ثقافية تعهدها ونماها حتى حطت به درب الفحولة، فكان الشاعر الذي يرضى مادحيه؛ لأنه كان من الفطنة بحيث يتحسس المدخل الذي يعجب الممدوح فليج إليه في براعة ورشاقة.

والأمر الذي يدعو إلى التأمل لأن أشجع في الوقت الذي يملك فيه زمام الفكرة الشعرية كان لا يستطيع أن يتخلى عن المطالع التقليدية وهما أمران ربما ظهرا متناقضين، ومع ذلك فإن أشجع يستهل مديحه في إبراهيم بن عثمان بن نهيك بأبيات تقليدية في قوله:

لمن المنازل مثل ظهر الأرقم ... قدمت وعهد أنيسها لم يقدم

فتكت بها سنتان تعتورانها ... بالمعصفات وكل أسحم مرزم

وفيها يذكر الأطلال المتقادمة، ثم لا يلبث أن يضرب في أكناف درب مونق من المعاني المنبثقة عن ثقافة العصر المتشحة بحلل من الأفكار الراقية في دنيا المديح التي سوف يقول أشجع وقد انتقى ألفاظه ومعانية بحذف وبراعة:

في سيف إبراهيم خوف واقع ... لذوي النفاق وفيه أمن المسلم

ويبيت يكلأ والعيون هواجع ... مال المضيع ومهجة المستلم

ليل يواصله بضوء نهاره ... يقظان ليس يذوق نوم النوم

شد الخطام بأنف كل مخالف ... حتى استقام له الذي لم يخطم

لا يصلح السلطان إلا شدة ... تغشى البريء بفضل ذنب المجرم

منعت مهابتك النفوس حديثها ... بالشيء تكرهه وإن لم تعلم

ونهجت في سبل السياسة مسلكا ... ففهمت مذهبها الذي لم يفهم

الحق أننا أمام مديح استغل الشاعر فيه جذوة فكره ولماحية فطنته، فعمد إلى هذا الضرب الجديد من معاني المديح المستحدثة التي تتمشى مع طبيعة المجتمع والبيئة من حيث الزمان والمكان.

ومن الشعر المبني على الفكرة الرحيبة المتزاحمة المعاني قول أشجع في الفضل البرمكي مادحاً وكان المديح هو محك شاعرية الشاعر:

بديهتـــــه وفكرتـــــه ســـــواء إذا مـــا نابـــه الفكـــر الكبـــير
وأحـــزم مـــا يكـــون الـــدهر رأيـــا إذا عيـــي المـــشاور والمـــشير
وصـــدر فيـــه للهـــم اتـــساع إذا ضـــاقت بـــما تحـــوي الـــصدور

وعلى نفس هذا الدرب الممهد من شعر الفكرة يقول أشجع في مناسبة قدوم جعفر ابن يحيى البرمكي إلى الشام:

حبـــذا أنـــت قادمـــاً تـــرد الـــشام فتحتـــال بـــين أرحـــل عـــيرك
إن أرضـــاً تـــسري إليهـــا لـــو اســـطاعت لـــسارت إليـــك مـــن قبـــل ســـيرك

إن هذين البيتين هما اللذان أوحيا لأبي تمام فيما بعد افتتاحية قصيدته البائية الشهيرة:

ديمـــة ســـمحة القيـــاد ســـكوب مـــستغيث بهـــا الثـــرى المكـــروب
لـــو بقعـــة لإعظـــام نعمـــى لـــسعى نحوهـــا المكـــان الجـــديب

وكما كان أشجع واسع الحيلة رحب الفكرة في مدائحه فإنه كان على نفس الشاكلة في كثير من أغراض الشعر الأخرى، ولعل أبياته في رثاء أخيه أحمد لما يستعذب إنشاده تأسياً، ويستحب ترديده معاني، ففيها عمق وتأمل، وحكمة وتعز، وحزن وتحسر. يقول أشجع:

خلـــيلي لا تـــستبعدا مـــا انتظرتمـــا فغـــير بعيـــد كـــل مـــا كـــان آتيـــا
ألا تريـــان الليـــل يطـــوي نهـــاره وضـــوء النهـــار كيـــف يطـــوي الليـــاليـــا
همـــا الفتيـــان المرديـــان إذا انقـــضت شـــبيبة يـــوم عـــاد آخـــر ناشـــيا
ويمنعنـــي مـــن لـــذة العـــيش أننـــي أراه إذا قارفـــت لهـــواً يرانيـــا
كـــان يمينـــي يـــوم فارقـــت أحمـــدا أخـــي وشـــقيقي فارقتهـــا شـــماليا

لقد سبق مسلم إلى هذا المعنى في قوله:

وإني وإســـماعيل يـــوم وداعـــه لكالغمـــد يـــوم الـــروع فارقـــه النـــصل

وهو معنى بليغ ولكن المعنى الذي قصد إليه أشجع أعمق وأكثر ملاءمة لطبيعة الصلة بين الراثي والمرثي.

هـ - موضوعات شعره:

كانت بيئة أشجع التي عاش في أكنافها بيئة حضرية خالصة، خالط فيها جموع الشعراء التي كانت تقف على باب الرشيد وأبنائه ووزرائه، ولقد أخذت حاشية الشعر ترق وصناعته تعذب وألوان البديع تتمشى فيه، وكانت الصناعة البديعية أكثر ما تكون شيوعاً في:

١ - الوصف عنده: الوصف عامة وجانب الطبيعة منه بخاصة. ولم يقصر أشجع في المشاركة في هذا السبيل، فما إن طلب منه جعفر البرمكي أن يصف له قصر الصالحية وبساتينها حتى هب قائلاً:

قصور الصالحية كالعذارى ... لبسن ثيابهن ليوم عرس

مطلات على بطن كسته ... أيادي الماء وشياً نسج غرس

إذا ما الطل أثر في ثراه ... تنفس نوره من غير نفس

فتغبقه السماء بصبغ ورس ... وتصبحه بأكؤس عين شمس

فالأبيات مترعة بالصناعة البيانية والبديعية من استعارات وجناس وطباق وتصريع، ومهما كان الأمر في أشجع السلمي فهو واحد من كبار شعراء المرحلة العباسية الذين أسهموا في تكريس أكثر من اتجاه في دنيا الشعر، أسهم في الاتجاه المحافظ إنشاء وديباجة، وشارك في الاتجاه المجدد فكراً وأسلوباً، ولم يتخلف عن صوغ الشعر الذي صور الحياة الاجتماعية في محيطها العام.

- ٨ -

دعبل الخزاعي
١٤٨ - ٢٤٦ هـ

أ - حياته ونشأته:

اسمه محمد، وكنيته أبو جعفر ولقبه دعبل أي البعير المسن أو الشيء القديم، ونسبه في خزاعة التي أنجبت ابن عمه أبا الشيص شاعر الرشيد، ثم شاعر عقبة بن الأشعث الخزاعي في الرقة، كما أنجبت عدداً آخر من الشعراء المغمورين، فضلاً عن أن طاهر ابن الحسين وأولاده - وكلهم ساسة أدباء شعراء - من مواليها. وكان دعبل بن علي تلميذ لمسلم بن الوليد ملازماً له معجباً به متلقياً عنه، وكان كثيراً ما يشارك في مجالس المجون والقصف التي يشترك فيها كل من مسلم وأبي الشيص وغيرهم من الشعراء المجان، يتناشدون فيها أشعارهم على الشراب يمثل دعبل الخزاعي مرحلة من مراحل مسيرة الشعر العباسي بصورة جعلته يطفو على السطح، ويحتل الاهتمام من جمهرة العامة فضلاً عن صفوة الخاصة في زمانه، ولعل مرد ذلك راجع إلى عدة أسباب يتخلص أهمها في طول عمره، وجرأته في الهجاء وشغفه به، وتشيعه وكراهيته لبني العباس وخلفائهم ورجالاتهم، واندماجه في حياة اللهو مع أعلام الشعر المعاصرين له، ثم إسهامه في الشعر بصور جديدة ومعان جديدة وصيغ جديدة.

فكان دعبل يقول لهم: أنا ابن قولي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

أي اشتهرت بقولي هذا البيت، ومعروف أن هذا البيت قد نال شهرة واسعة عند جمهرة النقاد لما فيه من بهرجة الصنعة البديعية واللمسة البيانية، وإن كان في حقيقة أمره مأخوذ من قول أستاذه مسلم حين وصف الربيع:

كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء

ولكن حظ بيت دعبل من الشهرة كان أوفر من حظ بيت أستاذه.

ب - شخصيته وأثرها في شعره:

كان دعبل شاعراً فحلاً بحيث أن نخبة من أعلام الأدب والفكر كانوا يقدمونه ويضعونه على رأس الشعراء غير مستثنين أستاذه مسلماص فالبحتري يقول عنه: دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد، ويعلل البحتري حكمه بقوله: (إن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم)، وحكم البحتري صادر عن ذوقه في الشعر وتفضيله شعر الديباجة الملتزم عمود الشعر الذي كان دعبل أكثر تمسكاً به من أستاذه. وهذا ابن مهرويه يقول: ختم الشعر بدعبل والمأمون الخليفة المثقف الأديب كان يتلذذ بسماع شعر دعبل على الرغم من سلاطة لسانه على بني العباس ورجالاتهم، وكان كثيراً ما يطلب من جلسائه والمقربين إليه أن ينشدوه شعراً لدعبل، وكان كثير الترديد لأبيات جميلة أنشأها دعبل في سفره طويلة قال فيها:

وقائله لما استمرت بها النوى ... ومحجرها فيه دم ودموع

الم يأن للسفر الذين تحملوا ... إلى وطن قبل الممات رجوع

فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... نطقن بما ضمت عليه ضلوع

تبين فكم دار تفرق شملها ... وشمل شتيت عاد وهو جميع

كذاك الليالي صرفهن كما ترى ... لكل أناس جدبة وربيع

لقد كان المأمون حرياً بأن يغرم بترديد هذه الأبيات، فهي من أجود الشعر وأرقه وأجزله، وأكثره أخذاً بمجامع الوجدان والأفهام. كان المأمون يقول: ما سافرت قط إلا وكانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهجيري، ومسليتي حتى أعود.

ج - ملامح في حياة دعبل:

في حياة دعبل بعض ملامح بارزة فيها عنوان شخصيته ومفتاح شاعريته.

١ - **الملمح الأول:** لقد نشأ دعبل نشأة غريبة فيها شر كثير وخير قليل، ذلك أنه كان يصطحب الشطار ويشاركهم جرائمهم، واشترك في التربص لصراف في الكوفة وقتله في الطريق بقصد الاستيلاء على المال الذي يحمله، ولشد ما كانت خيبة أمله حين اكتشف أن الصراف القتيل لم يكن يحمل معه كيسه، وإنما كان يحمل ثلاث رمانات. إن هذه الشخصية

الشريرة قد دفعت بصاحبها إلى التصعلك والأسفار الطويلة التي صورها تصويراً ملك على المأمون إعجابه حسبما مر بنا قبل قليل.

وفي هذه الأسفار كان دعبل يقابل الشراة والصعاليك فلا يؤذونه، بل كانوا يؤاكلونه ويشاربونه ويبرّونه، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم إليه ودعا بغلاميه ثقيف وشغيف، وكانا مغنيين، فأقعدهما يغنيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكان الصعاليك يواصلونه ويصلونه بدلاً من أن ينهبوا أمواله ويصادروا متاعه، وإن دعبلاً يذكر أسفاره الغريبة الجريئة التي كان يعاشر فيها الشطار والصعاليك بعيداً في المفاوز أو يلتقي فيها مع الأعلام في الأمصار البعيدة، لقد جاب دعبل أقطاراً وأمصاراً، فبينما هو في الأهواز وخراسان إذ به في مكة والحجاز، ثم إذ هو في أقصى جنوب مصر في أسوان، وهو يصور رحلاته بقوله:

وإن امرأً أمست مساقط رحله ... بأسوان لم يترك له الحرص معلما

حللت محلاً يقصر البرق دونه ... ويعجز عنه الطيف أن يتجشما

أغلب الظن أن هذه الحياة الشرسة التي عاشها دعبل كانت عاملاً فعالاً في تطاوله على الناس، وهجائهم هجاء مقذعاً، يستوي في ذلك الكبير والصغير، والخليفة والحقير، وذلك يشكل الملمح الأول في حياة شاعرنا.

٢ - **والملمح الثاني**: المهم في حياة دعبل أنه كان متشيعاً لآل البيت محباً لهم متعلقاً بهم تعلقاً شديداً، وآية ذلك شعره فيهم وهو شعر رائع مفعم بالعاطفة، في زمن كان التعلق فيه بآل بيت الرسول يعتبر جريمة كبيرة من وجهة نظر الحاكمين، ولكن دعبلاً ينشئ قصيدته الجليلة ((مدارس آيات خلت من تلاوة)) ويكتبها على ثوب، ثم يحرم مرتدياً هذا الثوب المزين بهذه القصيدة الخالدة.

ولم يكن حظ آل البيت من شعر دعبل قصيدة أو قصيدتين، وإنما أنشأ فيهم عدداً من القصائد، وكلها عذب رقيق، غير أن أشهرها جميعاً التالية الكبرى:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

ولقد أعجب الشيعة بهذه القصيدة إعجاباً شديداً واهتموا بها حفظاً وترديداً في محافلهم والمناسبات والمواسم التي يحيون فيها ذكر آل البيت، بل إن بعض أدبائهم قد أضافوا إليها أبياتاً عديدة تناهز التسعين لم يقلها دعبل ولم تخطر معانيها له على بال، بل إن دعبلاً يزور الإمام علياً الرضا ويستوهبه ثوباً قد لبسه ليتبرك به ويجعله في أكفانه، فيخلع الإمام جبة كانت عليه ويعطيها له، ويصل خبر الجبة إلى أهل ((قم)) وكانوا متطرفين في تشيعهم لآل البيت، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، ولكنه رفض ذلك، فخرجوا في الطريق وأخذوها منه غصباً، ولكنه هددهم بأن يشكوهم إلى الإمام، فأعطوه الثلاثين ألف درهم وكما واحداً من بطانتها. وهكذا يجمع دعبل في سلوكه بين النقيضين، الشطارة والصعلكة والعدوان على أرواح الناس وسب أعراضهم وهجائهم وبين التشيع لآل البيت وحبهم الأمر الذي كان ينبغي أن يؤدي به إلى جادة الصلاح وسبيل الرشاد.

٣ - **الملمح الثالث**: في حياة دعبل خبر يدعو إلى الطرافة والضحك، ذلك أن دعبلاً تقلد ولاية أسوان بمصر العليا بعض الوقت، أي أن هذا الإنسان الذي قطع الطريق يوماً ما وتصعلك لفترات متطاولة في حياته قد أصبح بين عشية وضحاها من الحكام، حكام مصر، ولكنه لم يتولَّ حكم أسوان لعبقرية سياسية أو إدارية جعلته جديراً بهذا المنصب، ولكن لأنه وفد على المطلب بن عبد الله بن مالك والي مصر مادحاً إياه بقوله:

أبعد مصر وبعد مطلب ... نرجو الغنى إن ذا من العجب

إن كاثرونا جئنا بأسرته ... أو واحدونا جئنا بمطلب

والبيت الثاني من عيون الشعر، وفيه يفتخر دعبل بالمطلب؛ لأنه خزاعي مثله ولسبب ما ينقلب دعبل على المطلب ويهجوه أمرَّ الهجاء وأقذعه بقصيدة طويلة يقول في بعضها:

تلعق مصر بك المخزيات ... وتبصق في وجهك الموصل

وعاديت قوماً فما ضرهم ... وشرفت قوماً فلم ينبلوا

شعارك عند الحروب النجا ... وصاحبك الأخور الأفشل

فأنت إذا ما التقوا آخر ... وأنت إذا انهزموا أول

وهو هجاء مرير موجع، ويبلغ المطلب خبر هذه القصيدة وقصائد أخرى قالها دعبل في هجائه، فلا يجد بداً من أن يعزله، ولكن لكي يشفي ألماً في صدره فإنه يجعل العزل مصحوباً بحركة مسرحية، فقد أرسل إليه كتاب العزل مع مولى له وقال له: انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه وامنعه من الخطبة، وأنزله عن المنبر واصعد مكانه. فلما أن علا دعبل المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الرسول الكتاب، فقال له دعبل: دعني أخطب فإذا نزلت قرأته، فقال الرسول: لا، فقد أمرني أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه، فقرأه وأنزله عن المنبر معزولاً.

٤ - **والملمح الرابع**: إن دعبلاً كان ناقداً راوية، روى الحديث والشعر، ولكن روايته للحديث مجرَّحة، وأما روايته للشعر وأخبار الشعراء المعاصرين له فإن كتب التراجم والطبقات تحفل بها وترد كثيراً من مصادر روايتها إليه، وإن من ينظر في كتاب ((الورقة)) لابن الجراح يجد أن أكثر مصادر الأخبار والأشعار مروية عن طريق دعبل حتى ليكاد المرء يظن أنه ليس من رواة للشعر إلا دعبل وأبي هفان.

والطريف في الأمر أن دعبلاً لا يروي للشعراء المشهورين وحسب، بل إنه يهتم اهتماماً ظاهراً بشعراء مغمورين، لشعرهم قيمة فنية رفيعة، وفي فنهم سمات طرافة وعلامات تطور بالرغم من أن قلة من الدارسين هم الذين يعرفون أسماءهم من أمثال أبي العذافر الكندي، وأبي الفيض القصافي البصري، وأبي خالد الغنوي، وزرزر، ومحمد بن أمية البصري، وأبي فرعون الساسي التيمي، وغيرهم من هؤلاء الذين تركوا شعراً رقيقاً رفيعاً متطوراً لم يحظ بشهرة أو ذيوع وهو في حقيقته يمثل جانباً مهماً من مسيرة الشعر العربي في تلك الفترة الزمنية، ولعلنا نوفق في المستقبل إلى كتابة دراسة عن هذا النفر المغمور من الشعراء.

أما وقد حفظ دعبل شعر هؤلاء جميعاً وله عليه تعليقات وملاحظات تدخل في باب النقد، فإنه من الطبيعي أن يؤثر هذا الشعر بأشكاله وأفكاره في تطور شعر دعبل بحيث جعله يقول شعراً جيداً فيه جدة وفيه تطور، الأمر الذي جعل بعض الدارسين القدامى يجعلون دعبلاً رائداً كبيراً من رواد الشعر العباسي، هذا إن لم يكن الرائد الأول الذي ترجع كفته كفه أستاذه مسلم حسب رأي البحري.

٥ - والملمح الخامس: في حياة دعبل - وهو أبرز ملامحه - هو غرامه بالهجاء حتى لكانت قد خلق لكي يهجو الناس، كل الناس، لقد مر بنا طرف من هجائه المطلب، وسوف نعرض لصور أخرى من هجائه الفريد، ولكن الذي نقصد إليه هنا أنه قد هجا مالك ابن طوق أحد كبار رجال الدولة العباسية وقوادها المظفرين، ولجَّ في هجائه وأقذع في النيل من عرضه وعرض أهله، مثال قوله:

سألت عنكم يا بني مالك ... في نازح الأرضين والدانيه
طراً فلم تعرف لكم نسبة ... حتى إذا قلت بني الزانيه
قالوا فدع داراً على يمنةٍ ... وتلكها دارهم ثانيه

لقد بلغت مالكاً هذه الأبيات وأبيات أخرى أكثر منها فحشاً ترفعنا عن التمثيل بها، فأرسل إلى دعبل من ظل يتتبع آثاره حتى عثر عليه في الأهواز في قرية يقال لها سوس، فاغتاله بأن ضرب ظهر قدمه بعكاز مسموم فمات بتلك القرية، وموطن الإثارة هنا ليس مجرد قتل دعبل، وإنما قتله وهو في الثامنة والتسعين، وإذن فلم تستطع سن دعبل المتقدمة التي وقفت به على أعتاب المئة أن تكف من غربة أو أن تحد من شهوة التعريض بالأعراض الأمر الذي جعله يموت غيلة في هذه السن المتقدمة.

د - شاعرية دعبل

إن لدعبل مكانة رفيعة القدر في دنيا الشعر، الأمر الذي جعل المأمون يفتن بشعره برغم هجائه إياه، والأمر الذي جعل البحتري يفضله على مسلم على الرغم من هجائه لأبي تمام أستاذ البحتري وصاحب الفضل الكبير عليه بأبيات طعن فيها في نسبته إلى طيّئ. ولولا تطرف دعبل في الهجاء ونيله من أعراض الكرام لكان له شأن آخر، مع ذلك فإن له من الشعر الرصين المتين أبياتاً لا زالت تجري على ألسنة صفوة المتأدبين مجرى الإعجاب والتمثيل، إن دعبلاً هو صاحب البيت:

يموت رديء الشعر من قبل أهله ... وجيده يحيا وإن مات قائله

وهو قول سديد ينطبق على الشعر في كل زمان ومكان، ودعبل هو القائل أيضاً هذين البيتين الرقيقين

الحكيمين:

وإن أولى الموالي إن تواسيه عند السرور لمن واساك في الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

هـ - شعره في آل البيت:

دعبل صاحب التائية الخالدة في تمجيد آل البيت والأسى لأحوالهم:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

وهي من أجمل وأمتع الشعر العربي الذي قيل في آل بيت الرسول رقة عاطفة وإشراق ديباجة وصدق إحساس. ليس ثمة شك في أن دعبلاً كان يذوب حباً في آل الرسول ﷺ، وقد آثرهم بالقوافي التائية، إذ إن له قصيدة أخرى فيهم رقيقة غير مشهورة يقول فيها:

طرقتك طارقة المنى ببيات لا تظهري جزعاً فأنت بدات
في حب آل المصطفى ووصية شغل عن اللذات والقينات
إن النشيد بحب آل محمد أزكى وأنفع لي من القينات
فاحْشُ القصيد بهم وفرغ فيهم قلباً حشوت هواه باللذات

إننا نحس صدقاً في قول دعبل حين يجعل حب آل المصطفى شغلاً عن لذاته وقنياته، ذلك أنه صور قبل ذلك مذهب اللذة في مقصورة يقول في بعضها:

إنما العيش خلال خمسة حبذا تلك خلالاً حبذا
خدمة الضيف وكاس لذة ونديم وفتاة وغنا
وإذا فاتك منها واحد نقص العيش بنقصان الهوى

إن دعبلاً شاعر بكل معنى الشعر ومفهومه، شاعر حين يجد وشاعر حين يهزل، وشاعر حين يمدح وشاعر حين يهجو، غير أن الذي نريد الوقوف عليه من شعر دعبل هو تلك

الظواهر التي أعلنت عن نفسها فيه، والتي أثرت بشكل مباشر في المدرسة الوسيطة للشعر العباسي التي تمثلت في مدارس شعرية تالية له قادمة من بعده، والتي يمكن التعرف عليها موضوعياً في الهجاء، وفنياً في الصنعة والصورة الشعرية.

و - دعبل الهجاء:

دعبل شاعر هجاء فيه قسوة وعنف وشطط ومرارة، وهو يمثل المرحلة الوسطى بين بشار وابن الرومي بمعنى أنه أقسى من بشار ودون ابن الرومي، إنه يدين بمذهب بشار ومبدئه في الهجاء ويقول: إن أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الموهبة ولا يبالي بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره، ويستطرد قائلاً: إن الهجاء المقذع - وفي رواية المفزع - آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع. ودعبل فلم يكن يكترث بشيء، كان عارضاً دمه وحياته لمن يريد أن يقتص منه إذا أراد، مردداً قولته الشهيرة: ((أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لا أجد من يصلبني عليها)) لقد صدق دعبل بعض الصدق إذ إنه لم يجد من يقتص منه على ولوغه في أعراض الناس إلا حينما بلغ الثامنة والتسعين من العمر، وكان لا يزال أفحش ما يكون هجاء وأحدّ ما يكون لساناً، وليس من قبيل المصادفات أن يشترك كل من دعبل وبشار في بعض الصفات، فكلاهما ضخم الجثة طويل ذو آفة خلقية، بشار كان أعمى ودعبل كان أطرش وله سلعة في قفاه، وليس يخالجنا أدنى شك في أن آفة العمى عند الأول وآفة الطرش عند الثاني قد ملأتهما حنقاً على الحياة، وعلى الناس فتجسم ذلك الحنق في ظاهرة الهجاء.

إن الصورة الغالية التي وقرت في أذهان الناس عن الحطيئة تتضاءل كثيراً أمام غلو دعبل لقد هجا الحطيئة كثيرين من بينهم أمه وأبوه، ثم انتهى بهجاء نفسه، وأما دعبل فقد تخصص أول ما تخصص في هجاء ملوك بني العباس، هجا الرشيد والمأمون والمعتصم وإبراهيم بن المهدي الذي ولي الملك لفترة قصيرة في بغداد خلع فيها المأمون، كما هجا أيضاً الواثق والمتوكل وهجا من كبار رجال دولتهم أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن سهل، والحسن بن رجاء، وأبا نصير الطوسي، وبني طاهر بن الحسين، ومالك بن طوق الذي بعث إليه من اغتاله حسبما مر بنا قبل قليل،لقد هجا رجالاً كثيرين من رجالات الدولة غير هؤلاء الذين ذكرنا، حتى الجواري لم يسلمن من هجاء دعبل.

لقد تهاجى دعبل مع أبي سعد المخزومي الشاعر المجيد واشتدت المعركة بينهما حتى أخذت شكل النقائض أو كادت، وكان دعبل قد أخذ يشدد الحملة على بني مخزوم، القبيلة التي منها أبو سعد، فما كان من بني مخزوم - حفاظاً على أعراضهم من لسان دعبل - إلا إن تبرؤوا من أبي سعد وادّعوا أنه مجهول النسب وأصدروا في ذلك إعلاماً للناس، مع أن أبا سعد هذا لم يفعل مع دعبل أكثر من أن رد عليه حين تعرض دعبل لقومه بالهجاء بقوله:

عصابة من بني مخزوم بت بهم بحيث لا تطمع المسحاة في الطين

ومن الطريف أبا سعد، وقد شعر بالمرارة إزاء قرار قومه، رأى أن يتبرأ هو الآخر منهم فجاء بنقاش نقش على خاتمه هذه العبارة: ((أبو سعد العبد ابن العبد بريء من بني مخروم))

وقصة مهاجاة دعبل وأبي سعد المخزومي قصة طويلة مريرة فكهة، نالت اهتمام الناس جميعاً، بل لقد استطاع دعبل بشعوذته أن يدخل الصبيان الصغار طرفاً فيها، وذلك بأن كان يؤلف أبياتاً سوقية المعاني شعبية الصياغة ويجمع الصبيان حوله ويعطيهم جوزاً، ثم يطلب إليهم أن يرددوا الأبيات الهجائية التي صنعها في النيل من أبي سعد.

وليس أبو سعد المخزومي هو الشاعر الوحيد الذي هجاه دعبل، إذ لو كان أمر مهاجاة الشعراء وقف عند أبي سعد لهان الأمر، ولكنه هجا أكبر شاعرين في عصره، هجا مسلم بن الوليد وأبا تمام الطائي، ومن الغريب أن يهجو دعبل مسلماً وهو أستاذه، وعليه تدرب على قول الشعر، حتى إذا استوى عوده فيه صرح له بأن يطلع بشعره على الناس. غير أن مسلماً كما مر بنا كان قد ولي إمارة طبرستان، فذهب دعبل للقائه هناك، وكان مسلم قد بعد عن أسباب اللهو التي كان دعبل يتعشقها ويعيشها فلم ينشط كثيراً لمصافاته، فما كان من دعبل إلا أن هجاه بقصيدة مريرة على بلاغتها، موجعة على براعة فن القول فيها استهلها بالبيت:

أبا مخلد كنا حليفي مودة هوانا وقلبانا جميعاً معاً معاً

وفيها يقول:

غششت الهوى حتى تداعت أصوله بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا

وأنزلت من بين الجوانح والحشا ذخيرة ود طالما قد تمنعا

فـــلا تلحينـــي لم أجـــد فيـــك حيلـــة تخرقـــت حتـــى لم أجـــد فيـــك مرقعـــا

فهبـــك يمينـــي اســـتأكلت فاحتـــسبتها وجـــشمت قلبـــي قطعهـــا فتـــشجعا

وأما هجاؤه أبا تمتم فكان أكثر إيلاماً من هجائه مسلماً؛ لأنه طعن في نسبه وشكك في طائيته حين قال في استخفاف:

انظـــــر إليـــــه وإلى ظرفـــــه كيـــف ((تطايـــا)) وهـــو منـــشور

ويلـــــك!! مـــــن دلاك في نـــــسبة قلبـــك منهـــا الـــدهر مـــذعور

لـــو ذكـــرت ((طـــي)) عـــلى فرســـخ أظلـــــم في نـــــاظرك النـــــور

وفي آخر المطاف حين فرغ دعبل من هجاء من وجدهم أهلاً للهجاء عرج على قبيلته خزاعة فهجاها.

لقد كان دعبل يعيش الهجاء كما يعيش المرء الحياة، لقد كان يكتب شعراً في الهجاء، ويحتفظ به للوقت المناسب وللشخص الذي يظهر فيما بعد أنه مستحق له، فإذا ما ظهر ذلك المسكين لا يفعل دعبل أكثر من أن يضيف اسمه إلى الأبيات بحيث تنسجم مع بحر الشعر ووزنه.

إن مجرد ذكر اسم دعبل في ندوة ما كان يدخل الفزع إلى قلوب الناس، إن دعبلاً بحكي بنفسه بعض هذه النوادر، فقد حكى هو نفسه للمبرد شيئاً من ذلك قائلاً: كنت جالساً مع بعض أصحابنا ذات يوم، فلما قمت، سأل رجل لم يعرفني أصحابنا عني، فقالوا: هذا دعبل، فقال: قولوا في جليسكم خيراً!!. يقول دعبل أيضاً: إن رجلاً قد أصابه الجنون فصحت في أذنه ((دعبل)) ثلاث مرات، فأفاق.

ولم يكن دعبل يكتفي بهجاء الأحياء، بل كثيراً ما كان يهجو الأموات من كرام الناس، فقد هجا الكميت الأسدي شاعر آل البيت وناقضه في القصيدة النونية

ألا حييت عنا يا مدينا

وعرض به بقصيدة مطلعها:

أفيقـــي مـــن ملامـــك يـــا ظعينـــا كفـــاك اللـــوم مـــر الأربعينـــا

وقد أضرَّت هذه القصيدة بدعبل ونالت من شعبيته عند خاصة الأدباء وجمهره الشيعة، وحطَّت من قدره عند الذين كانوا يحملون له التقدير.

ولم يعرف الرشيد أنه أساء إلى دعبل، بل لقد أرسل في طلبه بعد سماع شعره وأجلسه في حضرته ووصلة بصلات سنية، ومع ذلك فإن الرشيد لم يسلم من هجائه بعد موته فقد هجاه في قصيدته التائية – مدارس آيات – وذلك في قوله:

قبران في طوس: خير الناس كلهم وقبر شرهم، هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب ((الزكي)) ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت له يداه فخذ ما شئت أو فذر

وكان دعبل كثير الهجاء للمعتصم شديد الحملة عليه في حياته مع أن المعتصم كان سيف دولة بني العباس وفارسها وفاتح بلاد الروم وموقع الهزائم بالمعتدين على ديار الإسلام، وقد مدح بما لم يمدح به خليفة عباسي لهمته في الحرب وفروسيته في الفتح حسبما سوف يمر علينا فيما يستقبل من فصول، ولكن ما كاد يموت المعتصم ويلي الواثق أمر المملكة حتى ينشط دعبل قائلاً على البديهة

الحمد الله لا صبر ولا جلد ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

إن دعبلاً هجاء ومحترف بمعنى أنه يقول الهجاء هواية ويصنعه احترافاً إن جاز هذا التغير فلندلف إلى صور من هجائياته الموجعة ضاربين صفحاً عن نماذج من هجائيات ذكر فيه الأعراض والعورات وألفاظاً لا يجمل بنا أن نضمنها كتابنا هذا طالما كان في نماذجه الأخرى ما يفي بالغرض.

ز - شعره في الهجاء:

نقول ليس ثمة نزاع في شاعرية دعبل وخصوبتها في مختلف الأغراض، ولكنه إذا قال في الهجاء أحس قارئه وكأنها فيض قريحته وعفو خاطره يحسن الصوغ ويتقن توليد المعاني ويمنع ويطرف مع الإيجاع إلى الحد الذي يجعل المهجو يطرب حين يسمع شعر النفس الشاعر يهجو

به فريسة أخرى وآية ذلك أن دعبلاً كان قد هجا المأمون فما زال المأمون في طلبه حتى تحايل دعبل ودس إليه قوله في عمه إبراهيم بن المهدي الذي كان خرج عليه وبايعه الناس خلفية على بغداد بين سنتي ٢٠١ - ٢٠٣هـ حيث يقول:

إن كان إبراهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق

ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ... ولتصلحن من بعده للمارق

أنى يكون ولا يكون ولم يكن ... لينال ذلك فاسق عن فاسق

فلما قرأ المأمون الأبيات ضحك وقال: قد صفحت عن كل ما هجانا به إذ قرن إبراهيم بمخارق في الخلافة لقد كان دعبل من الخبث بمكان في أبياته هذه فلقد كان إبراهيم بن المهدي مغنياً عازفاً مجيداً وكان مخارق مغنياً وكان زلزل صالحاً لمخارق المغني فما دام إبراهيم ــ وهذه صفته ـ قد تسلّم الخلافة فإنها ولا شك صالحة لمخارق المغني وزلزل الطبال.

وكان إبراهيم بن المهدي قد بويع بالخلافة في بغداد على النحو الذي مر بنا وكان مال خلافته قد قل فحبس العطاء عن الناس وجعل يسوِّفهم، ثم لم يلبث أن بعث إليهم من أعلن أمامهم الآمال عنده، فقال بعض غوغاء بغداد اخرجوا إلينا خليفتنا ليغني لأصحاب العطاء ثلاثة أصوات فتكون عطاء لهم، ويقتنص دعبل هذا القول وينطلق من مضمونه يهجو إبراهيم بهذه الأبيات الساخرة الموجعة:

يا معشر الأجناد لا تقنطروا ... وارضوا بما كان ولا تسخطوا

فسوف تعطون حنينية ... يلتذها الأمرد والأشمط

والمعبديات لقوادكم ... لا تدخل الكيس ولا تربط

وهكذا يرزق قوادة ... خليفة مصحفه البربط

أما هجاؤه المأمون فكان هجاء خنا به من مقام الملك الخطير وعرض به وبأخيه الأمين الذي قتله جيش طاهر بن الحسين الخزاعي ولاء، وبالتالي فإن سيوف الخزاعيين هي التي أقعدت المأمون على كرسي الخلافة، يهجو دعبل المأمون من هذا المنفذ فيقول:

أيسومني المأمون خطة جاهل ... أوما رأى بالأمس رأس محمد

إني مـــن القـــوم الـــذين ســـيوفهم قتلـــت أخـــاك وشرفـــوك بمقعـــد

رفعـــوا محلـــك بعـــد طـــول خمولـــه واســـتنقذوك مـــن الحـــضيض الأوهـــد

لقد كان المأمون يطلب دعبلاً ليوقع به، ولكن لا يلبث أن تصفو نفسه ويردد شعره ويستحسنه، وقد مر بنا أنه كان يردد أبياته الجميلة العينية القافية كما كان يضحك لسماع هجاء دعبل في إبراهيم بن المهدي وابن عباد الكاتب.

ويظل دعبل مستلماً ملوك بني العباس يهجوهم الواحد تلو الآخر بدأ بالرشيد وثنى بإبراهيم بن المهدي وثلث بالمأمون، ثم يأتي دور المعتصم وترتيبه الثامن في سلك ملوك بني العباس فينكر عليه دعبل حقه في الملك ويقول هذه الأبيات الهجائية الموجعة:

ملـوك بنـي العبـاس في الكتـب سـبعة ولم تأتنـا عـن ثـامن لهـم كتـب

كـذلك أهـل الكهـف في الكهـف سـبعة كـرام إذا عـدوا وثـامنهم كلـب

وإني لأُعـلي كلـبهم عنـك رفعـة لأنـك ذو ذنـب وليـس لـه ذنـب

لقد ضاع ملـك النـاس إذ سـاس ملكهـم وصـيف وأشـناس وقـد عظـم الكـرب

وكالعادة يطلب الخلفية المهجو دعبلاً ليقتله ولكنه يفر ويستتر لأيام، بل لسنوات ويدعي في هذا المقام أن هذه القصيدة ليست له، وإنما قالها أحد أعدائه ونسبها إليه حتى يوقع به ولكن تصديق ذلك أمر بعيد الاحتمال.

ويموت المعتصم فلا يسلم وهو ميت من لسان دعبل أن يعتبر المعتصم رغم موته صورة للطاغية المستبد الشرير ويطلب له العذاب في نار جنهم التي يستحقها الشياطين والطغاة والظالمون فيقول:

قـــد قلـــت إذ غيبـــوه وانـــصرفوا في شر قـــبر لـــشر مـــدفون

اذهـــب إلى والنـــار والعـــذاب فـــما خلتـــك إلا مـــن الـــشياطين

مـــا زلـــت حتـــى عقـــدت بيعـــة مـــن أضر بالمـــسلمين والـــدين

فإذا جاء دور المتوكل فإن دعبلاً يهجوه ببيت واحد، ولكنه بيت قاس موجع؛ لأنه ينال من مروءة الخليفة الأنيق المترف ويعرض برجولته وذلك بقوله:

ولـــست بقائـــل قـــذعاً ولكـــن لأمـــر مـــا تعبـــدك العبيـــد

فلعل دعبل يمدح الرجل فإذا لم يعطه جائزة يرضاها انقلب عليه وهجاه، وقد فعل ذلك مع عدة رجال منهم أبو نصير بن حميد الطوسي الذي قال فيه قولاً موجعاً مراً:

أبـــا نـــصير تحلحـــل عـــن مجالـــسنا فـــإن فيـــك لمـــن جـــاراك منتقـــصا

أنـــت الحـــمار حرونـــاً إن رفقـــت بـــه وإن قـــصدت إلى معروفـــه قمـــصا

إني هززتـــــك لا آلـــــوك مجتهـــــدا لـــو كنـــت ولكنـــي هـــززت عـــصا

إن أبا نصير وقد أوجعته هذه الأبيات لم يجد أمامه غير أبي تمام الشاعر فشكا دعبلاً إليه واستعان به عليه، فهجاه بقصيدة يقول في بعضها:

أدعبـــــل إن تطاولـــــت الليـــــالي عليـــك فـــإن شـــعري ســـم ســـاعة

ومـــا وَفَـــدَ المـــشيب عليـــك إلا بـــأخلاق الـــدناءة والرضـــاعة

ووجهـــك إن رضـــيت بـــه نـــديما فأنـــت نـــسيج وحـــدك في الرقاعـــة

وهي أبيات ركيكة متخاذلة إذا ما قيست بهجاء دعبل.

وتتجلى براعة دعبل في الهجاء حين يهجو مجموعة من الأعلام دفعة واحدة مجتمعين غير متفرقين، لقد فعل ذلك حين هجا مجموعة من الناس مكونة من دينار بن عبد الله وأخيه يحيى والحسن بن سهل والحسن بن رجاء وأبيه فقال:

ألا فاشـــتروا منـــي ملـــوك المخـــرم أبع "حسناً " " وابني رجاء " بدرهم

وأعـــط " رجـــاء " فـــوق ذاك زيـــادة وأســـمح " بـــدينار" بغـــير تنـــدم

فـــإذا رد عيـــب عـــلي جمـــيعهم فليس يرد العيب " يحيى بن أكثم"

إن هذه الصور الهجائية التي قدمناها وتجاوزنا عن غيرها من هجائيات دعبل التي تحرجنا من التمثيل بها على الرغم مما فيها من براعة ورشاقة تعتبر مرحلة وسطى في الهجاء حسبما ذكرنا قبلاً بين بشار وابن الرومي بل إن ابن الرومي، يكاد يستر خلف كل صورة من صور

دعبل الهجائية، إن دعبلاً قد فرض نفسه على موضوع الهجاء فرضاً فإن طبيعته ونفسيته واستعداده كل ذلك قد هيأه لأن يحتل مكانة في شعره وبخاصة شعره الإنساني.

ح - الصنعة والتجديد في شعر دعبل:

على الرغم من تورط دعبل في الهجاء تورطاً يكاد يحجب فنه الجديد في الشعر العربي، فإن طبيعة الصناعة الصارخة والصور البهيجة التي عمد إلى اختراعها تعلن عن نفسها بصوت عال مسموع.

لقد مر بنا قبل قليل قول دعبل وهو يقدم شخصيته الشعرية أنا ابن قولي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

أي أنه عرف بهذا القول واشتهر، تماما كما كان أبو تمام يقول أنا ابن قولي:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

ذلك أن كل أشاعر يأتي بمعنى جديد أو صوغ طريق يشيع بين الناس كان يعرف بهذا القول، ومن ثم يقول: أنا ابن قولي قولي كذا، ويذكر البيت.

والحق أن بيت دعبل قد سار على كل لسان وغنته أكثر القيان المغنيات المجيدات لفترة طويلة من الزمان، بل إن " المكارية " كانوا يتغنون به وهم يسوقون به يسمع المكاري من خلفه يتغنى بالبيت - لا تعجبي يا سلم - فَسُرَّ دعبل لذلك وأراد أن يشغل المكاري بحديث يصرفه عن حث البغل على السرعة في المسير، فقال له: أتعرف لمن هذا الشعر يا فتى؟ وتوقع دعبل أن يلقى جواباً يرضيه أو وأن يسمع اسمه على شفتي المكاري، ولكن المكاري كان من سلاطة اللسان، أو بالأحرى كان سليقته في القول - أعني سليقة المكارية - فأجاب: هذا الشعر لمن..... أمه.

بل إن هذا البيت هو الذي أوصل دعبلاً بالرشيد، فقد غنى ابن جامع المقطوعة التي تضم هذا البيت بين يدي الرشيد فطرب كثيراً وسأل عن قائل الشعر، فقيل له: دعبل بن علي الخزاعي، فأمر الرشيد بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه ووجه خادماً من خاصته

على مركب مراكبه إلى خزاعة، فسأل عن دعبل وأعطاه إياها وأبدى له إعجاب الخليفة به ورغبته في أن يراه متى يشاء.

إن بيتاً أو مقطوعة تذيع وتشيع بين طبقات المجتمع بدءاً بالخليفة في قصره وانتهاء بالمكارية وراء بغالهم وحميرهم في الطرقات لشيء يبعث على الاهتمام، فما هي هذه المقطوعة الشعرية التي أثارت كل هذا الاهتمام؟ إنها مقطوعة تنم عن رقة متناهية، وإحساس شاعري رهيف، وتلاعب بالمعاني طريف، ومداعبة بديعية لصيغة القول، جمعت ألواناً من الزينات اللفظية من جناس وطباق إلى نكت بيانية تمثلت في الاستعارات الحضرية التي تضمنتها الأبيات، والتي لم ينجح في ابتكارها من الشعراء الكثيري العدد إلا عدد قليل من أمثال مسلم بن الوليد وأبي نواس، يقول دعبل في مقطوعته الرقيقة:

أين الشباب وأية سلكا؟ لا أين يطلب؟ ضل بل هلكا

لا تعجبني يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

يا ليت شعري كيف نومكما يا صاحبي إذا دمي سفكا

لا تأخذوا بظلامتي أحدا قلبي وطرفي في دمي اشتركا

قد يبدو غريباً صدور مثل هذا القول المتناهي في رقته من شاعر عمل بعض الوقت قاطع طريق، وعايش فترات طويلة من عمره الصعاليك والشطار، ونذر نفسه للهجاء، ولكن تعليل ذلك في غاية من البساطة، فالرجل يملك روحاً شاعرة خصبة، وملكة سخية معطاءة، ولكن طبيعة الحياة التي نشأ فيها ودور المجتمع الذي عاش فيه قد أجريا هذا التحول المنحرف في سلوكه وبالتالي في قوله وشعره.

ومع ذلك فقد كان دعبل يرتاح وهو في شيخوخته لسماع هذه النبرة الناعمة المترفة من شعر شبابه الباكر. فلقد حل ضيفاً على من دعاه إلى منزله في بلدة شهرزور، فسمع جارية محسنة تغني: أين الشباب..... الأبيات فارتاح دعبل وقال: قد قلت الشعر منذ سبعين سنة.

لا شك في أن دعبلاً يمثل مدرستين أو بالأحرى طبيعتين، فهو من ناحية يمثل الطبيعة الناشزة النافرة غير المستأنسة التي تتمثل في خشونته وتطاوله على الناس وهجائهم وطول

الهروب من المدينة ومعاشرة الصعاليك، ولكنه من ناحية أخرى متأثر بالبيئة الحضرية الناعمة التي تعجب بالشعر السهل المترف الذي تمثل في الأبيات السابقة.

بل إن دعبلاً قطع في التأثر بالبيئة البغدادية شوطاً طويلاً حين شارك أبا نواس في رفض الوقوف على الأطلال واستبداله ذكر الخمر بالوقوف على الربوع حتى نكاد نقع في لبس تجاه الشاعرين الكبيرين، وأيهما كان البادئ في هذا الاتجاه، المهم أن دعبلاً رفض الوقوف على الربوع والطلل في قوله مخاطباً زياداً الساقي:

يقول زياد قف بصحبك مرة ... على الربع، مالي والوقوف على الربع
أدرها على فقد الحبيب فربما ... شربت على ناي الأحبة والفجع
فما بلغتني الكاس إلا شربتها ... وإلا سقيت الأرض كأسا من الدمع

ليس من شك في أن هذا القول يزعزع من الفكرة التي تذهب إلى أن أبا نواس هو أول من ترك الوقوف على الأطلال - وإن كان في حقيقة أمره لم يفعل حسبما مر بنا - فإن دعبلاً ينازعه في ذلك خاصة وأن فارق المولد بينهما عامان اثنان لا غير.

ومن نماذج الصيغ الشعرية البهيجة التي تألق دعبل في نسجها وزركشتها وتلوينها بحيث بدت عذبة الرنين رخية الإيقاع أنيقة التشبيهات بارعة الاستعارات، تلك الأبيات التي مزج فيها شاعرنا بين الطبيعة والمديح في قوله:

وميثاء خضراء زربية ... بها النور يلمع في كل فنن
ضحوكاً إذا لاعبته الرياح ... تأود كالشارب وعصب اليمن
فشبه صحبي سنا نورها ... بديباج كسرى وعصب اليمن
فقلت بعدتم ولكنني ... أشبهه بجناب الحسن
فتى لا يرى المال إلا العطاء ... ولا الكنز إلا اعتقاد المنن

وعلى نفس النهج الذي سارت فيه مدرسة الشعر المجددة المعاصرة التي التزم دعبل اتجاهاتها في شبابه لا نستطيع أن نخفي إعجابنا بقوله في الكأس والخمر.

شربت وصحبتي يوماً بغمر شراباً كان من لطف هواء
وزنّا الكأس فارغة وملأى فكان الوزن بينهما سواء

إن دعبلاً وقد سلك نفسه في هذا النهج من القول إنما يجري في المضمار الذي جرى فيه مسلم وأبو نواس، ثم أبو تمام، ومن قبلهم الحسين بن مطير وبشار.

ومن فنون الصناعة والتلاعب باللفظ الواحد واستخدامه قافية للقصيدة بحيث جعل منه معنى مستقلاً في كل بيت، صريحاً حيناً، ومن قبيل التورية حيناً آخر، قوله في الفضل بن مروان وزير المعتصم، مكرراً لفظ ((الفضل)) كل مرة:

نصحت فأخلصت النصيحة للفضل وقلت فسيرت المقالة في الفضل
ألا إن في الفضل بن سهل لعبرة إن اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر إذا ازدجر الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل في الفضل بن يحيى مواعظ إذا فكر الفضل بن مروان في الفضل
فابق جميلاً من حديث تفز به ولا تدع الإحسان والأخذ بالفضل
فإنك قد أصبحت للملك قيما وصرت مكان الفضل والفضل والفضل
ولم أر أبياتاً من الشعر قبلها جميع قوافيها على الفضل والفضل
وليس لها عيب إذا هي أنشدت سوى أن نصحي الفضل كان من الفضل

وهكذا يكد دعبل قريحته لكي يقدم قافية متميزة غير مسبوق إليها جميعها - حسب تعبيره - ((على الفضل والفضل)) وقد اجتهد في أن يكون كل ((فضل)) بمعنى، فتارة هو الفضل بن مروان، وأخرى هو الفضل بن سهل وثالثة هو الفضل بن الربيع، ورابعة هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وخامسة هم هؤلاء جميعاً، وسادسة بمعنى الإحسان وسابعة بمعنى فضل القول وهكذا. ولئن اعتبر بعض الناقدين هذا النسق من القول ضرباً من التجديد، فإنه تجديد غير مفيد وغير بهيج؛ لأنه كد للقريحة في غير ما طائل يلوي فيه الشاعر أعناق الألفاظ بشدة ويجرها بحبال متينة حتى يرصها صفاً واحداً، مخايل الإبداع والبهجة فيه أقل كثيراً من المجهود الذي بذل في سبيله.

هذا ما كان من أمر الزينات اللفظية والتشبيهات والاستعارات، غير أن جانباً ذا قيمة وخطر لا زال يكمن في شاعرية دعبل، إن هذا الجانب هو جانب الصورة الشعرية التي ازدهت وازدهرت فيما بعد عند كل من ابن الرومي وابن المعتز.

إن دعبلاً يرسم لوحة لكلابه وهي ترحب بضيفه بحيث نكاد - لفرط ما خلع دعبل على لوحته - نحس بالكلاب تحرك أذنابها سروراً وترحاباً من خلال الأبيات التي يقول فيها:

ويدل ضيفي في الظلام على القرى إشراق ناري أو نباح كلابي
حتى إذا واجهنه ولقينه حيينه ببصابص الأذناب
فتكاد من عرفان ما قد عودت من ذاك أن يفصحن بالترحاب

الواقع أنها صورة رائعة بارعة استطاع دعبل أن يخلع عليها حركة رشيقة بحيث بدت وكأنها شريط سينمائي قصير.

على أن هذه الصور على رشاقتها ودقتها ورقتها ليست في واقع أمرها إلا تقليداً لشاعر سابق من مخضرمي الدولتين اعتبرناه عند دراستنا له واحداً من رواد التجديد ذوي الأصالة إنه إبراهيم بن هرمة الذي يصور كلبه بضيوفه في قوله:

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

بل إن ابن هرمة قد قدم صورة أخرى لكلابه وهي تهش لمقدم ضيوفه في نفس البحر والروي والقافية التي التزمها دعبل يقول ابن هرمة في الصورة الباكرة التي قدمها لكلابه:

وإذا أتانا طارق متنور نبحت فدلته علي كلابي
وفرحن إذ أبصرنه فلقينه يضربنه بشراشر الأذناب

إن الصورة التي رسمها دعبل لكلابه - مقلداً ابن هرمة - صورة جمعت بين الجدة والطرافة، ولكن لدعبل صور شعرية أخرى متحركة فكهة، فيها رشاقة وسخرية وخفة روح.

طار ذات يوم ديك من بيت دعبل في بغداد فسقط في بيت صالح بن علي القيسي وكان عنده جماعة من الأصدقاء، وما أن رأوا الديك قريباً منهم حتى قالوا: هذا صيد سمين، فذبحوه وشوه وجعلوه على مائدة شرابهم. أما دعبل فإنه قد أسرع إلى دار صالح سائلاً عن

ديكه مطالباً به، غير أن القوم أنكروا معرفة شيء عنه. فلما كانت الغداة ذهب دعبل إلى المسجد وصلى ثم جلس بين صفوة العلماء وجمهرة المصلين الذين كانوا يؤثرون الصلاة في هذا المسجد وأنشد هذه الأبيات التي تمثل قصة الديك – الذي آثر أن يصفه بالمؤذن – مع جاره:

أسر المـــؤذن صـــالح وضـــيوفه أسر الكمـــي هفـــا خـــلال المـــاقط
بعثـــوا عليـــه بنـــيهم وبنـــاتهم مـــن بـــين ناتفـــة وآخـــر ســـامط
يتنـــازعون كـــأنهم قـــد أوثقـــوا خاقـــان أو هزمـــوا كتائـــب نـــاعط
نهـــشوه فانتزعـــت لـــه أســـنانهم وتهـــشمت أقفـــاؤهم بالحـــائط

لقد أصاب دعبل بأبياته هدفين وحقق غرضين، ذلك أنه نال من جاره وشهر به في المسجد بهذه الأبيات الفكهة، فضلاً عن أنه أهدى إلى دنيا الشعر هذه الصورة المتحركة المضحكة، وهناك صورة أخرى فكهة ضاحكة مرة بارعة رسمها دعبل لبني بسام من خلال هجائه لهم بسبب إهمال نصر بن منصور بن بسام في قضاء طلب للشاعر فقال عامداً إلى التورية والطباق:

يـــا آل ((بـــسام)) في المخـــازي وعابـــسي الوجـــه في الـــسؤال
حواجـــب كالحبـــال ســـود إلى عثانـــين كـــالمخالي
وأوجـــه جهمـــة غـــلاظ عطـــل مـــن الحـــسن والجـــمال

بل إن الصور الشعرية المرسومة بدقة وكأنها ريشة فنان قد اكتملت أسباب نضجها عند دعبل، وليس ابن الرومي وابن المعتز إلا مكملين لهذا اللون الذي ألح عليه دعبل من واقع نفسيته الثائرة المتمردة حتى على القريبين منه. لقد كان له جارية اسمها ((غزل)) ويبدو أنه كان حانقاً عليها فرسم لها هذه الصورة الطريفة الفكهة الساخرة:

رأيـــت غـــزالاً وقـــد أقبلـــت فأبـــدت لعينـــي عـــن مبـــصقة
قـــصيرة الخلـــق دحداحـــة تـــدحرج في المـــشي كالبندقـــة
كـــأن ذراعـــاً عـــلا كفهـــا إذا حـــسرت ذنـــب الملعقـــة
تخطـــط حاجبهـــا بالمـــداد وتـــربط في عجزهـــا مرفقـــة

وأنـــف عـــلى وجههـــا ملـــصق قـــصير المنـــاخر كالفـــستقة

وثـــديان: ثـــدي كبلوطـــة وآخـــر كالقربـــة المدهقـــة

وصـــدر نحيـــف كثـــير العظـــام تقعقـــع مـــن فوقـــه المخنقـــة

وثغـــر إذا كـــشرت خلتـــه تخـــالج فانيـــة معلقـــة

إن هذه الصور الشعرية الساخرة تشكل الأساس الرئيسي لمدرسة الصورة الشعرية الساخرة التي ازدهرت عند ابن الرومي بحيث عرفت به ونسبت إليه، والواقع أن فضلاً كبيراً في أصلها يرجع إلى دعبل الشاعر الرسام الساخر الهجاء الفنان.

لقد كان دعبل شاعراً كبيراً مرموقاً، وكان البحتري – شاعر العربية الكبير – يفضله على مسلم بن الوليد حسبما مر بنا، وعلى الرغم من العداوة التي كانت بين دعبل وأبي تمام، فإن البحتري، وهو تلميذ أبي تمام وقريبه – جمع بين الشاعرين الكبيرين في مرثيته لدعبل الذي مات بعد أبي تمام بخمس عشرة سنة وفيها يقول:

قـــد زاد في كلفـــي وأوقـــد لـــوعتي مثـــوى حبيـــب يـــوم مـــات ودعبـــل

أخـــويَّ لا تـــزل الـــسماء مخيلـــة تغـــشاكما بـــسماء مـــزن مـــسبل

جـــدث عـــلى الأهـــواز يبعـــد دونـــه مـــسرى النعـــي ورمـــة بالموصـــل

نستطيع الآن في غير ما جهد أن نتفهم مكانة دعبل وموقعه في الشعر العباسي، إنه الحلقة الواسعة المتينة التي تربط شعر المرحلة العباسية الباكرة ومرحلة ما قبل الدويلات، وهذه الحلقة تستوعب اتجاهين أساسيين، الأول اتجاه شعر الهجاء وربطة بين بشار وابن الرومي والاتجاه الثاني يتمثل في التجديد في شكل الشعر لفظاً ومعنى الذي مثله أبو تمام فيما بعد، وفي خلق الصورة الشعرية التي ازدهرت عند كل من ابن الرومي وابن المعتز في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

- ٩ -

مهيار الديلمي

أ - حياته وشعره

ب - شعر مهيار

لم يكن مهيار يستعين على شعره بثقافة ولا فلسفة، وكان أجنبيًّا عن اللغة، وحاول أن يطيل في قصائده، فظهر تلفيقه مكشوفًا.

ولذلك تأثير واسع في صناعة الشعر عنده؛ إذ كان يضل التعبير عن المعاني الدقيقة، فيسقط إلى ألوان من الإسفاف تذيع سر المهنة عنده، ولذلك كان لا يحسن التعبير الحاد عما في نفسه. وقد سلمت له نشأة فارسية مجوسية؛ ولذلك كانت قصائده تمتلئ بنوافذ يشرف منها الإنسان على فارس، ولولا أنه أخذ نفسه بالأسلوب العربي وتخرج على يد شاعر عربي أصيل؛ وهو الشريف الرضي؛ لكان لفارسيته وأجنبيته عن اللغة العربية أثر أوسع. ولعل ذلك ما جعله يقول في وصف أشعاره:

حللً من المعدنِ الصريحِ إذا ... غشَّ تجارُ الأشعارِ ما جلَبوا

تشكرُها الفرسُ في مديحك للـ ... ـمعنى وتَرضى لسانها العَرَبُ

فمهيار كان يشعر شعورًا عميقًا بفارسيته، وكان يرى أن لهذه الفارسية سمات خاصة في شعره، وهو يرجع هذه السمات إلى ما يسميه المعنى؛ ولكن كلمة المعنى واسعة، وهي الروح الفارسية؛ فليس في معاني مهيار ما يمكن أن نسميه فارسيًّا. وكان يؤثِّر في شعر مهيار تأثيرًا واسعًا مزاجه الخاص، وهو مزاج فيه رقة وحدَّة في الحس، ودماثة وليونة ما يزال ينتشر في جميع أطراف شعره.

ج - تَلْفِيقُ مهْيَار لشعره وتطويله لقصائده:

كان مهيار أجنبيًّا عن اللغة؛ يلفق قصائده على طريقة الشعراء الذين عاصروه، وهو تلفيق لا يعتمد عنده على الثقافة ؛ إنما هو تلفيق داخلي، إذ نرى الشعراء عاجزين عن التجديد إلا في حدود ما سبقهم من أفكار وخواطر، وهم لذلك ما يزالون يتناقلونها فيما بينهم، حتى يحدثوا لأنفسهم تلك النماذج التي كانوا يسمونها قصائد، ومن السهل أن يقرأ الإنسان لأي شاعر في تلك العصور ويرد ما يقرؤه إلى من سبقه من الشعراء، قد يستعين بعضهم على إخفاء هذا الجانب عنده بما يحققه لنفسه من الأسلوب العربي الأصيل كما نجد عند الشريف الرضي؛ ولكنا لا ننتقل إلى تلميذه مهيار حتى يكشف لنا كشفًا واضحًا عن تلك المهارة الحديثة في الفن العربي، وذلك أنه كان يعمد إلى تطويل نماذجه، فانبسطت الأبيات واتضح التلفيق، وانظر إلى هذه الفكرة عند المتنبي:

أَثَـافٍ بِهَـا مَـا بِـالفُؤادِ مِـنَ الـصَّلى وَرَسْـمٌ كَجِـسمي ناحِـلٌ مُتَهَـدِّمُ

تحولت هذه الفكرة عند مهيار إلى تلك الأبيات:

هَـل عنـد هـذا الطَّلَـلِ الماحِـلِ مـن جَلَـدٍ يُجـدي عـلى سـائلِ
أصـمُّ، بـل يـسمعُ؛ لكنَّـهُ مـن الـبلى في شُـغُلٍ شـاغلِ
وقفـتُ فيـه شـبحًا مـاثلا مرتفـدًا مـن شـبح ماثِـلِ
ولا تـرى أعجـبَ مـن ناحـلٍ يـشكو ضـنا الجـسمِ إلى ناحـلِ
لهفَـكِ يـا دارُ ولهفـي عـلى قَطينِـك المحتمِـل الزَّائـلِ
قلبـيَ للأَحْـزانِ بعـد النَّـوى وأنـتِ للـسَّافي وللنَّاخـلِ
مثلُـكِ في الـسُّقمِ ولي فـضلةٌ بالعقـلِ والبَلـوى عـلى العَاقِـلِ

أساس الفكرة في هذه الأبيات هو أنه رسم يبكي رسْمًا، وهي فكرة المتنبي، بل هي فكرة أبي تمام من قبله، وكل ما جاء به مهيار من جديد أنه عمد إلى التطويل والتفصيل؛ وأصبح أسلوبه كأنه أسلوب نثر؛ فهو يعتمد على المقارنة والتفصيل. وتكرار للألفاظ، يدنو به إلى حال من الابتذال تصيب شعره بضروب من الركاكة والإسفاف.

يقول مهيار:

نـــشدتُكِ يـــا بانـــةَ الأَجْـــرعِ ... متـــى رفـــعَ الحـــيُّ مـــن لَعْلَـــعِ
وهـــل مـــرَّ قلبـــيَ في التابعيـــ ... ـــن أم خـــارَ ضـــعفًا فلـــم يَتْبَـــعِ
لقـــد كـــان يُطمُعنـــي في المُقـــام ... ونيّتُـــــهُ نيَّـــــةُ المزْمـــــعِ
وسِرْنـــا جميعًـــا وراءالحُمُـــول ... ولكـــن رجعـــتُ ولم يرجِـــعِ
فأنّتُـــهُ لـــكِ بـــين القلـــوبِ ... إذا اشـــتبهت أنَّـــةُ الموجَـــعِ
وشـــكوى تـــدلُّ عـــلى سُـــقْمِهِ ... فـــإن أنـــتِ لم تُبـــصري فاســـمعي

فقد أطال مهيار الفكرة ودار حولها هذا الدوران الذي يبعدها عن طبيعة الأفكار الغنائية؛ إنه يريد أن يجدد فلا يجد عنده ثروة فكرية يستعين بها على ما يريد، وما أشبه أسلوب مهيار بالسهل المنبسط،فإذا بك تملُّه وتسأمه لما فيه من تكْرار وعدم تنوع. وهل كلمة "إذا اشتبهت" كلمة شعرية؟ وهل نستريح إلى التعبير عن الارتحال بالارتفاع كما يقول في البيت الأول؟ وهل نستريح لكلمة النية؟ ألا نحس في ذلك كله بضروب من خبو العاطفة وضعف الأسلوب.

لم يكن يعرف العبارة الحادة في الشعر العربي؛ لأنه أجنبي دخيل على اللغة، وهو لم ينـزح إلى البادية كما نزح إليها أبو نواس، ولا تعلَّم الفصاحة من شيوخ بني عقيل كما تعلمها بشار؛ فلم تتعمق فيه السليقة العربية، وصار إذا أراد التعبير عن فكرة جاءها من بعيد وبعد لـفٍّ طويـل؛ فانكشفت عيوبه في التلفيق.

واقرأ له هذه القطعة.

يـــا لُـــواة الـــديون هـــل في قـــضايا الـــ ... حـــسن أن يَمْطُـــلَ الغنـــيُّ الفقـــيرا
لي فـــيكم عهـــدٌ أُغـــيرَ عليـــهِ ... يـــومَ ســـلعٍ ولا أســـمِّي المغـــيرا
احـــذروا العـــارَ فيـــهِ، والعـــارُ أن يمـــ ... ـــسي ذمـــامي في رعيـــهِ مخفـــورا
أو فـــردُّوا عـــلى حـــيرانَ أعْـــشَى ... نـــاظرًا فقـــد أخـــذتموه بَـــصِيرا
أنـــا ذاك اعتبـــدتُ قلبـــي وأنفقـــ ... ـــتُ دمـــوعي علـــيكُمُ تبْـــذِيرا
فـــاحفظوا في الإســـارِ قَلْبًـــا تمنَّـــى ... شَـــغَفًا أن يمـــوتَ فـــيكم أَسِـــيرا

وقتـــــيلًا لكـــــم ولا يـــــشتكِيكُمْ هـــل رأيـــتم قـــبلي قتـــيلًا شـــكورا

ولعل القارئ شعر بغرابة هذه العهود التي يغار عليها وتسلب؛ فـنحن نعـرف أن العهـود تنقض، أما أن يغار عليها وتسلب فهذا تعبير جديد غير مألوف؛ ولكن مهيار يريد التجديد في التعبير، بل هو فارسي قـد ينـسى الكلمـة الأصـيلة في اللغـة فيعمـد إلى التفـصيل في أفكـاره والاتساع في عباراته.

وراح يحاول إدخال مراسيم الرسائل في قصائده، حتى يستطيع أن يطيل فيها طولًا شديدًا. وإن الإنسان ليشعر شعورًا واضحًا إزاء كثير من نماذجه بأنها قد ألفت كما تؤلف الرسائل:

أمـــا وهواهـــا حلفَـــةً وتَنـــصُّلا لقـــد نقَـــلَ الـــواشي إليهـــا فـــأمْحَلا

وما أحلى ما قال بعده:

ســـعى جُهْـــدَه لكـــن تجـــاوز حـــدَّهُ وكثَّـــر فارتابـــتْ ولـــو شـــاء قلَّـــلا

ومهيار كما يبدأ قصائده ببراعة الاستهلال نراه يختمها بالدعاء على نمط ما يـصنع الكتـاب برسائلهم، وانظر إليه يقول في نهاية إحدى قصائده:

فـــلا قَلَـــصتْ عنـــي ســـحائبُ ظلِّكـــم فمنهـــا مُـــرِذٌّ تـــارة وسَـــكُوبُ

ولا عـــدِمتْكم نعمـــةٌ خُلقـــتْ لكـــم ودنيـــا لكـــم فيهـــا الحيـــاةُ تطيـــبُ

يـــزوركُم النَّـــيروزُ مقتبَـــلَ الـــصِّبا وقـــد دبَّ في رأسِ الزَّمـــانِ مَـــشِيبُ

تـــصَوَّحُ أغـــصانُ الأعـــادي وغـــصنُكم مـــن الـــسَّعد ريَّـــانُ النبـــاتِ رطيـــبُ

دعـــاءٌ حِيـــالي فيـــه ألـــفُ مـــؤمِّنٍ تَوافـــقُ مـــنهم ألـــسنٌ وقلـــوبُ

وتطويله لم يضف للشعر جمالًا، بل أضاف إليه هلهلـة وإسـفافًا؛ بالحـشو وكثـرة التَّكْـرار والاعتراض:

أقـــولُ وقـــد تعـــرَّمَ جُـــرحُ حـــالي وسُـــدَّ عـــلى مَطـــالِعيَ الـــسَّراحُ

وكاشـــفني وكـــان مجـــاملًا لي عَبـــوسُ الوجـــهِ مـــن زمنـــي وَقـــاحُ

وقـــد منعـــت غـــضارَتها وجفَّـــت عـــلى أخلاقهـــا الأيـــدي الـــشِّحاحُ

غـــدًا يـــا نفـــسُ فـــانتظري أناسًـــا هُـــمُ فـــرَجٌ لـــصدركِ وانـــشراحُ

د - الميوعةُ في غَزَلِ مِهْيَار:

في شعر مهيار ضرب من الميوعة واللِّيونة وخاصة في غزله؛ إذ يحس الإنسان دائمًا بأن فيه إفراطًا في الحس والشعور والرقة، بل إنه لتنساب منه ألوان من الذلة والضراعة، فقد خُلِقَ - رقيق القلب، وهو يتكلف الليونة والدماثة والحس الحاد والشعور المفرط؛ فإذا شِعْرُه يفقد ما يمكن أن يكون في العواطف من حرارة وقوة. إنه شعر يمتلئ بالميوعة والرقة المفرطة، ولعل ذلك ما جعله يقول في وصف قصائده:

في كـــلِّ نـــادٍ نـــازحٌ غائـــبُ لهـــا حـــديثٌ بكـــم حـــاضرُ
تعـــرض أيـــام التّهـــاني بهـــا مـــا تعـــرضُ المعـــشوقة العـــاطرُ
تمـــيسُ منهـــا بـــين أيـــامكم خـــاطرةٌ يتبعهـــا الخـــاطرُ
لثَّمهـــا التحـــصين عـــن غـــيركم وهـــي عـــلى أبـــوابكم ســـافرُ

هـ - غزلُ مِهْيَار البدَوِيِّ:

يحشد مهيار بالعناصر البدوية في قصائده، بحيث لا يمر غزل في قصيدة دون أن نحس بأنه لشاعر يقيم في نجد أو في الحجاز؛ فدائمًا صاحبته أمامه أو الرَّباب أو لمياء أو سعدى، ودائمًا هي من سكان: مِنَى أو الخِيف أو قباء أو سَلْع، وهو لذلك يكثر من ذكر الأماكن الحجازية والنجدية من مثل: أُحد وجُمَع وسَلَم ونُعمان والآل والمحصَّب وإضم وزمزم، إلى جَمٍّ من هذه الأمكنة التي تُنْثَر في مطالع قصائده، وهو إلى ذلك ما يزال يعنى بالحديث عن الأطلال عناية شديدة.

وقد يعجب الإنسان لمزاوجة مهيار بين ميوعته في غزله وبين ارتفاعه بهذا الغزل عن حياته المتحضرة إلى الحياة المبتدية وما فيها من شظف العيش وخشونة الحياة، وأكبر الظن أن هذه الحال من التبدي في الغزل تسربت للشعراء من تأثرهم بأساليب المتشيعة والمتصوفة في شعرهم الخاص، إذ كان هؤلاء ينحون بغزلهم منحى بدويًّا، يعبرون فيه بالأماكن النجدية والحجازية، وكأنهم يريدون أن يعطوه بذلك ضربًا من العبادة والقداسة، وهم لذلك يتشبثون

خاصة بالأماكن المقدسة في الحجاز. وقد كان مهيار متشيعًا، بل كان من غلاة الرافضة، وقد نحا بغزله هذا المنحى الذي يعبر فيه هذا التعبير الواسع عن حبه، على الرغم مما قد يظن بأن هذه العناصر البدوية تقيد في خواطره وأفكاره. والحق أنها أعطت للغزل عند مهيار وعند غيره من الشعراء ضربًا من الاتساع في التعبير عن الوجدان والعاطفة.

على كل حال كان مهيار يكثر من العناصر البدوية في شعره، سواء منها ما يتصل بأسماء صواحبه أو أماكنهن أو ما في هذه الأماكن من النباتات والأشجار والأودية والرياح، كأن يقول في مطلع إحدى قصائده:

بَكَرَ العارِضُ تحدُوه النُّعامَى ... فسقاكِ الرَّيَّ يا دارَ أُماما

وتمشَّتْ فيك أرواحُ الصَّبا ... يتأرَّجنَ بأنفاسِ الخُزامَى

سَل طريقَ العيسِ من وادي الغضا ... كيف أغسقتَ لنا رَأْدَ الضُّحى

ألشيءٍ غير ما جيراننا ... نفضوا نجدًا وحَلّوا الأَبطحا

يا نسيمَ الصُّبحِ من كاظمةٍ ... شدَّ ما هِجتَ الجوَى والبُرَحا

الصَّبا إن كان لابدَّ الصَّبا ... إنها كانتْ لِقَلْبي أرْوَحا

يا نداماي بسلْعٍ هل أرى ... ذلك المغْبَقَ والمصْطَبَحا

اذْكُرونا قد ذكرَنا عهدَكُم ... ربَّ ذكرى قرَّبتْ مَن نَزَحا

واذكروا صبًّا إذا غنى بكم ... شرب الدَّمعَ وعافَ القَدَحا

و - المديحُ عندَ مهْيَار:

إن شعر المديح عند مهيار يفقد أصباغه العقلية القديمة وأصباغه الحسية، ويتحول كما تحول الغزل لديه إلى ضرب من المديح الباهت؛ بل إن الغزل لم يسقط عند مهيار كما سقط المديح؛ لأنه عرف كيف يستعين عليه بالعناصر البدوية القديمة، أما المديح فلم يستطع أن يحول بينه وبين هذا السقوط. ولم يستطع مهيارأن ينوع في معاني المديح؛ إذ كانت تنقصه الثقافة، وكان ينقصه العمق، وهو كذلك لم يستطع أن يحتفظ للعبارة بمنطق العرب الأصيل، ولم يكن مهيار يحكم التعبير في قصيدة المديح؛ إذ كان لا يزال يطيل فيها هذا الطول الممل الذي

ينتهي بها إلى ما يشبه الرسالة من الرسائل؛ فهي تبدأ ببراعة الاستهلال، وتنتهي بالدعاء، وتمتلئ بينهما بالحشو وما يطوى من تفكك وتلفيق، وكأنما أجدبت الحضارة العربية أو أجدب التفكير الفني؛ فليس هناك من جديد سوى هذا الأسلوب المنبسط الذي ينشر الفكرة المطوية في أبيات كثيرة.

- ١٠ -

مسلم بن الوليد

أ - حياته وشعره:

ب - التصنيع في شعر مسلم بني الوليد

فقد مضى الشعراء في القرن الثالث يقفون في صفين متقابلين، منهم من يفهم الشعر على أنه تصنيع وزخرف وتنميق مثل أبي تمام وابن المعتز، ومنهم من لا يبعد في فهمه كل هذا البعد، مثل البحتري وابن الرومي، وإن كنا نلاحظ عندهما وعند أمثالهما من أصحاب مذهب الصنعة في القرن الثالث أنهم كانوا يستخدمون زخارف التصنيع في صورة أقوى وأوضح منها عند أسلافهم في القرن الثاني، ومِن ثَمَّ أخذ مذهبهم في التعقد. ولعل في ذلك ما جعلنا نؤمن بأن إيجاد الحواجز والفوارق المطلقة بين المذاهب الفنية أمر عسير؛ إذ ما تزال تتداخل وتتشابك على هيئات مختلفة، وهذا شيء طبيعي فإن الشعراء حينئذ كانوا يلتقون كثيرًا في مجالس الخلفاء والوزراء والنوادي الأدبية العامة.

وكانوا دائمًا يعلقون على ما يسمعون من شعر باستحساناتهم، وبذلك تبادلوا التأثر بعضهم ببعض، ونسوق لذلك مثلًا: وظل أصحاب التصنيع والصنعة يجتمعون في بغداد، وهيّأ هذا الاجتماع لشيء من التداخل بين المذهبين العامين في حرفة الشعر حينئذ، وأصبحنا نجد عند الصانعين محسنات المصنِّعين وزخارفهم؛ ولكنهم لا يستخدمونها مذهبًا، بل تسقط في نماذجهم وقصائدهم. وهذا هو فرق ما بين العملين والمذهبين، يوجد اختلاط؛ ولكن لا يوجد اتحاد، ويوجد عند الصانعين حليات التصنيع من حين إلى حين، ولكن لا يوجد استمرار التطبيق.

لما أنشد مسلم لاميته المشهورة وبلغ قوله:

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريعَ الكأسِ والأعين النُّجل

قيل له: أنت صريع الغواني؛ فسمِّي بذلك حتى صار لا يُعْرف إلا به. وتدلنا أخباره على أن الرشيد كان يعجب به، وفي رأينا أن مصدر هذا الإعجاب لم يكن مديحه له فحسب؛ فقد وجده يشيد بقائده يزيد بن مزيد الشيباني حين قضى على ثورة الخوارج في عهده، وكان ذلك سنة تسع وسبعين ومئة، وبلغ من هذه الإشادة كل مبلغ؛ حتى جعله عز الخلافة.

إذا الخلافةُ عدَّت كنتَ أنت لها عزًّا وكان بنو العباس حكاما

بل جعله سداد الملك العباسي وصمام أمانه في حروب الخوارج وعلى حافات الثغور، يقول:

لولا يزيدُ لأضحى الملك مطرحا أو مائل السمك أو مسترخي الطُّول

نابُ الإمامِ الذي يفترُّ عنه إذا ما افترَّت الحربُ على أنيابها العصل

وأكثر شعر مسلم في المديح والغزليات والخمريات، ومسلم في شعره يعتمد اعتمادًا شديدًا على الإطار التقليدي، وما يرتبط به من جزالة الأسلوب ومتانته ورصانته ونصاعته وقوته، حتى في غزله وخمرياته؛ جارى فيهما أصحاب مذهب الصنعة وتجديداتهم في البحور الشعرية، وهما على كل حال شذوذ في عمله، أما بعدهما فشعره يغلب أن يكون من الأوزان الطويلة حتى تتلاءم مع ما يريد من جرس قوي، ومن ضخامة البناء في اللفظ والتعبير. وهو من هذه الناحية يعدُّ في طليعة من دفعوا الشعراء العباسيين إلى التمسك بالأسلوب الجزل المصقول؛ وهو أول من دفع الشعراء في هذا الاتجاه؛ فقد كان الشعر العربي عند أبي نواس وأبي العتاهية على وشك أن يزايل هذا الأسلوب إلى الأسلوب الشعبي اليومي، فأمسك به مسلم دون هذه الغاية وردَّه في قوة إلى جزالته القديمة وجعلها مقومًا أساسيًّا من مقوماته، بل جعلها المقوم الأساسي الأول بين هذه المقومات.

وعمَّ هذا الذوق عند أصحاب مذهب التصنيع وعند أصحاب مذهب الصنعة، وهذا الأسلوب الجزل القوي لم يكن يكلف مسلمًا مشقة؛ بل لقد كان يكلفه عناء أي عناء في اصطفاء اللفظ والملاءمة بين اللفظة واللفظة في الجرس، حتى يتم له ما يريد من ضخامة البناء وروعته. وهو بناء يقام على أعمدة هي الأبيات، وكل بيت كسابقه في الضبط والإحكام، وكل قصيدة بل كل مقطوعة كمثيلتها في هذا النمط الذي لا يتفاوت نسيجه، ومسلم صاحب

رَويَّة، لا يرتجل ولا يقول الشعر عفوًا؛ فالشعر عنده صناعة مجهدة، لابد فيها من التريث والتمهل، ولابد فيها من الصقل والتجويد، والزخرف الجديد الذي كان يأتي على قلة في الشعر القديم، يطبقه مسلم على شعره:

أجْرِرْتُ حبلَ خليع في الصبا غزلِ ... وشمرت همم العذال في العذلِ
هاج البكاءُ على العينِ الطموحِ هوى ... مفرقٌ بين توديعٍ ومُحْتَمَلِ
كيف السُّلوُّ لقلب راح مختبلًا ... يهذي بصاحب قلب غير مختبلِ

والجهد واضح في الأبيات سواء من حيث اختيار الألفاظ، أو من حيث إضافة زخارف الجناس والطباق؛ فهو يجانس بين العذال والعذل، وهو يطابق بين المختبل وغير المختبل، وفي البيت الثاني طباق دقيق بين الهوى المقسم بين التوديع والاحتمال أو الارتحال، فإن التوديع يتضمن الإقامة القليلة، وهو عكس الارتحال. ونمضي معه إلى المديح فنراه كله على هذا الطراز.

يغشى الوغى وشهابُ الموتِ في يديه ... يرمي الفوارسَ والأبطال بالشعل
يفترُّ عند افترار الحرب مبتسما ... إذا تغيَّر وجه الفارسِ البطلِ
ينالُ بالرفق ما يعيا الرجال به ... كالموت مستعجلًا يأتي على مهلِ
لا يرحلُ الناسُ إلا نحو حجرتِه ... كالبيتِ يفضي إلى ملتقى السُّبلِ

وأنت تراه يعتمد على النحت وقوة البناء، كما يعتمد على الزخرف والتصنيع؛ حتى يصبغ هذا الديباج أو النسيج المتين بالألوان والأطياف.

ولعلك لاحظت في أثناء قراءة أبياته السالفة دقة تفكيره، وهي دقة كانت تفتح له أبوابًا من المعاني الخفية، التي تروِّع السامع بغرابتها وطرافتها من مثل قوله في الغزل:

إن كنت تسقين غير الراح فاسقيني ... كأسًا ألذُّ بها من فيكِ تشفيني
عيناك راحي، وريحاني حديثُك لي ... ولونُ خدَّيك لونُ الورد يكفيني

وقوله:

يـــا واشـــيًا حـــسنت فينـــا إســـاءته نجـــي حـــذارك إنـــساني مـــن الغـــرق

وقوله في الخمر:

شـــققنا لهـــا في الـــدَّنِّ عينًـــا فأســـبلت كألـــسنةِ الحيَّـــات خافـــت مـــن القتـــلِ

وقوله في الساقي:

يـــسقيك بالألحـــاظِ كـــأسَ صـــبابةٍ ويـــديرها مـــن كفِّـــه جِرْيـــالا

- ١١ -

الإمام الشافعي

أ - حياته وشعره:

ب - شخصيته:

يعد الشافعي من أنبغ أدباء اللغة وكتابها وشعرائها، فقد بدأ بعد ما ختم القرآن الكريم بحفظ الشعر وروايته وشافه العرب في البادية ويسمع منهم ويحفظ لغتهم، ويتدرب على أساليبهم حتى غدا أفصح أهل عصره، وقد بقي في قبيلة هذيل سبعة عشر عاماً راحلاً برحلتهم ونازلاً بنزولهم يتعلم أشعار العرب وآدابهم وأخبارهم في مكة، وقد كان يحضر مجالس الشافعي أهل العربية للإفادة من لغته وأسلوبه وبلاغته، وقد ربحته العربية أديباً مشهوراً وعالماً مجتهداً مدافعاً عن السنة النبوية عليماً بأسرارها خبيراً بدلالاتها وعللها بجزالة بيانه لإتقانه لكتاب الله تعالى حفظاً وتعمقاً، ولذلك كان حجة في اللغة والنحو يحتج بكلامه كما يحتج بالبطن من العرب الفصحاء، وقد شهد بذلك علماء اللغة والنحو كموسى بن أبي الجارود وأحمد بن حنبل وأيوب بن سويد وأبي عبيد ثعلب وعبد الملك بن هشام النحوي.

وقد جمع الشافعي بين موهبة الفطرة وملكة الاكتساب من تعلمه في قبيلة هذيل التي نبغ فيها أكثر من سبعين شاعراً، وقد كان يقصد إلى الشافعي لتلقي شعر الهذليين أو تصحيحه كما فعل الأصمعي. وقد كان الشافعي يقول أروي لثلاثمئة شاعر مجنون بالإضافة إلى ما صححه الأصمعي من شعر الشنفري، وقد كان الشافعي في أول أمره متفقهاً غلب عليه الاجتهاد الأدب والفقه، ولقد شهد للشافعي رضي الله عنه زعيم البيان الجاحظ.

لقد التقت في الشافعي الموهبة والاكتساب في مختلف علوم عصره، ولو شاء لكان من المجلين في شعره، ولكنه صرف مواهبه وعقله وقلبه إلى السنة والفقه والاجتهاد، ولذلك ترك شعراً جيداً ارتفع عن شعر الفقهاء ولم يبلغ مكانه شعر المجيدين من الفحول، وقد كان يجيش

صدره بقول الشعر بين الحين والحين إن دعته المناسبة وهزته لقول الشعر مع أنه لم يُرو عنه قصائد طويلة كالتي قالها المشهورون؛ لأنه لم يتخذ الشعر هواية أو غاية.

ج - موضوعات شعره:

تمليها مناسبة عابرة أو حكمة اجتماعية أو دينية أو تجربة حياتية مع الناس، لذلك نجد أكثر شعره يتمثل به.

ومن ذلك أنه يعلن حبه لآل البيت ولو اتّهم بأنه رافضي:

يا راكباً قف بالمحصد من فتى ... واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

وفي اشتياقه إلى وطنه غزة قائلاً:

وإني لمشتاق إلى أرض غزة ... وإن خانني بعد التفرق كتماني

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها ... كحلت به من شعره الشوق أجفاني

وقال في حشو الكلام وبلاغته:

لا خير في حشو الكلام ... إذا اهتديت إلى عيونه

والصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه

وعلى الفتى لطباعه ... سمة تلوح على جبينه

ومن تجاربه في الحياة:

صديق ليس ينفع يوم باس ... قريب من عدو في القياس

وما يبقى الصديق بكل عصر ... ولا الخوان إلا للتآسي

عمرت الدهر ملتمساً بجهدي ... أخا ثقة فألهاني التماسي

تنكرت البلاه علي حتى ... كأن أناسها ليسوا أناسي

أما ما يتمناه من الأصدقاء فهو:

أحـــب مـــن الإخـــوان كـــل مُـــوات وكـــل غـــضيض الطـــرف عـــن عثـــرات
يـــصاحبني في كـــل أمـــر أحبـــه ويحفظنـــي حيـــاً وبعـــد ممـــاتي
فمـــن لي بهـــذا ليـــت أني إني أصـــبته فقاســـمته مـــالي مـــع الحـــسنات

وطلب الشاعر عباس بن الأزرق الشافعي أن يجيزه في أبيات قالها متحدياً:

قال عباس بن الأزرق:

مـــا همتـــي إلا مقارعـــة العـــدا خلـــق الزمـــان وهمتـــي لم تخلـــق
والنـــاس أعيـــنهم إلى ســـليب الغنـــى لا يـــسألون عـــن الجحـــاد الأولـــق
لـــو كـــان بالحيـــل الغنـــى لوجـــدتني بنجـــوم أقطـــار الـــسماء تعلقـــي

فأجابه الشافعي:

إن الـــذي رزق اليـــسار فلـــم يـــصب أجـــراً ولا حمـــداً لَغـــيرُ موفـــق
فـــإذا ســـمعت بـــأن مجـــدوداً حـــوى عـــوداً فـــأثمر كـــل بـــاب مغلـــق
وإذا ســـمعت بـــأن مجـــدوداً أتـــى مـــاءً ليـــشربه فغـــاص فحقـــق
ومـــن الـــدليل عـــلى القـــضاء وكونـــه بـــؤس اللبيـــب وطيـــب عـــيش الأحمـــق
وأحمـــق خلـــق الله بـــالهم امـــرؤ ذو همـــة يـــبلى بعـــيش ضـــيق

وقد كتب الشافعي شعراً مبثوتاً في معاجم الأدباء وحلية الأولياء وتاريخ بغداد وطبقات الشافعية.

- ١٢ -

عبد الله بن المعتز
الخليفة الشاعر
والناقد

أ - حياته ونشأته:

ولد عبد الله بن المعتز سنة ٢٤٧هـ تبين أنه لم يعمَّر أكثر من تسع وأربعين سنة وارتقى الخلافة ليوم، اسمه عبد الله ويكنى أبا العباس وأبوه الخليفة المعتز بالله ابن الخليفة المتوكل ابن الخليفة المعتصم ابن الخليفة هارون الرشيد ابن الخليفة المهدي ابن الخليفة المنصور، أي أنه في حقيقة أمره ملك من نسل ستة ملوك عباسيين.

أما قصة توليه الملك ليوم وليلة فتتلخص في أن جماعة من القواد الذين كان لهم الحول والطول في مصير خلفاء بني العباس في تلك الحقبة الزمنية قد تآمروا على خلع الخليفة المقتدر، ووضعوا ابن المعتز مكانه وبايعوه بالخلافة وأطلقوا عليه لقب المرتضى بالله، وقيل: المنصف بالله وأياً ما كان لقبه فإن تسلّمه كرسي الخلافة لم يمتد لأكثر من يوم واحد؛ لأن القواد ما لبثوا أن اختلفوا على أنفسهم وأعادوا المقتدر الذي ظفر بابن المعتز وسلّمه إلى من قتله. وكان ذلك في الشهر الأول من عام ٢٦٩ هـ.

ولد سنة ٢٤٧ تبين أنه لم يعمر من تسع وأربعين سنة، وهو عمر قصير بالنسبة لشاعر عبقري لو كتب له فسحة في الأجل لتصورنا كم كان الشعر العربي يصيب ثماراً جنية طيبة.

وإذن فلقد كان ابن المعتز شاعراً متأثراً ببيئته الملكية، وكان عهد به إلى من يثقفه تثقيفاً واسعاً شأن أبناء الخلفاء جميعاً، فنقول ذلك أحمد بن صالح سعيد الدمشقي، الذي روى أدبه بعد مقتله، كما كان من أهم أساتذته أيضاً أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، وأبو العباس ثعلب، والحسن بن عليل العنزي المحدث آل عن الأديب، ومحمد بن هبيرة الأسدي صاحب الفراء، وأحمد بن صالح المعروف بابن أبي فنن.

وكان ابن المعتز متحمساً لعباسيته ضد أبناء عمه الطالبيين، الأمر الذي وضح في كثير من شعره، كما أن نشأته المترفة طبعت شعره بطابع الغنى وتصوير محتويات القصور، الأمر الذي ظهر جلياً في شعره وتشبيهاته، كما أغرم بالصيد والشراب فقدم لنا طرديات بارعة الإنشاء وخمريات رقيقة الخيال، فضلاً عن أن لمحات حزينة كثيرة احتلت أكثر من مكان في ديوانه ومهما كان الأمر وإذا كانت شهرة ابن المعتز في شعره قامت على التشبيهات والصور واللوحات التي تستوقف القارئ وتثير إعجابه، فإن جوانب الشعر الأخرى مثل الخمر والغزل والوصف والمدح والشكوى والتأمل والسياسة نامية عنده مستكملة أسباب النبوغ والنضوج، ابن المعتز أمير ثم خليفة، ينحدر من تسلسل ملكي يبدأ من أبيه المعتز بالله، وينتهي بالخليفة أبي جعفر المنصور، ثم يمتد نسبة إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ب - شخصيته:

يمثل عبد الله بن المعتز واحة أنيقة من واحات الشعر العربي وهو نسيج وحده فيما قدم لنا من صور شعرية بارعة أخاذة ومن تشبيهات مخملية أنيقة أو هي بلغة العصر، بحيث لم يسبقه إليها شاعر عربي ولم يلحق به بعده شاعر آخر، ومن ثم فهو يشكل مرحلة من مراحل تطور الشعر العربي مرحلة الصورة الشعرية.

وهو أيضاً واسع الثقافة عميق الفكرة كاتب مترسل رقيق العبارة أنيق التناول عميق المعنى بحيث يدخل في عداد الكتاب المرموقين، فقد عالج بعض الموضوعات بقلم متمكن ودبج بعض الرسائل بأسلوب وفطنة، كان معاصراً وصديقاً لأئمة الكتابة العربية في زمانه من بني وهب وبني ثوابة.

وابن المعتز عالم بأسرار اللغة خبير بفنون الشعر وصناعته، ذوَّاقة نقادة مطلع على تاريخ الأدب وطرائفه موهوب ملكة التعبير، مرتب الفكر صافي الذهن، ومن ثم فقد طرق باب التأليف وصنف للمكتبة العربية بضعة عشر كتاباً بعضها صادف نجاحاً وخلوداً؛ لأنها كانت رائدة في موضوعاتها وأهمها كتاب (طبقات الشعراء)) وكتاب ((البديع)).

شغل عبد الله بن المعتز كثيراً من الدارسين، وقد أجمعوا على الإعجاب به والإشادة بطرافة شعره، فابن خلكان يقول عنه: إنه كان أديباً بليغاً، شاعراً مطبوعاً، مقتدراً على الشعر، قريب المأخذ سهل اللفظ جيد القريحة مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً في جملتهم، ويصفه العباسي بقوله: ((إنه أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات)) ويقول عنه الحصري القيرواني: إنه من المنصب العالي من الشعر والنثر وفي النهاية في إشراق ديباجة البيان والغاية من رقة حاشية اللسان.

إنه فنان عالم يحسن وضع المصطلحات الفنية.. ومنهم أيضاً من يرى إن الشعر العربي وصل بابن المعتز إلى أرقى وأجمل ما وصل إليه من أرستقراطية وشرف وقد اشتقها من نفس صاحبه اشتقاقاً وانتزعها من كيانه من أرستقراطية وشرف، إنه مطبوع ليس متكلفاً ولا متعملاً في شعره.... وهو شغوف بفن الوصف عامة والمادي بصفة خاصة حتى تفوق فيه على سائر الشعراء، والمعجبون بابن المعتز كثيرون من قدامى ومحدثين.

ج - شعره:

١ - المدح:

أسهم ابن المعتز في فن المديح شأن غيره من جمهور شعراء العربية، والفارق بينه وبين غيره من الشعراء الذين توفَّروا على علاج هذا الفن تقليداً وليس احترافاً، وإنه لم يتكسب به ولم يكتد، وأنه لم يمدح إلا الخلفاء والوزراء الذين نستطيع أن نحصيهم وهم المعتمد والمكتفي والمعتضد من الخلفاء وعبيد الله بن سليمان بن وهب وابنه القاسم بن عبيد الله من الوزراء والكتاب، وربما يكون قد مدح بعض بني ثوابة، وكانت الأسرة التي إليها انتهت مقاليد الكتابة على زمانه، يضاف إلى ذلك كله أن ابن المعتز لم يتبذل ولم يتهالك في مدائحه إلا في حالات قليلة جداً، ولذلك كله فقد كان في هذا المجال بين أمرين: إما أن يقول في ممدوحيه شعراً تقليدياً ليس فيه جديد، وذلك هو الطابع العام الذي يشيع في مدائحه مثل مدح الخليفة وتهنئته بإبلاله من مرض:

أمير المؤمنين فدتك نفسي لقيت سلامة وربحت أجرا

أو رائيته في مدح الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب:

أيـا موصـل النعمـى عـلى كـل حالـة إلي قريبـاً كنـت أو نـازح الـدار

وإما أن يعمد إلى الإغراب ويقدح زناد فكره ليأتي بجديد حتى يتفرد بين شعراء المديح بما يميزه عنهم، وهذا الإغراب أو الجديد هو الذي يحاول تقديم أمثله له وهو يخفق ويأتي بالخشن الصعب حيناً، ويوفق ويأتي بالحسن الطريف حيناً آخر. فمن المحاولات التي عمد فيها إلى الإغراب الفكري وعدم الترفق بشاعريته قوله يمدح القاسم بن عبيد الله:

أيـا حاسـداً يكـوي التلهـف قلبـه إذا مـا رآه غازيـاً وسـط عـسكر
تـصفح بنـي الـدنيا فهـل فـيهم لـه نظـير تـرى ثـم اجتهـد وتفكـير
فـإن حـدثتك الـنفس أنـك مثلـه بنجـوى ضـلال بـين جنبيـك مـضمر
فجـد وأجـد رأيـاً وأقـدم عـلى العـدا وشـد عـن الإثـم المـآزر واصـبر
وعـاص شـياطين الـشباب وقـارع الـن وائـب وارفـع صرعـة الـضر واجـبر
فـإن لم تطـق ذا فاعـذر الـدهر واعـترف لأحكامـه واسـتغفر الله يغفـر

إن ابن المعتز أراد أن يأتي بصورة غريبة في المديح فشق على نفسه ولم يترفق بشاعريته وأتى بشيء غريب غير معجب.

ولكنه حين مدح عبيد الله بن سليمان والد القاسم وحاول الإبداع فإنه وُفِّق كل التوفيق حين استمد معنى المدح من طبيعة الممدوح وثقافته، وكان كاتباً ذا مكانة في فنه وأدبه فقال:

علـيم بأعقـاب الأمـور كأنـه بمختلـسات الظـن يـسمع أو يـرى
إذا أخـذ القرطـاس خلـت يمينـه تفـتح نـوراً أو تـنظَّم جـوهرا

وهي صورة بهيجة جمعت بين الوصف الجميل والمديح الرقيق، الأمر الذي عرف به ابن المعتز وصار سمة من سماته.

ومن المحاولات الناجحة لابن المعتز في مجال المديح محاولته التي مدح فيها المعتضد وعرج فيها على تهنئته بقصر ((الثريا)) الذي أبدع الفنانون في بنائه وتنسيقه وغرس بستان أنيق حوله

وشق أنهار صغيرة يجري الماء فيهـا عـذباً ولا زلـت فينـا باقيـاً واسـع العمـر

حللـــت الثريـــا خـــير دار ومنـــزل فـــلا زال معمـــوراً وبـــورك مـــن قـــصر

ولا يلبث ابن المعتز أن يلفت من موقف المديح التقليدي الكريـه عـلى نفـسه لـيخلص إلى وصف القصر الجديد، وفيه يتخلص من مأزقه ويبدع في الصور التي يأتي بها في هذا السبيل:

جنـــان وأشـــجار تلاقـــت غـــصونها فـــأورقن بـــالأثمار والـــورق الخـــضر

تـــرى الطـــير في أغـــصانهن هواتفـــا تنقـــل مـــن وكـــر لهـــن إلى وكـــر

هجـــرت ســـواها كـــل دار عرفتهـــا وحـــق لـــدار غـــير دارك بـــالهجر

وبنيـــان قـــصر قـــد علـــت شرفاتـــه كـــصف نـــساء قـــد تـــربعن في الأزر

وأنهـــار مـــاء كالـــسلاسل فجـــرت لترضـــع أولاد الريـــاحين والزهـــر

وميـدان وخـش تـركض الخيـل وسـطه فيؤخـذ منهـا مـا يـشاء عـلى قـدر

إذا مـــا رأت مـــاء الثريـــا ونبتـــه يـسير وثـوب الكلـب فـيهن والـصقر

عطايـــا إلـــه مـــنعم كـــان عالمـــا بأنـــك أوفى النـــاس فـــيهن بالـــشكر

٢ - شعره السياسي:

يعد ابن المعتز المدافع الحقيقي عن العباسـيين في وجـه الطـالبيين هـو شـاعرهم وأمـيرهم عبدالله بن المعتز، لقد كان ابن المعتز شاعر بني العباس الأول، المـدافع عـن حقهـم في الخلافـة المجادل في لين حيناً، وفي عنف حيناً آخر حجج الجناح الآخر من الأسرة الهاشمية وهو جنـاح الطالبيين.

يقول ابن المعتز في إحدى قصائده، موجهاً القول إلى الطالبيين، ذاكراً لهم جانباً من تاريخهم مع بني أمية، مبيناً أنهم لم يستطيعوا اسـترجاع الخلافـة مـنهم حتـى سـالت دمـاؤهم فـنهض العباسيون للآخذ بثأرهم، وهزموا بني أمية وقضوا على ملكهم وبالتالي أصبحت الخلافة حقـاً لهم.

أبـــى الله إلا مـــا تـــرون فـــما لكـــم عتـــاب عـــلى الأقـــدار يـــا آل طالـــب

تركنـــاكم حينـــاً فهـــلا أخـــذتم تـــراث النبـــي بالقنـــا والقواضـــب

زمـان بنـي حـرب ومـروان ممـسكو ... أعنّـة ملـك جـائر الحكـم غاصـب
ألا رب يـوم قـد كـسوكم عمائـما ... مـن الـضرب في الهامـات حمـر الـذوائب
فلـما أراقـوا بالـسيوف دمـاءكم ... أبينـا ولم نملـك حنـين الأقـارب
فحـين أخـذتم ثـأركم مـن عـدوكم ... قعـدتم لنـا تـورون نـار الحباحـب
وحزنـا التـي أعيـتكم قـد علمـتم ... فـما ذنبنـا؟ هـل قاتـل مثـل سـالب؟
عطيـة ملـك قـد حبانـا بفـضله ... وقـدرة رب جزيـل المواهـب
ولـيس يريـد النـاس أن تملكـوهم ... فـلا تثبـوا فـيهم وثـوب الجنـادب

ويقول ابن المعتز زاعماً أن بني العباس وهو عم النبي أولى بإرثه من بني بنته، وقد غاب عنه أن الأنبياء لا يورثون وأن الخلافة نفسها لا تورث، لا إلى هـؤلاء ولا إلى أولئـك، ولكـن ابـن المعتز محامي العباسيين والناطق بلسانهم يردد هذه الحجج وغيرها قائلاً:

قتلنـا أميـة في دارهـا ... ونحـن أحـق بأسـلابها
وكـم عـصبة قـد سـقت مـنكم ... الخلافـة صـاباً بأكوابهـا
إذا مـا دنوتـم تلقتكـم ... زبونـاً وقـرت بحلابهـا
ولمـا أبـى الله أن تملكـوا ... نهـضنا إليهـا وقمنـا بهـا
ومـا رد حجابهـا وافـدا ... لنـا إذ وقفنـا بأبوابهـا
كقطـب الرحـى وافقـت أختهـا ... دعونـا بهـا وغلبنـا بهـا
ونحـن ورثنـا ثيـاب النبـي ... فكـم تجـذبون بأهـدابها؟
لكـم رحـم يـا بنـي بنتـه ... ولكـنْ بنـو العـم أولى بهـا

إلى أن يقول:

فمهـلاً بنـي عمنـا إنهـا ... عطيـة رب حبانـا بهـا
وكانـت تزلـزل في العـالمين ... فـشدت إلينـا بأطنابهـا
وأقـسم أنكـم تعلمـون ... بأنـا لهـا خـير أربابهـا

ويستبد الحماس بابن المعتز لبني قومه فيخرجه حماسه عن الجادة حين يتورط تورطاً غير كريم في إجراء مقارنة بين أبي طالب والعباس عمي الرسول، ويلمح إلى أن أبا طالب في النار والعباس في الجنة، وأعطى لنفسه ما ليس من حقه، فالله وحده يعلم أين الرجل العظيم الذي كفل محمداً اليتيم من بعد جده ورعاه شاباً وحمى رسالته نبياً والمنسوب إليه قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد ... هو خير أديان البرية دينا

ولكنها السياسة وجاه الملك والحرص عليه تدفع بعض الناس إلى التهاون في حقوق العظماء والتعريض بهم من حيث يستحقون الإجلال والإعظام.

إن ابن المعتز يستغل هذه الثغرة، ثم يندفع في توجيه تهديدات وتحذيرات دامية إلى بني عمه الطالبيين إذا هم استمروا في السعي إلى اقتناص الخلافة قائلا:

يا بني عمي إلى كم وحتى ... ليس ما تطلبونه يستقيم

أأبو طالب كمثل أبي الفضل ... أما منكم بهذا عليم؟

سائلوا مالكا ورضوان عن ذا ... أين هذا؟ وأين هذا مقيم

وعلي فكابنه غير شك ... واجب حقه علينا عظيم

فدعوا الملك نحن بالملك أولى ... قد أقرت لنا بذاك الخصوم

٣ - غزله:

كلف ابن المعتز بالغزل، وبالغ في صوره التي رسمها مبالغة واضحة سواء أكان غزلا وصفيا أو غزل شكوى، ومتطلبات الغزل من مكابدة ولوعة وصبابة لا تكاد تقتنع بصدق ابن المعتز فيها وبالتالي فنحن لا نستطيع أن ننظمه في سلك العاشقين، ولكنه غزل المترفين الذين ينتقلون بين قلوب الغانيات يصورون مشاعر طارئة أو مغامرات متكررة، وإذا كنا لا نلمس صدقا في غزل ابن المعتز فإننا لا نعدم فيه مواطن لطف تناول وحسن تعليل ودقة تصوير، فمن غزله الذي يمكن إن ينال إعجابا عابرا قوله.

يا من يسارقني النظر ... وإذا نظرت إليه فر

ما لي أرى لحظات عينك ... عندنا لا تستقر

إن كنـــــت تبخـــــل بـــــالكلام فـــــلا أقـــــل مـــــن النظـــــر

جـــــسمي يقـــــول بـــــسقمه عنـــــدي مـــــن الحـــــب الخـــــبر

ويصور ابن المعتز الغيرة التي هي دليل الحب وخدينه بشيء من الغلو والتطرف ولكن في معنى رقيق في قوله:

أغـــار عليـــه مـــن ألحـــاظ قلبـــي إذا مـــا صـــورته أفكـــار فكـــري

فكيـــف تـــرى أكـــون إذا رأتـــه عيـــون النـــاس في أضـــحى وفطـــر

وكان لابن المعتز محبوبة يردد اسمها كثيرا في شعره تارة باسم شرة وأخرى باسم شرير وكان متعلقا بها أشد التعلق، وهو يذكرها في نطاق من الطرافة وأسلوب المداعبة حين يقول:

يـــا وجـــه شرة يـــا أخـــا البـــدر أرضـــيت بـــالأعراض والهجـــر

وتركتنـــي وحججـــت معتمـــرا طـــوبى لـــركن البيـــت والحجـــر

ويرق ابن المعتز ويطرف حين يتعلل لشبيه بالأعذار فيقول:

صـــدت شريـــر وأزمعـــت هجـــري وصـــغت ضـــمائرها إلى الغـــدر

قالـــت: كـــبرت وشـــبت، قلـــت لهـــا هـــذا غبـــار وقـــائع الـــدهر

ويعبرابن المعتز بصورة جديدة فريدة عن الليل حين يقول:

تـــرى الـــشمس قـــد مـــسخت كوكبـــا وقـــد طلعـــت في عـــداد النجـــوم

ويعمد ابن المعتز أحيانا إلى مزج الغزل بالشكوى فيصيب رقة في القول خفيفة على السمع حين يقول:

لمتنـــي يـــا مـــسيء والـــذنب ذنبـــك ويـــح نفـــسي حـــسبك الله ربـــك

لا تحـــاول بحـــبس كتبـــك قـــتلي قـــد تـــولى الفـــراق قـــتلى فحـــسبك

وإذا ما ذكر ابن المعتز صاحبته ((شرة)) رق شعره وعذب أسلوبه وقربت معانيه إلى الخاطر وكأنها صادرة عفوه، فلنقرأ له هذه الأبيات الرقيقة:

عبـــق الكـــلام بمـــسكة نفحـــت مـــن فيـــه تـــرضي مـــن يعاتبـــه

نبهتـــه والحـــي قـــد رقـــدوا مـــستبطنا عـــضبا مـــضاربه

فكـــأني روعـــت ظبـــي نفـــا في عينـــه ســـنة تغالبـــه

ومن معاني الحب المتسمة بالعزة والإباء عند ابن المعتز مع تلاعب جميل بالألفاظ قوله:

إن عينـــي قـــادت فـــؤادي إليهـــا عبـــد شـــوق لا عبـــد رق لـــديها

فهـــو بـــين الفـــراق والهجـــر موقـــوف بحـــزن فيهـــا وحـــزن عليهـــا

إن غزل ابن المعتز صورة دقيقة لشخصيته رقة وشاعرية مع تهتك سافر حينا مقنعا حينا آخر، وهو في كل أحواله معجب مطرب صوغا وصورة، سطحي متصنع في عواطفه وصبابته،

٤ - الحكمة والتشاؤم:

لم تمنع حياة الترف شاعرنا أسباب الحكمة إذا ما عمد إلى التفكير، وليس ببعيد على مقدرته القول الحكيم المزود برصين الفكر الصافي وأبعاد الإحساس الواقعي العميق في فترة صحو أو ساعة تدبر، إذ لم تكن حياة شاعرنا سوءا كلها.

يقول ابن المعتز في فلسفة الأيام وصنوف البشر وحكمة الخالق:

طـــال لـــيلي وســـاورتني الهمـــوم وكـــأني لكـــل نجـــم غـــريم

ســـاهرا هـــاجرا لنـــومي حتـــى لاح تحـــت الظـــلام فجـــر ســـقيم

دام كـــر النهـــار والليـــل محثـــو ثـــين ذا منبـــه وهـــذا منـــيم

ورحـــى تحتنـــا وأخـــرى علينـــا كـــل مـــرء فيهـــا طحـــين هـــشيم

وسرور وكربـــــة وافتقـــــار وبريـــــق كزخـــــوف لا يـــــدوم

ومعـــــافى وذو ســـــقام وحـــــي وحبـــيس تحـــت الـــتراب مقـــيم

وغـــوي عـــاص وبـــر تقـــي واســـتبان المحمـــود والمـــذموم

وبخيـــل وذو ســـخاء ولـــولا بخـــل هـــذا مـــا قيـــل هـــذا كـــريم

وتـــرى صـــنعه تخـــبر عـــن خـــا لقنـــا إنـــه لطيـــف حكـــيم

إنها نظرات فاحصة عميقة متدبرة تنفحص في عمق طبائع الناس وتستعرض في ثقة أخلاقهم وسلوكهم ثم تنتهي هذه النظرات المجرية بالوصول إلى الخالق الحكيم

وتمر بشاعرنا فترات ضيق كتلك التي يتعرض لها كل إنسان في هذه الحياة فلا يأبه لحسبه ولا يهتم لأدبه ولا يلتفت إلى عبقريته وإنما يتمنى أن يكون واحدا من الخاملين في ظل الأمان، أو صاحب حظ في ظل الجهل، فيعبر عن ذلك أدق تعبير بقوله

من يشتري حسبي بأمن خمول ... من يشتري أدبي بحظ جهول

ساء الزمان وأوجعتك صروفه ... وعسى الزمان يسر بعد قليل

وابن المعتز يؤمن بقضاء الله وقدره، وهو متشائم في بعض الأحيان استجابة لمشاعر مقبضة كسيفة تلمُّ به، فيعبر عن ذات نفسه في صدق وعمق وتسليم:

مسهد في ظلام الليل أواه ... عضته للدهر أنياب وأفواه

إن كان يخطئ سمعي ما أقدره ... فليس يخطئ ما قد قدر الله

ويشكو ابن المعتز من الدهر والمشيب ونهاية الحياة وفقد الأحباب وسكناهم بطن الأرض فيقول:

آخى عليك الدهر مقتدرا ... والدهر ألأم غالب ظفرا

ما زلت تلقي كل حادثة ... حتى حناك وبيض الشعرا

لله إخوان فقدتهم ... سكنوا بطون الأرض والحفرا

أين السبيل إلى لقائهم ... أم من يحدث عنهمُ خبرا

ويشغل التفكير في الموت شاعرية ابن المعتز فيترجم عن مشاعره نازعاً إلى المتاب معترفاً بالذنب طامعاً في العفو فيقول:

إلى أي حين كنت في صبوة اللاهي ... أما لك في شيء وعظت به ناه

ويا مذنباً يرجو من الله عفوه ... أترضى بسبق المتقين إلى الله

ويفكر ابن المعتز في الموت تفكيراً طويلاً وتسيطر على تفكيره وتستبد به فكرة التوبة، فيذكر سكان القبور واستحالة تزاورهم على قرب المحلة والدار، اعتباراً بالموت وتذكيراً بالآخرة:

وسكان دار لا تزاور بينهم ... على قرب بعض في المحلة من بعض
كأن خواتياً من الطين فوقهم ... فليس لها حتى القيامة من فض

٥ - فخره:

تنزع النفس إلى الفخر بما تراه مآثر انفردت بها دون غيرها، أو محامد اتصفت لها في مجتمعها أو صفات خاصة استأثرت بها ورأت فيها فضلاً وامتيازاً.

ويفخر ابن المعتز بفروسية وبطولة في الحرب لغلبة تصورها في حلم يقظة مع أنه لم يعرف أنه خاض حرباً أو شارك في معركة، يقول ابن المعتز مفتخراً:

ولي صارم فيه المنايا كوامن ... فما ينتضى إلا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرن دكانه ... بقية غيم رق دون سماء

ويقول مفتخراً:

وليل ككحل العين خضت ظلامه ... بأزرق لماع وأبيض صارم
ومضبورة الأعضاء حرف كأنها ... تصافح رضراض الحصى بمناسم

وفي مجال الفخر بالكرم والعفة يطرق ابن المعتز هذا المعنى:

وما زلت مذ شدت يدي عقد مئزري ... غناي لغيري وافتقاري على نفسي
ودل علي الحمد مجدي وعفتي ... كما دل إشراق الصباح على الشمس

وابن المعتز هاشمي عباسي أمير من بيت الملك، فلا عليه إذا ما تمثل نفسه ضمن واقعة وأنشد أبياتاً طويلة يتيه فيها بالنعمى، ويدل من خلالها بالغنى والعزة، يطلق لنفسه عنان الفخر المتطرف بفروسيته التي جعلت منه وحده جيشاً جراراً إذا تحرك وقد امتطى جواداً كميتاً:

هاشمي إذا نسيت ومخصوص ... ببيت من هاشم غير عار

أخـــزن الغـــيظ في قلـــوب الأعـــادي وأحـــــل الجبـــــار دار الـــــصغار

ولي الـــصافنات تـــــردي إلى المـــوت ولا تهتـــــدي ســـــبيل الفـــــرار

وســـيوف كأنهـــا حـــين هـــزت ورق هزهـــــا ســـــقوط القطـــــار

أنـــا جـــيش إذا غـــدوت وحيـــدا ووحيـــــد في الجحفـــــل الجـــــرار

٦ - الصيد والطرد عنده:

كان ابن المعتز واحداً من الذين اغرموا بالـصيد، ينـشئ طرديـات محبوكـة الـسبك جيـدة الصنع مليئة بالصور والحركات والمعاني والتشبيهات، إن شعر الطرد يعتـبر مـن أدق أسـاليب الوصف في الشعر العربي، فيه حركة وتلوين وإجمال وتخصيص وكر وفر، والطبيعـة في نطـاق الليل والفخر والنور والسماء والنجوم تدخل بدورها طرفاً فيه، هذا فضلاً عن وصـف الخيـل والكلاب والفهود والصقور والبزاة والطرائد من ظباء ومها ووحـوش، وهـا هـو ابـن المعتـز يقدم لنا واحدة من أجمل طردياته يصف فيها خيول الـصيد وكلابـه وصـفاً دقيقـاً قـديراً كـما يصف مطاردتها للظباء الرتع في المراعي وشكل المطاردة في ميدان المعركـة بـين كلـب الـصيد وضحاياه، عامداً إلى رسم الصور وخلق التشبيهات العديدة التي انفرد بها وفـرة وإتقانـاً دون غيره من شعراء عصره، يقول ابن المعتز مبتدئاً بوصف الفجر والخيل:

لمـــا تعـــرى الأفـــق بالـــضياء مثـــل ابتـــسام الـــشفة اللميـــاء

وشـــمطت ذوائـــب الظلـــماء وهـــم نجـــم الليـــل بالإعفـــاء

قـــدنا بعـــين الـــوحش والظبـــاء داهيـــة محـــذورة اللقـــاء

شـــائلة كـــالعقرب الـــسمراء مرهفـــة مطلقـــة الأحـــشاء

كمـــدة مـــن قلـــم ســـوداء أو هدبـــة مـــن طـــرف الـــرداء

تحملهـــا أجنحـــة الهـــواء تـــستلب الخطـــو بـــلا إبطـــاء

ثم يصف كلب الصيد وصفاً دقيقاً وكأنما يرسم له صورة ملونة قائلاً:

ومخطـــف موثـــق الأعـــضاء خالفهـــا بجلـــده بيـــضاء

كأثر الشهاب في السماء ويعرف الزجر من الدعاء
بإذن ساقطة الإرجاء كوردة السوسنة الشهلاء
ذا برثن كمثقف الحذاء ومقلة قليلة الأقذاء
صافية كقطرة من ماء تنساب بين أكم الصحراء
مثل انسياب حية رقطاء آنس بين السفح والفضاء

ويستطرد الشاعر واصفاً الظباء وبيئتها:

سرب ظباء رتع الأطلاء في عازب منور خلاء
أحوى كبطن الحية الخضراء فيه كنقش الحية الرقشاء
كأنها ضفائر الشمطاء يصطاد قبل الأين والعناء
خمسين لا تنقص في الإحصاء وباعنا اللحوم بالدماء
يا ناصر اليأس على الرجاء رميت بالأرض على السماء
ولم تصب شيئاً إلى الهواء فحسبنا من كثير العناء

هناك هذا الرمي يا ابن الماء

د - صنعة عبد الله بن المعتز:

في شعر ابن المعتز رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين، وفيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصُر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك،لقد كان شاعرًا محسنًا أميرًا مترفًا، لم يُتِحْ له ترفه أن يتعمق الثقافة والفلسفة، وهو كذلك لم يتعمق وسائل التصنيع الحديثة، فإنه لم يعرف العمق في شيء؛ إنما عرف اللهو والنعيم، وعبر عن ذلك أجمل تعبير بقوله:

شربنا بالكبيرِ وبالصغيرِ ولم نحفِل بأحداث الدهورِ
لقد ركضتْ بنا خيلُ الملاهي وقد طِرنا بأجنحة السرورِ

وابن المعتز كان من ذوق المصنِّعين، فالتصنيع والزخرف أساسيان في حياته، وهما كذلك أساسيان في فنه. بدت فيه منذ نشأته نزعة إلى الغناء والموسيقا ضاعفت حسَّه بالجمال كما ضاعفها ترفه ونعيمه، فالترف يتيح ضربًا معقدًا من التصنيع في شؤون الحياة والحق أن التصنيع كان مادة أصلية في حياته، وسرى منها إلى فنه؛ فهو يعيش في شعره كما يعيش في حياته معيشة تعتمد على التأنق والتنميق.

كان ابن المعتز شاعرًا مصنعًا من أصحاب مذهب التصنيع، وكان يعجب بهذا المذهب إعجابًا شديدًا دعاه إلى أن يكتب في أدواته وزخرفة كتابه "البديع" وهو يشهد له بأنه كان فنانًا عالِمًا يحسن وضع المصطلحات الفنية، لم يتعمق في فهم جوانب التصنيع والزخرفة، فهِمَ الزخرف الحسي: زخرف الجناس والطباق والتصوير والمشاكلة، ولكنه لم يفهم الزخرف العقلي، ولذلك لم يسقط في كتابه أي تعريف بلون من ألوانه سوى ما سماه بالمذهب الكلامي. فهو الذي انحاز بالبديع العربي إلى الزخرف المادي، وجعله لا يهتم اهتمامًا واسعًا بالزخرف العقلي أو المعنوي.

وكان ابنُ المعتز يُعنى بزخرف التصوير في شعره عناية شديدة، ولكن أي تصوير؟ إنه ليس هذا التصوير الفلسفي الذي يمزج بنوافر الأضداد، وهو أيضًا ليس التصوير الحسي الذي يحلله أبو تمام إلى أصباغه التي تحدثنا عنها من تجسيم وتدبيج وتشخيص؛ إنما هو تصوير من نوع آخر لا يحتاج تأملًا عميقًا، أو هو بعبارة أدق صبغ آخر من أصباغ التصوير؛ ولكنه ليس صبغًا معقدًا ولا مركبًا، ونقصد: صبغ التشبيه، فقد شغف به شغفًا شديدًا كاد لا يبقى فيه بقية لزخرف آخر من زخارف المدرسة.

وكان لذلك الزخرف عنده طرافة خاصة، فإنه استطاع أن يحول هذا الصبغ المحدود إلى صبغ له طاقة واسعة، بل لقد خرج عن نطاقه القديم وأصبح صبغًا مستقلًا له أوضاعه التي لا تحصى، وفي هذا الوعاء من أوعية التصوير يظهر تصنيعه ويظهر أيضًا تفوقه على شعراء عصره؛ فقد اختص بصبغ واحد من أصباغ لون واحد من ألوان التصنيع، ولكن عرف كيف يحوله إلى صبغ واسع، ويستخرج منه ما لا يحصى من صور وأوضاع. وكان النقاد القدماء يعرفون له هذا الجانب. يقول ابن رشيق: "إن ابن المعتز يغلب عليه التشبيه"، ويقول

صاحب معاهد التنصيص: "هو أشعر الناس في الأوصاف والتشبيهات"، وامتلأت كتب النقد والبلاغة بأوصافه، وأشاد به عبد القاهر الجرجاني في غير موضع من كتاباته.

وطبيعي أن يعدل ابن المعتز بتصنيعه إلى التشبيه؛ لأنه لا يحتاج بعدًا في الخيال ولا عمقًا في التصوير، وكأني به قال: دَعْني أبدِّل قيثارتي بلوحة الألوان، ولكنه حين انتقل هذه النقلة لم يحسن استخدام جميع الألوان التي تركها أبو تمام، بل لم يحسن استخدام لون التصوير نفسه؛ فقد انحاز إلى صبغ واحد من أصباغه وهو صبغ التشبيه، وترك الأصباغ الأخرى من تدبيج وتجسيم وتشخيص؛ غير أن من الحق أن نحمد لابن المعتز صنيعه بهذا الصبغ، فقد حوَّله إلى صبغ واسع وراح يستخرج منه أوضاعًا لا تحصى يزيِّن بها شعره ويجمله، وهنا يأتي تصنيعه، فصبغ التشبيه أصبح عنده صبغًا ثريًّا بأوضاعه المتضاربة.

وليس من شك في أن هذه مقدرة ممتازة، تلك التي استطاع بها ابن المعتز أن يحول صبغ التشبيه إلى ما يشبه اللون الأخضر مثلًا في الطبيعة؛ فإذا هو على ضروب وأوضاع مختلفة، وإذا لكل ضرب ووضع روعة فاتنة. وإنها لمهارة تلك التي يستطيع صاحبها أن يؤلف لوحة من لون واحد، فإذا هو زاهٍ أو باهت في بعض الجوانب، وإذ هو يتراوح بين هذين الصبغين إلى ما لا يحصى من أصباغ في الجوانب الأخرى. وحقًا إن ابن المعتز أظهر مهارة واسعة في هذا الصبغ من أصباغ التصوير؛ إذ عرف كيف يحول صبغًا محدودًا إلى صبغ واسع، ثم أخذ يستخرج منه أوضاعًا مختلفة، حتى لا يحس قارئه بتكرار في المنظر؛ فهو لون واحد، بل هو صبغ واحد، ولكن الشاعر المصنِّع بارع؛ إذ يجعلنا نخطئ في الحس والتقدير، ونظن أننا نرى لونًا واسعًا له أوضاعه الكثيرة التي تنقلنا من عالمنا الحسي إلى عالم خيالي واهم. واقرأ هذه الأبيات إذ يقول في النرجس:

كأن أحداقَهَا في حسنِ صورتِهَا ... مداهنُ التبرِ في أوراقِ كافورِ

أو يقول فيه:

كأن عيونَ النرجسِ الغضِّ حولها ... مداهنُ درٍّ حشوهن عقيقُ

أو يقول في النارنج:

وأشـــجارُ نـــارنج كـــأن ثمارَهَـــا حقـــاقُ عقيـــقٍ قـــد مُلـــئن مـــن الـــدرِّ

أو يقول في الآذريون:

كـــــــــأنَّ آذريونهـــــــــا والـــــــشمسُ فيـــــــه كاليـــــــه

مـــــــداهنٌ مـــــــن ذهـــــــبٍ فيهـــــــا بقايـــــــا غاليـــــــه

أو يقول في الهلال:

انظـــرْ إليـــه كـــزورقٍ مـــن فـــضَّة قـــد أثقلتـــه حمولـــةٌ مـــن عنـــبرِ

ويقول فيه:

انظـــرْ إلى حـــسنِ هـــلالٍ بـــدا يهتـــكُ مـــن أنـــوارِه الحِندِســـا

كمنجـــلٍ قـــد صـــيغَ مـــن فـــضةٍ يحـــصدُ مـــن زهـــر الـــدجى نرجِـــسا

أو يقول في قمر مشرق نصفه: "كأنه مجرفة العطر"؛ فقد استطاع ابن المعتز بهذه الأوضاع من التشبيه ونظائرها أن يطوف بنا في قصور من الوهم والخيال تحكي قصور ألف ليلة وليلة. وفي هذه القصور الخيالية يعيش من يقرأ في ديوان ابن المعتز؛ فإذا هو يرى مداهن من تبر، كما يرى كثيرًا من أواني الذهب والفضة المرصَّعة بأنواع الجواهر واللآلئ. إن التشبيه صبغ واحد، ولكن ابن المعتز عرف كيف يحلِّله وكيف يستخرج منه أوضاعًا لا تحصى.

وهذا هو سبب ما نزعمه من أنه شاعر مصنِّع؛ بل هو شاعر يعقد في التصنيع، فقد أخذ صبغًا واحدًا من أصباغه وذهب يعقده ويستنبط منه ما لا يحصى من أوضاع رائعة، وهل هناك أروع من هذا الهلال الذي يشبه منجلًا من فضة؟

وذهب ابن المعتز يكثر من أوضاع هذه الصور والتشبيهات في شعره، ويفرط فيها إفراطًا شديدًا، حتى لتظهر في قصائده على هيئة صفوف متلاحقة؛ ففي كل جانب منها صورة أو تشبيه، وهي صور وتشبيهات ما يزال ابن المعتز يحاول أن يحدث بها طرافة في شعره؛ فهي كل ما يقدمه للفن من زينة وجمال. لم يضع ابن المعتز همَّه في إحداث تنويع واسع في زخرف شعره؛ فقد رفض الزخرف العقلي أو بعبارة أدق لم يستطع أن يستخدمه، وهو كذلك لم يستطع أن

يستخدم جميع أوعية الزخرف الحسي؛ فقد انحاز إلى التشبيه، وذهب يطرز به قصائده، ويوشي به أبياته. وأظهر في براعة لم تُتَحْ لشاعر من قبله، وهل هناك أبرع من هذا التشبيه؛ إذ يقول:

ريـــمٌ يتيـــهُ بحـــسنِ صـــورتِهِ عبـــثَ الفـــؤادِ بلحـــظ مقلتِـــهِ

وكـــأنَّ عقـــرب صُـــدغه وقفـــت لمـــا دنـــت مـــن نـــارِ وجنتـــهِ

فهذه صورة رائعة روعة شديدة لما أشاعه فيها جمال وبعث من نار، هي نار الوجنات أو هي نار الفن، وما أشبهها بهذه القطع من الشمس التي كان يلقيها الساقي في أقداح جماعته؛ إذ يقول:

وكـــأن كفيـــه تقـــسم في أقـــداحنا قطعًـــا مـــن الـــشمسِ

كان ابن المعتز بارعًا في صنع الصور والتشبيهات، وهي براعة نرى آثارها في كل مكان من ديوانه، ومن الصعب أن نجمعها في حيز محدود في صحيفة أو صحف، ومع ذلك فمن المحقق أنه كلما جمع ناقد منها طائفة خرجت إليه أصباغ تحكي أصباغ الطيف أصباغ للون واحد؛ ولكنه لون معقد يعقده ابن المعتز، ويستخرج منه أوضاعًا متضاربة يشيع فيها النور والجمال والحياة، وانظر إلى قوله:

وزوبعـــةٍ مـــن بنـــاتِ الريـــاحِ تريـــك عـــلى الأرض شـــيئًا عجـــب

تـــضمُّ الطريـــد إلى نحرهـــا كـــضمّ المحبـــة مـــن لا يحـــبّ

أرأيت إلى هذه الصورة؟ إنها صورة خيالية رائعة لابد لها من خيال فنان حتى يعرضها على أنظارنا؛ فإذا هذا العناق الغريب. وانظر إلى قوله:

ودنـــا إليَّ الفرقـــدان كـــما دنـــت زرقـــاءُ تنظـــر في نقـــابٍ أســـود

فإنك ترى ابن المعتز يعرف كيف يطرف قارئه بالصور الغريبة وإنها لصور نادرة. هي ليست صورًا جامدة من تلك التي تواضع عليها الشعراء وأصبحت متحجرة في اللغة، إذا فقدت نضرتها وبهجتها؛ بل هي حية ناضرة وكأنما نقشت رسومها بالأمس، نقشها شاعر كان صبًّا ببعث الحياة والحركة في صوره حتى ليحس من يقرأ في ديوانه كأنه يعيش في دار من دور الصور المتحركة، فما يزال يرى مناظر وأشكالًا من شخوص ووجوه. وهي وجوه مستعارة،

ولكنها تعبر عن روعة الفن بأجمل مما تعبر عنه الوجوه الحقيقية. وانظر إلى صورة الليل وهذا الوجه الحبشي.

قد أغتدي والليلُ في إهابه كالحبشي مالَ عن أصحابِهِ
والصبحُ قد كشَّف عن أنيابِهِ كأنه يضحك من ذهابِه

فإنك ما تلبث أن تستغرق في الضحك من هذا الحبشي أو هذا الوجه المستعار؛ بل إنه لوجه حقيقي يعبر عن حقيقة مظلمة وراءه، ولكن سرعان ما يخلفه وجه آخر ضاحك، وهو وجه الصباح الجميل.

وعلى هذا النمط ما نزال نرى في شعر ابن المعتز صورًا متحركة قد أعطاها أوضاعًا تؤكد حقيقتها وتجعلنا كأننا نلمسها ونشاهدها، وهل هناك صورة تثبت في الذهن كهذه الصورة التي أخرج فيها الصبح بعد المشتري:

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريانُ يمشي في الدجى بسراج

إنها صورة عارية، وقد يؤذينا هذا العري؛ ولكنا لا نرتاب في أنه يثبت الصورة في عقولنا، ومن ينسى هذا الصبح الذي ذكره ابن المعتز؟ من ينسى هذا العريان وسراجه الذي كان يحمله في الدجى فيكشف عن نيته ويفصح عن عزيمته؟ وانظر إليه يعود إلى تصوير الصبح فيقول:

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نُطير غرابًا ذا قوادم جونِ

وكذلك صور اختلاط الظلام بالضياء قائلاً:

وكابدنا السُّرى حتى رأينا غراب الليل مقصوصَ الجناحِ

فأنت تراه يجنح في هذا البيت إلى التفصيل في صورة الغراب بأكثر مما صنع في البيت السابق؛ إذ عبر عن القِصَر الذي يصيب أطراف الليل بهذا القصِّ الغريب لجناح الغراب، وكل ذلك ليضبط الصورة ضبطًا دقيقًا. إن ابن المعتز كان يحسن استخدام صبغ التشبيه إحسانًا شديدًا؛ فإذا هو يستخرج منه تلك الصور والأوضاع الكثيرة، وانظر إليه يصف الرياض في منظومته "ذم الصّبوح"؛ إذ يقول:

ألا ترى البستان كيف نوَّرا ونشر المنثورَ زهرًا أصفرا

وضـــحك الـــوردُ إلى الـــشقائق ... واعتنـــق القطـــرَ اعتنـــاقَ وامـــق

في روضـــة كحلـــل العـــروس ... وخـــرَّم كهامـــة الطـــاوس

وياســـمين في ذرا الأغـــصان ... منـــتظم كقطـــع العِقْيَـــانِ

والـــسَّرو مثـــل قـــضب الزبرجـــدِ ... قـــد اســـتمد العـــيش مـــن تـــرب نـــد

عـــلى ريـــاض وثـــرى ثـــري ... وجـــدول كـــالمبردِ المجـــلي

وأخـــرج الخـــشخاش جيبًـــا وفتـــقْ ... كأنـــه مـــصاحفٌ بـــيضُ الـــورق

أو مثـــل أقـــداحٍ مـــن البلـــور ... تخالهـــا تجـــسَّمت مـــن نـــور

وبعـــضها عُريـــانُ مـــن أثوابـــه ... قـــد خجـــل البـــائس مـــن أصـــحابِه

تبـــصِرُه بعـــد انتـــشار الـــوردِ ... مثـــل الـــدبابيس بأيـــدي الجُنـــدِ

والـــسوسنُ الأبـــيضُ منـــشور الحلـــل ... كقطـــنٍ قـــد مـــسه بعـــض البلـــل

وقـــد بـــدت منـــه ثـــمار الكَنْكَـــرِ ... كأنـــه جمـــاجمٌ مـــن عنـــبرِ

وحلـــق البهـــارِ بـــين الآسِ ... جمجمـــةٌ كهامـــةِ الـــشَّمَّاس

وجلَّنـــارٌ كـــاحمرارِ الخـــدِّ ... أو مثـــل أعـــرافِ ديـــوكِ الهنـــدِ

- ١٢ -

كلثوم بن عمرو العتابي

- ٢٢٠ هـ

أ - حياته ونشأته:

كلثوم بن عمرو و التعابي من أهل قنسرين غير بعيد من حلب، وهو من ولد عمرو بن كلثوم الشاعر الفارس صاحب المعلقة وسيد تغلب في الجاهلية، وليس ببعيد أن يكون العتابي قد ورث ملكة الشعر من بني قومه، ذلك أن حبل الشعر فيهم ظل موصولاً لأزمنة متتابعة، فمن شعراء تغلب في الإسلام كعب وعميرة ابنا جعيل، والأخطل والقطامي وتميم بن جميل ثم بنو حمدان - وكانوا جميعاً شعراء - وعلى رأسهم الشاعر الأمير الحارث بن أبي العلاء المعروف بأبي فراس. وقد كان العتابي يعتز بنسبه هذا الذي ينتهي به إلى عمرو بن كلثوم، وإن كان يذكر ذلك في إطار من الشعور بالحسرة للفارق الشديد بينه وبين جده الأعلى يتجلى ذلك في قوله:

إني امرؤ هدم الإقتار مأثرتي ... واجتاح ما بنت الأيام من خطري

أيام عمرو بن كلثوم يسوده ... حيّا ربيعة والأفناء من مضر

أرومة عطّلتني من مكارمها ... كالقوس عطّلها الرامي من الوتر

ب - شخصيته:

إن كلثوم بن عمرو المعروف بالعتابي يمثل قمة من قمم الشعر والكتابة وهو واحد من البلغاء القلائل،

والعتابي شخصية فريدة ليس فقط بين شعراء المرحلة العباسية، بل ربما كانت هذه الصفة تلازمه وتقتصر عليه بين شعراء العربية أجمعين.

فالعتابي سعى إلى كل ألوان الثقافة وسارع إلى كل فنون المعرفة فاغترف من معينها الصافي ونهل من بحرها الدافق، ومن ثم فقد عد بلاغياً بارزاً بين البلغاء، كاتباً نابهاً بين الكتاب، مؤلفاً ثقة بين المؤلفين، شاعراً مرموق القدر محمود الذكر بين الشعراء، بل إن شعره النابغ من ثقافته قد تميز بالفكرة العميقة والصورة البارعة الأمر الذي يجعلنا لا نتردد في أن نعتبره صاحب ((الفكرة الشعرية)).

ويبدو أن العتابي قال هذه الأبيات وهو كبير السن، فإنه يذكر الشيب ويقدم لنا ما يدل على أنه كان قصير القامة، وذلك في قوله:

نهى طراف الغواني عن مواصلتي ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري

جمع بين فني الشعر والنثر إجادة وإتقاناً، إنه شاعر محسن وكاتب في الرسائل مجيد جمع بين الكتابة والشعر، وأشعاره كلها عيون ليس فيها بيت ساقط مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر، فهو شخصية نادرة لم تقدر قدرها اللائق بها.

لقد كان شعر العتابي معياراً تقاس عليه جودة الشعر ورداءته حين يقف الشعراء على أبواب المأمون، وقد ذكر صاحب الأغاني إن الشعراء اجتمعوا على باب المأمون، فقال لهم حاجبه علي بن صالح: هل منكم من يحسن أن يقول كما قال أخوكم العتابي:

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد ناجاك في الوحي تقديس وتطهير

فت المدائح إلا أن ألسننا مستنطقات بما تحوي الضمائير

فانصرفوا ولم يحاول واحد منهم أن يدخل على الخليفة يمدحه.

وقد قال بعضهم: في شعره تكلف، وقال البعض الآخر: بل شعره ذو رقة ورشاقة وجودة، فانبرى شيخ كان حاضراً وقال: ويحكم، أيقال إن في شعره تكلفاً وهو القائل:

رسل الضمير إليك تترى بالشوق ظالعة وحسرى

متزجيات ما ينين على الوجى من بعد مسرى

ما جف للعينين بعدك يا قرير العين مجرى

فاسلم سلمت مبرأ من صبوتي أبداً معرى

إن الـــــــــــصبابة لم تـــــــــــدع منـــــي ســـــوى عظـــــم مـــــبرّى
ومـــــــــدامع عـــــــبرى عـــــــلى كبـــــد عليـــــك الـــــدهر حـــــرى

ج - ثقافة العتابي وفصاحته:

يعد العتابي الأديب الوحيد الذي جمع أسباب الإجادة والإبداع في فرعي الأدب من شعر ونثر، فقد توفر على لغته دراسة وفهماً، وعلى تراث قومه التهاماً وهضماً، وعلى الأدب العربي والثقافة الإسلامية تعلماً وحفظاً، تعلم لغة من لغات الحضارة المعاصرة، وكانت اللغة التي هداه تفكيره إليها هي الفارسية، وللعتابي فلسفة حكيمة وتعليلات عاقلة تنم عن أفق واسع رحيب وفكر منظم رتيب.

إن العتابي العربي صليبة، التغلبي نجاراً، كان يؤمن بالثقافة في نطاقها الإنساني مخالفاً الكثيرين من أهل زمانه الذين كانوا على الأغلب منقسمين بين عروبيين وشعوبيين، ومن ثم لم يكن يجد غضاضة في تعلم لغة العجم والاعتراف بعراقة ثقافتهم وفيض عملهم، هذه الثقافة جعلت لآثاره الأدبية والفكرية مذاقاً خاصاً وطعماً متميزاً، فهو بحر لا ينزف، وكان النمري يجل العتابي ويعظمه لقناعته وديانته ولعلمه وسعة أدبه.

إن احترام المأمون للعتابي قد بلغ مبلغاً ربما لم يعامل به شاعراً غيره، فلقد كان في زيادة للمأمون وقد أسن فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده، واعتمد العتابي على الخلفية فمازال ينهض رويداً رويداً حتى أقله فنهض.

والعتابي في نطاق فصاحته ومن منطلق احترامه لم يكن متزمتاً ولا متعسفاً في قول أسلوك، بل إن له طرائف وفكهات تريح القلب وتمسح متاعب المهموم.

والعتابي أحد البلغاء الذين عرفوا البلاغة بشروطها ومارسوها إنشاء وتحريراً، ويذكر أن العقابي سئل ما البلاغة؟ فقال: إظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق. وسئل عن البليغ فأجاب: كل من بلغك حاجتك وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ. قيل له: قد فهمنا الإعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند

مقاطع كلامه، اسمع مني، وافهم عني، أو يفتل أصابعه، أو يكثر التفاته من غير موجب، أو يتساءل من غير سعلة، أو ينبهر في كلامه.

وإذا كانت البلاغة مرتبطة باللسان ارتباطها بالعقل والجنان فإن العتابي يحسب لذلك حسابه في قوله: إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه المخارج.

ولم يكن العتابي يصادف عياً يعوقه أو حبسة توقفه، بل لعله كان إذا أمسك بالقلم تتزاحم المعاني في ذهنه فتسبب له من الربكة ما يسببه الجذب للغبي، إن الحصري يروي هذه الحادثة الطريفة فيقول:

والعتابي بعد ذلك كله له مشاركة في التأليف وإثراء المكتبة العربية، ولعل عناوين كتبه - التي ضاعت بكل أسف - تسهم في التعبير عن شخصيته والإفصاح عن تفكيره وثقافته، فله من الكتب: كتاب المنطق، وكتاب الآداب، وكتاب فنون الحكم، وكتاب الخليل، وكتاب الألفاظ.

إن كبار مؤرخي الأدب ورواته قد انتفعوا بكتب العتابي.

د - شعر العتابي:

تتميز نماذج شعره بطعم خاص وذوق متفرد ومذاق متميز وفكر متعمق، في إطار الأسلوب الشاعري الموقع ونهج الصوغ البياني المتناغم، لقد مر بنا قوله:

إني بلوت الناس في حالاتهم ... وخبرت ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً ... وإذا المودة أقرب الأنساب

إنه مذاق غريب حبيب لشعر عذب جديد، ومن هنا جعل النقاد القدامى من التعابي واحداً من رواد البديع، والبديع هنا هو الجديد، وجديد العتابي يستقطب الصوغ والمعنى واللفظ والإيقاع على حد سواء.

لقد ولد العتابي شاعراً، ورث ملكه الشعر من بني قومه التغلبيين، وهذا وإن المعنى العميق والقول السديد والأسلوب الرفيع والتعبير الأنيق والصوغ المرتب كل ذلك لم يبعد عن شعر

العتابي في جميع حالاته مادحاً أو هاجياً، معتذراً أو شاكياً محباً أو متغنياً، مصطنعاً الحكمة أو واصفاً.

١ - **المديح:** عمد العتابي إلى المديح، شأنه في ذلك شأن كل شعراء زمانه، مدح البرامكة أولاً، ثم مدح الرشيد بعد ذلك فنال لديه حظوة وتكريماً، ثم ما لبث أن استغضب الرشيد فهرب، غير أن البرامكة ما لبثوا أن مهدوا له عند الخليفة العباسي فعفا عنه ورده إلى سالف مكانته وسابق حظوته، ولعل أشهر مديحة قالها العتابي في الرشيد هي قصيدته الرائية التي تقرب بها إليه بعد فتور كان سببه خروج الوليد بن طريف على الحكم العباسي، وقد استهلها بقوله:

ماذا شجاك بحوارين من طلل ... ودمنة كشفت عنها الأعاصير

شجاك حتى ضمير القلب مشترك ... والعين إنسانها بالماء مغمور

وفي هذه القصيدة الرائية يجمع العتابي بين رقة القول غزلاً، والإشادة بالخليفة مديحا، وخفض الجناح اعتذاراً، واصطناع الحيلة فخراً، وابتداع الحكمة تقرباً، مع أسلوب عذب وإيقاع جميل، وهي من أشهر قصائده، أبياتها ذات معانٍ حكيمة، والقصيدة من أرق شعر المديح مجملة أو مفصلة. إنها قصيدة مخططة الفكر منسوجة المنهج أدخل فيها الشاعر عامل المنطق العقلي والحجاج القولي، وإذا لم تكن القصيدة كاملة الترتيب والبنية قد وصلت إلينا فتلك بعض أبياتها:

في ناظري انقباض عن جفونهما ... وفي الجفون عن الآماق تقصير

لو كنت تدرين ما شوقي إذا جعلت ... تنأى بنا وبك الأوطان والدور

علمت أن سرى ليلي ومطلعي ... من بيت نجران والغورين تغرير

إذ الركائب مخسوف نواظرها ... كما تضمنت الدهن القوارير

نادتك أرحامنا اللاتي نمت بها ... كما تنادي جلاد الجلة الخور

مستنبط عزمات القلب من فكر ... ما بينهن وبين الله معمور

فت المدائح إلا أن ألسننا ... مستنطقات بما تحوي الضمائر

مـاذا عـسى مـادح يثنـي عليـك وقـد نـاداك في الـوحي تقـديس وتطهـير.

غير أن العتابي لم ينس أن يكون محامي قومـه في هـذا المجـال، ذلـك أن خـروج الوليـد بـن طريف الشاري - وكان تغلبياً - على الرشيد لا يعني أن كل تغلب خارجة عليه، لـيس الأمـر كذلك، بل إن منهم من يسيطر على المعركة وهو يخوضها جالبـاً النـصر للرشـيد مثـل القائـد الفارس يزيد بن مزيد الشيباني الذي خاض معارك الظفر ووقائع النصر لحساب الرشيد ومـن بين هذه المعارك معركته مع الوليد بن طريف، وكلاهما - الخارج المدحور والظافر المنـصور - ينتمي إلى قبيلة العتابي. إن العتابي يصوغ هذا الدفاع في رشاقة ومنطق وإيجاز قائلاً:

إن كـــان منـــا ذوو إفـــك ومارقـــة وعـــصبة دينهـــا العـــدوان والـــزور

فـــإن منـــا الـــذي لا يـــستحث إذا حـــث الجيـــاد وحازتهـــا المـــضامير

وتضم هذه القصيدة البيتين الـشهيرين اللـذين أشـاد بهـما حاجـب المـأمون عنـدما تجمـع الشعراء على بابه فقال لهم: هل فيكم من يقول مثل العتابي:

مـاذا عـسى قائـل يثنـي عليـك وقـد ناجـاك في الـوحي تقـديس وتطهـير

فـــت المـــدائح إلا أن ألـــسننا مـــستنطقات بـــما تخفـــي الـــضمائير

وللشاعر قصيدة دالية عمد فيها إلى خاصِّ نهجه، وسار بها في أثير دربه، من ابتداع الفكـرة وتذليل متن الشعر الرقيق لها حتى تعتليه عذباً ذلولاً، فيحار القارئ بين جلال الفكـرة وجمـال الصيغة، يقول العتابي في أبياته الدالية:

إمـــام لـــه كـــف تـــضم بناتهـــا عـصا الـدين ممنوعـاً مـن الـبري عودهـا

وعـــين محـــيط بالبريـــة طرفهـــا ســـواء عليهـــا قربهـــا وبعيـــدها

وأصـــمع يقظـــان يبيـــت مناجيـــا لـــه في الحـــشا مـــستودعات يكيـــدها

ســـميع إذا نـــاداه في قعـــر كربـــة منـــاد كفتـــه دعـــوة لا يعيـــدها

ينسب إليه بعض الزلات في حق كبار أهل زمانه وبخاصة الرشيد نفسه، ولم يكـن العتـابي رجل جلاد ونضال وإنما كان يفضل الحياة الهادئة دون كدر أو صخب أو خصام، ومـن تكـن هذه طبيعته يكثر الاعتذار على لسانه.

٢ - **الحكمة:** عرف العتابي الحكمة في شعره ومما قاله العتابي لجعفر البرمكي، وقد كان واسطة خير له عند الرشيد كي يعفو عنه.

ما زلت في غمرات الموت مطّرحا ... يضيق عني وسيع الرأي من حيلي

فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي ... حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

ويرى العتابي أن هذا الذي قاله في تصوير حاله وتقرير صنيع منقذه غير كاف فيعمد إلى استغلال موهبته الشعرية والفكرية لتأكيد شكره وعرفانه بحسن الصنيع فيقول:

فلو كان للشكر شخص يبين ... إذا ما تأمله الناظر

لمثلته لك حتى تراه ... لتعلم إني امرؤ شاكر

أما وشاعرنا كثير الاعتذار كثير الشكر، فإن دلالة ذلك تفصح عن مذهبه في الحياة ومسلكه فيها، إنه غير مقبل إليها لا يتجشم في سبيلها إلا القليل، ومن ثم فهو غير مستعد للمغامرة أو الاقتحام أو الجسارة. لقد لامته زوجته - وكانت من باهلة - لتقاعسه وانصرافه عن جمع المال بينما تلميذه منصور النمري يأخذ الأموال ويقتني الضياع ويشتري الحلي لأهل بيته، فلم ينشط مستجيباً لرغبتها، وإنما أنشأ يقول مصوراً قناعته:

تلوم على ترك الغنى باهلية ... روى الدهر عنها كل طرف وتالد

رأت حولها النسوان يرفلن في الكسا ... مقلدة أجيادها بالقلائد

تقول أما تحدوك للمجد همة ... تنيلك وجهاً من وجوه الفوائد

أسرك أني نلت ما نال جعفر ... من الملك أو ما نال يحيى بن خالد

وإن أمير المؤمنين أغصَّني ... مغصَّها بالمرهفات البوارد

ذريني تجئني ميتتي مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد

فإن كريمات المعالي مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود

٣ - **نزعة التشاؤم:** عند العتابي نزعة التشاؤم واضحة كل الوضوح، وتشاؤمه قائم على نظرة إلى الحياة سوداء، الحادثات لا ترحم، والحياة فانية، والأحباب إلى افتراق، وغضارة

العيش إلى ضيق وجفاف، ومهما طالت الصحبة فإن بدد الشمل نهاية كل شيء، حتى الفرقدين في السماء مصيرهما إلى شتات. تلك أفكار العتابي، انتهز فرصة وداع جارية له فصب هواجسه في هذا القالب الشيق من رائق اللفظ وأنيق الأسلوب:

غدرات الأيام منتزعات ... ما غنمنا من طول هذا العناق
إن قضى الله أن يكون تلاق ... بعدما قد ترين كان تلاق
هوني ما عليك واقني حياء ... لست تبقين لي ولست ببـاق
أينا قدمت صروف المنايا ... فالذي أخرت سريع اللحاق
ويد الحادثات رهن بمرات ... من العيش مصبرات المذاق
غر من ظن أن يفوت المنايا ... وعراها قلائد الأعناق
كم صفيين متعا باتفاق ... ثم صارا لغربة وافتراق
قلت للفرقدين والليل ملق ... سود أكنافه على الآفاق
أبقيا ما بقيتما سوف يرمى ... بين شخصكما بسهم الفراق
بينما المرء في غضارة عيش ... وصلاح من أمره واتفاق
عطفت شدة الزمان فأدته ... إلى فاقة وضيق خناق
لا يدوم البقاء للخلق لكن ... دوام البقاء للخلاق

وتبلغ نزعة التشاؤم والشعور بالبؤس والإحساس بالوحدة ذروتها عند العتابي في إطار رحلة كسيفة من الحزن والأسى والعطف والإشفاق على نابغة يوزع همومه ويبكي حظة فيقول:

أطفئ الحزن بالدموع إذا ما ... حمة الشوق أثرت في فؤادي
خاشع الطرف قد توشحني ... الضر فلانت له قناة قيادي
ربّ بؤس أخا هموم كأن الحزن ... والبؤس وافياً ميلادي
وكأني استشعرت ما لفظ الناس ... من الثائرات والأحقاد

أتـــصدى الـــردى وأدرع الليـــل بهوجـــاء فوقهـــا أقتـــادي
حـــظ عينـــي مـــن الكـــرى خفقـــات بـــين سرحـــي ومنحنـــى أعـــوادي
أوحـــش النـــاس جـــانبي فـــما آنـــس إلا بوحـــدتي وانفـــرادي
قـــد رددت الـــذي بـــه اتقـــى النـــاس وأبـــرزت للزمـــان ســـوادي
فاســـتهلت عـــلي تمطـــرني الـــشوق شـــآبيب مزنـــة مرعـــاد

هـ - صنعته: للعتابي شاعريته الدافقة الثرية المعطاءة المفكرة الرائدة التي يحتل بها مكانة اللائق به وبعلمه وبشعره وبفكره.

وإذا كان شعر الفكرة لا يلتقي في كثير مع شعر الصنعة، وكلاهما ضرب من ضروب التجديد، فإن العتابي الحريص على التجديد في كل من الميدانين - ميدان الفكرة وميدان الصنعة - يقدم لمجيء شعره صوراً خلابة من التجديد البديعي إذا ما استهدف وصف ظاهرة من ظواهر الطبيعة، إنه يبيح لسجيته أن توغل بعض الشيء في اصطياد المحسنات البديعية وتقديمها لامعة بهيجة متألقة، تشبيهات واستعارات وصور ولوحات، وجناس وطباق وتصريع وترصيع إلى غير ذلك من فنون البديع وصور البيان المعروفة.

إن العتابي يصر على أن يقدم نماذج وفيرة من صور البيان والبديع في القصيدة الواحدة بحيث يضطر أساتذة النقد إلى الاعتراف بأنه واحد من ألمع رواد الصنعة البديعية المبكرة، ولعل خير نموذج نعرفه له في هذا السبيل قصيدة له في وصف السماء والمطر يقول فيها:

راقـــت للـــبرق يخفـــى ثـــم يـــأتلق يخفيـــه طـــوراً ويبديـــه لنـــا الأفـــق
كأنـــه غـــرة شـــهباء لائحـــة في وجـــه دهمـــاء مـــا في جلـــدها بلـــق
أو ثغـــر زنجيـــة تفـــتر ضـــاحكة تبـــدو مـــشافرها طـــوراً وتنطبـــق
أو ســـلة البـــيض في جـــأواء مظلمـــة وقـــد تلقـــت ظباهـــا البـــيض والـــدرق
والغـــيم كـــالثوب في الآفـــاق منتـــشر مـــن فوقـــه طبـــق مـــن تحتـــه طبـــق
تظنـــه مـــصمتاً لا فتـــق فيـــه فـــإن ســـالت عواليـــه قلـــت: الثـــوب منفتـــق

إن معمع الرعد فيه قلت: ينخرق أو لألأ البرق فيه قلت: يحترق

تستك من رعده أذن السميع كما تعشى، إذا نظرت، من برقه الحدق

فالرعد صهصلق،والريح منخرق والبرق مؤتلق، والماء منبعق

قد لاح فوق الربا نور له أرج كأنه الوشي والديباج والسرق

من صفرة بينهما حمراء قانية وأصفر فاقع أو أبيض يقق

كان العتابي أكثرالشعراء ثقافة ومعرفة وإن كان يركب مركب الصنعة الموغلة في الترصيع مثلاً، شأن كل شاعر يوغل في الصنعة:

فالرعد صهصلق والريح منخرق والبرق مؤتلق والماء منبعق

ولكنه الغلو، والغلو ممجوج مرفوض في كل صوره وأشكاله وجوانبه، ليس في الشعر وحده، وإنما في كل مظهر من مظاهر الحياة، وفي كل لون من ألوان الفنون.

وعلى الرغم من هذا الإيغال في الصنعة هذه القصيدة القافية من أجود ما قاله محدث في وصف السحاب والقطر والرعد والبرق.

وفي نطاق شعر الصنعة فإن العتابي واحد من رواد وزن المواليا:

يا ساقياً خصني بما تهواه لا تمزج أقداحي رعاك الله

دعها صرفاً فإنني أمزجها إذ أشربها بذكر من أهواه

إن العتابي حتى في مجال صيغة الوزن الجديد في نطاق الغزل والشراب، لا ينقلب من التزام الفكرة المؤتلقة الوضاءة.

- ١٣ -

عوف بن محلم الخزاعي

- ٢٢٠ هـ

أ - حياته ونشأته:

يمثل عوف بن محلم الخزاعي المولود في رأس العين التفاعل بين القديم والحديث وما جرى من شعر على لسانه وهو الشاعر النديم قريب دعبل وأبي الشيص محمد بن رزين.

ب - شخصيته:

إن عوفاً يجمع بين طلاقة أهل الشام ورقتهم وبين انطباعات بيئة خراسان والعراق من جهة أخرى، وبين نظرة إلى الماضي مشدودة بحبال قوية تارة ثالثة. لقد نادم طاهر بن الحسين ثلاثين سنة في بغداد وخراسان، فلما مات تمسك به ولده عبدالله بن طاهر وأنزله نفس المنزلة التي كانت له عند أبيه.

ج - شعره:

١ - يتمثل الحنين في شعر عوف في قوله وهو مرافق عبدالله بن طاهر بن الحسين في إحدى أسفاره إلى خراسان وقد ألح عليه الحنين إلى أهله في رأس العين:

أفي كل عام غربة ونزوح ... أما للنوى من ونية فتريح
لقد طلح البين المشت ركائبي ... فهل أرين البين وهو طليح
وذكرني بالري نوح حمامة ... فنحت وذو الشجو الحزين ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمعة ... ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مهامه فيح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى ... فتضحى عصا التسيار وهي طريح
فإن الغنى يدني الفتى من صديقه ... وعدم الغنى للمعسرين طروح

٢ - **شعر المتعة عنده:** ويعيش عوف الخزاعي حياة زمانه من شراب ومنادمة وأخذ بأسباب المتعة الحسية، ويصوغ ذلك شعراً في نطاق التحول الشعري الجديد فيقول:

فما زالت الكأس تغتالنا ... وتذهب بالأول الأول
إلى أن توافت صلاة العشاء ... ونحن من السكر لم نعقل
فمن كان يعرف حق النعيم ... وحق الجليس فلا يجهل
وما إن جرت بيننا مزحة ... تهيج مراء على السلسل

٣ - **شعرالحكمة:** وعلى سنة شعراء زمانه أيضاً من عودة إلى العقل ورجوع عن الجهل ولجوء إلى الحكمة يقول عوف هذا القول الحكيم:

ما ينزل الله بي أمراً فأكرهه ... إلا سينزل بي من بعده الفرجا
يا رب أمرين قد فرجت بينهما ... من بعد ما اشتبكا في الصدر واعتلجا

ولكن الارتباط بالماضي أمر كائن وحقيقة واقعة عند هؤلاء الشعراء.

٤ - **فخره:** إن شاعرنا عوفاً حين يفخر يعود أدراجه إلى أسلوب الأموية الناصع المشرق السهل الوضاء:

وإني لذو حلم على أن سورتي ... إذا هزني قوم حميت بها عرضي
وإن طلبوا ودي عطفت عليهم ... ولا خير فيمن لا يؤول ولا يغضي
وما كل ذي غش يضرك غشه ... ولا كل من يؤتى كرامته يرضي
ومعترض في القول غريب قوله ... وقلت له ليس القضاء كما يقضي
ركبت به الأهوال حتى تركته ... بمنزل ضنك لا يكد ولا يمضي
واني لأجزي بالكرامة أهلها ... وبالحقد حقداً في الشدائد والخفض

إن هذا القول ليس مما يتمشى مع طبيعة العصر نحواً وأسلوباً، ولكنه عود من الشاعر إلى جادة من الشعر يرتاح إليها وإن كان - في نظر البعض - قد انقضى وقتها ومضى زمانها.

د - المعاني الحضرية:

وتتمثل المعاني الحضرية والصيغة البغدادية في قوله يمدح طاهر بن الحسين ويصف حراقته تنساح صفحة دجلة في بغداد:

عجبت لحراقة ابن الحسين كيف تعوم ولا تغرق
وبحران من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق
وأعجب من ذاك عيدانها وقد مسها كيف لا تورق

- ١٤ -

علي بن جبلة العكوك
١٦٠ - ٢١٣ هـ

أ - حياته ونشأته:

يعد علي بن جبلة بغدادي الميلاد والوفاة، عاش بين سني ١٦٠، ٢١٣ هـ وهي فترة الانتعاش الثقافي والتغير الحضاري والتعميق العقلي والانطلاق الفكري والتألق العلمي والسياسي والانقلاب الخلقي والتحلل الاجتماعي، فكان الشاعر صورة - مثله في ذلك مثل غيره - لمجتمع شعراء زمانه أخذاً بأسباب الثقافة وجنوحاً إلى جانب الأخذ بمذهب اللذة الحسية وبعداً عن القيم الدينية حتى أن إحدى الروايات تذهب إلى أن حياته انتهت على يد المأمون لمبالغته في مدح أبي دلف بقوله:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها ... وتمسك الأرض عن خسف وزلزال

وما مددت مدى طرف إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال

والحق أن هذه الأبيات لم تكن هي الدافع الأصيل لحملة المأمون على العكوك، وإنما السر الكامن وراء ذلك هو إجادة العكوك في مدح كل من أبي دلف القاسم العجلي وأبي غانم حميد الطوسي إلى ذروة من الإبداع وبخاصة مدائحه لأبي دلف.

إن ابن المعتز يميط اللثام عن ذلك بذكره هذه الرواية:

((لما بلغ المأمون قول علي بن جبلة في أبي دلف:

كل من في الأرض من عرب ... بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة ... يكتسيها يوم مفتخره

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مبداه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

استشاط من ذلك وغضب وقال: ويلي على ابن الفاعلة، يزعم أنّا لا نعرف مكرمة إلا مستعارة من أبي دلف، وطلبه فهرب إلى الجزيرة، فكتب في طلبه فحمل إليه، فلما صار بين يديه قال: يا ابن اللخناء، أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كل من في الأرض من عرب ... بين باديه ومحتضره
مستعير منك مكرمة ... يكتسيها يوم مفتخره

فقال: يا أمير المؤمنين عنيت أشكال قاسم وأشباهه، فأما أنتم فقد آتاكم الله بالفضل عن سائر عباده، لأنه اختصكم بالفضل والنبوة والكتاب والحكمة وجمع لكم إلى ذلك الخلافة والملك، وما زال يستعطفه حتى عفا عنه.

ويستطرد ابن المعتز فيذكر أن بعض الرواة روى أنه قتله، وذلك بأن قال له أما أني لا أستحل دمك بهذا القول، ولكن أستحله بكفرك وجرأتك على الله إذ تقول في عبد مهين، تسوي بينه وبين رب العالمين حين تقول:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال

ثم أمر فأخرج لسانه من قفاه ثم قتله.

ب - شخصيته:

إن علي بن جبلة لم يكن أعمى وحسب، وإنما كان إلى ذلك أسود أبرص وهي عيوب جثمانية تجعل الناس تنفر منه، وكان أيضاً سميناً قصيراً مما جعل الأصمعي يلقبه بالعكوك غيظاً منه وحقداً عليه، ومع ذلك فقد فتحت له جودة شعره ورقته وتجديده فيه أبواب الملوك والرؤساء والقواد، ولم يكن عنصر الجودة في شعره وحسب، وإنما كان في إنشاده أيضاً، حتى إن الجاحظ يشهد له قائلاً: كان أحسن خلق الله إنشاداً، وما رأيت مثله بدوياً ولا حضرياً.

لئن فات هذا البغدادي وسامة البغداديين وسماتهم، فقد خلعت عليه بغداد من رقتها وأدبها ما جعله يدلف في يسر إلى ساحات الرؤساء يمدحهم فيلقى وفير التكريم وفيض العطاء وبالغ التقدير، لقد أفسح له كل من أبي دلف وحميد الطوسي والحسن بن سهل

صدورهم وقصورهم لما نمق فيهم من جيد المديح الأمر الذي جعل المأمون صاحب كرسي الخلافة يغار ويستدعيه ويغلظ له القول على رواية أو يقتله على رواية أخرى.

إن علي بن جبلة الذي أطلق عليه الأصمعي صفة العكوك فلصقت به وغلبت عليه هو واحد من قافلة شعراء المرحلة العباسية المطبوعين، وهو أيضاً من مجموعة الشعراء المكفوفين النهابين الذين بدأ عهدنا بهم مع السائب بن فروخ الشاعر المخضرم الذي اشتهر بكنيته وصفته ((أبي العباس الأعمى)) ثم توالت هذه القافلة، وقد ضمت بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وأبا يعقوب الخريمي وربيعة الرقي، وكل واحد من هؤلاء طيب نفس الشعر، عميق القاع، بعيد الشاطئ، صاحب ميزة أو ميزات ترفعه درجة أو درجات في ميدان أو أكثر من ميادين الشعر موضوعاً وأسلوباً.

ج - فنون العكوك الشعرية:

١ - **الهجاء:** كتب العكوك في الهجاء كما كتب في غيره من الأغراض الشعرية الأخرى، ولقد روي أن أبا دلفٍ أراد أن يداعب العكوك ذات يوم فقال له: إنك تحسن أن تمدح ولا تحسن أن تهجو، فما كان من العكوك إلا أن أجاب الأمير بقوله: الهدم أيسر من البناء وأردف منشداً:

أبو دلف كالطبل يذهب جوفه ... وباطنه خلو من الخير أخرب

أبا دلف يا أكذب الناس كلهم ... سواي فإني في مديحك أكذب

وهكذا لم يكتف الشاعر - إثباتاً لمقدرته حيال الأمير - أن يهجو الأمير وحده وإنما، من قبيل التأكيد، هجا نفسه معه.

وللعكوك صور من الهجاء في غاية من الطرافة على ندرتها، فمن ذلك ما قاله شاعرنا في هجاء قوم بخلاء يتركون الضيافة ويضيعون الضيفان:

أقاموا الديدبان على يفاع ... وقالوا لا تنم للديدبان

فإن آنست شخصاً من بعيد ... فصفق بالبنان على البنان

تراهم خشية الأضياف خرسا ... ويأتون الصلاة بلا أذان

وكان العكوك يتصدق على أصدقائه من الشعراء الكبار بأبيات من الهجاء يتكفل بها دونهم، وقصة ذلك لا تخلو بدورها من طرافة. كان الخريمي الشاعر الكبير صديقاً للعكوك، وكان يريد أن يهجو الهيثم بن عدي، فذهب إلى صديقه العكوك ورجاه أن يهجوه له، فتعجب العكوك وقال له: مالك لا تهجوه وأنت شاعر؟ فقال: قد فعلت فما جاءني شيء كما أريد. فقال العكوك: كيف أهجو رجلاً لم يتقدم إليَّ منه إساءة ولا له إليَّ جرم يحفظني؟ فقال: تقرضني، فإني مليء بالقضاء، أي قادر على قضاء هذا القرض، فقال: أمهلني اليوم ومضى، وأخذ العكوك يفكر في سبيل للهجاء فهداه تفكيره إلى حادثة مفادها أن الهيثم كان قد تزوج إلى بني الحارث بن كعب، ورأى القوم أن يطلقوا ابنتهم منه ربما لعدم التكافؤ بينهما وذهبوا إلى الرشيد يطلبون ذلك، فقال الرشيد – وكان أديباً واسع الثقافة في الشعر – : أليس هو الذي يقول فيه الشاعر:

إذا نسبت عدياً في بني ثعل ... فقدم الدال قبل العين في النسب

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، فأمر الرشيد داود بن يزيد أن يفرق بينهما.

إن العكوك يستحضر هذه الحادثة ويستغلها استغلالاً بارعاً في هجاء الهيثم بن عدي احتساباً لصديقه الخريمي ويقول:

للهيثم بن عدي نسبة جمعت ... آباءه فأراحتنا من العدد

أعد عدياً فلو مد البقاء له ... ما عمر الناس لم ينقص ولم يزد

نفسي فداء بني عبد المدان وقد ... تلوه للوجه واستعلوه بالعمد

حتى أزالوه كرهاً عن كريمتهم ... وعرفوه بذل أين أصل عدي

يا ابن الخبيثة من أهجو فأفضحه ... إذا هجوت؟ وما تُنمى إلى أحد

٢ - **الغزل:** والعكوك إذا قال في الغزل رق شعره حتى يكاد يتناهى من الرقة، وعذب حتى لا يبقى ذوق إلا ويستسيغه، وهو في بعض غزله يلهو باللفظ ويعبث بالمعنى، لهواً محبباً وعبثاً مرغوباً فيه، مثال ذلك هذه الأبيات التي جرت على لسانه:

بأبي من زارني مكتتماً ... خائفاً من كل شيء جزعا

زائـــر نـــم عليـــه حـــسنه كيـــف يخفـــي الليـــل بـــدراً طلعـــا
رصـــد الغفلـــة حتـــى أمكنـــت ورعـــى الحـــارس حتـــى هجعـــا
ركـــب الأهـــوال في زورتـــه ثـــم مـــا ســـلّم حتـــى ودعـــا

ومن أبياته الطريفة في لوعة الحب،ويمكن ملاحظة نهج أسلوب المكفوفين فيها قوله:

لـــو أن لي صـــبرها أو عنـــدها جزعـــي لكنـــت أعلـــم مـــا آتي ومـــا أدع
لا أحمـــل اللـــوم فيهـــا والغـــرام بهـــا مـــا حمـــل الله نفـــساً فـــوق مـــا تـــسع
إذا دعـــا باســـمها داع فأســـمعني كـــادت لـــه شـــعبة مـــن مهجتـــي تقـــع

ويقع العكوك في حب جارية اسمها شكلة ويلح عليه غرامها فيشكو حالـه في أبيـات مـن الغزل الرقيق الذي نلحظ فيه أيضاً أسـلوب الـشعراء المكفـوفين وبخاصـة في البيتـين الثـاني والثالث. يقول العكوك مضمناً غزله معاني غريبة على العشاق:

إني ليقنعنـــي تعهـــد شـــكلة إن حـــال دون لقـــاء شـــكلة حائـــل
ويزيـــدني كلفـــاً بهـــا هجرانهـــا ويـــسرني عنهـــا الحـــديث الباطـــل
وإذا تكلـــم عـــاذل في حبهـــا أغـــرى الفـــؤاد بهـــا ورق العـــاذل
مـــن أيـــن مـــا امتحنـــت محاســـن وجههـــا بهـــر العيـــون بهـــا هـــلال ماثـــل
شـــجيت خلاخلهـــا بـــساق خدلـــة وشـــجيت عمـــدا بالـــذي هـــو قائـــل

وإذا كانت قرائن من العفة – أو في اليسير البعد عن المجون – بدت في تلـك الأبيـات فـإن العكوك هو صاحب القصيدة الدالية الطويلة التي جمعت بين الغزل وبين وصف المـرأة وصـفاً أتى على كل جزء من أجزاء جسمها بحيث لم يتحرج عن ذكر مواطن العفة منها، وقـد عـرف بعض الأدباء بهذه القصيدة باسم ((اليتيمة)) وعرفها آخرون باسم ((الدعدية))عـلى اعتبـار أنها قيلت فيمن اسمها دعد:

هـــل بـــالطلول لـــسائل رد أم هـــل لهـــا بـــتكلم عهـــد
درس الجديـــد جديـــد معهـــدها وكـــأنما هـــي ريطـــة جـــرد

من طول ما تبكي الغيوم على عرصاتها ويقهقه الرعد
فوقفت أسألها وليس بها إلا المها ونقانق ربد

وينتقل العكوك من حديث الغزل إلى رسم صورة لصاحبته دعد فيصف أجزاء جسمها في دقة متناهية لا يستطيع المرء أن يحجب إعجابه حيالها - رغم خروجه على حدود الذوق في بعضها - نظراً لأن الشاعر أعمى لا يبصر، فلنستعرض بعض هذه الصور وليس كلها:

لهفي على دعد وما خلقت إلا لطول بليتي دعد
بيضاء قد لبس الأديم أديم الحسن فهو لجلدها جلد

ويزين فوديها إذا حسرت صافي الغدائر فاحم جعد
فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد
وجبينها صلْت وحاجبها شحت المحط أزج ممتد
فكأنها وسنان إذ نظرت أو مدنف لما يفق بعد
بفتور عين ما بها رمد وبها تداوي الأعين الرمد
وتريك عرنيناً به شمم وتريك خداً لونه الورد
وتحيل مسواك الأراك على رتل كأن رضابه الشهد
والجيد منها جيد جارية تعطو إذا ما طالها المرد
وكأنما سقيت ترائبها والنحر ماء الورد إذ يبدو
والمعصمان فما يرى لهما من نعمة وبضاضة زند
ولها بنان لو أردت له عقداً بكفك أمكن العقد

٣ - **الوصف:** برع العكوك في الوصف براعة ما لها شبيه وخاصة وصف وجده للمرأة ومن ذلك غزله الصارخ المخيف:

يا من لو اكتحل القبيح بحسنها لغدا وليس لحسنه ند

إن لم يكـــن وصـــل لديـــك لنـــا ... يـــشفي الـــصبابة فلـــيكن وعـــد
قـــد كـــان أورق وصـــلكم زمنـــا ... فـــذوى الوصـــال وأورق الـــصد
لله أشـــــــواقي إذا نزحـــــــت ... دار بكـــــم ونـــأي بكـــم بعـــد
أن تتهمـــــي فتهامـــــة وطنـــــي ... أو تنجـــــدي إن الهـــــوى نجـــــد
وزعمـــت أنـــك تـــضمرين لنـــا ... وداً، فهـــــلا ينفـــــع الـــــود
وإذا المحـــب شـــكا الـــصدود ولم ... يعطـــف عليـــه فقتلـــه عمـــد

ومن الطريف أن علي بن جبلة لا يكتفي من قصيدته بهذا الشتات من نماذج الغزل والشكوى ووصف المرأة وأجزاء جسمها، وإنما ينتهي بقصيدته نهاية غير متناسقة مع عناصرها السابقة، فيعمد في عدد غير قليل من الأبيات إلى الفخر بنفسه، ولكنه فخر هزيل لم يصادف مكانه الصحيح.

ولعل من روائع العكوك قصيدته في وصف فرس أبي دلف، وقد مر بنا الموقف الذي أدى إلى وصفها، والحق أن العكوك قد تقمّص شخصية فارس خبير بالكر والفر وأنواع السير والركض وشخصية مدرب خيل أصيلة يعرف كيف يدربها على الحركة، ومجمل القول في القصيدة أنها عمل رائع من شاعر مبصر فما بالك إذا كان الشاعر ضريراً. يقول العكوك في قصيدته واصفاً الفرس:

مـــرتهج يـــرتج مـــن أقطـــاره ... كالمـــاء جالـــت فيـــه ريـــح فاضـــطرب
تحـــسبه أقعـــد في اســـتقباله ... حتـــى إذا اســـتدبرته قلـــت أكـــب
وهـــو عـــلى إرهاقـــه وطيِّـــه ... تقـــصر عنـــه المحزمـــان واللبـــب
تقـــول فيـــه خبـــب إذا انثنـــى ... وهـــو كمـــتن القـــدح مـــا فيـــه خبـــب
يخطـــو عـــلى عـــوج تنـــاهبن الثـــرى ... لم يتواكـــل عـــن شـــظا ولا عـــصب
تحـــسبها ناتئـــه إذا خطـــت ... كأنهـــا واطئـــة عـــلى الركـــب
شـــتا وقـــاظ برهتيـــه عنـــدنا ... لم يـــؤت مـــن بـــر بـــه ولا حـــدب

يـــصان عـــصري حـــره وقـــره ويقـــصر الخـــور عليـــه بالجلـــب
حتـــى إذا تمـــت لـــه أعـــضاؤه لم تنحـــبس واحـــدة عـــلى عتـــب
رمنـــا بـــه الـــصيد فرادينـــا بـــه أوابـــد الـــوحش فأجـــدى واكتـــسب
مجـــذم الجـــري يبـــاري ظلـــه ويعـــرف الأحقـــب في شـــوط الخبـــب
إذا تظنينـــا بـــه صـــدقنا وإن تظنـــى فوقـــه العـــير كـــذب
لا يبلـــغ الجهـــد بـــه راكبـــه ويبلـــغ الـــريح بـــه حيـــث طلـــب

هـ - صنعته: إن العكوك بارع في خلق التشبيهات الدقيقة،ولم يقف الأمر به حين يعمد إلى خلق التشبيهات، ولكن تشبياته تنسرب انسرابا في أكثر شعره من غزل ومديح وهجاء، ولقد مرت بنا تشبيهاته الكثيرة الوفيرة في قصيدته الدعدية، هذا وللعكوك عديد من التشبيهات التي فاق بها كثيراً من الشعراء المبصرين، مثال ذلك قوله من قصيدة سينية مدح بها حميداً الطوسي:

النـــاس جـــسم، وإمـــام الهـــدى رأس، وأنـــت العـــين والـــرأس

أو قوله في وصف رماح أحد ممدوحيه:

كـــأن أرماحـــه تعطـــي إذا علمـــت تحـــت العجاجـــة أســـماعاً وأبـــصارا

وقال في نفس المعنى والموضوع، وهو تشبيه ثري محكم فيه تحد للشعراء المبصرين:

كـــأنهم والرمـــاح شابـــكة أســـد عليهـــا أظلـــت الأجـــم

وقال في مدح حميد الطوسي ووصفه في ساحة الحرب:

إذا مـــا تـــردى لأمـــة الحـــرب أرعـــدت حشا الأرض واستدمى الرماح الشوارع
وأســـفر تحـــت النقـــع حتـــى كأنـــه صـــباح مـــشى في ظلمـــه الليـــل ســـاطع

إنها صورة بارعة حقاً والتشبيه في البيت الثاني:

وله تشبيه بارع حكيم في وصف الناس وتشبيهم بالخيل:

والنـــاس كالخيـــل إن ذمـــوا وإن مـــدحوا فذو الـــشيات كـــذي الأوضـــاع في النـــاس

وللعكوك في الشيب صور عديدة طريفة وتشابيه كثيرة بارعة، فمن هذه التشبيهات قوله:

كـــــأن حـــــسور الـــــصبا عـــن الـــشيب حـــين اشـــتعل

زهـــــا أمـــــل مونـــــق أطـــــل عليـــــه أجـــــل

لقد ألقى هذا الشاعر الأعمى الأبرص المتكور الجسم في أسماع الناس من شعره صوراً من الرقة والتجديد لا تُمحي ولا تبيد، وكانت في رقة إنشائها وثراء معانيها وبساطة صوغها - الذي كان أكثره من البحور القصيرة - ونصوع جمالها أكبر تعويض له عن جمال افتقده في تكوين خلقته فبقي له في بديع صنعته.

وإن نفس العكوك التي ألفت أن تلتذ بالحياة وتعيشها ملء برديها، لم تبعد بصاحبها عن قول الحكمة واصطناعها في شعره، صحيح أن أبيات الحكمة عنده قليلة إذا ما قورنت بمثيلاتها عند معاصريه من أمثال صديقه الخريمي، أو العتابي، أو ابن يسير أو محمود الوراق، ولكنها مع ذلك عميقة الأثر صادقة الصدى. إننا لا نملك أن نحجب إعجابنا عن هذين البيتين اللذين تتضوع الحكمة في ردنيهما:

وأرى الليـــالي مـــا طـــوت مـــن شرتي ردتـــــه في عظتـــــي وفي إفهـــــامي

وعلمـــت أن المـــرء مـــن ســـنن الـــردى حيـــث الرميـــة مـــن ســـهام الرامـــي

ومن شعره في قول حكيم يحض على الصبر فيه ويستبعد اليأس:

عـــسى فـــرج يكـــون عـــسى نعلـــل أنفـــساً بعـــسى

فـــلا تقـــنط إذا لاقيـــت همـــاً يقـــبض النفـــسا

فـــأقرب مـــا يكـــون المـــرء مـــن فـــرج إذا أيـــسا

ومن نماذج الشعر التي جمعت بين الفخر بحسن الشمائل وبين اصطناع الحكمة قول العكوك:

وكـــم رميـــة للـــدهر في بـــاب مـــأمن جعلت مجني - دون مكروهها - صبري

أذود منـــى نفـــسي جهيـــداً وعفتـــي إذا حملـــت غـــيري عـــلى المركـــب الـــوعر

ومهما طال القول في علي بن جبلة، فإنه واحد من ألمع شعراء مرحلة التفاعل الشعري، ونجم من نجوم التجديد في معاني القصيدة ومبناها، ولعله أكثر شعراء عصره استعمالاً للبحور القصار - بنجاح - في مواطن يحسن فيها استعمال البحور الطوال، وهو شاعر طيب النفس، صادق الحس، مجيد في الوصف، مجدد فيما قدم من صور، عاش بعض الشعراء الكبار من بعده عيالاً عليها.

ج - العكوك وأبو دلف:

كثيراً ما تكون قصيدة بعينها مثيرة حوله ما يرفع شأنه أمر ما ينشر الحقد حوله أو ما يهيئ للأمرين جميعاً، ولقد كانت القصيدة الرائية سبب ذلك بالنسبة إلى العكوك لقد جعلته هذه القصيدة يصيب الشهرة العريضة في الآفاق بحيث لم يذكره مترجم أو ؤرخ أو صاحب طبقات إلا وقرن اسمه بتلك القصيدة فأصبحت أشهر من قصيدة أبي نواس في البحر والقافية والروي نفسه، إن القصيدة ما إن أنشدت في محفل أبي دلف حتى شك الشعراء الحاضرون في إمكان قدرته على قول هذا الشعر، فما كان من الشاعر إلا أن تحدى الجمع وطلب إليهم أن يمتحنوه، فسألوه أن يصف فرس أبي دلف فطلب أن يتحسس الفرس ومعه من يثقون فيه ولم يلبث أن أملاه قصيدته البائية التي مطلعها:

ريعت لمنشور على مفرقه ذم لها عهد الصبا حين انتسب

فكانت هذه القصيدة وليدة تلك:

ورائية العكوك هذه سارت في أبي دلف سير الشمس والريح وهي القصيدة الغراء التي سارت في العرب والعجم، وينتشر صيت هذه القصيدة في أركان منتديات الأدب وأدب نافق عند الخلفاء والرؤساء، وبقصد العكوك ساحة حميد الطوسي، وكان بدوره رئيساً أديباً وقائد أريباً وافر الفروسية جزيل العطاء، وما إن يستأذن ويدخل عليه لينشده حتى يبادره حميد قائلاً:

وما عسيت أن تقول فينا؟

وهل أبقيت لأحد مدحاً بعد قولك في أبي دلف؟:

إنـــما الـــدنيا أبـــو دلـــف بـــين مبـــداه ومحتـــضره

فـــإذا ولى أبـــو دلـــف ولـــت الـــدنيا عـــلى أثـــره

وهنا يقول علي بن جبلة العكوك: أصلح الله الأمير ما قلت فيك أحسن. قال: وما قلت؟ فأنشده:

إنـــما الـــدنيا حميـــد وأياديـــه الجـــسام

فـــإذا ولى حميـــد فعـــلى الـــدنيا الـــسلام

فتبسم حميد ولم يقل شيئاً وتعجب كل من حضر المجلس من جودة بديهته؛ لأنهم استنتجوا أنه قال بيتيه هذين على البديهة.

وإذا كان بيتا العكوك في حميد لهما رقة اللفظ وحسن إيقاع على السمع فإن بيتيه بل أبياته في أبي دلف تنسرب إلى القلب انسراباً وتقرّان فيه فلا تخرجان.

إن علياً العكوك يسمع عن أبي دلف القاسم العجلي القائد المظفر، الفارس المقدم، العالم المؤلف، الفصيح الخطيب الشاعر، الموسيقي الفنان، لقد جمع أبو دلف كل هذه الصفات فروسية وإقداماً وعلماً وتأليفاً وفصاحة وشعراء وموسيقا، فيسعى العكوك إلى ساحته كما سعى غيره إليها، وأنشدوا بين يديه روائع شعرهم ويسمعون منه روائع شعره وبخاصة ما كان منه متصلاً بالفروسية، فمن شعر أبي دلف في الغزل الممزوج بالفروسية قوله:

الحرب تضحك من كرى وإقدامي والخيل تعرف آثاري وأيامي

سيفي مدامي وريحاني مثقفتي وهمتي مقة التفصيل للهام

وقد تجرد لي بالحسن منفردا أمضى وأشجع مني يوم إقدامي

سلت لواحظه سيف السقام على جسمي فأصبح جسمي ربع أسقام

أو قوله:

أحبك يا جنان فأنت مني محل الروح من جسد الجبان

ولو أني أقول مكان روحي لخفت عليك بادرة الزمان

لإقـــدامي إذا مـــا الخيـــل جالـــت وهـــاب كماتهـــا حـــر الطعـــان

ولأبي تمام مع أبي دلف هذا أخبار ممتعة. وقد جوّد في هذا القول الرقيق:

ذاد ورد الغـــي عـــن صـــدره فـــارعوى واللهـــو مـــن وطـــره

وأبـــت إلا الوقـــار لـــه ضـــحكات الـــشيب في شـــعره

نـــدمي أن الـــشباب مـــضى لم أبلغـــه مـــدى أشره

وانقـــضت أيامـــه ســـلما لم أهـــج حربـــاً عـــلى غـــيره

وبعد بضعة أبيات تقليدية في وصف الرحلة التقليدية إلى الممدوح يخلع العكوك على أبي دلف حشداً من معاني المديح العذبة المختارة، المصوغة في عناية وأناقة، الحاوية لأكثر من تشبيه خصب فريد، المتضمنة البيتين الذائعي الصيت اللذين سبّبا له لذة الشهرة ومتاعب الحاسدين. يقول العكوك ماضياً في قصيدته:

المنايـــا في منـاقبـــه والعطايـــا في ذرا حجـــرة

هـــضم الدنيـــا بنائلـــه وأقـــال الـــدين مـــن عثـــره

ملـــك تنـــدى أناملـــه كابتـــسام الـــروض عـــن زهـــره

مـــستهل عـــن مواهبـــه كـــانبلاج النـــوء عـــن مطـــره

إنـــما الـــدنيا أبـــو دلـــف بـــين مبـــداه ومحتـــضره

فـــإذا ولى أبـــو دلـــف ولـــت الـــدنيا عـــلى أثـــره

و لا يلبث أن ينعطف إلى معاني الفروسية التي تمثلت في حروب أبي دلف وبخاصة في واقعته مع قرقور الثائر المعروف:

يـــا دواء الأرض إن فـــسدت ومجـــير اليـــسر مـــن عـــسره

رب ضـــافي الأمـــن في وزر قـــد أبـــت الخـــوف في وزره

زرتـــه والخيـــل عابـــسة تحمـــل البـــؤس إلى عقـــره

خارجـــات تحـــت رايتهـــا كخـــروج الطـــير مـــن وكـــره

فأبحـــــت الليـــــل عقوتـــــه وقريـــت الطـــير مـــن جـــزرة

إن هذه القصيدة، لمعانيها الجليلة وصوغها البارع وسهولتها الممتنعة جديرة بأن تحتل مكاناً مرموقاً بين قصائد المديح.

د - العكوك يمدح حميداً الطوسي ويرثيه:

للعكوك العديد من القصائد في حميد الذي كان قائداً محكناً من قواد المأمون، مظفراً جباراً، وكان شأنه شأن كل رجالات زمانه يطرب للمديح ويجزل عطاء المادحين.

وكان العكوك محتفلاً بمدح حميد كل الاحتفال متفنناً في إبداع معاني مديحه كل التفنن، ولكنه على رغم منه لم يبلغ في واحدة منها مبلغه في قصيدته في أبي دلف الرائية، رغم العديد من القصائد التي أنشأها فيه، فمن صنوف التفنن وتوليد المعاني في مدحه حميداً قوله:

دجلـــة تـــسقي، وأبـــو غـــانم يطعـــم مـــن تـــسقي مـــن النـــاس

أعـــد للمعـــروف أموالـــه وسيفـــه في حلـــبه البـــاس

يرتـــق مـــا يفيـــق أعـــداؤه ولـــيس يـــأسو فتقـــه آس

النـــاس جـــسم، وإمـــام الهـــدى رأس وأنـــت، العـــين في الـــرأس

ويوسع العكوك باب المديح من خلال القصائد ذات البحور القصيرة حين يخص حميداً بالعديد من القصائد التي صيغت في هذه البحور، فمن ذلك بائيته التي يقول فيها:

فأنـــت الغيـــث في الـــسلم وأنـــت المـــوت في الحـــرب

وأنـــت الجـــامع الفـــارق بـــين البعـــد والقـــرب

بـــك الله تـــلافى النـــاس بعـــد العثـــر والنكـــب

ورد البـــيض والبيـــض إلى الأغـــماد والحجـــب

بإقـــدامك في الحـــرب وإطعامـــك في اللـــزب

ويموت حميد سنة ٢١٠ هـ ويحس الشاعر بمصيبته فيه، فقد طالما خلع عليه حتى أنه كان يعطيه أحياناً عن القصيدة الواحدة مئتي ألف درهم.

إن علي بن جبلة يرثي حميداً بقصيدة عينية تعتبر من عيون شعر الرثاء بحيث عاش على معانيها الكثير من فحول الشعراء مثل البحتري والمتنبي، بل إن البحتري سلخ معانيها وضمنها مرثيتين له في أبي سعيد الثغري الذي كان أول عظيم مدحه البحتري.

إن العكوك يبدأ مرثيته بأبيات في الحكمة، وقول الحكمة مرتبط دائماً بمناسبات الحرب والرثاء ويستهلها بهذا البيت النفيس:

أللدهر تبكي أم على الدهر تجزع ... وما صاحب الأيام إلا مفجع

ويمضي الشاعر مصوراً حزنه في ثوب من قول الحكمة:

ولو سهلت عنك الأسى كان في الأسى ... عزاء معز للبيب ومقنع

تعز بما عزيت غيرك إنها ... سهام المنايا حائمات ووقع

أصبنا بيوم في حميد لو أنه ... أصاب المنايا حائمات ووقع

وأدبنا ما أدب الناس قبلنا ... ولكنه لم يبق للصبر موضع

ويصور الشاعر القائد الفقيد بصورة الجبل المنيع على مسرى القصيدة في قوله:

وكيف التقى مثوى من الأرض ضيق ... على جبل كانت به الأرض تمنع

وفي قوله:

هوى جبل الدنيا المنيع وغيثها ... المريع وحاميها الكمي المشيع

ثم يطلق الشاعر لسجيته الحزينة الخصيبة العنان فيبكي حميداً بالمعاني التي وقرت له في نفسه من طول صحبته له وتجربته معه ومعرفته إياه، ويتحير على أي نحو يبكيه وبأي شجو يرثيه:

على أي شجو تشتكي النفس بعده ... إلى شجوه أو يذخر الدمع مدمع

ألم تر أن النفس حال ضياؤها ... عليَّ وأضحى لونها وهو أسفح

وأوحشت الدنيا وأودى بهاؤها ... وأجدب مرعاها الذي كان يمرع

وقد كانت الدنيا به مطمئنة ... فقد جعلت أوتادها تتقلع

بكـــى فقـــده روح الحيـــاة كـــما بكـــى نـــداه النـــدى وابـــن الـــسبيل المـــدمع
وفارقـــت البـــيض الخـــدور وأبـــرزت عواطـــل حـــسرى بعـــده لا تقنـــع
وأيقـــظ أجفانـــاً وكـــان لهـــا الكـــرى ونامـــت عيـــون لم تكـــن قبـــل تهجـــع
ولكنـــه مقـــدار يـــوم ثـــوى بـــه لكـــل امـــرئ منـــه نهـــال ومـــشرع

- ١٥ -

محمد بن يسير الرياشي
(٠٠ - حوالي - ٢٣٠هـ)

أ - حياته ونشأته:

محمد بن يسير المجهول الولادة والمتوفى / ٢٣٠/ هـ واحد من الشعراء الذين تمسكوا بالإقامة في بلدتهم ولدوا فيها، فلم يغادروها إلى مكان آخر خارجها، فهو لم يغادر مدينته " البصرة" خلال حياته التي شملت النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وطرفاً من القرن الثالث. والبصرة آنذاك تحفل بكل متضاد متناقض من أسباب الحياة الاجتماعية والأدبية والثقافية والفكرية والدينية ومظاهرها، مجتمعها مجتمع زاخر فائر مختلط فيه الحابل بالنابل مشتبك فيه الغث بالسمين.

فلقد كان في البصرة آنذاك من مظاهر المجون والانحلال والانفلات عن القيم شيء كثير، وكان فيها من نفحات الفكر والجدل في النحو واللغة واصطراع الأفكار والآراء، وكان فيها من تيارات الأدب شعراً ونثراً ورواية وتسجيلاً شيء كثير، وكان فيها من نفحات الفكر والجدل في النحو واللغة واصطراع الأفكار والآراء بحور زاخرة متلاطمة، وكان فيها من حلقات العلوم الدينية من فقهية ومذهبية وكلامية ما حفلت به الكتب وامتلأت به المتون.

وكان فيها من اتجاهات الزهد والحكمة ما تجلى في أعمال وأقوال الزهاد والقصاص، وكان فيها من أجناس البشر وأشتات الناس بأخلاقهم المتنافرة وقيمهم المتشاجرة ومسالكهم المتشابكة ما جعل مجتمع البصرة مجتمعاً غريب الأشكال متميز الأطوار متقلب الأحوال.

ب - شخصيته:

لقد كان الشاعر محمد بن يسير صورة دقيقة لمجتمع البصرة، ولعل السبب الرئيسي في ذلك أنه عاش فيها حياته لم يغادرها فانعكست صورتها على شخصيته ووضحت تياراتها على مسلكه وبرزت تناقضاتها في شعره.

ولذلك فقد تجمعت في ابن يسير صفات ما كانت لتتجمع إلا في بصري تعمد أن يعيش حياة البصرة كما هي بكل مظاهرها تلك المتناقضة، فكان الرجل مستهتراً خليعاً سكيراً منحلاً بخيلاً هجاء وصّافاً غنياً فقيراً إنسانياً زاهداً حكيماً أنها صورة غريبة تلك التي تتكون من صور عدة، ثم تتجمع لكي تلبس إنساناً وتكسوه بأثوابها المتباعدة المقاييس والأحجام المتنافره المعايير والألوان أنه جامع الضدين بدأ ماجناً وانتهى.

ج - أغراضه الشعرية:

١+ ٢ - الهجاء والوصف عنده

ولابن يسير مشاركة في الهجاء، ولكنه هجاء راق فكه غير متدن ولا مسف ولا مفحش ولا متهافت وهو لا يهجو لمجرد الهجاء وإنما هو يهجو لسبب لطيف معقول وهو يصب هجاءه في قالب من الفكاهة وإطار من الظرف وخفة الروح وأكثر هجاء ابن يسير انصب على جاره " منيع" البقال وإذا كانت العناية بالجار واجبة ودفع الأذى عنه يدخل في صلب المروءة فإن إهمال " منيع" في حق ابن يسير قد دفع بشاعرنا إلى هجاء نعجته التي كانت تقوم بغاراتها على بستانه تارة وعلى داره أخرى وكان الدمار الذي توقعه بالبستان يوجع قلب الشاعر، فليس أكثر إيجاعاً لقلب شاعر من أن يرى أزهاره تتلف وأشجاره تكسر وأغصانه تقصف وخضرته تصوح أو نضارة بستانه تذوي، وأما الدمار الذي كانت توقعه النعجة بالبيت فكان أكثره إيلاماً لابن يسير هو أكلها كتبه وإتلافها قراطيس شعره.

والشاعر فيها طويل النفس مسترسل الأوصاف في يسر وبساطة وفي غير ما عسف أو تكلف وكأن الشعر طوع يمينه وملء برديه:

لي بستان أنيق زاهر ... ناضر الخضرة ريان ترف
راسخ الأعراق ريان الثرى ... غدق تربته ليست تجف
لمجاري الماء فيه سنن ... كيفما صرفته فيه انصرف
مشرق الأنوار ميّاد الندى ... منثن في كل ريح منعطف
تملك الريح عليه أمره ... فإذا لم يؤنس الريح وقف

يكتسي في الشرق ثوبي يمنة ومع الليل عليها يلتحف
ينطوي الليل عليه فإذا واجه الشرق تجلس وانكشف
صابر ليس يبالي كثرة جز بالمجل أو منه نتف
كلما ألحف منه جانب لم يلبث منه تعجيل الخلف
لا ترى للكف فيه أثرا فيه بل ينمي على مس الأكف
فترى الأطباق لا تمهله صادرات واردات تخلف
فيه للخارف من جيرانه كلما احتاج إليه مخترف
أقحوان وبهار مونق وسوى ذلك من كل الطرف
وهو في الأيدي يحيون به على الآناف طوراً يستشف

إن ابن يسير يسهم بهذا الوصف البديع الخلاب إسهاماً واضحاً في فن الروضيات من شعر الطبيعة فلقد خلع على بستانه من صفات البهاء والنضرة والجمال أوفر وأخصب ما يخلعه شاعر عاشق للطبيعة على بستان، غير أن ابن يسير لم يكن يقصد إلى وصف البستان كغرض وهدف، وإنما جعل ذلك مقدمه أن ابن يسير لم يكن يقصد إلى وصف البستان كغرض وهدف وإنما جعل ذلك مقدمة لتأليف الخواطر على النعجة المخربة التي أنزلت التلف والدمار بهذا البستان الأنيق ومن الطريف أن ابن يسير جعل من هذه النعجة خصماً وغريماً وتمثلها كما لو كانت شخصاً يصدر أفعاله عن عقل وسوء نية ومن ثم فهو يصب عليها من ألوان الهجاء ما لو صبه على ذي مروءة من البشر لجدع أنفه ونال من كرامته.

إن ابن يسير يصف فمها فيقول: إنه كالح قبيح المنظر، وأما أنفها فدائم السيل لا يجف، وأما أظلافها فطويلة مخربة غير مهذبة تنسف في مشيتها فتثير سحاباً من الغبار وأعاصير من التراب وبعد وصفه مشيتها يصف سعالها، ويذكر " أشياء أخرى" تتبع السعال ويمعن الشاعر في هجاء النعجة فيقول: إنها كريهة الرائحة شوهاء الخلقة تعافها التيوس وهي لو عرضت في مكان عام ونودي عليها لجمع صاحبها فلوساً كثيرة:

اعفه يا رب من واحدة ثم لا أحفل أنواع التلف

اكفه شاة " منيع" وحدها ... يوم لا يصبح في البيت علف
اكفه ذات سعال شهلة ... متعت في شر عيش بالخوف
اكفه يا رب وقصاء الطلى ... الحم الكتفين منها بالكتف
وكلوح أبداً مفترة ... لك عن هتم كليلات رجف
ونؤوس الأنف لا يرقأ ولا ... أبداً تبصره إلا يكف
لم تزل أظلافها عافية ... لم يظلف أهلها منها ظلت
فترى في كل رجل ويد ... من بقاياهن فوق الأرض خف
ترهج الطرق على مجتازها ... بيد في المشي والخطو القطف
في يديها طرق مشيتها ... حلقة القوس وفي الرجل حنف
فإذا ما سعلت واحدة ودبت ... جاوب البعر عليها فخصف
وأحص الشعر منها جلدها ... شنة في جوف عار منخسف
ذات قرن وهي جماء إلا ... إن الوصف كوصف مختلف
وإذا تدنو إلى مستعسب ... عافها نتناً إذا ما هو كرف
لا ترى تيساً عليها مقدما ... رميت من كل تيس بالصلف
شوهة الخلقة ما أبصرها ... من جميع الناس إلا وحلف
ما رأى شاة ولا يعلمها ... خلقت خلقتها فيما سلف
عجباً منها ومن تأليفها ... عجباً من خلقها كيف ائتلف!
لو ينادون عليها عجبا ... كسبوا منها فلوساً ورغف

إن هذا الوصف الساخر لا نكاد نرى له مثيلاً، وهو من الدقة بحيث لا يحسه إلا ريفي سمع الثغاء ورأى قطعان النعاج في طريقها إلى الرعي، وفراداها تعبث في الحقول وتعيث فساداً في البيوت، ولفرط غيظ ابن يسير من شاة منيع يمضي في قصيدته الهجائية الطويلة

الطريفة يدعو عليها ويتمنى لها كل أسباب الشر والهلاك بسكين رهيفة الشفرة في يد حكيم الكف خفيفها:

فتناهت بين أضعاف المعى ... وتبوت بين أثناء الشغف

أو أن يراها:

شاغراً عرقوبها قد أعقبت ... بطنة من بعد إدمان الهيف

وغدا الصبية من جيرانها ... ليجروها إلى مأوى الجيف

فتراها بينهم مسحوبة ... تجرف الترب بجنب منحرف

فإذا صاروا إلى المأوى بها ... أعملوا الآجر فيها والخزف

ثم قالوا ذا جزاء للتي ... تأكل البستان منا والصحف

لا تلومونى، فلو أبصرت ذا ... كله فيها إذن لم أنتصف

وخصومة ابن يسير وشاة منيع متتابعة موصولة، لأن عبث هذه النعجة المتلافة لا يقف مع الشاعر عند حد. وابن يسير في كل ذلك محتشم التصرف مهذب الجوار، إنه لم يزد على أن هجا الشاة لعبثها بالبستان، ولكنها تتشجع، وينتقل ميدان نشاطها المدمر من البستان إلى الدار، فتهجم عليها وهو غائب فتأكل كتبه والأوراق التي دون فيها شعره. لقد أشار ابن يسير إلى شيء من ذلك ـ بلطف ـ في البيت قبل الأخير، ولكنه هذه المرة لفرط غيظه لا يجد بداً من التلميح الخفيف والإشارة إلى أصحاب النعجة بضمير الغائبين، إنهم يجيعونها فتنقض على أمتعة الجيران، وهو يطلب إليهم أن يبيعوها طالما أعوزهم العلف. إنه يقول ذلك في الأبيات طريفة تجمع بين نفثات مغيظة وانعكاسات ضاحكة:

قل لبغاة الآداب ما صنعت ... منها إليكم فلا تضيعوها

وضمنوها صحف الدفاتر بالـ ... ـحبر وحسن الخطوط أوعوها

فإن عجزتم ولم يكن علف ... تسيغه عندكم فبيعوها

هذا ولابن يسير هجاء في البشر اشتمل كثيراً من المعاني الفكهة التي ضمنها هجاءه الغنم، إنه ينحو إلى جانب الطرافة والسخرية الخفيفة غير المريرة مع تماسك في أسلوبه وبنائه الشعري، فمن ذلك أبيات كتبها لأحد الهاشميين كان بينهما مودة أعقبها ملال:

قد كنت منقبضاً وأنت بسطتني ... حتى انبسطت إليك ثم قبضتني
أذكرتني خلق النفاق وكان لي ... خلقاً فقد أحسنت إذ أذكرتني
لو دام ودك وانبسطت إلى امرئ ... في الود بعدك كنت أنت غررتني
فهلم نجتذب التذاكر بيننا ... ونعود بعد كأننا لم نفطن

٤+٣ - الموضوعات الاجتماعية والثقافية:

لشاعرنا صروف من القول متميزة عن كثيرين ممن شاركوا في فنون الشعر، ذلك أنه يسجل علاقته بمجتمعه الذي حوله تسجيلاً طريفاً دقيقاً، وهو أمر قلما نلحظه عند لقد أراد أن يستعير حماراً من أحد جيرانه يحمله إلى مكان يقضي فيه بعض أموره، ولكن جاره بخل عليه بالحمار، فما كان من ابن يسير إلا أن ذهب إلى حيث أراد ماشياً، ولكن هذه الحادثة تثير في خاطره شجناً فيعزي نفسه بأنه صاحب رجلين قويتين تبلغانه حاجاته البعيدة كأنها - لما تثيرانه من غبار - عاصفة أو إعصار، ويظل شاعرنا الظريف يصف نفسه مستعملاً رجليه وكأنه يصف جواداً أصيلاً أو في أسوأ ا الحالات حماراً نشطاً، فينشئ هذه الأبيات التي يوجهها إلى صديقة عمرو القصافي مخبراً وشاكياً:

إن كنت لا عير لي يوماً يبلغني ... حاجي وأقضي عليه حق إخواني
وضن أهل العواري حين أسألهم ... من أهل ودي وخلصاني وجيراني
فإن رجليَّ عندي - لا عدمتهما ... رجلا أخي ثقة مذ كان جولاني
تبلغاني حاجاتي وإن بعدت ... وتدنياني مما ليس بالداني
كأن خلفي إذا ما جد جدهما ... إعصار عاصفة مما تثيران
رجلاي لم تألما نكباً كأنهما ... قطا وقدا وإدماجا مداكان

فالحمد لله يا عمرو الذي بهما عن العواري وعن ذا الناس أغناني

ويبلغ ابن يسير قمة من قمم المواقف الإنسانية حين يتعجب بعض القوم من نعال خلقة وسخة كان يلبسها فيكتب أبياتاً بارعة يصف فيها نعاله هذه وصفاً دقيقاً رقيقاً، ويربط بين قدمها وبين نفسه بمعاني الود التي جمعته إليها، ويعمد في أبياته كذلك إلى التهكم، والى الفخر بإخائه ووفائه وعفافه ومنطقة وفعاله إن رأى غيره أن يفخر بالنعال، فلنستعرض هذا الضرب الجديد الغريب من الفكر والشعر:

كم أرى من مستعجب من نعالي ورضائي منها بلبس البوالي
كل جرداء قد تحيفها الخصف بأقطارها بسرد النقال
لا تداني وليس تشبه في الخلقة إن أبرزت نعال الموالي
لا ولا عن تقادم العهد منها بليت لا ولا لكر الليالي
ولقد قلت حين أوثر ذا الود عليها بثروتي وبمالي
من يغالي من الرجال بنعل فسوائي إذا بهن يغالي
أو بغاهن للجمال فإني في سواهن زينتي وجمالي
في إخائي وفي وفائي ورأيي وعفافي ومنطقي وفعالي
ما وقاني الحفا وبلغني الحاجة منها، فإنني لا أبالي

وابن يسير شاعر مثقف يحب الكتب ويهوى القراءة، وكم فجعته النعجة العتيدة – نعجة البقال منيع في كتبه التي تشكل شيئاً مهماً في حياته، إنها بالنسبة إليه ليست مجرد صفحات تحوي أخباراً، ولكن الكتب في بيته مؤنسون وألّاف وجلساء خير، وعشراء معرفة إنها نفسها نظرة الشاعر المثقف العالم أبي عمرو العتابي، بل إنها معانيه، ولكنها صيغت بأسلوب آخر وروح أخرى – ولا بأس في ذلك – وكم تمنينا لو أكثر الشعراء من القول في مثل هذا الغرض ولو تقاربت معانيهم. بقول محمد بن يسير في وصف الكتب:

هم مؤنسون وألاف غنيت بهم فليس لي في أنيس غيرهم أرب

لله مـــن جلـــساء لا جليـــسهم ولا عـــشيرهم للـــسوء مرتقـــب
لا بـــادرات الأذى يخـــشى رفـــيقهم ولا يلاقيـــه مـــنهم منطـــق ذرب
ابقـــوا لنـــا حكـــماً تبقـــى منافعهـــا أخـــرى الليـــالي عـــلى الأيـــام وانـــشعبوا
فـــأيما آدب مـــنهم مـــددت يـــدي إليـــه فهـــو قريـــب مـــن يـــدي كثـــب
إن شـــئت مـــن محكـــم الآثـــار يرفعهـــا إلى النبـــي ثقـــاب خـــيرة نجـــب
أو شـــئت مـــن عـــرب علـــماً بـــأولهم في الجاهليـــة أنبتنـــي بـــه العـــرب
أو شـئت مـن سـير الأمـلاك مـن عجـم تنبـــي وتخـــبر كيـــف الـــرأي والأدب
حتـــى كـــأني قـــد شـــاهدت عـــصرهم وقـــد مـــضت دونهـــم مـــن دهـــرهم حقـــب

وتتولى مشاكل ابن يسير الثقافية بشكل أو بآخر، لقد كان الشاعر يحتفظ معه بـألواح مـن الأبنوس يكتب فيها ما يعنُّ له من شعر أو غيره، وكان بينه وبين قثم بن جعفر بن سليمان مودة وصداقة، وكثيراً ما كان قثم يدعوه للشراب، وقد أسلفنا القول أن ابن يـسير لم يبـت ليلـة إلا وهو سكران، وليس أهون من سرقة السكران، فانتهز قثم مناسبة سكر ابن يـسير وسرق منـه ألواحه الأبنوسية الثمينة، فلما اكتشف الشاعر ضياعها حزن عليها ورثاها، تماماً كـما لـو كـان إنساناً عزيزاً يشاد بشمائله ويرثي لفضائله. إنها بداية المرحلة الثقافية الشعرية، فقـد تـلا ذلـك بـسنوات ثـم بعقـود مـن الـسنوات ثـم بقـرن أو أكثـر وصـف القلـم والمحـبرة والبركـار والإصطرلاب ورثاء سكينة بري الأقلام، وغير ذلك مـن ذكـر أدوات الثقافـة. إن ابـن يـسير واحد من الشعراء الرواد في هذا المجال فلنقرأ رثاءه الطريف لألواحه ((الفقيدة)):

عـــين بكـــي بعـــبرة تـــسفاح وأقيمـــي مـــآتم الألـــواح
أوحـــشت حجـــزتي وردنـــاي منهـــا في بكـــوري وعنـــد كـــل رواح
واذكريهـــا إذا ذكـــرت بـــما قـــد كـــان فيهـــا مـــن مرفـــق وصـــلاح
آبنـــوس دهمـــاء حالكـــة اللـــون لبـــاب مـــن اللطـــاف الملـــاح
ذات نفـــع خفيفـــة القـــدر والمحمـــل حلكوكـــة الـــذرا والنـــواحي

وسريـــــع وجفوفهـــــا إن محاهـــــا عنـــد ممـــل مـــستعجل القـــوم مـــاحي

هـــــي كانـــــت عـــــلى علـــــومي والآ داب والفقـــــه عـــــدتي وســـــلاحي

كنـــت أغـــدو بهـــا عـــلى طلـــب العلـــم إذا مـــــا غـــــدوت كـــــل صـــــباح

هـــــي كانـــــت غـــــذاء زوري إذا زار وري النـــــديم يـــــوم اصـــــطباحي

ويبدو أن هذه الألواح كانت عزيزة على قلب ابن يسير بحيث ظل ذاكراً لها حزيناً على ضياعها، لأنه رثاها أكثر من مرة، ويفهم من شعره فيها أنها كانت مزدانة الصدف والأطر الجلدية. يقول شاعرنا مرة أخرى في ألواحه:

أبقـــــت الألـــــواح إذ أخـــــذت حرقـــــة في القلـــــب تـــــضطرم

زانهـــــا فـــــصان مـــــن صـــــدف واحمـــــرار الـــــسير والقلـــــم

وتـــــولى أخـــــذها قـــــثم لا تولـــــى نفعهـــــا قثـــــم

٦+٥ - الحكمة والزهد عند ابن يسير:

وينتهي المطاف بابن يسير كما انتهى بغيره من الشعراء من معاصريه باصطناع الحكمة أو باعتناقها مبدأ وسبيلاً، لقد انتهى إليها كل شعراء زمانه تقريباً، وعاش في رحابها بداية ونهاية بعض منهم كالعتابي والخريمي ومحمود الوراق. أما شاعرنا فمن الفريق الأول، ذلك الفريق الذي أسرف على نفسه وعلى مجتمعه في مرحلة الشباب والهرم، ولم يتوبوا إلا على أبواب الشيخوخة، شيخوخة السن أو شيخوخة العافية، بجانب إنساني عميق مؤثر. إن ابن يسير بدأ يعلن عن حبه للحياة بشكل جديد، ليس لمعاقرة الكأس أو مصاحبة الغواني، ولكن لعيش ابنته التي يحبها ويحنو عليها ويخشى عليها إذا مات ذل اليتيمة وقد جفاها ذوو رحمها، إنه يخشى على فلذة كبده فظاظة عم أو جفاء أخ، وهو كلما تصورها تندبه سالت عبرته ممزوجة بدمه، ومن ثم فهو يتمنى لها شيئاً آخر في حياته حبالها وشفقة بها، فماذا قال الشاعر الحكيم وماذا تمنى؟

إنه يقول:

لـــولا أميمـــة لم أجـــزع مـــن العـــدم ولم أجـــب في الليـــالي حنـــدس الظلـــم

وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
إذا تذكرت بنتي حين تندبني جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم

ولا يلبث ابن يسير في ضوء تجارب الحياة أن ينطلق من عقال ذاتيته إلى ميدان الحياة الرحيب، فيلفظ الحكمة لكل الناس ينتفعون بها ويرددونها نماذج تروى على ألسنتهم من بعده، إنه يقول:

تخطي النفوس مع العيان وقد تصيب مع المظنة
كم من مضيق في الفضاء ومخرج بين الأسنة

ولكنه إن بدا قدرياً في البيتين السابقين فهو صاحب حكمة تجريبية عميقة ومبدأ أخلاقي صادق في حديثه عن صاحب السوء والتعريف به عندما يقول:

وصاحب السوء كالداء العياء إذا ما ارفض في الخد يجري من هنا وهنا
يبدي ويخبر عن عوراء صاحبه وما يرى عنده من صالح دفنا
فإن يكن ذا فكن عنه بمعزلة أو مات هذا فلا تشهد له خبنا

هذا ولابن يسير أبيات استقرت في خواطر وحوافظ كثير من الناس دون أن يعرف أكثر حفاظها من قائلها. إنها الأبيات الجيمية القافية التي تطرد اليأس وتحض على الصبر في علاج الأمور ومداومة العمل والسعي دون كلل أو ملل مع الاحتراز من الأيام، فصفوها لا يدوم وكدرها ممزوج بصفوها. يقول الشاعر المجرب الحكيم:

ماذا يكلفك الروحات والدلجا البر طوراً وطوراً تركب اللججا
كم من فتى قصرت في الرزق خطوته ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
لا تيأس وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غرة زلجا
ولا يغرنك صفو أنت شاربه فربما كان بالتكدير ممتزجا
لا ينتج الناس إلا من لقاحهم يبدو لقاح الفتى يوماً إذا نتجا

ومن مقام الحكمة ينتقل محمد بن يسير إلى المرحلة التالية، إنها مرحلة الزهد في الحياة وتذكر الموت واستحضاره، إنه يطرق معاني أبي العتاهية، ولكن بصورة أعمق فكرة وأوقر تناولاً، وأجزل شعراً، وذلك في قوله الرصين العميق:

لكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد
هم جيرة الأحياء أما محلهم فدان ولكن اللقاء بعيد

ثم ينتقل الشاعر إلى مرحلة أبعد في الزهد حين يستحضر الموت ويرى نفسه على سرير المنايا ماضياً في فكرته على درب أبناء زمانه، ولكنه أكثر منهم إفصاحاً عن إيمانه بالآخرة والثواب والعقاب.

عجباً لي ومن رضاي بحال أنا منها على شفا تغرير
عالماً لا أشك أني إلى عدن إذا مت أو عذاب السعير
كلما مر بي على أهل ناد كنت حيناً بهم كثير المرور
قيل من ذا على سرير المنايا؟ قيل هذا محمد بن يسير

ويطلب محمد بن يسير الرحمة من الله للناس، ويخشى العذاب ويندم على غفلته ويسخر من طول المقام في الدنيا فالموت نهاية كل حي، ويكرر الابتهال إلى الله طمعاً في رحمته، وذلك في قوله الذي نحس فيه صدق المناجاة:

ويل لمن لم يرحم الله ومن تكون النار مثواه
واغفلتا في كل يوم مضى يذكرني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمره وعاش فالموت قصاراه

كأنـــــه قـــــد قيـــــل في مجلـــــس قـــــد كنـــــت آتيـــــه وأغـــــشاه

محمـــــــد صـــــــار إلى ربـــــــه يرحمنـــــــــــا الله وإيـــــــــــاه

تلك رحلة عمر محمد بن يسير: مجون وانحلال، ثقافة ومعرفة، ثم حكمة وتجربة ثـم زهـد وتوبة وابتهال. وأما رحلة فنه فهو شاعر موهوب جيد المعاني متمكن الـصوغ وصـادق دقيـق صاحب فكاهة، رائد في مدرسة الشعر الثقافي، أوله نواسي ووسطه عتابي وآخـره خريمـي، إن فيه من أبي نواس مجونه وخلاعته ورقة شـعره، ومـن العتـابي ثقافتـه وحبـه للمعرفـة وعـشقه للكتب وإجلاله لها، ومن الخريمي حكمته العميقة النابعة من تجاريب الحياة وأسلوبه الشعري المتمكن الجزل البناء الرصين التكوين، وهو بعد ذلك سـجلٌّ أمـين دقيـق لثقافـة أهـل زمانـه وطبيعة مجتمعهم.

- ١٦ -

ديك الجن
عبد السلام بن رغبان
/ ١٦١ - ٢٣٥/ هـ

أ - حياته ونشأته:

ولد وعاش ومات في حمص، لم يبرحها إلا إلى المناطق المجاورة لها، ولم يحاول أن يذهب إلى بغداد التي كانت قبلة الشعراء والأدباء ومركز العلم والثقافة والوجاهة والسياسة مثلما كان يفعل شعراء زمانه، وإنما أصر على البقاء في موطنه. يشدو بشعره المختل، فالألوان والأشكال والطعوم حتى سافر شعره دونه إلى بغداد وغير بغداد، الأمر الذي جعل كبار شعراء بغداد يفدون إلى حمص ويطرقون باب بيته يكيلون له الثناء والإعجاب ويجزلون له التحايا والتقريظ على ما سوف نبين بعد قليل، وسبب تسمية عبد السلام ابن رغبان بديك الجن، هو أن عبد السلام ابن رغبان كان ذا عينين زرقاوين صافيتين صفاء عين الديك.

ب - شخصيته:

إن عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن واحد من الشعراء الذين ميَّزتهم من غيرهم أحداث خاصة وقضايا بعينها، ذلك أن ديك الجن من شعراء الأمصار العباسية، فهو شامي من حمص،، كان ديك الجن ماجناً خليعاً متلافاً على معاشرة المجان ومخالطة أهل الخلاعة، وكان له ابن عم يكنى بأبي الطيب لا يتوانى عن وعظه وإسداء النصح إليه، فكان ديك الجن يقابل ذلك بالاستخفاف، وانتهى به الأمر إلى إنشاء قصيدة طويلة يجاهر فيها بالانحراف، ويهجو ابن عمه هجاء مقذعاً مطلعها:

مولاتنـــا يـــا غـــلام مبتكـــره ... فبـــاكر الكـــأس بـــلا نظـــرة

غـــدت عـــلى اللهـــو والمجـــون عـــلى ... أن الفتـــــاة الحييـــــة الخفـــــرة

لحبهـــا - لا عـــدمتها - حـــرق ... مطويـــة في الحـــشا ومنتـــشرة

والقصيدة طويلة عاج فيها ديك الجن على هجاء ابن عمه هجاء حوى أسباباً من الفحش والقسوة والمرارة، وختمها - والخطاب موجه إلى ابن عمه - بقوله:

سبحان من يمسك السماء على الأر ض وفيها أخلاقك القذرة

كل ذلك التهجم والقسوة سببها إرادة الخير للشاعر وزجره عن خلاعته ومجونه ودعوته إلى الحشمة والاستقامة.

ج - شذوذه:

وكان ديك الجن في مضمار مجونه يشبب بفتى من حمص اسمه بكر، وأكثر من قول القصائد والمقطوعات غزلاً بهم تشبباً فيه.

د - حبه لآل البيت:

ولكن الأمر الذي يبدو غريباً أن آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وله في مدحهم ورثاء حالهم والبكاء على الحسين قصائد كثيرة، لعل أشهرها تلك التي يقول فيها:

يا عين لا للقضاء ولا الكتب بُكا الرزايا سوى بُكا الطرب

هـ - شعوبيته:

وديك الجن بالإضافة إلى ذلك شعوبي يحمل على العرب ويتحمس لغيرهم، بل إنه افتخر بعدم انتسابه إلى العرب، وذلك في قوله:

إن كان عرفك مذخوراً لذي سبب فاضمم يديك على حر أخي نسب

أو كنت وافقته يوماً على نسب فاضمم يديك فإني لست بالعربي

إني امرؤ بازل في ذروتي شرف لقيصر ولكسرى محتدي وأبي

من خلال هذه الصيغة الهجومية كان ديك الجن يحمل على العرب ويهاجمهم ويفخر بالانتساب إلى غيرهم، فإذا ما خفف من غلواء شعوبيته قال: ما لهم فضل علينا، أسلمنا كما أسلموا، ومن قتل منهم رجلاً منا قتل به.

وكان الشعراء الشعوبيون يتخذون من الوقوف على الأطلال ذريعة للتهجم على العرب والتعويض بهم، وإن ديك الجن يعمد إلى الصنيع نفسه في بعض قصائده، فمن ذلك قوله:

قالوا السلام عليك يا أطلال ... قلت السلام على المحيل محال
عاج الشقي مراد دمن البلى ... ومراد عيني قبة وحجال
لأغادين الراح وهي زلال ... ولأطرقن البيت غزال
ولأتركن حليلها وبقلبه ... حرق وحشد فؤاده بلبال

كما صنع أبونواس في أبياته:

عاج الشقي على دار يسائلها ... وعجت أسأل عن خمارة البلد

وديك الجن في بيته الثالث الذي يسترخص فيه حرمات البيوت إنما يناقض به الخلق العربي الحريص على العفة والفضيلة والحفاظ على الجارات الذي يتمثل في قول عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

وعلى النهج نفسه في كراهيته للعرب يقول ديك الجن في أبيات أخرى ساخراً من ظاهرة الوقوف على الأطلال:

نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى ... كهوى جديد أو كوصل مقبل
ما إن أحن إلى خراب مقفر ... درست معالمه كأن لم يؤهل
مقتي لمنزلي الذي استحدثته ... أما الذي ولّى فليس بمنزلي

إن أبا تمام أخذ هذا المعنى من ديك الجن وقلبه رأساً على عقب فقال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

لقد كانت الشعوبية وكراهية العرب منتشرة بين كثير من الشعراء في ظل الحكم العباسي الذي كان يدين بنشأته للفرس. ومن ثم كانت بغداد متخمة بجموع الشعراء الشعوبيين. فإذا

ما نحّينا السلوك الشخصي جانباً وجدنا ديك الجن من أنبغ شعراء الفترة العباسية، وكان نداً لكبار شعراء زمانه مثل أبي نواس ودعبل الخزاعي.

و - أستاذيته في الشعر:

كان أستاذاً لكبار شعراء العربية من أمثال أبي تمام والمتنبي والوأواء الدمشقي.

فأما أبو نواس فقد اجتاز بحمص وهو في طريقه من العراق إلى مصر لكي يمدح واليها الخصيب بن عبد الحميد. وفيها توجّه إلى دار ديك الجن وطرق بابه واستأذن الدخول. ولكن جارية ديك الجن أنكرت وجود سيدها بالبيت حسبما أوصاها بذلك. فعرف أبو نواس بفراسته أن الرجل ينكر وجوده خشية أن يبدو قاصراً أمامه وقال لها: قولي له اخرج فقد فتنت أهل العراق بقولك:

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

فلما سمع ديك الجن حديث أبي نواس للجارية خرج إليه وأحسن استقباله.

لقد جرى إعجاب أبي نواس بديك الجن حين كان هذا الأخير لم يتعد الثلاثين من عمره بعد، وكان منطوياً على نفسه في حمص لا يبرحها، ولكن جودة شعره انطلقت في الآفاق تدق أبواب أندية بغداد والبصرة وأنحاء أخرى من عالم ذاك الزمان.

ولدعبل الخزاعي قصة مشابهة مع الشاعر الحمصي، فلقد وفد على حمص وقصد إلى دار ديك الجن يبغي لقاءه، ولكن ديك الجن لم يرد أن يواجهه خوفاً منه تماماً مثلما فعل مع أبي نواس وهنا يقول دعبل: ما له يستر عنا وهو أشعر الجن والإنس أليس هو القائل:

بها غير معدول فداو خمارها وصل بعشيات الغبوق ابتكارها

ونل من عظيم الوزر كل عظيمة إذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

حينئذ اطمأن ديك الجن وظهر لدعبل واعتذر له وأحسن استقباله.

هذا ولقد تثقف الشاعر العظيم أبو تمام على شعر ديك الجن، وكان يتردد عليه بين الحين والحين، وكان ديك الجن يعطف عليه ويعطيه نسخاً من قصائده يتثقف عليها وينمي شاعريته بقراءتها، وكان أبو تمام آنذاك حدث السن رطب العود.

ومن الطريف أن التلميذ قد فاق أستاذه شعراً وشهرة، ومن المؤسف كذلك أنه لم يعمر طويلاً، فقد مات التلميذ في حياة أستاذه الذي حزن على وفاته ورثاه.

ز - حادثة قتله زوجته وشعره فيها:

لا يذكر ديك الجن إلا وتذكر معه حادثة رهيبة أثرت حادثة قتله لزوجته في حياته وجعلته يمنح التراث الشعري لوناً جديداً من فن الرثاء المخلوط بالغيرة المتلفع بالندم المشوب بالدماء، أما الحادثة التي نشير إليها المرتبطة بحياته وسيرته فهي أنه أحب فتاة نصرانية اسمها ورد، ثم جعلها تعتنق الإسلام وتزوجها، وتصادف أن غاب ديك الجن عن بيته بعض الوقت فلما عاد سمع من أفواه الناس ما يسيء إلى سمعة زوجته وعفتها، فقتلها، ولما أن أفاق من غضبته ندم على فعلته وأخذ يبكيها بكاء مراً تارة وتارة أخرى يخلط البكاء والرثاء بوجوب الثأر منها والانتقام لشرفه وعرضه.

وهناك رواية أخرى تقول: إن المقتولة هي جاريته دنيا التي اتهمها في غلامه وصف. وسواء صحت هذه الرواية أو تلك فقد وقعت الحادثة وكانت مصدر إلهام وتفجع أمدته بلون من الشعر يشتمل على الكثير من الأعذار والعواطف، ولكنه مشبع في كل حالاته بالدماء.

يقول ديك الجن مصوراً قتله لزوجته غيرة عليها وبخلاً بحبها على سواه:

يا طلعة طلع الحمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتي من شفتيها
مكنت سيفي في مجال خناقها ... ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى ... شيء أعز عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على سواي بحبها ... وأنفت من نظر الغلام إليها

وفي أبيات أخرى لديك الجن يذهب الشاعر مذهب الندم ويحاول تبرئة ساحة نفسه حيال فعلته، ويظهر الحزن والبكاء والأسى، ولكن أساه ليس على ما فعل، بل على ما فعلت هي، وفي ذلك يصدر عن هذه الأبيات:

ليتنـــي لم أكـــن لعطفـــك نلـــت وإلى ذلـــك الوصـــال وصـــلت
فالـــذي منـــي اشـــتملت عليـــه ألعـــار مـــا قـــد عليـــه اشتملـــت
قـــال ذو الجهـــل قـــد حلمـــت ولا أعلـــم أني حلمـــت حتـــى جهلـــت
لائـــم لي بجهلـــة ولمـــاذا أنـــا وحـــدي أحببـــت ثـــم قتلـــت
ســـوف آســـى طـــول الحيـــاة وأبكيـــك عـــلى مـــا فعلـــت لا مـــا فعلـــت

ويظل ديك الجن سادراً في خضم غضبه ويثير في خواطره الإحساس بالتمرد على هوى الغواني ويرميهن بالكذب في عواطفهن والنفاق في مشاعرهن، ثم ينعطف إلى زوجه القتيل مُصدراً حكمه عليها بالقتل لخيانتها قائلاً:

لـــك نفـــس مواتيـــة والمنايـــا معاديـــة
أيهـــا القلـــب لا تعـــد لهـــوى البـــيض ثانيـــة
لـــيس بـــرق يكـــون أخلـــب مـــن بـــرق غانيـــة
خنـــت سري ولم أخنـــك فمـــوتي علانيـــة

غير أن ديك الجن لا يلبث أن ينهار أسى وينفطر حزناً على زوجته القتيلة رغم خيانتها له، فتزدحم في خاطره شحنات كاسحة من العواطف والذكريات فيفرغها جميعاً في هذه الأبيات الرقيقة الحزينة الباكية:

أشـــفقت أن يـــرد الزمـــان بغـــدره أو أبـــتلى بعـــد الوصـــال بهجـــره
قمـــر أنـــا اســـتخرجته مـــن دجنـــه لبليتـــي وجلوتـــه مـــن خـــدره
فقتلتـــه ولـــه عـــلي كرامـــة مـــلء الحـــشى ولـــه الفـــؤاد بـــأسره
عهـــدي بـــه ميتـــاً كأحـــسن نـــائم والحـــزن يـــسفح عـــبرتي في نحـــره
لـــو كـــان يـــدري الميـــت مـــاذا بعـــده بـــالحي حـــل بكـــى لـــه في قـــبره
غـــصص تكـــاد تفـــيض منهـــا نفـــسه وتكـــاد تخـــرج قلبـــه مـــن صـــدره

نقول: إن شحنات من العواطف والذكريات ازدحمت في خاطر ديك الجن فبكى زوجته على رغم خيانتها هذا البكاء الذي بدا صادقاً، ذلك أننا لو عدنا بعلاقتهما إلى الوراء قليلاً واستعرضنا ما قاله فيها من غزل لوقعت أعيننا على بدرة من أبيات الحب وصورة من صور الجمال عذبة خلابة رسمها الشاعر المحب في عناية وتأنق وافتنان، قال ديك الجن في ((ورد)) التي صارت له زوجاً، ثم ضحية وشاية على بعض الروايات:

انظر إلى شمس القصور وبدرها ... وإلى خزاماها وبهجة زهرها

لم تبل عينك أبيضاً في أسود ... جمع الجمال كوجهها في شعرها

ورديـة الوجنات يختبر اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرها

وتمايلت فضحكت من أردافها ... عجباً ولكني بكيت لخصرها

تسقيك كأس مدامة من كفها ... ورديـة ومدامة من ثغرها

لقد اقترف الشاعر جريمة قتل من أحب حباً شديداً، وبالتالي فقد أحسَّ بمضاعفات الوزر الذي ارتكبه، ثم أراد أن يهرب من هذا الوزر وما يستتبعه من هواجس أقضَّت مضجعه وبلبلت خواطره، فكان عليه لكي يهرب من واقعه الأليم أن يقنع نفسه بشرعية ما اقترف وصواب ما ارتكب، ومن ثم فقد اندفع يقول شعراً يحمله هذه المعاني، ولكن كوامن إحساسه بالحسرة والندم كانت تفرض واقعها عليه فتغلبه على أمره، فكان نتاج أحاسيسه هذا الشعر الغريب الفريد الذي جمع من الرقة نهايتها ومن العاطفة أعمقها ومن الأحاسيس ألواناً متنافرة متعاركة متداخلة متشاجرة.

ولكن تمكُّن الشاعر القاتل المحب من فنه وإمساكه بعنانه جعله يسوقه في هذا المضمار المستقيم في لون من التجانس إن رفضه العقل والمنطق قبله الذوق والإحساس.

ح - صنعته:

يعد ديك الجن الحمصي شاعراً مجيداً متمكناً ممسكاً بأسباب الإتقان غير بعيد عن التطور إن لم يكن رائداً فيه، وبالتالي فهو مقلد حيناً، مجدد أحياناً أخرى.

١ - **التقليد عنده:** فمن شعره الذي قلد فيه سابقه من الشعراء المحبين الماديين قوله متابعاً نهج مدرسة عمر بن أبي ربيعة:

و معدولة مهما أمالت إزارها فدعص وأما قدها فقضيب
لها القمر الساري شقيق وإنها لتطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله وغصن الهوى غض الشباب رطيب
ونحن به فردان في ثني مئزر بك العيش يا زين النساء يطيب
لأنت المنى يا زين كل مليحة وأنت الهوى أُدعى له فأجيب

ليس من شك في أن هذه الأبيات رقيقة النسج عذبة الإيقاع، ولكنها شبيهة بالكثير من شعر المحبين السابقين زماناً على ديك الجن ممن كانت حياتهم إلى البداوة أقرب منها إلى الحضارة. ومثلها بل أكثر بداوة منها قوله:

ولي كبد حرى ونفس كأنها بكف عدو ما يريد سراحها
كأن على قلبي قطاة تذكرت على ظمأٍ ورداً فهزت جناحها

٢ - **التجديد عنده:** غير أن نصيب ديك الجن من الجديد أكبر وسهمه في التجديد أوفر، لقد مر بنا في صدر الحديث عن الشاعر قول أبو نواس للجارية حين أنكرت وجود سيدها ديك الجن في البيت، قوله لها فقد فتنت أهل العراق بقولك:

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

وهو بيت من مقطوعة يقول فيها:

بها غير معدول، فداو خمارها وصل بعشيات الغبوق ابتكارها
وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغر ولا تسق إلا خمرها وعقارها
فقام، تكاد الكأس تحرق كفه من الشمس أو من وجنتيه استعارها
موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها وتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

لا شك أن أبا نواس كان صادقاً الصدق كله حين أبدى إعجابه وترجم عن إعجابه مواطنه العراقيين بهذه الأبيات التي جمعت من أسباب الاتساق والخيال والصورة، ومن براعة الصوغ ورقة الإيقاع ما يجعلها تحتل مكانة مرموقة بين صور التجديد وأساليبه.

ومن الصيغ الجديدة التي قدم لها ديك الجن نماذج عدلت فيه رشاقة الأسلوب وانتفاحه طرافه المعاني وأعماقها قوله متغزلاً:

وغرير بين الدلال وبين الملك فارقته على رغم أنفي
لم أكن أعلم الزمان بحبيه فيجني فيه علي بصرف
صنت عن أكثري هواه فما يعلم ما بي إلا فؤادي وطرفي

إنها صناعة في القول مترفة، وتأنق في المعاني مرتب، العفوية بعيده عنها، ولكن الذوق يقبلها ويعجب بها ولا يرفضها.

ومع ذلك فإن ديك الجن لا يفتأ ممسكاً بزمام فحولة القول وجلال المعنى في مختلف أبواب الشعر، وإذا كان القول في الرثاء محكاً صادقاً لفحولة الشعراء لما يتطلبه الموقف من جلال المعاني ودقتها، وصدق الصور وحرارة المشاعر وتوليد الحكم وجزالة الأسلوب، فإن ديك الجن لا يقصر في هذا المجال،بل إنه يجيد ويبرز ويتفوق.

إن لديك الجن مراثي كثيرة لعل من أشهرها قصيدته الطويلتين، الأولى كانت عزاء لجعفر بن علي الهاشمي في فقد ولده، والثانية في رثاء جعفر نفسه لما مات ومطلع مرثيته لجعفر:

على هذه كانت تدور النوائب وفي كل جمع للذهاب مذاهب

وفيها يقول مصطنعاً الحكمة التي تمتزج عادة مع مواقف الرثاء:

تزلنا على حكم الزمان وأمره وهل يقبل النصف الألد المشاغب؟
وتضحك سن المرء والقلب موجع ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب
ألا أيها الركبان والرد واجب قفوا حدثونا ما تقول النوادب
إلى أي فتيان الندى قصد الردى وأيهم نابت حماه النوائب

هذا ولم ينس الشاعر أن يعمد إلى صنعة خفيفة كانت من حسن العرض وخفة النسج بحيث لم تفرض ثقلها على السمع، وبالتالي لم تفسد جلال موقف الرثاء ومعانيه.

فيا لأبي العباس كم رد راغب ... لفقدك ملهوفاً وكم جب غارب
ويا لأبي العباس إن مناكبا ... تنوء بما قد حملتها النواكب
فيا قبره جد كل قبر بجوده ... ففيك سماء ثرة وسحائب
فإنك لو تري بما فيك من علا ... علوت وباتت في ذراك الكواكب
أخاً كنت أبكيه دماً وهو نائم ... حذاراً وتعمى مقلتي وهو غائب
فمات ولا صبري على الأجر واقف ... ولا أنا في عمر إلى الله راغب

ويغمس الشاعر نفسه في تيار الحزن غمساً عميقاً في مناجاة نفسية نحس فيها الصدق والعمق وذلك في قوله:

أأسعى لأحظى فيك بالأجر؟ إنه ... لسعي إذن مني لدى الله خائب
وما الإثم إلا الصبر عنك وإنما ... عواقب حمد أن تذم العواقب
يقولون: مقدار على المرء واجب ... فقلت: وإعوال على المرء واجب
هو القلب لما حم يوم ابن أمه ... وهى جانب منه واسقم جانب
ترشفت أيامي وهن كوالح ... عليك وغالبت الردى وهو غالب

وعندما انتقل الشاعر إلى ذكر شمائل المرثي ومناقبه فإن ديك الجن يصورها حزين النفس عفوي العطاء، لا تعسف في اقتناص معنى ولا تعثر في اصطياد خاطرة:

فتى كان مثل السيف من حيث جئته ... لنائبه نابتك فهو مضارب
فتى همه حمد على الدهر رابح ... وإن غاب عنه ماله فهو عازب
شمائل إن يشهد فهن مشاهد ... عظام وإن يرحل فهن كتائب
بكاك أخ لم تحوه بقرابة ... بلى إن إخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التي كنت جارها ... كأنك للدنيا أخ ومناسب

يـــــبرد نـــــيران المـــــصائب أننـــــي أرى زمنـــــاً لم تبـــــق فيـــــه مـــــصائب

وكثيراً ما كان ديك الجن يعمد إلى الصنعة اللفظية والصورة البيانية في مقام الرثاء حتى يستجلب أعجاب من يهتمون بالأشكال دون الجواهر وهم كثيرون في كل زمان ومكان، ولكنه في اهتمامه بالشكل الذي يقدمه لبعض الناس لا يتنازل عن الاهتمام بالجوهر الذي يرجو به الخاصة ويرضى به نفسه، فمن ذلك قوله:

سـقى الغيـث أرضـاً ضـمنتك وسـاحة لقـبرك فيـه الغيـث والليـث والبـدر

ومـا هـي أهـل إذ أصـابتك بـالبلى لـسقيا ولكـن مـن حـوى ذلـك القـبر

إن ديك الجن شاعر فحل، وإذا كان اعتمد على معاني السابقين فاقتسبها وحسنها، فإن غيره من كبار الشعراء اللاحقين قد اعتمدوا عليه واقتبسوا معانيه طوراً وصيغه تارة أخرى، وفي أحيان كثيرة اقتبسوا الصيغة والمعنى جميعاً، وكان في مقدمة هؤلاء المقتبسين أبو الطيب المتنبي الذي نحس بالكثير من معاني الحكمة عند ديك الجن صارخة في شعره، وهذا البيت الأخير الذي اختتم به ديك الجن مرثيته البائية في جعفر الهاشمي ليس إلا الأصل لبيتي المتنبي المشهورين:

رمـــاني الـــدهر بـــالأرزاء حتـــى فـــؤادي في غـــشاء مـــن نبـــال

فـــصرت إذا أصـــابتني ســـهام تكـــسرت النـــصال عـــلى النـــصال

وهناك البيت المشهور الذي يردده علماء الصناعة لاحتوائه خمسة تشبيهات دفعة واحدة الذي قاله الوأواء الدمشقي:

وأمطـرت لؤلـؤاً مـن نـرجس وسـقت ورداً وعـضت عـلى العنـاب بـالبرد

إن بعض معانيه مأخوذة من بيت ديك الجن:

وحـاذرت أعـين الواشـين فانـصرفت تعـض مـن غيظهـا العنـاب بـالبرد

ومن مظاهر الصنعة والتجديد: مظهران اثنان:

١ - مظهر الشكل والصيغة:

حيث يعمد إلى موسقة بعض أبياته بضروب من الجرس وألوان من الإيقاع، وربما كان الترصيع أقرب هذه الألوان إلى ذوق ديك الجن، مثال قوله:

حر الإهاب وسيمه، بر الإياب كريمه، محض النصاب صميما

أو قوله:

إن العلا شيمي، والبأس من نقمي والمجد خلط دمي، والصدق حشو فمي

ويعمد ديك الجن إلى التجنيس الذي هو بدوره ظاهره موسيقية شعرية، وهو في تجنيسه وطباقه صانع بارع، يسوق إليك زخرفته في غير تعسف أو إسفاف، بل في ثوب من الكلمات الناعمة المترفة الجرس الرطيب والإيقاع المنغم مثل قوله:

نبهته والندامى طال مكثهم فقلت قم واكفنا الهم الذي وكفا

واصرف بصرفك وجه الهم يومك ذا حتى ترى نائماً منهم ومنصرفا

و يعمد ديك الجن أحياناً إلى خلق الصيغة الجديدة المصنوعة وربطها إلى معنى جديد طريف فيه صورة وحركة كقوله:

ودعتها لفراق فاشتكت كبدي إذ شبكت يدها من لوعة بيدي

وحاذرت أعين الواشين فانصرفت تعض من غيظها العناب بالبرد

فكان أول عهد العين - يوم نأت بالدمع آخر عهد القلب بالجلد

وهذه ليست عفوية أو طبعاً، وإنما هو ترتيب لفظ بلفظ وأتباع حركة بحركة، الأمر الذي بدا أول العهد به مقبولاً مرحباً به على أنه شيء جديد، فلما انساق الشعراء في تياره وألحوا على الإكثار منه أصبح شيئاً تمجه النفس ويستثقله الذوق لضياع معاني الشعر السامية الرفيعة في خضم زحمة الألفاظ ودهاليز الأساليب.

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي عند المنام

عند الرقاد، عند الهجوع عند الهجود، عند الوسن

فعسى أنام وتنطفي نار تأجج في العظام

جسد تقلبه الأكف ... على فراش من سقام
من قتاد، من دموع ... من وقود، ومن حزن
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من دوام
من معاد، من رجوع ... من وجود، من ثمن

إن ديك الجن قد ذهل به التجديد في الشكل مذهباً بعيداً فجعله ينفلت من وزن البيت التقليدي إلى هذا الشكل الذي مر بنا، والذي نعلله بسابق قولنا من أن معاني الوجد والحسرة والشكوى والحزن والأسى والندم تزاحمت في خواطر الشاعر، فلم يكن لها منصرف عنه إلا من خلال هذه الصيغة الجديدة التي شكلت مرحلة من مراحل نشأة الموشحات العربية وهي في طريقها إلى الأرض الأندلسية.

٢ - **الصورة والمحتوى:** أسس ديك الجن الحمصي مدرسة شعرية في ابتكار الصور الشعرية، وإن الذي يدرس أبيات ديك الجن في وصف الديك يستطيع أن يرد مدرسة الصورة الشعرية التي اشتهر بها كل من ابن الرومي وابن المعتز إلى أستاذها الأول ديك الجن عبد السلام بن رغبان.

لقد رسم ديك الجن للديك صورة حقيقة ذات ألوان زاهية، هي نفسها ألوان الديك الفاقعة الموزعة على عرفة وجانبي رأسه وعنقه وريش جناحيه وبقية جسمه.

وجعل للصورة خلفية بارعة من كواكب الليل الغاربة التي كانت ترتعي الظلام، ذلك الظلام الذي انقشع بمطلع ضياء الفجر وهي لوحة متحركة تنم بدقة عن حركته حين يهم " بالأذان "، بل هي صورة ناطقة تضمنت غناء وحوت طرباً لعل من الخير أن نشهد الصور المتحركة الناطقة كما رسمها فنانها. يقول ديك الجن:

أما ترى راهب الأشجار قد هتفا ... وحث تغريده لما علا الشعفا
أوفي بصيغ أبي قابوس مفرقه ... كدرة التاج لما أن علا شرفا
مشنف بعقيق فوق مذبحه ... هل كنت في غير أذن تعرف الشنفا
لما أراحت رعاة الليل عازبة ... من الكواكب كانت ترتعي السدفا

هــز اللــواء عــلى مــا كــان مــن ســنة فــارتج، ثــم عــلا، واهتــز، ثــم هفــا
ثــم اســتمر، كما غنــى عــلى طــرب مــريح شرب عــلى تغريــده وضــفا
إذا اســتهل اســتهلت فوقــه خــصل كــالحي صــيح صــباحاً فيــه فاختلفــا

إن ديك الجن رائد في رسم الصورة الشعرية الملونة المتحركة التي رسمها للديك في أبياته هذه البالغة حد الإتقان بحيث أصبحت مثالاً يحتذى عند الشعراء الذين جاؤوا من بعده سواء في ذلك شعراء المشرق أو شعراء الأندلس.

ولديك الجن صورة أخرى فكهة رسمها لديك آخر، ولكنه ديك عجوز قدم طعاماً في مأدبة أقامها عمير بن جعفر، كان ديك الجن مدعواً إليها، ولعل الحوار الذي أجراه الديك الشاعر الآكل مع الديك المذبوح المطهو المأمول لمن أطرف أنواع الحوار وأمتعه فيما لو وجد حوار مماثل من هذا القبيل. يقول ديك الجن في أبياته تلك الفكهة الساخرة اللطيفة:

دعانــا أبــو عمــرو عمــير بــن جعفــر عــلى لحــم ديــك دعــوة بعــد موعــد
فقــدم ديكــاً عــد دهــراً ذملقــا مــؤنس أبيــات مــؤذن مــسجد
يحــدثنا عــن قــوم هــود وصــالح وأغــرب مــا لاقــاه عمــرو بــن مرثــد
وقــال: لقــد ســبحت دهــراً مهلــلا وأســهرت بالتــأذين أعــين هجــد
أيــذبح بــين المــسلمين مــؤذن مقــيم عــلى ديــن النبــي محمــد
فقلــت لــه: يــا ديك،إنــك صــادق وإنــك، فــيما قلــت، غــير مفنــد

إن شاعريته كانت من الخصوبة - فناً وإنتاجاً وتنوعاً ومحافظة وتجديداً - بحيث فرضت فته على معاصريه من ساكني عاصمة الشعر بغداد، ثم صارت مثلاً يحتذى ونموذجاً يقتفى عند كبار الشعراء العرب الذين جاؤوا من بعده.

- ١٧ -

أبو يعقوب الخريمي
(٠٠٠ - حوالي - ٢٤٠ هـ)

أ - حياته ونشأته

هو إسحاق بن حسان بن قوهي وكنيته أبو يعقوب، وهو من مواليد الأقاليم وليس من أهل بغداد، فهو جزري - أي من جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل - ولكنه نزل حين نما عوده إلى بغداد عاصمة الدولة، ومحط رحال العلماء والشعراء والثقفين، ومقر رجال السياسة والقواد والوزراء الذين كان الشعراء يرتبطون بهم مدحاً ومنادمة، فيجزلون لهم العطاء وللمدينة دائماً بريقها الذي يستهوي عامة الناس ويغريهم بالرحلة إليها والاستقرار فيها، فما بالك بالشعراء والأدباء.

ب - لقبه:

وأما لقب الخريمي فقد جاءه من مدحه عثمان بن عمارة بن خريم الغطفاني، وكان قائداً جليلاً فنسب الشاعر إلى خريم وبقيت هذه النسبة مصاحبة له في حياته وبعد مماته، وكان الخريمي أعور، ولذلك فكثيراً ما يرد اسمه في كتب الأدب والتراجم تحت اسم أبي يعقوب الأعور، وفي أحيان أخرى إسحاق بن حسان الأعور، وهكذا ارتبطت به هذه العاهة في كثير من المراجع.

ج - شخصيته:

وعلى الرغم من أن الخريمي قد مدح عثمان بن عمارة ومحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة وغيرهم فإن مدائحه - على جمالها ورونقها - لم تكن أحسن شعره وإنما للرجل شعر مفرط الرقة بالغ الرواء في الحكمة والأخلاق ومعنى الصداقة والوداد والفخر بالمعاني الكريمة فضلاً عن بكائه بغداد ورثائه أياها إبان الفتنة التي أخذت بخناقها أيام حرب الأخوين المأمون

والأمين سنة ١٩٦ هـ وما بعدها، هذا فضلاً عن شعره الإنساني الرفيع في البكاء على عينيه حينما أصيب بالعمى.

ولم يعرف عن الخريمي انحراف عن الجادة ولا انفلات من القيم الخلقية، بل كان متألهاً متديناً. فإن النماذج الشعرية التي قالها تعلن عن مذهب الشاعر وفلسفته وتبين عن مقدرة نادرة في اقتناص المعاني الكريمة وصوغها.

إنه يمثل إحدى نقاط الارتكاز الشعري التي منها انطلق إلى مدارس فنية ومذاهب أدبية.

د - شعوبيته:

لقد اتهم الخريمي بالشعوبية، وله أبيات يفخر فيها بفارسيته، ربما كان الدافع إلى قولها دفاع عما تصوره استعلاء عليه فيها:

فإن تفخري يا جمل أو تتجملي ... فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل

أرى الناس شرعاص في الحياة ولا يرى ... لقبر على قبر علاء ولا فضل

هـ - ديباجته:

يمثل الخريمي ركيزة الديباجة الشعرية المشرقة مع الأسلوب الناعم الأخاذ ومحافظة على عمود الشعر وابتعاد عن الإيغال في الصنعة وتجنب للتعسف في نحت المعاني ورسم الصور، ومن هنا يمكن أن يكون أحد أساتذة البحتري من الناحية المذهبية الفنية، وليس من الناحية التعليمية، فأستاذه في تلك الناحية هو أبو تمام على ما سوف يستبين لنا فيما يستقبل من حديث بعد حين.

و - صنعته:

ولم يكن الخريمي مجرد شاعر وحسب وإنما كان أديباً بليغاً ناقداً، وله في ذلك أقوال بالغة حد الدقة، والجاحظ على سمو مرتبته في فنون القول جعل الخريمي واحداً من مصادره روى عنه ونصيب منه واحداً من نجوم كتابه النفيس ((البيان والتبيين)) فهو يرصع صفحات كتابه هذا بين الحين والحين برأي للخريمي أو ببيت أو أكثر من شعره المشرق العذب الرقيق.

لقد كان النقاد ومحبو الشعر يقولون للخريمي متسائلين: ما بال شعرك لا يسمعه أحد إلا استحسنه وقبلته طبيعته!! فكان يجيب: لأني أجاذب الكلام إلى أن يساهلني عفواً، فإذا سمعه إنسان سهل عليه استحسانه، وبذلك يكون شاعرنا قد أفصح بلسان القول فضلاً عن مثال الشعر عن المدرسة التي ينتمي إليها ويؤمن بها مسلكاً فنياً ومذهباً أدبياً، وهي مدرسة العفوية والطبيعة والصفاء والابتعاد عن افتعال المعاني ونحت الأساليب.

إن الشريف المرتضى يعجب بعفوية هذه الأبيات ويتمثل بها للمعنى الأصيل الذي صب في ثوب من الألفاظ رقيق وصيغ في نهج من الأسلوب مطبوع:

رأيتك يا زيد زيد الندى وزيد الفخار وزيد الكرم
تزيد على نائبات الخطوب بذلاً وفي سابغات النعم
كذا الخمر والذهب المعدني يجود هذا وذاك القدم

ويتألق الخريمي تألقاً وضاء في بعض معاني الرثاء حين يقول:

بقية أقمار من العز لو خبت لظلت معد في الدجى تتسكع
إذا قمر منها تغور أو خبا بدا قمر من جانب الأفق يلمع

إن أبا تمام لابد أن يكون قد قرأ هذين البيتين قبل إنشاء قصيدته - كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر - عند رثائه محمد بن حميد فاستعان بمعناهما في قوله:

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بيتها البدر

فيعلق ابن عبيد بن ناصح على بيت أبي تمام متسائلاً: أردت أن تصف حسن حالهم بعده أم سوء حالهم؟ فيجيب: لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب، فقال ابن ناصح: والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قمر!! ألا قلت كما قال أبو يعقوب إسحاق الخريمي: بقية أقمار.... (البيتين).

فأبو تمام أراد أن يمدح محمد بن حميد فهجاه لأن أهله كانوا خاملين فلما مات أضاؤوا بموته، إنها وجهة نظر على كل حال، على أن الفرق بين الرجلين وبين المعنيين هو الفرق بين مدرسة صفاء الديباجة وعفوية المعاني، وبين مدرسة صناعة الأسلوب ونحت المعاني. الحق أن

الخريمي نشأ مكتملاً أدوات الشعر وأسبابه، فهو مثقف ثقافة واسعة، غير أن هذه الثقافة لم تفسد عليه غنائية الشعر وإيقاعه وبساطته منذ أن قال الشعر لأول مرة، إن أول شعر للخريمي هو قوله:

بقلبي سقام لست أحسن وصفه على أنه ما كان فهو شديد
تمر به الأيام تسحب ذيلها فتبلى به الأيام وهو جديد

بهذه الرقة المتناهية والاكتمال الفني بدأ الخريمي يقول الشعر.

الخريمي واحد من أعذب شعراء المرحلة العباسية قولاً، وأرقهم طبعاً، وأقربهم الى سماحة الشعر ويسره وعفويته، مع تمكن في الإنشاء ووعي للمعاني وصفاء في الأسلوب، فكأن القوافي ملك يمينه يطلبها فتطيعه، والحكمة طوع خاطره يستدعيها فتلبيه. فهو شاعر مطبوع متدفق، ففضلاً عن جودة شعره ورقته وأصالته فإن كبار النقاد القدامي الذين نحترمهم لم يتوانوا عن الإشادة به والثناء عليه،فقد كان كان شاعراً مفلقاً مطبوعاً مقتدراً على الشعر، أشعر المولدين، وإن شاعراً هذا شأنه وتلك موهبته جدير بكل اهتمام ودراسة ومتابعة.إنه واحد من ألمع وأقدر رواد مدرسة الديباجة والجزالة والسلاسة والسهول والإشراق التي أصبح البحتري فيما بعد رئيسها وعنوانها.

ز - أغراض شعره:

١ - حكمته:

إن الخريمي كان متديناً مؤمناً، والتدين إذا ما صاحبته سماحة وسعة أفق انبثق من صاحبه عادة راجح القول ونفيس الفكر، وليس القول راجحاً والفكر نفيساً إلا الحكمة بعينها، وهكذا كان حال الخريمي. فقد كانت حكمة أصيلة غير مصنوعة؛ لأنها صورة نفسه وفيض مشاعره وحصاد ثقافته وثمرة تجاربه.. لقد خبر الحياة حلوها ومرها، وعرف الناس خيارهم وأشرارهم، وحلل أخلاقهم ودرس طباعهم، فرسم لهم هذه الصورة الحكيمة:

الناس أخلاقهم شتى وإن جبلوا على تشابه أرواح وأجساد
للخير والشر أهل وكلوا بهما كل له من دواعي نفسه هاد

مـــنهم خليـــل صـــفاء ذو محافظـــة أرســـى الوفـــاء أواخيـــه بأوتـــاد
ومـــشعر الغـــدر محنـــي أضـــالعه عـــلى سريـــره غمـــر غلهـــا بـــاد
مـــشاكس خـــدع جـــم غوائلـــه يبـدي الـصفاء ويخفـي ضربـه الهـادي
يأتيـك بـالبغي في أهـل الـصفاء ولا ينفـــك يـــسعى بإصـــلاح لإفـــساد

وإذا كان الخريمي قد اصطنع الحكمة في أبياته السابقة في سياق دراسة نفسية لأخلاق الناس وتحليل لسلوكهم، فإنه في مقام آخر يسوقها في مقام الفخر من خلال أسلوبه العذب الذي جعل الناس يسألونه عن السر الذي يكمن وراء استحسان سامعه له.

أسر خلـــيلي شـــاهداً وأبـــره وأحفظـــه بالغيـــب حـــين يغيـــب

وشاعرنا لا يقدم دستوره الأخلاقي ورأيه في الصداقة والصديق من خلال إبدائها مرتبطة بشخصه وحده، ولكنه يعالج هذه القيم من خلال وصف صديقه الذي تجتمع فيه كل صفات الصديق وكل معاني الصداقة. إن الخريمي يسجِّل كل هذه القيم في قصيدة قالها متشوقاً إلى الحسن بن التختاخ الذي كان قد رحل إلى مصر، وفيها يقول:

وإني لـــسهل الوجـــه للمبتغـــي النـــدى وإن فنـــائي للقـــرى لرحيـــب
أضـــاحك ضـــيفي قبـــل إنـــزال رحلـــه ويخـــصب عنـــدي والمحـــل جـــديب
وما الخـصب للأضـياف أن يكثـر القـرى ولكـــنما وجـــه الكـــريم خـــصيب
وإني لتـــصفو للخليـــل سريـــرتي وقـــد جعلـــت أشـــياء منـــه تريـــب
أعاتبـــه مزحـــاً وأعـــرض بـــالتي لهـــا بـــين أثنـــاء الـــضلوع دبيـــب
أخـــاف لجاجـــات العتـــاب بـــصاحبي وللجهـــل مـــن قلـــب الحكـــيم نـــصيب
ليحيـــا دفـــين مـــن مـــودة بيننـــا فيخلـــف ظـــن أو يثـــوب غريـــب
فـــإن فـــاء لم أعـــد عليـــه ذنوبـــه وهـــل بعـــد فيئـــات الرجـــال ذنـــوب؟
وإن لـــج في هجـــري صـــفحت تكرمـــا لعـــل الحجـــا بعـــد الغـــروب يثـــوب

ويدلف الخريمي بنا في مسيرة حكمته إلى الحياة الخاصة بين الزوجين، ويعالج موضوع الغيرة علاجاً أخلاقياً باسطاً رأيه على طرفي الغيرة – الرجل والمرأة – ولعله أخذ جانب المرأة حين طلب من الرجل ألا يلحّ في الاتهام وأن يحفظ عرضه هو أولاً ويصون دينه، وفي ذلك يقول شاعرنا المجرب الحكيم:

ما أحسن الغيرة في حينها ... وأقبح الغيرة في كل حين

من لم يزل متهماً عرسه ... مناصباً فيها لريب الظنون

أوشك أن يغريها بالذي ... يخاف أن يبرزها للعيون

حسبك من تحصينها وضعها ... منك إلى عرض صحيح ودين

لا تطلع منك على ريبة ... فيتبع المقرون حبل القرين

ومعاني الخريمي من الحكمة التي يسوقها ناعمة الأسباب، رخية الجناب، حتى في حالة معالجته للشائع الجاري من الأمور، لقد كثر القول في الشيب وفوات الشباب وافتقاد أسباب اللهو ومقوماته:

باحت ببلواه جفونه ... وجرت بأدمعه شؤونه

لما رأى شيباً علاه ... ولم يحن في الغد حينه

فعلا على فقد الشباب ... وفقد من يهوى أنينه

ما كان أنجح سعيه ... وشبابه فيه معينه

واللهو يحسن بالفتى ... ما لم يكن شيب يشينه

وللخريمي قصيدة رائية في الفخر تضم البيت المشهور:

ولست بنظار إلى جانب الغنى ... إذا كانت العلياء في جانب الفقر

ولعل استهلالها يعتبر بدوره من أرق النسيب وأكثره تماسكاً، وليس ببعيد أن يكون أبو فراس قد أنشأ رائيته المشهورة على نهج قصيدة الخريمي هذه، ففيهما الكثير من التشابه

وبخاصة وحدة البحر والقافية واتفاق المعاني، وإن اختلف الروي،والقصيدة من الشعر الجيد المعجب روائعه ومطلعها:

ثقي بجميل الصبر مني على الدهر ولا تثقي بالصبر مني على الهجر

أصابت فؤادي بعد خمسين حجة عيون الظباء العفر بالبلد القفر

وإذا كان الخريمي قد ذكر ((الظباء العفر في البلد القفر)) في أبياته السابقة مرققاً شعره بلمسات بدوية عارضة، فإنه في مناسبات أخرى، وفي نفس مجال القول يأتي بالصورة البدوية الأصيلة التي تطرب وتعجب على الرغم من بداوتها الواضحة كقوله:

وخلجة ظن يسبق الطرف حزمها تشيف على غنم وتمكن من ذحل

صدعت بها والقوم فوضى كأنهم بكارة مرباع تبصبص للفحل

فالصورة ممعنة في البداوة، ولكن منطق القول ممعن في الإعلان عن قائل مثقف حضري متمرس، وتنسرب أسباب الحكمة من خاطر الخريمي فتنسحب على كثير من موضوعات شعره، حتى النوال والعطاء يخضعها شاعرنا لمعايير حكمته ويصبغها بصبغتها. وهل هناك من لا يعجب بهذا القول ويطرب له:

ودون الندى في كل قلب ثنية لها مصعد حزن ومنحدر سهل

وود الفتى في كل نيل ينيله إذا ما انقضى لو أن نائله جزل

ومجمل القول في حكمة الخريمي أنها ذات آفاق رحبة وأعماق بعيدة، وأنها قدمت في قوالب من الشعر المشرق السهل المأخذ العذب المورد، ولعله يعمد إلى الصناعة اللفظية كما هو الحال في البيتين الأخيرين، ولكن في نطاق البساطة والبعد عن أي تكلف يشوب شعره.

٢ - رثاؤه: مثَّل الرثاء عند الخريمي منحيين اثنين هما:

أ - رثاؤه لعينيه:

كان الخريمي مبصراً ثم عمي في المرحلة الأخيرة من عمره، فكتب في رثاء عينيه رثاء يعتبر ضرباً جديداً من موضوعات الشعر، فقد جعل من مأساته قضية تشغله، فقال فيها شعراً كثيراً

متطوراً مترعاً بالأحاسيس الذاتية مفعماً بالمعاني النفسية مليئاً بالمشاعر الإنسانية. لقد كانت معاني البصر والبصيرة مائلة في خاطر الشاعر في أول عهده بالعمى. وقد أنشأ يقول:

فإن تك عيني خبا نورها ... فكم قبلها نور عين خَبا
فلم يعمَ قلبي ولكنما ... أرى عيني إليه سرى
فأسرج فيه إلى نوره ... سراجاً من العلم يشفي العمى

ويحس بثقل الكارثة التي حلت به بفقد عينيه وما صاحبها من قيود وتحول في علاقته بالحياة وبالناس، فينزع إلى التحسر وإبداء الحزن في هذه الأبيات

كفى حزناً أن لا أزور أحبتي ... من القرب إلا بالتكلف والجهد
وأني إذا حييت ناجيت قائدي ... ليعدلني قبل الإجابة في الرد
إذا ما أفاضوا بالحديث تقاصرت ... بي النفس حتى ما أحير وما أبدي
كأني غريب بينهم لست منهم ... وإن لم يحولوا عن وفاء ولا عهد
أقاسي خطوباً لا يقوم بثقلها ... من الناس الأكل ذي مرة جلد

ولكن الحالة لا تقف بالرجل المتوجع لفقد بصره عند هذا الحد، إنه ينتقل إلى مرحلة أكثر ألماً أو بعد حسرة، وبكاء بعد أن تغير أمامه كل شيء، وأضحى فريسة للخوف وضحية لتوقع الخطأ.

أصغي إلى قائدي ليخبرني ... إذا التقينا عمن يحيينني
أريد أن أعدل السلام وأن ... أفضل بين الشريف والدون
أسمع ما لا أرى وأكره أن ... أخطئ والسمع غير مأمون
لله عيني التي فجعت بها ... لو أن دهراً بها يواتيني
لو كنت خيرت ما أخذت بها ... تعمير نوح ملك قارون
حق أخلائي أن يعودوني ... وأن يعزوا عني ويبكوني

ويستمر الخريمي في رحلة الحياة مسناً مكفوفاً يائساً فيتنقل من مرحلتي التحسر والبكاء إلى مرحلة الرثاء، أعني رثاء نفسه. ألم تمت عيناه بفقد بصره؟.! والعينان بعض من الإنسان. إنه إذن حقيق بالمعنى الذي جال في خاطره فعبّر عنه بأقسى ما يمس شغاف القلوب من فن القول، وذلك في بيتيه:

إذا ما مات بعضك فابك بعضا فإن البعض من بعض قريب

يمنيني الطبيب شفاء عيني وهل غير الإله لها طبيب؟

إننا نستطيع أن نقرر أن الخريمي الشاعر المبدع السيّئ الحظ قد أدخل إلى ميدان الشعر العربي لوناً من الشعر الغنائي الحزين المتصل بالعمى الطارئ وفقدان البصر.

ب - رثاؤه لبغداد:

عرف هذا اللون من الرثاء في المشرق في وقت مبكر كل التبكير، فإن أول من رثى المدن الداثرة والقصور المخربة والدول الدائلة هو الحميري الشاعر، وأبو العباس الأعمى وأبو عدي العبلي وآدم بن عبد العزيز.

غير أن الذي حل ببغداد من خراب ودمار وقتل ونهب وتشريد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون كان له من الأثر في نفوس الناس ما جعل الشعراء يسهمون بشعرهم رثاء حيناً ووصفاً حيناً آخر وسخرية حيناً، وأشهر شاعر سجل هذه الأحداث الحزينة التي حلت ببغداد أبو يعقوب الخريمي، فقد بكى بغداد ووصف المحنة في قصيدة بالغة الطول، والشاعر في رثائه بغداد إنسان قد هزته الفجائع التي يراها كل يوم، وقد تصور أن هذا الذي حل بالقوم إنما هو غضب من الله عليهم لانحرافهم وعصيانهم وانغماسهم في الشهوات، وموقفه والحال كذلك كان في جانب المأمون، فقد كان الأمين سيئ السمعة مغرقاً في اللذات، وكان المأمون حسن السيرة طيب الأحدوثة، الأمر الذي أسهم إلى حد كبير في سقوط الأمين ومهد لانتصار المأمون.

يقول الخريمي في قصيدته:

قالوا ولم يلعب الزمان ببغداد وتعثر بها عواثرها

إذ هـــي مثـــل العـــروس باديهـــا مهـــــول للفتـــــى وحاضرهـــــا
جنـــــة دنيـــــا ودار مغبطـــــة قـــل مـــن النائبـــات دائرهـــا
درت خلـــوف الـــدنيا لـــساكنها وقـــل معـــسورها وعاسرهـــا
وانفرجـــت بـــالنعيم وانتجعـــت فيهـــا بلـــذاتها حواضرهـــا
فـــالقوم منهـــا في روضـــة أنـــف أشرق غـــب القطـــار زائرهـــا
مـــن غـــره العـــيش في بلهنيـــة لـــو أن دنيـــا يـــدوم عامرهـــا
دار ملـــوك رســـت قواعـــدها فيهـــا وقـــرت بهـــا منابرهـــا

ويمضي الخريمي وقد غلب عليه الأسى مما أصاب بغداد يتساءل تساؤل الحزين عما كانت تحويه مدينة المنصور من صنوف الجند والحراس والعبيد والخصيان ومواكب الجند، ثم يعرج على مظاهر الترف يعرضها في تفصيل مثير لكي ينتهي مرة ثانية إلى وصف المحنة التي حلت بها فجعلتها كجوف الحمار فارغة تستعر بجحيم الحريق:

فـــأين حراســـها وحارســـها وأيـــن مجبورهـــا وجابرهـــا
وأيـــن خـــصيانها وحـــشوتها وأيـــن ســـكانها وعامرهـــا
أيـــن الجراديـــة الـــصقالب والأحـــبس تعـــدو هـــدلاً مـــشافرها
ينـــصدع الجنـــد مـــن مواكبهـــا تعـــدو بهـــا سربـــاً ضـــوامرها
بالـــسند والهنـــد والـــصقالب والنوبـــة شـــيبت بـــها برابرهـــا
طـــيراً أبابيـــل أرســـلت عبثـــا يقـــدم ســـورانها أحامرهـــا
أيـــن الظبـــاء الأبكـــار في روضـــة الملـــك تهـــادى بهـــا غرائرهـــا
أيـــن غـــضاراتها ولـــذتها وأيـــن محبورهـــا وحائرهـــا
أمهلهـــا الله ثـــم عاقبهـــا لمـــا أحاطـــت بهـــا كبائرهـــا
بالخـــسف والقـــذف والحريـــق وبـــالحرب التـــي أصـــبحت تـــساورها

ويستطرد الخريمي في قصيدته الطويلة التي بلغت مئة وسبعة وثلاثين بيتاً يصور كل ما حل ببغداد من ألوان الخراب والدمار والحريق والفساد والنهب والهدم، والعذاب الذي لم يترك عزيزاً ولا فارساً ولا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا وأصابه من كل ذلك شيء كثير، هذا فضلاً عن الجثث التي تنهشها الكلاب، ومواكب الجنائز تجتاز المسالك والدروب، وأنَّات الثكالى وأصوات العويل التي تسمع في كل مكان.

وهي تدخل في باب الشعر التعليمي أكثر مما تدخل إليه من بابه الفني، ولذلك فإن هذه القصيدة يمكن أن تعتبر نواة للشعر التعليمي.

- ١٨ -

بشار بن برد:

ولد(٩٦هـ) وتوفي (١٦٨هـ)

أ - حياته ونشأنه:

ولد بشار بن برد عام (٩٦هـ) وتوفي (١٦٨هـ)

أبوه مولى وأمه عقيلية عربية، ولد أعمى من أول لحظة واختلط بحلقات العلم والأدب في البصرة، وتردد على الأعراب، وتنقل بين الكوفة والبصرة وحرّان، وقد انقسمت حياته بين المسجد في الصغر، ومجالس الزندقة في الكبر، حيث كانت نهايته بسبب الزندقة.

وقد كان مغالياً في هجائه وفسقه ومجونه على الرغم من أنه كان أحد مؤسسي حلقات المعتزلة مع واصل بن عطاء وعمرو بن عباد.

ب - شخصيته:

١ - **الصفات الجسدية:** الضخامة - العمى - قبح المنظر - الإصابة بالجدري.

٢ - **الصفات الاجتماعية:** الانتساب إلى الموالي - النشوء في أسرة فقيرة - الإحاطة بمجتمع متخلف.

٣ - **الصفات النفسية:** الشعور بالإحباط والمرارة - النقمة على الحياة - السخرية بمن حوله - اعتماده الإباحية والمجون - كثرة الاعتداد بالنفس.

ملاحظة:

أهم ما يميز بشار توقد الذكاء - الجواب الحاضر - مقدرته على صناعة التشبيه التمثيلي كما في قوله:

كأنّ مثارَ النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

شعره ومعانيه وأغراضه:

يعد شعر بشار بن برد انعكاساً لصفاته النفسية، وترجمةً لبيئته التي تراوحت بين القديم والجديد، وبين التقليد والتجديد.

وقد كتب بشار في أغراض المدح والهجاء والفخر والرثاء والغزل.

ج - صنعته:

١ - صفات المدح عند بشار:

أ - اعتماده على المعاني التقليدية.

ب - البناء على البحور الطويلة (المديدة التفعيلات)

ج - الوقوف على الأطلال.

د - تردد المعاني البدوية.

هـ - الاعتماد على المعاني الواقعية.

و - المبالغة في المدح.

ز - اقتباس المعاني الأموية.

إذا الملك الجبّار صعَّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ويقول في المعاني البدوية يمدح عقبة بن مسلم والي البصرة:

أريحي له يدٌ تمطر النيل وأخرى سمٌّ على الأعداء.

٢ - خصائص هجاء بشار:

آ - النيل من الأعراض والكلام البذيء.

ب - الشتم والسب.

ج - استخدام الهجاء وسيلة للثراء والكسب.

د - جعل الهجاء فناً جديداً مستقلاً.

٣ - خصائص الغزل عند بشار:

آ – المعاني البدوية في بعض القصائد تعتمد الجزالة اللفظية والإشراق واستخدام البحور الطويلة والمديدة، كقوله في وصف عبده:

كقارورة العطار أو زاد نعتها تلين إذا ما بنتها وتطيب

ب – المعاني الحضرية وهي سهلة ميسورة تعتمد البحور القصيرة والأوزان الخفيفة، كقوله:

حوراء إن نظرت إلي ك سقتك بالعينين خمرا

وكأنّ تحت لسانها هاورت ينفث فيه سحرا

٤ - خصائص الوصف عند بشار:

آ – لم يخرج بشار عن المعاني البدوية في الوصف سواءً كان هذا الوصف للصحراء أو للنساء.

ب – حاول بشار في مطالع قصائده استبدال وصف الناقة بوصف السفينة والبحر.

د - الحكم على سلوك بشار وشاعريته وتجديده:

سلك بشار مسلك المتهتكين بأعراض الآخرين، وقد كان شعوبياً يفاخر بشعوبيته زنديقاً، وثنوياً، أسهم العمى والرق لديه في إذكاء شعوره بالنقص، وقد دفعه ذلك إلى الفسق في القول، كقوله:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقد أخذ بشار هذا المعنى عن الشاعر سلم الخاسر:

من راقب الناس مات همّا وفاز بالطيبات الجسور

كما أن سلوكه دفعه إلى إظهار الحكمة تعويضاً عن النقص، كقوله:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيحٍ أو نصيحة حازم

هـ - الحكم على شاعرية بشار:

ليست شاعرية بشار إلاّ تعويضاً عن نقصٍ (العمى وسوء المنظر) كما أن أخويه كانا جزارين، ونحن نعرف أن الموهبة قد تلازم العاهة، وأن معظم شاعرية بشار هي استجابة لمطلب (نبذ الإشباع الغريزي في الخيال). وقد أسهمت الشعوبية في هذه الشاعرية مرة، والولاء للعرب مرة أخرى، فهو يمدح الفرس، ويمدح ولاة العرب، وهذا فيه تناقض.

و - الحكم على تجديد بشار:

لا شك أن بشاراً شاعرٌ موهوب، ولكن بعض النقاد رفع من فكانة بشار في ثلاث قضايا نسبت إليه، وهي قضايا غير دقيقة وغير صحيحة جعلت هؤلاء النقاد يعتبرونه أول المجذوبين هي:

- المبالغة في نسبة كل جديد لبشار.
- النسب الملوكي إلى بشار لأن بشار رقيق ومن أسرة فقيرة.
- أن بشار كتب ثلاثة عشر ألف قصيدة وأنّه يفخر بثلاثة عشر ألف بيت من عيون الشعر العربي، وهذا غير صحيح.

ز - صنعته في شعره:

نهج بشار للعباسيين طريقتهم الجديدة، وهي طريقة كانت تعتمد اعتمادًا شديدًا على الأصول التقليدية للشعر القديم، حتى لتبدو فيه نزعة محافظة وخاصة في مدائحه، فإن الإطار فيها لا يختلف عن الإطار القديم إلا قليلًا؛ إذ يستوفي فيها قيم التعبير الجزلة وكل ما تقتضيه الجزالة من رصانة وقوة في البناء، ومعنى ذلك أن بشارًا الفارسي الجنس قد أثَّر فيه مرباه العربي حتى أصبح عربيًّا خالصًا في أسلوبه وتعبيره. ولا يعني ذلك أنه كان غائبًا في مديحه عن عصره؛ فهو يزاوج بين الماضي والحاضر: يصف الأطلال والصحراء ولكن بذوق حضري جديد فيه رقة، وفيه دقة في استنباط المعاني وتوليدها. فنسيجه العام قديم، ولكن خيوطًا كثيرة جديدة تلمع في هذا النسيج، حتى في نماذجه الموغلة في التشبّه بالبدو.

وحين يصف ممدوحه بالشجاعة والكرم على طريقة العرب ويقول في تضاعيف ذلك:

ما كان مني لك غيرُ الوُدِّ في ثناء مثل ريحِ الوردِ

ومن براعته في تدبر بيت امرئ القيس في وصف العقاب:

كـــأن قلـــوب الطـــير رطبًـــا ويابـــسا لـــدى وكرهـــا العنـــاب والحـــشف البـــالي

حتى قال في المديح:

كـــأن مُثـــارَ النقـــعِ فـــوق رؤوســـنا وأســـيافنا ليـــل تهـــاوى كواكبـــه

وإذا تركنا مديحه إلى فخره وجدنا فيه نفس متانة البناء ونفس الصياغة الباهرة التي تميز بها شعراء العرب السابقين من أمثال زهير والنابغة وجرير، وإنه ليضيف إلى معانيه مبالغة تزيدها جمالًا على شاكلة قوله مفتخرًا بقيس مواليه في ميميته المشهورة:

إذا مـــا غـــضبنا غـــضبة مُـــضَرِيَّةً هتكنـا حجـابَ الـشمسِ أو تمطـر الـدَّما

وتطور الهجاء عنده على هدي الأمثال الفارسية القصيرة، فقد كـان يقـوم عـلى القـذف في الأعراض والاتهام بالزندقة والإلحاد، ويصور بشار هجاءه فيقول:

تـــزل القـــوافي عـــن لـــساني كأنهـــا حمـــاة الأفـــاعي ريقُهـــن قـــضاءُ

وكان بشار لا يأبه للقيم الخلقية والدينيـة، وكـان ضريـرًا، فاعتمـد عـلى حاسـتي الـسمع واللَّمس في غزله، ولعل من الطريف أنه يصرح بذلك في مثل قوله:

يـــا قـــوم أذْني لـــبعض الحـــي عاشـــقةٌ والأُذْنُ تعـــشقُ قبـــل العـــينِ أحيانـــا

ولا يصبح الغزل عنده في أكثر جوانبه حسيًّا فحسب، بل يصبح ضربًـا مـن نـداء الغريـزة النوعية بصورة ليس فيها أدنى احتشام؛ بل فيها غير قليل من العـدوان عـلى المجتمـع وآدابـه. وقد نقرأ عنده غزلًا يحتفظ فيه بكرامته وكرامة المرأة من مثل قوله:

لم يطـــل لـــيلي ولكـــن لم أنـــم ونفـــى عنـــي الكَـــرَى طيـــف ألم

نَفِّـــسي عنـــي قلـــيلًا واعلمـــي أننـــي يـــا عَبـــدَ مـــن لحـــم ودم

إن في بُـــرديَّ جِـــسْمًا نـــاحلًا لـــو توكـــأتِ عليـــه لانهـــدم

ومن صوره البارعة:

خلـيليَّ مـا بـال الـدُّجى لـيس يـبرحُ ومـا بـال ضـوءِ الـصبحِ لا يتوضـحُ

أضـــلَّ الـــصباحُ المـــستنيرُ طريقَـــهُ أم الـــدهر ليـــلٌ كلُّـــه لـــيس يـــبرحُ

لقد كانت صنعة بشار في شعره تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليديـة في الـشعر العربي والعناصر التقليدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة. وثَبَّتَ بشار هذه الطريقـة؛ بحيث أصبحت منهجًا عامًّا للشعراء من بعده، وبحيث عُدَّ بحق زعيم المجددين؛ فهو الـذي نهج لهم هذا النهج من التطور بالشعر العربي تطورًا لا تنقطع الصلة فيه بين حاضره وماضيه.

- ١٩ -

أبو العتاهية

١٣٠ - ٢١١هـ

أ - نشأته وحياته:

هو أبو إسماعيل بن القاسم بن سويد، كان أبوه حجاماً، وهو نبطي من موالي بني عنزة وأمه من موالي بني زهرة، وأبو العتاهية كنية غلبت عليه.

ولد الشاعر في عين تمر بالقرب من الأنبار عام (١٣٠هـ) وتوفي عام (٢١١هـ) اختلط في بداية حياته بالمخنثين من الرجال الذين يتقلدون بالنساء لبساً وقد عمل خزافاً صانعاً للجرار، ثم عاد وانتظم في حلقات الخلفاء في المساجد وشيوخ الأدب، واتفق مع إبراهيم الموصلي أكبر مغني العصر العباسي، وانتقلا إلى بغداد فنجح الموصلي وفشل أبو العتاهية، ولكنه عاد إلى بغداد وتقرب من المهدي بعد أن مهَّد له الطريق صاحبه إبراهيم. تعلّق بجارية اسمها "عتبة" ولكنها كانت تضجر منه، وتحول أخيراً إلى حياة الزهد.

ب - شخصيته:

أثّر في شخصية أبي العتاهية عوامل ساعدت في توجّه هذا الشاعر إلى الزهد وهي:

١ - استعداده الفطري.

٢ - تهتك المعاصرين له وإسرافهم في المجون بحيث انقلب إلى عكس ما يصنعون.

٣ - إخفاقه في حب عتبة.

٤ - المعاناة التي عاشها في الأيام الأولى متمثلة في الفقر.

وقد عاش أبو العتاهية حياته متأثراً بالأفكار المانوية، وقد أشار إلى ذلك (منصور بن عمار) أحد الوعاظ في عصره، واستدل على زندقته بكثرة ذكره الموت دون أن يذكر الجنة والنار. كما وأن فقر أبي العتاهية كان سبباً في بخله الشديد.

ج - جوانب شعره:

كتب أبو العتاهيه في أبواب الشعر وفنونه، وجدَّد في معانيه وأغراضه وموسيقاه، وهجر الحديث عن الأطلال وأكثر ما برع فيه الزهد.

يقول أبو العتاهية في مدح المهدي:

أتتـــــه الخلافـــــة منقـــــادة إليـــــه تجـــــرر أذيالهـــــا

ولم تـــــك تـــــصلح إلا لـــــه ولم يـــــك يـــــصلح إلا لهـــــا.

ويقول في حبه لعتبة واصفاً إياها بالدرة الثمينة:

كأنهـــــا مـــــن حـــــسنها درة أخرجهـــــا الـــــيم إلى الـــــساحل

ويقول واصفاً فلسفته للموت والحياة:

لـــدوا للمـــوت وابنـــوا للخـــراب فكلكـــم يـــصير إلى تبـــاب

ألا يـــا مـــوت لم أر منـــك بـــدّا أتيـــت ومـــا تحيـــف ومـــا تحـــابي

ويقول في الحكمة والموت:

أجلـــل قـــوم حـــين صرت إلى الغنـــى وكـــل غنـــي في العيـــون جميـــل

إذا مالـــت الـــدنيا إلى المـــرء رغبـــت إليـــه ومـــال النـــاس حيـــث تميـــل

ويقول باكياً على أيام شبابه:

ألا ليـــت الـــشباب يعـــود يومـــا فـــأخبره بـــما فعـــل المـــشيب

الحكم على شعر أبي العتاهية:

اقترب أبو العتاهية في شعره من العامة، وهجر جزالة الألفاظ، وترك الوقوف على الأطلال، فكان شاعراً مطبوعاً غزير الشعر يتناول المعاني القريبة من العامة بألفاظ سهلة واضحة متجنباً الغرابة والتعقيد والتكلف، وقد اعتبره صاحب الأغاني متقدماً في الشعر.

د - صَنْعَةُ أبي العَتاهِيَة

تمثل أشعار أبي العتاهية حياته وما حدث بها من انقلاب، إذ يتراءى لنا في شعره مرحلتان واضحتان تمام الوضوح:

١ - **مرحلة تصوير اللهو** والمجون ومجالس الأنس والطَّرب والمدح بأسلوب سهل عذب فمن مدحه:

أتته الخلافةُ منقادةً... إليه تجر أذيالها

ولم تك تصلح إلا له ... ولم يكن يصلح إلا لها

ولو رامها أحدٌ غيرُهُ ... لزلزلت الأرضُ زلزالها

ولو لم تطعه بناتُ القلوبِ ... لما قبل اللهُ أعمالَها

وإن الخليفةَ من بُغْضِ لا ... إليه ليُبْغِضُ من قالها

فأسلوبه خفيف قريب إلى النفوس، وتبلغ السهولة الغاية في غزله؛ حتى ليقول ابن المعتز: "إن غزله لين جدًّا مُشَاكل لكلام النساء" وكأن ملازمته للمخنثين في مطلع حياته وتعرفه على لغتهم هما اللذان أتاحا له هذه السهولة المفرطة التي تلقانا في مثل قوله:

كأنها من حسنها درةٌ ... أخرجها اليمُّ إلى الساحلِ

كأن في فيها وفي طرفها ... سواحرَ أقبلن من بابلِ

لم يبقِ مني حبُّها ما خلا ... حشاشة في بدنٍ ناحلِ

يا من رأى قبلي قتيلًا بكى ... من شدة الوجد على القاتل

والرقة واضحة أيضاً في هذه الأبيات، وهي تقع من القلوب موقع الزُّلال البارد من الظمآن، وكأنها الماء السلسبيل.

٢ - **مرحلة الزهد** والدعوة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها، والتفكير في الموت وظلمة القبر ووحشته، ويسود زهدياته في أثناء ذلك تشاؤم أسود حزين؛ فالحياة ليس فيها إلا الألم وإلا الموت وغصصه، وأولى بالإنسان فيها أن لا يفرح بمتعها، بل أولى به أن يبكي على نفسه، يقول:

لـــــدواعي الخـــــيرِ والـــــشـ ـــــــرِّ دنـــــوٌّ ونـــــزوحُ
سيـــــصيرُ المـــــرءُ يومًـــــا جـــــسدًا مـــــا فيـــــه روحُ
بـــــين عينـــــي كـــــلِّ حـــــي عَلَـــــمُ المـــــوتِ يلـــــوحُ
كلُّنـــــا في غفلـــــةٍ والْـــــ ـــــموتُ يغـــــدو ويـــــروحُ
نُـــــحْ عـــــلى نفـــــسِكَ يـــــا مـــــسكين إن كنـــــت تنـــــوحُ
لتمـــــوتنَّ وإن عُمِّـــــ ـــــرَ نـــــوحُ رْت مـــــا عُمِّـــــ

ويقال: إن الملاحين غنَّوا الرشيد هذه المقطوعة في إحدى نزهاته بدجلة؛ فلما سمعها جعل يبكي وينتحب. وهذا يدل على قرب شعره من روح الشعب؛ فقد قالوا: "إنه نظم في بعض مراثيه قول بعض الفلاسفة لما حضروا موت الإسكندر: الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس"؛ فقال في رثاء علي بن ثابت:

وكانـــــت في حياتـــــك لي عظـــــات وأنـــــت اليـــــوم أوعـــــظ منـــــك حيًّـــــا

وقد جعله تصويره لآلام الحياة والموت يجيد في هذا الموضوع، وكان كثيرًا ما ينقل حكم الأوائل من فرس وغير فرس إلى شعره، ولعل ذلك ما أتاح له أن ينظم مزدوجته "ذات الأمثال" التي امتدت إلى أربعة آلاف بيت، وقد كانت صنعته تقوم على:

أ - **السهولة المفرطة في اختيار الألفاظ والعبارات**؛ حتى لتقترب من لغة الناس اليومية، بل حتى ليصيبها أحيانًا ضرب من الابتذال، ومن أجل ذلك كان الأصمعي يقول: "شعر أبي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى".

ب - **أنه كثير الساقط** المرذول مع أنه لم يدخل في شعره ألفاظًا أعجمية؛ إنما هو القرب فقط من كلام العامة، وكان يتخذ ذلك مذهبًا في صنعة شعره، حتى يكون أكثر تداولًا ومع ذلك لم يخرج عن الفصحى، وظلت عنايته بالمعاني تحول بين شعره وبين السقوط.

ج - **بسَّط لغة الشعر في مجال اللهو** والغزل والزهد والمديح، فحتى المديح لم يقف عائقًا في سبيل هذا الأسلوب المبسط السهل، إذا انفك عن كثير من تقاليده القديمة من حيث مقدماته في وصف الصحراء والرحلة على النوق.

د - لغته الضخمة الجزلة وما كان يشوبها من الغريب.

هـ - اختيار الأوزان الخفيفة والمجزوءة يصوغ منها شعره؛ بل لقد اندفع يجدد في الأوزان، على نحو ما مر بنا في الفصل السابق مُظْهِرًا براعة فائقة.

- ٢٠ -

أبو نواس

الحسن بن هانئ

١٤٠ ـ ١٩٩هـ

أ - نشأته وحياته:

ولد الشاعر الحسن بن هانئ في إحدى قرى خوزستان من بلاد فارس. توفي الأب حين بلغ الابن السادسة، فانتقلت الأم بابنها إلى البصرة ودفعت ابنها لحفظ القرآن فحفظه، ثم عمل الشاعر خادماً عند عطار وتعرّف على الشاعر الخليع وابلة بن الحباب الدمشقي الأصل والمنشأ، توفي فأثّر في أبي نواس تأثراً كبيراً، حيث انتقل مع والبة إلى الكوفة يعاقر الخمرة ويجالس المجان، ولكنه عاد إلى البصرة ليجالس شيوخ الأدب والفكر في ذلك العصر، ثم انتقل إلى بغداد وأصبح شاعر الرشيد والأمين، عاش ٥٩ عاماً امتدت بين عامي: (١٤٠هـ) و(١٩٩هـ) وتروي كتب الأدب أن أمه كانت من ذوات البيوت صاحبات الرايات استرابةً وشكّاً بحيث أثر ذلك في أبي نواس.

ب - شخصيته:

١ - **الصفات النفسية:** حاد المزاج بحيث تتغير مواقفه بحسب الظروف، محباً للهو، ومجالس الخمر والنساء.

٢ - **الصفات الثقافية:** استقى الشاعر ثقافته من البيئة العباسية المحيطة به، ومما تعلمه من الثقافة الفارسية بالإضافة إلى القرآن والحديث.

٣ - **الصفات الاجتماعية:** تأثر أبو نواس بالواقع الاجتماعي المحيط به والمنحرف عن جادة الصواب، وساهم في انحرافه مادية المجتمع العباسي وانحراف أمه، وقد جعله ذلك يدعو بشعره إلى الانحلال من الأخلاق والابتعاد عن القيم الإيجابية.

ج - جوانب شعره:

عايش أبو نواس حالة التغير والتبدل الاجتماعي والفكري والأدبي،وحاول كغيره أن يجدِّد من مضامين القصيدة العربية، وسخر من وقوف العرب على الأطلال، ولكنه بقي تقليدياً في قصائد المدح التي كانت يمتدح بها الخلفاء.يقول أبو نواس واصفاً الخمرة:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

ويقول في الوقوف على الأطلال:

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد

ويقول في رثائه للخليفة الأمين:

طوى الموت ما بيني وبين محمد ... وليس لما تطوي المنية ناشر

وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

ويقول معاتباً جارية الرشيد (خالصة):

ضاع شعري على بابكم ... كما ضاع عقد على خالصة

ويقول مادحاً الرشيد:

وأَخَفْتَ أهل الشرك حتى أنّه ... لتخافك النطف التي لم تخلق

د - الحكم على شعره:

لقد كان شعر أبي نواس صورة واقعية لحياة اللهو والمجون ومعاقرة الخمرة، وغزل النساء والغلمان، إذ إن الحياة العباسية أثرت في حياته فأخرجته من فتى يحفظ القرآن إلى شاب خليع لا يراعي الواقع الخلقي والاجتماعي.

هـ - صَنْعَةُ أبي نُوَاسٍ:

عُني أبو نواس بصناعته اللفظية في المديح والرثاء والغزل والمجون،فهو يفرط في السهولة حين يتغزل، وكان ينظم كثيراً في أوزان المجتث والمقتضب والمتدارك وما يشاكلها من البحور

المجزوءة، معبرًا عن أحاسيس الحب، وملائمًا بينها وبين الغناء الذي عاصره، وله شعر في الزهديات ربما نظمه مجاراة لأبي العتاهية وأمثاله ممن كان تروج أشعارهم في العامة:

يا ناظرًا في الدين ما الأمر؟ لا قدرٌ صحَّ ولا جَبْرُ
ما صح عندي من جميع الذي تذكرُ إلا الموت والقبر

وقوله:

يا أحمد المترجى في كل نائبة قم سيِّدي نعصِ جبار السموات
يا رب وجهٌ في الترابِ عتيقُ ويا رب حسن في الترابِ رفيقُ
فقل لقريبِ الدارِ إنك راحلٌ إلى منزلٍ نائي المحلِّ سحيقِ
وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكِ وذو نسبٍ في الهالكينَ عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

وكانت صنعة الشعر عند أبي نواس كانت تعتمد اعتمادًا شديدًا على الإطار القديم في المديح والرثاء وما يشبههما؛ بينما كانت تنفك من هذا الإطار أحيانًا في الغزل والخمريات، وقد تظل له قوة البناء فيهما، وتظل له روعة التصوير ودقة العاطفة، وقد يهبط وخاصة حين يتعابث ويهزل إلى لغة العامة وإلى أسلوب ليس فيه شيء من قوة، كان يعمد فيه إلى اللحن أحيانًا. ولعل ذلك ما جعل بعض القدماء يقول عنه، وهو قول صحيح: "إنه كان لا يقوم على شعره ويقوله على السكر كثيرًا، فشعره متفاوت؛ لذلك يوجد فيه ما هو في الثريَّا جودة وحسنًا وقوة وما هو في الحضيض ضعفًا وركاكة".

- ٢١ -

ابن الرومي

علي بن العباس

٢٢١ - ٢٨٣ هـ

أ - حياته ونشأته:

ولد ابن الرومي علي بن العباس عام (٢٢١هـ) وتوفي (٢٨٣هـ) لأبوين رومي وفارسية، وكان له أخ اسمه محمد وأخت توفيت قبل أمها، وقد اطلع على علوم العربية والفلسفة وعلم الكلام التي استمرت طيلة حياته لخوفه من الأسفار، ولم يسافر من بغداد إلا مرة واحدة والمسافة قصيرة جداً إذ لم يتجاوز مدينة سامراء، وقد بقي متعلقاً بوطنه وأرضه وبيته:

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعه ... وألا أرى غيري له الدهر مالكا

ب - شخصيته، وعناصر تكوينها:

١ - **العناصر الشكلية لشخصية الشاعر:** تميَّز ابن الرومي بدمامة الوجه وقبح المنظر، وفحولة في الجسم، وصلع كبير بحيث امتنع عليه خلع الكوفية.

العناصر الداخلية (الطبع والجبلّة): وقد امتلك ابن الرومي رهافة في الإحساس والمشاعر ودقة في الأعصاب بحيث جعل ذلك خياله آلة تصوير ناطقة تلتقط الصور الواقعية بدقة، وتعكسها بدقة، وقد أورث له هذا الإحساس الرقيق عقدة التطيرُّ.

٢ - **العناصر الاجتماعية:** وقد تعرض ابن الرومي لنكبات متعددة إذ توفي والده صغيراً، وتوفيت أمه بعد ذلك، ثم توفيت زوجه وأخوه الذي كان يعينه على الحياة، وتوفي معظم أولاده مما جعله يشعر بالخيبة والمرارة واليأس، كما أنه عانى من سوء المخالطة للناس، فأصبح مغروراً يعبِّر عن ذلك بالهجاء والمقذع والسخرية اللاذعة.

ج - شعر ابن الرومي:

يعد ابن الرومي من الشعراء المطبوعين الذين يجري شعرهم على السليقة والفطرة، فهو بعيد عن التكلف يركز على المعاني أكثر من الألفاظ وتميز بتوليدها، وقد كتب في معظم فنون الشعر وتفوق في الرثاء والوصف والهجاء.

١ - رثاء ابن الرومي:

تميز بالصدق والعاطفة المتأججة والعبقرية الفنية:

تـوخّى حمـامُ المـوت أوسـط صـبيتي فللّـه كيـف اختـار واسـطة العقـد

وأولادنـا مثـل الجـوارح أيَّهـا فقـدناه كـان الفـاجع البـيّن الفقـد

٢ - هجاء ابن الرومي:

وقد تميَّز بدقة الوصف والتحليل للشخصيات التي هجاها بحيث يبدو رساماً كاركتوري في شعره، يقول في هجاء بخيل يقتر على نفسه:

يقـتّر عيـسى عـلى نفـسه ولـيس بباقٍ ولا خالـدِ

فلـو يـستطيع لتقتـيره تـنفَّس مـن منخـرٍ واحـدِ

ويقول في وصف معلم صبيان يدعى أبا سليمان:

أبـو سـليمان لا تُجـدي طريقتـه لا في الغنـاء ولا تعلـيم صـبيان

ولعل من أهم الجوانب التي تلفت النظر في شعر ابن الرومي جانب الهجاء؛ فقد أعده مزاجه الحاد وقدرته البارعة في لمح الدقائق والعيوب الجسمية لضرب من الهجاء يمكن أن نسميه "الهجاء الساخر"؛ إذ كان يعبث بمهجويه عبثًا لاذعًا يشبه عبث أصحاب الصور "الكاريكاتورية"؛ فهو يقف عند نواحي الضعف ويكبرها ويظهرها في أوسع صورة لها، حتى ليثير الضحك والإشفاق على من يتناوله منهم؛ إذ يصنع بهم صنيع أصحاب الصور "الكاريكاتورية" فهم يضعون رأسًا كبيرًا على جسم صغير، أو يخالفون في أعضاء الجسم فيركبونها عليه تارة بالطول وتارة بالعرض، وهو تركيب مضحك في كل صوره وهيئاته.

وكذلك كان ابن الرومي يتناول من يهجوه فيشوهه تشويهًا غريبًا، مستخدمًا ما يمتاز به من بعض النقائص الجسدية، وانظر إليه يقول في الأحدب الذي كان يتطيَّر به:

قـــصُرت أخادعُـــه وغـــاب قذالُـــهُ فكأنَّـــــه مـــــتربِّص أن يُـــــصفعا

وكـــــأنما صـــــفعت قفـــــاه مـــــرَّة وأحـــــسَّ ثانيـــــةً لهـــــا فتجمَّعـــــا

ويقول في بعض مهجويه:

وجهـــكَ يـــا عمـــرو فيـــه طـــولُ وفي وجـــــوهِ الكـــــلابِ طـــــولُ

والكلـــــبُ وافٍ وفيـــــك غـــــدرٌ ففيـــــك عـــــن قـــــدره سُـــــفُولُ

وقـــــد يحـــــامي عـــــن المـــــواشي ومـــــا تحـــــامي ولا تـــــصولُ

وأنـــــت مـــــن أهـــــلِ بيـــــتِ ســـــوءٍ قـــــصتُهم قـــــصةٌ تطـــــولُ

وجـــــوههم للـــــورى عظـــــاتٌ لكـــــن أقفـــــاءهم طبـــــولُ

مـــــستفعلن فـــــاعلن فعـــــولُ مـــــستفعلن فـــــاعلن فعـــــولُ

بيـــــتٌ كمعنـــــاك لـــــيس فيـــــه معنـــــى ســـــوى أنـــــه فـــــضولُ

وعلى نحو ما كان يلتقط العيوب الجسدية كان يلتقط العيوب الصوتية والمعنوية، يقول في مغنٍّ قبيح الصوت:

وتحـــسب العـــين فكّيـــه إذا اختلفـــا عنـــد التـــنغُّم فكَّـــيْ بغـــلِ طحَّـــانِ

ويقول في بخيل يسمى عيسى:

يقـــتّر عيـــسى عـــلى نفـــسه ولـــيس ببـــاق ولا خالـــد

فلـــو يـــستطيع لتقتـــيره تـــنفس مـــن منخـــر واحـــد

ويقول في بعض مهجويه، ويصوره يجتر كالحيوانات المجترة:

بعـــض أضراســـه يكـــادم بعـــضا فهـــي مـــسنونةٌ بغـــير ســـنون

لا دؤوبٌ إلا دؤوب رحاهـــــــا أو دؤوب الرحـــــى التـــي للمنـــون

مـــا ظننـــت الإنـــسان يجـــتر حتـــى كنـــت ذاك الإنـــسان عـــين اليقـــين

وكان مشغوفاً بهجاء اللحى وتصويرها تصويراً هزلياً كأن يقول في بعضهم:

علـــــق الله في عـــــذاريك مخـــــلا ة ولكنهـــــا بغـــــير شـــــعير

وانظر إليه يقول في لحية، لم يعجب بها ولا بصاحبها:

لـــو قابـــل الـــريح بهـــا مـــرة لم ينبعـــث مـــن خطـــوه إصـــبعا

أو غـــاص في البحـــر بهـــا غوصـــة صـــاد بهـــا حيتانـــه أجمعـــا

فإنك تراه يركب من يهجوهم ركوباً غريباً، إذ يسخر منهم سخرية لاذعة وهي سخرية ناشئة عن دقته في لمح العيوب الجسمانية وغير الجسمانية عند خصومه، وناشئة أيضاً عن حبه ومزاجه وتشاؤمه وإناتهم له في تطيره، فانصبّ عليهم شواظاً من نار يلذعهم، بل يكويهم ويكوي وجوههم، وأنوفهم، وأقفاءهم وأفواههم. وكان يعرف كيف يكبر مواضع العيب منهم فإذا هو يعبث بهم وبأقفائهم. كما يعبثون بتطيره وتشاؤمه، وما الناس من حوله إلا كهذا الأحدب المخيف!

٣ - الوصف عند ابن الرومي:

أجاد ابن الرومي في وصف الطبيعة وكان ميالاً إلى التشخيص كما أجاد في وصف الحمّال الأعمى ووصف المغنية وحيد.

يقول في وصف بستان عنب للمنصور الخليفة:

ورازقـــي مخطـــف الخـــضور كأنّـــه مخـــازن البلّـــور

قـــد ضـــمّنت مـــسكاً إلى الـــشطور وفي الأعـــالي مـــاء وردٍ جـــوري

لـــو أنّـــه يبقـــى عـــلى الـــدهور قـــرّط آذان الحـــسان الحـــور

ويقول في وصف وحيد المغنية:

غـــادة زانهـــا مـــن الغـــصن قـــدٌّ ومـــن الظبـــي مقلتـــان وجيـــدُ

تتغنّـــى كأنّهـــا لا تُغنـــي مـــن ســـكون الأوصـــال وهـــي تجيـــد

خلقـــت فتنـــةً، غنـــاءً وحـــسنا مالهـــا فـــيهما جميعـــاً نديـــدُ

د - صنعة ابن الرومي

لم يكن ابن الرومي يذهب في أن الشعر لا يحتاج إلى فلسفة ومنطق؛ بل كان يرى أنهما أصلان مهمان في حرفته؛ فهو يعتمد عليهما في تفكيره، وهو يستخدمهما في صياغته، حتى لتتخذ أبياته في كثير من نماذجه شكل أقيسة دقيقة؛ فهو يقدم لها بمقدمات ويخرج منها بنتائج، وكأنه رجل من رجال المنطق، وهو لذلك يأبى إلا أن يخرج نماذجه إخراجًا حديثًا، فيه فكر، وفيه فلسفة، وفيه منطق، وفيه تلك الصفات العقلية الجديدة التي يمتاز بها شعراء العصر العباسي من أسلافهم القدماء، واقرأ له هذه الأبيات.

لما تؤذنُ الدنيا به من صُرُوفها ... يكون بكاءُ الطفلِ ساعةَ يولدُ
وإلا فما يُبْكيه منها وإنها ... لأفسحُ مما كان فيه وأرغدُ
إذا أبصرَ الدنيا استهلَّ كأنَّه ... بما سوف يلقى من أذاها مهدَّدُ
وللنفس أحوالٌ تظل كأنها ... تشاهدُ فيها كل غيب سيشهدُ

ويمكننا أن نلخّص ذلك في جانبين:

١ - **الوضوح:** الذي جعله يستقصي أطراف الفكرة حتى تتضح من جميع جوانبها؛ فهو رجل منطق، يعشق البيان الواضح، ولعله من أجل ذلك كان شعره يمتاز بالطول فهو يستقصي ويتعمق في عرض أفكاره، حتى تبرز بروزًا دقيقًا.

٢ - **التنسيق:** الشديد والربط الوثيق بين أفكاره فهو طويل النفس شديد الاستقصاء للمعنى مسترسل فيه، ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سببًا من أسباب الإطالة؛ وكان ابن الرومي يستخدم الصياغة المنطقية، في قصائده، فشغف بهذا الطول الذي هو من أخص صفات من يريدون التعبير المنطقي الواضح. ومهما يكن فإن ثقافة ابن الرومي قد أحدثت في شعره هذا النوع الغريب من الطول في نماذجه.

٣ - **الشعرعنده تعبير عن العاطفة:**

٤ - **الشعر عنده تعبير عن العقل:**

هـ - التَّصويرُ في شعرِ ابنِ الرُّومي:

كان ابن الرومي يعتمد في شعره على فن التصوير، إذ كان لديه قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويرًا بارعًا، واستعان في ذلك بأداتين هما: التشخيص والتجسيم.

١ - **التشخيص:** فقد استخدمه استخدامًا واسعًا في شعر الطبيعة؛ إذ كان يحس بأن الطبيعة ذاتٌ ناطقة وأشخاص متحركة، فهو يعيش مع كل نسمة فيها وكل حركة وكل خفقة وكل همسة، وكأنها تستغويه وتستهويه:

وريـــاض تخايـــل الأرض فيهـــا خـــيلاء الفتـــاة في الأبـــراد

منظـــرٌ معجـــبٌ، تحيَّـــة أنـــف ريحهـــا ريـــحُ طيـــب الأولادِ

فهي تدلُّ على إدلال الفتاة الحسنة، وهو يحنُّ إليها حنانًا غريبًا، يحس فيه برائحة ذكية، رائحة الأولاد النجباء وما يشعر به الآباء نحوهم من عطف وحنو ومحبة؛ بل إنها لتتصبَّاه إذ تتبرَّج له:

تبرَّجـــت بعـــد حيـــاءٍ وخفـــرٍ تـــبرجَ الأنثـــى تـــصدَّت للـــذَّكَر

٢ - **أدوت التشخيص:**

كما كان يكثر من استخدام أداة التشخيص اندفع إلى ذلك تحت تأثير حساسيته الخاصة فمثله ممن يتطير ويتشاءم ويكبر التوافه لابد أن يلتزم ذلك في تصويره ومعانيه؛ فهو كثير الخيال والأحلام، يتصور الخيال والحلم حقيقة فينفعل ويعظم انفعاله.

ويكبر تصوره ويتضخم، فإذا المعاني والأشياء تتجسم أمامه وتشخص، وإذا لها كل ما للأحياء من خواص وصفات، فهي تعقل عقلها، وهي تحس إحساسها وهي تشعر شعورها، واستخدام ألوان التصنيع في استخدامه لألوان الثقافة القائمة فإنها لم تتحول عنده إلى ألوان فنية زاهية.

وكان ابن الرومي من أصحاب مذهب الصنعة، ولعل من أهم هذه الجوانب ما يلاحظ عليه من استخدام لوني الطباق والجناس:

قلـــت لمـــا بـــدت لعينـــيَّ شُـــنعا ربَّ شـــوهاءَ في حـــشا حـــسناءِ

قلـــن لـــولا انكـــشافُنا مـــا تجلَّـــت عنـــك ظلـــماءُ شـــبهةٍ قـــتماء

قلــت أعجــب بكــن مــن كاســفاتٍ كاشـــــفاتٍ غـــــواشيَ الظلـــــماءِ

فهو يطابق بين كلمتي شوهاء وحسناء، وهو يجانس بين كلمتي كاسفات وكاشفات؛ إلا أنه يلاحظ أن ابن الرومي لم يكن يكثر من هذين اللونين؛ فهو ليس من أصحاب التصنيع إنما هي أشياء تسقط في بعض شعره، وقد لا تسقط؛ إذ هي لا تأتي عنده كمذهب، على أن ابن الرومي كان يهتم بجانب آخر في صناعته، وهو جانب القافية؛ فقد كان يطلب شواذها ولا يترك حرفًا شاردًا من حروفها؛ إلا ويؤلف عليه قصيدة أو قصائد مختلفة، وليس ذلك كل ما يلفتنا في صناعة قوافيه؛ فقد كان يلتزم حركة ما قبل الروي في المطلق والمقيد في أكثر شعره اقتدارًا، فمن ذلك في الروي المطلق:

لم يـــسترحْ مـــن لـــه عـــينٌ مؤرقـــةٌ وكيـــف يعـــرف طعـــمَ الرَّاحـــةِ الأرِقُ

فقد مضى في هذه المقطوعة يلتزم كسرة قبل الروي وهو هنا مطلق، ويماثله في المقيَّد قصيدته:

أبَـــينَ ضـــلوعي جمـــرةٌ تتوقَّـــد عـــلى مـــا مـــضى أم حـــسرةٌ تتجـــددُ

فقد التزم الفتحة قبل الرَّوي. وكان لا يعاقب بين الواو والياء في أكثر شعره قدرة على الشعر واتساعًا فيه؛ فمن ذلك مطولته:

شـــابَ رأسي ولاتَ حـــين مـــشيبِ وعجيـــبُ الزمـــانِ غـــير عجيـــبِ

فقد التزم فيها الياء قبل الرَّوِيِّ كما التزم الواو في مقطوعته السابقة:

وجهُـــك يـــا عمـــرو فيـــه طـــولُ وفي وجـــــوهِ الكـــــلابِ طـــــولُ

إنه قد يلتزم الحرف وحركته قبل الروي، وفي مطولة التي يبدؤها على هذا النمط:

صـــبرًا عـــلى أشـــياءَ كلِّفتُهـــا أعقبتهـــا الـــدَّنَّ وسُـــلِّفتُهَا

يلتزم فيها الفاء قبل الروي، وكأنه كان يرى أن الروي في هذه المطولة هو الفاء لا الهاء ولا التاء. ومهما يكن فإن ابن الرومي لم يستطع أن ينتقل بصناعته من دائرة الصانعين إلى دائرة المصنِّعين؛ لأنه كان يفهم الشعر بصورة أقرب من الصورة التي علقت بأذهان أصحاب التصنيع.

- ٢٢ -

أبو الطيب المتنبي

أحمد بن الحسين الجعفي

٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

أ - حياته ونشأته:

ولد أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين الجعفي سنة (٣٠٣هـ) وتوفي سنة (٣٥٤هـ) في حي من أحياء الكوفة "بني كندة" وقد ادّعى النبوة في بادية السماوة وسجن في حمص وتنقّل بين القبائل والبادية فاطّلع على اللغة والأدب وفنون القول، كان والده سقّاء في مساجد الكوفة، التقى في أنطاكية بأبي العشائر وعرّفه على سيف الدولة الذي أعجب به وقرّبه إليه. مما جعل الحساد من الشعراء يوقعون بينه وبين سيف الدولة مما جعله يهاجر إلى مصر، ويلتقي بكافور الإخشدي الذي ماطله في تعينيه والياً في مصر، فهرب ليلة عيد الأضحى هاجياً كافور، ثم توجّه إلى الكوفة، ثم تردد إلى بغداد والتقى بابن العميد في منطقة أرّجان، وبعضد الدولة في منطقة شيراز.

ب - شخصيته:

الصفات الجسمية: لم يرد ذكرٌ لصفات قبيحة في شخصية المتنبي، ويرجع البعض نسبه إلى بني هاشم.

الصفات النفسية: يعد المتنبي من الشعراء الطموحين المغرورين والمعتدّين بنفسهم، والمتطلعين إلى المجد والسيادة وكان يؤمن بالقوة والجلد، أمضى حياته باحثاً عن طموحه ولكنه فشل في مبتغاه.

الصفات الخلقية: يتميّز المتنبي بالصدق مع نفسه والوفاء مع غيره، وهو رجل ودود لم ينس فضائل سيف الدولة عليه.

ج - شعر المتنبي:

يعد المتنبي عند الدارسين العرب، وغير العرب، الشاعر الأول من حيث القدرة والعطاء، فقد كان شاعراً بارعاً في تناوله لموضوعاته، كتب في معظم أغراض الشعر كالفخر - المديح - الهجاء - الوصف - الحكمة.

١ - الفخر:

القارئ لشعر المتنبي يجد أن هذا الشاعر قد بثَّ فخره الفردي في معظم قصائده بحيث قاده هذا الفخر إلى الغرور من ذلك:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

وقوله:

أيّ محلٍّ أرتقي وأيّ عظيمٍ أتقي

وكل ما خلق الله وما لم يخلق

محتقرٌ في همتي كشعرة في مفرقي

٢ - المديح:

وهو الغرض الأهم المشتمل على معظم قصائده، فقد أكثر المتنبي من المديح، وبرع به وتوجّه به إلى صديقه أبي العشائر وسيف الدولة الحمداني وكافور الإخشيدي، ومن قصائده المميزة قوله في أبي العشائر:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إنْ لم تسعد الحالُ

ويقول في ميميته والتي مدح فيها سيف الدولة:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

ويقول مادحاً سيف الدولة بأبيات بارعة:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمُ

٣ - الهجاء:

وهو الفن الذي يقضي على المتنبي، وقضى عليه بالنهاية على يد فاتك الأسدي بسبب قصيدته التي مطلعها:

ما أنصف القوم ظبة وأمه الطرطبة

وفي قوله لكافور:

لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

٤ - الرثاء:

وقد تميز الرثاء بالسمو في المعاني، أكثر ما ظهر ذلك في رثائه لجدته التي احتضنته بعد وفاة أمّه، وقد كان أثناء رثائه صغيرا فغلب على قصيدته الفخر:

يقولون لي: ما أنت في كلِّ بلدةٍ وما تبتغي؟ ما أبتغي جلَّ أن يُسمى

وإني لمن قومٍ كأنّ نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

والثانية لرثائه لخولة أخت سيف الدولة والظاهر أنه كان يودُّها، ولكنه لم يجرؤ أن يخطبها:

فليت طالعة الشمس غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغبِ

٥ - الحكمة:

استقى المتنبي حكمته من تجاربه الشخصية وثقافته الدينية واطلاعاته على فلسفة أرسطو وحكم اليونان. إذ كان هذا الرجل ثاقب النظرة، قوي التأمل، جمّل معظم قصائده بحكمٍ لا تزال سائرة على ألسنة الناس إلى يومنا هذا. ومن ذلك قوله:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقوله:

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

وقوله:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

٦ - الوصف:

وقد كان المتنبي بارعاً في تصويره لكثير من القضايا والمشاهد التي رآها في عصره، والمتصفح لديوان المتنبي يجد عجباً لمقدرة هذا الشاعر على رصد الصور الجميلة، من ذلك قوله في وصف منطقة "شعب بوان".

ملاعبُ جنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

طَبَتْ فرساننا والخيل حتى خشيت وإن كَرُمْنَ من الحران

كذلك وصفه للجيش في الحدث الحمراء:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمام

وكذلك وصفه للحمّى التي أصابته:

وزائرتي كأنّ بها حياء فليس تزور إلاّ في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فخافتها وباتت في عظامي

٧ - الغزل:

كان الطموح الذي تحمله نفسية المتنبي والذي تمثّل ببحثه عن المجد والزعامة والسيادة ألا يجعل المتنبي شاعراً يبحث عن المرأة، ولكنه مع ذلك يصف لواعج الشوق وتبارع الحنين وصفاً بارعاً من ذلك قوله:

القلب أعلم يا عذول بدائه وأحقُّ منك بجفنه وبحائه

ومن أحبّه لأعصينك في الهوى قسماً به وبحسنه وبهائه

ويقول أيضاً في وصف أثر الحب في نفسه متخيلاً امرأة:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياءُ

قلق المليحة وهي مسك هتكها ومسيرها بالليل وهي خفاءُ

أســـفي عـــلى أســـفي الـــذي دهنـــي عـــن علمـــه فبـــه عـــليَّ خفـــاء

ومن ذلك قوله:

أثرهـــــا لكثـــــرة العـــــشاق تحـــسب الـــدمع خلقـــت في المـــآقي

د - صنعة المتنبي:

يتطابق شعر المتنبي مع حياتـه، ويمثـل ثقافتـه، وهـي ثقافـة واسـعة يمتـزج فيهـا التـشيع والتصوف والفلسفة فقد تصنَعَ المتنبي للثقافاتِ المختلفةِ، وأثرت القرمطية في أسلوب المتنبـي وصياغته، وإليها يرد كثيرًا من الظواهر الفنية، وتصنُّعُ المتنبي للعبارةِ الصوفيةِ وشاراتِهَا، وهذه الصوفية يمكن أن يُلحظ تأثيرها في شعر المتنبي من جهة أخرى غـير جهـة الرمزيـة والأفكـار والمعاني؛ إذ نرى في شعره تأثرًا آخر لا يأتي من أنه يستعير أفكار المتصوفة ومعـانيهم؛ إنـما يـأتي من استعارته لطريقتهم في التعبير وما يتصل بها من ظروفها وأحوالها الخاصة، فإن المتنبي حين عدل بشعره إلى العبارة الصوفية كان قد أسلم هـذا الـشعر إلى صـعوبات في التركيـب، وهـي صعوبات كانت تميز أساليب المتصوفة في هذه العصور؛ لأن اللغة لم تكن قد اتسعت بعد لأداء أفكارهم ومعانيهم، وقد لاحظها القدماء في بعض الأبيات: لاحظها صاحب اليتيمة في قولـه يصف فرسًا:

وتـــسعدني في غمـــرةٍ بعـــد غمـــرةٍ ســـبوحٌ لهـــا منهـــا عليهـــا شـــواهدُ

وقوله:

ولـــــولا أننـــــي في غـــــير نـــــومٍ لبِـــــتُّ أظننـــــي منِّـــــي خيـــــالا

وقوله:

ولكنـــــك الـــــدُّنيا إليَّ حبيبـــــةً فـــــما عنـــــك لي إلا إليـــــك ذهـــــابُ

والمتنبي هو خير شاعر يصور لنا أساليب المتصوفة في القرن الرابع، وأنه يبلغ من ذلك ما لا يبلغه الحلّاج والشِّبلي والجُنَيد وغيرهم من متصوفة هذا القرن، والمتنبي لم يكـن متـصوفًا؛ إنـما كان ممثلًا للتصوف يقترح عباراته في الشعر، وما يزال يطلـب جميـع شـاراتها وحركاتهـا، ومـا يمكن أن تخرج فيه من ظروف مختلفة تكثر فيها الضمائر أو تكثـر فيهـا أدوات النـداء أو تكثـر

أسماء الإشارة، وربما التقط في أثناء ذلك تعبيرًا فيه تصغير، على أن هذا الالتجاء لأساليب المتصوفة وما سبقه من التجائه لأساليب المتشيعة بعث فيها حالًا من الغلو والمبالغة في مدح أصحابه؛ حتى ليخيل إلى الإنسان - في كثير من الأحيان - أنه يقرأ مدحًا لإمام من أئمة المتشيعة أو المتصوفة؛ إذ كان يذهب مذهبهم في المبالغة، فيخرج إلى ضروب غريبة من الغلو والإفراط، واقرأ هذه الأبيات التي يقولها في بعض ممدوحيه:

لَو كانَ ذو القَرنَينِ أَعمَلَ رَأيَهُ ... لَمّا أَتى الظُّلُماتِ صِرنَ شُموسا

أَو كانَ صادَفَ رَأسَ عازَرَ سَيفُهُ ... في يَومِ مَعرَكَةٍ لَأَعيا عيسى

أَو كانَ لُجُّ البَحرِ مِثلَ يَمينِهِ ... ما انشَقَّ حَتّى جازَ فيهِ موسى

أَو كانَ لِلنيرانِ ضَوءُ جَبينِهِ... عُبِدَت فَصارَ العالَمونَ مَجُوسا

من أهم الوسائل التي كان يستخدمها المتنبي وغيره من الشعراء في هذه العصور وسيلة الفلسفة والثقافة اليونانية؛ فقد كان يحاول أن يستوعب الأفكار والصيغ الفلسفية في قصائده ونماذجه حتى يتخلّص قليلًا من صيغ الفن الثابتة وقوالبه العتيقة، وإن الإنسان ليحس دائمًا عند المتنبي أنه كان يبحث عن صيغ جديدة للتعبير، ولكنه لم يكتفِ بأن يخضع هذا البحث لتجاربه الخاصة في التعبير عن وجدانه وأفكاره؛ إذ ذهب يقترض طائفة من الصيغ المذهبية أو الفلسفية، وبذلك انصب كثير من تجديده على تغييره في القيود ووجوه التكلف.

ولعل أول ما يقابلنا من ذلك حكمه الكثيرة التي شاعت في شعره، وعرف بها عند القدماء والمحدثين؛ فهم يذكرون أن الصاحب بن عبّاد ألف رسالة لفخر الدولة ابن بُويه، جمع فيها من شعر أبي الطيب زهاء ثلاثمئة وسبعين بيتًا تجري مجرى الأمثال. وقد كتب الحاتمي رسالة يبين فيها كيف استغل صاحبنا حكم أرسطو وكيف صاغها شعرًا، فمن ذلك قوله:

يُرادُ مِنَ القَلبِ نِسيانُكُم ... وَتَأبى الطِّباعُ عَلى الناقِلِ

وأصله عند أرسطو طاليس: "روم نقل الطباع من رديء الأطماع شديد الامتناع".

ومن ذلك قوله:

لَعَلَّ عُتْبَكَ مَحمودٌ عَواقِبُهُ ... فَرُبَّما صَحَّتِ الأَجسامُ بِالعِلَلِ

وأصله عند أرسطاليس: "قد يفسد العضو لصلاح أعضاء، كالكي والفَصْد اللَّذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها، ومن ذلك قوله:

وَمَن يُنفِقِ السَّاعاتِ في جَمْعِ مالِهِ مخافةَ فَقْرٍ فَالَّذي فَعل الفقرُ

وأصله عند أرسطاليس: "من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم". وعلى هذه الشاكلة أخذ الحاتمي يحقق ترجمة هذه الحكم اليونانية إلى الشعر العربي عند المتنبي حتى بلغ بها نحو مئة وعشرين حكمة.

ومن يقرأ في ديوان المتنبي يحس إحساسًا واضحًا بأن الشعر كان يعتمد عنده على العقل المتفلسف والصياغة الفلسفية، وقد ذهب يستخدم هذه الحكم، مضيفًا إليها ضروبًا من القافية المنطقية الدقيقة حتى ينال ما يريده من الدوي العالي:

وتركك في الدنيا دويًّا كأنما تداولُ سَمْع المرء أنْمُلُهُ العشرُ

والمركَّبُ الفَنِّي الفلسفي في شعر المتنبي موجود بسبب توافر الأضداد، وقد أحاله لونًا فنيًّا جميلًا، وهنا تبيّنا جانبًا من قابلية العقلية العربية للتفكير اليوناني.

الجيشُ جيشُك غير أنك جيشه في قلبِهِ ويمينه وشمالِهِ

وليس في البيت غرابة ولا تعقيد، ولذلك يبدو يسيرًا سهل الفهم، ولكن إذا أمعنا النظر وجدنا فيه شيئًا يشبه أن يكون تعقيدًا؛ إذ يجعل المتنبي ممدوحه جيشًا، ويجعل الجيش جيشه، وفي الوقت نفسه يجعله جيش الجيش؛ فهو جيش دائر على نفسه، أو هي فكرة فيها دور، وليس من شك في أن المتنبي عمد إليها عمدًا وتصنع لها تصنعًا، وما الفرق بينه وبين غيره من شعراء عصره ممن لم يتثقفوا ثقافة فلسفية إن لم يأت بمثل هذه العبارات المتداخلة؟ وانظر إلى قوله:

فتىً يشتهي طول البلادِ ووقته تضيق به أوقاتُهُ والمقاصدُ

فإنك تراه لا يزال يتعمَّل للأسلوب الفلسفي في تفكيره وصياغته؛ وعلى هذا النحو نراه يقول بيته:

أَسَفي عَلى أَسَفي الَّذي دَلَّهتِني عَن عِلمِهِ فَبِهِ عَلَيَّ خَفاءُ

فإنه يأسف على أسفه أسفًا غير مفهوم، فالأسف يركب أسفًا مثله، كهذا الزمان الذي يقي منه زمان مثله، وهذا الحمام الذي يفدي منه حمام مثله، وما يزال هذا القانون من التوليد يلعب في فكر المتنبي وشعره حتى نراه يقول:

نِقَمٌ عَلى نِقَمِ الزَّمانِ يَصُبُّها نِعَمٌ عَلى النِّعَمِ الَّتي لا تُجْحَدُ

فالنقم على نوعين والنعم على نوعين، وكل شيء يمكن أن يستخرج منه شيء آخر يماثله، ويتحد معه، فيقوم دونه، أو يصبُّ عليه، أو يركِّبه ركوبًا غريبًا. وعلى هذا النمط ما تزال أساليبه تتشابك وتتداخل تداخلًا غير مألوف، تداخلًا يوقعه في مثل هذه الأساليب المنحرفة، أو في مثل قوله:

إِلى كَم ذا التَّخَلُّفُ وَالتَّواني وَكَم هَذا التَّمادي في التَّمادي

وما كان مثله لينام وهو يحلم بتعبير فلسفي، يحقق له ما لا يبلغ الزمن من نفسه على حدِّ تعبيره:

أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَّمَنُ

وقد شكا في شعره كثيرًا من سهاده وسهره؛ إذ يقول:

كَأَنَّ الجُفونَ عَلى مُقلَتي ثِيابٌ شُقِقنَ عَلى ثاكِلِ

فهو يطلب النوم والنوم يتأبى عليه، ولعله هو الذي كان يتأبى على النوم لانشغاله عنه بلفظة أو فكرة، وفي شعره تعقيدُ للموسيقا الإيقاعيةِ في الشِّعْرِ وانظر إلى قوله:

وَفاؤُكُما كَالرِّبعِ أَشجاهُ طاسِمُه بِأَن تُسعِدا وَالدَّمعُ أَشفاهُ ساجِمُه

فقد قدم في البيت وأخَّر حتى أحدث الخلل المقصود، وإنه لخلل غريب يكشف جانبًا من المهنة عند شعراء القرن الرابع؛ إذ كانوا يلجؤون إلى مثل هذا الارتباك في ترتيب ألفاظ البيت، فيحدثون هذا الخلل الذي يمكن أن نسمي موسيقاه باسم "الموسيقا ذات النشاز" وانظر إلى هذا البيت المذكور آنفًا:

قَلَقُ المَليحَةِ وَهيَ مِسكٌ هَتكُها وَمَسيرُها في اللَّيلِ وَهيَ ذُكاءُ

فقد أحدث المتنبي ارتباكًا موسيقيًّا في الشطرين، ويظهر ذلك من الرجوع إلى النحو، فإن الشطر الأول يتكون هكذا: مبتدأ – حال – خبر، أما الشطر الثاني فيتكون هكذا: مبتدأ – ظرف – حال، وحذف الخبر للعلم به، أي أن مسيرها في الليل هتك لها. أرأيت كيف استطاع المتنبي بثقافته النحوية أن يحدث هذه الموسيقا الجديدة الغريبة؟

إن المتنبي استطاع مع كل ما رأيناه عنده من ضروب تصنع مختلفة أن يحلِّق في أسمى أفق للشعر العربي، إذ كان لشعره – ولا يزال – حيوية وطلاوة وروعة تأخذ بالألباب على الرغم من هذا التصنع للإيماءات المذهبية والشواذ الموسيقية والشوارد النحوية؛ فقد كان لديه من المهارة الفنية ما يستطيع أن يخفي به سمات هذا التصنع وما ينطوي فيه من تكلف شديد؛ ومع ذلك فإن مذهب المتنبي في التصنع بدا فيه منذ الأدوار الأولى من حياته الفنية، وأشاع المتنبي في شعره حيوية وجمالاً ما لهما من نظير لأسباب عدة:

١ – غزله في شعره بالأعرابيات؛ وقدعبَّر عن ذلك أجمل تعبير؛ إذ يقول:

مَنِ الجَآذِرُ في زِيِّ الأَعاريبِ ... حُمرِ الحُلى وَالمَطايا وَالجَلابيبِ
إن كنتَ تسأل شكًّا في معارفها ... فمنْ بلاكَ بتسهيدٍ وتعذيبِ
كَم زَورَةٍ لَكَ في الأَعرابِ خافِيَةٍ ... أَدهى وَقَد رَقَدوا مِن زَورَةِ الذيبِ
أَزورُهُم وَسَوادُ اللَّيلِ يَشفَعُ لي ... وَأَنثَني وَبَياضُ الصُّبحِ يُغري بي
حُسنُ الحَضارَةِ مَجلوبٌ بِتَطرِيَةٍ ... وَفي البَداوَةِ حُسنٌ غَيرُ مَجْلوبِ
أَفدي ظِباءَ فَلاةٍ ما عَرَفنَ بِها ... مَضغَ الكَلامِ وَلا صَبغَ الحَواجيبِ

٢ – في شعره ضرب من التشاؤم جعله برمًا بالدهر ساخطًا على الناس، حتى لكأنَّه ثائر على الدُّنيا ثورة نابعة من نفسه كأن يقول:

رماني الدَّهرُ بالأَرْزَاءِ حتَّى ... كأني في غشاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا ما أصابتني سهامٌ ... تكسَّرَتِ النِّصالُ على النِّصالِ

أو يقول:

فَلَـــمّا صـــارَ وُدُّ النـــاسِ خِبًّـــا ... جَزَيـــتُ عَـــلى ابتِـــسامٍ بِابتِـــسامِ
وَصِرتُ أَشُـــكُّ فـــيمَن أَصـــطَفيهِ ... لِعِلمـــي أَنَّـــهُ بَعـــضُ الأَنـــامِ
وَلَذيـــذُ الحُيـــاةِ أَنفَـــسُ في النَّفـــ ... ـــسِ وَأَشـــهى مِـــن أَن يُمَـــلَّ وَأَحـــلى
وَإِذا الـــشَّيخُ قـــالَ أُفٍّ فَـــما مَـــ ... ـــلَّ حَيـــاةً وَإِنَّـــما الـــضَّعف مَـــلّا

٣ - تغنِّيه بالبطولة:

يُحـــاذِرُني حَتفـــي كَـــأَنّيَ حَتفُـــهُ ... وَتَنكُـــزُني الأَفعـــى فَيَقتُلُهـــا سُـــمّي
كَـأَنّي دَحَـوتُ الأَرضَ مِـن خِـبرَتي بِهـا ... كَـأَنّي بَنـى الإِسـكَندَرُ الـسَّدَّ مِـن عَزمـي

أو يقول:

وَفي النـاسِ مَـن يَـرضى بِمَيـسورِ عَيـشِهِ ... وَمَركوبُـــهُ رِجـــلاهُ وَالثَّـــوبُ جِلـــدُهُ
وَلَكِـــنَّ قَلبًـــا بَـــينَ جَنبَـــيَّ مـــا لَـــهُ ... مَـــدىً يَنتَهـــي بي في مُـــرادٍ أَحُـــدُّهُ

أو يقول:

إِذا غـــــامَرتَ في شَرَفٍ مَـــــروم ... فَـــلا تَقنَـــعْ بِـــما دونَ النُّجُـــومِ
فَطَعـــمُ المـــوتِ في أَمـــرٍ حقـــيرٍ ... كَطَعـــمِ المَـــوتِ في أَمـــرٍ عَظـــيمِ

- ٢٤ -

أبو فراس الحمداني

الحارث بن سعيد بن حمدان
(٣٢٠ - ٣٥٧) هـ

أ - حياته ونشأته:

ولد الحارث بن سعيد بن حمدان عام (٣٢٠هـ) في الموصل وتوفي بحمص (٣٥٧هـ) وكان أبوه قد توفي وهو طفل، فكفله ابن عمه سيف الدولة. حيث تلقى الشاعر علومه وخالط العلماء والأدباء وصاحب سيف الدولة في غزواته وتقلد ولاية منبج وحرّان وهو في السادسة عشرة من عمره أسر مرتين في حصن خرشنة والقسطنطينية وكتب وهو في الأسر الروميات، وقد ثار أبو فراس على أبي المعالي، ابن سيف الدولة.

ب - شخصية أبي فراس الحمداني:

١ - **الصفات الجسمية:** يعد أبو فراس من الشعراء ذوي الطلعة البهية، والقوام المعتدل، ولم تذكر كتب الأدب صفات منفرة إذ إن زوجة إمبراطور الروم أصرت على رؤية الشاعر وأعجبت به أيما إعجاب.

٢ - **الصفات النفسية:** امتلك أبو فراس رقة في الإحساس وصدقاً في العاطفة، وطموحاً نحو المجد، وزهواً في النفس، وقد كان فارساً مقداماً، عانى من الأسر ما عانى، فانعكس ذلك على نفسه التي أصبحت متألمة لما يحس به.

نحن إذن بإزاء بطل من أبطال الحمدانيين، وقد استيقظت فيه شاعريته منذ مطالع شبابه، واتجه بها إلى الغزل والفخر بأسرته والاعتداد بشجاعته وغنائه في الحروب هو وآله، وقراعهم لكتائب الروم وغير الروم على شاكلة قصيدته المشهورة:

سَيَذكُرُني قَومي إِذا جَدَّ جِدُّهُم وَفي اللَّيلَةِ الظَّلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ

وفخره يمتلئ بالحيوية؛ لأنه يصوِّر فيه واقعًا لا وهمًا من أوهام الخيال. وجرَّته شيعيته – والحمدانيون جميعًا شيعة – إلى نظم قصائد في آل البيت يتعرض فيها أحيانًا لخصومهم العباسيين. وخير أشعاره جميعًا رومِيَّاته التي نظمها في أَسْرِهِ والتي كان يرسل بها إلى سيف الدولة معاتبًا لتقاعسه عن فدائه، وهي تكتظ بالحنين إلى الأهل والشكوى من الدهر والرفاق، ومن روائعها قصيدته التي يخاطب فيها أمه والأخرى التى يرثيها بها رثاء حاراً. وهو بارع في تصوير أحاسيسه ومشاعره، سواء تحدث إلى ابن عمه وهو في أسره أو خاطب حمامة تنوح، أو صور ليلة من ليالي حبه. غير أن شعره في جملته لا يصعد إلى الأفق الذي يحلِّق فيه المتنبي، لسبب بسيط وهو أنه أمير مترف، يتناول شعره كما يتناول حياته في يسر وسهولة.

ج - شعره:

كتب أبو فراس في أعراض الشعر العربي معظمها من غزلٍ ورثاء ووصف ومدحٍ، ولكنه برع في الغزل والفخر.

١ - الفخر عند أبي فراس:

اتخذ الفخر عند هذا الشاعر منحيين، منحىً يتجه فيه إلى النفس وفيه يقول:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

ومنحىً يتجه فيه إلى قبيلته وبذلك يقول:

لنا الجبل المطُّل على نزارٍ ... حللْنا النجد فيه والهضابا

تفضّلها الأنامُ ولا نحاشى ... ونوصف بالجميل ولا نحابى

٢ - الغزل عند أبي فراس:

نظراً لاعتداد الشاعر بنفسه وما يمتلكه من أنفة وكبرياء وعزة نفس، فقد توجَّه بغزله إلى الصفات المعنوية عند المرأة ولا يتطرق إلى المفاتن الجسدية، لذلك بدا غزله مشوباً بالحنين والشوق. من ذلك قوله:

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآناً فلا نزل القطرُ

٣ - العتاب عند أبي فراس:

وهو مجموعة من القصائد التي قالها معاتباً سيف الدولة على تقصيره بافتدائه من الأسر وخاصة وأنه أُسر مرتين، لاقى خلالها العنت والعذاب والحزن على فراقه أمه ومحبوبته.

أمن بعد بذل النفس فيما تريده ... أثاب بمر العتب حين أثاب

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

د - الحكم على شعر أبي فراس:

تميز شعر أبي فراس بميزتين أساسيتين. الأولى: دقة التعبير العفوي لدى الشاعر، والثانية: الثقافة العصرية المتنوعة التي عكست شخصية الشاعر.

ويعد أبو فراس من شعراء الطبقة الأولى في العصر الحمداني فالعاطفة لديه متوقِّدة صادقة حارة لا يشوبها أي تزوير أو كذب، والمعاني عربية خالصة، والجملة الشعرية أقرب إلى التعبير من التصوير.

- ٢٥ -

أبو العلاء المعري

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي

(٣٦٣ - ٤٤٩) هـ

آ - حياته ونشأته:

ولد أبو العلاء المعري أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي في معرة النعمان سنة (٣٦٣هـ) وتوفي سنة (٤٤٩هـ) وقد كُفَّ بصره في الثالثة من عمره بعد أن أصيب بمرض الجدري، ولا يتذكر من الألوان إلا اللون الأحمر. وقد نشأ في بيت علم ووجاهة، حيث توارثت أسرته القضاء، نهل المعري من الثقافة الإسلامية والفلسفية والإغريقية، واطّلع على المذاهب والفرق الدينية عند الهنود، وتبحر في معرفة الديانة النصرانية واليهودية وحاول التكسب بشعره في أول الأمر، وسافر إلى بغداد، ثم رجع بعد وفاة أبيه وعاود الكرة في السفر إلى بغداد ليجد أمه توفيت، فاعتزل الناس وألزم نفسه الإقامة في بيته حتى توفي. وقد التقى بكثير من الأدباء والشعراء وتتلمذ على يديه نفر كبير من أهل الأدب، أعجب كثيراً بشعر المتنبي وكان ذلك سبباً في خلافه مع الشريف الرضي.

ب - شخصيته:

١ - **الصفات الجسدية:** يتسم المعري باستثناء عاهة العمى بصورة مقبولة ومعهودة بين الناس، ولم تذكر كتب الأدب أي صفات تبيِّن قبحاً ما فيه باستثناء العمى.

٢ - **الصفات النفسية والفكرية:** امتلك المعري ذكاءً شديداً وحافظة قوية مكنته من الاطلاع على ثقافة عصره، ولكن قراءته المنوعة، ونظرة الناس إليه كصاحب عاهة بالإضافة إلى ما عاناه من معاملة متميزة جعله ميالاً إلى التشاؤم.

٣ - **الصفات الثقافية:** نظراً لاتساع ثقافة الشاعر واطلاعه على مذاهب الفكر والفلسفة والدين، فقد وقف من الحياة موقفاً نافراً وصريحاً يعتمد على أن وجود الإنسان "خطيئة"

يجب عليه ألا يكررها على غيره، وأن الفساد والشر مطبوعٌ في نفس الإنسان، وأنه لا يمكن أن يعاش في هذه الحياة بالأخلاق الحميدة ضمن النظرة الواقعية ولذلك نراه يقول:

"هذا ما جناه أبي عليَّ، وما جنيت على أحد" ومن هنا حرم على نفسه اللحوم والزواج، واحتبس نفسه مدة تزيد على أربعين سنة لزم فيها بيته، ولم يخرج إلا إلى قبره، ومع ذلك فقد امتلك نفساً إنسانية تحبّ الخير للناس جميعاً. وهو بذلك يناقض موقف أبي فراس من خلال قوله:

ولو أني حبيت بالخلد فردا ... لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي ... سحائب ليس تنتظم البلادا

بينما أبو فراس يقول:

معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

ج - شعره:

لم يظهر في الشعر العربي شاعر فيلسوف استطاع أن يمتلك زمام الحكمة، وأن يقف من الحياة والكون وحوادث الإنسان مثل المعري، فقد كان هذا الشاعر من الشعراء الذين أسسوا لخدمة الفلسفة للشعر، إذ تميز شعره باعتماده على الفكر والفلسفة أكثر من العاطفة والوجدان، وقد ترك لنا المعري حوالي مئتين من المؤلفات في الشعر والنثر ضاع أكثرها وبقي منها:

(سقط الزند – اللزوميات – الدرعيات – رسالة الغفران – رسالة الملائكة – الفصول والغايات – شرح دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام).

يمثل ديوان سقط الزند بداية حياة الشاعر،حتى رجوعه إلى بغداد، ويكشف عن خصائص شعره في تلك المرحلة.

الدرعيات: ديوان شعر في وصف الدروع.

اللزوميات: وهي الممثل الحقيقي لشخصيته الفكرية والفلسفية وتأملاته في الحياة، والموت، وقد ألزم نفسه في هذه القصائد بحرفين قبل القافية، وسلسل القوافي وفق حروف المعجم.

رسالة الغفران:وهي أعظم مؤلف نثري كتبه المعري على شكل رحلة مصورة خيالية إلى الجحيم والجنة، والتقى فيهما بالشعراء كلٌّ بحسب موقعه، ساق ذلك بجو نقدي ساخر، وقد تأثر بهذا المؤلف الشاعر الإيطالي ((دانتي)) في الملهاة أو الكوميديا الإلهية.

د - أغراض الشعر عند المعري:

كتب المعري في الفخر والوصف والرثاء والحكمة والمديح، يقول المعري في الفخر مبيناً سجاياه النفسية والخلقية وهمته العالية في سعيه إلى المجد ومكانته المرموقة:

١ - فخره:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفافٌ وإقدامٌ وسيبٌ ونائلُ

وإني وإن كنت الأخير زمانهُ ... لأتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

وهو بذلك يحاكي المتنبي الذي كان معجباً به إعجاباً كبيراً في قوله:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

٢- وصفه:

ويقول المعري في الوصف:

ليلتي هذه عروس من الزنـ ... ـج عليها قلائد من جمان

هرب النوم عن جفوني فيها ... هرب الأمن عن فؤادي الجبان

وكأن الهلال يهوى الثريا ... فهما للوداع معتنقان

وسهيل كوجنة الحبِّ في اللو ... ن وقلب المحب في الخفقان

٣- رثاؤه:

يقول أيضاً في الرثاء الفلسفي:

صاح هذه قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد

٤ - حكمته:

ويقول في الحكمة:

قـــالوا: فـــلانٌ جيـــدٌ لـــصديقه ... لا تكـــذبوا مـــا في البريـــة جيـــدُ

ومما ينسب له قوله:

زعمـــــوا أني ســـــأبعث حيـــــا ... بعـــد طـــول المقـــام في الأرمـــاس

وأجـــوز الجنـــان أرتـــع فيهـــا ... بـــين حـــور ولـــدة أكيـــاس

أي شيءٍ أصـــاب عقلـــك يـــا ... مـــسكين حتـــى رميـــت بالوســـواس

وقال أيضاً في وصف منتقدي العميان:

قـــالوا: العمـــى منظـــرٌ قبـــيحٌ ... قلـــت: بفقـــدانكم يهـــون

والله مـــــا في الوجـــــود شيءٌ ... تأســـى عـــلى فقـــده العيـــون

ويقول أيضاً واصفاً المعاصي:

زعـــم الجهـــول ومـــن يقـــول بقولـــه ... أنّ المعـــاصي مـــن قـــضاء الخـــالق

إن كـــان حقـــاً مـــا يقـــال فلـــم قـــضى ... حـــد الزنـــا أو قطـــع يـــد الـــسارق

ويقول أيضاً وهو مما ينسب إليه:

في القـــدس قامـــت ضـــجة ... مـــا بـــين أحمـــد والمـــسيح

هـــذا بنـــاقوسٍ يـــدق ... وذا بـــأذانٍ يـــصيح

وكـــل مـــسند دينـــه ... يـــا ليـــت شـــعري مـــا الـــصحيح

٥ - نقده الاجتماعي:

يعـد المعـري شـاعراً بارعـاً في انتقـاد العـادات والتقاليـد والأديـان والظلـم الاجتماعـي والإنساني.

يغـــدو الفقـــير وكـــلُّ شيءٍ ضـــدّه ... والأرض تغلـــق دونـــه أبوابهـــا

فـــتراه مجفـــواً ولـــيس بمـــذنبٍ ... ويـــرى العـــداوة لا يـــرى أســـبابها

حتـــى الكـــلاب إذا رأت ذا هـــرةٍ ... هـــشت إليـــه وحرّكـــت أذنابهـــا

وإذا رأت يومـــاً فقـــيراً بائـــساً نبحـــت عليـــه وكـــشرت أنيابهـــا

ويقول في انتقاده الديانات الوضعية والسماوية:

عجبـــت لكـــسرى وأشـــياعه وغـــسل الوجـــوه ببـــول البقـــر

وقـــول اليهـــود إلـــهٌ يحـــب وســـيس الـــدماء وريـــح القـــتر

إذا مـــا ذكرنـــا آدمـــاً وفعالـــه وتـــزويج بنتـــه لابنيـــه في الـــدنا

علمنـا بـأن الخلـق مـن أصـل ريبـة وأن جميـع النـاس مـن عنـصر الزنـا

هـ - تعقيد التصنع عند أبي العلاء

يعتد المعري بالغريب والشاذ في التراكيب، كما يعتد بالتصنع لألفاظ الثقافات المختلفة والتغني بالفيافي والحكم والأمثال والفخر بنفسه وذم الدهر والشكوى منه مع عناية واسعة بالجناس. ومن يقرأ اللُّزوميات وينظر فيها نظرة فنية من حيث الصياغة والتنسيق يلاحظ أن جوانب كثيرة منها واهية؛ إذ استغرقها أبو العلاء بالتَّكرار حتى كاد أسلوبه يسقط في غير موضع من مواضعها، نعم إنه وفِّق في بعض أبياتها ولكن الكثرة الغالبة يعمها الإسفاف والضعف، وكأني به نسي أسلوب الشعر الذي كان يعرفه في سقط الزَّند، وهل يستطيع الإنسان أن يؤمن بأن اللُّزوميات أنشأها أبو العلاء بعد ديوان "سقط الزند" بنفس صورة صياغته؟! على أنه ينبغي أن نعرف أن سقط الزند لا يعتبر مثلًا أعلى في الصياغة الفنية للشعر العربي، وقد أظهر فيها تفوقًا نادرًا من حيث الصياغة وخاصة مرثيته:

غـــير مجـــدٍ في ملتـــي واعتقـــادي نـــوحُ بـــاكٍ ولا تـــرنُّم شـــادِ

وإن هذه القصيدة لتتفوق على كل ما كتبه في لزومياته، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه يسود فيها الخلل والضعف في البناء. إن السقط جيد بخلاف اللُّزوميات.

إن أبا العلاء لم يكن يُعنى بتجويد شعره وتحبيره في اللزوميات فهو لا يعطيه المهلة الكافية للصقل والانتخاب والتنقيح، ثم التأليف والتنسيق، فخرج شعره مهلهلًا ضعيف النسج ليس فيه شيء من حبكة التعبير ولا جمال التصوير إلا في القليل الأقل. والحق أن أبا العلاء لم يستطع أن ينهض بالصياغة الفنية في لزومياته إذ كان يعتمد على تكرار الأفكار، وإن الإنسان ليخيل

إليه أن هناك مجموعة من الأفكار ما يزال ينظمها أبو العلاء على قوافٍ وحروف مختلفة، وهو يغاير في القافية أو في الحرفين الأخيرين؛ ولكنه قلما حاول أن يغاير في المعاني والأفكار، وليس في اللزوميات غالبًا جمال في الصياغة ولا تنويع في الأفكار؛ إنما فيها بدء وإعادة وتكرار غريب للمعاني، وهي معانٍ عامة وكثيرًا ما ينقصها العمق والابتكار.

وما يزال المعري ينظمها على حرف من الحروف كالباء، ثم يعود إلى حرف آخر كالتاء، وهو ينظمها مرة على حرف الباء أو غيرها مضمومة، ثم يعود مرة أخرى أو مرارًا فينظمها على حرف الباء أو غيرها من الحروف مكسورة أو منصوبة أو ساكن يجتر أفكارًا محفوظة يكررها على قواف وأوزان مختلفة.

ولعل ما يصور ذلك تصويرًا واضحًا رسالته المسماه باسم "ملقى السبيل" حيث نجده يصوغ المعنى نثرًا، ثم يصوغه شعرًا على هذا النمط؛ إذ يقول: "كم يجني الرجل ويخطئ، ويعلم أن حتفه لا يبطئ:

إن الأنـــــــام ليخطئـــــــو ن ويغفـــــــر الله الخطيئـــــــةْ

كـــم يبطئـــون عـــن الجميـــ ل ومـــــا منايـــــاهم بطيئـــــةْ

إن أبا العلاء كان واعظًا في لزومياته، ولذلك لم يحسن صوغ أفكاره في الأساليب الخاصة بالشعر؛ لأن الوعظ من طبيعته التكرار، وهو يلائم النثر، ولا يلائم الشعر.

وكذلك لم يوفِّر أبو العلاء مجهودًا واسعًا في إحكام صياغته؛ إذ كان مشغولاً عنها بعقد ولوازم غريبة في لزومياته، لقد تكلف في هذا التأليف ثلاث كُلَف: الأولى أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها، والثانية أنه يجيء رويُّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك، والثالثة أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من حروف". ونحن نلتفت من هذه الكلف إلى أن اللزوميات ليست ديوانًا بالمعنى المألوف عند العرب.. إذ يقول:

أراني في الثلاثـــة مـــن سُـــجُوني فـــلا تـــسأل عـــن الخـــبر النَّبيـــثِ

لفقـــدي نـــاظري ولـــزوم بيتـــي وكـــونِ الـــنفسِ في الجـــسمِ الخبيـــثِ

وذهب يحبس أفكاره في هذه السجون العروضية السابقة ولم يكتف بها؛ يتصنع الإغراب في ألفاظه، وعمَّم ذلك في جميع أشعاره وكتاباته، حتى ليشعر الإنسان في أحوال كثيرة بأنه يقرأ في متن من متون اللغة العويصة، ولعل من الطريف أن أبا العلاء استطاع أن يستخدم هذا الجناس استخدامًا مزدوجًا، فهو يأتي به غالبًا ليعبِّر عن جناس من جهة وليعبر عن لفظ غريب من جهة أخرى.

كان أبو العلاء يستخدم الجناس استخدامًا لغويًّا يريد به أن يدلَّ على مهارته في اللغة قبل أن يدل على مهارته في استخدام لون قديم من ألوان التصنيع. ولم يكتفِ أبو العلاء بما أحدثه بين الجناس والألفاظ الغريبة من مزاوجة؛ بل راح يصعِّب على نفسه؛ إذ نراه يطلبه بين حَشْوِ البيت والقافية، حتى يحدث هذه القيم المعقدة في قوافيه؛ فهو يلتزم فيها حرفين أو أكثر، وهو يلتزم فيها اللفظ الغريب، وهو يلتزم الجناس بينها وبين ألفاظ البيت.

عَـذيري مِـنَ الـدُّنيا عَرَتنـي بِظُلمِهـا ... فَتَمنَحنـي قُـوَّتي لِتَأخُـذَ قُـوَّتي

وَجَـدتُ بِهـا دينـي دَنِيًّـا فَـضَرَّني ... وَأَضـلَلتُ مِنهـا في مُـروتٍ مُـروَّتي

أخـوتُ كـما خاتـتْ عقـابٌ لـو أننـي ... قـدرتُ عـلى أمـرٍ فَعُـدَّ أخـوَّتي

وأصـبحتُ في تِيـهِ الحيـاةِ مناديًـا ... بـأرفعِ صـوتي أيـن أطلـبُ صـوَّتي

وكان اللزوميات إنما جاءت لتحدث هذه الصعوبات والتعقيدات في الشعر وما يطوَى فيها من شعب ومنعطفات.

- ٢٦ -

أبو تمام الطائي الجاسمي
حبيب بن أوس الطائي
١٨٨ ـ ٢٣٢هـ

أ - حياته ونشأته:

ولد حبيب بن أوس الطائي في قرية جاسم بحوران على خلافٍ في مكان بين جاسم القرية التابعة لمدينة منبج وجاسم الواقعة بين طبرية ودمشق (١٨٨هـ) وتوفي عام (٢٣٢هـ).

ويروى أن اسم والده (قدوس) فحرفه إلى أوس، كان والده يبيع الخمر، انتقل أبو تمام إلى دمشق في ريعان الصبا وعمل عند (حائل) (قزاز) ثم انتقل إلى مصر وبدأ يبيع الماء في المساجد، ولكنه ما لبث أن رجع إلى دمشق، ثم يسافر إلى العراق واستقر في بغداد ولمع نجمه في أيام المعتصم، وخاصة في وقعة عمورية، وثورة بابك الخرمي_ ومقتل الأفشين.

ب - شخصيته:

تميز أبو تمام بالذكاء والبديهة السريعة والاطلاع الواسع وانفرد بمذهب البديع والجدل، ومن أشهر مؤلفاته: (الحماسة - نقائض جرير والأخطل - ديوانه).

ج - أغراض أبي تمام الشعرية:

كتب أبو تمام في المدح والرثاء والوصف والهجاء والغزل.

١ - ٢ - المدح والرثاء: نظراً لكثرة مدائح ومراثي الشاعر أطلق عليه البعض (مدّاحة - نوّاحة) وقد بلغ عدد ممدوحيه نحو ستين شخصاً، وبقي في مدحه منهج القدماء يوطئ لمدحه بالحكم أحياناً، وبالوصف أحياناً أخرى، وبالمدح دون توطئة مباشرة أحياناً، فهو مولع بالوقوف على الأطلال والبكاء على الديار وتميَّز مدحه بما يلي:

أ - الجزالة

ب - طول النفَس

ج - شدة الجرس

د - الفخامة في الألفاظ

هـ - المعاني العربية

و - جعل الممدوح متميزاً بالنبل

ز - إدخال البديع إلى شعره

ح - العظمة

يقول أبو تمام مادحاً المأمون:

الله أكبر جاء أكبر من جرت فتعثرت في كنهه الأوهام

من شرّد الإعدام عن أركانه بالبذل حتى استطرف الإعدام

ويقول في مدح المعتصم:

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

ويقول في مدح المعتصم:

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ

أما **رثاؤه** وإن كان أقل من مدحه فقد أجاد به أبو تمام إجادة كبيرة ويقسم إلى قسمين:

الأول: رثاء المشهورين من القادة، كرثاء محمد بن حميد الطوسي الذي وجهه المأمون لقتال بابك الخرمي، فقتله عام (٢١٤هـ)

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

فتى مات بين الطعن والضرب ميتةً تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ

وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلّت عليه القنا السمر

الثاني: رثاء ذوي قرباه ويتميز بالأسف والأسى واللوعة والمبالغة في الإطراء، يقول في رثاء أخيه:

لم يبــق مــن بــدني جــزءٌ علمــت بــه إلا وقــد حلّــه جــزءٌ مــن الحــزن

٣ - الوصف:

امتلك أبو تمام خيالاً ثاقباً ساعده في إبراز مقدرته في وصف ما كان يقع تحت ناظريه، وقد كان وصفه مستقلاً أحياناً وموزعاً بين فنون الشعر أحياناً أخرى، والوصف عنده نوعان:

أ - **وصف الطبيعة:** وقد شمل ذلك القسم الأكبر من وصفه بسبب نشأته في منطقة خضراء وبسبب كثرة أسفاره وتميَّز وصفه بما يلي:

١ - دقة الملاحظة

٢ - استقراء أخفى دقائق الموضوعات

٣ - التأمل الفكري

٤ - استخراج خفايا معاني غامضة

٥ - الاتكاء على الصور والمعاني القديمة

٦ - التوغل في المجاز

٧ - شدة الانفعال النفسي

٨ - الإكثار من المحسنات

٩ - قوة الخيال المبدع

١٠ - بث الحياة والحركة والدفء في الموصوف

يقول في وصف الربيع:

يــا صــاحبيّ تقــصّيا نظــريكما تريــا وجــوه الأرض كيــف تــصوّرُ

تريــا نهــاراً مشمــساً قــد شــابه زهــر الرّبــا فكــأنما هــو مقمــرُ

ويقول في وصف سحابة ممطرة:

ديمــةٌ ســمحةُ القيــاد، ســكوب مــستغيث بهــا الثــرى المكــروبُ

ب - وصف المعارك عنده: وقد أبرز فيه أبو تمام شعراء عصره لإجادته فيه أيما إجادة، ويتصف بـ:

١ - النفس الملحمي

٢ - التصوير الواسع والمخيف للأحداث الخطيرة

٣ - الخيال الرحب

٤ - الاعتماد على الوقائع التاريخية

٥ - الانفعال النفساني

٦ - الأسلوب الجزل

٧ - الألفاظ الفخمة

يقول أبو تمام في وصف عمورية:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

بصرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسر من التعب

٤ - الغزل عند أبي تمام:

لا يعدوأن يكون غزل الشاعر غزلاً تقليدياً، يمثل ظاهرة الوقوف على الأطلال، وباستثناء بعض المقطعات الشعرية التي بدا فيها الغزل وجدانياً بقي أبو تمام يعتمد الوقوف على الأطلال، يقول في غزله الطلبي:

سعدت غربة النوى بسعاد فهي طوع الاتهام والإنجاد

ويقول في غزله الوجداني:

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزلِ

د - الخصائص الفنية لشعر أبي تمام

يمتاز شعر أبي تمام بالخصائص التالية:

١ - الغوص على المعاني البعيدة والصعبة: التي لا تدرك إلاّ بكد الذهن:

ضـــوءٌ مـــن النـــار والظلـــماء عاكفـــة وظلمـــة مـــن دخـــان في ضـــحى شـــحب

٢ – الاعتماد على الفلسفة والبراهين المنطقية في عرض الأفكار:

الـــسيف أصـــدق أنبـــاءً مـــن الكتـــب في حـــدّه الحـــدُّ بـــين الجـــدّ واللعـــبِ

٣ – إلباس المعاني صوراً من التشبيهات والاستعارات المنسوجة في خياله:

لقـــد تركـــت أمـــير المـــؤمنين بهـــا للنـــار يومـــاً دليـــل الـــصخر والخـــشبِ

٤ – إتكاؤه على بعض صور الآخرين:

يـــا يـــوم وقعـــة عموريـــة انـــصرفت عنـــك المنـــى حفـــلاً معـــسولة الحلـــب

٥ – الإسراف في المحسنات البديعية كقوله مرصعاً:

تـــــدبير معتـــــصم بـــــالله منـــــتقم لله تقـــــــــب في الله مرتغـــــــــب

٦ – التعقيد والإغراب بحثاً عن الجديد من خلال استعمال الألفاظ الآبدة:

فاسلم سـلمت مـن الآفـات مـا سـلمت ســـلام ســـلمى ومهـــما أورق الـــسلم

هـ - صنعة أبي تمام:

تنوعت ثقافة أبي تمام حتى إنك تجد في شعره ألفاظاً كثيرة تدل على ثقافاتـه المتنوعـة، فمـن ذلك قوله:

كم في النَّدى لك والمعروف من بدعٍ... إذا تُصُفِّحت اختيرت على السّن

ونحس كأن الشعر أصبح تنميقًا وزخرفًا خالصًا؛ فكل بيت في القصيدة إنما هو وحدة مـن وحدات هذا التنميق والزخرف، وهو ليس زخرفًا لفظيًّـا فحـسب، بـل هـو زخـرف لفظـي ومعنوي يروعنا فيه ظاهره وباطنه وما يودعه من خفيَّات المعاني وبراعات اللفظ. ومعنى ذلك أن التنميق والزخرف عند أبي تمام لا يحجبان عنا مشاعره وأحاسيسه، بل همـا جـزء لا يتجـزأ من هذه المشاعر والأحاسيس.

ونحن لا نقرأ فيه حتى نحس أثر عنائه وأنه كان يجهد نفسه في صنع شعره إجهادًا شـديدًا، وإن له ستمئة قصيدة وثمانمئة مقطوعة، وأكثر ما له جيـد، والـرديء الـذي لـه إنـما هـو شيء

يستغلق لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا، وقد أنصف بالبحتري لما سُئل عنه وعن نفسه فقال: "جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه، وذلك لأن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه؛ إنما ألفاظه كالعسل حلاوة، والحق أن من يقرأ في شعر أبي تمام يحس إحساسًا واضحًا بأنه كان يشقى في بنائه واستنباط معانيه كما يشقى صيادو اللؤلؤ فهو يتنفس فيه الدم، وكان يشعر بذلك في دقة؛ فأكثر من وصف أشعاره بالإغراب والغرابة على شاكلة قوله:

خذها مغرِّبةً في الأرض آنسةً بكل فهمٍ غريبٍ حين تغتربُ

فهو يطلب الإغراب في فنه، حتى يسبغ على شعره كل ما يمكن من آيات الفتنة والروعة، وقد عاش لصناعته ينمِّيها ويخلع عليها كل ما يمكن من وسائل الزخرف والتصنيع، وما زال بها حتى جعلها تنميقًا وزينة خالصة؛ فهي حَلْيٌ أنيق ووشي مرصع كثير، وصوَّر ذلك في بعض شعره، فقال:

خذها مثقفةَ القوافي، ربها لسوابغ النَّعماء غير كنودِ
كالدر والمرجان ألِّف نظمُهُ بالشَّذر في عنق الكعاب الرُّود

كان أبو تمام يستخدم المحسنات التي تسمى بالطباق والجناس والمشاكلة والتصوير، والتي يقوم في نفوس كثير من الناس أنها كل ما كان يعتمد عليه الشاعر العباسي من وشي في تطريز شعره وتنميقه، يضيف إليها وشيًا آخر من الثقافة والفلسفة، لعله أروع من هذا الوشي المعروف؛ وربما أسرف أبو تمام في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة حتى استثقل نظمه واستُوخم رصفه.

وفي هذا ما يجعلنا نلتفت إلى جانب مهم في استخدام ألوان التصنيع، ذلك أنها تستخدم على طريقتين:

الطريقة الأولى: أن تأتي متعاقبة لا يتعلق بعضها ببعض.

الطريقة الثانية: فتمتزج فيها هذه الألوان، ويمر بعضها في بعض فتتغير هيئاتها، كما نجد عند أبي تمام في أكثر أحواله.

ولعل أهم لون استعان به أبو تمام على هذا المزج والاتحاد هو لون التصوير؛ فقد كان يمزجه بالجناس، وكان يمزجه أيضًا بالطباق والمشاكلة، واقرأ هذا البيت:

كل يومٍ له وكل أوانٍ خلقٌ ضاحكٌ ومالٌ كئيبُ

فإنك ترى فيه طباقًا بين الضحك والكآبة؛ ولكنه ليس طباقًا خالصًا؛ ففيه شِيات لون آخر هو لون التصوير، وكأنما الكلمتان تتكافأان في النسبة

ألبست فوق بياض جدك نعمةً بيضاءَ تُسرع في سوادِ الحاسدِ

وعلى هذا النمط يستمر أبو تمام يغمر اللون من الجناس أو الطباق أو المشاكلة في أصباغ لون التصوير؛ بل إن هذه الألوان جميعًا ليمر بعضها في أوعية بعض فإذا هي تتجلى في هيئات وشيات جديدة. والتصويرُ في شعرِ أبي تمام يمتزج بالجناس والطباق والمشاكلة؛ فقد كان أبو تمام يشغف به شغفًا شديدًا، واستطاع أن يحلِّلَهُ إلى أصباغه المختلفة، وأن يستخدمها استخدامًا واسعًا في شعره؛ وقد كان يعتمد على صبغ التدبيج؛ حتى يعطي لصوره ألوانًا حسية ملموسة، كما نرى في مثل قوله:

كأن سوادَ الليلِ ثم اخضرارَهُ طيالسةٌ سودٌ لها كُففٌ خضرُ

والحق أن أبا تمام كان يحسن هذا الصِّبْغ في تصويره إحسانًا شديدًا،، كما كان يستعير منه صبغين آخرين، هما: التجسيم والتشخيص. أما التجسيم فقد ملأ به أبو تمام شعره؛ إذ نراه يجسِّم المعاني في صور مادية حسية حتى تثبت في نفوسنا كأن يقول:

راحتْ غواني الحيّ عنك غوانيا يلبسن نأيًا تارةً وصدودا

أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهن خدودا

فقد جسَّم النأي والصدود في هذه الثياب الغريبة، فهو يتصور الندى بكرياته اللؤلؤية طيبًا سقط من غدائر السحاب وشعره المسترسل على لمم الثرى ولحاه من العشب والأشجار. ونمضي معه فيقول:

من كل زاهرة ترقرقُ بالندى فكأنها عينٌ إليك تحدرُ

تبدو ويحجبها الجميمُ كأنها عذراءُ تبدو تارةً وتخفَّرُ

حتـــى غـــدت وهـــداتها ونجادهـــا فئتـــين في حُلَـــلِ الربيـــعِ تبخـــترُ

وليس من شك في أن هذا تشخيص رائع. وقد ذهب أبو تمام يعمم هذا التشخيص في جميع صوره وأفكاره، وإنه لينبغي أن نعرف أن أبا تمام لم يحدث هذا الصبغ في اللغة العربية إحداثًا؛ فمن قبله نجد له أمثلة منتشرة في النصوص القديمة، وذكر ابن المعتز في كتابة البديع طرفًا منها، من ذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} وقوله عز وجل: {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}، وجاء في الشعر الجاهلي، يقول امرؤ القيس في وصف الليل:

فقلـــتُ لـــه لمـــا تمطَّـــى بـــصلبه وأردف أعجـــازًا ونـــاءَ بكَلكَـــلِ

ولكن أبا تمام أكثر منه واتخذه مذهبًا له يغمر فيه أبياته، فما تزال تتألق في صبغ عجيب، وأبو تمام لا يقف بفنه عند هذه الألوان القديمة من التصنيع التي يبتهج بها الحس؛ بل نراه ينفذ إلى ألوان جديدة يبتهج بها العقل، وهي ألوان قاتمة، كانت تتسرب إليه من الفلسفة والثقافة العميقة. وفي هذه الألوان القاتمة الجديدة تستقر مهارته إذا قسناه بغيره من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه؛ فالطباق والجناس والتصوير والمشاكلة، كل ذلك يزدوج بالفلسفة وألوان الثقافة القاتمة، فيجلِّله الغموض الفني، ومهما يكن فإن شعر أبي تمام يستحوذ على صعوبات كثيرة؛ إذ نراه يمتلئ بكثير من الأسرار الغامضة التي تجعل الإنسان يخرج عن نطاق نفسه ويسير مع الشاعر كما يريد له في هذا العالم الحالم.

أما ما فيه من صعوبة والتواء فذلك طبيعي عند شاعر كان يعتمد في شعره على الفلسفة والفكر الدقيق، وهل يمكن لشاعر يلعب العمق والخفاء في شعره وتلعب الفلسفة والثقافة في فنه أن يعبر تعبيرًا مألوفًا؟ وقد يخطئ أحيانًا، إنه يبتكر أفكارًا وصورًا جديدة؛ ولكنه يحس دائمًا أن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد، وكان أبو تمام يعتمد في شعره على الغموض وإن تغشاه سحب زاهية من الفلسفة والثقافة، ولم يعد هناك ما يعوق التزاوج والاتصال الشديد بين التفكير الفني والتفكير الفلسفي والثقافي. وإن الإنسان ليحار إزاء هذه الموهبة النادرة في المزج بين التفكير الثقافي والتفكير الفني؛ فكل منهما يغمس في ليقة الآخر ويصبغ بأصباغه؛ فيتغير عن شِياته المعروفة وهيئاته المألوفة.

أما الرمز فولَّده تفكيره العميق؛ إذ كان يلتفُّ لون التصوير على هذا الجانب العقلي في شعره، أو بعبارة أدق الجانب الفلسفي، فتحدث تلك الرمزية الواسعة التي يلاحظها كل من يقرأ في أشعاره. وكان يستعين على أحكامها بصبغين مهمين من أصباغ التصوير، وهما: التجسيم والتدبيج؛ إذ نراه يجسم معانيه العميقة في صور حسية لا يلبث أن يدبجها بألوان مادية. وانظر إلى قوله في بعض ممدوحيه:

أبديت لي عن جلدة الماء الذي ... قد كنت أعهده كثيرَ الطُّحْلُبِ

ووردتَ بي بحبوحة الوادي ولو ... خلَّيتني لوقفت عند المِذنَبِ

يقول له: إنك صفَّيت لي العطاء وكنت أراه من غيرك كدرًا وعسرًا؛ ولكن انظر كيف رمز لهذه الفكرة، فإنك تراه يبدأ فيجعل للماء جلدة، كما قالوا: جلدة السماء وأديم الأرض، ثم يستمر فيعبِّر عن الكدر والعسر بركوب الطحلب للماء، ويصور نفسه مع ممدوحه في بحبوحة الوادي وقطع الرياض؛ بينما غيره يقف به عند المذنب فلا يُنيله إلا الوَشل القليل.

وعم هذا التجسيم في شعر أبي تمام كأن يقول لابن أبي دؤاد:

يا أبا عبد الله أوْرَيتَ زندًا ... في يدي كان دائمَ الإصلادِ

أنت جبت الظلام عن سبل الآمال ... إذ ضلَّ كلُّ هاد وحادِ

فقد عبرَّ عن نُجْح مطلبه عنده وإخفاقه عند غيره بهذا الزناد الذي أوراه في يده، واستمر فقال: إنه كشف الظلام عن طريق الآمال؛ بينما ضل الحداة والروَّاد هذه الطرق. وكما كان أبو تمام يستخدم التجسيم للرمز عن أفكاره البعيدة كان يستخدم التدبيج، ونراه يقول في رثاء ابن حميد الطوسي وقد قتل في الحرب:

تردَّى ثيابَ الموتِ حمرًا فما دجى ... لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خضرِ

فقد جنح في التدبيج يستمد منه ما يريد من الرمز عن أفكاره.

لم يكن أبو تمام يستخدم الطباق استخدامًا ساذجًا بسيطًا؛ بل كان يستخدمه استخدامًا معقدًا؛ إذ يلوِّنه بأصباغ فلسفية قاتمة ما تزال تغيِّر في إطاره، بل في داخله تغيرات تنفذ به إلى لون جديد مخالف للطباق؛ فإذا هو من طراز آخر غير معروف، طراز فلسفي إن صح هذا

التعبير، ففيه تناقض وفيه تضاد وفيه هذه الصور الغريبة. وكان أبو تمام يستخدمه قاصدًا إليه عامدًا، يقول في مديح ابن أبي دؤاد:

قد غرستم غرس المودة والشَّحْـ ـناءِ في قلب كل قارٍ وبادي
أبغضوا عزَّكم وودوا نداكم فقروكم من بغْضَة ووِداد
لا عدمتم غريب مجدٍ رَبقتم في عراه نوافر الأضداد

فالناس يحسدونهم لشرفهم ويحبونهم لجودهم ؛ فهم يأتون بوصفين متضادين ويجمعون بين متناقضين.

ومن يدرس أبا تمام يرى هذه الأضداد متصلة بأخلاقه فهو تارة كريم جدًّا وتارة بخيل جدًّا، وهو تارة متدين مسرف في تدينه وتارة ملحد مسرف في إلحاده.

وأحقُّ الأنام أن يقضي الدَّيـ ـن امرؤٌ كان للإله غريما

واقرأ هذا البيت يقول في بعض ممدوحيه:

صيغت له شيمةٌ غرَّاء من ذهب لكنها أهلكُ الأشياءِ للذَّهبِ

ومن ذلك قوله:

بيضاء تَسري في الظلام فيَكتسي نورًا وتسرُبُ في الضياءِ فيُظْلِمِ

أرأيت إلى هذا التضاد وهذا الضياء المظلم؟ إن حقائق الأشياء تتغير في شعر أبي تمام على هذه الصورة التي نرى فيها الضياء المظلم وإنه لضياء عجيب لا يستطيع شيء أن يعبِّر عن فتنته؛ وعلى هذا النمط تمتزج أصباغ الطباق عند أبي تمام بهذه الأصباغ الفلسفية الغريبة من نوافر الأضداد؛ فإذا بها تخرجنا من أوقاتنا التي تقيدنا، وتطلقنا من عقال أمكنتنا، وتجعلنا نتحرر في داخلنا من كل ما يتعلق بنا. ولعل هذا هو معنى ما يقولونه من أن الشاعر الممتاز له جو غريب ينقلنا من عالمنا الذي نعيش فيه إلى عالم آخر طليق من الوهم، عالم ينشر فيه أبو تمام من عبق هذه الأضداد ما يؤثر به على أعصابنا وحواسنا تأثيراً يخلد في أذهاننا، ولعل مما يتصل بذلك ما نراه عنده من استخدام الأقيسة المنطقية؛ فقد كان يستغلها استغلالًا فنيًّا إذ ما يزال بها

حتى يغيرِّ شياتها المنطقية ويحدث لها شيات جديدة من الشعر والفن. وانظر إلى هذا القياس الطريف يقوله في الرثاء:

إن ريبَ الزمانِ يحسن أن يهدي الرَّزايا إلى ذوي الأحسابِ
فلهذا يجفُّ بعد اخضرارٍ قبل روض الوهاد روض الرَّوابي

ويقول في تحبب الرحلة ومفارقة الأوطان:

وطول مقام المرء في الحي مخلقٌ لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

- ٢٧ -

البحتري

عبيد الله بن بحتر
الطائي القحطاني
(٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ)

أ - نشأته وحياته:

ولد البحتري عبيد الله بن بحتر الطائي القحطاني في منبج سنة / ٢٠٦/ وتوفي سنة / ٢٨٤/ هـ وتلقّى تعليمه الأول في منبج ثم انتقل إلى حمص، والتقى هناك بأبي تمام وعرض عليه شعره، فأعجب به وأوصاه بالسير ضمن منهج شعري مختلف عن منهجه، ويتمثل هذا المنهج بالمجانسة بين اللفظ والمعنى، وإظهار المعنى، واتباع نظرية عمود الشعر المتمثل بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والمقاربة في التشبيه، وقد اتّبع البحتري وصية أستاذه أبي تمام حيث قال:

"إنني لم آكل الخبز إلاّ بأبي تمام" وقد رحل البحتري إلى بغداد واتصل برؤساء الدولة وعلى رأسهم المتوكل وبقي شاعر الخلافة مدة تزيد على أربعين عاماً، نال خلالها العطايا والأموال الكثيرة.

ب - شخصيته:

امتلك البحتري شخصية تعتمد على موهبة شعرية مبكرة حيث كان لهذا الشاعر مخزون كبير من أشعار العرب، وقد اتصف بصفتين ذميمتين أثرتا في شخصيته كإنسان ولم يؤثّرا في شعره كشاعر وهما:

البخل وسوء الملبس، فقد وصفه الأصفهاني بأنه رث الثياب سيّئ المنظر وسجع الإنشاد، على الرغم من جمال الشعر لديه.

كما وأن البحتري كان يتعلق تعلقاً شديداً بالغلمان وكان يكثر من الأشعار منهم، ومع ذلك فقد بقيت الشخصية الشعرية لديه تحمل طابع الابتكار؛ لأنها تواكب الحوادث التي جرت في عصره.

ج - ثقافته:

يشمل الوعاء الأدبي والفكري الذي اعتمد عليه البحتري ما يلي:

١ - حفظ القرآن الكريم.

٢ - تعليم أحكام الدين الإسلامي.

٣ - تعلم علوم اللغة العربية.

٤ - الاطلاع على أخبار الفتوح.

٥ - حفظ عدد كبير من دواوين الشعراء.

٦ - حفظ المغازي وأيام العرب وأنسابهم.

٧ - لم يؤثر عنه الثقافة الفلسفية.

د - صفات ديباجته:

١ - عدم الغوص إلى المعاني الدقيقة.

٢ - عدم الاتكاء على الأدلة المنطقية والبراهين العقلية.

٣ - الابتعاد عن المعاني الفلسفية.

٤ - الابتعاد عن الغموض والتعقيد.

٥ - اعتماد الطبع وقلة التكلف.

٦ - وضوح الديباجة وحسن الانسجام.

هـ - عناصر الجمال في شعره:

برزت عناصر الجمال في شعره من خلال:

١ - **اختيار الألفاظ الشعرية:** وجعلها محور الفصاحة والبلاغة إذ إنه كان "يلتقط ألفاظه، ينتقيها ليؤلف منها جملة عذبة رقيقة".

٢ - **المشاكلة بين اللفظ والمعنى:** بحيث تبدو الألفاظ أردية للمعاني تلبسها لبوساً تاماً، تجعلنا نشعر بالغناء المتماسك لهذه الألفاظ، من خلال الحروف المناسبة للموضوع المطروح:

تغـــيّر حـــسن الجعفـــري وأنـــسه وقـــوض بـــادي الجعفـــري وحـــاضره
تحمّـــل عنـــه ســـاكنوه فجـــاءةً فـــصادت ســـواءً دورُه ومقـــابره

٣ - **الموسيقا الشعرية العربية:** والتي اعتمدت صدى الصوت أساساً لها في إيصال المعاني، وفي استعمال القوافي الداخلية "الترصيع".

صـــنت نفـــسي عـــما يـــدنّس نفـــسي وترفعـــت عـــن جـــدا كـــل جـــبس
وتماســـكت حـــين زعزعنـــي الـــدّهر التماســـاً منـــه لتعـــسي ونكـــسي

وقد بدا هذا التجانس اللفظي في القافيتين (تعسي ونكسي) من حيث عدد الحروف والحركات والسكنات.

وهكذا بدا البحتري شاعراً بارعاً من شعراء الطبقة الأولى في العصر العباسي.

و - الأغراض الشعرية:

كتب البحتري في معظم الأغراض الشعرية من وصف ومدح ورثاء وفخر واعتذار والمديح والعتاب، ولكنه أجاد في غرضي المديح والرثاء، على أنه بارع في وصفه، وقد اعتبر الدكتور "طه حسين" أن أجود شعر البحتري ما قيل في المتوكل إذ بقي الشاعر يعتمد في مدائحه على المطالع الغزلية كذكر البعد عن الحبيب والألم والشوق الذي يعاني منه. كما أنه كتب في الرثاء مدة أربعين عاماً، وكان أجمل رثائه في المتوكل.

١ - الوصف:

وصف البحتري في معظم قصائده كل ما وقع تحت ناظريه، وأكثر ما أجاد في وصف الآثار والحضارات والعمران والأبنية والقصور والحدائق، وكان وصفه دقيقاً واقعياً يصوّر فيه

المشهد الموصوف تصويراً يمازج الرسم أحياناً، وكأنه بدقته قد أسهم في صنع ذلك الموصوف، وأهم مشهدين وصفهما البحتري هما. ايوان كسرى – بركة قصر المتوكل.

يقول البحتري في وصف معركة أنطاكية اللوحة الباقية في إيوان كسرى على مر العصور:

وإذا مـــا رأيـــت صـــورة أنطـــا كيّـــة ارتعـــت بـــين رومٍ وفـــرس
والمنايـــــا مواثـــــل وأنـــــوشر وان يزجـــي الـــصفوف تحـــت الـــدرفس
في اخـــضرار مـــن اللبـــاس عـــلى احمـــرا ر يختـــــــال في صـــــــبيغة ورسِ

٢ - المدح:

سخّر البحتري معظم شعره في مدح الخليفة المتوكل والخلفاء في عصره والقادة، وكان المدح لديه يتميز بالجزالة والقوة وسمو المعاني وقد مدح البحتري شخصيات كثيرة كان فيها المعتز بالله وفيه يقول:

رأينـــا الأمجـــاد في كـــلِّ معـــشر فكـــانوا لعبـــد الله في الجـــود أعبـــدا
عليـــه مـــن المعتـــز بـــالله بهجـــةً أضاءت فلو يسري بها المركب لاهتدا
طلـــوبٌ لأقـــصى غايـــة بعـــد إذا قلـــت يومـــاً قـــد تنـــاهى تزيـــدا

٣ - الرثاء:

كتب البحتري في الرثاء أيضاً فأجاد في ذلك، وكان رثاؤه للمتوكل الذي قتله جند الأتراك بعد عزله لابنه المنتصر من ولاية العهد رثاءً بارعاً:

صريـــعٌ تقاضـــاه الـــسيوف حـــشاشة يجـــود بهـــا والمـــوت حمـــرٌ أظـــافره
حـــرامٌ عـــليَّ الـــراح بعـــدك أو أرى دمـــاً بـــدم يجـــري عـــلى الأرض حـــائره
أكـــان وليُّ العهـــد أضـــمر غـــدرةً؟ فمـــن عجـــبٍ أن وليَّ العهـــد غـــادره

٤ - الفخر:

بقي البحتري يفخر بقومه وبطولاتهم وأمجادهم، على اعتبار أنه ينتسب إلى العرب الأقحاح، فكان يضفي على افتخاره بقومه صفات السؤدد والعز والمجد والحلم:

إنَّ قـــومي قـــوم الـــشريف قـــديما وحـــــديثاً، أبـــــوةً وجـــــدودا
نحـــن أبنـــاء يعـــرب - أعـــرب النـــا س لـــساناً وأنـــضر النـــاس عـــودا
ملكـــوا الأرض قبـــل أن تملـــك الأر ض وقـــادوا في حافتيهـــا الجنـــودا

وكان يفتخر بنفسه وبمكانته التي تؤهله لمجالسة الخلفاء والقادة:

إن أبـــق أو أهلـــك فقـــد نلـــت التـــي مـــلأت صـــدور أقـــاربي وعـــداتي
وشـــفعت في الأمـــر الجليـــل إلـــيهم بعـــد الجليـــل، فـــأنجموا طلبـــاتي

٥ - الاعتذار:

دفع البحتري إلى كتابة الاعتذار في شعره ما حصل بينه وبين الفتح بين خاقان وزير المتوكل بسبب وشاية وقعت بينهما فكيف البحتري معاتباً ومعتذراً:

أقـــرُّ بـــما لم أجنـــه، متنـــصّلاً إليـــك، عـــلى أني إخالـــك ألومـــا
لي الـــذنب معروفـــاً وإن كنـــت جـــاهلاً بـــه، ولـــك العتبـــى عـــليَّ، وأنعـــما

ولم يجد البحتري في اعتذاره كما أجاد المتنبي من قبله، وذلك أن علاقة هذا الشاعر بالملوك والقادة لم تكن علاقة مودة وصداقة بقدر ما كانت علاقة تكسب واقتناص للحال.

ز - مقارنة بين مذهب أبي تمام ومذهب البحتري

أبو تمام	البحتري
١ - يمزح بين الفكر والشعر	- لا يمزح بين الفكر والشعر
٢ - يعتمد على الغموض في شعره	- يعتمد الوضوح
٣ - وجود تعقيد في شعره	- لا يوجد تعقيد
٤ - يزاوج بين العقل والحس	- يعتمد على العاطفة والمعاني المألوفة
٥ - يستند إلى ثقافة واسعة	- يستند إلى ثقافة واسعة في الشعر وقليلة في الفلسفة والبديع

٦ – يظهر التكلف في شعره	– يظهر الطبع في شعره
٧ – يعتمد على مذهب البديع	– يعتمد على عمود الشعر العربي

ح - صنعة البحتري

أجاد البحتري إجادة بديعة في مدائحه واعتذاراته، وغزله، فقد كان يقف في صف الصانعين، يفهم الشعر على أنه طبع وموهبة، فهو أعرابي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف حافظ على الأساليب الموروثة، عمود الشعر العربي؛ فصناعته أقرب ما تكون إلى صناعة البادية، ليس فيها تجديد ولا خروج على التقاليد، ومن أين يجيئه ذلك وهو ليس من أهل المدن ولا من ثقافتهم وعقليتهم، على أن هناك جماعة من النقاد سلكته في طائفة المصنعين، إنه بدوي تحضر، وتحضرت معه صناعته، وخلع عليها ألوانًا من الجمال الحضري الذي تلقفه من أبي تمام وغير أبي تمام، وإن لم يستطع أن يجاريه وأن يأتي بنماذج على غرار نماذجه، فالبحتري كان يحتفل بهذا البديع أو بهذه الألوان من الجمال الحضري.

كان البحتري يستخدم أحيانًا بعض أدوات التصنيع ولكن في يسر وسهولة ودون أن يعقد فيها كما نرى عند جماعة المصنعين، فهو من أصحاب الصنعة، وهو لذلك لا يستطيع أن ينهض بشعره إلى الغاية التي حققها أصحاب التصنيع.

لم يعد التصنيع ويستخدم البحتري – التصوير والجناس والطباق؛ ولكنه استخدام ساذج يخالف ما سنجده عند أبي تمام. واقرأ هذه الأبيات التي تذيع سر المهنة عند البحتري.

منـــي وصـــلٌ ومنـــك هجـــرٌ ... وفيَّ ذلٌّ وفيـــــك كِـــــبر

ومـــا ســـواءٌ إذا التقينـــا ... ســـهل عـــلى خلَّـــة ووعـــر

قـــد كنـــت حـــرًّا وأنـــت عبـــدٌ ... فـــصرت عبـــدًا وأنـــت حـــرُّ

بـــرَّح بي حبـــك المعنَّـــى ... وغـــرني منـــك مـــا يغـــرُّ

أنـــت نعيمـــي وأنـــت بـــؤسي ... وقـــد يـــسوء الـــذي يـــسرُّ

فإنك تجد فيها هذا الطباق الذي عرف به البحتري؛ ولكنه طباق ساذج لا تعقيد فيه ولا تعب ولا عناء ولا مشقة، طباق ضحل بسيط، هو أشبه ما يكون بتداعي المعاني، فلا خيال ولا

عمق ولا فكرة؛ إنما وصل وهجر، وذلٌّ وكبر، وسهل ووعر، وعبد وحر، ونعيم وبؤس، وإساءة وسرور، ولكن هل تحس في هذه المعاني المتقابلة شيئًا من اللذة سوى ما فيها من تقطيع صوتي يدفعها عن السقوط؟

لم يكن البحتري يعتمد في شعره على فلسفة وثقافة يعقدان في أدواته، وكان يعرف ذلك من نفسه، كما كان يعرفه معاصروه، وتلوَّموه من أجله فرد عليهم بقوله:

كلفتمونا حدودَ منطقِكُم ... والشعرُ يغني عن صدقِهِ كذبُهْ

ولم يكن ذو القروحِ يلهجُ بالـ ... ـمنطق ما نوعه وما سببُهْ

والشعرُ لمحٌ تكفي إشارتُه ... وليس بالهذرِ طوِّلت خطبُهْ

ولكن أحقًّا ما يقول البحتري من أن الشعر لا يحتاج فلسفة ولا منطقًا؟ إن وقائع الفن المادية في العصر العباسي لا تتفق وهذا القول؛ فقد دخلت الفلسفة والمنطق في صناعة الشعر وعقَّدا في وسائله وأدواته هذا التعقيد الذي رأينا وجها من وجوهه عند أبي تمام، ودائمًا نجد شيئًا من المنطق ينقص البحتري في فنه؛ وانظر في صياغته ونقصد الصياغة الذهنية؛ فإنك تراه لا يُعنى بتنسيق أفكاره وترتيب معانيه ترتيبًا منطقيًّا دقيقًا. وبونٌ بعيد جدًّا بينه وبين شاعر كأبي تمام في هذا الجانب؛ فإنك تحس عند الأخير بوحدة القصيدة واضحة كما تحس بتسلسل الأفكار، أما عند البحتري فإنك ترى دائمًا خنادق وممرات بين أبياته. والبحتري لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر، وإنه يجنح دائمًا طفرًا وانقطاعًا. واقرأ له هذين البيتين اللذين كانا يروعان السابقين بتقسيمه فيهما؛ إذ يقول:

ذاك وادي الأراك فاحبس قليلا ... مقصِّرًا من صبابةٍ أو مُطيلا

قِفْ مشوقًا، أو مُسْعدًا، أو حزينًا ... أو معينًا، أو عاذرًا، أو عذولا

فإنك إذا نَحَّيتَ جمال الأصوات الذي عرضت فيه الأفكار وجدت البحتري لا يحسن التقسيم؛ لأن التقسيم عمل عقلي يحتاج إلى منطق، وهو لم يكن من رجال العقل ولا من رجال المنطق؛ فنحن نراه يقسم من يناديه قسمه متداخلة غير معقولة، إذ يجعله إما مشوقًا أو مسعدًا

أو حزينًا أو معينًا أو عاذرًا أو عذولًا، وهي صفات متداخلة، ولكن البحتري يعتذر بأنه ليس من أهل المنطق، فالشعر شيء والمنطق شيء آخر.

ومهما يكن فإن عقل البحتري لم يكن من عقل أبي تمام، لا في الدرجة ولا في النوع، بل هو من جنس مخالف. حقًّا إن البحتري أحسن على نحو ما مر بنا في الفصل الثاني جانبَ الموسيقا الداخلية في الشعر وما تستتبعه من المشاكلة بين الألفاظ والمعاني والتوافق الصوتي بين الحروف والحركات والكلمات، وكأني به كان يوفر وقته جميعه للصوت، وهذا جل ما يعتمد عليه في شعره من جو، فهو يطلق الموسيقا ويدعها تؤثر في أعصابنا كما يريد ويشتهي.

- ٢٨ -

أبو حية النميري
الهيثم بن الربيع

أ - حياته ونشأته:

الهيثم بن الربيع أبو حية النميري، شاعر مجيد من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وهو أحد شعراء بني نمير بن عامر بن صعصعة، القبيلة القيسية ذات الشأن والخطر في الجاهلية والإسلام، وفي حياة الدولة الأموية والعباسية، فبنو نمير من القبائل العزيزة من قيس عيلان، وإحدى جمرات العرب الثلاث: (بنو نمير بن عامر بن صعصعة، وبنو ضبة بن أد، وبنو الحارث بن كعب)، وقد أطفئت جمرة بني ضبة لمحالفتها الرباب، كما أطفئت جمرة بني الحارث لمحالفتها قبيلة مذحج، وبقيت بنو نمير لم تحالف فقد كانت عزيزة بنفسها، كثيرة بعددها، ولذلك يفخر أبو حية بهذه الجمرة فيقول:

لنا جمرات ليس في الأرض مثلهم ... كرام وقد جربن كل التجارب

نمير وعبس تتقي صقراتها ... وضبة قوم بأسهم غير كاذب

كانت منازل بني نمير الغور من تهامة في الجاهلية، ونزلوا اليمامة في الإسلام مجاورين بني حنيفة، وعرفت اليمامة بالخصب والغدران الجارية والعيون الثرة، وكان بها الزرع والنخيل فعرفت حياتهم الدعة والاستقرار. ونجدهم في العصر الأموي يستقرون في " الشريف " في نجد وهو موقع مخصب فيه الزرع، ويقول القلقشندي: إنهم هاجروا إلى الجزيرة الفراتية والشام بعدوتي الفرات.

ولنمير بن عامر بن صعصعة من الولد أربعة هم: ضبة، وكعب وعامر والحارث، ومن الحارث بن نمير الراعي النميري، أما أبو حية فمن عامر بن نمير، فهما ابنا عم. وأكثر المصادر على أن اسم أبي حية هو الهيثم بن الربيع، أما نسبه فتتفق على أنه الهيثم بن الربيع بن زرارة بن كثير بن جناب بن كعب بن مالك بن عامر بن نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر

بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار، فهو من بني عامر بن نمير بن صعصعة، ولكن الآمدي ينسبه إلى عامر بن نمير فيقول: ((ويقال: هو أحد بني عبد الله بن الحارث بن نمير)) وهذا يعني أنه من فرع الراعي النميري، وليس الأمر كذلك. وليس لدينا الكثير عن حياة أبي حية، فأخباره قليلة وما ذكر عنه روايات مكررة، فلا نعرف عن أبنائه وأسرته غير حبه لزوجته وكانت ابنة عمه فتوفيت عنه، ويقول ابن المعتز: ((وكاد يخرج عليها من الدنيا وأشعاره الجياد كلها وفي وصفها في حياتها، ومراثيها بعد مماتها)).

ب - شخصيته:

يجمل أبو الفرج ترجمة أبي حية في قوله: ((وأبو حية شاعر مجيد مقدم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وقد مدح الخلفاء فيهما أجمع، وكان فصيحاً مقصداً راجزاً من ساكني البصرة، وكان أهوج جباناً بخيلاً كذاباً، معروفاً بذلك أجمع، وكان أبو عمرو بن العلاء يقدمه، وقيل: إنه كان يصرع)).

لا ندري متى ولد أبو حية وبمن اتصل من خلفاء بني أمية وبني العباس، ومع أن أبا الفرج ينص على أنه ((مدح الخلفاء فيهما أجمع)) فليس لدينا من مديحه غير أبيات في مديح مروان الحمار من الأمويين، وأبيات في مديح المنصور من العباسيين، ولذلك لا نستطيع أن نعرف بأي الخلفاء اتصل ومن مدح غير هذين الخليفتين، ويقال: إنه أدرك أيام هشام بن عبد الملك، فإذا علمنا أن هشاماً حكم من سنة ١٠٥ هـ وتوفي سنة ١٢٥ هـ، يكون أبو حية قد نشأ إبان هذه الفترة، وبقي حتى أدرك زمن المهدي؛ لأنه مدح المنصور ولدينا أبيات من هذا المديح ورثاه، وإن كنا لا نملك هذا الرثاء.

وهذا يعني أنه كان حياً زمن المهدي؛ ولم يصلنا شعره في المهدي ما دام قد مدح كل الخلفاء الذين عاصرهم كما يقول أبو الفرج، وتنص بعض المصادر على سنة وفاته فيقول البكري: إنه مات آخر خلافة المنصور، وقد توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ ويذكر البغدادي تاريخاً آخر لوفاته فيقول: توفي سنة بضع وثمانين ومئة، وفي طبقات الشعراء لابن المعتز، إشارة إلى أنه توفي في حدود العشر والمئتين ٢١٠ هـ.

لقد كان لأبي حية صلة بالشاعر ابن مناذر وبينهما حديث ومنافسة، وكان ابن مناذر قد توفي سنة ١٩٨ هـ، فمن مقارنة هذه الأرقام نستطيع أن نرجح رواية البغدادي التي تقول: إنه توفي سنة بضع وثمانين ومئة، أي أنه أدرك زمن هارون الرشيد (حكم الرشيد من سنة ١٧٠هـ - ١٩٣ هـ) وإن لم تكن لدينا إشارة إلى صلته بالرشيد، ولعل فيما ضاع من شعره سداً لهذه الثغرات التاريخية.

لقد تحدثت المصادر عن لوثات أبي حية، والرجل الألوث هو الأهوج، وقد سُئل الأصمعي عن المجنون المسمى قيس بن معاذ، فقال: لم يكن مجنوناً ولكن كانت به لوثة كلوثة أبي حية، وقد تحدث الجاحظ من مجانين الشعراء وفرقه عن مجنون بني عامر فقال: (ولست أعني مثل مجنون بني عامر ومجنون بني جعدة، وإنما عني مثل أبي حية في أهل البادية، ومثل جعيفران في أهل الأمصار). وزاد فجعله أكثر جنوناً من جعيفران: (وأما أبو حية فإنه كان أجن..... وكان أشعر الناس). وصيَّره مرة ثالثة مع المجانين والموسوسين والنوكى، وأنه مجنون يصرع.

ويروون للوثته هذه قصة طريفة: ((كان لأبي حية سيف يسميه لعاب المنية ليس بينه وبين الخشبة فرق، وكان من أجن الناس. قال: فحدثني جار له قال: دخل ليلة إلى بيته كلب، فظنه لصاً، فأشرفت عليه وقد انتضى سيفه لعاب المنية، وهو واقف في وسط الدار وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل، وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته، لا تخاف نبوته، اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك. إني والله أن إدع قيساً إليك لا تقم لها، وما قيس؟ تملأ والله الفضاء خيلاً ورجلاً، سبحان الله، ما أكثرها وأطيبها. فبينما هو كذلك خرج إذ خرج الكلب، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني حرباً)).

ولعل الذين وصفوه بالجبن ينظرون إلى هذه الحادثة وليس في أخباره ما يدل على جبنه. ويروون عن لوثته قصصاً ولكن في هذه القصص ما يدل على الذكاء والفطنة والظرف أكثر مما فيها عن اللوثة، من ذلك ما قاله أبو خالد النميري وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي حية فقال

أبو حية: الكلب خير منه وأحزم، فقيل له: كيف خصصت الكلب بذلك، فقال: لأن الشاعر يقول:

وما لي لا أغزو وللدهر كرة ... وقد نبحت نحو السماء كلابها

وقال الفرزدق:

فإنك إن تهجو حنيفة سادرا ... وقبلك قد فاتوا يد المتناول

كفرعون إذ يرمي السماء بسهمه ... فرد عليه السهم أفوق ناصل

فهذا يرمي السماء بجهله، وهذا ينبح السماء من جودة فطنته.

ويقولون: إنه كذاب، بل من أكذب الناس، ويروون في ذلك نوادر، هي في باب الطرائف والملح أدخل منها في باب الأكاذيب، من ذلك قولهم: إن أبا حية حدث أنه كان يخرج إلى الصحراء فيدعو الغربان فتقع حوله، فيأخذ منها ما يشاء، فقيل له: أرأيت إن أخرجناك إلى الصحراء فدعوتها فلم تأتك، فما نصنع بك؟ قال: أبعدها الله إذن.

ومن أكاذيبه الطريفة ونوادره الشائعة قوله: " عنَّ لي ظبي يوماً فرميته فراع عن سهمي، فعارضه السهم، ثم راغ، فعارضه السهم، فما زال والله يروغ ويعارضه حتى صرعه ببعض الجبانات".

ومثل هذه الأكذوبة قوله: ((رميت والله ظبية، فلما نفذ سهمي عن القوس، ذكرت بالظبية حبيبة لي فغدوت خلف السهم، حتى قبضت على قذذه قبل أن يدركها))، وقد شهرت هذه النوادر عن أبي حية وذاع أمرها، وتحدث بها الناس في الأجيال اللاحقة وصار سهم أبي حية هذا مثلاً يشبهون به ويشيرون إليه، فقد أشار إلى هذا السهم ابن نباتة المصري في غزله حيث يقول:

وبديع الزمان لم يرم طرفي ... مثل أعطافه ولا طرف غيري

كلما حدت عن هواه أتاني ... سهم ألحاظه كسهم النميري

ويضيفون إلى هذه الصفات صفات أخرى لأبي حية منها البخل والسفه والمجون، من ذلك أنه وفد على الخليفة المنصور وامتدحه وهجا بني حسن بقصيدته التي أولها:

عوجا نحيي ديار الحي بالسند وهل بتلك الديار اليوم من أحد

فوصله أبو جعفر بشيء دون ما كان يؤمِّل، فاحتجن لعياله أكثره، وصار إلى الحيرة فشرب عند خمارة بها، فأعجبه الشرب، فكره إنفاد ما معه، وأحب أن يدوم له ما كان فيه، فسأل الخمارة أن تبيعه بنسيئة، وأعلمها أنه مدح الخليفة وجماعة من القواد، ففعلت وشرهت إلى فضل النسيئة، وكانت كلما سقته خطت في الحائط فأنشأ أبو حية يقول مصوراً ما حدث وكان قد كشف لها عن عورته فتدلهت:

إذا أسقيتني كوزاً بخط فخطي ما بدا لك في الجدار

فإن أعطيتني بدين فهاتي العين وانتظري ضماري

خرقت مقدماً من جنب ثوبي حيال مكان ذاك من الإزار

فقالت ويلها رجل ويمشي بما يمشي به عجر الحمار

وقالت ما تريد فقلت خيرا نسيئة ما عليَّ إلى يساري

فصدت بعد ما نظرت إليه وقد ألمحتها عنق الحوار

وقد كان أبو حية مع هذه الصفات الغريبة مغتراً بنفسه معجباً بشعره سليط اللسان قاسي الجواب، وقد عرف أبو عمرو بن العلاء ذلك عنه، وكان يردعه على الرغم من تفضيل أبي عمرو لشعره، يقول الأصمعي: ((أنشد أبو حية يوماً أبا عمرو:

يا لمعد ويا للناس كلهم ويا لغائبهم يوماً ومن شهدوا

كأنه معجب بهذا البيت، فجعل أبو عمرو يقول له: إنك لتعجب بنفسك كأنك الأخطل)) وإذا كان أبو حية قد كف لسانه عن أبي عمرو بن العلاء لمكانته وجلالة قدره، فإنه يطلق لسانه في غيره في جواب مفحم ولسان سليط، فقد لقي ابن مناذر أبا حية، فقال له: أنشدني بعض شعرك، فأنشده:

ألا حي من أجل الحبيب المغانيا .....

فقال ابن مناذر: وهذا شعر؟ فقال أبو حية: ما في شعري عيب هو شر من أنك تسمعه، ثم أنشده ابن مناذر شيئاً من شعره فقال أبو حية: قد عرفتك ما قصتك؟ وجواب أبي حية هذا لا

يدل على لوثة بقدر ما يدل على جودة البديهة وحدة الخاطر وقوة الردع، ويبدو أن بين أبي حية وابن مناذر حسداً ومنافسة، فالقصيدة التي أنشدها أبو حية من جياد قصائده التي أعجب بها الناس شعراء ونقاداً، ومع ذلك فإن ابن المناذر لا يرى فيها شيئاً، وتروى هذه الرواية بشكل آخر، حيث يكون أبو حية هو البادئ بالإساءة ويكون تعليقه على ما يسمع من شعر ابن مناذر في غاية السخرية حيث يتجاهل ما سمع كأنه لم يسمع شيئاً يدخل في باب الشعر، قال أبو معد: ((مر بنا أبو حية النميري ونحن عند ابن مناذر، فقال: علام اجتمعتم؟ قلنا: هذا شاعر المصر، قال: أنشدني فأنشده، فلما فرغ قال: ألم أقل لك أنشدني؟ قالوا: فأنشدنا يا أبا حية فأنشدنا:

ألا حي من أجل الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن الليالي

فلما فرغ منها قال: ما أرى في شعرك شيئاً، قال: ما في شعري إلا استماعك له)).

ج - شعره:

اعتمد أبو حية النميري أسلوب التجاهل فيما يسمع فيه إهانة شديدة، ويبدو أنه رأى في هذه الطريقة خير ما يغيظ بها منافسيه من الشعراء فاستعملها مع يحيى بن نوفل الحميري وهو شاعر فصيح، فقد استنشده أبو حية من شعره، فأنشده ملياً وهو ساكت، فلما فرغ يحيى من إنشاده قال له: ألم أقل أنشدني؟ ترى أيدل هذا السلوك على لوثة أبي حية، أم يدل على خبث ورغبة في إيذاء الآخرين؟ ويضاف إلى هذه الصفات جميعاً أن أبا حية كان أمياً لا يجيد معرفة الحروف، وإن كان ذا ذكاء وفطنة، فقد قيل له يوماً: ابن لنا قصيدة على القاف، فقال:

كفى بالنأي من أسماء كاف وليس لحبها إذ طال شاف

ولم يعرف القاف، وفي جواب أبي حية ما يدل على حس مرهف بمعرفة جرس الألفاظ وإيقاع القافية على الرغم من جهله بالحروف.

ومع أمية أبي حية فقد كان له بصر بجيد الشعر وصناعته، فقد أنشده سلمة ابن عياش قصيدته:

طربت وما هذا بحين تطرب ورأسك مبيض العذارين أشيب

فلاحظ أبو حية عدم ترابط أبياتها فعبر عن ذلك بقوله: لم أرك أعدت قافية بعد قافية. وأبو حية شاعر مجيد مقدم محسن فصيح له شعر جيد، جيد الطبع مألوف الكلام رقيق حواشي الشعر، وبالغ بعض النقاد فعده من أحسن الناس شعراً وأرقهم فيه طبعاً، على لوثة كانت فيه، وكان عمرو بن العلاء يستحسن شعره ويرويه ويفضله على شعر الراعي النميري فيقول: ((أبو حية النميري أشعر في عظم الشعر من الراعي)). ويقول الأصمعي: " سُئل أبو عمرو بن العلاء عن الراعي النميري وأبي حية النميري فقال: الراعي أكبرهما قدراً وأقدمهما". فأبو عمرو يقر بمكانة الراعي في قومه وقدمه في السن، ولكنه لا يفضله على أبي حية في الشعر.

كان أبو حية ينزل بادية البصرة، ويلم بالبصرة، ولا بد أنه كان كثير التردد على المربد، ولقاء الفرزدق وغيره من الشعراء، وسماع الشعر الجيد وحفظه وقد تعلق بخاصة بشعر الفرزدق، فكان يروي عن الفرزدق، بل كثير الرواية عنه، ومن هنا حسن شعره وجاد وتمثل به الناس وسار على الألسن لما فيه من فصاحة وجودة ورقة وعذوبة، يقول ابن المعتز في سيرورة شعره: ((وما رأيت ذكياً ولا عاقلاً ولا كاتباً ظريفاً إلا وهو يتمثل من شعر أبي حية بشيء)).

ولقد تناول الأدباء والنقاد شعر أبي حية وتأملوا فيه فاستجادوا منه ما استجادوا، وتمثلوا بأبيات منه ووازنوا بينه وبين شعر غيره، وقد بلغ الإعجاب بشعر أبي حية لدى هارون بن علي حداً بحيث لم ير شبيهاً ولا بديلاً لبيتي أبي حية:

نظرت كأني من وراء زجاجة ... إلى الدار من فرط الصبابة انظر

بعينين طوراً تغرقان من البكا ... فأعشى وطوراً تحسران فأبصر

وفضلهما على كل ما يشبههما من شعر ولم يعدل عنهما إلى غيرهما.

وقد ذكر له الحصري قصيدة يتغزل فيها ويذكر ثغر حبيبته وطيب نكهته، والقصيدة أولها:

ألا أيها الربع القواء إلا انطق ... سقتك الغوادي من أهاضيب فوق

وعلَّق عليها قائلاً: ((هذا شعر ظريف الصنعة حسن الوشي والسبك وقد ملح ما شاء في وصف الثغر وطيب النكهة وهو معنى حسن جميل)). وكان الحصري قد وصف أبي حية بقوله: " من أحسن الناس شعراً وأرقهم فيه طبعاً".

ويفضل المبرد شعر أبي حية لتخلصه من التكلف وسلامته من التزيد وبعده عن الاستعانة، وذلك في قوله:

رمتني وستر الله بيني وبينها عشية آرام الكناس رميم

وقد وازن بعض النقاد بين أبيات أبي حية وأبيات الشعراء السابقين واللاحقين، وهم مستحسن أو معيب أو منتقد، فأبو القاسم الأصفهاني يستحسن لأبي حية وصف الدمع والعين فيقول: " فمن أحسن ما ذكروا قول أبي حية النميري وهو أول من افترعه:

نظرت كأني من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصبابة انظر

وقال بعض العرب:

ومما شجاني أنها يوم أعرضت تولت وماء العين في الجفن حائر

وتبعه بشار فقال: أقول وقد غصت جفوني بمائها.

ويذكر أبياتاً لابن حبيبات والبحتري والمتنبي ويقول: (فهؤلاء كلهم وصفوا حيرة الدمع وكلهم قاصرون عن أبي حية).

أما أبو هلال فيرى أن بيت البحتري:

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامتها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أحسن لفظاً من قول أبي حية:

إذا هن ساقطن الحديث كأنه سقاط حصى المرجان من سلك ناظم

ويقول: وبيت البحتري أيضاً أتم معنى؛ لأنه تضمن ما لم يتضمنه بيت أبي حية من تشبيه الثغر بالدر. وحكم أبي هلال حكم رجل منطقي لا يرى في البيت إلا معادلة عن كمية المعنى، ويغفل عن الإحساس بوقع البيت وجرس ألفاظه وأثره في النفس، ففي بيت أبي حية من

الجمال والموسيقا التي تشيعها سينات ساقطن وسقاط وصاد حصى، ما يفتقر إليه بيت البحتري.

وقد لاحظ بعضهم أن أبا حية في قوله:

وإنا لما نضرب الكبش ضربة على رأسه تلقي اللسان من الفم

وهو من شواهد سيبويه – قد ألم ببيت الفرزدق:

وإنا لما نضرب الكبش ضربة على رأسه والحرب قد لاح نارها

وقد عابوا على أبي حية التقديم والتأخير في قوله:

كما خط الكتاب بكف يوما يهودي يقارب أو يزيل

أراد: كما خط الكتاب يوماً بكف يهودي يقارب أو يزيل، وكان امرؤ القيس قبله قد قدم وآخر في قوله:

هما أخوا في الحرب من لا أخا له إذا خاف يوماً نبوة ودعاهما

أراد: هما أخوا من لا أخا له في الحرب. وكذلك فعل الفرزدق حين راكب كلامه وعاظله:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وفي أكبر الظن أن ما ضاع من شعر أبي حية جزء كبير، وخير دليل على ضياع شعره، هذه الأبيات المفردة أو القطع المفرقة في المجموع، وهي في الأصل قصائد ضاع أكثرها ووصلت منها هذه المفرقات والأبيات المفردة.

ومما ضاع أيضاً رجزه، إذ إن المصادر التي ذكرت أبا حية نصت على أنه: ((كان فصيحاً راجزاً مقصداً)). وليس لدينا من رجزه غير ثلاثة أشطار، ولا شك أن الذي فقد من رجزه كثير جيد بحيث يستحق أن يوصف صاحبه بالراجز المقصد، ولكن حسبنا هذا الذي بين أيدينا من شعر أبي حية، ففيه صورة صادقة لجوده شعره، وسمات واضحة عن أصالة طبعه وعلو كعبه بين الشعراء.لقد طرق أبو حية الموضوعات الفنية التي يجود فيها الشاعر، فأكثر شعره وصف للديار وبيئة البادية، وغزل بالمرأة وذكر لأيام الصبا، وأسفاره الشاقة على ناقة

أمون جسرة، ووصف لحيوان الصحراء كحمار الوحش والثور وصراعهما مع الصائد وكلاب الصيد، وبقية الحيوان كالفرس والنعامة والأسد.

وأبو حية من شعراء المديح ولكنه لا يطيل في أماديحه، بل تأتي القصيدة الطويلة وفيها ما فيها من أغراض فنية، ثم يفرد بيتين أو ثلاثة لذكر الممدوح وبيان خصاله، وقد وصلنا من مديحه الخلفاء قصيدة فيها ذكر لمروان بن محمد وقطعة يمدح فيها المنصور ويعرض ببني حسن، ولديه بعض القصائد والمقطعات في مدح بعض أعيان عصره الذين قلما نجد لهم ذكراً في كتب التراجم، من مثل: يزيد بن عتاب بن الأصم، والوليد بن يزيد بن القعقاع، وشخص اسمه جعفر، وعمرو بن كعب.

وقد افتخر أبو حية بنفسه وقومه وذكر أيام بني عامر ومنها يوم أود ويوم النشاش ويوم شعب جبلة، ولكن السمة الغالبة على كل هذا الشعر هو الغزل الذي برع فيه وأحسن وأجاد. إن شعر أبي حية النميري من نماذج الشعر الرفيع في تراثنا العربي، فلغته فصيحة صافية رائعة صائبة، وأسلوبه مشرق أخاذ، وفيه بعد ذلك ما في الشعر القديم من قوة وجزالة وأصالة وإبداع، وقد وجدت في تحقيقه ونشره خدمة للغتنا المجيدة وإحياء لتراثنا الأصيل.

د - نماذج من شعره:

وقال أبو حية:

أَلا يَا غُرابَ البَينِ مِمَّ تَصيحُ؟ ... فَصَوْتُكَ مَشْنُوٌّ إِلَيَّ قَبيحُ

وكل غداةٍ تنتحي لك تنتحي ... إليَّ فتلقاني وأنت مشيح

تخبرني أن لست لاقي نعمة ... بعدت ولا أمسى لديك نصيح

وإن لم تهجني ذات يومٍ فإنه ... ستغنيك ورقاء السراة صدوح

تذكرت والذكرى شعوفٌ لذي الهوى ... وهن بصحراء الخبيت جنوح

حبيباً عداك النأي فأسبلت ... على النحر عينٌ بالدموع سفوح

إذا هي أفنت ماءها اليوم أصبحت ... غداً وهي ريا المأقين نضوح

ظللت وقد ولوا بليل وقلصت ... بهم جلةٌ فتل المرافق روح

فلاقيتهم يوماً على قطريةٍ ... وللعيس مما في الخدور دليج

وقائلةٍ لولا الهوى ما تجشمت ... به نحوكم عبر السفار طليح

بدا يوم رحنا عامدين لأرضها ... سنيح فقال القوم مر سنيح

فهاب رجالٌ منهم وتقاعسوا ... فقلت لهم جاري إلي ربيحُ

عقابٌ بإعقابٍ من الدار بعدما ... جرت نيةٌ تسلي المحب طروحُ

وقالوا حمامات فحم لقاؤها ... وطلحٌ فزيرت والمطي طليح

وقال صحابي هدهدٌ فوق بانةٍ ... هدى وبيانٌ بالنجاح يلوح

وقالوا دمٌ دامت مواثيق بيننا ... ودام لنا حلو الصفاء صريح

لعيناك يوم البين أسرع واكفا ... ودام لنا حلو الصفاء صريح

ونسوة شحشاح غيور يخفنه ... أخي ثقةٍ يلهون وهو مشيح

يقلن وما يدرين عني سمعته ... وهن بأبواب الخيام جنوح

أهذا الذي غنى بسمراء موهنا ... أتاح له حسن الغناء متيح

إذا ما تغنى أن من بعد زفرة ... كما أن من حر السلاح جريح

وقائلةٍ يا دهم ويحك إنه ... على غنةٍ في صوته لمليح

وقائلةٍ أولينه البخل إنه ... بما شاء من زور الكلام فصيح

فلو أنَّ قولاً يكلم الجلد قد بدا ... بجلدي من قول الوشاة جروح

وقال أبو حية:

إذا أنت رافقت الحتات بن جابر ... فقل في رفيقٍ غائبٍ وهو شاهد

أصم إذا ناديت جهلاً وإن ناديت تسر ... فأعمى وإن تفعل جميلاً فجاحد

أراني وإياه الطريق عشية ... يهاب سراها الأحمسي المعاود

فأقسم براً أن لولا خياله ... لما كنت إلا مثل من هو واحد

- ٢٩ -

ربيعة بن ثابت الرقي

أ - حياته ونشأته وشخصيته:

هو ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيزار بن لجأ الأسدي نسباً، الرقي موطناً، من شعراء صدر الدولة العباسية، ولد ونشأ في الرقة من مدن الجزيرة الفراتية على نهر الفرات، كان ضريراً إلا أن الله سبحانه وتعالى عوضه عن فقدان البصر بصيرة وفطنة فأخذ الشعر يجري على لسانه في ريعان صباه، وسرعان ما غادر مسقط رأسه قاصداً بغداد، وهي يومئذ مقصد النابهين من الشعراء، وملتقى المفكرين والعلماء، وهناك لقي معناً بن زائدة الشيباني في قدمة قدمها إلى العراق من بلاد اليمن التي كان يتولاها لعهد أبي جعفر المنصور، وقيل: إنه مدح معناً بقصيدة إلا أن الممدوح لم يجزل له المكافأة ولم يهش لشعره، فأخذ الشاعر في هجائه، ولعل مرد هجائه معناً أسباب أخرى لا تتعلق بالعطاء القليل، هذا إذا سلمنا أن ربيعة قد مدحه حقاً، رغم عدم ذكر الرواية شيئاً من ذلك المدح، مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن هذا الهجاء لا يعود إلى سبب مادي هو أننا لا نجد فيما وصل إلينا من هجائه له ما يشير إلى قلة المكافأة، كما أن المشهور عن معن أنه لم يكن مقتراً على الشعراء أو شحيحاً.

سافر ربيعة وهو بعد شاب يافع إلى أرمينية. وهناك التقى بيزيد بن أسيد السلمي والي المنصور عليها. ويروى أن شاعرنا مكث في أرمينية حولاً كاملاً ينظم الشعر في مدح السلمي. غير أن هذه العلاقة الحسنة بين الوالي وشاعره ما لبثت أن ساءت، فترك أرمينية ويمم وجهه شطر مصر، وكان واليها حينئذ يزيد بن حاتم المهلبي، الذي كان كثير الشبه بجده المهلب بن أبي صفرة في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، ولذلك كان قبلة الشعراء.

ومن الجدير بنا ألا نذهب مع الرواية التي تعزو هجر ربيعة ليزيد السلمي وتحوله إلى المهلبي إلى قبض يد الأول عنه وقد بسطها له الثاني في العطاء. ولعل السبب الحقيقي لهذا التحول هو أن شاعرنا كان يبحث عن الممدوح الذي يمثل صورة الطموح، والذي يرتفع إلى

مستوى قيم القصائد ومعانيها، ويروى أن المهلبي تشاغل عن ربيعة أول مرة فكتب له في رقعة يقول:

أراني، ولا كفـــــــران لله، راجعـــــــا بخفـــي حنـــين مـــن نـــوال ابـــن حـــاتم

فلما بلغت المهلبي الرقعة أشخصه إليه وبالغ في إكرامه.

وفي عام ١٥٢ هـ عزل المنصور يزيد بن حاتم عن أكرة مصر لفشله في القضاء على دعوة العلويين بها، أو لتشيعه الذي جعله يتهاون في أمرها فشيعه ربيعة بقصيدة يقول في أولها:

بكـى أهـل مـصر بالـدموع الـسواجم غـداة غـدا عنهـا الأغـر ابـن حـاتم

وهذا دليل على أن الحال لم يكن حافزاً له في مدح المهلبي، وأن صحبته له ترجع إلى شعوره بعظم المهام التي ينهض بها يزيد بن حاتم وجسامتها.

ولم يطل المقام بربيعة في مصر بعده فغادرها راجعاً إلى مدينته الرقة. ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت قصائده في الغزل تسير في البلاد، فتطرق أسماع جواري الخليفة المهدي فيشغفن بها ويرغبن في " أن يسمعن ربيعة الرقي، فوجه إليه المهدي من أخذه من مسجده بالرقة، وحمل على البريد حتى قدم به على المهدي... واستنشده ما أراد فضحك وضحكن منه. ثم أجازه جائزة سنية فقال له:

يـــــا أمـــــير المؤمنينـــــا الله ســـــــماك الأمينـــــــا

سرقـــــوني مـــــن بـــــلادي يـــــا أمـــــير المؤمنينـــــا

سرقـــــوني فـــــاقض فـــــيهم بجـــــــزاء الـــــــسارقينا

قال: قد قضيت فيهم أن يردوك إلى حيث أخذوك، ثم أمر به فحمل على البريد من ساعته إلى الرقة.

ولم يلبث في الرقة طويلاً، فقد عاد إلى بغداد. قال الأصفهاني في أغانيه: ((فأشخصه المهدي إليه فمدحه بعدة قصائد وأثابه عليها ثواباً كثيراً)) ولم يبق لنا الزمن من مدائحه فيه سوى بيتين اثنين. ولعل ربيعة عاد بعد لقائه الأول الفاشل مع المهدي فحاول الوفود إليه ثانية، وأصاب نجاحاً في محاولته بما وقع للمهدي من شعره في المهلبي الذي يقول فيه:

لــشتان مــا بــين اليزيــدين في النــدى يزيــد ســليم والأغــر بــن حــاتم

ولم تطل إقامته الثانية في بغداد، حيث لم يكن له قبل بمنافسة بشار بن برد، ومروان ابـن أبي حفصة، وأبي العتاهية، والسيد الحميري في بلاط المهدي، فقفل راجعاً إلى الرقـة، حيـث أقـام بعيداً من أضواء العاصمة، وما تهبه للشعراء من شـهرة ومجـد، فكـان أن خمـل ذكـره وضـاع معظم شعره.

وتؤول الخلافة إلى الرشيد فيتصل به الشاعر، ويروج عنده الـشعر وتكثـر ملحـه ونـوادره معه، بيد أن شعره فيه ضاع ولم يصل إلينا منه شيء.

وفي عام ١٨٥ هـ ولي العباس بن محمد عم الخليفة الرشيد إمارة الجزيرة الفراتية، واتخذ من الرقة مقراً له، ففرش له في قصر الإمارة، واتخذت له الآلات، وشحن بـالرقيق فحبـاه الرشـيد حباءً كثيراً وعظّمه أشد تعظيم. وكان على الشاعر أن ينتهز الفرصة ويستثمرها استثماراًحسناً، فلم يتوان عن التوجه إليه بقصيدة تعد من أجود شعره. غير أن العباس الـذي كـان مـبخلاً لم يكافئ الشاعر بأكثر من دينارين اثنين. فجن جنونه، وراح يسخر من ممدوحه بما يؤذيه ويؤلمه، فركب العباس إلى الرشيد وأبلغه ما هجاه به ربيعة، فغضب الرشـيد لعمـه، وأمـر بإحـضاره فأُحضر، والرشيد يتميز غيظاً، وعزم على قتله، ولكنه لما سمع منه قصته مع العبـاس، ووقـف على حقيقة الأمر أطرق هنيهة، ثم نظر إلى العباس منكراً، وأمر لربيعـة بثلاثـين ألـف درهـم. وجعله من ندمائه وخلع عليه على ألا يعود إلى هجاء عمه.

وعاش ربيعة بقية حياته في يسر وسعة، ونرجح أن صحبته للرشـيد لم تطـل، فقـد عـاد إلى الرقة. حاملاً معه من الهدايا والمال ما يكفي لتحسين أحواله وظروف معيشته في شيخوخته.

ويمضي الشطر الأخير من عمره وادعاً قد كف عن السعي إلى مـا يتطلـع إليـه طموحـه في شبابه من الحياة العريضة، وأصبح أكثر ميلاً إلى الزهـد والرغبـة والطمـع في عفـو الله وثوابـه ورضاه. ينبئ عن ذلك بيتاه.

لا تــسأل النــاس مــا يملكــون ولكــن ســل الله واســتكفه

وكــل مقــلٍّ وذي ثــروة فــإن المنيــة مــن خلفــه

وهكذا حتى توفي قبل نهاية عام ثمانية وتسعين ومئة.

ب - شعره وأغراضه:

يذكر ابن النديم في فهرسته أن لربيعة ديوان شعر يقع في مئة ورقة، تشتمل الواحدة منه على عشرين سطراً، وبهذا الاعتبار يكون مجموع أبيات الديوان أربعة آلاف بيت. ويقول أبو الفرج الأصفهاني: إن ربيعة من المكثرين المجيدين غير أن هذه الكثرة قد ضاعت، ولم يبق منها إلا وشل متناثر في كتب الأدب والتاريخ.

ولا شك أن ربيعة تناول في شعره أغراضاً متعددة، إلا أن ما وقع إلينا من شعره كان في المدح والغزل والهجاء والوصف والزهد والحكمة ولم يصل إلينا شيء من شعره في الرثاء أو في الفخر.

ولا يعني هذا أنه لم يتناول هذه الأغراض، فلعل شعره فيها قد ضاع مع ما ضاع منه.

١ - الغزل:

يعد شعر الغزل عنده أكثر مما نظم في سواه من الأغراض فقد نظم فيه مبكراً، فظهر تأثره فيه بمن سبقه من شعراء الغزل، تأثر بعمر بن أبي ربيعة، الشاعر الذي شغف الغانيات حبه فشكون صده وإعراضه ورجون لقائه. فمن ذلك يقول ربيعة:

والغواني مغويات مولعات باقتناصي

قد تواصين بحبي حبذا ذاك التواصي

وربيعة في كثير من غزله مخلص في حبه، متسامٍ، فتراه يرضى من حبيبته بالوعد والمنى، أو حتى باليأس. ويشكو السقم في حبه الذي تغلغل في أحشائه وحل في عظامه، ويذكر تولهه وخضوعه لحبيبته. وهو حيناً يأتم بالعذريين العاشقين. وهكذا تتغير صورة ربيعة الرقي بحيث يسهل علينا القول: إنه في هذه النماذج من غزله لا يصدر عن تجربة شعورية ولا يعبر عن حب حقيقي.

ولا ريب في أن ما أصيب به من العمى كان له تأثير واضح على معانيه وصوره الشعرية، فقد طبعها بطابع حسي، ويبقى كغيره من الشعراء العميان يلتذ بالحديث ويسحر به:

أحـــب حـــديثها وتحـــب قـــربي ومـــا إن نلتقـــي إلا لمامـــا

وهكذا فإن المتأمل في غزل ربيعة يجد نفسه وكأنه أمام شاعرين لا شاعر واحد، بيد أنه في كل أحواله يظل مبتعداً عن شعراء الغزل المكشوف أمثال أبي نواس والحسين بن الضحاك ومسلم بن الوليد، فغزله يخلو من التهتك والرفث والفحش، وما كانت هذه الظاهرة إلا لأنه لم يعش حياة مثل أولئك المجان ولم يحضر مجالسهم.

أما تقدمه في هذا الفن فقد كان متميزاً بين شعراء عصره ومقدماً على كثير منهم، وقد شهد بذلك ابن المعتز في قوله: (فأما شعره في الغزل فإنه يفضل على أشعار هؤلاء من أهل زمانه جميعاً). وأجرى ابن المعتز مقارنة بين غزل ربيعة وغزل أبي نواس فقال: كان ربيعة أشعر من أبي نواس، لأن في غزل أبي نواس برداً كثيراً، وغزل هذا سليم عذب. وبالرغم من الصعوبة التي نجدها عندما نريد مناقشة رأي ابن المعتز بسبب ضياع معظم شعر ربيعة الرقي، فإنا نميل إلى أن ابن المعتز قد أنصفه، وقال فيه كلمة حق، فنحن من جهة نجد في غزل أبي نواس ضعفاً، ومن جهة أخرى نجد ربيعة في بعض قصائده يصدر عن إحساس قوي وعاطفة صادقة ومعاناة حقيقية.

ولرقة شعره الغزلي يجري على كل لسان، ويذيع في كل مكان، حتى ليقال بأن بعضه كان ينقش على البسط، وعاش بعضه الآخر تحفظه لنا بطون كتب الأدب أمثال الأغاني وغيره. أما أسماء النساء اللائي ذكرهن في نسيبه مثل ليلى وسعاد وعثمة وغنمة ورخاص وداحا، فأظن أنها لا تعدو رموزاً اصطنعها، خلافاً لما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف من أن بعض هذه الأسماء حقيقي.

٢ - المدح:

كان المدح من أهم الأغراض التي تناولها ربيعة في شعره ومعظمه - على ما وصل إلينا منه - في يزيد بن حاتم المهلبي، حيث نقرأ له أجزاء من خمس قصائد من بديع شعره جزالة لفظ وإحكام عبارة وحسن بناء. ولا نرتاب في أن ربيعة كان يصدر في هذا المدح عن عاطفة صادقة وشعور حقيقي بأهمية الممدوح ومكانته، فهو - كما يصوره لنا - مقدام يسعى في بناء المكرمات، ويلجأ إليه الناس في الشدائد؛ لأنه حمال كل عظيمة، وخير مدافع عن الإسلام.

أما مدائحه لمعن ويزيد السلمي فقد ضاعت كلها، ويغلب على الظن أنها لم تكن ذات بال من الناحية الفنية، فقد نظمها الشاعر في مطلع شبابه، فهي لا تمثل نضجه الفني، وقيل: إن معناً لم يستحسن بعضها.

ولعل أجود ما أثمرته قريحة ربيعة قصيدته في العباس بن محمد عم الخليفة الرشيد وواليه على الجزيرة الفراتية، تلك القصيدة التي أعجب بها الخليفة ((فاستحسنها واستجادها، وأعجب بها وقال: ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها، وأصبح بعض أبياتها كثير الدوران في كتب الأدب، لما فيها من صور فنية جميلة. ومن المؤسف حقاً أن تضيع هذه القلادة، فإنها تمثل ذروة نجاح الشاعر الفني، فمن المؤكد أنه قد حشد كل مقدرته الفنية، واستجمع كل أدواته الشعرية في سبيل الإجادة والتفوق في مدح العباس، الذي كان معظماً وجليلاً عند الخليفة، وكان على ربيعة أن يحلق في سماء الفن ولا أحسبه إلا محلقاً في قوله:

إن المكارم لم تنزل معقولة ... حتى حللت براحتيك عقالها

العود يرطب إن لمست لحاءه ... والأرض تعشب إن وطئت رمالها

غير أن هذا الجهد الفني، وهذه المبالغة لم يستدرّا من كف العباس غير دينارين اثنين، فانقلب على ممدوحه يهجوه، ولقد كان لهذه القصيدة أثر سياسي مهم، فقد فتر الرشيد بعدها عن عمه، وتغير عليه وقيل: إنه أقلع عن عزمه على أن يزوج العباس ابنته، وظهر منه له يعد ذلك جفاء كثير وإطراح، وبالرغم من أن هذه القصيدة ليست مما يمكن عده سبباً كافياً لتحول الخليفة عن عمه، وأنه لابد من أن تكون وراء هذا التحول أسباب أخرى لم نقف عليها، فإن القصيدة كانت الكاشف المباشر عما أضمره الرشيد لعمه من استياء وحنق.

ولقد كانت متنفساً للخليفة للتعبير عن سخطه على العباس الذي كان يبدو وكأنه أعظم ولاته وأكبر رجال دولته وأقواهم صلة به. وهكذا تكون لقصيدة ربيعة في العباس بن محمد قيمة فنية عالية وأهمية سياسية كبيرة. أما طريقته في مدائحه فإنه كان يباشر فيها المدح دونما مقدمات طللية أو غزلية في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كان يستهلها بأبيات في الغزل.

٣ - الهجاء:

أما شعره في الهجاء فما وصل إلينا منه قدر قليل كان في معن بن زائدة، ويزيد بن أسيد السلمي، والعباس بن محمد، وقد عبَّر فيه الشاعر عن سخطه وغضبه على هؤلاء الذين لم يقدروا شعره، ولم يفهموا معاناته من أجلهم، فكانت له معهم تجربة فيها مرارة وقسوة، فرأى أنهم مستحقون للانتقاد، محتاجون للتقويم والإصلاح. وهو حين تصدى لهم إنما تصور المثل والنموذج، فكأنه أراد منهم أن يرتفعوا ويسموا ويستقيموا، فلما خيَّبوا أمله، وساء ظنه بهم، وظهروا على خلاف ما تصورهم في خياله، مال إلى ثلمهم والقدح فيهم. ويبدو أن ربيعة يأتسي في هجائه بالاتجاه السائد القائم على السخرية والتهكم والتعريض بالمهجو، والإلماح دون التصريح، إلا أنه في هجائه معناً مال إلى التصريح ليوجعه وليشفي غليله منه.

ملامح تأثره ببعض الشعراء

قلنا: إن ربيعة قد تأثر بعدد من شعراء العصر الأموي، وهذه طائفة من أشعاره يبدو فيها ذلك التأثر.

فهو في قوله:

وأمنح طرف العين غيرك رقبة ... حذار العدى والطرف نحوك أميل

فيه من معنى قول الأحوص:

إني لأمنحك الصدود وإني ... قسماً، إليك مع الصدود لأميل

ويبدو ربيعة في قوله:

فلو كنت ذا عقل لأجمعت صرمكم ... برأيي ولكنني امرؤ ليس أعقل

مقلداً جميل بن معمر في قوله:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ... ولكن طلابيها لما فات من عقلي

وفي قول ربيعة:

خليلي هذا ربع ليلي فقيدا ... بعيريكما ثم ابكيا وتجلدا

اتكاء كبير، بل إغارة على بيت كثير بن عزة:

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا ... فلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

ويبدو شاعرنا في قوله:

ستصرم إنساناً إذا ما صرمتني بحبك فانظر بعده من تبدل

مشدوداً إلى معين بن أوس في قوله:

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كف تبدل

وإذ تقرأ المقطعة التالية لربيعة تجد كأنك أمام شعر عمر بن أبي ربيعة حين يحكي عن نفسه على لسان من يشبب بها:

قالت: ومن أنت قلن التابعات لها هذا ربيعة هذا فتنة الأمم

هذا المعنى الذي كانت مناسبه تأتيك فاستتري بالبرد والقتم

شيطان أمته لاقاك محرمةٌ فبالإله من الشيطان فاعتصمي

قالت: أعوذ بالله ربي منك واستترت بغادةٍ رخصة الأطراف كالعنم

أما أبياته:

خليلي هذا ربع ليلي فقيِّدا بعيريكما ثم ابكيا وتجلدا

قفا لمسعداني بارك الله فيكما وإن أنتما لم تفعلا ذاك فاقعدا

وإلا فسيرا واتركاني وعولتي أقل لجنابي دمنة الدار أسعدا

فقالا وقد طال الثوى عليهما لعلك أن تنسى وأن تتجلدا

فذات دلالة قوية على انجذابه إلى شعر مجنون ليلى وتأثره به، ولولا أن يأخذ سحر عمر بن أبي ربيعة في آخر هذه القصيدة، أي في قوله:

فأقبلن من شتى ثلاثاً وأربعا وثنتين يمشين الهوينا تأودا

يطأن مروط الخز يلحقنها الحما ويسحبن بالأعطاف ريطاً معتمدا

فلما التقينا قلن أهلاً ومرحبا تبوأ لنا بالأبطح السهل مقعدا

وأغلب الظن أن القصيدة من شعر المجنون. ولرغبة شاعرنا في محاكاة شعر مجنون ليلى اختلط شعره بشعر ذلك. ويجب إلا تحملنا هذه النماذج التي ظهر فيها تأثر ربيعة بالشعراء

الأمويين على الاعتقاد بأنه كان دائماً يسير على نهجهم، فهو في كثير من شعره يفترق عنهم افتراقاً كبيراً بحيث لا نجد له أثراً لسواه فيه، وهو عندما يرسل نفسه على سجيتها وطبعها ويتحرر من أسر التقليد يحملك على أن تطرب له وتهتز، ثم تثني عليه.

ومن هذا نفهم ونفسر أقوال ابن المعتز: ((فهذا كما ترى أسلس من الماء وأحلى من الشهد))، و((وهذا أطبع ما يكون من الشعر وأسهل ما يكون من الكلام))، ((فهذا كما ترى لا يسمع مثله لشاعر رقة وغزلاً)). ومما لا شك فيه أن تأجج العاطفة وقوة الانفعال وقرب المأخذ وتدفق الطبع، كل ذلك دفع ابن المعتز إلى إطلاق هذه الإحكام.

ج - الخصائص الفنية في شعره:

أبرز سمات شعر ربيعة الرقي:

١ - سهولة اللفظ وبساطة التعبير وسلامته المفرطة.

٢ - ثم قرب مآخذ المعاني ووضوحها وجمالها. هذه الخصائص والسمات مجتمعة جعلت شعره محبباً لدى الجواري وعامة الناس، وأدت إلى ذيوعه، حتى كتب على البسط. وقوله مثلاً:

ليتني كنت حماما ... لك مقصوص الجناح
أيها الناس ذروني ... لست من أهل الفلاح
أنا إنسان معنى ... بهوى المرض الصحاح

وقوله:

فيا غنام يا بصري وسمعي ... رسيس هواك أورثني السقاما
لقد أقصدت حين رميت قلبي ... بسهم الحب إن له سهاما
زجرت القلب عنك فلم يطعني ... ويأبى في الهوى إلا اعتزاما
إذا ما قلت أقصر واسل عنها ... أبى من صرمكم إلا انهزاما

وجلُّ شعر ربيعة على هذا النحو السلس العذب المصقول الذي يعد صورة ونموذجاً للشعر المطبوع لا تثقله الصناعة اللفظية، أو يذهب برونقه وبهائه تعقيد.

إن معظم شعر ربيعة يجمع إلى إحكام الصياغة ومتانتها وسلاستها وعذوبتها. وحسبك أن تقف عند لاميته وقصيدته في مدح العباس بن محمد لتلمس تمكن الشاعر من فنه وامتلاكه لأدواته الشعرية.

ولكن هذا لا يعني أن شعره كله يخلو من العيوب والسقطات الشعرية، فثمة ضعف في التعبير وتكرار لفظي ثقيل وحشو معيب.

فمن التكرار اللفظي قوله:

أفي هجران بينك تصرميني ... وما رمنا لصرمكم صراما
كرام الناس قبلي قد أحبو ... كرائمهم وأحببن الكراما
أقام الحب حبك في فؤادي ... وحبي في فؤادك قد أقاما
وهي حوراء كالمهاة هجان ... لهجانٍ وأنت غير هجان

وقوله أيضاً:

والشوق قد غلب الفؤاد فقاده ... والشوق يغلب ذا الهوى فيقوده

ومن الحشو قوله:

من لعينٍ رأت خيالاً مطيفا ... واقفاً هكذا علينا وقوفا
عتكي مهلبي كريمٌ ... حاتمي قد نال فرعاً منيفا

فهو في البيت الأول يجر أنفاسه للوصول إلى القافية، وقد حشر لفظة (هكذا) من أجل ذلك. أما في البيت الثاني فإن لفظة (حاتمي) من حشو الكلام، فلفظة (كريم)أدت إلى المعنى المراد. وفي قوله:

نلت الجمال ودلاً رائعاً حسنا ... فما تسمين إلا ظبية البلد

جاءت لفظة (حسناً) زائدة لا معنى لها، فلفظة (رائعاً) أغنت عنها وكفت. وفي البيت:

ولولا فتنتي بك فاعلميها ... إذا صلى ربيعة ثم صاما

وردت الجملة الاعتراضية (فاعلميها) من غير ضرورة. فقد اضطر إليها الشاعر اضطراراً لإتمام الوزن.

ولا بد من القول: إن هذه الهنات والسقطات الشعرية لا يخلو منها أو من مثلها شعر شاعر، ولكن العبرة في قلتها وضآلتها، وكفى ربيعة الرقي أن الجيد البديع مما وقفنا عليه من شعره كثير والرديء المطرح منه قليل.

وتبقى بعد ذلك ظاهرة بارزة في شعره تلك هي شيوع الأوزان الصافية والقصيرة، فالرمل مثلاً يحتل وحده ما يقارب ربع ما هو بين أيدينا اليوم من شعر الشاعر، والرمل كما هو معروف بحر ويوافق المرقص والمطرب من الشعر وهو ذو موسيقا انسيابية، ويمكن عزو تلك الظاهرة إلى سببين: أولهما انتشار الغناء وحاجة المغنيين والمغنيات إلى أوزان قصيرة يسهل عليهم تقطيعها وترجيعها، فكان النظم على الأوزان القصيرة في شعر الرقي أن بعض المواقف الشعرية كالحدث الطارئ والموقف الآني لا تمكن الشاعر من التريث والصبر على فنه فيجنح إلى الأوزان القصيرة إيثاراً للسهولة في النظم.

وبعد، فلا شك أن ربيعة الرقي شاعر كبير موهوب، فقد نظم في الحور الطويلة والقصيرة والسهلة والصعبة فأجاد فيها جميعاً وتفوق، فنال إعجاب معاصريه من الشعراء، وممدوحيه من الخلفاء والأمراء، وحظي بثناء من جاء بعده من النقاد، واحتج بشعره بعض أئمة اللغة، منهم الأصمعي. فقد قال المبرد في كامله: ((وربيعة احتج به الأصمعي وذلك عندما أورد بعض شعره)). وهذا وحده كاف للاهتمام بشعره ودراسته.

د - نماذج من شعره:

١ - وقال ربيعة الرقي:

لمن ضوء نار قابلت أعين الركب ... تشب بلدن العود والمندل الرطب

فقلت لقد آنست نارا كأنها ... صفا كوكب لاحت فحن لها قلبي

٢ - وقال يهجو أبو العباس بن محمد:

مدحتك مدحة السيف المحلى ... لتجري في الكرام كما جريت

فهبهـــا مدحـــة ذهبـــت صـــياعا كـــذبت عليـــك فيهـــا وافتريـــت
فأنـــت المـــرء لـــيس لـــه وفـــاء كـــأني إذ مـــدحتك قـــد رثيـــت

٣ – ومما يستحسن لربيعة قوله:

صـــــاح إني غـــــير صـــــاح أبـــــداً مـــــن حـــــب داح
صـــــار قـــــدحاً حـــــب داح في فـــــؤادي المـــــستباح
جـــــنح القلـــــب إليهـــــا إن قلبـــــي ذو جنـــــاح
وعـــــصى في حـــــب داح كـــــل لـــــوام ولاحـــــي
ليـــــت لي رســـــلاً مـــــن الجـــــ ـــــن إليهـــــا والريـــــاح
تبلـــــغ الحاجـــــات عنـــــي ثـــــم تـــــأتي بالنجـــــاح
أنـــــا والله قتيـــــل لـــــك مـــــن غـــــير جـــــراح
لا بـــــسيف قتلتنـــــي لا ولا ســـــمر الرمـــــاح
أنـــــت للنـــــاس قتـــــولٌ بـــــالهوى لا بالـــــسلاح
وبـــــشكلٍ وبـــــدل وبغـــــنجٍ ومـــــزاح
وبعينـــــين صـــــيودين وثغـــــر كالأقـــــاحي
ليتنـــــي كنـــــت حمامـــــا لـــــك مقـــــصوص الجنـــــاح
أيهـــــا النـــــاس ذروني لـــــست مـــــن أهـــــل الفـــــلاح
أنـــــا إنـــــسان معنّـــــى بهـــــوى المـــــرض الـــــصحاح

٤ – وقال يمدح يزيد بن حاتم المهلبي ويعرض بيزيد السلمي:

يزيـــــد الأزد إن يزيـــــد قـــــومي ســـــميك لا يجـــــود كـــــما تجـــــود
يقـــــود جماعـــــة وتقـــــود أخـــــرى فـــــترزق مـــــن تقـــــود ومـــــن يقـــــود
شـــــبيهك في الـــــولادة والتـــــسمي ولكـــــن لا يجـــــود كـــــما تجـــــود

فما تسعون يحفزها ثلاثٌ يقيم حسابها رجلٌ شديد
وكف شثنة جمعت لوجه بأبكد من عطائك يا يزيد

٥ – وقال أيضاً، وهو قول يا بؤسه:

أنا للرحمن عاصي لجنوني برخاص
ثم للناس جميعا من أدان وأقاصي
ورخاص الكرخ ظبي لم أنل منه افتراضي
ما أبالي من لحاني فيك أو رام انتقامي
ولقد عذبت روحي فمتى منك خلاصي
فاتقي الرحمن فينا واحذري يوم القصاص
والغواني مغويات مولعاتٌ باقتناصي
قد تواصين بحبي حبذا ذاك التواصي

٦ – وكتب ربيعة ليزيد بن حاتم:

أراني ولا كفران لله راجعا بخفي حنين من يزيد بن حاتم

فلما قرأها أمر بنزع خفي الشاعر فحشاهما دنانير فقال ربيعة لما عزل وولي محله يزيد بن أسيد:

بكى أهل مصر بالدموع السواجم غداة غدا عنها الأغر ابن حاتم

وفيها يقول:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية يمين امرئ آلى بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى أخو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

فـــلا يحـــسب التمتـــام إني هجوتـــه ولكنـــي فـــضلت أهـــل المكـــارم

فيـا أيهـا الـساعي الـذي لـيس مـدركا بمـــسعاته ســـعي البحـــور الخـــضارم

كفـــى لبنـــاء المكرمـــات ابـــن حـــاتم ونمـــت ومـــا الأزدي عنهـــا بنـــائم

فيـا ابـــن أســـيد لا تـــسام ابـــن حـــاتم فتقـــرع إن ســـاميته ســـن نـــادم

هـــو البحـــر إن كلفـــت نفـــسك خوضـــه تهالكـــــت في آذيـــــه المـــــتلاطم

تمنيـــت مجـــداً في ســـليم ســـفاهة أمـــاني حـــالٍ أو أمـــاني حـــالم

- ٣٠ -

الشريف الرضي

هو محمد بن الحسين المعروف بالحسين الرضي

(٩٧٠ - ١٠١٦ م)

(٣٥٩ - ٤٠٦ هـ)

أ - حياته ونشأته:

هو محمد بن الحسين المعروف بالحسين الرضي، يرتقي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب. ولد في بغداد ٩٧٠ م ٣٥٩ هـ ونشأ فيها، وتلقى العلوم والآداب على علمائها وأساتذتها، فأخذ الفقه عن الشيخ المفيد بن عبد الله محمد بن النعمان، ودرس اللغة على الشيخ أبي الفتح عثمان بن جني، حتى برع في الفقه والفرائض والآداب وسائر العلوم. نابت هذا الشاعر الشاب بعض البلايا ولازمته طويلاً حتى آخر حياته، وذلك جزء من جراء الفواجع التي انتابت بغداد، والقلاقل التي عبثت فيها. فحبس والده في إحدى قلاع فارس سبع سنوات ٣٦٩ - ٣٧٦ هـ وصودرت أملاكه ورغم كل هذه المصائب التي أقضّت مضجع الشاب الصغير، فقد كان رقيق الحس مرهف القلب يحب أباه حباً جماً، فنظم فيه متلهفاً أرق الشعر.

عاصر الشريف الرضي ثلاثة من الخلفاء العباسيين هم المطيع والطائع والقادر، وكان في أيام الأول طفلاً بعد بينما كان عهد الخليفة الطائع مسرحاً للعراك بين الفرس والترك، وقد سيطر الديلم والترك مدة على العراق، مما اضطر الشاعر على موالاتهم، مع أنه أخلص الود للطائع وأنس به كل الأنس ومدحه بكل صدق وإخلاص، إذ رأى فيه بقايا الأصالة العربية من بني العباس. وقد أغدق عليه الخليفة الهدايا والعطايا، وقد رثاه الشاعر بعد وفاته بقصائد عدة كما مدح عبد القادر من بعده، ولكن ما عتَّم هذا الأخير أن مال عنه، عندما شعر بميله إلى العلويين والفاطميين ومدحه للوزراء والملوك.

توفي الشريف الرضي في ٢٦ حزيران ١٠١٦ م الموافق لـ ٦ محرم ٤٠٦ هـ ودفن في بيته بالكرخ في ضواحي بغداد، فدفنت معه آماله الواسعة، فقد كان نقيباً للأشراف يوم لم يكن للأشراف عرش ولا تاج، بل لهم العلم والأدب والبيان. وكان أبي النفس شريفها تيمناً باسمه، عالي الهمة لم تعنه الأيام على بلوغ أقصى أمانيه في المعاني.

ب - شخصيته:

لم يطمع الشريف الرضي يوماً من شعره بالتكسب، بل كان يصف الاشتباكات السياسية الناشبة بين فارس والعراق، وخدمة الأغراض السياسية، وكان يصف تقلبات الأحوال، ولم يبتغ أية فائدة مادية من اتصاله بالوزراء والملوك، بل كان حرصه على المكانة المعنوية وأن يكون ذا شأن وجاه في تصريف المعضلات وتسلم عرش الخلافة، وقد استطاع بدافع هذا القصد الشريف أن يكون صلة بين كل من الحجاز وفارس والشام من جهة وبين العراق من جهة أخرى.

ج - موضوعات شعره:

وكان شعر الشريف الرضي بالإجمال صورة تترجم ما تنطوي عليه نفسيته الطموح من الآمال العراض والأحلام الذهبية نحو المجد والسؤدد، فلم يكن الشعر عنده يوماً واسطة للتكسب ولا مركباً للمداجاة والمواربة، بل كان معظمه تغنياً بالمحبة والآلام، ونشيداً من أناشيد العزة والفخار فقد أوحت إليه مواسم الحج وطرقه بموضوعات (الحجازيات) وأوحى إليه العلويون والطالبيون المحرومون من السلطان بموضوعات (الشيعيات)، وكان تروعه من الأمراض والأخطار ينظم في وصف (الشيب) كما دفعته دموعه التي قذفها قلبه الجريح ونفسه المكلومة الحزينة على فراق الأحبة والأصدقاء والأقرباء من تصويرها (بالرثائيات) وأعطى مجالاً لاستعادة الأمجاد القديمة والماضي التليد المندرس بموضوعات (فخرياته) وكل هذه القصائد في جميع الأبواب التي طرقها إنما هي انطباع من نفسه الكبيرة وقلبه الرقيق وحسه المرهف ومعنوياته العالية. بل كان مرآة معكوسة لما يتأجج في أعماقه من حرارة المحبة وتنفس الوجدان، وهيامه بالمعنويات والقيم السامية والآمال والمراكز المرموقة التي كانت تصبو إليها نفسه الشماء.

١ - **فحجازياته:** نحو أربعين قصيدة ضمنها الشاعر لوعة صبابته. وغزله شديد اللصوق بنفسه ينبجس من أعمق أعماقه. بل هو العشق النزاع بين العقل والقلب والصراع بين العزة والذل من قوله:

عفاك في من دون التقية زاجر ... وصونك من دون الرقيب رقيب

عشقت ومالي يعلم الله حاجة ... سوى نظري والعاشقون ضروب

وقوله: تلفتت عيني فمذ خفيت ... عنها الطلول تلفت القلب

وانحصر رثاؤه في الأهل والأصدقاء وفي الملوك والعظماء، وفي صريع كربلاء الحسين بن علي، وكان يشيد بمآثر وبطولات جميعهم حيث يتضاءل المجد والعز أمام ذكرياتهم.

٢ - **وفخره:** فقد كان الشريف شاعر الفخر بلا منازع، يفتخر بقومه ومجد أسرته وبالتالد والطريف من شرفه، ولاسيما في أهل البيت يقول:

كالصخر إن حملوا والنار إن غضبوا ... والأسد إن ركبوا والويل إن بذلوا

وكما كان يفاخر ويتباهى بأهله والشرفاء من قومه في باب الفخر، كذلك كان يحيي ذكريات من قتل من آل البيت،

ولاسيما الحسين فيقف على قبورهم في لهفة وحرقة، وهاهو ذا يناشد الخليفة نفسه:

مهلاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المعالي معرق

إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

٣ - **وهو شاعر المدح:** له فيها قصائد كثيرة من عيون الشعر يحاول أن يضارعه المتنبي في بعضها، وكان صباً بأبيه علوقاً بحبه إلى أقصى الحدود، مدحه في قصائد كثيرة متوجعاً عليه في سجنه، ومهنئاً إياه بخلاصه ورد أملاكه ومباركاً له بالأعياد والمناسبات التي يخلع فيها عليه رداء الملوك والخلفاء.

وكان الشريف الرضي يقتنص المناسبات الجميلة والفرص السانحة في نظم قصائده والاحتفال بها، فينتقي أجمل العبارات وأبلغ المعاني وأعذب القوافي وأصدق المشاعر وأسحر البيان، فاسمعه فيما يفاخر:

منتصبات كالقنا لا نرى عياً من القول ولا أفنا

لا يفضل المعنى على لفظه شيئاً ولا اللفظ على المعنى.

٤ - **وكان أيضاً وجداني النزعة** في شعره: يتقارب مع الأقدمين من بين شعراء عصره آخذاً نصيبه من الصبغة العباسية، مستعملاً كل الأساليب والوسائل، بل الحروف والحركات الضرورية للتعبير عن مقاصده ومراميه. ففي رثاء أحبابه مثلاً ينادي الدهر قائلاً:

يا دهر رشقاً بكل نائبة قد انتهى العتب وانقضى العجب

رد يدي ما استطعت عن أربي لم يبق لي بعد موتهم أرب

كما يتفنن في المناجاة بوجدانه فينادي النظرة ووقفة الأحباب، كما ينادي نفسه ويشجعها على تحمل الآلام وينادي الشباب بقوله:

فمن يك ناسياً عهداً فإني لعهدك يا شباب غير ناس

فإن العيش بعدك غير عيش وإن الناس بعدك غير ناس

ففي مثل هذين البيتين تبرز ألفاظ الشريف الرضي مشخصة لتدفق العاطفة عنده. وقوافيه كالموسيقا الساحرة في تموجاتها، حيث تبقى أثراً عميقاً بموسيقاه البحتري شيخ النغم الشعري.

د - مكانته:

وإذا لا نستطيع أن نضع الشريف الرضي في صف المتنبي تفكيراً وانطلاقاً، ولا مع ابن الرومي تحليلاً للمعنى والتقصي فيه، ولا مع أبي تمام في فلتاته النادرة في انتقاء الأبيات الفذة الجذابة، إلا أنه يحوز النصيب الذي لا يستهان به من كل ميزاتهم المذكورة، ولكنه بزَّهم في الشعر الوجداني، مع الحذر الشديد فيما اعتور ابن الرومي بسبب إفراطه في التقصي والتحليل،

وما زلَّ به أبو تمام في المبالغة بالصنعة والتكلف، وما شاب شعر المتنبي من المبالغة غير المعقولة والمعاظلة الشديدة.

هـ - مؤلفاته:

وله عدة مؤلفات ضاع أكثرها ومن أهمها:

١ - كتاب المجازات في الآثار النبوية.

٢ - كتاب حقائق التأويل في متشابه التنزيل طبع بالنجف.

٣ - تلخيص البيان عن مجازات القرآن.

٤ - الخصائص.

٥ - وكتاب أخبار قضاة بغداد.

٦ - وجمع كتب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب.

٧ - وله ديوان كبير في الشعر جمعه عدة أدباء منهم أبو الحكم الخيري وطبع في بيروت سنة ١٣٠٧ هـ.

و - صنعة الشريف الرضي:

يكثر الشريف الرضي من مديح الخلفاء العباسيين لعصره وأمراء بني بويه ووزرائهم؛ إلا أنه يتوقر في مديحه ولا يسف إلى مغالاة أو غلو، بل يحتفظ بكرامته، وهي كرامة ترد إلى طيب محتده ومكانته في بيته وعصره، وكل من يقرأ ديوانه يحس الصلة واضحة بينه وبين المتنبي؛ فقد كان يحتذي شعره احتذاء، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر والاعتداد بنفسه، كما أكثر من نقد الأخلاق وأحوال المجتمع والناس من مثل قوله:

وخلائق الدنيا خلائق مومس ... للمنع آونة وللإعطاء

طورًا تبادلك الصفاء وتارة ... تلقاك تنكرها من البغضاء

واستمر يشكو من الدهر كأن يقول:

فأينَ من الدَّهرِ استماعُ ظلامتي ... إذا نظرتْ أيامُهُ في المظالمِ

ولم أدرِ أنَّ الـــدَّهرَ يخفـــضُ أهلَـــهُ إذا ســـكنت فـــيهم نفـــوسُ الـــضَّرَاغِمِ

وهي شكوى ترددت كثيرًا في هذا العصر عند الشريف وغيره من الشعراء؛ فقد كان هناك من الكآبة في الحياة الإسلامية العامة؛ بسبب ما أصابها من اضـطراب سـياسي واجتماعـي، مـا جعل الشعراء يرددون هذا اللحن، وكان الشريف من أكثر الشعراء ترديـدًا لـه متأسـيًا - كـما قلنا - في صنيعه بالمتنبي، وأكثرَ مثلَهُ من الحِكَم في شعره كقوله:

إذا أنـــت فتَّـــشْتَ القلـــوبَ وجـــدتَهَا قلـــوبُ الأعـــادي في جـــسومِ الأصـــادقِ

وأيضًا فقد قلَّده في غزله بالأعرابيات وما ينطوي معها من ذكر العِيس والبِيد كقوله:

وعجنـــا العـــيسَ توســـعنا حَنِينًـــا تُغَنِّينـــا ونوســـعها بكـــاء

وقوله:

حَيِّيـــــا دون الكثيـــــبِ مرتَـــــعَ الظَّبـــــي الرَّبيـــــب

ولهذه الغزليات حيز واسع في ديوانه، وهو يطبعها بطوابع من العفة والطهـر، ودائـمًا يـردد ذكر مواضع نجد والحجاز فمعشوقاته دائمًا حجازيات. وله في ذلك قطع رائعة مثل مقطوعتـه المشهورة.

يـــا ظبيـــةَ البـــانِ ترعَـــى في خمائلـــه ليهْنِـــك اليـــوم أن القلـــب مَرعَـــاك

وتوسع في هذا الموضوع كما توسع في الحكم؛ غير أنه ينبغي إذا ذكرنا المتنبي معه أن نـضعه في مرتبة متخلفة عنه؛ إذ يتفوق المتنبي عليه في جمال التعبير وقوته. وعلى كل حال كان الشريف يحاكي المتنبي ويلفِّق كثيرًا من معانيه وحكمه في نماذجه؛ وقد عـمَّ التلفيـق مـن حولـه في هـذه العصور؛ إذ نرى الشعراء يلفقون نماذجهم من الخواطر الموروثة والأفكار المطروقة.

ز - نماذج من شعره:

١ - كربلا كرب وبلا

قال وهو بالحاير الحسيني يرثي جده سيد الشهداء عليه السلام:

كـــربلا، لا زلـــت كربـــاً وبـــلا مـــا لقـــي عنـــدك آل المـــصطفى

كم على تربك لما صرعوا ... من دم سال ومن دمع جرى
كم حصان الذيل يروي دمعها ... خدها عند قتيلٍ بالظما
تمسح الترب على إعجالها ... عن طلى نحرٍ رميلٍ بالدما
وضيوف لفلاة قفرةٍ ... نزلوا فيها على غير قرى
لم يذوقوا الماء حتى اجتمعوا ... بحدى السيف على ورد الردى
تكسف الشمس شموساً منهم ... لا تدانيها ضياءً وعلى
وتنوش الوحش من أجسادهم ... أرجل السبق وإيمان الندى
ووجوهاً كالمصابيح، فمن ... قمر غاب، ونجم قد هوى
غيرتهن الليالي، وغدا ... جائر الحكم عليهن البلى
يا رسول الله لو عاينتهم ... وهم ما بين قتلى وسبا
من رميض يمنع الظل، ومن ... عاطشٍ يسقى أنابيب القنا
ومسوقٍ عاثرٍ يسعى به ... حلف محمول على غير وطا
متعب يشكو أذى السير على ... نقب المنسم، مجزول المطا
لرأت عيناك منهم منظرا ... للحشا شجواً، وللعين قذى
ليس هذا لرسول الله، يا ... أمة الطغيان والبغي، جزا
غارس لم يأل في الغرس لهم ... فأذاقوا أهله مر الجنى
جزروا جزر الأضاحي نسله ... ثم ساقوا أهله سوق الإما
معجلات لا يوارين ضحى ... سنن الأوجه أو بيض الطلى
هاتفاتٍ برسول الله في ... بهر السعي، وعشرات الخطى
يوم لا كسر حجابٍ مانع ... بذلة العين ولا ظل خبا
أدرك الكفر بهم ثاراته ... وأزيل الغي منهم فاشتفى

يـــا قتـــيلاً قـــوَّض الـــدهر بـــه ... عمـــد الـــدين وأعـــلام الهـــدى

قتلـــوه بعـــد علـــم مـــنهم ... إنـــه خـــامس أصـــحاب الكـــسا

وصريعـــاً عـــالج المـــوت بـــلا ... شـــد لحيـــين ولا مـــد ردا

غلُّـــوه بـــدم الطعـــن، ومـــا ... كفنـــوه غـــير بوعـــاء الثـــرى

مرهقـــاً يـــدعو ولا غـــوث لـــه ... بـــأبٍ بـــرٍّ وجـــدٍّ مـــصطفى

وبـــأمٍ رفـــع الله لهـــا ... علـــماً مـــا بـــين نـــسوان الـــورى

أي جـــد وأب يـــدعوهما ... جـــد يـــا جـــد أغثنـــي يـــا أبـــا

يـــا رســـول الله يافاطمـــة ... يـــا أمـــير المـــؤمنين المرتـــضى

كيـــف لم يـــستعجل الله لهـــم ... بـــانقلاب الأرض أو رجـــم الـــسما

لـــو بـــسبطي قيـــصر، أو هرقـــل ... فعلـــوا فعـــل يزيـــد، مـــا عـــدا

كـــم رقـــاب مـــن بنـــي فاطمـــة ... عرقـــت مـــا بيـــنهم، عـــرق المـــدى

واختلاهـــا الـــسيف حتـــى خلتهـــا ... ســـلم الأبـــرق، أو طلـــح العـــرى

حملـــوا رأســـاً يـــصلون عـــلى ... جـــده الأكـــرم طوعـــاً وأبـــا

يتهـــادى بيـــنهم لم ينقـــضوا ... عمـــم الهـــام، ولا حلُّـــوا الحبـــى

ميـــت تبكـــي لـــه فاطمـــة ... وأبوهـــا وعـــلي ذو العـــلى

لـــو رســـول الله يحيـــا بعـــده ... قعـــد اليـــوم عليـــه للعـــزا

معـــشر مـــنهم رســـول الله والـــ ... ـــكاشف الكـــرب إذا الكـــرب عـــرا

صـــهره البـــاذل عنـــه نفـــسه ... وحـــسام الله في يـــوم الـــوغى

أول النـــاس إلى الـــداعي الـــذي ... لم يقـــدم غـــيره لمـــا دعـــا

ثـــم ســـبطاه الـــشهيدان فـــذا ... بحـــسا الـــسم وهـــذا بـــالظبى

وعـــلي وابنـــه البـــاقر والـــصادق ... القـــول وموســـى والرضـــا

وعـــــلي وأبـــــوه وابنـــــه والـــذي ينتظـــر القـــوم غـــدا
يـــا جبـــال المجـــد عـــزاً وعـــلى وبـــدور الأرض نـــوراً وســـنا
جعـــل الله الـــذي نـــابكم ســـبب الوجـــد طـــويلاً والبكـــا
لا أرى حـــزنكم ينـــسى ولا رزءكـــم يـــسلى وإن طـــال المـــدى
قـــد مـــضى الـــدهر، وعفـــا بعـــدكم لا الحـــوى بـــاخ، ولا الـــدمع رقـــا
أنـــتم الـــشافون مـــن داء العمـــى وغـــداً ســـاقون مـــن حـــوض الـــروا
نـــزل الـــدين علـــيكم بيـــتكم وتخطـــى النـــاس طـــراً وطـــى
أيـــن عـــنكم للـــذي يبغـــي بكـــم ظـــل عـــدن دونهـــا حـــر لظـــى
لا تيأســـــــن فـــــــربما عظـــــم الـــــبلاء وفرجـــــا
قـــد ينـــسخ الخـــوف الأمـــا ن، ويغلـــب اليـــأس الرجـــا

٢ - الدنيا كثيرة الأزواج

إني إذا حلـــب الخيـــل لبانهـــا أمـــسيت أحلبهـــا دم الأوداج
خطبتنـــي الـــدنيا فقلـــت لهـــا ارجعـــي إني أراك كثـــيرة الأزواج

٣ - سيال اليدين

قال يمدح الطائع ويذم بعض أعدائه وذلك سنة أربع وسبعين وثلاثمئة:

أغـــار عـــلى ثـــراك مـــن الريـــاح وأســـأل عـــن غـــديرك والمـــراح
وأجهـــر بالـــسلام ودون صـــوتي منيـــع لا يجـــاوز بالـــصياح
وأهـــوى أن يخالطـــك الخزامـــى ويلمـــع في أباطحـــك الأقـــاحي
وكـــم لي نحـــو أرضـــك مـــن ميـــسر دفعـــت بـــه الغـــدو إلى الـــرواح
وهـــذا الـــدهر خفّـــض مـــن عرامـــي ورنـــق مـــن غبـــوقي واصـــطباحي
وقـــد كـــان المـــلام يطيـــف منـــي بمنجـــذب العنـــان إلى الجـــماح

تـــؤول النائبـــات إلى مـــرادي ... ويعطينـــي الزمـــان عـــلى اقتراحـــي
وعاليـــة الـــسوالف والهـــوادي ... تـــدافع في الأســـنة والـــصفاح
إذا استقـــصين غامـــضة الـــدياجي ... فقـــأت بهـــن عاشـــية الـــصباح
ومـــدرعٍ ســـموت لـــه مغـــذا ... وقـــد غـــرض المقـــارع بالرمـــاح
بنافـــذة تمطـــق عـــن نجيـــعٍ ... تمطـــق شـــارب المقـــر الـــصراح
وأخـــرى في الـــضلوع لهـــا هـــدير ... هـــدير الفحـــل قـــرب للقـــاح
فـــما لي تطلـــب الأعـــداء حـــربي ... ويـــصبح جـــانبي غـــرض اللـــواح
أبـــا هـــرم، وأنـــت تزيـــد ضـــيمي ... بـــأي يـــد تطـــامن مـــن طماحـــي
لحقـــت أبي نزاعـــاً في المعـــالي ... وعرقـــاً في الـــشجاعة والـــسماح
وأنـــت فـــما لحقـــت أبـــاك إلا ... كـــما لحـــق الـــذنابى بالجنـــاح
نميـــت مـــن العقـــول إلى المخـــازي ... كـــما ينمـــى الهريـــر إلى النبـــاح
فـــنحن نـــرى مكانـــك مـــن نـــزار ... مكـــان الـــداء في الأدم الـــصحاح
بنـــي مطـــر دعـــوا العليـــاء يطلـــع ... إليهـــا كـــل منـــدلق وقـــاح
ووللـــوا عـــن مقارعـــة المنايـــا ... ولقيـــان الململمـــة الـــرداح
أيخفـــى لـــوم أصـــلكم وهـــذي ... قـــرونكم تـــنم عـــلى الجـــراح
تعيرنـــا القبائـــل أن قطعنـــا ... قـــرائن عـــامر وبنـــي ريـــاح
وعلقنـــا مطامعنـــا بحبـــل ... تعلقـــه القلـــوب بغـــير راح
وكلهـــم يجـــرون العـــوالي ... محافظـــة عـــلى عـــشب البطـــاح
فبلـــغ ســـادة الأحيـــاء أنـــا ... ســـلونا بالغنـــا ضرب القـــداح
وعفنـــا القـــاع نـــسكنه وملنـــا ... عـــن الـــسمرات والـــنعم المـــراح
وطبقـــت العـــراق لنـــا قبـــاب ... نظللهـــا بـــأطراف الرمـــاح

نعلل بالزلال من الغوادي ... ونتخف بالنسيم من الرياح
وجاورنا الخليفة حيث تسمو ... عرانين الرجال إلى الطماح
نوجه بالثناء له مصونا ... ونرتع منه في مالٍ مباح
وسيال اليدين من العطايا ... مهيب الجد مأمون المزاح
إذا ابتدر الملام ندى يديه ... مضى طلقاً على سنن المراح
أمير المؤمنين أذال سيري ... ذرا هذي المعبدة الزراح
فكم خاض المطي إليك بحراً ... يموج على الأماعز والضواحي
سرابٌ كالغدير تعوم فيه ... ربا كغوارب الإبل القماح
وكم لك من غرام بالمعالي ... وهم في الأماني وارتياح
وأيام تشن بها المنايا ... عوابس يطلعن من النواحي
إذا ريع الشجاع بهن قلنا ... لأمر غص بالماء القراح
فلا نقل المهيمن عنك ظلا ... من النعماء ليس بمستباح
وواجهك الثناء بكل أرض ... معاونة لشكري وامتداحي

الباب السادس

النثر في العصر العباسي

أولاً - تصدّر النثر في العصر العباسي:

أ - اهتم العباسيون بالنثر الفني اهتماماً كبيراً لحاجة الدولة الجديدة، واتساع رقعتها ؛ ولم يتألق النثر العادي والعلمي والأدبي إلا في عهد ما يسمى بالدول المنقطعة - وإن كان قد احتل مكانه - التي هي حصاد هشيم الانحلال والتحلل الذي أصاب الدولة العباسية الكبرى.

ب - فالكاتبان الوحيدان اللذان عاشا في عهد بني أمية هما:

١ - عبد الحميد الكاتب، ثم قتل عبد الحميد مع مروان بن محمد آخر ملوك بني مروان.

٢ - وعبد الله بن المقفع، الذي بقي بعض الوقت في عهد العباسيين إلى أن لقي مصرعه، وتصل الدولة العباسية إلى أوج عظمتها في عهد الرشيد، ولم تكن الكتابة العربية أو النثر آنذاك في مرتبة عليا من الإجادة، وإنما بلغ النثر أرقى منزلة له بعد تشتت الدولة العباسية، وبعد احتلال بغداد من قبل بني بويه، بدأنا نسمع عن:

٣ - ابن العميد

٤ - والصاحب بن عباد والوزير المهلبي

٥ - وأبي إسحق الصابي

٦ - وأبي بكر الخوارزمي

٧ - وبديع الزمان الهمداني

٨ - وأبي حيان التوحيدي

٩ - وأبي الفتح كشاجم

١٠ - وأبي الفرج الببغاء

وهم أعلام النثر العربي الذي لم ينتج عصر من عصور الأدب اللاحقة فناً مثل فنهم أو عدداً مثل عددهم. وهكذا كانت الكتابة الفنية قد أصبحت ذات قواعد وأصول على يد عبد الحميد الكاتب وغيره من الكتاب كابن المقفع، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل

بن هارون، والحسن بن وهب، والجاحظ، والصولي، وابن قتيبة، وأبو حيان وابن العميد، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمداني، والخوارزمي، والثعالبي.

ج - فالعصر العباسي هو العصر الذهبي للكتابة الفنية؛ فقد نبغ فيه كبار الكتاب الذين جددوا في أساليب النثر ومعانيه، وفتحوا آفاقاً جديدة للكتابة.

د - وقد ارتفع شأن الكتَّاب في هذا العصر،

١ - فأصبح لكل خليفة أو وزير كاتب أو أكثر،

٢ - وأُنشئت لذلك الدواوين المتعددة،

٣ - بل إن بعض الكتاب قد وصل إلى الوزارة بسبب قدرته على الكتابة الفنية،

٤ - كما أن الكتابة قد حلت محل الخطابة في آخر العصر،

٥ - وأديلت دولة الشعر من الصدارة الأدبية.

هـ - وقد تعددت أنواع الكتابة في هذا العصر:

١ - فهناك الكتابة الديوانية مثل كتب البيعات وعهود الولاء، وكل ما يصدر عن ديوان الرسائل معبراً عن رأى الخليفة أو الوزير في شؤون الدولة العامة، وسميت بالديوانية نسبة إلى صدورها من "ديوان الرسائل".

٢ - وهناك الكتابات والرسائل الإِخوانية المتبادلة بين الكتاب في أمورهم الخاصة من مدح أو اعتذار أو تهنئة أو تعزية.

٣ - وهناك الرسائل الأدبية التي يكتبها الأدباء والبلغاء لإِبراز قدرتهم وإبداعهم كرسائل الجاحظ وابن العميد.

ثانياً - أقسام الكتاب في العصر العباسي:

ويقسم مؤرخو الأدب الكُتَّاب في العصر العباسي إلى أربع طبقات، لكل طبقة رجالها وميزاتها الفنية:

١ - الطبقة الأولى:

أ - وإمامها ابن المقفع.

ب – ومن أشهر رجالها:

١ – الحسن بن سهل،

٢ – وعمرو بن مسعدة،

٣ – وسهل بن هارون،

٤ – والحسن بن وهب.

وتمتاز هذه الطبقة

أ – بتنويع العبارة،

ب – وتقطيع الجملة،

ج – وتَوَخِّي السهولة،

د – والعناية بالمعنى،

هـ – الزهد في السجع.

٢ - الطبقة الثانية:

أ – وإمامها الجاحظ.

ب – ومن أشهر رجالها:

١ – الصولي،

٢ – وابن قتيبة،

٣ – وأبو حيان التوحيدي.

وقد تابعت هذه الطبقة الطبقة الأولى في كثير من أساليبها، لكنها تمتاز:

أ – بالاستطراد،

ب – ومزج الجد بالهزل،

ج – والإكثار من الجمل الاعتراضية،

د – وشيء من الإطناب لتحليل المعنى واستقصائه.

٣ - الطبقة الثالثة:

أ - وإمامها ابن العميد.

ب - ومن أشهر رجالها:

١ - الصاحب بن عباد،

٢ - وبديع الزمان الهمداني،

٣ - والخوارزمي،

٤ - والثعالبي.

ج - ومن خصائصها:

١ - السجع بجمل قصيرة،

٢ - والتوسع في الخيال والتشبيهات،

٣ - والإكثار من الاستشهاد.

٤ - وتضمين المعلومات التاريخية والطرائف الملح،

٥ - والعناية بالمحسنات البديعية.

٤ - والطبقة الرابعة:

أ - وإمامها القاضي الفضل.

ب - ومن أشهر رجالها:

١ - ابن الأثير،

٢ - والعماد الأصبهاني الكاتب.

وهذه الطبقة سارت على نهج الطبقة الثالثة في:

أ - السجع والإكثار من المحسنات البديعية، إلا أنها غلبت في ذلك وأغرقت في التورية والجناس،

ب - حتى أصبحت الكتابة عبارة عن ألفاظ منمقة مسجوعة،

ج – لكن ذلك كان على حساب المعنى.

ثالثاً - امتزاج الثقافات:

لقد طرأت في العصر العباسي تطورات جديدة على ما كان عليه النثر في الجاهلية وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي بفعل:

١ – امتزاج الثقافات الفارسية واليونانية والهندية،

٢ – النقل والترجمة والاقتباس،

٣ – إقامة العباسيين دولتهم معتمدين على العنصر الفارسي،

٤ – بناء هذه الدولة بالطريقة الفارسية من حيث إنشاء الدواوين والوزارات،

٥ – تنافس الكتاب في تقلد مناصب الدولة،

٦ – اشتراط فيمن كان يستوزر(يصبح وزيراً) أن يكون ممن يتميز بالكتابة الفنية.

رابعاً - العوامل التي أثرت في تطور النثر في العصر العباسي الأول:

أثّر في تطور النثر في الحياة العباسية مجموعة عوامل:

١ – ازدهار حركت الترجمة والتأثر بالآثار الأدبية الأجنبية والنظرات والأفكار البلاغية لدى الفرس واليونان والهند.

٢ – انتشار الوعاظ والقصاص والنساك في المسجد والساحات والتفاف العامة حولهم.

٣ – ظهور المذاهب الفلسفية وأقوال الحكماء في الثقافات الأجنبية في الأدب العربي.

٤ – احتدام الجدل الديني وقيام المناظرات بين الفرق الإسلامية.

فالعرب منذ العصر الجاهلي وهم يعرفون هذا الفن، وسبب عدم حفظ النثر في الأدب العربي هو:

١ – أن العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام لم يكن فيهم كتاب إلا قليل،

٢ – كان جميع العرب أهل حفظ، فإذا قال أحدهم مقولة حفظها الجميع،

٢ – أنه لم يكن لهم أوراق يقرؤون منها بل كانوا يحفظون ما يريدون إلقاءه.

الباب السادس

الفصل الأول

أساليب النثر وخصائصه

أ - أساليب النثر في العصر العباسي:

نظراً لتطور فن النثر في هذا العصر انطلاقاً من الحاجة لبعض فنونه (الرسائل الديوانية) أو (إظهار القدرة والتفنن في ذلك من خلال الرسائل الديوانية والإخوانية)، فإن الكتاب اهتموا بهذا الفن وصنعوا له طرقاً مختلفة، ولكنها تلتقي في نقطتين أساسيتين تظهران أسلوب النثر في ذلك العصر:

١ - إيصال المعنى الدقيق والطريف إلى القارئ.

٢ - إثارة الجمال في نفس القارئ والسامع.

وبذلك يكون أسلوب النثر قد انتهج طريقاً واضحاً لإيصال المعنى، وقد أوضح الجاحظ في مقدمة كتابه " البيان والتبين " هذا الطريق من خلال اعتماد النقاط التالية:

١ - فصاحة الألفاظ.

٢ - عدم تنافر الحروف.

٣ - أداء الألفاظ للمعاني الدقيقة.

٤ - اعتماد أسلوب البلاغة العربية في توصيل المعاني.

ومن هنا كانت الفنون الأدبية (أشكال الخطب الأدبي - والرسمي - والديواني)، والتي سنبحث فيها في هذا القسم:

ب - خصائص النثر:

بما أن كتاب النثر في العصر العباسي اطلعوا على ما كتب في النثر في المصادر العربية، كالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والمصادر الهندية واليونانية من خلال ما ترجم

من كتب فلسفية، فإنهم اعتمدوا في كتابة منثوراتهم على خلط الطريقتين العربية والأعجمية مما جعل النثر يتميز بخصائص مختلفة بين الكتاب، ويمكن حصرها بـ:

١ – استعمال الألفاظ المتوسطة التي تنفي الألفاظ المتوعرة والألفاظ السوقية الساقطة.

٢ – إيجاد ضرب من التلاؤم الموسيقي الذي يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتي وكلام البديع.

٣ – اعتماد مذهب السجع.

٤ – التركيز على تصنيع العبارة وترصيعها وزخرفتها.

٥ – اللجوء إلى المبالغات والتهويلات والاعتذار بكثرة العبارات المنمقة.

ملاحظة:

وقد وصل النثر في هذا العصر إلى درجة الاهتمام بالشكل أكثر من المضمون بحيث تبدو القطعة النثرية المكتوبة مقصودة لذاتها، يريد الكاتب أن يعبر عن مقدرته وموهبته فيها أكثر مما يريد أن يعبر عن معنى من المعاني التي يحتاجها الإنسان.

ج - أهم كتاب النثر في العصر العباسي:

برز من كتاب النثر في هذا العصر الجاحظ وابن المقفع وسهل بن هارون وأبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والحريري ؛ وقد اهتم ابن المقفع وسهل بن هارون بمذهب الصنعة في العصر العباسي، وترجع أهمية بن المقفع في النثر العربي إلى أنه يعد أفضل من نقل الثقافة الفارسية إلى العربية، وما نقل إلى الفارسية من ثقافات يونانية أو هندية، وقد ترجم كتاب "كليلة ودمنة " إلى أكثر من ثلاثين لغة كبرى لما لهذا الكتاب من أهمية كبيرة، وقد كان (جوته) يذكر أن طفولته عامرة بما ترجم عن العربية (كليلة ودمنة – ألف ليلة وليلة).

يقول ابن المقفع ناصحاً كتاب النثر:

"إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعاً في البلاغة، فإن ذلك دليل على العي".

ويقول أيضاً:

" عليك بما سهل من الألفاظ، مع التجنب لألفاظ السفلة (العامة)".

وقد سُئل ابن المقفع عن البلاغة؟ فقال: " التي إذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يحسن مثلها". وتأتي أهمية الجاحظ من كونه رئيساً من رؤساء المعتزلة وظاهرة فريدة من ظواهر العصر العباسي، وقد قال ابن العميد فيه: "الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة".

ويقول ابن العميد:" كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً".

ويظهر تمييز الجاحظ من خلال اهتمامه بألفاظه ومعانيه ودقة آرائه، والأدلة والبراهين التي يسوقها لإثبات القضية التي يتحدث عنها، إضافة إلى مقدماته ونتائجه المتأثرة بالمنطق والفلسفة والجدل والحوار.

يقول الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان:

"جنّبك الله الشبهة، وعصمك من الحية وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبباً، وحبّب إليك التثبيت وزيّن في عينيك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى".

فالألفاظ هاهنا منتخبة كقوله (جنّبك – الإنصاف – الحلاوة)، والعبارات مقطعة تقطيعاً صوتياً ؛ أما أبو بكر الخوارزمي فقد تحول النثر معه ومع نظيريه بديع الزمان والحريري إلى تصنيع معتمدين على السجع والترصيع والبديع. يقول أبو بكر الخوارزمي في كتابٍ أرسله إلى أبي محمد العلوي: "قرأت الفضل المسجّع فشغلني الاقتباس منه عن الجواب عنه"؛ أما بديع الزمان فقد تميز بإنشائه لفن جديد في الأدب العربي وهو فن المقامات، وأهم خصائص هذه المقامات:

١ – القصص القصيرة.

٢ – الحركة التمثيلية.

٣ – الاعتماد على شخصيتين وهميتين هما أبو الفتح الإسكندري وعيسى بن هشام.

الباب السابع
فن الخطابة
في العصر العباسي

أولاً - توطئة:

١ - ازدهر في بداية العصر العباسي فن الخطابة واضمحل شأنها في نهايته، والسبب في ذلك أن الخطابة ازدهرت دفاعاً عن حق العباسيين في الخلافة وتمكيناً لدولتهم، واضمحلت بعد ذلك بسبب احتجاب الخلفاء عن العامة، وزوال الداعي لها.

وكان للخطابة شأن كبير في أوائل العصر العباسي؛ فقد كانت الدولة الجديدة في حاجة إلى ترسيخ الملك وإثبات حق العباسيين في الخلافة، وكان الخلفاء العباسيون الأوائل كالسفاح والمنصور والمهدي خطباء مصاقع، فازدهرت الخطابة في ذلك العصر.

٢ - وكانت الخطبة تلقى على مسامع الناس لأغراض مختلفة:

أ - فهناك الخطب السياسية التي يلقيها الخلفاء والقادة في استقبال الوفود أو تحميس الجنود،

ب - وهناك الخطب الدينية التي تلقي في الأعياد والجمع،

ج - والخطب الاجتماعية في المدح أو الذم أو الاستعطاف أو العتاب.

٣ - وقد امتازت الخطابة في أول العصر العباسي:

أ - بجزالة الألفاظ،

ب - وعدم الالتزام بالسجع،

ج - وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف،

د - وغلبة الإِيجاز إلا ما تدعو الضرورة فيه إلى الإِطناب.

٤ - وأشهر خطباء هذه الفترة:

١ - السَّفاح،

٢ - والمنصور،

٣ - وداود بن علي،

٤ – وعيسى بن علي،

٥ – وخالد بن صفوان،

٦ – وشبيب بن شيبة،

٧ – وهارون الرشيد،

٨ – وجعفر الصادق،

٩ – ومحمد بن إبراهيم الملقب (جعفر الصادق).

٥ – ولما استقرت الدولة العباسية، وفشت العجمة، وسيطر الأعاجم من بويهيين وسلاجقة على الخلافة، ضعفت الخطابة، وقويت الكتابة، فلم يعد الخلفاء قادرين عليها كأسلافهم، فأصبحت الخطابة مقصورة على بعض المناسبات الدينية كالعيدين والجمعة، وقد أناب الخلفاء والحكام غيرهم فيها.

٦ – ثم ازداد الأمر سوءاً في آخر العصر العباسي، وضعفت الخطابة الدينية أيضاً، وأصبح خطباء المساجد يرددون خطب السابقين ويقرؤونها من كتبهم على المنابر، وأغلبها خطب مسجوعة متكلفة.

٧ – وكان العباسيون كأسلافهم الأمويين في بدايتهم قد اهتموا بالخطابة كخط دفاع أول:

أ – يسهم في دعوتهم أولاً،

ب – وتثبيت ملكهم ثانياً.

وقد اتضح ذلك في خطبة أبي العباس السَّفاح حين بويع بالخلافة في مدينة الكوفة، ولفت الانتباه إلى صلته بالرسول الكريم عليه السلام. يقول أبو العباس السَّفاح:

– "وزعم السبئية الضلاَّل أنّ غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم، بم؟ ولم؟ أيها الناس، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم..وبصّرهم بعد جهالتهم... وأنقذهم بعد هلكتهم...".

وخطبة عمه داود بن علي في أهل الكوفة حين كان والياً عليها لأبي العباس السَّفاح.

يقول داود بن علي:

- "شكراً شكراً، أما والله ما خرجنا لنحتفى فيكم زهىً ولا لنبتني قصراً، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أرخي له في زمامه حتى عثر في فضل خطابه، فالآن عاد الأمر في نصابه، وطلعت الشمس من مطلعها، والآن أخذ القوس باريها، وعادت النبل إلى النزعة، ورجع الحق إلى مستقرّه في أهل بينكم: أهل بيت الرأفة والرحمة".

٨ - وإذا كانت الخطابة في هذا العصر قد برزت سياسياً مع استلام العباسيين لمقاليد السلطة فإنها ضعفت بعد القضاء على الثورات التي قامت ضد العباسيين، وخاصة أن العباسيين كمُّوا الأفواه. وأخذوا الناس بالشدة، فضعفت الأحزاب، وصودرت الحريات السياسية، كذلك سرى الضعف إلى الخطابة الحفلية إذ وضع الأغنياء حاجزاً بينهم وبين الوفود التي كانت تأتي إلى بني أمية، واقتصرت على مناسبات زواج أو موت أحد أقاربه أو موت الخليفة نفسه.

- يقول الخطيب ابن عتبة المهدي يهنئه بالخلافة ويعزيه بأبيه المنصور:

"أجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين".

٩ - أما الخطابة الدينية في المساجد فقد بقيت مزدهرة يشارك فيها الخلفاء والولاة، ولم تضعف إلا عندما طلب الرشيد من الأصمعي أن يعد خطبة لابنه الأمين، وعندما طلب الرشيد نفسه إلى إسماعيل الرشيدي أن يُعد خطبة للمأمون ليخطبا بهما.

ثانياً - الخطابة الدينية في العصر العباسي الأول:

١ - ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارها في هذا العصر على نحو ما كان عليه الخلفاء والولاة يشاركون فيها خلال عصر بني أمية، حيث كان للولاة والخلفاء دور بارز في الخطابة الدينية إذ نجد للمهدي خطبة بارعة مأثورة، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة، على أننا نجد الرشيد يستن سنة كانت سبباً في أن تضعف الخطابة وتنزل بمستواها، إذ طلب إلى الأصمعي أن يعد لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدي وابن أخيه أحمد أن يعد خطبة مماثلة يخطب بها المأمون، وبذلك سن للخلفاء إن يخطبوا بكلام

غيرهم، وكان المأمون معروفاً بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة. وكان الولاة يجمعون بين الولاية والصلاة، ويظهر أنهم أخذوا مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم، وقد يندبون من يقوم مقامهم في الصلاة والخطابة.

٢ - وذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسي والي البصرة والكوفة بعهد المنصور والمهدي أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيِّرها، وهي خطبة قصيرة. ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء، فإنها أينعت في بيئة الوعاظ النساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة، وكان بعضهم يلم بمجالس الخلفاء لوعظهم، وأحياناً كانوا يستقدمونهم، فيعظونهم حتى يذكروهم بخشية عقاب الله، وبما يصورن لهم من زفر جهنم وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصي والسيئات.

ومن كبارهم الذين عرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدي الخلفاء ثلاثة، وهم: عمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي، وابن السماك واعظ الرشيد، ويروى أن عمرو بن عبيد دخل على أبي جعفر المنصور فقال له: عظني، فقال:(إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاستر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده)، فوجم أبو جعفر المنصور من قوله، فقال له الربيع حاجب المنصور: يا عمرو غممت أمير المؤمنين، فقال عمرو:((إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه)).

ودخل ابن السماك على الرشيد فقال له: عظني، فقال:((يا أمير المؤمنين، اتقِّ الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلين لا ثالث لهما: جنة، أو نار، فبكى هارون الرشيد حتى اخضلت لحيته.

ثالثاً - نماذج من الخطب العباسية:

١ - من خطب الخليفة المهدي العباسي:

(الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ورضي به من خلقه، أحمده على آلائه، وأمجده لبلائه وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه توكل راض بقضائه، وصابر لبلائه، وأشهد أن لا إله إلا الله

وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم واقتراب من الساعة إلى أمة جاهلة متخلفة أميّة، أهل عداوة وتضاغن، وفرقة وتباين، قد استهوتهم شياطينهم، وغلب عليهم قرناؤهم، فاستشعروا الردى، وسلكوا العمى، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها، ليهلك من هلك عن بينه، ويحيا من حيي عن بينة وإن الله لسميع عليم، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة، وأحثكم على إجلال عظمته، وتوفير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرب من رحمته وينجي من سخطه، وينال به ما لديه من كريم الثواب وجزيل المآب، فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب يوم توقفون بين يد الجبار، وتعرضون فيه على النار. فإن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور، واضمحلال وزوال وتقلب وانتقال، قد أفنت من كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم، من ركن إليها صرعته، ومن وثق بها خانته، ومن أمّلها كذبته، ومن رجاها خذلته عزها ذل وغناها فقر، والسعيد من تركها، والشقي فيها من آثرها، والمغبون فيها من باع حظّه من دار آخرته بها، فالله الله عباد الله والتوبة مقبولة، والرحمة مبسوطة، وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم وتندموا، فلا تنالون الندم في يوم حسرة وتأسف وكآبة وتلهف، يوم ليس كالأيام، وموقف ضنك المقام، وإن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله تبارك وتعالى، أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأرضى لكم طاعة الله وأستغفر الله لي ولكم).

- تحليل الخطبة:

تتضمن هذه الخطبة عدة أفكار:

أولاً: حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، والشهادة لله بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة، كما هو معلوم شرعاً في مقدمة الخطبة.

ثانياً: حاجة العرب إلى رسالة محمد ﷺ لما كانوا عليه من جهالة جهلاء وضلالة عمياء، تحكمت فيها العصبية القبلية وهانت الأنفس والدماء، والقوي يأكل الضعيف وعداوة مستحكمة فأصلح أحوالهم ونقلهم من الظلمات إلى النور.

ثالثاً: الوصية بتقوى الله وإنذار من عصى بعذاب الله الشديد، وبشارة من إطاعة بجنة عرضها السموات والأرض أعدها الله لعباده الصالحين يوم يقوم الناس لرب العالمين.

رابعاً: الإكثار من الشواهد القرآنية والتركيز على الوعد والوعيد والتحذير من الركون إلى الدنيا فهي دار غرور وبلاء وشرور.

خامساً: عدم الركون إلى الدنيا لتقلب أحوالها، وعدم الثقة بعطائها ونعيمها فهي إلى زوال وهي دار شرور وبلاء وغرور لا ترعى عهداً ولا تحفظ مودة كم من عزيز من أهلها ذل، وكم من غني افتقر.

سادساً: الحض على التوبة، وتحقيق شروط قبولها والمبادرة بالأعمال الصالحة، لنيل رحمة الله تعالى. لأن السعيد من ترك التعلق بالدنيا وآثر ما عند الله على ما سواه، والشقي من باع آخرته للحصول على نعيم زائل وجاه زائف.

سابعاً: التذكير بيوم القيامة يوم الحسرة والأسف والندامة.

ثامناً: الوصية في آخر الخطبة بالالتزام بكتاب الله، فهو أحسن الحديث وفيه أبلغ موعظة، والتذكير بطاعة الله تعالى.

تاسعاً: الإكثار من الشواهد القرآنية.

٢ - خطبة هارون الرشيد الخليفة العباسي:

خطب هارون الرشيد قائلاً: (الحمد لله نحمده على نعمته ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً، ونتوكل عليه مفوضين إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وإدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة بشيراً بالنعيم ونذيراً بين يدي عذاب أليم فبلغ الرسالة ونصح الأمة، وجاهد في الله فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام، وأوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات وفوزاً بالجنة ونجاة من النار، وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقي ويوم التنادي، يوم لا يستعيب من سيئة ولا يزداد من حسنة،(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كظمين ما للظالمين من حميم

ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) [غافر:١٨ - ١٩](واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)[البقرة:٢٨١] عباد الله إنكم لم تخلفوا عبثاً ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال:((لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له))، إنكم سفراء مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين، قال الله عز وجل وقوله الحق:(ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة) [الأعراف:١٥٦] وقال:(لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)[طه:٨٢] وإياكم والأماني فقد غرت وأوردت وأوبقت كثيراً حتى أكذبتهم مناياهم فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم، وصرف الآيات، وضرب الأمثال، فرغب بالوعد وقدَّم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والشعائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لا تدفعون عنهم، ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى إعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، إن أحسن الحديث وأبغ الموعظة كتاب الله عز وجل (وإذا قرىء القرءان فاستمعوا له، وأنصتوا لعلكم ترحمون) [الأعراف:٢٠٤] آمركم بما أمر الله، وأنهاكم عما نهى الله عنه، وأستغفر الله لي ولكم)

- تحليل الخطبة:

يلاحظ إن الخطبة لا تخلو من طول، وتتضمن باقة من الأفكار:

أولا: بدأ الخطبة بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله مع الشهيد.

ثانيا: تشبه إلى حد كبير خطبة أبيه الخليفة المهدي وتنطوي على الأفكار نفسها تقريبا حيث تضمنت حاجة البشرية عامة والعرب خاصة إلى رسالة النبي ﷺ التي جاءت على فترة من الرسل.

ثالثا: الوصية بالتقوى لأنها أساس الإيمان ومفتاح النجاة عند الله، وبها تنال رحمة الله.

رابعا: التحذير من كربات يوم القيامة، والحث على طاعة الله تعالى التي بها ينال العبد الفوز بالجنة، والحذر من المعاصي التي تهلك صاحبها وترديه في النار.

خامسا: الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ضرب لعباده الأمثال ورغب عباده بالوعد، وحذرهم بالوعيد.

سادسا: الحذر من أماني الشيطان التي تقوم على الغرور والتعلق بالدنيا وذلك رأس كل خطيئة.

سابعا: الحث على التوبة الصادقة والوفاء بالعهود والوعود وأهمها الوفاء بعهد الله وعهود الناس لأنها أساس الدين وأداء الأمانات لأهلها وعلى رأسها أمانة التكليف التي اخذ الله ميثاقها على عباده عندما كانوا في الأصلاب.

ثامنا: كثرة الاستشهاد من القرآن الكريم والدعوة إلى الالتزام به، والاعتصام بهديه.

٣ - خطبة المأمون الخليفة العباسي يوم الجمعة:

خطب فقال:(الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه، ومستوجبه على خلقه،أحمده واستعينه وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا اله إلا لله وحده لا شريك له، وأشهد إن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده والعمل لما عنده، والتنجز لوعده والخوف لوعيده، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بإعمالكم، وابتاعوا ما يبقي بما يزول عنكم، وترحلوا فقد جد بكم، واستعدوا للموت فقد أظلكم، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت إن ينزل به، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادما يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة، فاتقى عبد ربه ونصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته، فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون

عنها، فيالها حسرة على ذي غفلة إن يكون عمره عليه حجة أو تؤديه أيامه إلى شقوة. نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعته غفلة، ولا تحل به بعد الموت فزعة، إنه سميع الدعاء بيده الخير، إنه فعال لما يريد

- تحليل الخطبة:

يلاحظ إن التشابه كبير في خطب الخلفاء العباسيين:

أولا: حمد اله والثناء عليه والتشهد وهذا من أركان الخطبة.

ثانيا: الوصية بالتقوى والعمل لما عند الله ابتغاء مرضاته للفوز بجنته والنجاة من ناره.

ثالثا: العظة بحدث الموت لأنه قضاء مبرم على الخلائق والاستعداد لما بعده.

رابعا: التحذير من الركون إلى الدنيا وزينتها لأن فتنتها كبيرة ومهلكة وإنها ليست دار إقامة، والله سبحانه لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركم سدى.

خامسا: الترغيب بالجنة والعمل لها ليكون من أهلها، والترهيب من الغفلة عن العمل للآخرة.

سادسا: التحذير من خداع الشيطان وحيله فهو عدو لبني آدم يزين لهم المعاصي ليركبوها ويمنيهم بالتوبة ليؤجلها لكن الموت يباغتهم وحينئذ لا ينفع الندم وتكون أيام العمر حجة على الغافلين فيا لها من حسرة تغم صاحبها وتدفعه إلى دار الشفاء.

سابعا: ختم الخطبة بالدعاء له وللمسلمين وسال الله تعالى إلا تبطره النعم ولا تقصر به عن طاعة الله تعالى.

رابعاً - الخطابة الدينية في العصر العباسي الثاني

أ - إذا كانت الخطابة الدينية ضعفت على السنة الخلفاء، فإنها نشطت في المساجد، حيث كانت تعقد حلقات للوعاظ والقصاص، وكان الناس يتحلقون من حولهم، وكان منهم الرسميون الذين تعينهم الدولة للخطابة في أيام الجمع، ومنهم غير الرسميين وهم الجمهور الأكبر، وكانوا يستمدون وعظهم وخطبهم من:

١ - القرآن الكريم

٢ – والحديث النبوي الشريف

٣ – وقصص الأنبياء والمرسلين،

ب – ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره

ج – وكثير منهم يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين، من مثل: أبي العباس الطبري الذي كان يذهب إلى الجهاد، ويتولى أمر الوعظ والإرشاد للجند ؛

د – وكثيرا ما كانت الخطب والمواعظ تنشط في رمضان، فلا يخلو يوم من أيام رمضان ولا وقت من أوقات الصلاة فيه إلا وكان واعظ يقوم بعد الصلاة فيقف في الناس واعظا وخطيبا،

ه – وكان الخطيب هو الذي يقوم بالخطابة والموعظة وإقامة الصلاة في الجمع والأعياد، وكان كثير منهم فصحاء بلغاء يستحوذون على إعجاب الجماهير فيحتشدون حولهم مكبرين لهم إكبارا عظيما، وكانت المساجد دائما مفتوحة ليلا نهارا تغص بالمصلين وحلقات التدريس تستقطب روادها من طلبة العلم.

و – ومن الجدير بالذكر أن الخطابة في هذا العصر كانت تمر بأطوار متفاوتة ما بين خمود وازدهار.

١ – فقد كانت مزدهرة في الطور الأول من العصر العباسي الثاني،

٢ – لكنها غدت في الطور الثاني الذي استبد فيه الأتراك بالخلفاء وهان شأنهم وفقد كل سلطان لديهم وقطعت الصلة بينهم وبين الناس. فلم يعد لهم أي أثر في الحياة، وحجبوا عن شعبهم وماتت أسباب الفصاحة والقول والخطابة في المناسبات المختلفة، وبلغ تحكم الأتراك بالخلفاء إلى درجة منعهم من الخروج إلى الصلوات الجامعة، وأوكلوا مهمة الخطابة إلى غيرهم من العلماء

ز – وكان آخر خليفة خطب على منبر هو ((الراضي بالله)) المتوفى ٣٢٩هـ، وازداد الأمر سوءا ومعه الخطابة الدينية تراجعا في عهد البويهيين ٣٢٤هـ، وعهد السلجوقيين ٤٤٧هـ

ح – فقدت الخطابة أهم مقوماتها وهي: – حرية القول – التي بها تحيا، وبما أن البويهيين والسلاجقة أعاجم لم يتذوقوا جمال اللغة العربية ولم يفهموا حقيقة الدين من خلال كتاب الله الذي أنزل بلسان عربي مبين، لذلك لم يولوا اهتماما كبيرا باللغة العربية، فتوارت الفصاحة وتوارى البيان رويدا رويدا وعجزت الألسنة عن المشافهة والارتجال في الخطابة الدينية، فضعف شانها وهانت مكانتها لفقدان تأثيرها في النفوس، وهان معها شأن الخطيب وازدادت هوانا إذ صار الخطيب يلجا إلى الكلام أعده غيره ومن إعداده أحيانا ويلقي خطبته من أوراق مكتوبة، واعتمد الخطيب في خطب الجمعة والعيدين على السجع المتكلف والإغراق في المبالغة، فصارت فارغة من الروعة والتأثير،لكن الأمر لم يستمر على هذا الحال، فقد تبدلت الظروف السياسية والأحوال العامة حيث تعرض العالم الإسلامي إلى عدوان الحروب الصليبية فشنوا حملاتهم المتوالية على بلاد الشام ومصر وشطرا من العراق.

خامساً - خصائص الخطابة في هذه المرحلة:

تميزت الخطابة في هذا العهد:

١ - **الاقتباس من القرآن الكريم:** لتأكيد ما يذهب إليه الخطباء من حمل النفوس على الجهاد والصبر على ملاقاة الأعداء وما أعده الله لهم من الجنة وعظيم المنزلة،

٢ - **الاستشهاد بالشعر:** كما فعل ((ابن نجا)) فقد كان ينشد على المنبر ما يصلح للاستشهاد به من شعره كقوله:

وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب

وكما في خطب ((سبط ابن الجوزي)) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ، وقد طلب إليه في يوم عاشوراء أن يتحدث عن مقتل الحسين بن علي ﷺ، فصعد المنبر وطال صمته ثم بكى بكاء شديدا، ثم أنشأ يقول في غمرة البكاء:

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه والصور في نشر الخلائق ينفخ

لابد أن ترد القيامة فاطمه وقميصها بدم الحسين ملطخ

٣ - **الإصرار على السجع والتهافت على المحسنات البديعية:**

٤ - تحبير الألفاظ:

٥ - واختيار الأساليب

هـ - أشهر الخطباء في هذا العصر:

١ - الخليفة المهدي

٢ - هارون الرشيد

٣ - المأمون.

الباب الثامن
الموعظة التقوية

رداً على ظهور تيار المجون والفسق في العصر العباسي، ازدهر في المساجد فن الوعظ وتبنّاه مجموعة من الوعاظ والنساك والزهاد والفقهاء والمتحدثين والمتكلمين، وكان هؤلاء الوعاظ يجلسون في مجالس الخلفاء يذكرونهم بمخافة الله وعدم ظلم الرعية، وعدم افتراق المعاصي. كما كانوا يحدثون عامة الناس بدروس الإرشاد، ومن زعماء الوعاظ:

١ – عمرو بن عبيد المعتزلي

٢ – صالح بن عبد الجليل واعظ المهدي

٣ – ابن السمّاك واعظ الرشيد.

٤ – ابن عبد الجليل، وقد كان يطيل في وعظ المهدي حتى يبكيه ومن ذلك قوله:

((... كان أصحاب رسول الله يقولون: من حجب الله عنه العلم عذّبه على الجهل، وأشدُّ منه عذاباً من أقبل إليه العلم فأدبر عنه. فاقبل ما أهدى إليك الله من ألسنتنا)).

ويقول ابن السحّاك واعظاً الرشيد:

("يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده.....واعلم أنك واقف غدا مبين يدي الله، مصروف إلى إحدى المنزلتين)".

وقد اعتمد الوعاظ في محاولاتهم الوعظية على ركائز أسهمت في ايصال الوعظ إلى المتلقين، وذلك باستخدام أشياء متعددة تحمل في طياتها العبرة للمتعظين كالقصص الديني، والقصص الواقعي المستمد ممن تجارب المعاصرين للوعاظ أو تجارب العصور السابقة لهم، وقد كثر هؤلاء القصاص، وعقد لهم الجاحظ فصلا في كتابه:"البيان والتبين".

الباب التاسع
القصص

أولاً - رؤى وأبعاد:

القصة فن من الفنون المهمة في الخطاب الأدبي على مورِّ العصور، وقد برزت ثلاثة أنواعا من القصص في هذا العصر:

أ - القصص الديني: وقد اعتمد القصاص في محاولاتهم الوعظية على ركائز أسهمت في ايصال قصصهم إلى المتلقين، وذلك باستخدام أشياء متعددة تحمل في طياتها العبرة للمتعظين

ب - القصص الواقعي المستمد ممن تجارب المعاصرين لكتاب ذلك العصر، أو تجارب العصور السابقة لهم،

ج - القصص المترجم عن الهندية أو الفارسية،كقصص الفيلسوف بيدبا التي ترجمت عن الهندية إلى الفارسية، ثم ترجمها ابن المقفع إلى العربية

وقد كثر هؤلاء القصاص، وعقد لهم الجاحظ فصلا في كتابه:"البيان والتبين".

ومن هؤلاء القصاص:

موسى بن سيار الأسواري، وكان يقص باللغتين العربية والفارسية،

وصالح المريّ الذي يقول في إحدى مواعظه معزيا عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة في موت ابنه("....إن كانت مصيبتك في ابنك أحدثت لك عظة في نفسك، فنعم المصيبة مصيبتك،وإن لم تكن أحدثت لك عظة في نفسك، فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ابنك").

وقد ارتقى هؤلاء الوعاظ بصناعة النثر وطوروها من حيث المعاني وأضافوا لها معاني جديدة معتمدين لتحسين أساليبهم على:

١ - الدقة في اختيار اللفظ.

٢ – الإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة.

ثانياً - القصص المترجم:

- كليلة ودمنة:

يقسم المؤرخون كتاب **كليلة ودمنة** إلى قسمين،

١ – أحدهما: يذهب إلى ابن المقفع هو الذي وضع هذا الكتاب وأداره على ألسنة الحيوانات ليدفع عن نفسه تهمة تأديب الملوك وعلى رأس القائلين بهذا الرأي ابن خلكان،

٢ – والقسم الثاني يرى أن ابن المقفع لا يعدو أن يكون مترجماً لما في هذا الكتاب من قصص عن اللغة الفارسية التي ترجمت بدورها عن اللغة الهندية وحجة هؤلاء تعتمد على عناصر مستنبطة من الكتاب نفسه، فهو يتحدث عن عادات هندية ويذهب بعض الدارسين إلى أن الكثير من قصصه موجود في السفرين الكبيرين للحضارة الهندية: " المهابهارتا " و"وبنج تترا " أي خمس مقالات كما يؤيد هذا الفريق رأيه بأن البيروتي وهو عالم ومؤرخ موثوق به يشهد بهندية هذا الكتاب كما أن الفردوسي في الشاهنامة"، يؤكد رحلة الفيلسوف الفارسي " بروزيه " إلى الهند لجلب هذا الكتاب. وقصة تأليف الهنود لهذا الكتاب قصة طويلة، تتفاوت المصادر في ذكر تفاصيلها، خلاصتها: (أن ملكاً من ملوك الهند يسمى – دبلشيم – طغى وبغى في رعيته، فانتخب جماعة من البراهمة حكيماً منهم وطلبوا أن يلتمس من الملك أن يعدل سيرته في رعيته، فلما تصدى له بالوعظ اغتاظ منه وسجنه وفي ليلة سهاد تذكر وعظه فأمر بإخراجه من السجن وتقريبه لبلاطه ومنادمته، فأعجب بنصائحه وأكبر عقله، فطلب منه أن يؤلف كتاباً له دله على مخططه إذ قال: أحببت أن تصنع لي كتاباً تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها على طاعة الملك. وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية. قال: قد أجبت الملك، قال: وكم الأجل؟، قال: سنة. قال: قد أجلتك. وأمر له بجائزة سنية، ثم وضعه مع تلميذ له على لسان بهيمتين، ورتب فيه خمسة عشر باباً، وسماه كليلة ودمنة، وأداره على ألسنة الحيوانات ليكون ظاهره لهواً للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وضمنه ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة لنفسه وأهله وخاصته، وما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه فأقر الملك هذا الكتاب وأمر بالمحافظة عليه). ويقال إن كسرى

أنوشروان بن قباذ كان أكبر ملوك الفرس وأحبهم للعلوم والآداب قد علم بهذا الكتاب، وعلم قيمته فنشط لاقتنائه، وأرسل أحد أطبائه الفيلسوف " بروزيه بن أزهر) فاحتال للكتاب حتى حصل عليه، وسلمه لكسرى، فأمر كسرى وزيره - بزر جمهر " أن يقرظه وأن يثبت هذا التقريظ في أول الكتاب منوهاً فيه ببروزيته، فألحق هذا التقريظ بالكتاب فكان مقدمة الكتاب له، ثم عندما وقع بين يدي ابن المقفع وضع باباً بين فيه غرض الكتاب قال فيه: هذا الكتاب كليلة ودمنة، وهو ما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو والذي أرادوا، ولم تزل العلماء من كل أمة ولسان يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، في إظهار ما لديهم من العلوم والحكم، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم، ثم تحدث ابن المقفع عن خطة هذا الكتاب ومضمونه فقال: وأما الكتاب فجمع حكمة ولهواً، فاختاره الحكماء لحكمته، والأغرار للهوه والمتعلم من الأحداث ناشطاً في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره، فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، والرموز التي رمزت فيه، وإلى أية غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم وأضلعه إلى غير مفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالها، فإن قارئه متى لم يعقل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب (كليلة ودمنة) وواضح من بعض ما تقدم أن الكتاب موضوع في أصله باللغة الهندية وأن الباب الثاني من قد وضعه الوزير بزر جمهر تقريظاً لجهود الفيلسوف الطبيب بروزيه، الذي حصل عليه وترجمه للفارسية وأن الباب الثالث من صنع ابن المقفع الذي اتخذ من كلامه في هذا الباب توطئة للدخول في ترجمته ومن هنا ندرك أن أصل الكتاب هندي، وقد ألحقت به عقول الأمم الأخرى إضافات لم تكن في الأصل الهندي نفسه. صحيح أن اسم الكتاب اقترن باسم مترجمه ابن المقفع، ولكن يبدو أن محاولات أخرى غير ابن المقفع قد ترجمته إلى العربية، فقد ذكر ابن النديم في فهرسته أن غير ابن المقفع نقله إلى لسان العرب، وكذلك ذكر " حاجي خليفة " أن من اسمه (عبد الله بن هلال الهوازي) نقله إلى العربية أيضا. ومنذ أن نقل الكتاب إلى العربية أخذ الكتاب يتسرب إلى لغات الأمم الأخرى فقد نقل

إلى السريانية في القرن العاشر الميلادي، وإلى اليونانية سنة ١٠٨٠ م ومنه إلى الإيطالية والسلافية، ثم رجع إلى الفارسية القرن السادس، ومنها إلى التركية القرن العاشر والفرنسية في ١٧٣٤ كما نقل إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر والإسبانية ١٢٥١ ثم ترجم إلى العربية ١٢٧٠ ومنها تفرع إلى ثلاث لغات أساسية الأولى الألمانية وهذه بدورها أعطته إلى الدانمركية والهولندية والثانية الإسبانية التي أعطته للإيطالية ١٥٤٨ والثالثة الإيطالية ١٥٥٢ التي أعطته للانكليزية سنة ١٥٧٠، من هذه الرحلة لكتاب كليلة ودمنة ندرك قيمة الترجمة العربية التي فتحت أمام الكتاب نوافذ كثيرة لم يكن ليبلغها لو ظل نزيلاً في شبه القارة الهندية. وقد نال الكتاب عناية أخرى غير العناية للترجمة به، من قبل النظام والشعراء، فقد قيل: إن الفرس نظموه شعراً ؛ أما العرب، وهم أهل النظم فقد تنافسوا في نظمه، فنظمه إبان اللاحقي، وعلي بن داوود كاتب زبيدة وسهل بن نوبخت، وبشر بن المعتمر، وابن الهبارية في كتابه " الصادح والباغم " وغيرهم كثيرون مثل عبد الرحمن الصاغاني، وابن مماتي المصري، وجلال الدين النقاش.

أما الذين فتنوا بهذا الكتاب وعبروا عن فتنتهم بانتزاعات بعض حكمه أو بمعارضته فكثيرون أيضا، منهم سهل بن هارون، عارضه بكتاب " ثعلة وعقرة " وسلم صاحب بيت الحكمة والمريد الأسود، الذي استدعاه المتوكل في أيامه من فارس، ويقال أن أبا العلاء المعري عارضه بكتابه المسمى " القائف " والذي شرحه بكتاب آخر سماه " منار القائف " كما يعزى إلى ابن ظفر بأنه عارضه أيضاً في كتابه " سلوان المطلع في عدوان الأتباع " وخاتمة المطاف معارضة أحمد بن عربشاه في كتابه (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء). وأما أبوابه فهي كما أشرت تتراوح بين اثني عشر بابا وإحدى وعشرين باباً، على اختلاف في طبعاته ولعل هذا التفاوت في عدد الأبواب له تفسير آخر. وهو أن بعض النسخ تقسم الباب الواحد إلى بابين وتعطي لكل باب اسماً مستقلاً لذا يزداد عدد الأبواب وينقص.

الباب العاشر
المناظرات

وهي المحاججات التي وقعت بين أصحاب الكلام والعلم والفلسفة والدين، ولقد أسهمت هذه المناظرات التي كانت تعقد بين العلماء والمحدثين والفقهاء والفلاسفة في إغناء وتطور الثقافة الإسلامية تطوراً كبيراً من حيث الطريقة والأسلوب ومن حيث المعنى والفهم. وتعد فرقة المعتزلة من الفرق التي أسهمت في تنشيط هذه الحركة الثقافية وعلى رأس هؤلاء المعتزلة "واصل بن عطاء – عمرو بن عبيد". ونهض النثر العباسي من خلالهما نهضة رائعة حتى إنّ المتكلم كما يقول الجاحظ لا يعد جامعاً لأقطاب الكلام إن لم يحسن كلام الدين والفلسفة والعلوم الأخرى. وقد عقدت هذه المناظرات في العصر العباسي رداً على الملحدين والزنادقة من جهة، وتفنيداً لدور العقل في الدين وإرساء لمبدأ أحقية الخلافة، وكانت هناك نظريات كلامية في الروح والنفس والحواس والجسم والخير والشر والاستطاعة، والقدر ثم انتقلت هذه المناظرات من الجانب الديني إلى الجانب النحوي كما حدث بين الكسائي الكوفي وبين البصري. وقد شجع الخلفاء أصحاب العلم في المناظرات فكانوا يعقدون لهم المجالس، كما صنع البرامكة وعلى رأسهم يحيى بن خالد البرمكي، وكما صنع المأمون، وكما حصل في عصر المعتصم من جدال حول مسألة خلق القرآن.

وقد تحدث المسعودي عن هذه المناظرات وذكر من أصحابها: أبا هذيل العلاف – أبا اسحق ابراهيم بن سيّار النظام.

وكانت الخلافة تجري عليهم الرواتب الشهرية، وكانت معظم المناظرات تدور بين المعتزلة ومن يعتنقون التشيع الغالي وأرباب الملك السماوية، والنحل غير السماوية من الدهرية والمانوية.

يقول أبو هذيل العلاف في مناظرته لأحد اليهود:

"أسألك أم تسألني؟ فقال له اليهودي: بل أسألك فقال اليهودي: أتعترف بأن موسى نبيٌ صادق أم تنكر ذلك، فقال له أبو هذيل: إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بنبيي عليه السلام، وشهد بنبوته وصدقه فهو نبي صادق، وإن كان غير من وصفت فذلك شيطان لا أعترف بنبوته".

وقد عقد أهل المناظرات مناظرة بين الكلب والديك فذكروا مساوئ الديك ومحاسنه، ومحاسن (منافع) الكلب ومساوئه.

أ - نماذج من المناظرات:

أولاً - المناظرات الشعرية:

١ - مناظرة أبو تراب والشريف العباسي

اجتمع يوما أبو تراب هبة الله بن السريجي والشريف العباسي وكانا شاعرين - فقال أبو تراب:

أسلوت حب بدور أم تتجلد ... وسهرت ليلك أم جفونك ترقد

فأجاب الشريف بديهاً:

لا بل هم ألفوا القطيعة مثل ما ... ألفوا نزولهم بها فتبعدوا

فقال أبو تراب:

فإلام تصبر والفؤاد متيم ... ولظى اشتياقك في الحشى يتوقد

فأجاب الشريف:

ما دام لي جلد فلست بجازع ... إذ كان صبري في العواقب يحمد

فقال أبو تراب:

أحسنت: كتمان الهوى مستحسن ... لو كان ماء العين مما يجمد

فأجاب الشريف:

إن كان جفني فاضحي بدموعه ... أظهرت للجلساء إني أرمد

فقال أبو تراب:

فهب للدموع إذا جرت موهتها ... فيقال لم أنفاسه تتصعد

فأجاب الشريف:

امشي وأسرع كي يظنوا أنها ... من ذلك المشي السريع تولد

فقال أبو تراب:

هذا يجوز ومثله مستعمل ... لكن وجهك بالمحبة يشهد

فأجاب الشريف:

إن كان وجهي شاهدا بهوى فما ... يدري إلى من بالمحبة أقصد

فقال أبو تراب:

اخضع وذل لمن تحب فليس في ... حكم الهوى انف يشال ويقعد

فأجاب الشريف:

ذا لا يكون مع الحبيب وإنما ... مع ساقط متحيل يتعمد

ثانياً - المناظرات النثرية

١ - مناظرة المنصور والربيع بن يونس

قال سعيد بن مسلم بن قتيبة دعا المنصور بالربيع فقال: سلني ما تريد؟ فقد سكت حتى نطقت وخففت حتى ثقلت، واقللت حتى أكثرت، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما أرهب بخلك، ولا أستقصر عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتنم مالك وإن يومي بفضلك على أحسن من أمسى، وغدك في تأميلي أحسن من يومي ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني في ذلك أحد.

قال صدقت. علمي بهذا منك أحلك هذا المحل، فسلني ما شئت؟؟

قال: أسالك أن تقرب عبد (الفضل) وتؤثره وتحبه.

قال: يا ربيع أن الحب ليس بمال يوهب ولا رتبة تبذل، وإنما تؤكده الأسباب.

قال: فاجعل لي طريقا إليه بالتفضل عليه.

قال: صدقت. وقد وصلته بألف ألف درهم ولم أصل بها أحداً غير عمومتي لتعلم ما له عندي، فيكون منه ما يستدعي به محبتي. وكيف سألت له المحبة يا ربيع؟

قال: لأنها مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر، تستتر عندك عيوبه وتصير حسناتك ذنوبه.

قال: صدقت وأتيت بما أردت.

٢ - مناظرة معن بن زائدة والأسود

روى مروان بن أبي حفصة عن معن بن زائدة أنه قال: لما جد المنصور في طلبي وجعل لمن يحملني إليه مالاً، اضطررت لشدة الطلب أن تعرضت للشمس حتى لوحت وجهي وخفقت عارضي ولبست جبة صوف، وركبت جملا وخرجت متوجها إلى البادية لأقيم بها، فلما خرجت من باب حرب وهو أحد أبواب بغداد، تبعني أسود متقلد سيفاً، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على يدي فقلت له: ما بك؟ فقال: أنت طلبة أمير المؤمنين، فقلت: ومن أنا حتى أطلب؟ فقال: أنت معن بن زائدة، فقلت له يا هذا، اتق الله عز وجل وأين أنا من معن؟ فقال: دع هذا فإني والله لأعرف بك منك، فلما رأيت منه الجد قلت له: هذا عقد جوهر قد حملته بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بي فخذه ولا تكن سبباً لسفك دمي، قال: هاته فأخرجته إليه، فنظر إليه ساعة وقال: صدقت في قيمته، ولست قابله منك حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك، فقلت: قل، قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قط؟ قلت: لا، قال: فنصفه؟ فقلت: لا، قال: فثلثه؟ قلت: لا، حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت: أظن أني قد فعلت هذا، قال: ما ذاك بعظيم، أنا والله راجل ورزقي من أبي جعفر المنصور كله عشرون درهماً، وهذا الجوهر قيمته ألوف الدنانير، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في هذه الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة.

فقلت: يا هذا قد والله فضحتني ولسفك دمي عليَّ أهون مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فإني غني عنه، فضحك وقال: أردت أن تكذبني في مقالي هذا، والله لا أخذته ولا آخذ لمعروف ثمناً

أبداً، ومضى لسبيله فو الله لقد طلبته بعد أن أمنت، وبذلت لمن يجيء به ما يشاء، فما عرفت له خبراً وكأن الأرض ابتلعته.

٣ - مناظرة المأمون والمرأة المتظلمة:

جلس المأمون يوماً للمظالم فكان آخر من يقدم إليه - وقد همَّ بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه فقالت: (السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته)، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت:

يا خير منتصف يهدي له الرشد ... ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عماد القوم أرملة ... عدا عليها فلم يترك لها سبد
وابتز مني ضياعي بعد منعتها ... ظلماً وفرق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد ... عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

وفي الموعد المقرر حضرت المرأة: (السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فقال: وعليك السلام أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه فقال: يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها وأخرسه. ثم قضى لها بردِّ ضيعتها إليها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوفِّر لها ضيعتها، ويحسن معونتها وأمر لها بنفقة.

٤ - مناظرة إبراهيم بن المهدي - وابن بختيشوع

قال العتبي: تنازع إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي داود في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد، فأربى عليه إبراهيم السلام وأغلظ له، فأغضب ذلك ابن أبي داود فقال: يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم امرأً، فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد، وليكن قصدك أمماً وريحك ساكنة وكلامك معتدلاً ووفِّ مجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقير واستكانة والتوجه إلى الواجب، فإن ذلك أشبه بك، وأشكل بمذهبك في محتدك، وعظيم خطرك ولا تعجلن فرب عجلة تهب ريثاً، والله يعصمك من خطل القول والعمل ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم.

فقال إبراهيم: أصلحك الله أمرت بسداد وحضضت على رشاد، ولست عائداً إليَّ الاعتذار، فها أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه معترف بجرمه، ولا يزال الغضب يستفزني ببوادره فيردني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلت حقي في هذا العقار لابن بختيشوع، فليت ذلك يكون وافياً بأرش الجناية عليه ((ولم يتلف مالٌ أفاد موعظة)) وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثالثاً - المناظرة السياسية

- مناظرات المهدي ومشاورته لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا ببيعتهم ونقضوا موثقهم وطردوا العمال، والتووا بما عليهم من الخرج، وحمل المهدي ما يحب من مصلحتهم ويكره من عنتهم، على أن أقال عثرتهم واغتفر زلتهم واحتمل دالتهم تطولاً بالفضل واتساعاً بالعفو وأخذاً بالحجة ورفقاً بالسياسة.

ولذلك لم يزل مذ حمّله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقاً بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطاً للمعدلة في رعيته تسكن إلى كنفه وتأنس بعفوه وتثق بحلمه، فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنة، أثره للحق وقياماً بالعدل وأخذاً بالحزم، فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه، أن كسروا

الخراج وطردوا العمال وسألوا ما ليس لهم من حق، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار، وخصومة بإقرار وتنصلاً باعتلال.

فلما انتهى إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه، وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه فأعلمهم الحال واستفهم للرعية، ثم أمر الموالي بالابتداء، وقال للعباس بن محمد: (أي عم) تعقب قولنا وكن حكماً بيننا وأرسل إلى ولديه (موسى وهارون) فأحضرهما الأمر وشاركهما في الرأي، وأمر محمداً بن الليث بحفظ مراجعتهم وإثبات مقالتهم في كتاب.

فقال سلام صاحب المظالم: أيها المهدي، إن في كل أمر غاية، ولكل قوم صناعة، استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم واستنفدت أعمارهم وذهبوا بها وذهبت بهم وعرفوا بها وعرفت بهم، ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب، وساسة الأمور وقادة الجنود وفرسان الهزاهز وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفياتهم ظلالها وعضتهم شدائدها وفرمتهم نواجذها، فلو عجمت ما قبلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك وتجارب توافق نظرك وأحاديث تقوي قلبك، فأما نحن - معاشر عمالك وأصحاب دواوينك - فحسن بنا، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك واستودعتنا من أمانتك وشغلتنا من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبير يبطل الآخر الأول، ونحن على علم بزماننا وتدبير سلطاتنا.

قال: نعم أيها المهدي أنت متبع الرأي، وثيق العقدة قوي المنة، بليغ الفطنة معصوم النية، محضور الرؤية، مؤيد البهية موفق العزيمة معان بالظفر، مهدى إلى الخير، إن هممت ففي عزمك مواقع الظن، وإن اجتمعت صدع فعلك ملتبس الشك فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقل ينطق الله بالحق لسانك، فإن جنودك جمة وخزائنك عامرة ونفسك سخية، وأمرك نافذ.

فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يهلك عليهما رأي ولا يتغيل منهما حزم فأشيروا برؤياكم وقولوا بما يحضركم، فإني من ورائكم وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي إن تصاريف وجوه الرأي كثيرة، وإن الإشارة ببعض معاريض القول يسيرة، ولكن خراسان أرضٌ بعيدة المسافة متراخية الشقة متفاوتة السبيل، فإذا ارتأيت من محكم التدبير ومبرم التقدير ولباب الصواب رأياً، قد أحكمه نظرك، وقلبه تدبيرك، فليس وراء مذهب طاعن ولا دونه معلق لخصومة عائب، ثم خبت البرد به، وانطوت الرسل عليه بالحرى أن لا يصل محكمه، إلا وقد حدث منهم ما ينقضه. فما أيسر أن ترجع إليك الرسل وترد عليك الكتب بحقائق أخبارهم وشوارد آثارهم ومصادر أمورهم فتحدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحلق، وتحلت العقد واسترخى العقاب وامتد الزمان، ثم لعلمك موقع الآخرة كمصدر الأولى، ولكن الرأي أيها المهدي، وفقك الله أن تصرف إجالة النظر وتقليب الفكر فيما جمعتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثرة عليك، ولا ظنيناً على دخلة مكروهة ولا منسوباً إلى بدعة محذورة، فيقدح في ملكك ويريض الأمور لغيرك، ثم تستند إليه أمورهم وتفوض إليه حربهم وتأمره في عهدك وصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور واشتداد الأحوال التي ينقض أمر الغائب عنها ويثبت رأي الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك، فواثب أمرهم من قريب وسقط عنه ما يأتي من بعيد تمت الحيلة، وقويت المكيدة ونفذ العمل واحد النظر إن شاء الله.

قال الفضل بن عباس:

أيها المهدي، إن ولي الأمور وسائس الحروب ربما نحى جنوده وفرق أمواله في غير ما ضيق أمر حزبه، ولا ضغطة حال اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عدياً منها فاقداً لها، لا يتق بقوة ولا يصول بعدة، ولا يفزع إلى ثقة، فالرأي لك أيها المهدي وفقك الله أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال وجنودك من مكابدة الأسفار ومقارعة الأخطار وتغرير القتال، وتسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدبهم وتجرئ من رعيتك غيرهم ولكن اغزهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعهم باللين وخاتلهم بالرفق وابرق لهم بالقول وأرعد نحوهم بالفعل وابعث البعوث وجند الجنود وكتِّب الكتائب واعقد

الألوية وانصب الرايات وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش مع أحنق قوادك عليهم وأسوئهم أثراً فيهم.

ثم ادسس الرسل، وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك، وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم واغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة وتنطوي الصدور على البغيضة، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبة فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمناصبة بالكتب، والمكايدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب القوي الموقع على النفوس المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبني على اللين الذي يستميل القلوب، ويسترق العقول والآراء، ويستميل الأهواء ويستدعي المواتاة – أنفذ من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح.

كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة أحكم عملاً وألطف منظراً وأحسن سياسة، من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، والإتلاف للأموال والتغرير والخطار.

وليعلم المهدي أنه إن وجه لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار ضيقة متفرقة وقواد غششة إن ائتمنهم استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له، قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره وأبرق ضوءه، وتمثل صوابه للعيون ومجد حقه في القلوب، ولكن فوق كل ذي علم عليم. ثم نظر إلى ابنه فقال: ما تقول؟.

قال علي: أيها المهدي إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدح في تغيير ملكك ويريض الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأن أصغر والحال أدل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذله وعند موعده الذي لا يخلفه، ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً،طلبوا حقاً وسألوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب وأطفأت ثائرة الحرب، ووفرت خزائن المال وطرحت تغرير القتال، وحمل الناس على طبيعة جودك وسجية حلمك وأسجاع خليفتك ومعدلة نظرك، فأمنت أن تنسب إلى ضعف، أن يكون ذلك فيما بقي دربة، وإن منعتهم ما

طلبوا ولم تجبهم إلى ما سألوا اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب - فما أرب المهدي أن يعد إلى طائفة من رعيته مقرين بملكيته مذعنين بطاعته لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته فيملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم ويقف على الحيل معهم.

ثم يجازيهم السوء في حد المنازعة ومضمار المخاطرة - أيريد المهدي وفقه الله الأموال؟ فلعمري لا ينالها، ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يطلب منهم وأضعاف ما يدعي قلبهم، ولو نالها فحملت إليه أو وضعت بخزائنها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه.

فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا، فأما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود وأنطقوا لسان الإرجاف، وفتحوا باب المعصية وكسروا قيد الفتنة فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد مقرنين بالأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه ولإقالة عثرتهم صفحه واستبقاهم لما فيه من حزبه، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكراً من نظره.

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدها وقعاً وأصدقها صولاً وأنه لا يتعاظمه عفو، ولا يتكاءده صفح، وإن عظم الذنب وجل الخطب، فالرأي للمهدي وفقه الله تعالى أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكروا أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم برأيهم، وتوسعاً لهم، فإن إخوان دولته وأركان دعوته وأساس حقه الذين بعزهم يصول، وبحجتهم يقول، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطة وتعرضوا له من معاصيه، وانطووا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غير من رأيه فيهم أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته بهم كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازرين أصاب أحدهما خبلٌ عارض ولهوٌ حادث فنهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزدد أخوه إلا رقة له ولطفاً به واحتيالاً لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبراً به ومرحمة.

فقال المهدي: أما علي فقد نوى سمت الليان وفض القلوب من أهل الخراسان، ولكل نبأ مستقر، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ (يعني موسى ابنه).

فقال موسى: أيها المهدي لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم، الحال من القوم ينادي بمضمرة شر وخفية حقد قد جعلوا المعاذير عليها ستراً، واتخذوا العلل من دونها حجاباً رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم، والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس آمنة قد فتر لها وأنس بها، وسكن إليها.

ولولا ما اجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال والإضمار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرهبوا عواقب أخبار الولاة وغب سكون الأمور فليشدد المهدي - وفقه الله - أزره لهم، ويكتب كتائبه نحوهم وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم، وليوقن: أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دربة إلى فسادهم وقوة على معصيتهم، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ومن ببابه من الوفود الذين إن أقرهم وتلك العادة وأجراهم على ذلك الأرب، ولم يبرح في فتق حادث، وخلاف حاضر، لا يصلح عليه دين ولا تستقيم به دنيا، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدربة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة، والمؤونة الشديدة والرأي للمهدي وفقه الله أن لا يقيل عثرتهم، ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف ويستحر بهم القتل ويحدق بهم البلاء ويطبق عليهم الذل.

فإن فعل المهدي ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم وهزيمة لكل بادرة شر منهم، واحتمال المهدي في مؤونة غزوتهم هذه تضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة، فقال المهدي: قد قال القوم، فاحكم يا أبا الفضل!.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي: أما (الموالي) فأخذوا بفروع الرأي وسلكوا جنبات الصواب وتعدوا أموراً قصر بنظرهم عنها انه لم تأت تجاربهم عليها - وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تنفق والجنود لا تفرق، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا ولا يبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك استصغاراً لأمرهم، واستهانة بحربهم وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها، وأما علي فأشار باللين، وإفراط الرفق وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره وسفه حقه

اللين بحتاً والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينة، ولا بشر يحسبهم إلى خيره، فقد ملكهم الخلع لعذرهم ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم، فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة فنزوة في رؤوسهم، يستدعون بها إلى أنفسهم ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم، وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصراح، فذلك ما عليه الظن بهم، والرأي فيهم وما قد يشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر ولا تدركه الفكر، ولا تعلمه نفس، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها، فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه، وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً، والشر مجرداً ليس معهما طمع ولا لين يثنهم اشتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم الحمية من الشدة والأنفة من الذلة والامتعاض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف، والاستبسال في القتال والاستسلام للموت، وإما أن ينقادوا ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تورث النفاق وتعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم الفرصة أو ثابت لهم قدوة أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال في قول الفضل: أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان، وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثه الجيوش إليهم وتوجيه البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي: ذلك رأي.

قال هارون: ما خلطت الشدة أيها المهدي باللين فصارت الشدة أمر فطام لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب، ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً، وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً والمرء مؤتمن بما قال وظنين بما ادعى، حتى يأتي ببينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت.

قال هارون: إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون وربما افترق الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخولة لا تعلن والطبيب الرفيق بطبه البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء فالرأي للمهدي وفقه الله أن يفر باطن أمرهم فر المسنة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعة الكتب ومظاهرة الرسل، وموالاة العيون، حتى تهتك حجب عيونهم وتكشف أغطية أمورهم، فإن انفرجت الحال وأفضت الأمور إلى تغيير حال، أو داعية ضلال اشتملت الأهواء عليه وانقاد الرجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها.

وإن انفرجت العيون واهتصرت الستور ورفعت الحجب والحال فيها مريعة والأمور بهم معتدلة في أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها، وظلامات يدعونها وحقوق يسألونها بماتة سابقتهم ودالة مناصحتهم، فالرأي للمهدي وفقه الله، أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويشعب من أمرهم ما صدعوا ويرتق من فتقهم ما قطعوا ويولي عليهم من أحبوا ويداوي بذلك مرض قلوبهم وفساد أمورهم، فإنما المهدي من أمته وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي المجرب الذي يحتال لمرابض غنمه، وضوال رعيته حتى يبرئ المريضة من داء علتها ويرد الصحيحة إلى أنس جماعتها.

ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة وماتة مقبولة ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة؛ لأنهم أيدي دولته وسيوف دعوته وأنصار حقه وأعوان عدله، فليس من شأن المهدي الاضطعان عليهم ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم ولا المكافأة بإساءتهم؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ أحزم في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وقع الحيا حتى خرج خروج القدح من الماء وانسل انسلال السيف فيما ادّعى، فدعوا ما سبق موسى فيه فإنه هو الرأي وثنى بعده هارون، ولكن مَنْ لأعنَّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة؟

قال صالح بن علي: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث الطويل وطول الفكر أدنى فراسة رأيك وبعض لحظات نظرك، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تقلده حربك وتستودعه جندك ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة، وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة، مخبور التجارب محمود العواقب معصوم العزم. فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله ما تحب لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه، ولكي أحب الموافقة على الرأي والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان قومٌ ذو عزة ومنعة وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة، فالروية عنهم عازبة والعجلة عنهم حاضرة، تسبق مطرهم سيوفهم عذلهم: لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم وبين رؤساء لا يلجمون إلا أبشدة ولا يفطنون إلا بالمر، وإن ولّى المهدي عليهم وضيعاً لم تنقد له العظماء وإن ولّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن خر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ناصحاً يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له إملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حمية تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم، تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد، ولا يستصلحه وإن جهد، إلا بعد دهر طويل وشر كبير.

وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صفاتهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويدٌ ممثلة لعينك وصخرة لا تزعزع وبهمة لا تثنى وبازل لا يفزعه صوت الجلجل، نقي العرض نزيه النفس جليل الخطر قد اتضحت الدنيا قدره، وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض لعينه نصباً، والغرض الأدنى

لقدمه موطئاً، فليس يقبل عملاً ولا يتعدى أملاً وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك، رجل قد غذى بلطيف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قوائم أدبك قلدته أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم كان قفلاً فتحه أمرك وباباً أغلقه نهيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميرا والإنصاف بينه وبينهم حاكماً.

وإذا حكم المنصفة وسلك المعدلة فأعطاهم مالهم، وأخذ منهم ما عليهم، غرس لك في الذي بين صدورهم، وأسكن لك السويداء داخل قلوبهم، طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة في حواشي عوامهم. متمكنة من قلوب خواصهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه ولا يلزمهم حق إلا أدوه، وهذا أحدهما، وآخر عود من غيضتك أو نبعة من أرومتك فتى السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف يجرد فيهم سيفه ويبسط عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون وهو (فلان) أيها المهدي - فسلطه أعزك الله عليهم ووجهه بالجيوش إليهم.

ولا تمنعك ضراعة سنه وحداثة مولده فإن الحلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشك والجهل مع الكهولة، وإنما إحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، واختصكم به من مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور وصواب التدبير وصرامة الأنفس كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب فالحلم والعلم والعزم والحزم والتؤدة والرفق، ثابت في صدروكم مزروع في قلوبكم، مستحكم لكم متكامل عندكم، بطبائع لازمة وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: إفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف، ولكن إن ولّى المهدي عليهم رجلاً ليس بقدر الذكر في الجنود ولا بنبيه الصوت في الحروب ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه ويحتقرونها فيه ويجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود، والجيوش التي

يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ولم يعرفوه بالصيت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم.

وربما وقع البوار قبل الاختيار وبباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك صيت له نسب زاكٍ وصوت عال قد قاد الجيوش وساد الحروب وتألف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالمقة ووثقوا به كل الثقة، فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم. قال المهدي: جانبت قصد الرمية وأبيت إلا عصبية إذ رأى الحدث من أهل بيتنا كرأي عشرة حلماء من غيرنا، ولكن أين تركتم ولي العهد؟

قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل حجب عن خلقه وستر دون عباده علم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجري عليه المقادير من حوادث الأمور، وريب المنون المخترمة لخوالي القرون ومواضي الملوك فكر هنا شسوعه عن محله ودار السلطان ومقر الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن ومستقر الجنود ومعدن الجود، ومجمع الأموال التي جعلها الله قطباً لدار الملك ومصيدة لقلوب الناس، ومثابة لإخوان الطمع وثوار الفتن، ودواعي البدع وفرسان الضلال وأبناء الموت.

وقلنا: إن وجه المهدي وليّ عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد يحدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يعقبهم بغيره إلا أن ينهض إليهم بنفسه، وهذا خطر عظيم وهول شديد، إن تنفست الأيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه، حتى يقع عوض لا يستغنى عنه، أو يحدث أمر لابد منه صارماً بعده ما هو أعظم هولاً، وأجل خطراً له تبعاً، وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الأمر عليه، نحن أهل البيت نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب ونبأت عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا، فيه ندبر وعلى الله نتوكل إنه لابد لولي عهدي وولي عهد عقبى بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتجه نحوها بالجنود، أما الأول فإنه يقدم إليهم رسله ويعمل فيهم حيلة، ثم يخرج نشيطاً إليهم حنقاً عليهم يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان

الضلال، إلا توطئه بحر القتل وألبسه قناع القهر، وقلده طوق الذل ولا أحداً من الذين عملوا في قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحق إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول نهله، فإذا خرج مزمعاً به مجمعاً عليه لم يسر إلا قليلاً حتى تأتيه أن قد عملت حيله، وكدحت كتبه ونفذت مكايده فهدأت نافرة القولب ووقعت طائرة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم وبراً بهم وتعطفاً عليهم إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حجاجهم بيت الله الحرام وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم، ثم تعقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون، فإذا سمعت الفرق بقراباتها له وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأضعت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوفود قصد الأول ناحية بجعت بطاعتها وألقت بأزمتها فألبستها جناح نعمته وأنزلها ظل كرامته وخصها بعظيم حبائه، ثم عم الجماعة بالمعدلة وتعطف عليهم بالرحمة فلا تبقى فيهم ناحية ذاتية ولا فرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته فأغنى فقيرها وجبر كسيرها ورفع وضيعها وزاد رفيعها ما خلا ناحيتين: ناحية يغلب عليها الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته، وتبطئ عن إجابته وتتثاقل عن حقه، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه، فيصطلي عليها موجدة ويبتغي لها علة، لا يلبث أن يجد بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتأكلهم السيوف ويستحر بهم القتل ويحيط بهم الأسر ويفنيهم التتبع حتى يخرب البلاد ويتيم الأولاد.

وناحية لا يبسط لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة وتدرع جلباب الفتنة وربض في شق العصا، ولكنه يقتل أعلامهم وياسر قوادهم ويطلب هرابهم في لجج البحار وقلل الجبال وحميل الأدوية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً حتى يدع الديار خراباً والنساء أيامى - وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتاً ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيراً - وأما (موسى ولي عهدي) فهذا أوان توجهه إلى خراسان وحلوله بجرجان وما قضى الله له من الشخوص إليها والمقام فيها خير للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة بحيث يغمر لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع سيولنا أمواجنا فيتصاغر

عظيم فضله ويتذاءب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه، فمن يصحبه من الوراء ويختار له من الناس؟

قال محمد بن الليث: أيها المهدي - إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً قد تثنت نحوه أعناقها ومدت سمته أبصارها، وقد كان لقرب داره منك ومحل جواره لك عطل غفل الأمر واسع العذر، فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة أن تتفقد مخارج رأيه. وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله في بره ومرحمته ومعدلته، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ما سبق إليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم وألزمها لقلوبهم وأشدها استمالة لرأيهم، وعطفاً لأهوائهم، فلا يفتأ المهدي وفقه الله ناظراً له فيما يقوى عمد مملكته، ويسدد أركان ولايته ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مغبة لأمره وأجلّ موقعاً في قلوب رعيته، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له وأبلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ومعدلة تنتشر عن أثره، ومحبة للخير وأهله - وأن يختار المهدي وفقه الله من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس إذا وصفوا، ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان، وفتح باب المعروف، كما قد كان فتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت، ثم بعث في طلب ابنه موسى فقال له:

أي بني - إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصباً، ولمثنى أعطاف الرعية غابة، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية، وأمرك ظاهر فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله عز وجل كافيك، من أسخطك عليك إيثارك رضاه، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه - ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمان فترة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيد أركان الدين بنصرتهم ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً يسدون الخلل ويقيمون الميل، ويدفعون عن الأرض الفساد.

وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونستصرف نزول العظائم بمناصحتهم وندافع الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم فهم عماد الأرض إذا أرجف كنفها وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها، قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات أخمدت نيران الفتن، وقسمت دواعي البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ريح دولتنا وأقاموا في ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذاتهم ورفع بها ضعتهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض وملوكاً على رقاب العالمين بعد لباس الذل وقناع الخوف وإطباق البلاء ومحالفة الأسى وجهد البأس والضر فظاهر عليهم لباس كرامتك وأنزلهم في حدائق نعمتك، ثم اعرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالتهم وماتة سابقتهم، وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم والإثابة لمحسنهم والإقالة لمشيئتهم.

أي بني، ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها واستجلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسن بذلك لربك، وتوثق به في عين رعيتك، واجعل عمال العذر وولاة الحجج مقدمة بين يدي عملك ونصفة منك لرعيتك، وذلك أن تآمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت وإن أساء عذرت هؤلاء عمال العذر وولاة الحجج، فلا يسقطن عليك ما في ذلك إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع من انعقاد ألسنة المرجفين وكبت قلوب الحاسدين وإطفاء نيران الحروب وسلامة عواقب الأمور ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً، وبعُرا حبلك متعلقاً رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف له أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح. والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي، وأنحاء العرب، ووضع الكتب، عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره في حربك وتدخله في أمرك، فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلتي ويرعى في خضرة جناني ولا تدع أن يختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسمارك،

وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر، فسر على بركة الله، أصبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك وهادياً ينطق بالخير لسانك.

رابعاً - المناظرات النقدية الأدبية:

١ - مناظرة للآمدي

(بين صاحب أبي تمام - وصاحب البحتري)

- صاحب أبي تمام: كيف يجوز لقائل أن يقول: إن البحتري أشعر من أبي تمام، ومن أبي تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى! حتى قيل الطائي الأكبر، والطائي الأصغر!!.

- صاحب البحتري: أما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذ له، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله، ولا رأى قط أنه محتاج إليه، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري) وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها: (أأفاق صب من هوى فأفيقا) وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة، فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال: أيها الأمير، ما ظننت أن أحداً يقدم على أن يسرق شعري، وينشده بحضرتي حتى اليوم. ثم اندفع ينشد ما حفظه، حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة.

فبهت البحتري، ورأى أبو تمام الإنكار في وجه أبي سعيد. فحينئذ قال له أبو تمام: أيها الأمير والله ما الشعر إلا له، وإنه أحسن فيه الإحسان كله، وأقبل يقرّظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعف له الجائزة.

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أن أبا تمام جدير به أن يستغني عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراء، على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معاني أبي تمام، لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعره، وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحتري، ولا بمانع أن يكون البحتري أشعر من أبي تمام، فهذا (كثيِّر) قد أخذ من (جميل) واستقى من معانيه، فما رأينا أن أحداً قال: إن (جميلاً) أشعر منه، بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل.

– صاحب أبي تمام: إن البحتري نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه، فقد سُئل عنه وعن أبي تمام فقال: إن جيده خيرٌ من جيدي، وجيد أبي تمام كثير.

– صاحب البحتري: إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحتري لا عليه؛ لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء، والمستوي الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً، وأن البحتري يعلو بتوسط ولا يسقط، ومن لا يسقط ولا يسف أفضل ممن يسقط ويسف.

صاحب أبي تمام: إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً، وإماماً متبوعاً، وشهر له حتى قيل: هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهي فضيلة عرى عن مثلها البحتري.

– صاحب البحتري: ليس الأمر على ما وصفت وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه، وأفرط في ذلك وأسرف، حتى زال عن النهج المعروف، والسنن المألوف.

بل إن مسلماً غير مبتدع، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسم البديع متفرقة في أشعار المتقدمين فقصدها، وأكثر في شعره منها، ولكنه حرص على أن يضعها في مواضعها، ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه، حتى قيل: إنه أول من أفسد الشعر، فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه، فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه، وكل ما في المسألة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه.

أما البحتري فإنه فارق عمود الشعر، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سبباً في إجماع الناس على استحسان شعره، واستجادته وتداوله،

ونَفاق شعر الشاعر دليلٌ على علو مكانته، واضطلاعه بما يلائم الأذواق، ويلامس القلوب، من أساليب الكلام ومناهجه.

– صاحب أبي تمام: إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه.

– صاحب البحتري: لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي، وأحمد بن يحيى الشيباني، ودعبل الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب، وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدرائهم بشعره، حتى قال دعبل: إن ثلث شعره محال وثلثه مسروق وثلثه صالح، وقال: ما جعل الله أبا تمام من الشعراء، بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر، وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام: إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطلٌ، وهذا محمد بن يزيد المبرد: ما علمناه دون له كبير شيء.

– صاحب أبي تمام: إن دعبلاً كان يشنأ أبي تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور فلا يقبل قول شاعر في شاعر، وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه، فكان إذا سُئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه. ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس.

– صاحب البحتري: لا عيب على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة، والعيب في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقها يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية.

– صاحب أبي تمام: إن العلم في شعره أبي تمام، أظهر منه في شعر البحتري والشاعر العالم، أفضل من الشاعر غير العالم.

– صاحب البحتري: كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً، وكان الأصمعي شاعراً عالماً، وكان الكسائي كذلك، وكان خلف بن حبان الأحمر أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان زمانهم من الشعراء غير العلماء، والتجويد في الشعر ليست علته العلم، والشائع المشهر أن

شعر العلماء دون شعر الشعراء، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب، أما البحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده ولا كان يعده فضيلة ولا يراه علماً، بل كان يرى أنه شاعر، لابد له أن يقرب شعره من فهم سامعه، فلا يأتي بالغريب إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه، على أن هذا العلم الذي تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه، فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه، إلا بالحيلة والتحمل الشديد.

– صاحب أبي تمام: لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه، وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد، أن يلحقه الكلال في الأوقات، والزلل في الأحيان، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهوه، ويتجاوز له عن أخطائه وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب، وكذلك ما أخذته الرواة عن المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ، واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه، وما كان أحد من أولئك وهؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل، بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم عن تقصيرهم.

– صاحب البحتري: أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة. أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات، يكون فيها مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارة قبيحة، أو مخطئاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد، حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج.

صاحب أبي تمام: تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحتري نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره.

– صاحب البحتري: لم لا يفعل البحتري ذلك؟؟ وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد

أحدهما لصاحبه بالفضل، ويخصه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه، على أن الميت خاصة يعطى في تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر ما كان يستحقه.

- صاحب أبي تمام: كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء، أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله، وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه واطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره، والبحتري واحد منهم.

- صاحب البحتري: إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لندرته، ووقوعه في تضاعيف الرديء، فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه وجيد البحتري كجيد أبي تمام، إلا أنه يقع في جيد مثله أو متوسط، فلا يناجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبها.

الباب الحادي عشر
أدب الاستعطاف
والاستمناح

أ- ماهيته:

وهو أدب قائم على نوع من طلب الحاجات من الخلفاء

ب - نماذج منه:

١ - استعطاف أم جعفر بن يحيى الرشيد لأجل يحيى زوجها:

كانت أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر وربته في حجرها وغذته برسلها وكان الرشيد يشاورها مُظهراً لإكرامها، والتبرك برأيها وكان آلى وهو في كفالتها ألا يحجبها وألا استشفعته لأحد إلا شفعها ؛ وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ولا شفعت لأحد مقترف ذنباً، فكم أسير فكت ومبهم عنده فتحت ومستغلق منه فرجت، فلما قتل ابنها جعفراً وحبس يحيى زوجها وسائر أهل بيته طلبت الإذن عليه، ومتت بوسائلها إليه فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها، فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها محتفية في مشيتها حتى صارت بباب قصر الرشيد فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال: ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة شماتة الحاسد، إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك أوَساعية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك فرب كبد غذتها وكربة فرجتها وعورة سترتها فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها، ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان؟ ويحردك علينا البهتان وقد ربيتك في حجري وأخذت برضاعتك الأمان من عدوي ودهري، فقال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ فقالت ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحة وإشفاقه عليه وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه - فقال لها: يا أم الرشيد أمرٌ سبق وقضاء حم،

وغضب من الله نفذ، قالت: يا أمير المؤمنين ((يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب))، قال: صدقت، فهذا مما لم يمحه الله، قالت: الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد ملياً، ثم قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل ((والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)) فأطرق ملياً، ثم قال: يا أم الرشيد أقول:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت: يا أمير المؤمنين وأقول:

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كف تبدل

قال هارون: رضيت. قالت: فهبه لي يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ترك شيئاً لله لم يوجده الله لفقده). فأكب هارون ملياً، ثم رفع رأسه يقول: (لله الأمر من قبل ومن بعد) قالت: يا أمير المؤمنين: ((ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم))، واذكر يا أمير المؤمنين آليتك: ما استشفعتك إلا شفعتني. قال: واذكري يا أم الرشيد آليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً. فلما رأته صرح بمنعها ولاذ عن مطلبها أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعته بين يديه فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب فأخرجت منه خفضه وذوائبه وثناياه قد غمست جميع ذلك بالمسك. فقالت: يا أمير المؤمنين أستشفع إليك وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيى عبدك، فأخذ هارون ذلك فلثمه، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً وبكى أهل المجلس.

فلما آفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها: لحسن ما حفظت الوديعة فقالت: وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين. فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال: ((إن الله يأمركم أن

تـؤدوا الأمانـات إلى أهلهـا)) قالـت: والله يقـول: ((وإذا حكمـتم بـين النـاس أن تحكمـوا بالعدل)). ويقول: ((وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)) قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: أوَمـا أقسمت لي أن لا تحجبني ولا تمتهنني؟ قال: أحب يا أم الرشيد أن تشتريه محكمة فيـه. قالـت: أنصفت يا أمير المؤمنين وقد فعلت غير مستقبلة لك ولا راجعـة عنـك. قـال: بكـم؟ قالـت: برضاك عمن لم يسخطك، قال: يا أم الرشيد أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بـلى يا أمير المؤمنين أنت أعز عليَّ، وهم أحب إليَّ. قال: فتحكمي في تمنية بغيرهم، قالت: كلا. قـد وهبتكه وجعلتك في حل منه وقامت عنه وبقي مبهوتاً ما يحير لفظة.

قال سهل بن هارون: وخرجت فلم تعد، ولا والله ما رأيت لها عبرة ولا سمعت لها أنّة.

٢ - استعطاف تميم بن جميل للمعتصم:

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطئ الفرات، واجتمـع إليـه كثـير مـن الأعـراب فعظم أمره، وبعد ذكره ثم ظفر به وحمل موثقاً إلى باب المعتـصم،فقال أحمـد بـن أبي داود: مـا رأيت رجلاً عاين الموت فما هاله ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنـه لما مثل بين يدي المعتصم، فأحضر السيف والنطع وأوقف بينهما تأملـه المعتـصم وكـان جميلاً وسيماً - فأحب أن يعلم أين لسانه وجنابه من منظره، فقال: تكلم يا تميم. فقال: أما إذا أذنـت يا أمير المؤمنين فأنا أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طـين، ثم جعل نسله من سلالة من مـاء مهـين، جـبر بـك صـدع الـدين ولمَّ بـك شـعث المـسلمين، وأوضح بك سبل الحق وأخمد بك شـهاب الباطـل، إن الـذنوب تخـرس الألـسنة الفـصيحة، وتعيي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريـرة وانقطعـت الحجـة وسـاء الظـن ولم يبـق إلا عفوك أو انتقامك وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إلى أشبههما بك وأولاهما بكرمـك، ثم قال - على البديهة - :

أرى المـوت عـلى الـسيف والنطـع كامنـا ... يلاحظنـــي مـــن حيـــثما أتلفـــت

وأكـــبر ظنـــي أنـــك اليـــوم قـــاتلي ... وأي امـــرئ ممـــا قـــضى الله يفلـــت؟

وأي امـــرئ يـــأتي بعـــذر وحجـــة ... وســـيف المنايـــا بـــين عينيـــه مـــصلت

وما جزعي من أن أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم وقد خشموا تلك الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لا يبعد الله روحه وآخر جذلان يسر ويشمت

فتبسم المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، قد وهبتك للصبية وغفرت لك الصبوة، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه.

٣ - استعطاف الجاحظ لابن الزيات:

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر له وتلون عليه: أعاذك الله من سوء الغضب وعصمك من سرف الهوى وصرف ما أعادك من القوة إلى حب الإنصاف ورجح في قلبك إيثار الأناة فقد خفت - أيدك الله - أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ومجانبة سبل الحكماء، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرأً أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنت اجترأت - أصلحك الله - فلم اجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيراً لي منك أرهبني فاتقاني وأعطاني فأغناني، فإن كنت لا تهب عقابي - أيدك الله - لخدمة فهبه لأياديك عندي فإن النعمة تشفع في النقمة وإلا تفعل ذلك فعد إلى حسن العادة وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة وإلا فائت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد وتتجافى عن عقاب المصر، حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكر، وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة، واعلم - أيدك الله - أن شين غضبك عليَّ كزين

صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام.

٤ - استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور:

يا أمير المؤمنين من انتقم فقد شفي وانتصف، ومن عفا تفضَّل ومن أخذ حقه لم يجب شكره ولم يذكر فضله، وكظم الغيظ حلم والتشفي طرف من الجزع، ولم يمدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب، ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل. وبعد: فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب والعافي مسترع لشكرهم آمن من مكافأتهم، ولأن يثنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقه، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه، وعقابك إياهم موصول بعقابه. قال الله عز وجل: (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين)).

٥ - استعطاف إبراهيم بن المهدي للمأمون.

أمر المأمون بإبراهيم بن المهدي فأدخل عليه فلما وقف بين يديه: قال: هيه يا إبراهيم! فقال: يا أمير المؤمنين ولي الثأر محكم في القصاص (والعفو أقرب للتقوى) ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشفاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب دونك فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. ثم قال:

ذنبي إليك عظيم ... وأنت أعظم منه

فخذ بحقك أو لا ... فاصفح بفضلك عنه

إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فقال المأمون: شاورت أبا إسحق والعباس في قتلك فأشارا به، فقال: فما قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون: قلت لهما نبدؤه بإحسان ونستأمره فيه فإن غيَّر فالله يغير ما به. قال: أما أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرت عليه الساسة، فقد فعلا وبلغا ما يلزمهما وهو الرأي السديد، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، ثم استعبر باكياً. فقال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جذلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام، ثم قال: إنه وإن كان

قد بلغ جرمي استحلال دمي فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغاني عفوه ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحق الأبوة بعد الأب.

فقال المأمون: يا إبراهيم لقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه. أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات لا تثريب عليك يغفر الله لك، ولو لم يكن حق نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلغت ما أملت حسن تنصلك، ولطف توصلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله. فقال إبراهيم:

رددت مالي ولم تبخل عليَّ به ... وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
وقام عليك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت ... لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

٦ - استعطاف إسحق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحق بن العباس: تحسبني أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له، وإيقادك لناره؟ فقال والله يا أمير المؤمنين لإجرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمي إليك ولرحمي بك أمتن من أرحامهم، وقد قال لهم كما قال يوسف - على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام - لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)) وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمة في الطول وممتثل لخلال العفو والفضل.

قال: هيهات تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجرمك جرم في أسلافك وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين فوالله للمسلم أحق بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر وهذا كتاب الله بيني وبينكم إذ يقول: (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن

الناس والله يحب المحسنين). والناس يا أمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف.

قال: صدقت ورت بك زنادي ولا برحت أرى من أهلك أمثالك.

٧ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به: يا فضل أكان من حقي عليك وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبني وتسبني وتحرض على دمي؟ أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي؟

فقال: يا أمير المؤمنين إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً فكيف إذا أخفته العيوب! وقبحته الذنوب! فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك فأنت كما قال الشاعر فيك:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه ... من العفو لم يعرف من الناس مجرما

وليس يبالي أن يكون به الأذى ... إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما

الباب الثاني عشر
الرسائل
في العصر العباسي

أولاً - إضاءة:

أحد فنون النثر التي انتشرت في العصر العباسي وبشكل كبير وهي أنواع:

أ - الرسائل الديوانية:

وتعد هذه الرسائل من أهم ما كتب في العصر العباسي؛ لأنها مرتبطة بسياسة الخليفة وما يحتاجه من مراسلات مع الولاة والقادة، ويشترط فيمن يكون قيماً أن تكون لديه خبرة واسعة في الكلمة وفي فهم التاريخ والدين والواقع، إذ إن من كان يستوزر برئيس للديوان كان يحظى بمنزلة رفيعة، ومن هنا كان معظم الوزراء من المقتدرين علمياً وثقافياً وأدبياً ولغوياً.

وأهم موضوعاتها:

وقد تناولت الرسائل الديوانية النقاط التالية:

١ - أعمال الدولة.

٢ - البيعة للخلفاء.

٣ - الفتوح والجهاد.

٤ - تولية الولاة.

٥ - تعين ولاة العهود.

٦ - مواسم الحج والأعياد.

٧ - أمور الرعية المنقولة إلى الخلفاء.

- وأبرز من كتبوا في هذا الفن:

١ - عمارة بن حمزة.

٢ - إسماعيل بن صبيح.

٣ - محمد بن الليث.

وقد بلغت الرسالة الديوانية في عصر المأمون الذروة مركزة على:

١ - العناية بالجمال الفني.

٢ - التدقيق في المعاني بشكل كبير.

يقول إسماعيل بن صبيح في رسالة باسم الخليفة الرشيد إلى الولاة بمبايعة الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد في بيت الله الحرام:

"وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوامِّ المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدت إليه أعناقها، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة لقوام أمورهم، وصلاح دهمائهم حتى ألقوا إليهما أزمتهم وأعطوهما بيعتهم بالعهود ووكيد الأيمان المغلظة عليهم. أراد الله فلم يكن له مردٌّ، وأقضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته".

ب - الرسائل الإخوانية:

وهي الرسائل التي تصور عواطف الأفراد، وما يفعل في نفوسهم من رغبة ورهبة ومديح وهجاء وعتاب واعتذار كما في رسائل ابن المقفع " الأدب الكبير والأدب الصغير". وما جاء بهما من تصوير للأخوة والصداقة، كما في مناسبات الزواج والظفر على الأعداء وغير ذلك من الأمور، وقد تميزت هذه الرسائل بدقة التصوير للمعاني والتعبير عنها بأساليب جديدة.

يقول إبراهيم بن المهدي في رسالة يهنئ فيها المعتصم في انتصاره في عمورية:

"الحمد لله الذي تم لأمير المؤمنين غزوته، فأذل بها رقاب المشركين وشفى بها صدور قوم مؤمنين، ثم سهل الله له الأوبة سالماً غانماً".

ج - الرسائل الأدبية:

وهي فرع نما من دوحة الرسائل الإخوانية، يتناول النفس الإنسانية، ويصور أهواءها وأخلاقها، ويوضح طريقها كي لا تسقط هذه النفس في مهاوي الشر.

وقد برز من كتّاب هذا النوع:

١ - يحيى بن زياد.

٢ - ابن عبد الحميد.

- يقول يحيى بن زياد راداً على رسالةٍ لابن المقفع في انعقاد الأخوة:

"فنسبنا الإخاء فوجدناه في نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البر، فوجدناه محتوياً على الكرم والنجدة والصدق والحياء والنجابة".

د - نماذج من الرسائل في العصر العباسي:

١ - كتب أبو منصور الثعالبي المتوفّى سنة ٤٢٩ هـ:

خبر عز على مستمعه، وأثر في قلبي موقعه. خبر تستاء له المسامع وترتج منه الأضالع، خبر يهد الرواسي ويفلق الحجر. كادت القلوب تطير والعقول تطيش والنفوس تطيح. خبر يشيب الوليد. ويذيب الحديد، قد كاد من الحزن تنقبض الألسن عن هذا النعي الفادح، وتخرس، وتقصر الأيدي عن التعزية بهذا الرزء الفادح وتيبس.

٢ - كتب ابن الرومي المتوفّى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم:

أذن الله في شفائك وتلقيه داءك بدوائك، ومسح بيد العافية عليك، ووجه وفد السلامة إليك وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك.

٣ - وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفّى سنة ٣٨٣ هـ:

وصل كتابك يا سيدي فسرني نظري إليه، ثم غمني اطلاعي عليه، لما تضمنه من ذكر علتك، جعل الله أولها كفارة وآخرها عافية، ولا أعدمك على الأولى أجراً وعلى الأخرى شكراً.

وبودِّي لو قرب على متناول عيادتك، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعض أعباء علتك فلقد خصني من هذه العلة قسم كقسمك، ومرض قلبي فيك لمرض جسمك، وأظن

إني لو لقيتك عليلاً لانصرفت عنك، وأنا أعلُّ منك فإني بحمد الله جلد على أوجاع أعضائي غير جلد على أوجاع أصدقائي – شفاك الله وعافاك.

٤ - كتب أبو منصور الثعالبي في التهنئة بميلاد الأولاد المتوفَّى سنة ٤٢٩ هـ:

أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار والأولاد الأطهار

ولو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

والله يعرفك البركة في مطلعها والسعادة بموقعها فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجوم الثواقب. والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا تحرك الأنام، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها تنعم المرسلون فهنيئاً ما أوليت وأوزعك الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عرف النسل وبقي الأبد.

٥ - وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفّى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردي يهنئه بمولود:

حقاً لقد أنجز الإقبال وعده ووافق الطالع سعده وإن الشأن لفيما بعده وحبذا الأصل وفرعه وبورك الغيث وصوبه وأينع الروض ونوره وحبذا سماء اطلعت فرقداً، وغابة أبرزت أسداً وظهر وافق سنداً وذكر يبقى أبداً ومجد يسمى ولداً، وشرفٌ لحمة وسدى.

٦ - وكتب أبو منصور الثعالبي في التهنئة بالقدوم المتوفّى سنة ٤٢٩ هـ: أهنئ سيدي ونفسي تطيب بما يسر الله من قدومه سالماً وأشكر الله على ذلك شكراً دائماً جعل الله قدومك مقروناص بالخيرة التامة العامة. والكفاية الشاملة الكاملة.

غيبة المكارم مقرونة بغيبتك وأوبة النعم موصولة بأوبتك فوصل الله قدومك من الكرامة، بإضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة وهناك بإيابك وبلغك غاية محابك، ما زلت بالنية معك مسافراً وباتصال الذكر والفكر ملاقياً إلى أن جمع شمل سروري بأوبتك وسكن نافر قلبي بعودتك.

٧ - وكتب أبو منصور الثعالبي المتوفّى سنة ٤٢٩ هـ: أيضاً في التهنئة برمضان

ساق الله إليك سعادة إهلاله وعرفك بركة كماله لقاك فيه ما ترجوه ورقاك إلى ما تحب في تتلوه، جعل الله ما يطول من هذا الصوم مقروناً بأفضل القبول مؤذناً بدرك الغيبة ونجح المأمول، ولا أخلاك من بر مرفوع ودعاء مسموع، قابل الله بالقبول صيامك وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك أعاد الله إلى مولاي أمثاله وتقبل فيه أعماله، وأصح في الدين والدنيا أحواله، وبلغه منها آماله. أسعد الله مولاي بهذا الشهر ووفاه فيه أجزل المثوبة والأجر.

٨ - وكتب أبو الفرج الببغاء المتوفّى سنة ٣٩٨ هـ تهنئة:

سيدي - أيده الله - أرفع قدراً وأنبه ذكراً وأعظم تبلاً وأشهر فضلاً من أن نهنئه بولاية وإن جل خطرها وعظم قدرها؛ لأن الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدله والرعية بمحمود فعله والأقاليم بآثار رياسته والولايات بسمات سياسته فعرفه الله يمن ما تولاه ورعاه في سائر ما استرعاه، ولا أخلاه من التوفيق فيما يعانيه والتسديد فيما يبرمه ويمضيه.

٩ - كتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ:

إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب وفجع بأكثر مما متع وأوحش فوق ما أنس وعنف في نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء حتى غادرنا رهن التلف والاشتياق.

(والحمد لله تعالى على كل حال) يسوء ويسر ويحلو ويمر، ولا أَيْئَسُ من روح الله في إباحة صنع يجعل ربعه مناخي ويقصر مدة البعاد والتراخي، فألاحظ الزمان بعين راض ويقبل إلى حظي بعد إعراض واستأنف بعزته عيشاً عذب الموارد والمناهل، مأمون الآفات والغوائل.

١٠ - كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفّى سنة ٣٩٧ هـ:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

الأمير أطال الله بقاءه في حالي بره وجفائه متفضل، وفي يومي إدنائه وإبعاده متطول وهنيئاً له من حمانا ما يحله ومن عرانا ما يحله ومن أعراضنا ما يستحله.

بلغني أنه - أدام الله عزه - استزاد صنيعه فكنت أظنني مجنياً عليه مساء إليه، فإذا أنا في قرارة الذنب ومثارة العتب وليت شعري أي محظور في العشرة حضرته أو مفروض من الخدمة

رفضته أو واجب في الزيارة أهملته، وهل كنت إلا ضيفاً أهداه منزعٌ شاسع وأداه أمل واسع وحداه فضل وإن قل، وهداه رأي وإن ضل، ثم لم يلق إلا في آل مكال رحله ولم يصل إلا بهم حبله، ولم ينظم إلا فيهم شعره، ولم يقف إلا عليهم شكره.

ثم ما بعدت صحبة إلا دنت مهانة ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ولا تضاعفت منةٌ إلا تراجعت منزلة ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابل الإعظام قطره وعاد قميص القيام صدره ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة فصار ذلك التقريب ازوراراً وذلك السلام اختصاراً والاهتزاز إيماء والعبارة إشارة وحين عاتبته آمل أعتابه وكاتبته أنتظر جوابه وسألته أرجو جوابه، أجاب بالسكوت فما ازددت له إلا ولاء وعليه ثناء ولا جرم إني اليوم أبيض وجه العهد واضح حجة الود طويل لسان القول، رفيع حكم العذر، وقد حملت فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه.

والأمير الرئيس – أطال الله بقاءه – ينعم بالإصغاء لما يورده موفقاً إن شاء الله تعالى.

١١ - وكتب أيضاً إلى القاسم الكرجي المتوفّى سنة ٤٠٠ هـ:

أنا – وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل – أحاسب مولاي – أيده الله – على أخلاقه ضناً بما عقدت يدي عليه من الظن به، والتقدير في مذهبه، ولولا ذلك لقلت في الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلالك وفي الناس واصل إن رثت حبالك وأخذه بأفعاله.

فإن أعارني أذناً واعية ونفساً مراعية وقلباً متعظاً ورجوعاً عن ذهابه ونزوعاً عن هذا الباب الذي يقرعه ونزولاً عن الصعود الذي يفرعه فرشت لمودته خوان صدري وعقدت عليه جوامع خصري ومجامع عمري، وإن ركب من التعالي غير مركبه وذهب من التغالي في غير مذهبه أقطعته خطة أخلاقه ووليته جانب إعراضه.

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطري الدهر وركبت ظهري البر والبحر ولقيت وفدي الخير والشر وصافحت يدي النفع والضر وضربت إبطي العسر واليسر، وبلوت طعمي الحلو والمر ورضعت ضرعي العرف والنكر فما تكاد الأيام تريني من

أفعالها غريباً وتسمعني من أحوالها عجيباً ولقيت الأفراد وطرحت الآحاد فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي سمعه وبصره، وشغلت حيزي فكره ونظره وأثقلت كتفه في الحزن وكفته في الوزن ووددت لو بادر القرن صحيفتي، أو لقي صفحتي فمالي هذا الصغر في عينه، وما الذي أزرى بي عنده حتى احتجب وقد قصدته ولزم أرضه وقد حضرته؟.

وأنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يجحد فضل العلم أو يمتطي ظهر التيه على أهليه وأسأله أن يخصني من بينهم بفضل إعظام إن زلت بي مرة قدم في قصده، وكأني وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة والرتبة المتحيفة وهو في جنب جفائه يسير، فإن أقلع عن عادته وترفّع عن شيمته في الجفاء فأطال الله بقاء الأستاذ الفاضل وأدام عزه وتأييده.

١٢ - وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفّى بالبصرة عام ٢٥٥ هـ:

والله يا قليب: لولا أن كبدي في هواك مقروحة وروحي مجروحة لساجلتك هذه القطيعة ومادتك حبل المصارمة وأرجو أن الله تعالى يديل لصبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القليب راغم. فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء والسلام.

١٣ - وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفّى سنة ٣٨٣ إلى تلميذه: كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبروز البدر من الظلماء وقد فارقتني المحنة، وهي مفارق لا يشتاق إليه، وودعتني وهي كودع لا يبكى عليه، والحمد لله تعالى على محنة يجليها، ونعمة ينيلها ويوليها كنت أتوقع أمس كتاب مولاي بالتسلية واليوم بالتهنئة، فلم يكاتبني في أيام البرحاء بأنها غمته ولا في أيام الرخاء بأنها سرته! وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي. فقلت: أما إخلاله بالأولى، فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها.

وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفر على مرتبة السابق إلى الابتداء بنفسه على محل الاقتداء لتكون نعم الله سبحانه علي موفورة من كل جهة ومحفوفة بي من كل رتبة، فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لي حق الإحسان وليكتب إليَّ بالاستحسان، وإن كنت أسأت فليخبرني بعذره أعرف مني بسره وليرض مني بأن حاربت عنه قلبي، واعتذرت عن ذنبه، حتى كأنه ذنبي، وقلت: يا نفس اعذري أخاك وكفاك منه ما أعطاك، فمع اليوم غد - والعود أحمد.

١٤ - كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفّى سنة ٣٩٨ هـ:

اســـــمع نـــــصيحة ناصـــــح جمـــــع النـــــصيحة والمقـــــة
إيـــــاك واحـــــذر أن تكـــــون مـــــن الثقـــــات عـــــلى ثقـــــة

صدق الشاعر وأجاد وللثقات خيانة في بعض الأوقات: هذه العين تريك السراب شراباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً بمعذور إن وثقت بمحذور، وهذه حالة الواثق بعينه السامع بأذنه.

وأرى فلاناً يكثر غشيانك وهو الدنيء دخلته الرديء جملته السيئ وصلته الخبيث كلمته، وقد قاسمته في رزقك وجعلته موضع سرك فأرى موضع غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه: أفظاهره غرك؟ أم باطنه سرك؟؟.

يا مولاي يوردك ثم لا يصدرك ويوقعك ثم لا يعذرك فاجتنبه ولا تقربه وإن حضر بابك فاكنس جنابك وإن مس ثوبك فاغسل ثيابك وإن لصق بجلدك فاسلخ إهابك، ثم افتتح الصلاة لعنه وإذا استعذت بالله من الشيطان فاعنه.

١٥ - وكتب أبو إسحق الصابئ إلى بعض الرؤساء:

قد جرت العادة - أطال الله بقاء الأمير - بالتمهيد للحاجة قبل موردها وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها. وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسؤول فهو لا يلتمس فضله إلا جزاء، ولا يستدعي طوله إلا قضاء، والأمير بكرمه الغريب ومذهبه البديع يؤثر أن يكون السلف له والابتداء منه، ويوجب على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به. فالحمد لله الذي أفرده بالطرائق الشريفة، ووحده بالخلال المنيفة وجعله عين زمانه البصيرة ولمعته الباقية المنيرة.

١٦ - وكتب محمد بن عياد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقرب إليه:

ما زلت - أيدك الله تعالى - أذم الدهر بذمك إياه، وانتظر لنفسي ولك عقباه، وأتمنى زوال من لا ذنب له، إلى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله، وأترك الأعذار في الطلب على الاختلال الشديد ضناً بالمعروف عندي إلا عن أهله وحباً لرجائي إلا عن مستحقه.

١٧ - ومن أرق الاستماحة ما كتبه عبيد الله بن طاهر إلى سليمان بن وهب:

أبـــى دهرنـــا إســـعافنا في نفوســـنا وأســـعفنا فـــيمن نحـــب ونكـــرم

فقلـــت لـــه: نعـــماك فيهـــا أتمهـــا ودع أمرنـــا إن المهـــم المقـــدم

فأعجب سليمان بلطف طلبه في تهنئته وقضى حوائجه.

١٨ - وكتب بديع الزمان الهمذاني في بابه إلى بعض أصحابه:

لك – أعزك الله – عادة فضل في كل فضل ولنا شبه مقت في كل وقت، ولعمري إن ذا الحاجة مقيد الطلعة ثقيل الوطأة ولكن ليسوا سواء.

١٩ - كتب أبو منصور الثعالبي المتوفّى سنة ٤٢٩ هـ:

الشكر ترجمان النية ولسان الطوية وشاهد الإخلاص وعنوان الاختصاص عندي من إنعامه وخاص بره وعامه، ما يستغرق منه الشكر، ويستنفد قوة النشر،شكر الأسير لمن أطلقه والمملوك لمن أعتقه شكر كأنفاس الأحبار أو أنفاس الرياض غب الأمطار.

٢٠ - وكتب الحسن بن وهب المتوفّى سنة ٤٨٢ هـ:

من شكرك على درجة رفعك إليها أو ثروة أقدرته عليها فإن شكري لك على مهجة أحييتها، وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه فلكل نعمة من نعم الدنيا حد ينتهي إليه، ومدى تقف عنده، وغاية من الشكر لا يسمو إليها الطرف، خلا هذه النعمة التي فاقت الوصف وأطالب الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنف كريم، فكيف يشكر الشاكر؟ وأين يبلغ المجتهد؟.

٢١ - وكتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفّى سنة ٤٣٦ هـ:

فأما الشكر الذي أعارني رداءه وقلدني طوقه وسناءه فهيهات أن ينتسب إلا إلى عادات فضله وأفضاله. أو يسير إلا تحت رايات عرفه ونواله، وهو ثوب لا يحلى إلا بذكر طرازه واسم حقيقته، ولسواه مجازه، ولو أنه (حين ملك رقي بأياديه وأعجز وسعي عن حقوق مكارمه ومساعيه) خلّى لي مذهب الشكر وميدانه ولو يجاذبني زمامه وعنانه – لتعلقت في بلوغ بعض الواجب بعروة طمع، ونهضت فيه ولمّ على وهن وظلع، ولكنه يأبى إلا أن يستولي على أمد الفضائل، ويتسم ذرا الغوارب منها والكواهل، فلا يدع في المجد غاية إلا سبق إليها فارضاً

وتخلف سواه عنها حسيراً ساقطاً لتكون المعالي بأسرها مجموعة في ملكه منظومة في سلكه خالصة له من دعوى القسم وشركه.

٢٢ - ولما ولّى الخليفة المهدي سليمان بن وهب وزارته قام إليه رجل من ذوي حرمته فقال: - أعز الله الوزير - أنا خادمك المؤمل لدولتك السعيد بأيامك المنطوي القلب على ودك المنشور اللسان بمدحك المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر:

وفيت كل صديق ودني ثمنا ... إلا مؤمل دولاتي وأيامي

فإنني ضامن أن لا أكافئه ... إلا بتسويغه فضلي وانعامي

وإني لكما قال القيسي: ما زلت امتطي النهار إليك واستدل بفضلك عليك حتى إذا اجتن الليل فغض البصر، ومحا الأثر قام الرجاء يدني سائر أملي والنفس راغبة والاجتهاد عاذر، وإذ قد بلغتك فقدني، فقال سليمان: لا عليك فإني عارف بوسيلتك محتاج إلى اصطناعك وكفايتك، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك ما يحسن عليك أثره، ويطيب لك خبره.

٢٣ - تلطف رجل من أهل الشام في استمناح المنصور:

قدم رجل من أهل الشام على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاماً حسناً فقال له أبو جعفر: حاجتك؟ فقال: يمليك الله يا أمير المؤمنين. قال: حاجتك فإنه ليس كل ساعة يمكنك هذا ولا تؤمر به. فقال: والله ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك ولا أغتنم مالك وإن سؤالك لشرف وإن عطاءك لزين وما بامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين. فأمر له المنصور بمنحة سنية.

وقد ألم الرجل في أكثر معانيه بقول أمية بن أبي الصلت يستمنح عبد الله بن جدعان القرشي:

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ... ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرئ بذل وجهه ... إليك كما بعض السؤال يشين

استمناح العتابي لأحد أصدقائه

٢٤ - كتب كلثوم بن عمرو العتابي إلى صديق له:

أما بعد – أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة – فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النعجة استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف، واشتد علينا كلبها، وغابت قطتها وكذبتنا غيومها وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها فانتجعتك وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنك تغطي عين الحاسد والله يعلم أني ما أعدك إلا في حومة الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يعرف جوده ولم تظهر همته. وأنا أقول في ذلك:

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقراً فهو محمود

قيل: فشاطره جميع ماله.

٢٥ - كتب عبد الله بن سليمان أبو العيناء المتوفّى سنة ٢٨٢ هـ:

أنا – أعزك الله – وعيالي زرع من زرعك إن أسقيته راع وزكا وإن جفوته ذبل وذوى، وقد مسني منك جفاء بعد بر، وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلم عدو، وشمت حاسد، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعباً ولهم مخرساً.

لا تهني بعد أن أكرمتني وشديد عادة منتزعة

٢٦ - كتب ابن الرومي يستعطف القاسم بن عبيد الله:

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً فو الله إني ترفع عن ظلمي عفو ذنب لم أجنه وألمس الإقالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولاً وأزداد تذللاً وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها وأسأل الله أن يجعل حظي منك بقدر ودي بوفائك ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك والسلام.

٢٧ - وكتب إليه القاسم بن عبد الله:

لو كان في الصمت موضع يسع حالي لخففت عن سمع الوزير ونظره ولم أشغل وجهاً من فكره وما زالت الشكوى تعرب عن لسان البلوى. ومن اختلت حالته كان في الصمت هلكته، وقد كان الصبر ينصرني على ستر أمري حتى خذلني.

٢٨ - كتب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ:

نحن في الظاهر على افتراق وفي الباطن على تلاق، نحن نناجي بالضمائر ونتخاطب بالسرائر، إذا حصل القرب بالإخلاص، لم يضر البعد بالأشخاص، أنا أناجيك بخواطر قلبي، وإن كان قد غاب شخصك عني، إن أخطأتك يدي بالمكاتبة، ناجاك سري بالمواصلة، رب غائب بشخصه حاضرٌ بخلوص نفسه إن تراخى اللقاء، فإننا نتلاقى على البعاد، ونتلاقى نظر العين بالفؤاد.

٢٩ - وكتب أيضاً:

أنا أشتاق لك كما تشتاق الجنان، وإن لم تتقدم لهما العينان، أنا وإن كنت ممن لا يسعد بلقائك فقد اشتمل على الأنس ببقائك، والشوق إلى محاسنك التي سارت أخبارها، ولاحت آثارها لا زالت الأيام تكشف لي من فضلك والأخبار تعرض على من عقلك، ما يشوقني إليك، وإن لم أرك ويزيدني رغبة.

٣٠ - وكتب الصاحب إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ:

مجلسنا يا سيدي مفتقر إليك معوِّل في شوقه عليك، ولقد توردت خدود بنفسجه وفتقت فأرة نارنجه وانطلقت ألسن الأوتار وقامت خطباء الأطيار وهبت رياح الأقداح، ونفقت سوق الأنس والأفراح، وقد أبت راحته أن تصفو إلا أن تتناولها يمناك وأقسم غناؤه لا طيب حتى تعيه أذناك ووجنات أترجه قد احمرّت خجلاً لإبطائك وعيون نرجسه قد حدقت تأميلاً للقائك ونحن لغيبتك كعقد ذهبت واسطته وشباب قد أخذت جدته، وإذا غابت شمس السماء عنا، فلا أن تدنو شمس الأرض منا، فإن رأيت أن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد ونحصل بك في جنة الخلد، فكن إلينا أسرع من السهم في ممره، والماء إلى مقره، لئلا يخبث من يومي ما طاب، ويعود من نومي ما طار.

٣١ - وكتب أبو بكر الخوارزمي - المتوفى سنة ٣٨٣ هـ:

كتابي وأنا بما يبلغني من صالح أخبار (السيد) مغتبط مسرور وبما يعرفه الزمان وأهله من اعتضادي به مصون موفور، والله على الأولى محمود وعلى الأخرى مشكور، التطفل، وإن كان محظوراً في غير مواطنه فإنه مباح في أماكنه وهو وإن كان في بعض الأحوال يجمع عاراً ووزراً فإنه في بعضها يجمع فخراً وذخراً، ورب فعل يصاب به وقته فيكون سنة، وهو غير في وقته بدعة، وقد تطفلت على السيد بهذه الأحرف، أخطب بها مودته إليه، وأعرض فيها مودتي عليه وأسأله أن يرسم لي في لساني وقلبي رسماً، ويخيِّم عليهما ختماً فقد جعلتهما باسمه وقصرتهما على حكمه، وسأضعهما تحت ختمه، وبرئت إليه منهما وصرت وكيله فيهما، فهما على غيره حمى لا يقرب وبحيرة لا تحلب ولا تركب، ولما نظرت إلى آثار السيد على الأحرار ونشرت طراز محاسنه من أيدي القاصدين والزوار، ورأيت نفسي غفلاً من سمة مودته وعطلاً من جمال عشرته حميتها من أن يحمى عليها ورد مورود ويحسر عنها ظل على الجميع ممدود، وعجبت من.

٣٢ - وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ:

يعز عليَّ - أطال الله بقاء مولاي - أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي ويرد مشرعة الأنس به كتابي، قبل ركابي ولكن: ما الحيلة والعوائق جمة!!.

وعلي أن أسعى ولي س عليَّ إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبلت جداره، وما بي حب الحيطان ولكن شغفاً بالقطان، ولا عشق الجدران، ولكن شوقاً إلى السكان:

أمرُّ على ديار سلمى أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وحين عدت العوادي عنه، أمليت ضمير الشوق على لسان القلم، معتذراً إلى مولاي على الحقيقة عن تقصير وقع وفتور في الخدمة عرض، ولكني أقول:

إن يكن تركي لقصدك ذنبا فكفى أن لا أراك عقابا

٣٣ - وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ:

أراني أذكر (مولاي) إذا طلعت الشمس، أو هبت الريح، أو نجم النجم أو لمع البرق أو عرض الغيث، أو ذكر الليث، أو ضحك الروض وإني للشمس محياه وللريح رياه، وللنجم حلاه وعلاه، وللبرق سناؤه وسناه وللغيث نداه ونداه، وفي كل صالحة ذكراه وفي كل حادثة أراه فمتى أنساه؟ ولشدة شوقاه عسى الله أن يجمعني وإياه.

٣٤ - وكتب أبو عثمان بن عمرو بن بحر بن الجاحظ المتوفّى بالبصرة سنة ٢٥٥هـ؛ أما بعد: فنعم البديل من الزلة الاعتذار وبئس العوض من التوبة الإصرار، فإنه لا عوض من إخائك ولا خلف من حسن رأيك، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك، وقد مسني من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك.

٣٥ - وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦ هـ إلى المأمون:

كل ذنب - يا أمير المؤمنين - وإن عظم صغير في جنب عفوك، وكل إساءة وإن جلت يسيرة لدى حلمك، وذلك الذي عوَّدكه الله أطال مدتك، وتمم نعمتك وأدام بك الخير، ودفع عنك الشر والضير.

وبعد: فهذه رقعة الولهى - التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي المهمات لجميل الذكر - فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي وأن تصل رحمي وتحتسب فيما جعلك الله له طالباً وفيه راعياً - فافعل وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك.

٣٦ - وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتي:

وصلت رقعتك يا أماه - أحاطك الله وتولاك بالرعاية - ووفقت عليها وساءني - شهد الله - جميع ما أوضحت فيها لكن الأقدار نافذة والأحكام جارية، والأمور متصرفة، والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات وكل حي إلى ممات والغدر والبغي حتف الإنسان والمكر راجع إلى صاحبه.

وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه، وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين والسلام.

٣٧ - كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزّيه وينصح له:

وصلت رقعتك (يا سيدي) والمصاب لعمر الله كبير، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجدر، والعزاء عن الأحبة رشد كأنه الغي، قد مات الميت فليحيا الحي، فاشدد على مالك بالخمس، فأنت اليوم غيرك بالأمس، قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك تضحك ويبكي لك، وقد مولك مما ألف بين سراه وسيره وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره، وسيعجم الشيطان عودك، فإن استلانك رماك بقوم يقولون: خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب وتنفقه بين الحباب والأحباب، والعيش بين القداح والأقداح ولولا الاستعمال لما أريد المال، فإن أطعتهم فاليوم في الشراب وغداً في الخراب، واليوم واطربا للكأس وغداً واحربا من الإفلاس.

يا مولاي: ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقراً فقراً وذلك المسموع من النأي هو في الآذان زمر، وفي الأبواب سمر، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً في عودك من هذا الوجه، رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك، فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك وتناقش عرسك، وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه في الآخرة في ميزان غيرك لا، ولكن قصداً بين الطريقين وميلاً عن الفريقين لا منع ولا إسراف، والبخل فقر حاضر عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه.

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فليكن لله في مالك قسم، وللمروءة قسم، فصل الرحم ما استطعت وقدر إذا انقطعت، فلأن تكون في جانب التقدير، خير من أن تكون في جانب التبذير.

٣٨ - وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفّى سنة ٣٩٨ هـ إلى ابن أخته: أنت ولدي ما دمت: والعلم شأنك والمدرسة مكانك والمحبرة حليفك والدفتر أليفك، فإن قصرت ولا إخالك فغيري خالك، والسلام.

٣٩ - وكتب ابن العميد المتوفّى سنة ٣٦٠ هـ في شكر صديق له على مراسلته إياه: وصل ما وصلتني به (جعلني الله فداك) من كتابك، بل نعمتك التامة ومنتك العامة فقرَّت عيني بوروده، وشفيت نفسي بوفوده، ونشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر، وتنفس الأنوار في السحر وتأملت مفتتحة، وما اشتمل عليه من لطائف كلمك وبدائع حكمك

فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك، وضروب الفضل منك جداً وهزلاً ما ملأ عيني وغمر قلبي، وغلب فكري وبهر لبي، فبقيت لا أدري، أسموط در خصصتني بها أم عقود جوهر منحتنيها ولا أدري: أجدك أبلغ وألطف؟ أم هزلك أرفع وأظرف؟ وأنا أوكل بتتبع ما انطوى عليه نفساً لا ترى الحظ إلا ما اقتنيته منه، ولا تعد الفضل إلا فيما أخذته عنه، وأمتع بتأمله عيناً لا تقر إلا بمثله مما يصدر عن يدك، ويرد من عندك، وأعطيه نظراً لا يمله، وطرفاً لا يطرف دونه وأجعله مثالاً أرتسمه وأحتذيه وأمتع خلقي برونقه، وأغذي نفسي ببهجته، وأمزج قريحتي برقته، وأشرح صدري بقراءته ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً لقد عرفت أنه ما سمعت به من السحر الحلال.

٤٠ - وكتب أبو عثمان عمرو بن الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ:

ليس عندي من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن، وإثبات الفضل بحال المأمول، وأرجو أن أكون من الشاكرين، فتكون خير معتب وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم، والكون تحت أجنحتكم، فيكون لا أعظم بركة ولا أنمى بقية من ذنب أصبحت فيه وبمثلك (جعلت فداك) عاد الذنب وسيلة والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشر خيراً والغرم غنماً، من عاقب فقد أخذ حظه وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا على قدر الاحتمال، وتجرع المرائر، وأرجو أن لا أضيع (وأهلك) فيما بين كرمك وعقلك وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه، وعظم حقه، وإنما الفضل والثناء بالعفو عن عظيم الجرم، ضعيف الحرمة وإن كان العفو العظيم مستطرفاً من غيركم فهو تلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم فلا أنتم عن ذلك تنكلون، ولا على سالف إحسانكم تندمون ولا مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم حين كان لا يمر بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً، فقال له (شمعون الصفار): ما رأيت كاليوم! كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً؟ فقال: ((كل امرئ ينفق مما عنده))، وليس عندكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

٤١ - كتب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفّى سنة ٤٢٩ هـ:

الكريم إذا قدر غفر وإذا أوثق أطلق، وإذا أسر أعتق، قد هربت منك إليك واستعنت بعفوك عليك، فأذقني حلاوة رضاك عني، كما أذقتني مرارة انتقامك مني، الحر كريم الظفر، إذا نال أقال، واللئيم إذا نال استطال قد هابك من استتر ولم يذنب من اعتذر، تكلف الاعتذار بلا زلة كتكلف الدواء بلا علّة، مولاي يوجب الصفح عند الزلة كما يلتزم البذل عند الخلة، مولاي يوليني صفيحة ويؤتيني العفو من عفوه زللت، وقد يزل العالم الذي لا أساويه، وعثرت وقد يعثر الجواد الذي لا أجاريه، لا تضيقن عني سعة خلقك، ولا تكدرن علي صفو ودك، ما لي ذنب يضيق عنه عفوك، ولا جرمٌ يتجافى تجافي تجاوزك وصفحك، والسلام.

٤٢ - رسالة أبي حيان التوحيدي إلى ابن العميد:

"اللهم هب لي من أمري رشداً ووفقني لمرضاتك أبداً، ولا تجعل الحرمان علي رصداً أقول لما رأيت شبابي هرماً بالفقر، وفقري غنياً بالقناعة، وقناعتي عجزاً عند أهل التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه فرأيت طرفه نابياً، وعنانه عن رضاي مثنياً... حتى لاحت لي غرة الأستاذ، فقلت: حل بي الويل وسال بي السيل، أين أنا من ملك الدنيا والفلك الدائر بالنعمة، أين أنا من مشرق الخير ومغرب الجميل؟ أين أنا من بدر البدور وسعد السعود؟ أين أنا ممن يرى البخل كفراً صريحاً والإفضال ديناً صحيحاً؟ أين أنا من سماء لا تفتر عن الهطلان وعن بحر لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان؟ أين أنا من فضاء لا يشق غباره وعن حرم لا يضام جاره؟ أين أنا من الباع الطويل والأنف الأشم والمشرب العذب والطريق الأصم؟ لم لا أقصد بلاده؟ لم لا أقتدح زناده؟ لم لا أنتجع جنابه وأرعى مزاده؟ لم لا أسكن ريعه؟ لم لا أستدعي نفعه؟ لم لا أخطب جوده وأهتصر عوده؟ لم لا أستمطر سحابه؟ لم لا أستسقي ربابه؟ لم لا أستميح نيله وأستحب ذيله ولا أحج كعبته وأستلم ركنه؟ لم لا أصلي إلى مقامه مؤتماً بإمامه؟ لم لا أسبح ببنانه مقدساً؟

فتى صيغ من ماء الشبيبة وجهه ... فألفاظه جود وأنفاسه مجد

لم لا أقصد فتى للجود في كفه من البحر عينان نضاختان، لم لا أمتري معروف:

فتى لا يبالي أن يكون بجسمه ... إذا نال خلات الكرام شحوب

لم لا أمدح:

فتـــى يـــشتري حـــسن المقـــال بروحـــه ويعلـــم أعقـــاب الأحاديـــث في غـــد

نعم لم لا أنتهي في تقريظ فتى لو كان من الملائكة لكان من المقربين، ولو كـان مـن الأنبيـاء لكان من المرسلين، ولو كان من الخلفاء لكان نعته اللائذ بالله. أصلح أديمي فقد حلم وجـدد شبابي فقد هرم. وأنطق لساني في اصطناعي فقد شردت صحائف النجح عند انتجاعي، ورش عظمي فقد براه الزمان، واكس جلدي فقد عراه الحـدثان. اللهـم فـأحْي بـه بـلادك، وأنعـش برحمته عبادك، وبلغه مرضاتك وأسـكنه فردوسـك، وأدم لـه العـوم النـامي والكعـب العـالي والمجد والتليد والجد السعيد".. إلخ.

الباب الثالث عشر

الوصايا

في العصر العباسي

أ - أدب الوصايا العباسي:

لم يختلف أدب الوصايا عما كان عليه في العصور السابقة، من جيث الموضوع والأسلوب والطريقة ؛ فالوصية كما نعرف هي خلاصة خبرة يقدمها ذوو التجارب لقليلي التجربة في الحياة.

ب - نماذج من الوصايا:

١ - وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين:

يا أحمر – إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين.

أقرئه القرآن، وعرِّفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة.

الباب الرابع عشر
المقامات الأدبية
في العصر العباسي

أولاً - إضاءة:

المقامة: قطعة أدبية تشتمل على كلمة أو موعظة أو قصة أو حكاية نحو ذلك، يبغي كاتبها من ورائها إتقان العبارة وصياغتها صياغة فنية ممتازة. وقد تأثر كثير من الكتاب في جميع العصور بالمقامات فاحتذوا حذوها ونسجوا على منوالها، وعنوا أكثر ما عنوا منها بالصياغة والأسلوب وإظهار المقدرة البلاغية، أي أنهم وقفوا بالمقامات عند الحد الذي رسمه لها بديع الزمان الهمذاني وأبو محمد القاسم الحريري، وبذلك جمدت المقامات، ولم تتطور مع الزمن ولو أنهم نوَّعوا في موضوعاتها وتفننوا فيها بمقدار تفننهم في براعة الأسلوب والصناعة اللفظية، لكان من الممكن أن تكون هذه المقامات نواةً وأساساً لبناء القصة القصيرة في الأدب العربي.

ثانياً - مؤسسو المقامات:

١ - بديع الزمان الهمذاني

أ - إضاءة:

يعد "بديع الزمان الهمذاني" المبتكر الأول لفن المقامة الذي انتشر على نحو واسع كأحد فنون النثر في الأدب العربي، كما يعد الرائد الحقيقي للصحافة، ليس في الأدب العربي فحسب، وإنما كان الصحفي الأول على الإطلاق؛ فقد كانت رسائله ومقاماته النقدية الاجتماعية هي البدايات الحقيقية الأولى لذلك الفن الذي يُعرف فيما بعد بالصحافة. ويحدثنا القلقشندي كذلك عن نشأة المقامة فيقول: (واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات، علامة الدهر وإمام الأدب البديع الهمذاني (٣٩٨ هـ) فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة، وعلو الرتبة في الصنعة، ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري (٥١٥ هـ) فعمل مقاماته الخمسين المشهورة، فجاءت نهاية من الحسن،وأقبل عليها الخاص والعام ورزق

الهمـذاني والحريـري الحظـوة التامـة في عمـل المقامـات، وقـد اشـتملت عـلى كثـير مـن البلاغات.....).

وقال ابن خلكان: (بديع الزمان هو صـاحب الرسـائل الرائقـة والمقامـات الفائقـة وعـلى منواله نسج الحريري مقاماته واحتذى حذوه واقتفى أثره واعترف في خطبته بفضله وأنه الذي أرشده إلى سلوك هذا المنهج).

ب - حياته ونشأته: ولد "بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني" في همـذان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م، لأسرة عربية ذات علـم وفـضل ومكانـة مرموقـة، فقـد كـان أخـوه "الحسين بن يحيى" مفتي همذان. ونشأ "بديع الزمان" في بيئة علميـة خـصبة، حيـث كانـت همذان موطن عدد كبير من العلماء الأعلام الذين تتلمـذ علـيهم "بـديع الزمـان"، ومـنهم " أحمد بن فارس" اللغوي المعروف، و"أبو بكر محمد بن الحسين الفراء" اللغوي الشهير.

وفي عام٣٨٠هـ، انتقل بديع الزمان إلى أصفهان فانـضم إلى حلبـة شـعراء الـصاحب بـن عباد، ثم يمَّم وجهه شطر جرجان فأقام في كنف أبي سعيد بن منصور وخالط أسرة من أعيـان جرجان، فأخذ عنها الشيء الكثير، ثم ما فتئ أن نشب خلاف بينه وبين أبي سـعيد الإسـماعيلي غادر جرجان إلى نيسابور، وكان ذلك سـنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢ م واشـتدت رغبتـه في الاتـصال باللغوي الكبير والأديب الذائع الصيت أبي بكر الخوارزمي، ولبى هذا الخوارزمي طلب بديع الزمان والتقيا، فلم يحسن الأول استقبال الثاني، وحصلت بينهما قطيعـة ونمـت بيـنهما عـداوة فاستغل هذا الوضع بعض الناس وهيؤوا للأديبين مناظرة كان الفوز فيها لبديع الزمان بفضل سرعة خاطرته، وقوة بديهته.

فزادت هده الحادثة من ذيوع صيت بديع الزمان عند الملوك، والرؤساء وفتحـت لـه مجـال الاتصال بالعديد من أعيان المدينة، والتف حوله الكثير من طلاب العلم، فـأملى علـيهم أكثـر من أربعمئة مقامة، لم يبق منها سوى اثنتين وخمسين. ولم تطل"" إقامة بديع الزمان"" بنيسابور وغادرها متوجها نحو سجستان فأكرمه أميرها خلف بن أحمد أيـما إكـرام؛ لأنـه كـان مولعـاً بالأدباء والشعراء.

وأهدى إليه "'بديع الزمان"' مقاماته إلا أن الوئام بينهما لم يدم طويلاً، فقد تلقى "'بـديع الزمان"' يوماً من الأمير رسالة شديدة اللهجة أثارت غضبه، فغادر سجستان صوب غزنة حيث عاش في كنف السلطان محمود معززاً مكرماً، وفي آخر المطاف حط رحاله بمدينة هرات فاتخذها دار إقامة وصاهر أبا علي الحسين بن محمد الخشنامي أحد أعيان هذه المدينة وسادتها فتحسنت أحواله بفضل هذه المصاهرة.

وتوفي بديع الزمان الهمذاني في ١١ من جمادى الآخرة ٣٩٨ هـ / ٢٣ من فبراير ١٠٠٨م عن عمر بلغ أربعين عامًا، وتذكر الروايات أنه مات بالسكتة، وعُجّل بدفنه فأفاق في قبره، وسمع صوته بالليل، فنُبش عنه، فوجدوه قابضًا على لحيته، ولكن ابن خلكان يذكر أنه مات مسمومًا دون أن يشير إلى من دس له السم.

٢ - أبو محمد القاسم الحريري:

أ - حياته ونشأته:

هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري الحرامي (٤٤٦ - ٥١٦هـ) كان أحد أئمة عصره في العربية - لغاتها - وأمثالها - ورموز أسرار كلامها، وهو من عرفها حق المعرفة استدل فيها على فضل هذا الرجل، وكثرة اطلاعه، وغزارة مادته، وكان رغب في العلم مع وافر ثروته، فجاء البصرة وطلب العلم على علمائها - وسكن فيها بمحلة بني حرام فقيل له الحرامي - وما زال يجالس العلماء، ويشهد حلقات الأدب، حتى برع في الشعر والترسل، واستبحر في اللغة وآدابها، وحذق الفقه، وتضلع في الفرائض.و الحريري نسبة إلى الحرير وعمله أو بيعه.

ب - مقاماته وعملها:

١ - يُقال: إن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، وحملها من البصرة إلى بغداد وادعاها، فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد، وقالوا: إنها ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته، فقال: أنا رجل منشئ. فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عيَّنها، فانفرد في ناحية من الديوان، وأخذ الدواة والورقة ومكث زماناً كثيراً فلم يفتح

الله سبحانه عليه بشيء من ذلك، فقام وهو خجلان، وكان في جملة من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر، فلما لم يعمل الحريري الرسالة التي اقترحها الوزير أنشد ابن أفلح، وقيل: إن هذين البيتين لأبي محمد بن أحمد المعروف بابن جكينا الحريمي البغدادي الشاعر المشهور:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس

أنطقه الله بالمشان كما ... رماه وسط الديوان بالخرس

فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أُخر وسيرهن، واعتذر من عيِّه وحصره في الديوان بما لحقه من المهابة.

٢ - ويحكى أنه كان دميماً قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئاً، فلما رآه استزرى شكله، ففهم الحريري ذلك منه، فلما التمس منه أن يملي عليه قال له: اكتب:

ما أنت أول سار نحوه قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن

فاختر لنفسك غيري إنني رجل ... مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف.

ج - **سبب وضعه لها:** ما حكاه ولده أبو القاسم عبد الله، قال: كان أبي جالساً في مسجد بني حرام، فدل شيخ ذو طمرين، عليه أُهبة السفر، رث الحال، فصيح الكلام حسن العبارة، فسألته الجماعة:من أين الشيخ؟ فقال: من سروج فاستخبروه عن كنيته فقال:أبو زيد فعمل أبي المقامة الثامنة والأربعين المعروفة بالحرامية، وعزاها إلى أبي زيد المذكور وبعد ذلك أتمها الخمسين.

د - آراء النقاد فيه:

١ - **قال (ابن خلكان):** كان أحد أئمة عصره، ورزق الحظوة التامة في عمل المقامات، واشتملت مقاماته على شيء كثير من كلام العرب من لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، وهو من عرفها حق معرفتها، استدل بها على فضل هذا الرجل، وكثرة اطلاعه، وغزارة مادته.

٢ - **وقال (الزمخشري):**

أقـــــــسم بـــــــالله وآياتـــــــه ومـــــــشعر الحـــــــج وميقاتـــــــه

إن الحريـــــــري حـــــــري بـــــــأن تكتـــــــب بـــــــالتبر مقاماتـــــــه

معجـــــزة تعجـــــز كـــــل الـــــورى ولـــــو سروا في ضـــــوء مـــــشكاته

٣ - وقال (بطرس البستاني): وقد فنَّد مقامات الحريري،وبين خطته

أ – يبدأ الحريري مقاماته بإسناد الكلام إلى راويتها الحارث بن همام.

ب – لا تقتصر مقاماته على البديع.

ج – لغة المقامات متينة، قصيرة الجمل يقطعها تقطيعاً موسيقياً.

د – وهو في إنشائه بادي الصنعة، ظاهر التكلف.

هـ – يتعمد الغريب، ويسرف في استعماله.

و – يفرط في اصطناع المجاز والتزيين.

ز – تجفو عبارته ويقل ماؤها، ويعسر مساغها.

ح – أولع بالسجع.

هـ - منزلة الحريري:

لم تقم منزلة الحريري على جمال القصص في مقاماته، والتفنن في أغراضها، وإنما قامت على إنشائها المنمق، وما فيها من رموز لغوية، وأحاج بيانية. فالحريري لم يحفل بالفن القصصي فيعمد إلى ترقيته، بل قصر همته على التصرف في الألفاظ، وضروب المحسنات والألغاز، فجاءت أقاصيصه متشابهة المواضيع، محدودة الخيال، ولكنها حافلة بكل عجيب من أنواع البيان والبديع، وكل غريب من كلام العرب ومذاهبهم. وكان التصنع في الإنشاء هو الطراز الأعلى يومذاك، ففتن بإنشائه أهل زمانه، ومن جاء من بعدهم، فاتخذوا مقاماته عنواناً للكمال، لا يلتفتون إلى غير الصناعة اللغوية فيها، وإليها أشار(ابن خلكان) في كلامه (والزمخشري) في شعره.

و - مؤلفاته:

١ – مقامات الحريري (أشهر آثاره ترجمت إلى عدة لغات وشرحها غير واحد من العلماء).

٢ – درة الغواص في أوهام الخواص.

٣ – مُلحة الإعراب (أرجوزة في النحو).

٤ – ديوان شعر ورسائل.

ز - نماذج من مقامات الحريري

مقامات الحريري والتي تدور بمجملها حول ابتزاز المال عن طريق الحيلة من خلال مغامرات بطلها أبي زيد السروجي التي يرويها الحارث بن همام. لغتها مسبوكة متينة، لا تخلو من بعض التصنع.

١ - المقامة البغدادية.

روى الحارث بن همام قال: ندوت بضواحي الزوراء مع مشيخة من الشعراء لا يعلق لهم مبار بغبار،ولا يجري معهم ممار في مضمار فأفضنا في حديث يفضح الأزهار إلى أن نصفنا النهار، فلما غاض در الأفكار وصبت النقوش إلى الأوكار لمحنا عجوزاً تقبل من البعد وتحضر إحضار الجرد وقد استتلت صبية أنحف من المغازل وأضعف من الجوازل،فما كذبت إذ رأتنا أن عرتنا،حتى إذا ما حضرتنا قالت: حي الله المعارف وإن لم يكن معارف،اعلموا يا مآل الآمال وثمال الأرامل ظغني من سروات القبائل وسريات العقائل لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر ويسيرون القلب ويمطون الظهر ويولون اليد.

فلما أردى الدهر الأعضاد وفجع بالجوارح والأكباد وانقلب ظهراً لبطن نبا الناظر وجفا الحاجب. وذهبت العين وفقدت الراحة وصلد الزند ووهنت اليمن وضاع اليسار وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب فمذ اغبرَّ العيش الأخضر وازورَّ المحبوب الأصفر اسودّ يومي الأبيض فودي الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق فحبذا الموت الأحمر وتلوي من ترون عينه فراره وترجمانه اصفراره قصوى بيد أحدهم ثردة، وقصارى أُمنيته بردة وكنت آليت أن لا أبذل الحر إلا الحر، ولو أني مت من الضر وقد ناجتني المقرونة بأن توجد عندكم المعونة

وآذنتني فراسة الحوباء بأنكم ينابيع الحباء فنضر الله امرأً أبر قسمي وصدق توسمي ونظر إليَّ بعين يقذيها الجمود.

٢ - المقامة الصنعانية

حدّثَ الحارثُ بنُ هَمّامٍ قالَ: لمّا اقتَعدْتُ غارِبَ الاغترابِ. وأنْأتْني المترَبَةُ عنِ الأتْرابِ. طوّحَتْ بي طَوائِحُ الزّمَنِ. إلى صنْعاء اليَمَنِ. فدَخَلْتُها خاويَ الوِفاضِ. باديَ الإنْفاضِ. لا أمْلِكُ بُلْغَةً. ولا أجِدُ في جِرابي مُضْغَةً. فطَفِقْتُ أجوبُ طُرُقاتِها مِثلَ الهائِمِ. وأجولُ في حَوْماتِها جَوَلانَ الحائِمِ. وأرُودُ في مَسارِحِ لَمَحاتي. ومَسايِحِ غدَواتي ورَوْحاتي. كريماً أُخْلِقُ لهُ ديباجَتي. وأبوحُ إلَيْهِ بحاجتي. أو أديباً تُفَرّجُ رؤيَتُه غُمّتي. وتُرْوي رِوايتُه غُلّتي. حتى أدّتْني خاتِمَةُ المَطافِ. وهدَتْني فاتِحةُ الألْطافِ. إلى نادٍ رَحيبٍ. مُحتَوٍ على زِحامٍ ونَحيبٍ. فوَلَجْتُ غابةَ الجمْعِ. لأسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدّمْعِ. فرأيتُ في بُهْرَةِ الحَلْقَةِ شخْصاً شخْتَ الخِلْقَةِ. عليْهِ أُهْبَةُ السّياحَةِ. ولهُ رنّةُ النِّياحَةِ. وهوَ يطْبَعُ الأسْجاعَ بجواهِرِ لفظِهِ. ويقْرَعُ الأسْماعَ بزَواجِرِ وعْظِهِ. وقدْ أحاطَتْ بهِ أخلاطُ الزُّمَرِ. إحاطَةَ الهالَةِ بالقَمَرِ. والأكْمامِ بالثّمرِ.

فدَلَفْتُ إليهِ لأقْتَبِسَ من فوائِدِه. وألْتَقِطَ بعْضَ فرائِدِه. فسمِعْتُهُ يقولُ حينَ خبّ في مجالِه: وهَدَرَتْ شَقاشِقُ ارتجالِه. أيّها السّادِرُ في غُلَوائِهِ. السّادِلُ ثوْبَ خُيَلائِهِ. الجامِحُ في جَهالاتِهِ. الجانِحُ الى خُزَعْبِلاتِه. إلامَ تسْتَمرُّ على غَيّكَ. وتَستَمْرئُ مرْعَى بغْيِكَ؟ وحَتّامَ تتَناهَى في زهوِكَ. ولا تَنْتَهي عن لَهوِكَ؟ تُبارِزُ بمَعصِيَتِكَ. مالِكَ ناصِيَتِكَ! وتجْتَرِئُ بقُبْحِ سيرَتِك. على عالِمِ سَريرَتِكَ! وتَتَوارَى عَن قَريبِكَ. وأنتَ بمَرْأى رَقيبِكَ! وتَستَخْفي مِن مُلوكِكَ وما تَخْفى خافِيَةٌ على مَليكِكَ! أتَظُنُّ أنْ ستَنْفَعُكَ حالُكَ. إذا آنَ ارتِحالُكَ؟ أو يُنْقِذُكَ مالُكَ حينَ توبِقُكَ أعمالُكَ؟ أو يُغْني عنْكَ نَدَمُكَ. إذا زلّتْ قَدَمُكَ؟ أو يعْطِفُ عليْكَ معشَرُكَ يومَ يضُمّكَ مَحْشَرُكَ؟

هلاّ انتَهَجْتَ مَحَجّةَ اهتِدائِكَ. وعجّلْتَ مُعالجَةَ دائِكَ. وفَلَلْتَ شَباةَ اعتِدائِكَ. وقَدَعْتَ نفْسَكَ فهِيَ أكبرُ أعدائِكَ؟ أما الحِمام ميعادُكَ. فما إعدادُكَ؟ وبالمَشيبِ إنذارُكَ. فما أعذارُكَ؟ وفي اللّحْدِ مَقيلُكَ؟ فما قِيلُكَ؟ وإلى الله مَصيرُكَ. فمَن نصيرُكَ؟ طالما أيْقَظَكَ الدّهرُ فتَناعَسْتَ. وجذَبَكَ الوعْظُ فتَقاعَسْتَ! وتجلّتْ لكَ العِبَرُ فتَعامَيْتَ. وحَصْحَصَ لكَ الحقُّ فتمارَيْتَ.

وأذْكَرَكَ الموتُ فتَناسَيتَ. وأمكنَكَ أنْ تُؤاسِي فما آسيْتَ! تُؤثِرُ فِلساً توعِيهِ. على ذِكْرٍ تَعيهِ. وتَختارُ قَصْراً تُعْليهِ. على بِرٍّ تُوليهِ. وتَرْغَبُ عَنْ هادٍ تَسْتَهْديهِ. إلى زادٍ تَستَهْديهِ. وتُغلِّبُ حُبّ ثوبٍ تشْتَهيهِ. على ثوابٍ تشْتَريهِ. يَواقيتُ الصِّلاتِ. أعْلَقُ بقَلبِكَ منْ مَواقيتِ الصّلاةِ. ومُغالاةُ الصَّدُقاتِ. آثَرُ عندَكَ من مُوالاةِ الصَّدَقاتِ. وصِحافُ الألْوانِ. أشْهى إلَيْكَ مِنْ صَحائِفِ الأدْيانِ. ودُعابَةُ الأقْرانِ. آنَسُ لكَ منْ تِلاوَةِ القُرْآنِ! تأمُرُ بالعُرْفِ وتَنتَهِكُ حِماهُ. وتَحْمي عنِ النُّكْرِ ولا تَتحاماهُ! وتُزحزِحُ عنِ الظُّلْمِ ثمْ تغْشاهُ. وتخْشَى النـاسَ واللهُ أحـقُّ أنْ تخْشاهُ! ثـمّ أنْشَدَ:

تبـاً لطالِـبِ دُنْـيا ثَنـى إلَيهـا انـصِبابَهْ
مـا يـسْتَفيقُ غَرامـاً بهـا وفَـرْطَ صَـبابَهْ
ولـوْ دَرى لَكفَـاهُ ممـا يَـرومُ صُـبابَهْ

ثمّ إنّهُ لبّدَ عَجاجَتَهُ. وغيّضَ مُجاجتَهُ. واعْتَضَدَ شكْوَتَهُ. وتأبّطَ هِراوَتَهُ. فلمّا رنَتِ الجَماعَةُ الى تحفُّزِهِ. ورأتْ تأهُّبَهُ لمُزايَلَةِ مركَزِهِ. أدْخَلَ كلٌّ منهُمْ يدَهُ في جيْبِهِ. فـأفْعَمَ لـهُ سَـجْلاً مـنْ سَـيْبِهِ. وقال: اصْرِفْ هَذا في نفقتِكَ. أو فرّقْهُ على رُفْقَتِكَ. فقبِلَهُ منهُم مُغضِياً. وانْثَنى عـنْهُم مُثْنِياً. وجعَلَ يودِّعُ مَنْ يُشيّعُهُ. ليَخْفَى علَيْهِ مَهْيَعُهُ. ويُسرّبُ مـنْ يتْبَعُـهُ. لكَـيْ يُجْهَـلَ مرْبَعُـهُ. قـال الحارِثُ بنُ هَمّامٍ: فاتّبعْتُهُ مُوارِياً عنْهُ عِياني. وقَفوْتُ أثرَهُ منْ حيـثُ لا يَـراني. حتّـى انْتَهـى الى مَغارَةٍ. فانْسابَ فيها على غَرارَةٍ. فأمْهَلْتُه ريثَما خلَعَ نعْلَيْهِ. وغسَل رِجلَيْهِ. ثـمّ هجَمْـتُ علَيـهِ. فوجدتُهُ مُشافِناً لتِلْميذٍ. على خبْزٍ سَميذٍ. وجَدْيٍ حَنيذٍ. وقُبالتَهُما خابيةُ نبيذٍ. فقلتُ لهُ: يا هـذا أيَكونُ ذاكَ خبرَكَ. وهذا مَخْبَرَكَ؟ فزَفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ. وكادَ يتميّزُ منَ الغيْظِ. ولمْ يزَلْ يحَمْلِـقُ إليّ. حتّى خِفْتُ أن يسطُوَ عليّ. فلمّا أن خبَتْ نارُهُ. وتَوارَى أُوارُهُ. أنْشَد:

لبِـسْتُ الخَميـصةَ أبغـي الخَبيـصَـهْ ... وأنْـشَبْتُ شِـصّيَ في كـل شِيـصَـه
وصـيّرتُ وعْـظـيَ أُحبـولَةً ... أُريـغُ القَنـيصَ بهـا والقَنـيـصَـه
وأجْـأني الـدّهْرُ حتـى ولَـجْـتُ ... بلُطْـفِ احتِيـالي عـلى اللّيـثِ عيـصَه
عـلى أنّنـي لـم أهَـبْ صرفَـهُ ... ولا نبَـضَتْ لي مِنْـهُ فَريـصَـه

ولا شرَعـــت بي عـلـــى مَـــورِدٍ يُـــدنّسُ عِـــرضيَ نفْـــسٌ حَـريـــصَـه
ولـــو أنْـــصَفَ الـــدّهرُ في حُكـمِـــهِ لَـــا ملّـــكَ الحُكْـــمَ أهـــلَ النّقيـــصَـه

ثمّ قال ليَ: ادْنُ فكُلْ. وإنْ شِئْتَ فقُم وقُلْ. فالتَفَتّ إلى تِلميذِه وقُلتُ: عزَمْتُ عليْكَ بمَن تستَدفِعُ بهِ الأذى. لتُخْبرَنّي مَنْ ذا. فقال: هذا أبو زيْدٍ السَّروجيُّ سِراجُ الغُرَباء. وتاجُ الأدَبـاء. فانصرَفْتُ من حيثُ أتيتُ. وقضَيْتُ العجَبَ ممّا رأيْتُ.

٣ - المقامة الدينارية

رَوى الحارثُ بنُ هَمّامٍ قال: نظَمَني وأخْداناً لي نادٍ. لمْ يخِبْ فيه مُنادٍ. ولا كَبا قدْحُ زِنـادٍ. ولا ذكَتْ نارُ عِنادٍ. فبيْنَما نحنُ نتجاذَبُ أطْرافَ الأناشيدِ. ونَتوارَدُ طُـرَفَ الأسـانيدِ. إذْ وقَـفَ بِنـا شخْصٌ علَيْهِ سمَلٌ. وفي مِشيَتِهِ قزَلٌ. فقال: يا أخايِرَ الذّخائِرِ. وبشائِرَ العَشائِرِ. عِموا صَـباحاً. وأنْعِموا اصطِباحاً. وانظُروا إلى مَنْ كان ذا نَديّ ونَدًى. وجِدَةٍ وجَداً. وعَقـارٍ وقُـرًى. ومَقـارٍ وقِرًى. فما زالَ بهِ قُطوبُ الخُطوبِ. وحُروبِ الكُروبِ. وشَرَرُ شرِّ الحَسودِ. وانْتِيـابُ النّـوَبِ السّودِ. حتى صفِرَتِ الرّاحَةُ. وقرِعَتِ الساحَةُ. وغـارَ المَنْبَـعُ. ونَبـا المَرْبَـعُ. وأقْـوى المجْمَـعُ. وأقَضّ المضْجَعُ. واستَحالَتِ الحالُ. وأعْوَلَ العِيالُ. وخَلَتِ المَـرابِطُ. ورَحِـمَ الغـابِطُ. وأودى النّاطِقُ والصّامِتُ. ورَثى لَنا الحاسِدُ والشّامِتُ. وآلَ بِنا الـدّهرُ الموقِـعُ. والفَقْـرُ المُـدْقِعُ. إلى أنِ احْتَذَيْنا الوَجى. واغْتذينا الشّجا. واستَبْطَنّا الجَوى. وطَوَيْنا الأحْشاءَ عـلى الطّـوى. واكْتَحَلْنـا السُّهادَ. واستَوطَنّا الوِهـادَ. واسـتوطأن القتـاد. وتناسـينا الأقتـاد، واسـتطبنا الحـين المحتـاج واستَبْطأنا اليومَ المُتاحَ. فهل من حُرٍّ آسٍ. أو سمْحٍ مُؤاسٍ؟ فوَ الّذي استَخْرَجَني من قَيله. لقَـد أمْسَيتُ أخا عَيْلَه. لا أمْلِكُ بيْتَ ليْلَه. قـال الحـارِثُ بـنُ همّـام: فأوَيْـتُ لَمَفـاقِرِه. ولوَطْـتُ إلى استِنْباطِ فِقَرِهِ. فأبْرَزتُ ديناراً. وقُلتُ لهُ اختِباراً: إنْ مدَحْتَهُ نَظْماً. فهوَ لكَ حتْماً. فـانْبَرى يُنـشِدُ في الحالِ. من غيرِ انتِحال:

أكْـــرِمْ بـــهِ أصـــفَرَ راقَـــتْ صُـــفرَتُهْ جـــوّابَ آفـــاقٍ ترامَـــتْ سَفرَتُـــهْ
مـــأثورَةٌ سُـــمعَتُهُ وشُـهـرَتُـــهْ قـــد أُودِعَـــتْ سِرَّ الغِنـــى أسرّتُـــهْ
وقارَنَـــتْ نُجـــحَ المـــساعي خطرَتُـــه وحُبِّبَـــتْ إلى الأنـــامِ غُـرّتُـــهْ

كـــأنّما مـــنَ القُلـــوبِ نُـقْـرَتُـــهْ ... بـــهِ يـــصولُ مَـــنْ حوَتْـــهُ صُرّتُـــهْ

وإنْ تَفانَـــتْ أو توانَـــتْ عِتْـرَتُـــهْ ... يـــا حبّـــذا نُـــضارُهُ ونَـــضْـرَتُـهْ

وحبّـــذا مَغْناتُـــهُ ونـــصْـرَتُـهْ ... كـــمْ آمِـــرٍ بـــهِ اســـتَبّتْ إمـرَتُـــهْ

ومُـــتْرَفٍ لـــوْلاهُ دامَـــتْ حـــسْرَتُـهْ ... وجـــيْشِ هـــمٍّ هزمَتْـــهُ كـرّتُـــهْ

وبـــدرِ تِـــمٍّ أنـزَلَـتْـــهُ بـدْرَتُـــهْ ... ومُستَـــشيطٍ تتلظّـــى جمْـرَتُـــهْ

أسَرّ نجْـــواهُ فلانَـــتْ شِـرّتُـــهْ ... وكـــمْ أسـيرٍ أسْلمَتْـــهُ أُسـرَتُـــهْ

أنقَـــذَهُ حتـــى صـــفَتْ مـــسرّتُـهْ ... وحـــقٍّ مـــوْلًى أبدَعَتْـــهُ فِطْرَتُـــهْ

لـــوْلا التُّقَـــى لقُلـــتُ جلّـــتْ قُدرتُـــهْ

ثم بسَط يدَهُ. بعدَما أنْشدَهُ. وقال: أنْجزَ حُرٌّ ما وعَدَ. وسَحّ خالٌ إذ رَعَـدَ. فنبَـذْتُ الـدّينارَ إليْهِ. وقلتُ: خُذْهُ غيرَ مأسوفٍ علَيْهِ. فوضَعهُ في فيهِ. وقال: بارِك اللهُمّ فيهِ! ثمّ شمّرَ للانْثِناء. بعْدَ توفِيَةِ الثّناء. فنشأتْ لي منْ فُكاهَتِه نشوَةُ غرامٍ. سهّلَتْ عليّ ائْتِنافَ اغْتِرامٍ. فجرّدْتُ ديناراً آخَرَ وقلتُ لهُ: هلْ لكَ في أنْ تذُمّهُ. ثم تضُمّهُ؟ فأنشدَ مُرتَجِلاً. وشَدا عجِلاً:

تبّـــاً لـــهُ مـــن خـــادِعٍ مُـمـــاذِقِ ... أصْـــفَرَ ذي وجْهَـــيْنِ كالمُنـافِـــقِ

يَبـــدو بوَصْـــفَينِ لعَـــينِ الـرّامِـــقِ ... زينَـــةِ معْـــشوقٍ ولـــوْنِ عـاشِـــقِ

وحُبّـــهُ عنـــدَ ذَوي الـحَـقـــائِقِ ... يـــدْعو إلى ارتِكـــابِ سُـــخْطِ الخـــالِقِ

لـــوْلاهُ لمْ تُقْطَـــعْ يَمـــينُ ســـارِقِ ... ولا بـــدَتْ مظْلمَـــةٌ مـــنْ فـاسِـــقِ

ولا اشْـــمأزّ باخِـــلٌ مـــنْ طـــارِقِ ... ولا شـــكا المطـــول مطـــلَ العـــائِقِ

ولا اســـتُعيذَ مـــنْ حَـــسودٍ راشِـــقِ ... وشرّ مـــا فيـــهِ مـــنَ الـخـــلائِقِ

أنْ لـــيسَ يُغْنـــي عنْـــكَ في المَـــضايِقِ ... إلاّ إذا فـــــرّ فِـــــرارَ الآبِـــــقِ

واهـــاً لمَـــنْ يقْذِفُـــهُ مـــنْ حالِـــقِ ... ومَـــنْ إذا ناجـــاهُ نجْـــوى الوامِـــقِ

قـــال لـــهُ قـــوْلَ المُحـــقّ الـــصّادِقِ ... لا رأيَ في وصـــــلِكَ لي ففـــــارِقِ

فقلتُ له: ما أغزَرَ وبْلَكَ! فقال: والشّرْطُ أمْلَكُ. فنفَحتُهُ بالدّينارِ الثّاني. وقلتُ لهُ: عوّذهُما بالمَثاني. فألْقاهُ في فمِهِ. وقرَنَهُ بتوءَمِهِ. وانْكفأ يحمَدُ مغْداهُ. ويمْدَحُ النّاديَ ونَداهُ. قالَ الحارِثُ بنُ همّامٍ: فناجاني قلبي بأنّهُ أبو زيدٍ. وأنّ تعارُجَهُ لِكَيدٍ. فاستَعَدْتُهُ وقلتُ له: قد عُرِفْتَ بوشْيِكَ. فاستَقِمْ في مشيكَ. فقال: إنْ كُنتَ ابنَ هَمّامٍ. فحُيّيتَ بإكْرامٍ. وحَييتَ بينَ كِرامٍ! فقلتُ: أنا الحارثُ. فكيفَ حالُك والحوادِثُ؟ فقال: أتقلّبُ في الحالَينِ بُؤسٍ ورَخاءٍ. وأنقَلِبُ مع الرّيحَينِ زعْزَعٍ ورُخاءٍ. فقلتُ: كيفَ ادّعَيْتَ القَزَلَ؟ وما مِثلُكَ مَن هزَلَ. فاستَسَرّ بِشرُهُ الذي كانَ تجلّى. ثمّ أنشَدَ حينَ ولّى:

تعارَجْتُ لا رَغبَةً في العرَجْ ... ولكِنْ لأقْرَعَ بابَ الفرَجْ
وأُلْقيَ حبْلي على غارِبي ... وأسلُكَ مَسْلَكَ مَن قد مرَجْ
فإنْ لامَني القومُ قلتُ اعذِروا ... فليسَ على أعْرَجٍ من حرَجْ

٤ - المقامة الحرامية

روى الحارثُ بنُ همّامٍ عنْ أبي زيدٍ السَّروجيّ قال: ما زِلْتُ مُذ رحَلْتُ عنْسي. وارتَحَلْتُ عنْ عِرْسي وغَرْسي. أحِنّ إلى عِيانِ البَصرَةِ. حَنينَ المظْلومِ إلى النُصرَةِ. لِما أجمَعَ عليْهِ أرْبابُ الدّرايَةِ. وأصْحابُ الرّوايَةِ. منْ خصائِصِ معالِمِها وعُلَمائِها. ومآثِرِ مشاهِدِها وشُهَدائِها. وأسْألُ اللهَ أن يوطِئَني ثَراها. لأفوزَ بمرْآها. وأنْ يُمطيَني قَراها. لأقْتَري قُراها. فلمّا أحَلّنيها الحظُّ. وسرَحَ لي فيها اللّحْظُ. رأيتُ بها ما يمْلأ العَينَ قُرّةً. ويُسْلي عنِ الأوطانِ كلّ غَريبٍ. فغلَسْتُ في بعض الأيامِ. حينَ نصَلَ خِضابُ الظّلامِ. وهتَفَ أبو المُنذِرِ بالنُّوّامِ. لأخْطوَ في خِطَطِها. وأقْضيَ الوطَرَ منْ توسُّطِها. فأدّاني الاخْتِراقُ في مَسالِكِها. والانصِلاتُ في سِككِها. إلى محلّةٍ موسومَةٍ بالاحْتِرامِ. منسوبَةٍ إلى بني حَرامٍ. ذاتِ مَساجِدَ مشهودَةٍ. وحِياضٍ موْرودَةٍ. ومَبانٍ وثيقَةٍ. ومغانٍ أنيقَةٍ. وخصائِصَ أثيرَةٍ. ومَزايا كثيرةٍ:

بها ما شِئْتَ منْ دِينٍ ودُنْيا ... وجيرانٍ تنافَوْا في المعاني
فمَشغوفٌ بآياتِ المثاني ... ومفْتونٌ برَنّاتِ المثاني
ومُضْطَلِعٌ بتلْخيصِ المعاني ... ومُطّلِعٌ إلى تحْليصِ عانِ

وكـــمْ مـــنْ قـــارِئٍ فيهـــا وقـــارٍ أضَرّا بـــــالجُفونِ وبالجِـفـــــانِ
وكـــمْ مـــنْ مَعْلَـــمٍ للعِلْـــمِ فـيهـــا ونـــادٍ للنّـــدى حُلْـــوِ المَجانـــي
ومَغْنًـــى لا تـــزالُ تـغَـــنُّ فـــيهِ أغاريـــدُ الغَـــواني والأغـانـــي
فـــصِلْ إن شِـــئتَ فيهـــا مَـــنْ يُـــصَلّي وإمّـــا شِـــئْتَ فـــادنُ مـــنَ الدِّنـــانِ
ودونَـــكَ صُـــحبَةَ الأكيـــاسِ فيهـــا أوِ الكاســـاتِ منطَلِـــقَ العِنـــانِ

قال: فبَينَما أنا أنفُضُ طُرُقَها. وأستَشِفُّ رونَقَها. إذْ لمحْتُ عندَ دُلوكِ بَراحِ. وإظْلالِ الرّواحِ. مسجِداً مُشتَهِراً بطَرائِفِهِ. مزدَهِراً بطوائِفِه. وقد أجْرى أهلُهُ ذِكْرَ حُروفِ البدَلِ. وجرَوْا في حلْبَةِ الجدَلِ. فعُجْتُ نحوَهُمْ. لأستَمطِرَ نوّهُمْ. لا لأقتَبِسَ نحوَهُمْ. فلمْ يكُ إلا كقَبْسَةِ العَجْلانِ. حتى ارتفَعَتِ الأصْواتُ بالأذانِ. ثمّ رَدِفَ التّأذينَ بُروزُ الإمامِ. فأُغْمِدَتْ ظُبى الكلامِ. وحُلّتِ الحِبى للقِيامِ. وشُغِلْنا بالقُنوتِ عنِ استِمْدادِ القوتِ. وبالسّجودِ عنِ استِنْزالِ الجودِ. ولمّا قُضيَ الفَرْضُ. وكادَ الجمْعُ ينفَضّ. انْبَرى منَ الجماعَةِ كهْلٌ حُلْوُ البَراعةِ. لهُ منَ السّمتِ الحسَنِ. ذَلاقَةُ اللّسَنِ. وفَصاحَةُ الحسَنِ. وقال: يا جيرَتي. الذينَ اصْطفَيتُهُمْ على أغصانِ شجرَتي. وجعلْتُ خِطتَهُمْ دارَ هِجرَتي. واتّخَذْتُهُمْ كَرِشي وعَيبَتي. وأعددْتُهُمْ لَحْضَري وغيْبَتي. أما تعْلَمونَ أنّ لَبوسَ الصّدقِ أبْهى الملابِسِ الفاخِرةِ. وأنّ فُضوحَ الدُّنيا أهوَنُ منْ فُضوحِ الآخِرَةِ؟ وأنّ الدّينَ إمْحاضُ النّصيحَةِ. والإرْشادَ عُنوانُ العَقيدَةِ الصّحيحةِ؟ وأنّ المُستَشارَ مُؤتَمَنٌ. والمستَرشِدَ بالنُّصحِ قَمِنٌ؟ وأنّ أخاكَ هوَ الذي عذلَكَ. لا الذي عذَرَكَ؟ وصديقَكَ منْ صدقَكَ. لا مَنْ صدّقَكَ؟ فقال لهُ الحاضِرون: أيها الخِلّ الوَدودُ. والخِدْنُ المَوْدودُ. ما سِرّ كلامِكَ المُلغَزِ. وما شرْحُ خِطابِكَ الموجزِ. وما الذي تبْغيهِ منّا ليُنْجَزَ؟ فوَالذي حَبانا بمحبّتِكَ. وجعلَنا منْ صفْوَةِ أحِبّتِكَ. ما نألوكَ نُصْحاً. ولا ندّخِرُ عنْكَ نَضْحاً. فقال: جُزيتُمْ خيراً. ووُقيتُمْ ضَيراً. فإنّكُمْ ممّنْ لا يَشْقى بهِمْ جَليسٌ. ولا يصدُرُ عنهُمْ تلْبيسٌ. ولا يُخيَّبُ فيهِمْ مَظنونٌ. ولا يُطْوى دونَهُمْ مكْنونٌ. وسأُبَثّكمْ ما حاكَ في صدْري. وأستَفْتيكُمْ في ما عيلَ فيهِ صبْري. اعْلَموا أني كُنتُ عندَ صُلودِ الزّنْدِ. وصُدودِ الجَدّ. أخْلَصْتُ معَ اللهِ نِيّةَ العقْدِ. وأعطَيتُهُ صَفقَةَ العهْدِ. على أنْ لا أسْبأ مُداماً. ولا أُعاقِرَ نَدامَي. ولا أحْتَسيَ قهوَةً. ولا أكْتَسيَ نشْوَةً. فسوّلَتْ ليَ النّفسُ المُضِلّةُ. والشّهوَةُ المُذلّةُ المُزِلّةُ. أنْ نادَمْتُ الأبْطالَ. وعاطَيتُ

الأرْطالَ. وأضَعْتُ الوَقارَ. وارتضَعْتُ العُقارَ. وامتطَيْتُ مَطا الكُمَيتِ. وتناسيْتُ التّوبَةَ تَناسيَ الميْتِ. ثمّ لمْ أقْنَعْ بهاتِيكُمُ المَرّةِ. في طاعَةِ أبي مُرّةَ. حتى عكفْتُ على الخَندَريسِ. في يومِ الخَميسِ. وبتُّ صَريعَ الصّهْباء. في اللّيلَةِ الغرّاء. وها أنا بادي الكآبَةِ. لرَفْضِ الإنابَةِ. نامي النّدامَةِ. لوصْلِ المُدامَةِ. شديدُ الإشْفاقِ. منْ نقْضِ الميثاقِ. مُعتَرِفٌ بالإسْرافِ. في عَبّ السُّلافِ:

فيَا قَوْمِ هلْ كَفّارَةٌ تعْرِفونَها تُباعِدُ منْ ذَنْبي وتُدني إلى ربّي

قال أبو زيد: فلمّا حلّ أُنشوطَةَ نفْثِهِ. وقَضى الوَطَرَ منِ اشتِكاء بثّهِ. ناجَتْني نفْسي يا أبا زيْدٍ. هذهِ نُهزَةُ صيْدٍ. فشمّرْ عن يدٍ وأيْدٍ. فانتهَضْتُ منْ مَجْثِمي انتِهاضَ الشّهْمِ.

وانخرَطْتُ منَ الصّفّ انخِراطَ السّهْمِ. وقُلتُ:

أيها الأرْوَعُ الذي فاقَ مجْداً وسؤدُدا
والذي يبْتَغي الرّشا دَ ليَنجو بهِ غَدا
إنّ عندي عِلاجَ ما بِتَّ منهُ مسَهَّدا
فاستَمِعْها عجيبةً غادرَتْني مُلَدَّدا
أنا منْ ساكِني سَرو جَ ذَوي الدّينِ والهُدى
كنتُ ذا ثرْوَةٍ بها ومُطاعاً مُسَوَّدا
مرْبَعي مأْلَفُ الضّيو فِ ومالي لُهُمْ سُدَى
أشتَري الحمْدَ باللُّهى وأقي العِرْضَ بالجَدا
لا أُبالي بمُنفِسٍ طاحَ في البَذْلِ والنّدى
أوقِدُ النارَ باليَفاعِ إذا النّكسُ أخْمَدا
وبَراني المؤمِّلو نَ مَلاذاً ومَقْصِدا
لمْ يشِمْ بارِقي صَدٍ فانْثَنى يشْتَكي الصّدَى
لا ولا رامَ قابِسٌ قدْحَ زَندي فأصْلَدا
طالَما ساعَدَ الزّما نُ فأصْبَحْتُ مُسْعَدا

فقَـــضى اللـــــهُ أنْ يُغـــيّ ... رَ مـــــا كـــــانَ عَـــــوّدا
بـــــوّأ الـــــرّومَ أرْضَـنـــــا ... بعْـــــدَ ضِغْـــــنٍ تـولَّـــــدا
فاسْـــــتباحوا حـــــريمَ مَـــــنْ ... صادَفـــــــوهُ مـوَحِّـــــــدا
وحـــــوَوْا كـــــلَّ مـــــا استـــــس ... رّ بهـــــا لي ومـــــا بـــــدا
فتطوّحْـــــــتُ في البِـــــــلا ... دِ طَـــــــريداً مُـــــــشرَّدا
أجْتَـــــدي النـــــاسَ بعْـدَمـــــا ... كُنـــــتُ مـــــن قَبْـــــلُ مُجْتَـــــدى
وتُـــــرى بي خَـــــصاصَةٌ ... أتَمَنّـــــى لـهـــــا الـــــرّدى
والـبَـــــلاءُ الـــــذي بـــــهِ ... شـــــمْل أُنـــــسي تـبَـــــدّدا
اسْـــــتِباءُ ابْنَتـــــي الـتـــــي ... أسَروهـــــا لتُـفْـتَـــــدى
فاسْـــــتَبِنْ مِحِـنَـتـــــي وم ... دّ إلى نُـــــصْـرَتـي يَـــــدا
وأجِـــــرْني مـــــنَ الـزّمـــــا نِ ... فقـــــدْ جـــــارَ واعْتَـــــدى
وأعِنّـــــي علـــــى فَـكـــــا ... كِ ابْنَتـــــي مـــــنْ يـــــدِ العِـــــدَى
فبِـــــذا تَنْمَـحـــــي الـمـــــآ ... ثِـــــمُ عـمّـــــنْ تـمـــــرّدا
وبِـــــهِ تُـقـبَـــــلُ الإنـــــا ... بَـــــةُ مـمّـــــنْ تـزَهّـــــدا
وهْـــــوَ كفّـــــارَةٌ لـمَـــــنْ ... زاغَ مـــــنْ بعْـــــدِ مـــــا اهْتَـــــدى
ولَـــــئِنْ قُمـــــتُ مُـنـــــشِدا ... فلقَـــــدْ فُهْـــــتُ مُرشِـــــدا
فاقْبَـــــلِ النُّـــــصْحَ والـهِـــــدا ... يَـــــةَ واشْـــــكُرْ لَمَـــــنْ هَـــــدى
واســـــمَحِ الآنَ بـالّـــــذي ... يتـــــسنّى لـتُـحْـمَـــــدا

قال أبو زيدٍ: فلمّا أتْمَتْ هذْرَمَتي. وأُوهِمَ المسؤولُ صِدْقَ كلِمَتي. أغْـراهُ القـرَمُ الى الكـرَمِ بمؤاساتي. ورغّبَهُ الكلَفُ بحمْلِ الكُلَفِ في مُقاساتي. فرضَخَ لي على الحافِرَةِ. ونضَخَ لي بالعِـدَةِ الوافِرَةِ. فانقلَبْتُ الى وَكْري. فرِحاً بنُجْحِ مَكْري. وقد حصلْتُ منْ صوْغِ المَكيـدةِ. عـلى سـوْغِ الثّريدَةِ. ووصلْتُ منْ حوْكِ القَصيدَةِ. إلى لوْكِ العَصيدَةِ. قال الحـارثُ بـنُ همّـامٍ: فقلـتُ لـهُ:

سُبحانَ منْ أبدعَكَ. فما أعْظمَ خُدَعَكَ. وأخْبَثَ بدَعَكَ! فاستَغْرَبَ في الضّحِك. ثمّ أنشدَ غيرَ مُرتَبِكٍ:

عِشْ بالخِداعِ فأنتَ في دهْرٍ بَنوهُ كأُسْدِ بِيشَهْ
وأدِرْ قَناةَ المَكْرِ حتـ ـى تسْتَديرَ رَحى المَعيشَهْ
وصِدِ النّسورَ فإنْ تعذ رَ صيدُها فاقْنَعْ بريشَهْ
واجْنِ الثّمارَ فإنْ تفُتْـ ـكَ فرَضّ نفسَكَ بالحشيشَهْ
وأرِحْ فؤادَكَ إنْ نَبا دهْرٌ منَ الفِكَرِ المُطيشَهْ
فتغايُرُ الأحْداثِ يؤ ذِنُ باستِحالَةِ كُلّ عيشَهْ

٥ - المقامة التّنّيسيّة

حدّثَ الحارثُ بنُ همّامٍ قال: أطَعْتُ دَواعيَ التّصابي. في غُلَواء شَبابي. فلمْ أزَلْ زِيراً للغِيدِ. وأُذُناً للأغارِيدِ. إلى أن وافَى النّذيرُ. وولّى العيشُ النّضيرُ. فقَرِمْتُ إلى رُشْدِ الانتِباهِ. ونَدِمْتُ على ما فرّطْتُ في جنْبِ الله. ثمّ أخذْتُ في كسْعِ الهَناتِ بالحَسَناتِ. وتلافي الهفَواتِ قبلَ الفَواتِ. فمِلْتُ عنْ مُغاداةِ الغاداتِ. إلى مُلاقاةِ التُّقاةِ. وعنْ مُقاناةِ القَيْناتِ. إلى مُداناةِ أهلِ الدّياناتِ. وآلَيتُ أن لا أصْحَبَ إلا مَنْ نزَعَ عنِ الغَيّ. وفاءَ منشَرُهُ إلى الطّيّ. وإنْ ألْفَيْتُ منْ هوَ خَليعُ الرّسَنِ. مَديدُ الوسَنِ. أنْأيْتُ داري عن دارِهِ. وفرَرْتُ عنْ عَرّهِ وعارِهِ.

فلمّا ألقَتني الغُربَةُ بتنّيسَ. وأحَلّتني مسجِدَها الأنيسَ. رأيتُ بهِ ذا حَلقَةٍ مُلتَحمَةٍ. ونظّارَةٍ مُزدَحِمةٍ. وهوَ يقولُ بجأشٍ مَكينٍ ولِسنٍ مُبينٍ: مِسكينٌ ابنُ آدمَ وأيُّ مِسكينٍ. ركَنَ من الدّنيا إلى غيرِ رَكينٍ. واستَعصَمَ منها بغيرِ مَسكنٍ. وذُبِحَ من حُبّها بغيرِ سِكّينٍ. يَكْلَفُ بها لغَباوَتِهِ. ويَكْلَبُ عليْها لشَقاوَتِهِ. ويعْتَدّ فيها لُفاخرَتِهِ. ولا يتزوّدُ منها لآخرتِهِ. أُقسمُ بمَنْ مرَجَ البَحرَينِ. ونوّرَ القمَرَينِ. ورفَعَ قدْرَ الحجريْنِ. لوْ عقَلَ ابنُ آدَمَ. لما نادَمَ. ولوْ فكّرَ في ما قدّمَ. لبَكى الدّمَ. ولوْ ذكَرَ المُكافاةَ. لاستَدرَكَ ما فاتَ. ولوْ نظَرَ في المآلِ. لحسّنَ قُبْلَ الأعْمالِ. يا عجَباً كلَّ العجَبِ. لمَنْ يقتَحِمُ ذاتَ اللّهَبِ. في اكْتِنازِ الذّهبِ. وخزْنِ النّشَبِ. لذوي النّسَبِ. ثمّ منَ

البِدْعِ العَجيبِ. أن يعِظَكَ وخْطُ المشيبِ. وتؤذِنُ شمسُكَ بالمغيبِ. ولستَ ترى أن تُنيبَ. وتهذّبَ المعيبَ. ثمّ اندفَعَ يُنشِدُ إنشادَ منْ يُرشِدُ:

يا ويْحَ مَنْ أنذرَهُ شَيبُهُ ... وهوَ على غَيّ الصِّبا منكَمِشْ

يعْشو الى نارِ الهَوى بعْدَما ... أصبَحَ من ضُعْفِ القُوى يرتَعِش

ويمتَطي اللهْوَ ويعْتَدُّهُ ... أوْطأ ما يفتَرِشُ المُفتَرِشْ

لم يهَبِ الشّيبَ الذي ما رأى ... نجومَهُ ذو اللُّبّ إلا دُهِشْ

ولا انتهَى عمّا نَهاهُ النُهى ... عنهُ ولا بالى بعِرْضٍ خُدِشْ

فذاكَ إنْ ماتَ فسُحْقاً لهُ ... وإن يعِشْ عُدّ كأنْ لمْ يعِشْ

لا خيْرَ في مَحْيا امرئٍ نشْرُهُ ... كنَشْرِ ميْتٍ بعدَ عشْرٍ نُبِشْ

وحبّذا مَن عِرضُهُ طيّبٌ ... يَروقُ حُسْناً مثلَ بُرْدٍ رُقِشْ

فقُلْ لمَن قد شاكَهُ ذنبُهُ ... هلَكْتَ يا مِسكينُ أو تنتَقِشْ

فأخْلِصِ التّوبَةَ تطمِسْ بها ... منَ الخَطايا السودِ ما قد نُقِشْ

وعاشِرِ الناسَ بخُلقٍ رَضِيّ ... ودارِ منْ طاشَ ومنْ لم يطِشْ

ورِشْ جَناحَ الحُرّ إنْ حَصّهُ ... زمانُهُ لا كانَ منْ لم يرِشْ

وأنجِدِ المَوْتورَ ظُلماً فإنْ ... عجِزْتَ عن إنْجادِهِ فاستجِشْ

وانعَشْ إذا ناداكَ ذو كَبوَةٍ ... عساكَ في الحَشْرِ بهِ تنتَعِشْ

وهاكَ كأسَ النُصْحِ فاشرَبْ وجُدْ ... بفَضْلَةِ الكأسِ على مَنْ عطِشْ

قال: فلمّا فرَغَ من مُبكِياتِهِ. وقضَى إنشادَ أبياتِهِ. نهضَ صبيٌّ قد شدَنَ. وأعْرى البَدَنَ. وقال: يا ذَوي الحَصاةِ. والإنْصاتِ إلى الوَصاةِ. قد وعَيْتُمُ الإنشادَ. وفقِهتُمُ الإرْشادَ. فمَن نَوى منكُمْ أن يقْبَلَ. ويُصلِحَ المُستقبَلَ. فلْيُبِنْ بِرّي عنْ نِيّتِهِ. ولا يعدِلْ عني بعَطيّتِهِ. فوالذي يعلَمُ الأسرارَ. ويغفِرُ الإصْرارَ. إنّ سرّي لكَما تَرَوْنَ. وإنّ وجهي ليَستَوْجِبُ الصّوْنَ. فأعينوني رُزِقْتُمُ العوْنَ. قال: فأخذَ الشيخُ في ما يعطِفُ عليْهِ القُلوبَ. ويُسَنّي لهُ المطْلوبَ. حتى أنْبَطَ

حَفرُهُ. واعْشَوشَبَ قَفْرُهُ. فلمّا أنْ ترِعَ الكيسُ. انصَلَتَ يميسُ. ويحمَدُ تِنّيسَ. ولمْ يحْلُ للشيخِ المُقامُ. بعْدَما انْصاعَ الغُلامُ. فاستَرْفَعَ الأيْدي بالدّعاء. ثمّ نَحا نحْوَ الانكِفاء.

قال الراوي: فارتَحْتُ إلى أن أعجُمَهُ. وأحُلَّ مُترجَمَهُ. فتَبعتُهُ وهو يشتَدّ في سمْتِهِ. ولا يفْتُقُ رتْقَ صمتِهِ. فلمّا أمِنَ المُفاجيَ. وأمكَنَ التّناجي. لفَتَ جيدَهُ إليّ. وسلّمَ تسْليمَ البَشاشَةِ عليّ. ثمّ قال: أراقَكَ ذكاءُ ذاكَ الشُّوَيْدِنِ؟ فقلتُ: إي والمؤمِنِ المُهَيمِنِ! قال: إنهُ فتى السّروجيّ. ومُخرِجِ الدُّرّ منَ اللُّجّيّ! فقلْتُ: أشهَدُ إنّكَ لَشَجرَةُ ثمرَتِهِ. وشُواظُ شرَرَتِهِ. فصدّقَ كَهانَتي. واستَحْسَنَ إبانَتي. ثمّ قال: هل لكَ في ابتِدارِ البيتِ. لتَتنازَعَ كأسَ الكُمَيتِ؟ فقلتُ لهُ: ويْحَكَ أتأمُرونَ الناسَ بالبِرّ وتَنسَوْنَ أنفُسَكُمْ؟ فافتَرّ افتِرارَ مُتَضاحِكٍ. ومرّ غيرَ مُماحِكٍ. ثمّ بَدا لهُ أنْ تَراجَعَ إليّ. وقال: احفَظْها عني وعليّ:

اصْرِفْ بصِرْفِ الرّاحِ عنكَ الأسى ... وروّحِ القلْبَ ولا تكتَئِبْ

وقلْ لمَنْ لامكَ في ما بِهِ ... تدفعُ عنكَ الهمّ قدْكَ اتّئِبْ

ثمّ قال: أمَا أنا فسأنطَلِقُ. إلى حيثُ أصطَبِحُ وأغْتَبِقُ. وإذا كُنتَ لا تَصحَبُ. ولا تُلائِمُ مَن يطرَبُ. فلسْتَ لي برَفيقٍ. ولا طريقُكَ لي بطَريقٍ. فخَلّ سَبيلي ونكّبْ. ولا تُنقّرْ عني ولا تُنقّبْ. ثمّ ولّى مُدْبِراً ولمْ يُعَقّبْ. قال الحارثُ بنُ همّامٍ: فالْتَهَبْتُ وجْداً عندَ انطِلاقِهِ. ووَدِدْتُ لوْ لمْ أُلاقِهِ.

٦ - المقامة المعَرّيَّة

أخبرَ الحارِثُ بنُ هَمّامٍ قال: رأيتُ منْ أعاجيبِ الزّمانِ. أن تقدّم خَصْمانِ. إلى قاضي مَعرّةِ النّعمانِ. أحدُهُما قدْ ذهَبَ منْهُ الأطْيَبانِ. والآخَرُ كأنّهُ قَضيبُ البانِ. فقال الشيخُ: أيّدَ اللهُ القاضيَ. كما أيّدَ بهِ المُتقاضيَ. إنّهُ كانَتْ لي مَمْلوكَةٌ رَشِقَةُ القدّ. أسيلَةُ الخدّ. صَبورٌ على الكدّ. تُحُبّ أحْياناً كالنّهْدِ. وترقُدُ أطْواراً في المهْدِ. وتجِدُ في تمّوزَ مَسَّ البَرْدِ. ذاتُ عقْلٍ وعِنانٍ. وحدٍّ وسِنانٍ. وكفٍّ ببَنانٍ. وفمٍ بلا أسْنانٍ. تلْدَغُ بلِسانٍ نَضْناضٍ. وترْفُلُ في ذيْلٍ فضْفاضٍ. وتُجْلى في سَوادٍ وبَياضٍ. وتُسْقَى ولكِنْ منْ غيرِ حِياضٍ. ناصِحَةٌ خُدَعَةٌ. خُبَأةٌ طُلَعَةٌ. مطْبوعَةٌ على المنفَعَةِ. ومطْواعَةٌ في الضّيقِ والسَّعَةِ. إذا قطَعَتْ وصَلَتْ. ومتى فصَلتَها عنْكَ انفَصَلَتْ. وطالَما خدَمَتْكَ فجمّلَتْ. وربّما جنَتْ عليْكَ فآلَمَتْ وملْمَلَتْ.

وإنّ هذا الفَتى استَخْدَمَنيها لغرَضٍ. فأخْدَمْتُهُ إيّاها بِلا عِوَضٍ. عـلى أن يجْتَنـيَ نفْعَهـا. ولا يُكلّفَها إلا وُسْعَها. فأوْلَجَ فيها مَتاعَهُ. وأطالَ بها استِمْتاعَهُ. ثم أعادَها إليّ وقدْ أفْضاها. وبـذَلَ عنْها قيمَةً لا أرضاها. فقال الحَدَثُ: أمّا الشيخُ فأصدَقُ منَ القَطا. وأمـا الإفْـضاءُ ففَـرَطَ عـنْ خَطا. وقدْ رهَنْتُهُ. عن أرْشٍ ما أوْهَنْتُهُ. مملوكاً لي مُتناسِبَ الطّرَفَينِ. مُنتَسِباً إلى القَينِ. نقِيّـاً مـنَ الدّرَنِ والشَّينِ. يُقـارِنُ محلُّـهُ سَـوادَ العـينِ. يُفْـشي الإحْـسانَ. ويُنْـشي الاسْتِحْـسانَ. ويُغْـذي الإنْسانَ. ويتَحامَى اللّسانَ. إنْ سُوّدَ جادَ. أو وَسَمَ أجادَ. وإذا زُوّدَ وَهَبَ الزّادَ. ومَتـى اسْـتُزيدَ زادَ. لا يستَقِرّ بمَغْنى. وقلّما ينكِحُ إلا مَثْنى. يسْخو بمَوجودِهِ. ويسْمو عندَ جودِهِ. وينْقـادُ مـعَ قَرينَتِهِ. وإنْ لمْ تكنْ منْ طينَتِهِ. ويُستَمْتَعُ بزينَتِهِ. وإنْ لمْ يُطْمَعْ في لينَتِهِ. فقال لهُما القاضي: إمّـا أن تُبينا. وإلا فَبينا. فابْتَدَر الغُلامُ وقال:

أعـــارني إبـــرَةً لأرفـــوَ أطْـمـــا ... راً عَفاهـــا البِلـــى وسـوّدَهـــا
فانخرَمَـــتْ في يَـــدي عـــلى خطَـــإٍ ... منّـــيَ لمّـــا جـــذَبْتُ مِـقـوَدَهـــا
فلـــمْ يـــر الـــشيخُ أن يُـــسامِحَـني ... بإرْشِـهـــا إذْ رأى تـأوُّدَهـــا
بـــلْ قـــال هـــاتِ إبـــرَةً تُماثِـلُـهـا ... أو قيمَـــةً بعْـــدَ أن تـجـوّدَهـــا
وإعْتـــاقَ مـــيلي رَهْنـــاً لـــدَيْهِ ونـــا ... هيـــكَ بـــه سُـــبّةً تَـــزوّدَها
فـــالعينُ مَرْهَـــى لرَهْـنِـــه ويـــدي ... تقـــصُرُ عـــنْ أن تفُـــكّ مِروَدَهـــا
فاســبُرْ بـذا الـشّرْحِ غـوْرَ مـسكَنتي ... وارْثِ لمـــنْ لم يكُـــنْ تعـوّدَهـــا

فأقبلَ القاضي على الشيخِ وقال: إيهٍ. بغَيرِ تمْويهٍ! فقال:

أقـــسَمْتُ بالمَـــشْعَرِ الحَـــرامِ ومـــنْ ... ضـــمّ مـــنَ الناسِـــكينَ خَيْـــفُ مِنـــى
لـــوْ ســـاعَفَتْني الأيّـــامُ لمْ يرَنـــي ... مُرتَهِنـــاً مِيلَـــهُ الـــذي رَهَـنـــا
ولا تـــصدّيتُ أبتَـغـــي بـــدَلاً ... مـــنْ إبـــرَةٍ غالَهـــا ولا ثَمَـنـــا
لكِـــنّ قـــوْسَ الخُطـــوبِ ترْشِـــقُني ... بمُـــصْمِياتٍ مـــنْ هاهُنـــا وهُنـــا
وخُـــبْرُ حـــالي كخُـــبْرِ حالـتِـــهِ ... ضُرّاً وبؤســـاً وغُربَـــةً وضَـــنى

قــد عــدَلَ الــدهْرُ بينَنــا فـأنــا نظــيرُهُ في الــشّقاء وهْــوَ أنــا
لا هُــوَ يــسْطيعُ فــكّ مِــروَدِهِ لمّــا غــدا في يَــدَيّ مُرتَهَنــا
ولا مَجــالي لِــضيقِ ذاتِ يَــدي فيــهِ اتّــساعٌ للعَفْــوِ حــينَ جَنــى
فهَــذِهِ قــصّتي وقــصّتُــه فــانْظُرْ إلَيْنــا وبينَنــا ولَنــا

فلمّا وعَى القاضي قَصَصهُما. وتبيّنَ خَصاصَتَهُما وتَخَصُّصَهُما. أبرَزَ لهُما ديناراً منْ تحْتِ مُصَلاّه. وقال لهُما: اقْطَعا بهِ الخِصامَ وافِصلاهُ. فتلقّفَهُ الشيخُ دونَ الحدَثِ. واستَخلَصَهُ على وجهِ الجِدِّ لا العبَثِ. وقال للحدَثِ: نِصْفُه لي بسَهْمِ مَبَرّتي. وسهْمُكَ لي عنْ أرْشِ إبْرَتي. ولستُ عنِ الحقّ أميلُ. فقُمْ وخُذِ الميلَ. فعَرا الحدَثَ لما حدثَ اكتِئابٌ. واكفَهَرّ على سَمائِهِ سَحابٌ. وجَمَ لهُ القاضي. وهيّجَ أسَفَهُ على الدّينارِ الماضي. إلا أنّهُ جبَرَ بالَ الفتَى وبَلْبالَهُ. بدُرَيْهِماتٍ رضَخَ بها لهُ. وقال لهُما: اجْتَنِبا المُعامَلاتِ. وادْرأا المُخاصَماتِ. ولا تحْضُراني في المُحاكَماتِ. فما عِندي كيسُ الغَراماتِ. فنَهَضا منْ عِنْدِه. فرِحَينَ برِفْدِه. مُفصِحَينِ بحَمدِه. والقاضي ما يخْبو ضجَرُهُ. مُذْ بضَّ حجَرُهُ. ولا ينْصُلُ كمدُه. مُذْ رشَحَ جَلمَدُهُ. حتى إذا أفاقَ منْ غشيَتِه. أقبلَ على غاشِيَتِه. وقال: قدْ أُشرِبَ حِسّي. ونبّزني حدْسي. أنهُما صاحِبا دَهاء. لا خَصْما ادّعاء. فكيفَ السّبيلُ الى سبرِهِما. واستِنْباطِ سرّهِما؟ فقال لهُ نِحْريرُ زُمرَتِه. وشِرارَةُ جَمرَتِه: إنّه لنْ يتِمّ استِخراجُ خَبْئِهِما. إلا بهِما. فقَفّاهُما عَوْناً يُرْجِعُهُما إليْهِ. فلمّا مَثَلا بينَ يدَيهِ. قالَ لهُما: اصْدُقاني سِنّ بَكْرِكُما. ولكُما الأمانُ منْ تبِعَةِ مَكْرِكُما. فأحْجَمَ الحدَثُ واسْتقالَ. وأقدَمَ الشيخُ وقال:

أنــا الــسَّروجيُّ وهــذا ولَــدي والــشّبْلُ في المَخْــبَرِ مثــلُ الأسَــدِ
ومــا تــعدّتْ يــدُهُ ولا يَــدي في إبــرَةٍ يوْمــاً ولا في مِــرْوَدِ
وإنّــما الــدهرُ المُــسيءُ المُعْتَــدي مــالَ بِنــا حتــى غــدَوْنا نجْتَــدي
كــلَّ نَــدي الرّاحــةِ عــذْبِ المَــوْرِدِ وكــلَّ جعْــدِ الكــفّ مغْلــولَ الــيَدِ
بكُــلّ فــنٍّ وبكــلّ مقْــصَدِ بالجِــدّ إنْ أجْــدَى وإلاّ بــالــدَّدِ
لنَجلِــبَ الرّشْــحَ إلى الحــظّ الــصّدي ونُنْفِــدَ العُمْــرَ بعــيشٍ أنْكَــدِ

والمـــوتُ مـــنْ بعْـــدُ لَنـــا بالمَرصَـــدِ إنْ لمْ يُفـــاجِ اليـــومَ فـــاجَى في غَـــدِ

فقال لهُ القاضي: لله دَرُّكَ فما أعذَبَ نفَثاتِ فيكَ. وواهاً لكَ لوْلا خِداعٌ فيكَ! وإني لكَ لِمَنَ المُنْذِرينَ. وعليْكَ منَ الحَذِرينَ. فلا تُماكِرْ بعْدَها الحاكِمينَ. واتّقِ سَطْوَةَ المُتحكّمينَ. فما كُلّ مُسيْطِرٍ يُقيلُ. ولا كُلّ أوانٍ يُسْمَعُ القِيلُ. فعاهَدَهُ الشيخُ على اتّباعِ مَشورَتِه. والارْتِداعِ عن تلْبيسِ صورتِهِ. وفصَلَ عن جِهتِهِ. والخَتْرُ يلمَعُ من جبهتِهِ. قال الحارثُ بنُ همّامٍ: فلَمْ أرَ أعجَبَ منْها في تصاريفِ الأسْفارِ. ولا قرَأتُ مِثلَه في تصانيفِ الأسْفارِ.

٦ - المقامة الرّحبيّة:

حكى الحارثُ بنُ هَمّامٍ قال: هتَفَ بي داعي الشّوْقِ. إلى رَحبَةِ مالِكِ بن طَوْقٍ. فلبّيْتُهُ مُتَطِياً شِمِلّةً. ومُنتَضياً عَزْمَةً مُشمَعِلّةً. فلمّا ألقيتُ به المَراشي. وشدَدْتُ أمراسي. وبرَزْتُ منَ الحَمّام بعدَ سبتِ راسي. رأيتُ غُلاماً أُفرِغَ في قالَبِ الجَمالِ. وأُلبِسَ من الحُسنِ حُلّةَ الكَمال. وقدِ اعْتَلَقَ شيخٌ برُدْنِهِ. يدّعي أنّهُ فتَك بابنِه. والغُلامُ يُنكِرُ عِرفَتَهُ. ويُكْبِرُ قِرفَتَهُ. والخِصامُ بينَهُما مُتطايِرُ الشَّرارِ. والزِّحامُ عليهِما يجمَعُ بين الأخيارِ والأشرارِ. إلى أن تَراضَيا بعْد اشتِطاطِ اللّدَد. بالتّنافُرِ إلى والي البلَدِ.

وكان ممّن يُزَنّ بالهَناتِ. ويغلِّبُ حُبَّ البَنين على البَناتِ. فأسْرَعا الى ندْوَتِه. كالسُّلَيْكِ في عَدْوَتِه. فلمّا حضَراه. جدّدَ الشيخُ دعْواهُ. واستَدْعى عدْواهُ. فاستَنطَقَ الغُلامَ وقدْ فتَنَهُ بمحاسِنِ غُرّتِه. وطَرَّ عقلَهُ بتصْفيفِ طُرّتِهِ. فقالَ: إنّه أفيكَةُ أفّاكٍ. علٍ غيرِ سفّاكٍ! وعَضيهَةُ مُحْتالٍ. على منْ ليس بمُغْتالٍ.

فقال الوالي للشّيخ: إنْ شهِدَ لكَ عدْلانِ منَ المُسلِمين. وإلا فاسْتَوْفِ منهُ اليَمينَ. فقال الشيخُ: إنّهُ جدّلَهُ خسياً. وأفاحَ دمَهُ خالِياً. فأنّى لي شاهِدٌ. ولم يكُنْ ثَمّ مُشاهِدٌ؟ ولكِنْ ولّني تلْقينَهُ اليَمينَ. ليَبينَ لكَ أيصْدُقُ أم يَمينُ؟ فقال لهُ: أنتَ المالِك لذلك. معَ وجْدِكَ المُتَهالِك. على ابنِكِ الهالِك.

فقال الشيخُ للغُلام: قُلْ والذي زيّن الجِباهَ بالطُّرَرِ. والعُيونَ بالحَوَرِ. والحَواجِبَ بالبَلَجِ. والمباسمَ بالفلَجِ. والجُفونَ بالسّقَمِ. والأنوفَ بالشّمَمِ. والخُدودَ باللّهَبِ. والثّغورَ بالشّنَبِ. والبَنانَ بالتّرَفِ. والخُصورَ بالهيَفِ. إنّني ما قتَلْتُ ابْنَكَ سهْواً ولا عمْداً. ولا جعلْتُ هامَتَهُ

لسَيْفي غِمْداً. وإلا فرَمى اللهُ جَفْني بالعمَشِ. وخدّي بالنّمَشِ. وطُرّتي بالجلَحِ. وطَلْعي بالبَلَحِ. ووَرْدَتي بالبَهارِ. ومِسْكَتي بالبُخارِ. وبَدْري بالمُحاقِ. وفِضّتي بالاحْتِراقِ. وشُعاعي بالإظْلامِ. ودَواتي بالأقْلامِ.

فقالَ الغُلامُ: الاصْطِلاءَ بالبَليّةِ. ولا الإيلاءَ بهذِه الأليّةِ. والانقِيادَ للقَوَدِ. ولا الحَلِفَ بما لمْ يحلِفْ بهِ أحدٌ. وأبى الشيخُ إلا تجْريعَهُ اليَمينَ التي اخترَعَها. وأمْقَرَ لهُ جُرَعَها. ولم يزَلِ التّلاحي بينَهُما يستَعِرُ. ومَحجّةُ التّراضي تعِرُ. والغُلامُ في ضِمْنِ تأبّيهِ. يخْلُبُ قلْبَ الوالي بتلوّيهِ. ويُطْمِعُهُ في أنْ يلبّيهِ. إلى أن رانَ هَواهُ على قلْبِهِ. وألَبّ بلُبّهِ. فسوّلَ لهُ الوجدُ الذي تيّمَهُ. والطّمَعُ الذي توَهّمَهُ. أنْ يُخلّصَ الغُلامَ ويستخلِصَهُ. وأن يُنقِذَهُ من حِبالَةِ الشيخِ ثمّ يقتَنِصَهُ.

فقال للشيخِ: هلْ لكَ فيما هوَ ألْيَقُ بالأقْوى. وأقرَبُ للتّقْوى؟ فقالَ: إلامَ تُشيرُ لأقْتَفيهِ. ولا أقِفُ لكَ فيهِ. فقال: أرى أنْ تُقصِرَ عنِ القِيلِ والقالِ. وتقتَصِرَ منهُ على مئَةِ مِثْقالٍ. لأتحمّلَ منْها بعْضاً. وأجْتَبي الباقيَ لكَ عُرْضاً. فقالَ الشيخُ: ما مِني خِلافٌ. فلا يكُنْ لوعدِكَ إخْلافٌ. فنقَدَهُ الوالي عِشرينَ. ووزّعَ على وزَعَتِه تكْمِلَةَ خمْسينَ. ورقّ ثوْبُ الأصيلِ. وانقطَعَ لأجْلِهِ صوْبُ التّحصيلِ. فقالَ: خُذْ ما راجَ. ودَعْ عنْكَ اللّجاجَ. وعليّ في غدٍ أنْ أتوصّلَ. إلى أن ينِضّ لكَ الباقي ويتحصّلَ.

فقال الشيخُ: أقْبَلُ منْكَ على أنْ ألازمَهُ ليْلَتي. ويرْعاهُ إنْسانُ مُقلَتي. حتى إذا أعْفى بعْدَ إسْفارِ الصّبحِ. بما بَقيَ منْ مالِ الصّلْحِ. تخلّصَتْ قائِبَةٌ من قُوبٍ. وبَرِئَ بَراءةَ الذّئْبِ منْ دمِ ابنِ يعْقوبَ. فقالَ لهُ الوالي: ما أُراكَ سفمْتَ شَطَطاً. ولا رُمْتَ فرَطاً. قال الحارثُ بنُ همّامٍ: فلمّا رأيتُ حُجَجَ الشيخِ كالحُجَجِ السُّريجيّةِ. علِمتُ أنه علَمُ السُّروجيّةِ. فلبِثْتُ إلى أن زهَرَتْ نُجوم الظّلام. وانتَثَرتْ عُقودُ الزّحامِ. ثمّ قصَدْتُ فِناء الوالي. فإذا الشيخُ للفتى كالي. فنَشَدْتُه اللهَ أهُوَ أبو زيدٍ؟ فقال: أيْ ومُحِلّ الصّيدِ. فقُلتُ: مَنْ هذا الغُلامُ. الذي هفَتْ لهُ الأحْلامُ؟ قال: هوَ في النسبِ فرْخي. وفي المكتَسَبِ فخّي! قلت: فهَلاّ اكتفَيْتَ بمَحاسِنِ فِطرَتِه. وكفَيتَ الواليَ الافتِتان بطُرّتِه؟ فقال: لوْ لمْ تُبرِزْ جبْهَتُهُ السّينَ. لَما قنْفَشْتُ الخمسينَ.

ثمّ قال: بِتِ الليلَةَ عِندي لنُطْفئ نارَ الجَوى. ونُديلَ الهَوى. من النّوى. فقدْ أجْمَعْتُ على أنْ أنْسَلّ بسُحرَةٍ. وأُصْليَ قلبَ الوالي نارَ حسْرَةٍ! قال: فقَضَيتُ الليلةَ معَهُ في سمَرٍ. آنَقَ منْ حَديقَةِ

زهَرٍ. وخَميلةِ شجَرٍ. حتى إذا لألأ الأُفُقَ ذنَبُ السِّرْحانِ. وآنَ انبِلاجُ الفجْرِ وحانَ. ركِبَ متْنَ الطّريقِ. وأذاقَ الوالي عذابَ الحريقِ. وسلّمَ إليّ ساعَة الفِراقِ. رُقعَةً مُحكمَةَ الإلْصاقِ. وقال: ادْفَعْها الى الوالي إذا سُلِبَ القَرار. وتحقّقَ منّا الفِرارَ. ففضَضْتُها فِعْلَ المتملّسِ. منْ مِثلِ صحيفَةِ المتلمّسِ. فإذا فيها مكتوبٌ: مكتَسَبِ فخّي! قلت: فهَلاّ اكتفَيْتَ بمَحاسِنِ فِطرَتِه. وكفَيتَ الواليَ الافتِتان بطُرّتِه؟ فقال: لوْ لمْ تُبرِزْ جبْهَتُهُ السّينَ. لَمَا قنْفَشْتُ الخمسينَ. ثمّ قال: بِتِ الليلَةَ عِندي لنُطْفئ نارَ الجَوى. ونُديلَ الهَوى. من النّوى. فقدْ أجْمَعْتُ على أنْ أنْسَلّ بسُحرَةٍ. وأُصْليَ قلبَ الوالي نارَ حسْرَةٍ! قال: فقَضَيتُ الليلةَ معَهُ في سمَرٍ. آنَقَ منْ حَديقَةِ زهَرٍ. وخَميلةِ شجَرٍ. حتى إذا لألأ الأُفُقَ ذنَبُ السِّرْحانِ. وآنَ انبِلاجُ الفجْرِ وحانَ. ركِبَ متْنَ الطّريقِ. وأذاقَ الوالي عذابَ الحريقِ. وسلّمَ إليّ ساعَة الفِراقِ. رُقعَةً مُحكمَةَ الإلْصاقِ. وقال: ادْفَعْها إلى الوالي إذا سُلِبَ القَرار. وتحقّقَ منّا الفِرارَ. ففضَضْتُها فِعْلَ المتملّسِ. منْ مِثلِ صحيفَةِ المتلمّسِ. فإذا فيها مكتوبٌ:

قُلْ لوالٍ غادَرْتُه بعْدَ بيْني ... سادِماً نادِماً يعَضّ اليَدَيْنِ
سلَبَ الشيخُ مالَهُ وفتاهُ ... لُبَّهُ فاصْطَلى لَظى حسْرَتَيْنِ
جادَ بالعينِ حينَ أعمى هواهُ ... عينَهُ فانْثَنى بِلا عينَينِ
خفِّضِ الحُزنَ يا مُعَنّى فما يُجْ ... دي طِلابُ الآثارِ من بعدِ عَينِ
ولَئِنْ جَلّ ما عَراكَ كما جلَّ ... لدى المُسلِمينَ رُزْءُ الحُسينِ
فقَدِ اعتَضْتَ منهُ فَهماً وحزْماً ... واللّبيبُ الأريبُ يبْغيَ ذَينِ
فاعصِ من بعدها المَطامعَ واعلَمْ ... أنّ صيْدَ الظّباء ليس بهَينِ
لا ولا كُلّ طائِرٍ يلِجُ الفَخّ ... ولوْ كانَ مُحدَقاً باللُّجَينِ
ولَكَمْ مَنْ سعى ليَصْطادَ فاصْطي ... دَ ولم يلْقَ غيرَ خُفّي حُنينِ
فتبصّرْ ولا تشِمْ كلّ برْقٍ ... رُبّ برْقٍ فيهِ صواعِقُ حَينِ
واغضُضِ الطّرْفَ تسترِحْ من غرامٍ ... تكتَسي فيهِ ثوْبَ ذُلٍ وشَينِ
فبَلاءُ الفتى اتّباعُ هوَى النّفـ ... ـسِ وبذْرُ الهَوى طُموحُ العينِ

قال الرّاوي: فمزّقتُ رُقعتَهُ شذَرَ مذَرَ. ولمْ أُبَلْ أعَذَلَ أم عذَرَ.

الباب الخامس عشر
فن التوقيعات
في العصر العباسي

أ - إضاءة:

عُني العباسيون بفن التوقيعات وأبدعوا فيه، ولهم توقيعات مشهورة محفوظة، وقد يوقعون بآية كريمة أو حديث شريف أو بيت من الشعر متى ما كان ذلك مناسباً للغرض. والعصر العباسي يُعدُّ العصر الذهبي لهذا الفن؛ حيث خُصص له ديوان عُرف بديوان التوقيعات، يعين فيه كبار الكتُّاب. وقد أسهمت التوقيعات في توجيه سياسة الدولة العباسية، وفي حل كثير من المشكلات والقضايا الاجتماعية في المجتمع العربي والمسلم، وارتبطت بالحكمة والقول المقنع الفصل في كثير من المواقف، وامتازت بأنها لون أدبي، ليس لما تحمله من أفكار وآراء سديدة تتسم في كثير من الأحيان بالإبداع فقط، بل بأدائها الأدبي الذي من خصائصه الوجازة في التعبير، واختيار الكلمات المناسبة، وملاءمتها للحالة أو الموقف، والإقناع بالرأي، وهي جميعًا من خصائص الأسلوب البليغ ؛ وقد كانت التوقيعات العباسية (ما يكتبها الخليفة أو الوزير على ما يَرِد إليه) من رسائل تتضمن قضية أو مسألة أو شكوى أو طلب. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة، والتوقيع قد يكون آية قرآنية، أو حديثًا نبويًا، أو بيت شعر، أو حكمة، أو مثلاً، أو قولاً سائرًا، ويشترط أن يكون ملائمًا للحالة أو القضية التي وُقِّع فيها.

ب - نماذج من التوقيعات في العصر العباسي:

١ - وقَّع السفاح في كتاب لأبي جعفر المنصور وهو يحارب ابن هبيرة بواسط: (إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر في طاعتك. فخذ لي منك، ولك على نفسك).

٢ - وقَّع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خرسان: (شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة).

٣ – ووقَّع أبو جعفر إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل:(طهِّر عسكرك من الفساد، يعطيك النيل القياد).

٤ – ووقَّع في كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جندًا شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: (لو عدلتَ لم يشغبوا، ولو وفيتَ لم ينهبوا).

٥ – ووقَّع هارون الرشيد في نكبة جعفر بن يحيى: (أنبتته الطاعة وحصدته المعصية).

٦ – ووقَّع المأمون إلى الرستمي في قصة تظلم منه: (ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاوٍ، وجارك طاوٍ).

٧ – ووقَّع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: (فإذا نفخ في الصور، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).

٨ – وكتب إليه إبراهيم بن المهدي: (إن غفرتَ فبفضلك، وإن أخذتَ فبعدلك).

٩ – فوقَّع المأمون في كتابه: (القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله).

١٠ – ووقّع في رقعة مولى طلب كسوة:(لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا).

١١ – ووقَّع جعفر بن يحيى في كتاب رجل شكا إليه بعض عماله: (قد كثُر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت).

الباب السادس عشر

فن الدعاء

يعد فن الدعاء في هذا العصر استمراراً لفن الدعاء في العصور السابقة، ومن الأدعية في هذا العصر

دعاء لأبي نصر الفارابي:

(اللَّهم إني أسألك يا واجب الوجود،

ويا علة العلل،

قديماً لم يزل،

أن تعصمني من الزلل،

وأن تجعل لي من الأمل

ما ترضاه لي من عمل،

اللَّهم امنحني ما اجتمع من المناقب،

وارزقني في أموري حسن العواقب،

أنجح مقاصدي والمطالب،

يا إله المشارق والمغارب،

رب الجوار الكنس السبع التي انبجست عن الكون انبجاس الأبهر،

هنّ الفواعل عن مشيئته التي عمت فضائلها جميع الجوهر،

أصبحت أرجو الخير منك

وأمتري زحلاً ونفس عطارد والمشتري،

اللَّهم ألبسني حلل البهاء،

وكرامات الأنبياء،

وسعادة الأغنياء،

وعلوم الحكماء،

وخشوع الأتقياء،

اللَّهم أنقذني من عالم الشقاء والفناء

واجعلني من إخوان الصفاء،

وأصحاب الوفاء،

وسكان السماء،

مع الصديقين والشهداء،

أنت الله الإله الذي لا إله إلا أنت،

علة الأشياء،

ونور الأرض والسماء،

امنحني فيضاً من العقل الفعال،

يا ذا الجلال والإفضال،

هذب نفسي بأنوار الحكمة،

وأوزعني شكر ما أوليتني من نعمة،

أرني الحق حقاً وألهمني اتباعه،

وأرني الباطل باطلاً واحرمني اعتقاده واستماعه،

هذِّب نفسي من طينة الهيولى

إنك أنت العلة الأولى

يا علة الأشياء جمعاً والذي كان به عن فيضه المتفجر

رب السموات الطباق ومركِّز في وسطهن من الثرى والأبحر

إني دعوتك مستجيراً مذنباً

فاغفر خطيئة مذنب ومقصر

هذِّب بفيض منك رب الكل من كدر الطبيعة والعناصر عنصري

اللَّهم، رب الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية،

غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات والدنيا الدنية،

فاجعل عصمتك مجني من التخليط،

وتقواك حصني من التفريط،

إنك بكل شيء محيط،

اللَّهم أنقذني من أسر الطبائع الأربع،

وانقلني إلى جنانك الأوسع وجوارك الأرفع،

اللهم، اجعل الكفاية سبباً لقطع مذموم العلائق

التي بيني وبين الأجسام الترابية،

والهموم الكونية

واجعل الحكمة سبباً لاتحاد نفسي بالعوالم الإلهية،

والأرواح السماوية،

اللَّهم طهِّر بروح القدس الشريفة نفسي،

وأثِر بالحكمة البالغة عقلي وحسي،

واجعل الملائكة بدلاً من عالم الطبيعة أنسي،

اللَّهم، ألهمني الهدى،

وثبت إيماني بالتقوى،

وبغِّض إلى نفسي حب الدنيا،

اللَّهم، قوِّ ذاتي على قهر الشهوات الفانية،

وألحق نفسي بمنازل النفوس الباقية،
واجعلها من جملة الجواهر الشريفة الغالية،
في جنات عالية،
سبحانك اللَّهم سابق الموجودات
التي تنطق بألسنة الحال والمقال،
إنك المعطي كل شيء منها ما هو مستحقه بالحكمة.
وجاعل الوجود لها بالقياس إلى عدمها نعمة ورحمة،
فالذوات منها والأعراض مستحقة بآلائك،
شاكرة فضائل نعمائك،
وإن من شيء إلا يسبح بحمده،
ولكن لا تفقهون تسبيحهم،
سبحانك اللهم وتعاليت،
إن الله الأحد، الفرد الصمد،
الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد،
اللَّهم، إنك قد سجنت نفسي في سجن من العناصر الأربعة،
ووكلت بافتراسها سباعاً من الشهوات،
اللَّهم، جد لها بالعصمة،
وتعطف عليها بالرحمة التي هي بك أليق
وبالكرم الفائض الذي هو منك أجد وأخلق؛
وامنن عليها بالتوبة العائدة بها إلى عالمها السماوي؛
وعجل لها بالأوبة إلى مقامها القدسي؛
وأطلع على ظلمائها شمساً من العقل الفعال؛

وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال،

واجعل ما في قواها بالقوة كامناً بالفعل؛

وأخرجها من ظلمات الجهل إلى نور الحكمة وضياء العقل،

الله ولي الذين آمنوا أخرجهم من الظلمات إلى النور

اللهم أر نفسي صور الغيوب الصالحة في منامها،

وبدلها من الأضغاث برؤيا الخيرات والبشرى الصادقة في أحلامها؛

وطهرها من الأوساخ التي تأثرت بها عن محسوساتها وأوهامها؛

وأمط عنها كدر الطبيعة؛

وأنزلها في عالم النفوس المنزلة الرفيعة،

الله الذي هداني وكفاني وآواني.

الباب السابع عشر
تحليل نص لأبي بكر الصولي
- الخصائص الأسلوبية واللفظية -

يقول الصولي: (وليس هذا الكتاب والفوائد فيه نغم ولا لتابع دون متبوع، ولا خامل دون نبيه ولا محروفاً ومحروم دون محفوظ، ولا ينبغي لمن رفعته حال أو ساعده جد وهو يؤمن من نفسه تقصيراً في الأدب وتخلفاً عن صناعة الكتابة أن يغتر بحظه وإقبال الأيام عليه في وقت، فإنها دول متقلبة وأحوال متصرفة، وليتلافَ ما ضيَّع، ويستدرك ما فرط، ولا يتكل على كفاءته مشتغلاً بلذاته ومريحاً قلبه وجسمه مستبصراً في كل وقت عليهم، ومتكلاً على كفاءتهم، ينام ويسهرهم ويفرغ ويشغلهم، فأما هذا الفعل إنما يحسن بالرؤساء إذا أشرفوا على العلم واستقلوا بالصناعة، وعرفوا ما يحتاجون إليه من أمر الكتابة وحفظوه، فعند ذلك تشرف عندهم أنفسهم ويحسن بمن عندهم استقامتهم حتى تحملوا عنه ما هو أعلم به منهم، ولا يكونوا أسراء في أيديهم ولا مضطرين إلى ما عندهم).

الدراسة:

أولاً - خطة الدراسة:

١ - مقدمة النص....(وليس هذا الكتاب، حتى قوله ولا محروم دون محفوظ).

٢ - فكرة النص الرئيسة هي: واجبات الكتَّاب نحو عملهم الكتابي والأدبي.

٣ - عرض: تفصيل فكرة واجبات الكتاب وتوجيههم.

٤ - خاتمة: رأيه فيما يجب أن يفعله الكتاب.

ثانياً - أفكاره:

١ - توجيه الكتاب لكافة الكتاب والأدباء.

٢ – إن واجب الكاتب الذي نال حظ من الشهرة أن يواصل جهده ولا يركن إلى ما وصل إليه من حظ ومعرفة.

٣ – الاعتماد على الأعوان والكتبة أمر مهين لمعرفة العمل والكتابة.

٤ – إن هذا الاعتماد يقتصر على المتمكنين من صنعتهم والمستقلين فيها والواثقين من أمر أعوانهم وكتبهم لفترة طويلة،

وواضح أن هذا النص معني بأمور توجيهية وإرشادية تتصل بالعقل موضوعية يسخرها الكاتب لمصلحة الأدب والأدباء، فهي تتطلب وعظاً وإرشاداً ليقرر الكاتب غرضه في أذهان مخاطبيه، ولكن الكاتب صاغ ذلك في أسلوب أدبي مقبول يتطرق إلى النواحي الشعورية عند الكاتب وما تخيل لهم نفوسهم من الوصول إلى المجد وتوهم الكمال وتمام المعرفة وهذا ما يسيء إلى الموضوعية والأمانة العلمية التي يتوخّاها الكاتب وتنقضها مشاعرهم الوهمية.

ثالثاً - وسائله التعبيرية:

١ – يعتمد الكاتب في تناول فكرته على الأسلوب المتنوع بين الخبري والإنشائي، فلقد قدم للحديث خبري، ثم تلاه بإنشائي واستخدم الجمل الإنشائية المشتملة على الأمر والنهي، وهذا مما يناسب الوعظ والتوجيه فيقول: (ولا ينبغي لمن رفعته حال... وليتلافَ ما صنع).

٢ – ويستخدم الشرط للتأكيد على فكرته والحرص على إيضاحها، فيقول: (فإن هذا الفعل يحسن بالرؤساء إذا أشرفوا على العلم واستقلوا بالصناعة).

٣ – يعتمد على الحال للإخبار عن الأمور المتصلة بالكتاب وينوع بين الجمل الحالية والأحوال المفردة مثل قوله:(وهو مؤنس من نفسه تقصيراً في الأدب. لا يتكل على كفاءته مشتغلاً بلذاته ووزنها، ويتصل هذا بوضوح الفكرة في ذهنه وجلاء مقصده في طرح الموضوع).

٤ – الجمل أحياناً طويلة حتى يكتمل الغرض منها كجملة (وهو مؤنس من نفسه تقصيراً في الأدب وتخلفاً عن صناعة الكتابة).

٥ – ويعطف الجمل على بعضها ويقلب فيها ليرسخ المعنى في أذهاننا.

٦ – استخدام الأسلوب المباشر في الكلام دون التعويل على الخيال والتشبيه والاستعارة.

٧ – يكتفي بالجمل التي تصور المعنى وتدل عليه لما فيها من حركة ووصف وتصوير لأحوال الكتاب.

٨ – تفاوت استعمال الخيال والتعبير المباشر بالمقياس إلى مضمون النصوص في ذاتها.

رابعاً - استخدامه للبديع:

من الخصائص النثرية الفنية الشائعة في عصره والتي رسخت في القرن الرابع الهجري:

١ – استخدام ألوان من البديع كالسجع والطباق والجناس والموازنة والازدواج.

٢ – فمنها ما خرج لخدمة المعنى وجمال الشكل والزخرفة اللفظية.

٣ – ومنها ما هدف إلى التأنق اللفظي فحسب.

٤ – وقد يستعمل هذا دونما تكلف ولا إسراف فيبدو مستساغاً محبباً.

٥ – استخدامه للمحسنات اللفظية أو بعضها ولكنها غير متكلفة، بل طبيعية تأتي متناسقة ومتجاوبة مع المضمون، بل هي مسخرة له:

أ – استعمال الطباق فيطابق بين راحة الكاتب وشغله لأعوانه (ينام ويسهرهم ويفرغ ويشغلهم) فينبه إلى الخطأ في الفعل من خلال المطابقة.

ب – ويستخدم السجع فيقول: (فإنها دول متقلبة وأحوال متصرفة).

ج – يوازن بين الكلمات في نهايات الجمل.

إنَّ فضل الكاتب على عصره وعلى اللغة العربية بما قدمه من آداب جليلة أغنى بها العقول والقلوب.

الباب الثامن عشر

أبرز أعلام النثر
في العصر العباسي

الباب الثامن عشر

الفصل الأول

عبد الله بن المقفع

أولاً - حياته ونشأته: ولد أبو محمد عبد الله روزبه بن داذويه عام (١٠٦هـ) وتوفي في (١٤٢هـ) وهو فارسي الأصل رحل إلى البصرة موطن العلم والأدب، ثم نشأ مولى لآل الأهتم الفصحاء، وخالط الأعراب. قتله سفيان بن معاوية والي البصرة بعد تشدده في كتابة صيغة الأمان بين أبي جعفر المنصور وعبد الله بن علي، ويقال: إنه قطع جسمه عضواً عضواً أو رمي في تنور مسجور.

ثانياً - شخصيته:

قيل عن ابن المقفع: إن عقله أكبر من علمه وأنه يستطيع أن يستوعب الثقافات المتعددة بزمن قصير لذلك برزت أهمية هذا الكتاب، فقد نقل إلى العربية ثقافة الفرس المستقاة من الثقافة الهندية، واستوعب العربية بعلومها.

وقد كان ابن المقفع فارسي النزعة، مجوسي الديانة زردشتي المذهب، زندقي السلوك.

ثالثاً - آثاره:

ترك ابن المقفع آثاراً متميزة في التاريخ والأدب والاجتماع والإخوانيات، وأهم كتبه:

١- كليلة ودمنة: منقولة عن الفارسية.

٢- الأدب الكبير والأدب الصغير.

٣- رسالة الصحابة.

وطبيعي للذي درس تاريخ النثر في العصر العباسي أن يبدأ بابن المقفع؛ لأنه يكون الحلقة الأولى في سلسلة النثر العباسي، ولأن هذه الحلقة تشكل صلة الوصل بين العصرين الأموي

والعباسي،ففي أوائل حياته عاصر أواخر الدولة الأموية. وفي آخر حياته عاصر حقبة نشأة الدولة العباسية.

جاءته هذه التسمية من أبيه داذويه الذي ذكر المؤرخون أنه كان يتولَّى جباية الخراج في زمن الحجاج، فاقتطع قسماً من أموال الدولة لنفسه، فضربه الحجاج على يده المختلسة حتى تفقعت أي تشنجت، وقالوا: إن أصل المقفع هذا من بلده (حوز أو جور) إحدى مدن فارس المشهورة برياضها.

رابعاً - سبب تسميته (ابن المقفع):

قال مؤرخو الأدب: إن اسم ابن المقفع (روزبه بن داذويه) فعند ما أسلم تسمى عبد الله وكني بأبي محمد. ويذكرون أنه ولد حوالي سنة ١٠٦ هجرية في خلافة هشام بن عبد الملك، وقضى عدة سنوات في كنف أبيه منصرفاً إلى تحصيل الثقافة الفارسية، وكان آنذاك مجوسياً بدين الزراد شتية، ويروى أنه نشأ في البصرة في ولاء آل الأهتم - المشهورين بالفصاحة واللسن، وتردد على المربد حيث كان الأعراب يفدون على هذه السوق التجارية الأدبية فأخذ عنهم الفصاحة والبيان.

أول عهده بفن الكتابة أنه كتب لداود بن عمر بن هبيرة ولأخيه يزيد بن عمر بن هبيرة الذي كان والياً على العراق من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية، ثم لما استتب الأمر لبني العباس اتصل بعيسى بن علي عم المنصور وكتب له وهو على كرمان، وعلى يد هذا الوالي أسلم ابن المقفع، ثم نقل إلى البصرة أيام ولاية سليمان بن علي عم الخليفة المنصور وكتب لسليمان، وفي هذه الفترة خرج عبد الله بن علي عم الخليفة أبي جعفر وتمرد عليه وطلب البيعة لنفسه، فتبعه جماعة كثيرون فوجه إليه المنصور جيشاً وهزمه، فالتجأ إلى أخيه سليمان بن علي والي البصرة. وكان ذلك سنة ١٢٧ هـ فآواه وأكرمه ولما لم يجد بداً من الانصياع لأبي جعفر بعد أن كاتبه طالباً الصفح عنه والعفو، كتب صك طلب العفو عبد الله بن المقفع فعفا عنه، ولكنه عزل عمه سليمان عن البصرة وولى مكانه سفيان بن معاوية الذي يعزى إليه قَتْلُ ابن المقفع حوالي سنة ١٤٢ هـ.

خامساً - أسباب قتل ابن المقفع:

يذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل أسباب قتل ابن المقفع:

أ – فمن قائل إنه قتل بسبب تشدده في كتاب الأمان الذي كتبه ابن المقفع لعبد الله بن علي ووجهه للمنصور، ومما جاء فيه قوله: ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، دوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون في حل من بيعته) وغير هذا الكلام الذي جعل الخليفة يحقد عليه، ويتحين الفرص للانتقام منه.

ب – ومن قائل: إن سبب قتله استخفافه بسفيان بن معاوية والي البصرة، فقد كان يسخر منه ومن أنفه الكبير، فإذا دخل عليه وهو جالس وحده قال: السلام عليكما: يقصد بشخص سفيان وأنفه، واحتقره في مواطن مشهودة مما أضرم نار الحقد عليه حتى دبرَّ له المكيدة التي أحرقه فيها.

ج – وهناك فئة ثالثة من الكتاب والمؤلفين تعزو سبب قتل سفيان لابن المقفع إلى زندقة الأخير، فقد أثر عنه أنه ظل يحن إلى (بيت النار) وهو مكان عبادة المجوس، حتى بعد إسلامه، وكلما مر أمامه تمثل بقول الشاعر:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العِدا وبك الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود وإنني قسط إليك مع الصدود لأميل

وفي ذلك الزمن يكفي أن تتهم إنسان بالزندقة حتى تقتله، ونحن نذهب إلى حصيلة هذه الأسباب هي التي قتلت ابن المقفع، ويقولون: إن صورة قتله كانت شنيعة. إذ إن سفيان أخذ يقطع أجزاء جسده عضواً عضواً، ثم يلقيها في تنور كان قد أعده لذلك حتى لم يبق من جسده قلامة.

سادساً - مصادر ثقافته:

لثقافة ابن المقفع مصدران أساسيان:

أ – مصدر فارسي واستقاه من والده الذي أشرف على تربيته وتعليمه وخاصة في الفترة الأولى من حياته، وثقفه بالثقافة الفارسية التي كانت نافذة على الثقافتين الهندية واليونانية.

ب – ومصدر عربي ابتدأ بتداركه عند ما كان يتردد على المريد: سوق اللغة والأدب والعلم، وعندما كان يشافه الفصحاء من بني الأهتم الذين يدين ابن المقفع لهم بالولاء فعلموه البلاغة والفصاحة، هذا بالإضافة إلى بقية عناصر الثقافة العربية المتمثلة بالقرآن الكريم، وحفظ الحديث النبوي الشريف ورواية الجم الغفير من الشعر العربي قديمه وحديثه. كل هذه الثقافات التي تمثلها في صغره وأيام شبابه انعكست على مؤلفات ومصنفات قد مدها للفكر العربي.

سابعاً - مؤلفاته:

ويمكننا أن نقسم هذه المؤلفات إلى ثلاث:

١ - **المجموعة التأليفية:** وتشتمل على أربعة كتب هي:

أ – كليلة ودمنة،

ب – وكتاب الأدب الصغير،

ج – وكتاب الأدب الكبير،

د – وكتاب اليتيمة.

٢ - **الكتب المترجمة من اليونانية:** وفي هذه المجموعة نجده يترجم ثلاثة كتب لأرسطو:

أ – الأول كتاب " كاتاغورياس ".

ب – والثاني يسمى " باري ارميناس " أي العبارة.

ج – والثالث يطلق عليه اسم " أنالوطيقا " أي تحليل القياس.

كما نجده يترجم لـ " فرفوريوس الصوري " المدخل إلى كتاب المنطق أيوباغوجي " من اللغة الأم اليونانية وإنما نقلوها من الفارسية إلى العربية.

٣ - **مجموعة الكتب التي ترجمها عن الفهلوية:** الفارسية القديمة وهي خمسة كتب أيضاً:

أ – الأولى يسمى " خداينامه " في السير الفارسية.

ب – والثاني " أيبين نامه " وهذا الكتاب ضخم جداً يبلغ آلاف الصفحات تتحدث كلها عن عادات الفرس وأنظمتهم وحضارتهم.

ج – والثالث كتاب " مزدك " وهو زعيم أحد الفرق المجوسية.

د – والرابع كتاب " التاج " في سيرة أنورشروان ".

هـ – والخامس كتاب " الكيكيين " وهو كتاب معظم عن الفرس يتضمن سير سلوكهم وآبائهم وتاريخ حضارتهم.

ونلاحظ من تعداد طوائف هذه الكتب أن ابن المقفع ألمَّ بكل الحضارات القديمة واطّلع على أفكار اليونان والفرس والهند.

٤ - تحليل كتاب كليلة ودمنة:

أ – يقسم المؤرخون هذا الكتاب إلى قسمين:

– أحدهما: يذهب إلى ابن المقفع هو الذي وضع هذا الكتاب وأداره على ألسنة الحيوانات ليدفع عن نفسه تهمة تأديب الملوك وعلى رأس القائلين بهذا الرأي ابن خلكان.

– والثاني: يرى أن ابن المقفع لا يعدو أن يكون مترجماً لما في هذا الكتاب من قصص عن اللغة الفارسية التي ترجمته بدورها عن اللغة الهندية، وحجة هؤلاء تعتمد على عناصر مستنبطة من الكتاب نفسه، فهو يتحدث عن عادات هندية ويذهب بعض الدارسين إلى أن الكثير من قصصه موجود في السفرين الكبيرين للحضارة الهندية: " المهابهارتا " و"وبنج تترا " أي خمس مقالات كما يؤيد هذا الفريق رأيه بأن البيروني وهو عالم ومؤرخ موثوق به يشهد بهندية هذا الكتاب، كما أن الفردوسي في الشاهنامة"، يؤكد رحلة الفيلسوف الفارسي " بروزيه " إلى الهند لجلب هذا الكتاب.

ب – وقصة تأليف الهنود لهذا الكتاب قصة طويلة، تتفاوت المصادر في ذكر تفاصيلها، خلاصتها: أن ملكاً من ملوك الهند يسمى – دبلشيم – طغى وبغى في رعيته، فانتخب جماعة من البراهمة حكيماً منهم، وطلبوا أن يلتمس من الملك أن يعدل سيرته في رعيته، فلما تصدى له بالوعظ اغتاظ منه وسجنه، وفي ليلة سهاد تذكر وعظه فأمر بإخراجه من السجن وتقريبه

لبلاطه ومنادمته، فأعجب بنصائحه وأكبر عقله فطلب منه أن يؤلف كتاباً له دله على مخططه إذ قال: أحببت أن تصنع لي كتاباً تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها على طاعة الملك. وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية.

قال: قد أجبت الملك، قال: وكم الأجل؟، قال: سنة. قال: قد أجّلتك. وأمر له بجائزة سَنية، ثم وضعه مع تلميذ له على لسان بهيمتين، ورتب فيه خمسة عشر باباً، وسماه كليلة ودمنة، وأداره على ألسنة الحيوانات ليكون ظاهره لهواً للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وضمنه ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة لنفسه وأهله وخاصته، وما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه فأقر الملك هذا الكتاب وأمر بالمحافظة عليه.

ويقال: إن كسرى أنوشروان بن قباذ كان أكبر ملوك الفرس وأحبهم للعلوم والآداب قد علم بهذا الكتاب، وعلم قيمته فنشط لاقتنائه، وأرسل أحد أطبائه الفيلسوف (بروزيه بن أزهر) فاحتال للكتاب حتى حصل عليه، وسلمه لكسرى، فأمر كسرى وزيره – بزر جمهر أن يقرظه وأن يثبت هذا التقريظ في أول الكتاب منوهاً فيه ببروزيه، فألحق هذا التقريظ بالكتاب فكان مقدمة الكتاب له، ثم عندما وقع بين يدي ابن المقفع وضع باباً بيَّن فيه غرض الكتاب قال فيه: هذا الكتاب كليلة ودمنة، وهو ما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو والذي أرادوا، ولم تزل العلماء من كل أمة ولسان يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، في إظهار ما لديهم من العلوم والحكم، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم.

ج – تحدث ابن المقفع عن خطة هذا الكتاب ومضمونه فقال: وأما الكتاب فجمع حكمة ولهواً، فاختاره الحكماء لحكمته، والأغرار للهوه والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره، فأول ما ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، والرموز التي رمزت فيه، وإلى أية غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم وأضلعه إلى غير مفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالها، فإن قارئه متى لم يعقل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا

الكتاب (كليلة ودمنة) وواضح من بعض ما تقدم أن الكتاب موضوع في أصله باللغة الهندية وأن الباب الثاني من قد وضعه الوزير بزرجمهر تقريظاً لجهود الفيلسوف الطبيب بروزيه، الذي حصل عليه وترجمه للفارسية وأن الباب الثالث من صنع ابن المقفع الذي اتخذ من كلامه في هذا الباب توطئة للدخول في ترجمته.

ومن هنا ندرك أن أصل الكتاب هندي، وقد ألحقت به عقول الأمم الأخرى إضافات لم تكن في الأصل الهندي نفسه. صحيح أن اسم الكتاب اقترن باسم مترجمه ابن المقفع، ولكن يبدو أن محاولات أخرى غير ابن المقفع قد ترجمته إلى العربية، فقد ذكر ابن النديم في فهرسته أن غير ابن المقفع نقله إلى لسان العرب، وكذلك ذكر " حاجي خليفة " أن من اسمه (عبد الله بن هلال الهوازي) نقله إلى العربية أيضاً.

د – ومنذ أن نقل الكتاب إلى العربية أخذ الكتاب يتسرب إلى لغات الأمم الأخرى فقد نقل إلى السريانية في القرن العاشر الميلادي، وإلى اليونانية سنة ١٠٨٠ م ومنه إلى الإيطالية والسلافية، ثم رجع إلى الفارسية القرن السادس، ومنها إلى التركية القرن العاشر والفرنسية في ١٧٣٤ كما نقل إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر والإسبانية ١٢٥١ ثم ترجم إلى العربية ١٢٧٠ ومنها تفرع إلى ثلاث لغات أساسية الأولى الألمانية، وهذه بدورها أعطته إلى الدانمركية والهولندية والثانية الإسبانية التي أعطته للإيطالية ١٥٤٨ والثالثة الإيطالية ١٥٥٢ التي أعطته للإنكليزية سنة ١٥٧٠، من هذه الرحلة لكتاب كليلة ودمنة ندرك قيمة الترجمة العربية التي فتحت أمام الكتاب نوافذ كثيرة لم يكن ليبلغها لو ظل نزيلاً في شبه القارة الهندية.

هـ – وقد نال الكتاب عناية أخرى غير العناية للترجمة به، هي عناية النظام والشعراء، فقد قيل: إن الفرس نظموه شعراً أما العرب، وهم أهل النظم فقد تنافسوا في نظمه، فنظمه إبان اللاحقي، وعلي بن داود كاتب زبيدة وسهل بن نوبخت، وبشر بن المعتمر، وابن الهبارية في كتابه " الصادح والباغم " وغيرهم كثيرون مثل عبد الرحمن الصاغاني، وابن مماتي المصري، وجلال الدين النقاش.

أما الذين فتنوا بهذا الكتاب وعبروا عن فتنتهم بانتزاعات بعض حكمه أو بمعارضته فكثيرون أيضاً، منهم سهل بن هارون، عارضه بكتاب " ثعلة وعقرة " وسلم صاحب بيت

الحكمة والمريد الأسود، الذي استدعاه المتوكل في أيامه من فارس، ويقال: إن أبا العلاء المعري عارضه بكتابه المسمى " القائف " والذي شرحه بكتاب آخر سماه " منار القائف " كما يعزى إلى ابن ظفر بأنه عارضه أيضاً في كتابه " سلوان المطلع في عدوان الأتباع " وخاتمة المطاف معارضة أحمد بن عربشاه في كتابه (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء).

وأما أبوابه فهي كما أشرت تتراوح بين اثني عشر باباً وواحد وعشرين باباً، على اختلاف في طبعاته، ولعل هذا التفاوت في عدد الأبواب له تفسير آخر. وهو أن بعض النسخ تقسم إلى الباب الواحد إلى بابين وتعطي لكل باب اسماً مستقلاً لذا يزداد عدد الأبواب وينقص.

٤ - أسلوب ابن المقفع:

أ - أسلوب ابن المقفع من متخير الأساليب التي عرفها النثر العربي، من أصفى الأساليب قبل أن يتفشى فيها الزخرف وتستشري فيها الصنعة.

ب - وقصاراه التعبير عن المعنى الشريف باللفظ الجزل الوجيز.

ج - صحيح ما يقال عن ابن المقفع أنه في أول عهده بالكتابة كان أثر الترجمة ظاهراً عليه، وبمقدرتك أن تكتشف بعض الالتواء في أسلوبه.

د - ولكنه مارس الكتابة وتضلع في النثر موفداً شيئاً من فن التعبير حتى تخطى هذه المرحلة إلى مرحلة التميز بالأسلوب.

هـ - فغدا صاحب طريقة في التعبير تكاد تكون وقفاً عليه، ولما تملك ناصية الفن دعا الكتاب إلى اقتفاء أثره في هذه الطريقة التي لحمتها البلاغة وسداها الفصاحة.

و - ولذلك كان ينصح أحد مريديه من تلاميذه في فن الكتابة، فيقول:

١ - " إياك والتتبع الوحشي للكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العمى الأكبر.

٢ - وقال لآخر: عليك بما سهل مثلها ".

٣ - وقال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنهما لا يرضيهما شيء.

٤ - وقال: إن خير الأدب ما حصل لك ثمره وبان عليك أثره.

٥ – وسُئل عن البلاغة فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة:

– فمنها ما يكون في السكوت.

– ومنها ما يكون في الاستماع.

– ومنها ما يكون في الإشارة.

– ومنها ما يكاد يكون شعراً.

– ومنها ما يكون سجعاً.

– ومنها ما يكون ابتداء.

– ومنها ما يكون رسائل.

ز – فعامة هذه الأبواب فيها الإشارة إلى المعنى، والإيجاز.

ح – وواضح أن رأيه في البلاغة يكاد يلخص كل فنون القول من شعر ونثر وحوار وسجع وخطابة ورسالة، ولكنها تلتقي حول ظاهرة البلاغة الأولى التي هي الإيجاز.

ط – وقد كان الإيجاز خاصة من خصائص أسلوبه فقريحته تمنحه المعاني الغزيرة فيتخير منها ما يصح للمقام.

ي – وقد سُئل ذات مرة عندما شوهد يتوقف أثناء الكتابة فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لأتخيره ثم يلبس هذه المعاني بلبوس الألفاظ الرشيقة، متوخياً اختيار الألفاظ المأنوسة غير الوحشية مصطفياً أجزلها فيأتي له الإيجاز، ويتصف عندئذ أسلوبه بالسهولة التي قوامها سهولة التأليف وفصاحته وجلاء المعنى، والسلامة من التكلف والتصنع وجعل اللفظ وافياً بالمعنى، وترتيب الأفكار واتساقها، والجمع بين تفكير الحكيم وذوق الأديب، ويضيف إلى ذلك أنه لا ينزع إلى المبالغة والغلو لتوخي الواقعية والدقة في التعبير، لهذه الصفة الأخيرة ترامز لا يتكلف السجع إلا إذا جاء عفو الخاطر، فلذا جاء أسلوبه مرسلاً مبرأً من القيود اللفظية، وإذا جنح إلى شيء فإنما يجنح إلى الازدواج بين الكلمات ليضمن الحد الأدنى من الصنعة المقبولة التي تضفي الإشراق على الأسلوب، أو يعمد إلى الترداد، فيكرر بعض الكلمات حيث يرى الأمر جديراً يلفت نظر السامع لينبهه إلى أهمية ما يريد أن يقرره.

وعلى الرغم من أنه يلجأ إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ويضمن الأمثال العربية ويستخدم المصطلحات الإسلامية إلا أنه غير مسرف في استخدام الشعر العربي القديم شواهد في كلامه. وبهذا الصنيع يبتعد عن صنيع أمثاله من الكتاب الذين أغرقوا كتاباتهم بما اتكؤوا عليه من شعر الآخرين وأفكارهم.

الباب الثامن عشر

الفصل الثاني

سهل بن هارون

١ - حياته ونشأته:

ولد أبو محمد سهل بن هارون الأهوازي في منطقة ميسان بين واسط والبصرة، وانتقل إلى البصرة مع أهله، ثم إلى بغداد واتصل بالرشيد وعين صاحب ديوانه، ثم أصبح في عهد المأمون خازن بيت الحكمة، وقد كانت ولادته (١٤٠هـ) ونهايته عام (٢١٥هـ).

٢ - شخصيته:

يعد سهل بن هارون من الشخصيات البارزة في العصر العباسي التي تميزت بالحلم والحكمة والعلم، وحسن المعشر، فقد كان مترسلاً بليغاً وخطيباً فصيحاً ومصنفاً بارعاً، اعتمد الخرافات على لسان الناس والبهائم في صنع قصصه، وقد كان الجاحظ قبل شهرته يكتب الكتب وينسبها إلى سهل بن هارون حتى تلقى رواجاً عند الناس.

ويعد سهل بن هارون من الكتاب المشهورين بالبخل شأن البحتري وأبي العتاهية، ما عكس شأنا سلبياً في شخصيته.

٣ - آثاره:

كتب سهل بن هارون مؤلفات عديدة على رأسها:

أ - كتاب النمر والثعلب وهو تقليد لكتاب كليلة ودمنة.

ب - كتاب المخزومي والهذلية.

ج - كتاب الموافق والعذراء.

د - كتاب المسائل.

هـ - كتاب تدبير الملك والسياسة.

و - وأهم كتبه (رسالة البخل وتبرير مسلك البخلاء).

٤ - أسلوبه:

تميز سهل بن هارون بذوبة الألفاظ وبصاعة التعبير والبعد عن التكلف والاهتمام بالحكمة، وطرق مواضيعه بأسلوب قصصي سرداً وحواراً.

الباب الثامن عشر

الفصل الثالث

القاسم بن الحريري

١ - ولادته ونشأته:

ولد أبو محمد القاسم بن علي الحريري في مشان وتتلمذ بها لغة وأدباً وحديثاً، ثم أصبح الخبر في ديوان الخلافة واستمرت الوظيفة في أولاده، وقد كانت ولادته (٤٤٦هـ - ٥١٦هـ).

٢ - شخصيته:

تميز أبو محمد الحريري بقبح المنظر ودمامة الخلقة وعدم الاهتمام بلبسه وهيئته، ولكنه كان رجلاً لامع الذكاء متوقد الذهن، نال بذكائه وشهرته سمعة مدوية في عصره والعصور اللاحقة.

٣ - أهم آثاره:

أ - درة الغواص في أوهام الخواص وهو نقد لأغلاط الكتاب في النحو سماها (ملحة الإعراب في النحو).

ب - (مقامات الحريري).

ج - ولديه أيضاً الرسالة السينية التي احتوت كل كلمة من كلماتها على حرف السين.

٤ - أهمية مقامات الحريري:

تميزت مقامات الحريري التي بلغت الخمسين بكونها:

أ - قصصاً تفيض بالحركة التمثيلية.

ب - وتعتمد على الصراع الدرامي.

ج - كتبها لتعليم الناشئة أساليب الأدب.

د - تتخذ أشكالاً مختلفة:

- دينية

- خلقية

- فكاهية مجونية

هـ - أكثر فيها من:

- السجع.

- والتعقيد.

- والأحاجي.

- والمسائل الفقهية.

- والفتاوى اللغوية.

و - وأهم هذه المقامات (المقامة الحرامية).

ز - اهتم فيها المؤلف بمذهب التصنيع.

الباب الثامن عشر

الفصل الرابع

ابن العميد

١ - نشأته وحياته:

ولد أبو الفضل محمد بن الحسين في قم في إيران، ونشأ في بيت أدبٍ وعلم، والده كاتب ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر، وقد عاش ابن العميد في منطقة الري وفارس، ثم أصبح في الذروة في وزارة ركن الدولة وابنه، كانت وفاته (٣٦٠هـ) وقد عمل فيها لركن الدولة وابنه عضد الدولة، يقود الجيوش بنفسه، وينشر نفوذ عضد الدولة على بغداد والعراق.

٢ - شخصيته:

استوعب ابن العميد ثقافة عصره، فحفظ القرآن ومشكلة ومتشابهة، ودواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين وعلم النحو والعروض والمنطق والفلسفة والإلهيات، ولقب بالجاحظ الثاني، والتقى المتنبي وقال فيه المتنبي مادحاً:

عربي لسانه، فلسفي رأيه، فارسية أعياده

خلق الله أفصح الناس طرا في بلادٍ أعرابه أكراده

٣ - أسلوبه:

أ - يعد ابن العميد أستاذ مذهب البديع.

ب - إذ إنه يعتمد السجع في كتابته.

ج - ويهتم بألوان البديع كالطباق والجناس.

د - كما وأنه يهتم اهتماماً كبيراً بفن التصوير.

هـ - اتضح ذلك في رسالته إلى أحد القادة المسمى ابن ملكا الذي استعصى على ركن الدولة.

الباب التاسع عشر

الجاحظ

(أبو عثمان عمرو بن بحر)

نموذج لكتاب النثر

الباب التاسع عشر

الفصل الأول

ملامح ولادة الجاحظ

آ - حياته وشخصيته:

بيئة الجاحظ السامة: عاش الجاحظ في بيئة جديدة ومختلفة ودخلت في شخصيته عوامل متعددة داخلية وخارجية أسهمت في جعله من أبرز علماء النثر في الأدب العربي والغربي (العالمي).

- الحياة السياسية في البيئة العباسية:

كانت معركة الزاب الأعلى أحد روافد دجلة الذي ينصب قرب الموصل نهاية العصر الأموي وبداية عصر جديد، فقد تحطم ملك مروان بن محمد عام (١٣٢هـ) وطورد الأمويون في كل مكان، ولم ينج منهم سوى نفر قليل على رأسهم صقر قريش عبد الرحمن الداخل الذي أسس ملكاً جديداً لبني أمية في الأندلس.

وجاء عهد جديد انتقلت فيه عاصمة الخلافة إلى العراق وجعل أبو العباس الهاشمية (مدينة قرب الكوفة) قاعدة انطلاق له حيث أتم تأسيس الدولة وأخضع الثائرين، وفكر في تأسيس عاصمة جديدة كانت محط أنظار المهندسين هي بغداد، وبناها الخليفة أبو جعفر على شكل مستدير قصره في وسطها وقصور الحاشية والوزراء حوله، وقد تميزت هذه الدولة سياسياً بحقبتين:

أولاً - الحقبة الأولى (العراقية).

ثانياً - الحقبة الثانية (المصرية).

أولاً - الحقبة العراقية في بغداد:

امتدت هذه الحقبة ١٣٢هـ - ٦٥٦هـ أي حتى سقوط بغداد بيد التتار، وقد قسمها المؤرخون إلى:

آ - فترة القوة والعمل ومدتها ١٠٠عام (١٣٢هـ - ٢٣٢هـ).

ب - فترة استبداد المماليك الأتراك، ومدتها ١٠٢عاماً (٢٣٢هـ - ٣٣٤هـ).

ج - فترة استبداد الملوك البويهيين، ومدتها ١١٣عاماً (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ).

د - فترة استبداد الملوك السلاجقة، وتمتد حوالي ٨٥عاماً.

هـ - فترة استعادة الخلفاء العباسيين بعض نفوذهم السياسي مع غلبة القادة العسكريين وتمتد (١٢٠عاماً)

ثانياً - الحقبة المصرية:

وقد امتد منذ سقوط بغداد (٦٥٦هـ) حتى عام (٩٢٢هـ) وذلك بسقوط الحكم المملوكي بيد العثمانيين عام / ١٥١٦/ في معركة مرج دابق حيث بدأت فترة جديدة، وقد بنيت في الحقبة المصرية مدينة القاهرة، وكانت السلطة في هذه الحقبة اسمية للخلفاء وفعلية للمماليك:

- الحياة الاجتماعية في البيئة العباسية:

نظراً لامتداد العباسيين في فترة القوة واقتدارهم وسيطرتهم على مقاليد الخلافة، توسعت الحياة وتدفقت الأموال وتوافدت إلى العاصمة عناصر أعجمية طبعت الحياة الاجتماعية بمنهاج تفكير جديد حيث اختلطت العادات والأعراف الأعجمية مع الأعراف العربية، وقويت شوكة الحركة الشعوبية، واهتمت الدولة بالزراعة وشق الأمنية للري وعززت الصناعة، ومال الناس إلى اللهو وشاع الفراغ فتفننوا في المأكل والملبس والمشرب وراحت أسواق الغناء والرقص وشاع التسري، وانتشرت تجارة الرقيق ومال الناس إلى ممارسة هويات مختلفة كالصيد والشطرنج وسباق الخيل، وزاد الاهتمام بالعلماء والأدباء والشعراء والمغنين والموسيقيين فأصبحت مجالس هؤلاء تعج بها بلاطات الخلفاء والأمراء.

الحياة الفكرية والأدبية:

حاول الخلفاء العباسيون بناء دولتهم على غرار بناء الدولة الفارسية فاهتموا بالأدباء والشعراء لما لهم من أثر كبير في بناء الدولة وتقدم سيرها وفتحوا أمام أرباب العقول والمذاهب ورجال الفكر حرياتٍ واسعة، وكثر الباحثون والدارسون وأئمة المذاهب الدينية، وتم تدوين الحديث وتسجيل اللغة والشعر، وكثر المترجمون عن اليونانية والسريانية، ونشأت فلسفات حياتية ودينية وزهدية انطلقت من مزج الدين بالفلسفة أحياناً، وتسلح العلماء والأدباء بالجدل والمنطق، وقد كان الفكر الاعتزالي من أهم التيارات الجارفة في العصر العباسي حتى إن المأمون اعتنق هذا المذهب رسمياً وشايعه على ذلك المعتصم والواثق، وتفرعت المعتزلة إلى فرق أهمها (البشرية) نسبة إلى بشر بن المعتر الهلالي، و(الثمامية) نسبة إلى ثمامة بن أشرس، والهذبية نسبة إلى أبي الهذيل العلاّف و(النطاعية) نسبة إلى أبي إسحق النظّام، و(الجاحظية) نسبة إلى أبي عثمان عمرو الجاحظ.

وكانت البصرة المرتع الخصيب للاتجاه الاعتزالي والتي كانت قد احتضنت الجاحظ فكراً وأدباً وشخصيته إذ إنها مركز حساس يصل إيران بالعراق والجزيرة العربية بالشام أيضاً، وقد وصف الجاحظ عصره وبيئته قائلاً:

"وقد أمكن القول، وصلح الدهر، وهبت ريح العلماء وكسد الحيّ والجهل، وقامت سوق البيان والعلم".

ب - الجاحظ "اسمه - لقبه - كنيته"

١- اسمه:

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني بالولاء الشهير بالجاحظ أو الحدقي غلبة كلمة الجاحظ عليه، وقد قيل: إن الجاحظ لم يرض عن لقبيه، وقد ألف رسالة في اسمه.

(فيمن سمّي من الشعراء عمرو)

وكان يرى أن اسمه (عمرو) مظلوم لإلصاق الواو به، ويرى أن هذا الاسم ما أطلق في الجاهلية ولا في الإسلام إلا على رجل متميز، كعمرو بن الشريد والد الخنساء، وعمرو بن مناف أحد أجداد النبي عليه السلام الملقب بهاشم، وعمرو بن معد يكرب الفارسي اليمني،

والشاعر المعروف، وعمرو بن العاص فاتح مصر وأحد دهاة العرب. ولم يكن الجاحظ يدري أن كبار الأدباء من بعده قد تباروا للحظوة بهذا اللقب كأبي زيد البلخي الملقب بجاحظ خورسان وابن العميد الملقب بالجاحظ الثاني.

٢ - نسبه:

ذكر المؤرخون آراء متباينة في نسب الجاحظ، واختلفوا بين كونه عربياً كنانياً، وبين كونه إفريقياً فكتب التراجم تذكر أن نسبه كما يلي:

"أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب" وأضاف بعضهم اسم جده وهو فزارة، وأن فزارة كان أسود اللون جمّالاً لرجل يدعى عمرو بن قلع الكناني النساء، ونسبه بعض المؤرخون إلى بني ليث أو فقيم، على أنه عربي كناني صليبة، وأكد على ذلك المؤرخون المحدثون أمثال:

محمد كرد علي - السدوسي، والمرجح أن يكون الجاحظ من عنصر إفريقي للأسباب التالية:

١ - ما ورد من خبر عن جدّ الجاحظ، وسواده وأنه كان مولى جمّالاً لأبي القلمس.

٢ - أن العرب كانت تختار الجمالين من الموالي الموجودين في النوبة والبربر والروم.

٣ - أن اسم جده محبوب لا تتسمى بها العرب، فهي تختار لأبنائها أشد الأسماء وأقساها كحرب - صخر، بينما تختار للموالي أسماء ظريفة كمحبوب ومسعود وبركة.

٤ - أن الجاحظ نفسه كان شديد السمرة، وهذا ما يرجح رجوعه إلى فزارة.

ومعنى أنه مولى عدم كونه عبداً ومن هنا نستنتج أن الجاحظ كان يبغض العصبيات ذلك أن له من الشخصيات القوية، ومن روح الاعتزال ما يرتفع به عنها.

أما أسرته الأولى فتنتهي إلى فزارة وهي أسرة متواضعة في منبتها الاجتماعي استنتاجاً من مهنة جده الجمّال وأن هذه الأسرة بعد أن أبطلت مأثرة النسيء، فتراجعت عن مكانتها وأقامت في البصرة تعاني من شظف العيش وتسعى في سبيل الحصول على أقل حاجات الحياة.

٣ - ولادته:

اختلف المؤلفون في سنة ولادته بين الأرقام التالية: ١٥٥هـ - ١٥٩هـ - ١٦٠هـ - ١٦٤هـ - ١٦٥هـ - بسبب بساطة أسرته وبيئته المغمورة، واتفق المؤرخون على سنة وفاته عام ٢٥٥هـ، ويكون قد تجاوز ٩٠عاماً ولم يكن لأبيه أو أمه أي مكانة مشرفة فقد توفي والده وهو صغير فتولت أمه العناية به، وهناك جهل في صفاته الجسدية والخلقية وأحواله الاجتماعية وقد كانت أمه تعاني من الحاجة في سبيل تقديم الرزق لابنها، حتى إنها قدمت له مرة بدل الطعام طبقاً من الكراريس لحثه على العمل، لكن أحد أصدقائه واسمه مويس بن عمران قدم له عشرين ديناراً، فاشترى الدقيق وجاء به إلى أمه ليؤكد لها أن للعلم ثمرة.

٤ - عائلته:

ذكر الجاحظ رداً على ميمون بن هارون عندما سأله عن مصدر رزقه أنه يعيل جارية يتسرى بها، وأخرى تخدمها، وخادماً له وحماراً يركبه، فهو ليس له زوج ولا أبناء ولا بنات وجاريته كانت مملوكة، وقد اختلف المؤلفون في سبب عدم زواجه بين مدع أن النساء والحرائر أعرضن عنه لشدة سمرته وتشوه خلقته، وبين مشير إلى أن الجاحظ نفسه أعرض عن الإنجاب إما بسبب بنيوي (العقم) أو بسبب إرادي رغبة منه بعدم الزواج، والعلماء والمؤرخون يؤكدون على أن العباقرة وكثير من القادة والحكماء انصرفوا عن الزواج خدمة لرجالاته والجاحظ بطبعه لا يحب القيود، فقد تسلم ديوان الرسائل ثلاثة أيام ثم تركه لأن ذلك قيد عليه.

٥ - صفاته الجسدية: ذكر أن الجاحظ كان دميماً، قصير القامة جاحظ العينين صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذنين، وشديد السمرة، وقد أسهم الأدب الشعبي في استثمار هذا القبح في وضع القصص الساخرة والتطرف المليحة حوله والذي كان هو نفسه محبّاً لها.

قال الجاحظ متندراً على نفسه: "ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلمّا رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني...".

وقال أيضاً:

"ما أخجلني إلاّ امرأتان: رأيت إحداهما في المعسكر وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت لها: انزلي عليَّ معنا! فقالت: اصعد حتى ترى الدنيا!

وأمّا الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي! فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له: مثل هذا!

وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها، فقال: إنها أتت إليَّ بفص (خاتم) وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: ما رأيت الشيطان!

فأتت بك وقالت: ما سمعت".

٦ - **نشأته وطفولته ومرحلة الكتاتيب:** ولد الجاحظ في مدينة البصرة أكبر حواضر الأدب والعلم، حيث كانت تحفل بالأدب والكتاتيب التي كانت تعلم الكتابة والقراءة والحساب وكانت تحفل بالأدباء والفقهاء والفلاسفة والفرق الدينية والفكرية والسياسية والتي كانت مساجدها تشبه جامعات حرة لكلّ راغبٍ في العلم.

وكان الجاحظ يجالس المسجديين من أهل العلم والأدب فقد اختلف إلى كتّاب حي بني كنانة مع الصبية يحفظون القرآن الكريم والشعر والحساب والنحو، ثم إنه لمّا شبّ كان يعمل بائعاً للخبز والسمك في منطقة سيمان.

وكان يتردد إلى مجالس العلم حيث شحذ طبعه من لقائه مع أبي الوزير وأبي عدنان اللّذين أسهما في توجه الجاحظ إلى العلم، وبدأ الجاحظ يشعر أن العلم يمكن أن يوصله إلى مكانة عالية فازداد طموحه ومضى إلى محاضرات العلماء والأدباء في سوف (المربد) وشغف بالمطالعة، وأخذ يكتري دكاكين الوراقين وينام فيها ليلاً، ويقرأ بها الكتب، وقد وجد صعوبة في الجمع بين الدرس والعمل. فترك العمل واتجه نحو العلم، وكانت لديه رغبة جامحة في ذلك.

فامتد تكوينه الفكري والثقافي أكثر من ربع قرن تعرف خلالها على الثقافة اليونانية، وقد كان مشاركاً في حلقات المساجد يبحث ويناقش من خلال ثقافته التي جمعت من مختلف العلوم.

٧ - **حياته وشبابه:**

يبدو أن الجاحظ هذا الشاب الفقير المدقع قد شبت معه أحلام الطموح تخلصاً من الفقر والجوع وطموحاً في الوصول إلى مركز مهم في المجتمع أخرى، فأخذ يتردد إلى الأمكنة التي توفّر له الوصول إلى طموحه وأخذ يلتهم ما يقع تحت سمعه من فقه وعلوم شرعية وحديث ونحو ولغة من خلال محاورات ومناقشات العلماء في سوق (المربد) أو في المساجد أو دكاكين الوراقين.

وقد شهد له نظراؤه بذلك و ساعده على ذلك صعوبة انتظامه في عمل من الأعمال،وما كان يلقاه من معونة أصدقائه لمواصلة العلم، وقد كانت هذه المرحلة مرحلة انعطاف حقيقي نحو العلوم والتأليف فكانت المرتكز الأساسي في تكوينه العقلي والثقافي واللغوي، وإن كنا نجد صعوبة في تحديد المدة الزمنية لهذا التكوين أو الاختصاص الذي حصلّه الجاحظ في هذه الفترة أو متى بدأ إنتاجه، وكيف بدأه وأغلب الظن أن تكوينه الفكري والثقافي امتد أكثر من ربع قرن بعد مرحلة الكتاب، حصل على الثقافة اليونانية بعد ملازمةٍ كبيرة لحلقات المساجد، وحضورٍ كثيف للدروس ومشاركة في مناقشات العلماء والمسجديين، ومن خلال مباحثات متعددة في (المربد). ومن هنا سميت ثقافة الجاحظ التي تجمع مختلف العلوم والفنون بالثقافة الجاحظية؛ لأنها استقت عناصرها من أماكن متعددة.

الباب التاسع عشر

الفصل الثاني

العوامل المساعدة
في تكوين ثقافة الجاحظ

المكونات الفكرية التي ساعدت في تكوين ثقافة الجاحظ

أسهم في تكوين ثقافة الجاحظ الثقافية عوامل متعددة أهمها:

التكوين الجسدي الذي جعل الجاحظ ينفر من العمل لاقتناعه أنه لا يتلاءم مع العمل بسبب قبح المنظر، ومن هنا كانت نظرية التعويض دافعاً من دوافع الجاحظ إلى الثقافة.

١ - المنبت الأسري:فالجاحظ من أسرة فقيرة تعاب بتدني مستواها الاجتماعي فهي أسرة زنجية من جهة ومن الموالي من جهة أخرى، وكلّ ذلك قد يدفع بالفرد إلى الثقافة لنيل مكانة اجتماعية أرقى من مكانته.

٢ - الميول والرغبات: فالجاحظ ينفر من العمل، ويكره أن ينتظم في صنعة وعليه أن يسلك مسلكاً آخر ليضع لنفسه مكانة اجتماعية، وما روي عنه من أخبار تفيد بيعه للسمك والخبز إنما هي محاولات منه لإقناع نفسه بالعمل، وبالتالي كان اندفاعه بفعل ميوله ورغباته إلى الثقافية والعلم لا إلى العمل.

٣ - الموهبة الذاتية: وقد ظهرت هذه المنحة الإلهية منذ طفولته ودفعته للاتجاه نحو الثقافة، وساعده على ذلك مجالس العلم.

الباب التاسع عشر

الفصل الثالث

العوامل المؤثرة والموجهة لشخصية الجاحظ

إذا كان الجاحظ قد اتجه بفعل مكوناته الفطرية إلى منهج ثقافي علمي فإنّ هناك مؤثرات أسهمت في تكريس هذا التوجه وأهم هذه المؤثرات:

الكتاتيب والمعلمون: فقد أثر كما ذكر الجاحظ نفسه - بثقافته شخصيات كثيرة كشخصيات أبي الوزير وأبي عدنان.

١ - **المسجد**: وهو من وجهة نظر الثقافة المعاصرة للصدر الثقافي الرئيس، فقد كان يتحلق في هذا المسجد القراء والمحدثون واللغويون والزهاد وأصحاب الملك والنحل والمتكلمون والشعراء، وهؤلاء جميعاً مؤثر فعال في تكريس شخصية الجاحظ.

مساجد الأحياء: التي كان فيها أبناء القبائل وتحمل هذه الأحياء قصص الوعاظ.

مربد البصرة: ذلك السوق التجاري الأدبي الذي أخذ ينازع عكاظ وذي المجاز وذي المجنة، وقد كان العلماء والأدباء والشعراء يتناقلون أخبار بعضهم البعض في هذا السوق.

٢ - **دكاكين الوراقين**: التي كان يستأجرها الجاحظ وينام فيها ليقرأ ما تحويه من كتب.

الأساتذة: فقد أوتي الجاحظ حظاً كبيراً في لقاء مجموعة بين الأدباء والعلماء والنحاة والمتكلمين كالأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة معمر بن المثنى والأخفش، وأبي يوسف القاضي، ويزيد بن هارون والسري بن عبد ربه.

٣ - **النظّام**: الذي تعرف عليه الجاحظ عن طريق (مويس بن عمران) الذي كان يقيم في داره منتدىً فكرياً يلتقي فيه العلماء والأدباء، وقد توثقت العلاقة بين الجاحظ والنظّام منذ السنة الخامسة والثلاثين من عمر الجاحظ وأصبح من أخص شيوخه.

المنتديات والمجالس العامة: التي تقام في المجالس والأفنية والمجالس الخاصة في دور الأشراف كمويس بن عمران ومنتدى (تل نوبخت)، ومنتدى (آل سليمان بن علي) عم السفاح، ومنتديات أسرة أبي جعفر المنصور وأسر أخرى غيرها.

٤ - **الحياة العامة**: التي أخذت تنمو بتوسع الدولة وتوجه الناس إلى العلم والتنافس في دعابته.

٥ - **الروح العامة لمدينة البصرة**: فقد كانت هذه المدينة مكانة خطيرة من حيث الموقع الجغرافي والسياسي بحيث أصبحت مركز جذب لكلِّ المثقفين وأصحاب الفرق والباحثين عن المجد والمنزلة.

٦ - **الأسفار**: وقد عرف عن الجاحظ أنه رجل لطلب العلم إلى بلاد العرب والروم والأتراك والشام والجزيرة العربية مما زاد في ثقافته وعمّق شخصيته.

٨ - **الثقافات الأخرى**: التي تلقاها الجاحظ من الكتب أو من مجالسته أهل الفكر أو من الأسفار كالثقافة اليونانية اليونانية والسريانية، وقد مال الجاحظ إلى امتلاكهما ميلاً عظيماً.

الباب التاسع عشر

الفصل الرابع

طور التأليف عند الجاحظ

لم يستطع دارسو الأدب أن يحددوا الزمن الذي كتب فيه الجاحظ كل كتاب تركه للمكتبة العربية، ولذلك نجد خلطاً في الأزمان التي حددت كتابة كتبه، واللافت للانتباه أن بدايات الجاحظ في التأليف إذا صحت كان ينسبها لمؤلفين قدماء كابن المقفع، وذلك لأن الناس قد جلبوا على تقدير القديم وإهمال الحديث كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) ويقال: إن الجاحظ افتتح مرحلة التأليف الأولى بكتب (الإمامة) ككتاب (العثمانية) وكتاب (إمامة معاوية) وكتاب (إمامة بني العباس) وكتاب (وجوب الإمامة) وكتاب (الإمامة عند الشيعة) وقد قادته هذه الكتب إلى بلاط المأمون لما تحمله من نصاعة الأفكار ومهارة الجدل إذ إن المأمون قد كلّف أحد مؤدبيه (اليزيدي) لفحص كتب الإمامة للجاحظ، وقد نقلت هذه الكتب بعد تلقيها بالقبول مع الجاحظ من البصرة إلى بغداد.

- الجاحظ في بغداد:

لما لقي الجاحظ قبولاً عند المأمون وُلّي ديوان الرسائل في بغداد، ولكنه لم يصبر أكثر من ثلاثة أيام فأعفي من منصبه، وهذا يشير إلى عدم احتمال الجاحظ للقيود والمنافسين وحسدهم.

وفي هذه الفترة التي استغرقت عند الجاحظ خمسين عاماً، كتب هذا المؤلف البارع معظم ما وصل إلينا من كتب، وقد قُسمت المرحلة البغدادية إلى قسمين فصل بينهما مقتل الوزير محمد بن عبد الله الزيات وزير المعتصم والواثق.

- الحقبة الأولى من المرحلة البغدادية:

وتمتد منذ وصوله بغداد حوالي (٢٠٠هـ) وتنتهي عام (٢٣٣هـ) توثقت خلالها صلات الجاحظ بثحامة بن أشرز ذي المكانة الكبيرة لدى المأمون، وقد اقترح على الجاحظ أن يجعله وزيراً فاستعفاه.

ألف الجاحظ خلال هذه المرحلة كتابه (الثابتة) وهو كتاب يتحدث عن أهل الحديث وكتاب (أخلاق الكتاب) وكتاب (القحطانية والعدنانية) وكتاب (الموالي والعرب) وكتاب (الصرحاء والهجناء) وكتاب (فخر السودان على البيضان) وكتاب (طبقات المغنين) ورسالة القيان.

- المرحلة الزياتية، وتأليف الجاحظ:

لم تتغير سياسة الدولة ولا اتجاهها الديني المعتمد على الاعتزال بعد وفاة المأمون وتولي المعتصم والواثق ومحاربة المعتصم للثائرين على الدولة كالحزمية التي تدعو إلى الإباحية، وقد بدت حياة الجاحظ هادئة ترك فيها بغداد إلى سامراء وجاور منزل، الزيات، وأهداه كتاب الحيوان، وأجازه الوزير بخمسة آلاف دينار، وكان ثمامة بن أشرز قد توفي وفترت العلاقة بين الجاحظ والنظام وتحولت صداقة الجاحظ لابن الزيات إلى فتورٍ كبير علّله بحدة مزاج ابن الزيات وكتب الجاحظ في هذه الفترة أهم رسائله مثل رسالة (التربيع والتدوير) ذاماً بها أحمد بن عبد الوهاب الذي كان يطاول ابن الزيات ويحاسنه، وكتب رسالة (في مدح التجار وذم عمل السلطات) وكتاباً في (فضل هاشم على عبد شمس) وكتاب (الشعوبية).

الحقبة الثانية من المرحلة البغدادية:

وتمتد بين عام ٢٣٣هـ وعام ٢٤٧هـ وبمساحة حكم المتوكل حيث اتصل الجاحظ بالقاضي أحمد بن أبي دؤاد وبالوزير (الفتح بن خاقان) وفي هذه الفترة استطاع ابن أبي دؤاد أن يوغر صدر المتوكل على ابن الزيات الذي عارض خلافة المتوكل وأراد تولية ابن الواثق حيث صودرت أمواله ووضع في تنور فيه مسامير، وكان ابن الزيات نفسه أعدّه لتعذيب أعدائه، وقد هرب الجاحظ بعد إلقاء القبض على ابن الزيات نفسه، وقبض عليه ولمّا سُئل عن سبب هربه قال: (خشيت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور).

ثم مثل بين يدي ابن أبي دؤاد وقال له مما قال:

((فو الله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون لي عليك، ولئن أسيء وتحسن أحسن عندك من أن أحسن وتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل من الانتقام مني...))، فأعجب القاضي لقوله وكافأه بخمسة آلاف دينار بعد أن قدّم له كتابه (البيان والتبيين)، وبقي

الجاحظ ملتزماً مع الوليد بن أبي دؤاد وألف له كتاب (الفيتا) وكتاب (حج النبوة) وكتاب (نظم القرآن) وكتاب (أبي القرآن) وكتاب (مسائل القرآن) وكتاب رسالة (المعاد والمعاش) وكتاب (خلق القرآن) وكتاب (الرّد على المشبهة).

وقد تعرّف الجاحظ بالفتح بن خاقان الذي قرّبه وجمّل صورته عند المتوكل وأجرى له راتباً ورشحه ليكون مؤدباً لولده، وجعله في حاشيته حين سافر الخليفة للشام في رحلة استغرقت (سبعة وتسعين يوماً). وقد ألف كتاب (الردّ على النصارى) وكتاب (الردّ على اليهود) وكتاب (مناقب الترك وعامة جند الخلافة) وكتاب (فصل ما بين العداوة والحسد). وفي هذه المرحلة أصيب الجاحظ بالفالج، ثم سافر إلى بلده البصرة ولزم داره.

- العودة إلى البصرة:

شعر الجاحظ بثقل المرض وهو في سامراء ورأى بأم عينيه مقتل المتوكل بتحريض من ابنه (المنتصر) وعاد إلى مسقط رأسه في البصرة، ثم أصيب بداء (النقرس) فتضافرت عليه العلل وأكب على المطالعة والتأليف وقد وصف المبّرد حالة الجاحظ عندما سأله: كيف أنت؟

فقال الجاحظ: ((كيف يكون من نصفه مفلوج لوجزّ بالمناشر ما شعر به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لألمه وأشدّ من ذلك ست وتسعون أنا فيها)).

وهذه الحقبة شهدت أوج نشاطه فكتب كتاب (الحيوان) وكتاب (البيان والتبيين) وكتاب (البلدان) وكتاب (النساء).

- مذهبه وأخلاقه وآثاره:

اعتنق الجاحظ مذهب المعتزلة وبرع فيه وانفرد بآراء خاصة تداولها بعض الناس، وشكل فرقة سميت (الفرقة الجاحظية) وقد جعل صفة الإرادة جنساً من الأعراض واعتبر هذه الأعراض متبدلة، واعتبر القدر خيره وشره من العبد، ورأى أن الجواهر لا يستحيل إلى فناء في مقابل ذلك عرف الجاحظ بدماثة المعشر والميل إلى الدعابة وحبّ النادرة والبحث الدؤوب ودقة الملاحظة، وقوة الإحساس ونفاذ البصيرة واستثمار الأوقات، والتملك من القيود والاستمتاع بأطايب الحياة، والبعد عن مواطن الشبهة مع أنانية يستأثر بها، وعدم قضاء

حاجات الناس، وقد ترك من الآثار (ثلاثمئة وخمسين) كتاباً ضاع الكثير منها وأهم هذه الكتب:

١ – في مباحث السياسة: كتب الإمامة – كتب الاستبداد.

٢ – في مباحث الاقتصاد: رسالة في الخراج – كتاب فضول الصناعات.

٣ – في الدين والاعتزال والفلسفة: الاستطاعة وكتاب خلق الأفعال.

٤ – في الأدب والعلوم الإنسانية: البيان والتبيين.

٥ – في الاجتماع والأخلاق: إثم العسكر – أخلاق الشطار.

٦ – في الطبيعيات: كتاب الحيوان – رسالة في الكيمياء.

٧ – في العصبية: القحطانية والعدنانية.

٨ – في النساء: الجواري – رسالة في العشق والنساء.

٩ – في موضوعات شتى: رسالة التربيع والتدوير.

الباب التاسع عشر

الفصل الخامس

رسالة التربيع والتدوير

آ - موضوع الرسالة: هي رسالة هزلية ساخرة كتبها الجاحظ في هجاء أحمد بن عبد الوهاب وهو من إخوان الجاحظ ومن طبقة الكتاب (كتاب الأمراء لا كتاب الديوان) كان صديقاً للزيات متمذهباً بمذهب الشيعة المتطرفة (الرافضة) المشبهة، وهم أعداء المعتزلة، وقد كان ابن عبد الوهاب نديماً لجعفر بن دينار الخياط أحد قواد الأفشين وقد ولاه المعتصم اليمن.

وكتب هذه الرسالة أيام وزارة الزيات وقد دارت حول الشمائل التي تتناول ادعاء الجمال وتكلفه، واصطناع العلم والزهو به، تنعت المهجو بالعرض والضخامة دون الطول أي مربع مدوّر حيث تبدو صورة أحمد بن عبد الوهاب ذميمة الخلق قبيحة الهيئة فارغة من العلم؛ لأنه طرح على مهجوه مئة مسألة تشكل معظم معارف عصره، فلم يجب عنها.

ب - قيمة الرسالة الفكرية:

تجلّى في هذه الرسالة اطلاع الجاحظ الواسع ومعلوماته الواسعة، وعمق معرفته بالواقع، وما يحمله من الخرافات والقصص والمعتقدات القديمة والمعاصرة، وقد تناول المؤلف في رسالة الكثير من القضايا التاريخية والفلسفية والعلمية مستفيداً من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتاريخ العالمي والعربي، وتعرض في رسالته إلى قضايا متعددة كالألوان والأصوات والمد والجزر، وللمرآة والصورة التي تمسكها ولبعض التقاليد والطبائع وعلم الفراسة وأسرار بعض المخلوقات وخرفات أخرى (كعنقاء مغرّب).

ج - قيمة الرسالة الفنية والأدبية:

لم يستطع الجاحظ أن يبلغ من مهجوه مبلغاً للاستيفاء إلا حينما استعمل أدواتٍ فنية أسهمت في رسم صورة هذا المهجو بشكل متناقض، فبدأ بتناقضه مضحكاً. وأهم هذه السمات الفنية لهذه الرسالة:

١ - الإكثار من الدعاء الذي يسوقه للسخرية.

٢ - إبراز صورة السخرية عن طريق المفارقات والتناقضات المعتمدة على الجدل.

٣ - والاحتجاج والحوار والمغالطات.

(إنا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك..)

وقوله: "وما عليّ إن رآني الناس عريضاً وأكون في حكمهم غليظاً، وأنا عند الله طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق...) جعل الجاحظ مهجوه موضع اختلاف لجأ فيه إلى مقاييس الجمال أحياناً ومقاييس القماءة أحياناً أخرى. انقلب أحمد بن عبد الوهاب تحت صرير قلم الجاحظ إلى مسألة اعتزالية، ومعضلة علمية، ومشكلة فلسفية وكأن ابن عبد الوهاب خلاف بين الرافضة والمعتزلة وبين المرجئة والخوارج.

- الاستفادة بالإيماء واستخدام للألفاظ من خلالها:

"فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب، فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول".

تحويل الجد إلى هزل وسخرية:

"إنك لا تحسد على شيءٍ حسدك على حسن القامة وضخم الهامة وعلى حور العين، وجودة القد، وعلى طيب الأحدوثة".

إظهار عجز المهجو الثقافي بإلقاء الأسئلة عليه.

د - أسلوب الرسالة: الألفاظ: اتصفت بالرشاقة والدقة واللين والوضوح والإيماء والسخرية والتهكم واللاذع.

الجمل: بدت حادة وهادة، تشهر بالمهجو وتحقر منه، تطول أحياناً، وتقصر أحياناً أخرى، وتتزاوج وتترادف تحفل بالطباق والمقابلة دون إساءةٍ إلى المعنى ولا تكلفٍ في الأداء.

الباب التاسع عشر

الفصل السادس

البيان والتبيين

اختلف الدارسون في تسمية الكتاب وزمن تأليفه فذكر أنّه سمّي بالتبيين فقط، وأنه سمّي بالبيان والتبيين أيضاً وكتب على نسختين الثانية أصح وأجود من الأولى، وأنّ الكاتب ما ألف هذا الكتاب إلا بعد رجوعه من البصرة وإحساسه بثقل المرض، وقد اتبع فيه الكاتب طريقة المتكلمين والمتناظرين في الجدل والمنازعة، فالكتاب بيان من جهة اختيار الجاحظ للنصوص والأخبار والأحاديث والوصايا والخطب والأدعية، وتبيين لما يحمله من نظرات نقدية لحقائق الشعوبية وحقائق العرب، وهو من أفضل كتب الجاحظ؛ لأنه يوسّع المدارك، ويعلم الأدب والعقل وينبه الخاطر ويصقل الذوق ويهذّب الفكر.

آ - مادة الكتاب:

البيان والتبيين كتاب عام في الخطابة وأصولها عند العرب والعجم، لا يتبع طريقة واضحة، ولا يلتزم تبويباً ولا ترتيباً حيث تشيع فيه الفوضى التأليفية يمزج علوم البلاغة والأدب والتاريخ والحكمة والزهد، ويستطرد ضمن الموضوع الواحد.

ب - أهم مواصفات الكتاب:

١ - في مجال الألفاظ: تناول الحروف استهالاً ونطقاً ومخرجاً وعجز العرب عن نطق الحروف العربية.

٢ - في مجال البديع وأصحابه: تناول البلاغة وقيمتها وماهيتها ومواقف الكتاب منها.

٣ - في مجال البيان: تناول قيمته وما قيل فيه، وأثر البيئة والصنعة فيه، ووضح كيف يمكن أن يكون.

٤ – في مجال الخطابة: تناول مقوماتها وأنواعها والعيوب الخلقية في الخطب، ومزايا الأعراب والأنبياء وخطباء المدن والقبائل.

٥ – في مجال الشعر: تحدث عن شروطه ومقوماته وألوانه وتأثر الناس به وأثره في القبائل والأفراد.

٦ – في مجال البيوت النطقية: تحدث عن اللثغة والفأفأة واللحن الفصاحة.

٧ – في مجال نظم العرب: تناول النُّظم الاجتماعية والسياسية والمالية والخلقية والتعليمية.

وقد توزعت جميع موضوعات الكتاب في أجزاء انبرى فيها الجاحظ في الدفاع عن العرب أمام مطاعن الشعوبية وبيّن فيه ما عابه هؤلاء الشعوبيون على العرب وخطبائهم من استعمال العصا.

- نقد الجاحظ

ونجد أن الجاحظ (٢٥٥ هـ) قد قسم الشعراء وفق منهج آخر: ((وإنما ذلك – أي قول الشعر – على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والأعراق))، ويشرح الجاحظ ذلك:

أولاً – ((القضية التي لا احتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والإعراب والبدو من سائر العرب، أشعر من عامة الأمصار والقرى من المولدة والنابتة، وليس ذلك بواجب في كل ما قالوه)).

ثانياً – يشرح الجاحظ مفهوم الشعر بأنه ((صناعة وضرب من الصيغ وجنس من التصوير)).

ثالثاً – يقول: ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي)).

رابعاً – الشعرية النموذجية تكون وفق الجاحظ ((بإقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وصحة الطبع وجودة السبك)).

حين تحدق في مفاهيم الجاحظ للشعرية العربية نلمح ما يلي:

أولاً – العرب أكثر شعرية من العرب المولدين القادمين من الأمم الأخرى واستدراكه الوحيد هو ((ليس في كل ما قالوه)) بل معظمه، ولكنه لم يستدرك على المولدة أن يكون من بينهم الشاعر الذي يفوق الشعراء العرب، وهذا موجود بالفعل. ومن هنا نشتم من قوله هذا مسألة الصراع على السلطة بين العرب الأصلاء والعرب الجدد من الناحية الثقافية.

ثانياً – تعريف الجاحظ للشعر أقرب إلى تفضيل الشكل على المضمون ظاهرياً، ما دام الشعر: صناعة وصورة وصيغة. أما مسألة (المعاني) فلا فضل لشاعر على آخر فيها؛ لأن المعاني معروفة للجميع. ومن ثم فإن أهمية الشاعر تكون في كيفية صياغة المعاني المعروفة. هنا نجد – من زاوية أخرى – أن الجاحظ يوحد النظر للمعاني بين الجميع توحيداً قسرياً.

من زاوية ثانية نرى أن الجاحظ يحكم على الصيغة المنجزة للمعاني في هيئة قصيدة وليس على المعاني الخام المستقلة قبل تحولها إلى شعر. إذن فإن مقولة تفضيل الشكل على المضمون الظاهرية ليست دقيقة عند تفسير جملة ((المعاني مطروحة في الطريق)).

ثالثاً – الشعرية النموذجية عند الجاحظ تتبع الرأي السائد لدى الذوق العام للنقاد العرب آنذاك ولا جديد فيها.

الباب التاسع عشر

الفصل السابع

منزلة الجاحظ وخصائص فنه

آ - خصائص فن الجاحظ:

نظراً لكون الجاحظ صاحب مدرسة أدبية متميزة، بنى أسسها من ثقافته الخصبة الواسعة وأسفاره واختلاطه بأصحاب القول والعلم، فإن لهذا الكاتب خصائص متميزة تتمثل في:

١ - وضوح شخصية الجاحظ نحو كلِّ ما يكتب لأن له بصمات تفكيرية وتعبيرية متميزة وأسلوباً وطرازاً خاصاً من التفكير يعتمد على الحجة والسخرية والتهكم.

٢ - لا يقبل الجاحظ كلَّ ما ينقله لنا دون أن يمحصه ويناقشه ويحقق الأمور الكونية والأدبية فيه.

٣ - ظهور صفة الاعتزال في كل ما يكتب من خلال العقل والجدل والبحث عن الحقيقة بعيداً عن الخيال والعاطفة.

٤ - اعتماده على الخفة والدعابة والمرح والسخرية.

٥ - الإلمام بجوانب الموضوع الذي يتحدث عنه دون وضع خطةٍ منظمة "الاستطراد".

٦ - الواقعية من حيث تناول شؤون الحياة بالوصف والنقد والتعليق.

٧ - القدرة المدهشة على تناول الشيء وضده، مادحاً أو قادحاً.

٨ - طول التأليف التي كتبها، إذ يعد الجاحظ أول من ألف الكتب المطولة.

٩ - مرونة الأسلوب من حيث القدرة العجيبة على صياغة الألفاظ واستخدامها في أمكنتها وسبك الجمل والتصرف باللغة تصرفاً يدل على سعة ثروته اللغوية.

١٠ - تكوين الأسلوب وفقاً لأغراضه، فتارة يستعمل أسلوباً علمياً، وتارة يستخدم أسلوباً أدبياً.

١١ - تخير الألفاظ وإنزالها في مواضعها من الجمل مع مجانبة التكلف من خلال الدقة والموسيقا.

وبالنتيجة: فالجاحظ نحّات، بنّاء للغة، حسن التأليف ذو قدرة على الشاكلة بين الألفاظ والمعاني، يعتمد التوازن في الجمل والترادف والتناغم الموسيقي فيطيل الجمل، ويقصّرها بحسب الموقف، وتبدو جمله واضحة رشيقة جيدة التصوير، غير معتمد على السجع والتكلف.

ب - منزلة الجاحظ:

احتل الجاحظ في الأدب العربي مكانة مرموقة لدى المثقفين والمتأدبين نظراً لما تحمله آثاره الكثيرة من النظرات العلمية والكلامية والآراء الأدبية، وقد وضعه معظم النقاد والمفكرين على رأس الطبقة الأولى من الكتاب العرب وغير العرب، ومع ذلك فإن للجاحظ خصوماً التقطوا مثالبه، وأذاعوا عيوبه، ومن خصومه:

١ - ابن قتيبة الدينوري.

٢ - أبو العباس ثعلب.

٣ - المسعودي.

٤ - الأزهري.

٥ - الهمذاني.

٦ - البغدادي.

٧ - القاضي الباقلاني.

ومن التهم التي رمي بها الجاحظ:

١ - أنه غير ثقة فيما يروي وهو غير مجلٍّ في الأدب (الهمذاني).

٢ - أنه يستعين بكلام غيره أمّا كلامه فليس له ميزة (الباقلاني).

٣ - فساد العقيدة ونصرة الباطل، ووضع الحديث النبوي وتشكيك الناس في عقائدهم (المسعودي).

ومن الذين شهدوا للجاحظ بطول الباع وبالأدب وعلم الكلام "ثابت بن قرّة" الذي يقول: "ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس: أولهم: عمر بن الخطاب في سياسته ويقظته وحذره، والثاني: الحسن البصري في علمه وتقواه وزهده، والثالث الجاحظ في خطابته وأدبه وجده وهزله".

الباب العشرون

أبو العلاء المعري

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي

(الناثر)

أ - حياته ونشأته:

أبو العلاء اسمه (أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي) ولقبه المعري، نسبة إلى مولده (معرة النعمان) وهي مدينة بين حماة وحلب من مدن سورية، ولد فيها سنة ثلاث وستين وثلاثمئة من أسرة اشتهرت بالعلم والأدب والقضاء.

وما إن بلغ الرابعة من عمره حتى مرض بالجدري، أدى إلى فقدانه بصره، وقد ذكر ذلك في إحدى رسائله،لا يعرف من الألوان إلا الأحمر؛ لأنه ألبس في مرضه ثوباً مصبوغاً بالعصفر.

ب - حبه للعلم:

وقد كان أبو العلاء منذ صغره شغوفاً بالعلم محباً للمعرفة تتلمذ على قوم من علماء بلده، فلما رغب في المزيد رحل إلى طرابلس الشام، ثم إلى أنطاكية وكانت آنذاك من بلدان العلم والمعرفة، وكانت الثقافة السريانية هي السائدة في تلكم الحاضرة، وكانت اللاذقية تنافس أنطاكية في اجتذاب العلماء والمثقفين فارتحل إليها ونهل العلم من بعض أهلها، ثم عاد من اللاذقية إلى معرة النعمان وتوجه بعدها إلى حلب والتقى هناك ببعض الشيوخ وأخذ عنهم، ثم حدثته نفسه بالذهاب إلى بغداد عاصمة الدنيا آنذاك، فيمّم شطرها حوالي سنة ٣٩٦ هـ، ولكنه اضطر للعودة إلى مسقط رأسه وأنجز بعض أعماله

ج - لقاؤه بالشريف المرتضى:

واستأنف الرحيل إلى بغداد ثانية سنة ٣٩٨هـ، وفي هذه المرة حدثت له الصدمة الكبرى مع الشريف المرتضى الذي كان يتمتع بمركز ديني واجتماعي كبير بالإضافة إلى مركزه نقيباً

للأشراف، زيادة على كونه أديباً وكاتباً وشاعراً ومؤلفاً، وكانت داره ملتقى النخبة المثقفة من البغداديين ومن علماء العربية.

وخلاصة هذه الحادثة أن أبا العلاء استدعي إلى دار الشريف المرتضى، وواكب ذلك اجتماع طائفة من رجال الأدب في دار الشريف، وكان هؤلاء يتناقشون في جلساتهم ببعض شؤون الشعر والشعراء، وطرحت ليلتذاك (شاعرية المتنبي) ويبدو أن الشريف المرتضى كان كارهاً للمتنبي، فأخذ الحاضرون يجاملون الشريف فيثلبون المتنبي ويعيبون شعره، فلما سُئل أبو العلاء عن رأيه في المتنبي - وكان المعري مفتوناً بشعره وفكره - قال: لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي يقول في مطلعها:

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

لكفاه فخراً، ففتر الشريف المرتضى قليلاً، ثم أشار إلى خدمه قائلاً لهم: جرّوا هذا الأعمى من رجليه وألقوا به بخارج مجلسنا هذا، ففعل الخدم، وعندما هدأت ثائرة الشريف سأل جلساءه: هل تعلمون لماذا أخرجت هذا الأعمى، فقالوا: الله ثمَّ سيدنا أعلم. فقال: ذلك لأنه أساء الأدب حيث اختار هذه القصيدة اللامية؛ لأن المتنبي يقول في هذه القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

د - إلزامه نفسه بالسجن:

وكانت هذه الصدمة ذات وقع كبير على نفس المعري فقد قرر بعدها إلا يخرج من بيته وألزم نفسه السجن في داره، لا سجناً واحداً فحسب، بل تعداه إلى سجون كثيرة ذكر منها ثلاثة:

١ - سجن الدار.

٢ - وسجن العمى.

٣ - وسجن نفسه في جسده.

هـ - ما أنجزه في هذه الفترة من مؤلفات:

وفي هذه الفترة أنتج أبو العلاء مجموعة غير قليلة من المؤلفات:

١ – كسقط الزند.

٢ – ولزوم ما لا يلزم وغيرهما من الدواوين الشعرية.

٣ – ورسالة الغفران.

٤ – ورسالة الملائكة وغيرهما من المؤلفات النثرية.

وألف في النقد مجموعة من الكتب منها:

٥ – (معجز أحمد) الذي شرح فيه شعر المتنبي، و(ذكرى حبيب) وشرح فيه الغامض من شعر أبي تمام (عبث الوليد) وخصه بالتعليق على بعض أبيات البحتري.

و - اضطراب عصر المعري:

كلُّ ذلك في جو سياسي مضطرب تتنازع السلطة فيه دولة الحمدانيين والمرداسيين في شمال سورية، ودولة الفاطميين في جنوبها، وتترقب من وراء الحدود الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت تنتهز كل فرصة للإغارة على مملكة الإسلام.

ولم تكن الحياة الدينية أحسن حالاً من الحياة السياسية، بل كانت أكثر اضطراباً وتموجاً وكان المتدينون ينقسمون إلى قسمين:

١ – الأول: متدينون بالوراثة ممن اتخذوا من الدين وسيلة لتحقيق مآربهم وأداة لفرض نفوذهم ومزجوا هذا بنوع من النفاق للحكام وتطويع مبادئ الدين الحنيف لخدمة الأغراض السياسية والاقتصادية، وكان هذا القسم يمثل الأكثرية المطلقة من جمهور الشعب.

٢ – والثاني: متدينون فهموا جوهر الدين وحقيقته، وجاء سلوكهم انعكاساً لاعتقادهم ولكن هؤلاء قبعوا في بيوتهم ونفضوا أيديهم من الدنيا.

كل هذه الاتجاهات السياسية والعقيدية والفكرية يضاف إليها نسائم كانت تهب على المجتمع الإسلامي من بقايا الفلسفات القديمة كالهندية والفارسية والنسطورية والبيزنطية، أثَّر على تفكير أبي العلاء وطبعته بطابع الشك والقلق والحيرة.

ز - عقيدة المعري: اختلف الدارسون في هذا العصر – كما اختلف القدامى – في حقيقة عقيدة أبي العلاء.

١ – فمن قائل: إنه ملحد شديد الإلحاد كافر بالله وبالبعث والنشور، ولهذا نقل السيوطي في بغية الوعاة عن بعضهم أنه قال: " زنادقة الإسلام ثلاثة:

– ابن الراوندي.

– والتوحيدي.

– والمعري".

٢ – ومن قائل: إنه لم يرض أن يكون مؤمناً كإيمان العجائز، من غير أن يعمل فكره في كل ما انتهى إليه من مظاهر العقيدة الدينية.

٣ – ومن قائل: إنه كان يتردد في التوفيق بين ما انحدر إليه من تعاليم موروثة عن الدين ورأي يمتحنه من عقله وتفكيره، وينتهي إلى شيء من اليقين فيعرج بذلك فيقول:

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

٤ – ومن قائل: ينسب إلى أبي العلاء أنه مؤمن عميق الإيمان ويستشهد ببعض ما تركه من شعر فقد أثر عنه بيت قال فيه:

والله حق وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب

– وفي قصيدة أخرى يؤيد فكرة وجود الله ويجهر بهذا فيقول:

الله لا ريب فيه وهو محتجب باد، وكل إلى طبع له جذب

– وبعد طول تفكير هداه عقله إلى أن هذا العالم الذي يسير بنظام لابد له من منظم:

فلك يدور بحكمة ولـه – بلا شك – مدبر

ح - رأيه في الموت وما بعده:

١ – أما الموت فهو حاصل لا شك فيه، لا ينكره منكر.

٣ – وهذه الأجسام لا يجحد مفكر بأن مآلها إلى التراب، ولكن الذي سأل عنه أبو العلاء هو الأرواح التي لا يملك جواباً لها، فيقول:

ما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالأرواح أني نسلك

٣ – ومهما أمعن في التفكير فلن يهديه تفكيره إلى أكثر من الظن:

دفنـــاهم في الأرض دفـــن يقـــين ولا علـــم بـــالأرواح غـــير ظنـــون

٤ – ويبدو أنه استرسل في التفكير في هذه المشكلة ولكنه لم يهتد لصواب فارتد إليه تفكيره ورضي بأن يجعل معرفة مصير الأرواح من خفايا علم الله الذي انفرد به.

٥ – وما محاولة ابن آدم في الغوص وراء خفيات علم الله إلا ضرب من الجنون:

وروم الفتـى مـا قـد طـوى الله علمـه يعـــد جنونـــاً أو شـــبيه جنـــون

٦ – وتظل فكرة التساؤل عن مصير الروح تقلقه وتشغل باله، لذلك عاد وطرح السؤال مرة أخرى في اللزوميات، وانتهى به الأمر إلى العجز عن إدراك هذه المشكلة التي حيرت الأنبياء والمفكرين من قبل، واعتبر التفكير بها ضرباً من الهذيان:

قـد قيـل إن الـروح تأسـف بعـدما تنـأى عـن الجسد الـذي غنيـت بـه

إن كـان يـصحبها الحجـا فلعلهـا تـــدري وتأبـــه للزمـــان وغيبـــه

أو لا، فكـــم هـــذيان قـــوم غـــابر في الكتـــب ضـــاع مـــداده في كتبـــه

ط – رأيه في الدين: يصرح المعري باستنكاره للخصومات التي تنشأ بين أتباع الديانات، وخاصة في عصره حيث احتدمت الخصومة بين المسلمين والنصارى في مدينة اللاذقية وهاجت المدينة للضجة التي كانت بين أتباع طه وأتباع المسيح، ولكنه لا ينتصر لفئة دون أخرى، فنسمعه يقول:

في اللاذقيـــــــة ضـــــــجة مـــــا بـــــين طـــــه والمـــــسيح

كـــــل يعـــــزز دينـــــه يـــا ليـــت شـــعري مـــا الـــصحيح

وعلى الرغم من أنه يقف موقفاً سلبياً من "ضجة اللاذقية" نجده يصرح بأن أتباع الديانات الثلاث تنكبوا عن سواء السبيل، وهداه تفكيره إلى أن أهل الأرض شخصان:

١ – أحدهما: حاز الدين كله، ولكن فاته أن يحوز شيئاً من العقل.

٢ – الثاني: حاز العقل كله ولم يمسك من الدين شيئاً لا من الإسلام ولا من النصارى ولا من اليهودية، ولا من المجوسية:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنان أهل الأرض ذو دين بلا عقل ... وآخر دين لا عقل له

ومشكلة الدين حيرته كثيراً، ولذلك ظل قلقاً يتذبذب بين الفكر والإيمان، واطّلاعه على الكتب الثلاثة المقدسة، لم يستطع أن يستل القلق من نفسه، بل دفعه الشك إلى الجنوح نحو الكفر في الديانات والكتب السماوية، وكان يتمنى أن يأتي ذلك الجيل المبرأ من أوهام الديانات والتمرد على أباطيلها التي لفقها – على حد قوله – دعاتها:

دين وكفر وأنباء تقص ... وفرقان ينص وتوراة وإنجيل

في كل جيل أباطيل ملفقة ... فهل تفرد يوماً بالهدى جيل؟

وصراع أبي العلاء في الشرائع السماوية على اختلاف الكتب المقدسة التي حطها صراع طويل، ولذلك يحمل على كل هذه الكتب حملة شعواء، ويزعم أن ما فيها من شرائع هي التي بذرت الفتن بين خلق الله:

إن الشرائع ألقت بيننا إحنا ... وأودعتنا أفانين العداوات

ي - رأيه في حَمَلة الدين:

وهؤلاء برأيه يستغلون الدين أشد استغلال، ولا ندري أعلاقته برجال الدين في عصره كانت سيئة، أم أن رجال الدين في زمنه كانوا من المتاجرين باسم الدين؟! ومن المنتفعين بالتظاهر بلبس مسوح الرهبان وجلابيب الأئمة وأفعالهم تناقض أقوالهم، فهم يتظاهرون أمام الناس بعزوفهم عن الخمرة، ويعظون الجماهير بتركها، وهم يعاقرونها صباح مساء، لذا تراه ينتقد سلوك هؤلاء فيقول:

رويدك قد خدعت وأنت حر ... بصاحب حلية يعظ النساء

يحرّم فيكم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمد مساء

يقـــول لكـــم غـــدوت بـــلا كـــساء وفي لـــــذاتها رهـــــن الكـــــساء

إذا فعـــل الفتـــى مـــا عنـــه ينهـــى فمـــــن جهتـــين لا جهـــة أســـاء

ك - رأيه في رجال السياسة:

ليس رأيه في رجال السياسة أفضل من رأيه في رجال الدين، وربما كان رجال السياسة وأصحاب السلطان في عصره من المستغلين لنفوذهم والممعنين في هذا الاستغلال، ولكن ربما كانت عاهة أبي العلاء التي كوَّنت عقدة كراهية لجميع الناس لديه، ومهما يكن الأمر فإنه حمل بشدة على ولاة الأمور في زمانه، فلذلك وصفهم بأنهم ينصرفون إلى ملاذهم التي تشغلهم عن رعاية شؤون الأمة، ويتركون لأعوانهم أن يوغلوا في امتصاص دماء الناس الذين كأنما خلقوا لتقديم الخراج الذي من شأنه أن يزيد من رفاهية الملوك:

فـــشأن ملـــوكهم عـــزف ونـــزف وأصـــحاب الأمـــور جبـــاة خـــرج

وهو يؤمن بأن الرسالة المنوطة بأعناق ولاة الأمور هي إقامة العدل بين المواطنين ودفع الأذى عنهم وحمايتهم من كل ما يهدد أمنهم، بيد أنهم إذا خانوا هذه الرسالة فإنهم بذلك يكونون قد استجازوا لأنفسهم هذه الأمة التي أوكلت إليهم سياسة أمورها وأناطت بهم تدبير شؤونها، فلذلك نجد أبا العلاء يمل المقام في أمة هذه أحوالها وأحوال حكامها:

مـــل المقـــام فكـــم أعـــاشر أمـــة أمـــرت بغـــير صـــلاحها أمراؤهـــا

ظلمـــوا الرعيـــة واســـتجازوا كيـــدها فعـــدوا مـــصالحها وهـــم أجراؤهـــا

وكان شديد التبرم والتأفف من رجال السياسة في عصره، وخاصة أن السياسة آلت إلى مجموعة من الأحداث والشباب الأغرار الذين لا عهد لهم بالسياسة فصرفوها أسوأ تصريف فوصفهم بقوله:

يـــسوسون الأمـــور بغـــير عقـــل فينفـــذ أمـــرهم ويقـــال ساســـة

فـــأف مـــن الحيـــاة وأف منـــي ومـــن زمـــن رئاســـته خـــساسة

ومع أنه كان برماً بالسياسة، فإن هذا لم يقلقه قدر قلقه من المسوسين أيضاً، أي أن سخطه تعدى الحكام إلى المحكومين، وكأنه يؤمن بالقول المأثور " كما تكونوا يولَّى عليكم " لذلك حمل على الناس جميعاً واعتبرهم " هم الفسدة ".

قد فاضت الدنيا بأدناسها ... على برایاها وأجناسها

وكل حي فوقها ظالم ... وما بها أظلم من ناسها

ونظرته للإنسان تتجلى بأن هذا الإنسان تعرى عن أخص خصائص الإنسانية فيه وهي الصداقة التي طالما أشاد بها الشعراء:

قالوا فلان جيد لصديقه ... لا يكذبوا ما في البرية جيد

فأميرهم نال الإمارة بالخنا ... ونقيبهم بصلاته يتصيد

من نثر أبي العلاء المعري:

ل - قال أبو العلاء في رسالة الغفران:

١ - (فإذا رأى قلة الفوائد تركهم في الشقاء السرمد، وعمد لمحله في الجنان فيلقى ابن آدم عليه السلام في الطريق فيقول: يا أبانا - صلى الله عليه وسلم - قد روي لنا عن شعر، منه قولك:

نحن بنو الأرض وسكانها ... منها خلقنا وإليها نعود

والسعد لا يبقى لأصحابه ... والنحس تمحوه ليالي السعود

فيقول: إن هذا القول حق وما نقلته إلا بعض الحكماء، ولكنني لم أسمع به حتى الساعة، فيقول - وقر الله قسمه في الثواب - فنحن لك يا أبانا قلته ثم نسيت، فقد علمت أن النسيان متسرع إليك، وحسبك شاهداً على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد - صلى الله عليه وسلم - : " ولقد عهدنا لأدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً " وقد زعم بعض العلماء أنك إنما سميت إنساناً لنسيانك، واحتج على ذلك بقولهم في التصغير: أنيسان، وفي الجمع: أناسي، وقد روي أن الإنسان من النسيان عن ابن عباس، وقال الطائي:

لا تنسين تلك العهود وإنما ... سميت إنساناً لأنك ناس

وقرأ بعضهم: " ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس"، بكسر السين يريد الناسي، فحذف الياء كما حذفت في قوله " سواء العاكف فيه والباد"، فأما البصريون فيعتقدون أن الإنسان من الأنس، وأن قولهم في التصغير أنيسان شاذ، وقولهم في الجمع: أناسي أصله أناسين، فأبدلت الياء من النون، والقول الأول أحسن.

٢ - فيقول آدم - صلى الله عليه وسلم - : أبيتم إلا عقوقاً وأذية، إنما كنت أتكلم بالعربية، وأنا في الجنة فلما هبطت إلى الأرض نقل لساني إلى السريانية، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلما ردني الله إلى الجنة أعاد عليَّ العربية، فأي حين نظمت هذا الشعر: في العاجلة أم الآجلة؟ والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله: (منها خلقنا وإليها نعود) فكيف أقول هذا المقال ولساني سرياني؟ وأما الجنة فقبل أن أخرج منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وأنه مما حكم على العباد، صير كأطواق حمام، وما رعى لأحد من ذمام وأما بعد رجوعي إليها فلا معنى لقولي: وإليها نعود؛ لأنه كذب لا محالة ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون، فيقول قضي له بالسعد: إن بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر وجده (يعرب) في متقدم الصحف بالسريانية، فنقله إلى لسانه، وهذا لا يمنع أن يكون. وكذلك يروون لك - صلى الله عليك وسلم - لما قتل قابيل هابيل:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

وأودى ريع أهليها فباتوا ... وفود في الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشد (وزال بشاشة الوجه المليح) على الإقواء، وفي حكاية معناها ما أذكر أن رجلاً من بعض ولدك يعرف بابن دريد أنشد هذا الشعر وكانت روايته (وزال بشاشة الوجه المليح)، فقال أول ما قال: أقوى وكان في المجلس أبو سعيد السيرافي، فقال: يجوز أن يكون قال: (وزال بشاشة الوجه المليح) بنصب بشاشة على التمييز وبحذف التنوين لالتقاء الساكنين، كما قال عمر: والذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستوون عجاف، قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شر من إقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة، فيقول آدم - صلى الله عليه وسلم - : أعزز علي بكم معشر أبيني، إنكم في الضلالة منهوكون، آليت ما نطقت هذا التكليم ولا نطق في عصري، وإنما نظمه بعض الفارغين فلا حول ولا قوة إلا بالله،

كذبتم على خالقكم وربكم، ثم على آدم ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض، ومآلكم في ذلك إلى الأرض.

الباب الحادي والعشرون

أبو حيان التوحيدي الواسطي

٣١٠ - ٤١٤ هـ

أ - سمه وكنيته ولقبه وأصله:

إنه علي بن محمد بن العباس، يكنى بأبي حيان، ويلقب بالتوحيدي، وهو أشهر لقبيه والثاني الواسطي، ولقب بالتوحيدي نسبة إلى نوع من التمر يسمى التوحيد، كان أبوه يبيعه بالعراق. وقال ابن حجر: المحتمل أن تكون نسبته إلى التوحيد وهو الدين، فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، ومعتزلي كما سيمر معنا وأصله شيراز، وقيل: وهو عربي على الرغم من مولده الذي ينسب إلى هذين البلدين الأعجميين، ولم يكن يعرف الفارسية.

ب - ميلاده ونشأته:

ولد في العشر الثاني من القرن الرابع ثم انتقل إلى بغداد فأقام بها عدة، ومضى إلى الري وصحب أبا الفضل ابن العميد، والصاحب بن عباد، فلم يحمدهما وألف كتاباً في مثالبهما.

ج - أساتذته:

١ - تخرج في النحو على أبي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني.

٢ - وبالفقه الشافعي على حامد المروذي وأبي بكر الشاشي.

٣ - وفي الفلسفة على يحيى بن عدي وأبي سليمان المنطقي وأبي الحسن العامري وابن النفيس الرياضي.

٤ - وفي التصوف جعفر الخلدي وابن سمعون.

د - ثقافته:

١ - كان أبو حيان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة.

٢ – وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه ويشتهي أن ينتظم في مسلكه.

٣ – فهو شيخ في الصوفية.

٤ – وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة.

٥ – ومحقق الكلام ومتكلم المحققين.

٦ – وإمام البلغاء.

٧ – فرد الدنيا الذي لا نظير له، فطنة وفصاحة ومكانة.

٨ – كثير التحصيل للعلوم في كل فن.

٩ – حفظه واسع الدراسة والرواية.

١٠ – وقد كان تفوقه في العلوم وتبحره في المعارف في أعلى طبقة من البيان.

١١ – وكانت علومه هذه سبباً في تقريبه من الكتاب والرؤساء.

هـ - آثار أبي حيان:

أولاً - الآثار الأدبية:

١ – الإمتاع والمؤانسة.

٢ – الهوامل والشوامل.

٣ – الصداقة والصديق.

٤ – البصائر والذخائر.

٥ – مثالب الوزيرين.

٦ – النوادر.

٧ – تقريظ الجاحظ.

٨ – رسالة الحنين إلى الأوطان.

٩ – رسالة في علم الكتابة.

١٠ – الرد على ابن جني في شعر المتنبي.

ثانياً - الآثار الفلسفية:

١ - المقابسات.

٢ - رسالة في ضلالات الفقهاء في المناظرة.

٣ - المحاضرات والمناظرات.

٤ - الإقناع.

٥ - التذكرة التوحيدية.

ثالثاً - الآثار الصوفية:

١ - الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية.

٢ - الحج العقلي إذا ضاق الفضاء من الحج الشرعي.

٣ - الزلفى.

٤ - رسالة في أخبار الصوفية.

٥ - رياض العارفين.

رابعاً - كتب التراجم والجدل:

١ - رسالة في بيان ثمرات العلوم.

٢ - رسالة الإمامة.

٣ - المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس.

خامساً - كتب مجهولة المضمون:

١ - الرسالة البغدادية.

٢ - رسالة أبي بكر الطالقاني.

٣ - رسالة لابن العميد.

٤ - رسائل أبي حيان التوحيدي.

و - أخلاقه:

١ – لم يكن أبو حيان ذا حظ من هناءة في العيش.

٢ – بل كان – على كثرة ما صحب من ذوي السلطان وأصحاب النفوذ والجاه – بائساً فقيراً رقيق الحال.

٣ – قلق الركاب، لا يستقر له حال في مكان.

٤ – دائم التفكير في أمر الدنيا وما يمرح فيه الجاهلون والمنقوصون من الجاه العريض والنعمة السابغة، والدنيا المقبلة، والحظ المواتي، وكان يقارن ذلك بما هو عليه من بؤس وشقاء وشظف في العيش واستجداء اللئام. فتثور ثائرته وتعصف به رياح التحسر والنقمة على القدر، فيعلن الشكوى على زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه.

٥ – وكان سخيف اللسان قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه والثلب دكائه، وكان – كما يقال – مجبول على الغرام بثلب الكرام.

٦ – ولما صحب ابن العميد وابن عباد فلم يرضياه ولم يبلغاه من الدنيا مناه تتبع عوراتهما، وتجسس سوءاتهما، ثم أنشأ فيهما كتاب (مثالب الوزيرين) وانعكس عليه فسبب له نفور كثير من الناس؛ لأن الصاحب بن عباد بما كان له من وسع السلطة وعظيم العطايا على الأدباء والعلماء وأهل الفضل قد سلط عليه كل ذي لسان وبيان، فقصدوه بالذم حتى أخملوا ذكره وغروا اسمه حتى قال عنه ياقوت: " ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه في ضمن خطاب وهذا من العجب العجاب".

٧ – كان سوداوي المزاج يميل إلى الانقباض والحزن مما أدى به إلى التشاؤم، وكان إلى جانب ذلك المزاج مرهف الإحساس سريع الانفعال، يلف كل ذلك شقاء وفقر.

٨ – وكان يعاني صراعاً عنيفاً بين طموحه الذي يطمح إليه وواقعه الذي يرزح تحته، ذلك بحقد كان نتيجة إخفاقه في الحياة لذا كان يرى أن ما في أيدي الناس من النعم والأموال، وما ينعمون به من الجاه والسلطان. قد كان ذلك من حقه دون غيره من سائر الخلق، فإذا رأى إنساناً بيده قليل أو كثير من متاع الدنيا عده سالباً لحقه حتى لو ناله شيء مما ينعم به ذلك

الإنسان، فلا يرى له عليه حق الشكر، ويعتقد ذلك استرداداً لبعض حقه، فإذا أطعمه امرؤ ألوان المطاعم لم يخطر بباله أن يقابله على إحسانه إلا بقوله:

غير اختيار قبلت بركك بي والجوع يرضي الأسود بالجيف

فإذا عاتبه على كفران النعمة وسوء العرفان بالجميل أنشده:

ما كنت إلا كلحم ميت دعا إلى أكله اضطرار

وإذا رأى إنسان في منزلة عالية نظر إليه والحقد يحرق كبده وهو يتحسر على منزلته فقال:

وإذا رأيت فتى بأعلى رتبة في شامخ من عزه المترفع

قالت لي النفس العروف بقدرها ما كان أولاني بهذا الموضع

ز - رحلاته وصلاته بعظماء عصره:

١ - كان أبو حيان شيرازي الأصل أو نيسابوري، ويقول ياقوت الحموي في معجمه: إنه قدم بغداد، فأقام بها مدة وفي هذه المدة اتصل أبو حيان في ظروف مجهولة - بالوزير المهلبي - وهو الحسن بن محمد بن عبد الله من ولد المهلب بن أبي صفرة. وهو من كبار الوزراء الأدباء الشعراء اتصل المهلبي بمعز الدولة البويهي. فكان كاتباً في ديوانه، ثم استوزره وكان ذلك في خلافة الخليفة العباسي المطيع.

٢ - فلما سمع به المطيع قربه أيضاً، وخلع عليه ثم لقبه بالوزارة، فاجتمعت له وزارة الخليفة المطيع ووزارة السلطان المعز ولقب بذي الوزارتين، وكان من أشهر رجال الألم حزماً ودهاء وكرماً وشهامة يجمع إلى ذلك إلماماً واسعاً بالأدب وقرض الشعر مع اطّلاع وفصاحة باللغة الفارسية، ولد المهلبي بالبصرة حوالي سنة ٢٩١هـ وتوفي بواسط وحمل إلى بغداد سنة ٣٥٢ هـ وقد أضفت عليه كتب التراجم القديمة الكثير من الصفات، فهذا ياقوت الحموي يقول عنه: " كان طيب الحديث وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث من يجمعهم من العلماء والكتاب والقدماء، وكان صاحب كتاب تجارب الأمم ينعته فيقول: " يعطف على أهل الأدب والعلوم فأحيا ما كان درس ومات من ذكرهم ونسوه ورغب الناس بذلك في معاودة ما أهمل منها".

ويفاجئنا الذهبي في كتاب ميزان الاعتدال فيقول لنا: إن المهلبي غضب من أبي حيان التوحيدي بعد أن قربه إلى بلاطه ونفاه عن بغداد، ويعلل سبب ذلك بسوء عقيدة أبي حيان، ولا ندري هل كان نفيه لسوء عقيدته الاعتزالية؛ لأن المهلبي كان شديد الوطأة على أصحاب العقائد، والجدل والبدع، فقد فعل الأفاعيل بالعباسيين أعداء العلويين كما يقول صاحب تحفة الأمراء وأخباره في البعد عن التسامح واضطهاده القضاة وأرباب البدع مشهورة وربما هذا يعلل سبب إقدامه على نفي التوحيدي الذي كان عدو الشيعة والرافضة، وربما كان هذا هو السبب الذي نفي من أجله كل من ابن العميد والصاحب بن عباد، يضاف إلى ذلك أن أبا حيان كان يجهر ببعض الآراء المنافية لقواعد الإسلام كالتي في كتابه " الحج العقلي " والتي أدت إلى اتّهامه بسوء العقيدة والزندقة والانحلال.

٣ – وخلف أبو حيان بغداد ومضى إلى الري بناء على دعوة من أبي الفضل بن العميد الذي ملأت شهرته الأفق وغدت داره محط آمال رواد الثروة والجاه من المنشغلين بالعلوم والآداب، وابن العميد هذا وصفه ابن مسكويه خازن كتبه فقال: أوتي من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه، حتى أذعن له العدو وسلم الحسود، ولم يزاحمه أحد في المعاني التي اجتمعت له.

فمن ذلك أن كان أكتب أهل عصره، وكذلك شعره الذي جد فيه وهزل، فإنه في أعلى درجات الشعر وأرفع منازله " وكان ابن العميد من المولعين بالجاحظ ولعاً شديداً حتى أنه إذا وفد عليه واحد من منتحلي العلوم والآداب وأراد امتحان عقله سأله عن الجاحظ، فإن لمس أثراً فيه لمطالعة كتبه والاقتباس من نوره والاغتراف من بحره، وبعض القيام بمسائله قضى له بالفهم وأغدق عليه من نعمه وإن وجده غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ، لم ينفعه بعدد ذلك شيء من المحاسن، وإذاً فلا جرم أن أبا حيان سيحوز قصب السبق لدى ابن العميد بجاحظيته.

هذه بعض صفات ابن العميد الذي قصده أبو حيان أملاً أن يجد عنده ما افتقده عند غيره، غير أن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمل، وربا الاختلاف طبيعة الشخصين فأبو حيان كان يفد على الوزراء وفيه اعتداد وصلف واستطالة، وهو صرفي الصمت مرقع الثياب، غرٌّ لا هيئة له في لقاء الكبراء ومحاولة الوزراء، وفي ابن العميد أبهة وزراء الفرس وعظمة سلاطينهم لذلك احتقره وازدراه.

ومع ما وصفنا به أبو حيان من اعتداد وصلف فقد قدم على ابن العميد أبي الفتح برسالة كلها استخذاء واستجداء، وهي طويلة،ويسترسل أبو حيان في هذه الرسالة المستفيضة بمثل هذه اللهجة المستجدية بضروب من الجمل الدعائية تارة والمستعطفة تارة أخرى، وهو بين هذه الأنواع من الجمل يستدرك فيصف بؤس حاله وشقاء نفسه، وجور الزمان عليه والحرمان الذي جرعه مر العذاب، وقد يعجب المرء من هذا التناقض في شخصية أبي حيان فبينما هو - كما لاحظنا من خلال رسالته - يتضرع ويستعطف حتى ليتضاءل شخصه ويتلاشى وجوده، إذا هو ينقلب في مواطن أخرى يتطاول على الوزراء ويتعاظم على ذوي السلطان، وينقم على كل ذي نعمة ويحسد كل ذي جاه، وما مرد ذلك إلا نزوات أبي حيان التي تنبع من مزاجه المريض ونفسه الحاقدة - المعقدة وتفتر العلاقات بين أبي حيان وابن العميد إلى أن انتهت إلى الركود.

عُمِّر ابن العميد حوالي ستين سنة وتزيد قليلاً، وقضى الشطر الأعظم من حياته في الوزارة إذ تقلدها سنة ٣٢٨هـ وهو دون الثلاثين ومات عنها سنة ٣٦٠هـ وقد عاصر أبا حيان وهو في آخر حياته، فلما توفي ابن العميد الأديب قام ابنه أبو الفتح مقامه في الوزارة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وكان ذلك سنة ٣٦١هـ، وكان ركن الدولة ابن بويه قد شاخ وسئم وفوض الأمر لأبي الفتح ابن العميد، وكان فيه مع رجاحة عقله وفضله وأدب الكتابة ويقظته وفراسته فرق الشباب وسكر الحداثة وجرأة القدرة، فتطلعت نفسه إلى إظهار الزينة الكثيرة، وكان يسرف في ركوب الأهواء، فجلب ذلك ضروب الحسد.

وخرج أبو الفتح من الري عاصمة البويهيين إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فوصل إلى حضرة الخليفة فخلع عليه، ولقّبه ذا الوزارتين، وكان مدة إقامته في بغداد يعقد مجالس مختلفة للفقهاء يوماً وللأدباء يوماً وللمتكلمين يوماً وللمتفلسفين يوماً، وفرق أموالاً خطيرة وتفقد النابهين من أهل العلم والأدب وأراد استصحابهم معه إلى الري ومنهم أبو حيان التوحيدي. واستمرت إقامة أبي الفتح في بغداد. وأحب الخلافة وشدته بغداد إلى ملاهيها وملاذها وأصبحت له فيها الأملاك والسفن والدور والاقطاعات، ثم اضطر إلى العودة إلى الري

ومارس منصب الوزارة فيها، والتقى بالصاحب بن عباد الذي كان يحسده على مكانته هذه غير أنه تمكن من إقصاء الصاحب بن عباد عن الري وإبعاده إلى أصبهان.

فلما خلا الجو للفتح عاد إلى اللعب من شهواته، واتفق أنه استدعى يوماً ندماءَه وعبأ لهم مجلساً عظيماً وأظهر من الزينة وآلات الذهب والصيني وما شاكله ما يفوت الحصر، وشرب واستفزه الطرب، وكان قد شرب يومه وليلته فعمل شعراً غني به وهو:

دعوت المنى ودعوت العلى ... فلما أجابا دعوت القدح

وقلت لأيام شرخ الشباب ... ألا إن هذا أوان الفرح

إذا بلغ المرء آماله ... فليس له بعدها مقترح

فلما غنى بالشعر استطابه وشرب عليه إلى أن سكر، فما كان من مؤيد الدولة إلا أن قبض عليه وحمله إلى السجن وأوكل به من يعذبه، فأول ما عمل به أن سملت إحدى عينيه، ثم نكل به وجرت لحيته، وجدع أنفه وعذب أنواع العذاب، فلما استيقن من الهلاك كان ينشد ويردد البيتين التاليين:

ملك الدنيا أناس قبلنا ... رحلوا عنها وخلوها لنا

ونزلناها كما قد نزلوا ... ونخلّيها لقوم بعدنا

ثم شددوا عليه العذاب حتى مات سنة ٣٦٦هـ، فأتيحت الفرصة للصاحب ابن عباد أن يعود إلى الري وأن يتسلم الوزارة مكانه.

وكان الصاحب في بدء أمره من صغار الكتاب يخدم أستاذه أبا الفضل ابن العميد،ومن أجل صحبته لابن العميد سمي الصاحب واسمه إسماعيل بن عباد. ولد سنة ٣٢٦ هـ، ونشأ في بيت علم وفضل ووجاهة وأقبل على طلب العلم منذ صغره، أخذ العلم عن أبيه وتتلمذ لأحمد بن فارس، فأخذ عنه الأدب في الري وظل الصاحب يكن المودة لأبي الفضل ابن العميد حتى توفي، وآلت الوزارة إلى ابنه أبي الفتح فوقعت بينهما الجفوة، فلما نكب أبو الفتح وقتل سنة ٣٦٦هـ تولى مكانه الصاحب وزيراً لمؤيد الدولة.

وفي المدة التي كان يكتب فيها الصاحب لمؤيد الدولة بأصبهان - أي قبل أن يصبح وزيراً - زار المتنبي ابن العميد وطمع الصاحب في زيارة المتنبي إياه بأصبهان، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان، وهو ذلك الشاب فكتب الصاحب يلاطف المتنبي باستدعائه ويضمن له جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزناً، ولم يجبه عن كتابه.

وقيل: إن المتنبي قال لأصحابه: إن غلياً معطاء يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك، فلما أخفق الصاحب في استجلاب المتنبي صيره غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته، وينعي عليه سيئاته، وألف رسالة في عيوب المتنبي سماها " الكشف عن مساوئ المتنبي " مع أنه أعرف الناس بحسناته وأحفظهم وأكثرهم استعمالاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته، وظل الصاحب في الوزارة إلى أن توفي سنة ٣٨٥هـ عن عمر يقارب الستين.

بعد هذه المقدمة القصيرة من حياة الصاحب بن عباد نعود إلى الحديث عن علاقته بأبي حيان التوحيدي الذي قصده من بغداد سنة ٣٦٢هـ عندما سمع بكرمه فقصده، بأمل فسيح، وصدر رحيب فخيب أمله فعاد" عاتباً على ابن عباد مغيظاً منه مقروح الكبد لما ناله من الحرمان المر والصد القبيح، واللقاء الكريه والجفاء الفاحش، والقذع المؤلم والمعاملة السيئة والتغافل عن الثواب والخدمة وحبس الأجرة على النسخ والوراقة، والتجهم المتوالي عند كل لحظة ولفظة" على حد تعبير التوحيدي نفسه في الإمتاع والمؤانسة.

ويفسر الأدباء هذا الإخفاق الذي لاقاه أبو حيان عند الصاحب بن عباد بمجموعة عوامل منها مدح التوحيدي لابن العميد في حضرة الصاحب حتى سار الناس يذلونه على ذلك قائلين: " جنيت على نفسك عندما ذكرت عدوه عنده بخير وأثنيت عليه وجعلته سيد الناس ونعلّق على هذا التفسير بأنه صحيح أن الصاحب يطمح دائماً إلى حيازة الفضائل ويبحث عن الثناء، ويرغب أن يكون السيد المفضل، ولكن العداوة التي تصورها الأدباء بين ابن العميد والصاحب لم تكن بين ابن العميد الأب: أبي الفضل الذي كان يجله الصاحب ويقدره ويسبح بحمده، ولكنها كانت بين الصاحب وأبي الفتح ابن العميد الذي أسرف في السخافة واللهو، فلم يظفر باحترام الصاحب ولا باحترام أبي حيان نفسه.

وهناك تفسير آخر يعزى إلى نفسيتي الرجلين، فقد كان التوحيدي - كما لاحظنا من أخلاقه - شديد الحسد والبغض لذوي النعمة والجاه، مجبولاً على الغرام بثلب الكرام، حتى عرف بهذه الخصلة الذميمة وشهر بها، وربما مارس شيئاً من الاعتداد والإدلال بالمعرفة والعلم أمام الصاحب، فقابله هذا بالازدراء والاحتقار، ويبدو أن سلوكه معه كان فظاً ليس فيه أدب مخاطبة الملوك والوزراء، ولذلك كانت تخرج منه أجوبة تحمل الناس على النفرة منه.

ففي كتاب الهفوات لابن الصابئ أن أبا حيان قال: " حضرت مائدة الصاحب بن عباد، فقدمت مضيرة (وهي مرقة يطبخ فيها اللحم باللبن أشبه) فأمعنت فيها، فقال لي: يا أبا حيان إنها تضر بالمشايخ، فقلت: إن رأى الصاحب أن يدع التطيب على طعامه فعل، فكأني ألقمته حجراً، وخجل واستحيا، ولم ينطق إلى أن فرغنا، فالصاحب أراد أن يداعب أبا حيان بعبارته تلك، ولكن رد فعل أبي حيان كان خشناً، غير مهذب، وهذا مما يغضب رجلاً كالصاحب، فيضمر له الاحتقار.

وهناك عدة أخبار رواها أبو حيان نفسه تفيد هذا المعنى، فمنها أن الصاحب سأله منذ أول لقاء التقى به، فقال له: بلغني أنك تتأدب فقال أبو حيان: تأدب أهل هذا الزمان فقال: أبو حيان ينصرف ولا ينصرف؟ فرد أبو حيان: إن قبله مولانا لا ينصرف فلما سمع الصاحب هذا الجواب تذمر وكأنه لم يعجبه، ثم التفت إلى أبي حيان وقال له: الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب فقال أبو حيان: أنا سامع مطيع.

غير أن وقع هذا التكليف كان ثقيلاً على نفس أبي حيان، وبرم به وتململ منه، وخاصة عندما جاءه خادم الصاحب بثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب وطلب منه أن ينسخها، فسخط من هذا التكليف وقال: " إن نسخ مثل هذا يأتي على العمر والبصر " وحدثته نفسه بالتمرد على طلب الصاحب، وهو الذي قصده من بغداد بأمل فسيح وصدر رحيب ليتخلص من حزمة الشؤم " الوراقة " ونسخ الكتب، فإذا بحرفة الشؤم تلاحقه حتى في موطن أمله مع أن الوراقة كانت رائجة ومربحة في بغداد، ولكنه أنف من ممارستها وطمح إلى الغنى والجاه في بلاط الصاحب، غير أنه خاب أمله واستمر في بلاطه حوالي ثلاث سنوات، وكان أمله يتجدد بأن الصاحب سيغيِّر موقفه منه، ولكنه ظل ممعناً في احتقاره وازدرائه.

وسرد أبو حيان جملة حوادث جرت بينه وبين الصاحب انتهت إلى أن طفح الكيل بأبي حيان بعد انتظار أكثر من ثلاث سنوات، فانسل من بيته وادرع الليل ورجع إلى بغداد، وكان ذلك سنة ٣٧٠هـ وقد سوغ رجوعه الغاضب خيبة أمله فقال: " وجرت أشياء أخرى كان عقباها إني فارقت بابه، سنة سبعين وثلاثمئة راجعاً إلى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً أو ما قيمته درهم واحد، فلما قبع أبو حيان في بغداد وأصبح في منأى من الصاحب وسلطانه تذكر ما جرّعه إياه من الحرمان والازدراء وتذكر ما لاقاه قبله من خيبة أمل أخرى عند ابن العميد، فارتبطت عنده مدينة الري ووزيراها بالنكد والشؤم فتصدى لتأليف كتاب يعرِّي فيه هذين الوزيرين ونفَّذ ما تصدى له فكان كتاب " مثالب الوزيرين " ونفث فيه كل حقده على الرجلين.

والكتاب طويل مسهب نكتفي بفقرات منتزعة من خاتمته لنبين مدى حقد الرجل عليهما، وخاصة على الصاحب الذي قال عنه: ما ذنبي – أكرمك الله – إذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان، على أني قد سترت شيئاً كثيراً من مخازيه، إما هرباً من الإطالة وصيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفظائع، وذكر ما يسمج مسموعه ويكره التحدث به، هذا سوى ما فاتني من حديثه فإني فارقته سنة سبعين وثلاثمئة، وما ذنبي أن ذكر عنه ما جرّعينه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملني عليه من الإخفاق بعد الطمع مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل والظن الحسن، حتى كأنني خصصت بخساسته وحدي، وأوجب أن أعامل به دون غيري.

وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب، حتى أعذره في لومي على الامتناع، أينسخ الإنسان هذا القدر، وهو يرجو بعدها أن متعه الله ببصره، أو ينفعه ببدنه؟ ثم ما ذنبي، ماذا قال لي: من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذي تكتب به إليَّ في الوقت بعد الوقت، فقلت: وكيف لا يكون كما وصف مولانا، وأنأ أقطف ثمار رسائله وأستقي من قليب علمه، وأشيم بارقة أدبه وأرد ساحل بحره، واستوكف قطر مزنه، فيقول: كذبت وفجرت لا أملك، ومن في كلامي الكيدة والشحذ والتضرع والاسترحام، كلامي في السماء وكلامك في السماد".

٤ – وعندما ترك أبو حيان الري توجه إلى بغداد، وأقام فيها وكان تـردده عـلى صـديقه أبي الوفاء المهندس كثيراً، وهو من أخلص أصدقائه، وأبو الوفاء هذا اسمه محمـد بـن محمـد بـن يحيى البوزجاني، وقد وصفه الذين ترجموا له بأنه أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيـه استخراجات غريبة لم يسبق إليها، وكان عنده تآليف عـدة، وكانـت ولادتـه سـنة ٣٢٨هـ في مدينة بوزجان، وقدم العراق سنة ٣٤٨هـ وتوفي سنة ٣٧٦هـ وقد وصفه ابن سـعدان الـوزير بأنه صاحب المؤانسة الطيبـة والمـساعدة المطريـة، والمفاكهـة اللذيـذة، إلا أن لفظـه خراسـاني وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاد بمقامه الطويل ببغداد، والبغـدادي إذا تخرسـن كـان أعـلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد.

ويعود الفضل لأبي الوفاء المهندس هذا على أبي حيان التوحيدي؛ لأنه كـان صـلة الوصـل بينه وبين الوزير العارض ابن سعدان وهو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سـعدان، اسـتوزره صمصام الدولة البويهي سنة ٣٧٣هـ، وكان هذا الرجل باذلاً لعطائه مانعـاً للقائـه، لا يخيـب طالب إحسان منه في أكثر مطلبه، فبسط يده في الإطلاقـات والـصلات وكـان لابـن سـعدان ناحية علمية أدبية بالإضافة إلى نواحيـه الـسياسية، فهـو – كـما يـصوره أبـو حيـان – واسـع الاطلاع له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على ذلك الحوار الذي يحكيه أبو حيان في كتابي الإمتـاع والمؤانـسة والمقابـسات، فأسـئلته تدل على عمق ونفاذ بصيرة، وفوق ذلك كان له في وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلـة العلـماء والأدباء.

وكان له مجلس شراب ولهو ومجلس جد ونقاش، وكـان يبـاهي بمجالـسه الأدبيـة خاصـة والتي كان تضم ابن زرعة الفيلسوف النـصراني، وابـن مـسكويه صـاحب تهـذيب الأخـلاق وتجارب الأمم، وأبي الوفاء المهندس الآنف الـذكر، ومـن الـشعراء الـشاعر المـاجن المـشهور بمجونه " ابن حجاج، ومن الكتاب أبو عبيد الخطيب الكاتب وأبو حيان التوحيدي.

٥ – ويبدو أن أصدقاء الوزير العـارض هـم الـذين رشـحوا أبـا حيـان لمجالـسة الـوزير ومحاورته ومنهم أيضاً زيد بن رفاعة الذي سمع من أبي حيان شيئاً الصداقة والـصديق أعجبـه فنمى ذلك، إلى الوزير سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة، قبل تحملـه أعبـاء الدولـة وتـدبيره أمـر

الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، فأعجب الوزير بهذه الأشياء وطلب من زيد بن رفاعة أن يدله على أبي حيان، فعرفه عليه، وطلب منه أن يؤلف له كتاباً في هذا فكان كتاب - الصداقة والصديق.

وكذلك رشّح أبو الوفاء المهندس أبا حيان لمجالسة الوزير العارض فأخذ الوزير يجالسه وألقى عليه بعض الأسئلة وهو يجيب عنها، وطال اللقاء بينهما مدة سبع وثلاثين ليلة، كانا يتسامران فيها بألوان مختلفة من شؤون الفكر والأدب والاجتماع، ثم استطرفه أبو الوفاء، وطلب من صديقه أبي حيان أن يعيد كتابتها له، فكان له ما أراد، وكان ثمرة ذلك كتاب " الإمتاع والمؤانسة".

ح - كتاب الإمتاع والمؤانسة:

١ - كتاب يقع في أجزاء ثلاثة، حققه أحمد أمين وأحمد الزين وطبع سنة ١٩٣٩.

٢ - وهو الكتاب الذي ألفه أبو حيان بناء على رغبة صديقه أبي الوفاء المهندس للوزير أبي عبد الله العارض، الذي قبض عليه صمصام الدولة سنة ٣٧٣هـ وقتله سنة ٣٧٥هـ وسامره به مدة سبع وثلاثين ليلة، يطرح عليه الوزير أسئلة وهو يجيب عنها، ثم يبدو أن أبا الوفاء المهندس طلب من أبي حيان أن يعيد له حكاية سمره مع الوزير فقدم له هذا الكتاب ووصف كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر.

٣ - والكتاب كما وصفه القفطي: " كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم فإنه خاض كل بحر، وغاض كل لجة وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً، وتوسطه وختمه سائلاً ملحفاً".

٤ - والكتاب عبارة عن أسئلة من الوزير وأجوبة من أبي حيان في ظروف مختلفة من الثقافة المتنوعة تنوعاً لا يخضع لترتيب، إنما يخضع للخواطر الحرة وشجون الحديث، وفيه من كل علم وفن، كالأدب والفلسفة والحيوان والمجون والنقد والأخلاق والبلاغة والطبيعة، والتفسير والغناء، والحديث والفلسفة والسياسة وتحليل الشخصيات وتراجم أعلام العصر وتصوير للعادات وإلمام بأحاديث المجالس، وغير هذه الأشياء ويبدو أن المسامرات بينه وبين

العارض كانت مقتضبة، فلما طلب منه أبو الوفاء المهندس إعادة سردها اعتكف عليها وزاد فيها ورجع إلى الأخبار فاستكملها من مظلاتها ثم أوردها في هذا الكتاب.

وقد اعترف أبو حيان بصنعه هذا فقال: " قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به، وشرفتني بالخوض فيه، وسردت في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمت بها مجلس الوزير ولم آل جهداً في روايتها وتقويمها، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض وصلة المحذوف، وإتمام المنقوص وحملته إليك على يد (فائق) الغلام، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله.

ولعل هذا السبب كان من ضمن الأسباب التي دعته أن يرجو صديقه أبا الوفاء الذي بيَّض له هذا الكتاب أن يظل الكتاب سراً، ذلك أنه ألف الكتاب في حياة الوزير وخشي أن يطلع عليه، فيعلم مقدار تزيده.

ومما هو جدير بالملاحظة أن أبا الوفاء المهندس كان يعرف في صديقه أبي حيان صفة الحقد والكراهية والاستعلاء على رجالات زمانه وبعضهم من ذوي السلطان فإذا سمح أبو حيان لنفسه أن يتعرض لهم في حضرة الوزير وهما على انفراد، فإن أبا الوفاء رجا أبا حيان ألا يتعرض لذكرهم ولذمهم في الكتاب بشكل علني، مخافة أن يناله سوء، ثم وفى أبو حيان بوعده فأنجز الجزء الثاني والثالث وأرسلهما إليه، وشفعهما بقوله: " قد - والله - ألقيت فيه - أي الجزء الثالث - كل ما فيَّ من نفيس من جد وهزل، وغث وسمين وشاحب ونظير وفكاهة وأدب واحتجاج واعتذار... إلخ".

ولكل هذه الألوان التي تضمنها الكتاب جاء ممتعاً مؤنساً بالإضافة إلى فوائد جمة.

٥ - إذ إنه يلقي الضوء على أوضاع العراق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. أي القرن الذي استشرى فيه سلطان البويهيين، وهو عصر حافل بالأحداث الجسام، والكتاب يتعرض للكثير من الشؤون الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان ويتطرق لمحاسنهم ومساوئهم ويصف العلماء في عصره فيحلل شخصياتهم وينقد أعمالهم، ويصف ما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وجد وهزل.

٦ - يصف بعض القضايا الفكرية التي كانت مدار الحديث الخاصة من المفكرين كالشعوبية والعرب والعجم والمفاضلة بين الشعر والنثر، وبعض الجمعيات السرية كإخوان الصفا الذين كان حديث أبي حيان التوحيدي عنهم في الإمتاع وثيقة سياسية مهمة نهل منها كل من أرّخ لهذه الجمعية بعده، كما كان فيه وصف لحياة الجماهير وموقفها من الأمراء والحكام، وفيه جولات في حياة المجتمع وطبقاته، وفي الفضل الذي تحدث فيه عن الغناء والقيان وارتياد بعض رجالات الدولة لدور الغناء والملاهي تلخيص لصورة من حياة المجتمع في بغداد في ذلك القرن.

ويعجبك أسلوب أبي حيان في هذا الكتاب لما يتمتع فيه من تفنن يقوم على الازدواج وإطالة البيان في تصوير الفكرة وتوليد المعاني حتى لا يدع مزيداً لمستزيد، وهو بذلك يشبه من بعض الوجوه أستاذه الجاحظ، وإذا كان ثمة غموض في الكتاب، فمردُّ ذلك إلى بعض المسائل الفلسفية العميقة التي تعرض إليها، فإذا هو يخرج من مثل هذه الموضوعات الفلسفية العويصة إلى الموضوعات الأدبية.

ط - فن التوحيدي:

١ - كان الناس في القديم يعرفون الأديب بأنه " هو الذي يأخذ من كل علم وفن بطرف " وكان يعجبهم قول ابن قتيبة: " من أراد أن يكون عالماً فيطلب فناً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم " ولعل قول هؤلاء الناس وكلمة ابن قتيبة هذه تنطبقان على التوحيدي كل الانطباق، فالآثار الكثيرة التي خلفها التوحيدي وثقافته الموسوعية تدلان على أنه كان أديباً بكل معاني كلمة الأدب في ذلك الزمان، وما لنا نذهب إلى التأويل بعيداً، وأبو حيان يحدثنا عن مكونات الأديب ومستلزمات الكاتب في القرن الرابع فقول: " لا يكون الكاتب كاملاً ولا لاسمه مستحقاً إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال، ويجمع إليها أصولاً من الفقه مخلوطة بفروعها، وآيات القرآن مضمونة إلى سمته فيها، وأخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عدة عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة والأبيات الدائرة، والفقر البديعة، والتجارب المعهودة والمجالس المشهودة مع خط كثير مسبوك ولفظ كوشي محوك، ولهذا عز الكامل في هذه الصناعة. " الإمتاع والمؤانسة".

٢ - وأكد على وجوب هذه الثقافة الموسوعية في غير مكان في كتبه المختلفة وغني عن البيان أن تقول أن قراءات التوحيدي الكثيرة وتنزهه المستمرين بين الكتب، وكون حرفة الوراقة التي كان يحترفها التوحيدي أوقفته على الكتب الكثيرة وقوف متصفح على تأن وروية بغية النسخ والنقل قد أغنت محفوظه وأثرت ثقافته، ويجب أن لا ننسى عمره المديد الذي تجاوز به القرن واستتاره عن أعين السلطان في آخر حياته، كل ذلك مكنه من الكتابة بغزارة وحرارة.

قيل: إن وزن المداد الذي صرفه في تصانيفه بلغ أربعمئة رطل - كما يقول صاحب كتاب روضات الجنات، كل ذلك جعل من التوحيدي أديباً موسوعي الثقافة يقرأ ويهضم ما يقرأ، ثم يفرز ما قرأ بأسلوب متميز عن غيره من أدباء زمانه، ولكن على الرغم من موسوعية ثقافته ومشاركته في كل أنواع المعرفة في عصره إلا أنه ظل يراوح عند سطحية هذه العلوم دون أن يتوغل كثيراً حتى يصل إلى لبابها، فجاء أدبه وقد طغت عليه مسحة الشمول والعموم أكثر من طغيان صفة العمق والتخصص.

الباب الثاني والعشرون
أبو بكر الصولي

أ - اسمه وكنيته:

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي المعروف بالشطرنجي أحد الأدباء الفضلاء المشهورين وإبراهيم بن العباس الشاعر، المتوفّى سنة ٢٤٣ هـ عم لوالده، وينسب الصولي إلى جده صول الذي كان وأهله ملوك جرجان كما ذكر ابن خلكان في وفياته، وأضاف أن صولاً وأخاه فيروز ملكا جرجان وهما تركيان تمجّسا وصارا أشباه الفرس وأمنهما يزيد بن المهلب يوم حضر جرجان وأسلم صول على يده.

ب - ولادته:

أغفل العلماء زمن ولادته ولكن أشير في كتابه الأوراق:أنه عاش ثمانين عاماً وعلى ذلك يكون مولده سنة خمس وخمسين ومئتين. وقد ولد أبو بكر الصولي في مدينة بغداد عاصمة الخلافة وحاضرة الدنيا ومقر العلم والأدب واللغة وموئل المذاهب الفكرية والدينية، وهذا يعني لنا الشيء الكثير بالقياس إلى علمه وأدبه، ولنتخيل تلك المدينة ملتقى العلماء والأدباء حيث تبادلوا الآراء وتسابقوا إلى التأليف.

كان يعشق الأدب من طفولته وابتدأ طريقه بالتردد على الكتاتيب وحلقات المساجد وربما اختلف إلى المربد أيضاً ولم يذكر المترجمون ذلك، ولكن من المؤكد أنه التقى بأساتذته هناك.

ج - أساتذته:

نبغ في القرن الثالث رجال يعتبرون فحولاً في الأدب واللغة والنحو منهم أبو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل في الأدب وثانيهم أبو حاتم السجستاني، ثم أحمد بن يحيى ثعلب وغيرهم من أئمة الفكر والفقه واللغة.

د - معاصروه من رجال الدولة وخلفائها:

كانوا كثر وأولهم الخلفاء الثلاثة الذين عاصرهم وأسبقهم:

١ - الراضي بالله الذي كان الصولي مؤدباً له ثم نديماً.

٢ - وبعده المكتفي.

٣ - ثم المقتدر.

وبفضل مجالسته لأولئك الخلفاء ومنادمته لهم اكتسب ميزاناً أنضجت شخصيته وجعلت منه رجلاً بارعاً حاذقاً يجالس الخلفاء وحياتهم المغلقة وما لهم من ملكات وما يحبون من الأمور وما يأنفون منه ويكرهونه، واشتهر في قصورهم بروح الدعابة والمرح والبراعة في لعب الشطرنج وإن الراضي بالله كان يفضل لعبه على أجمل بستان وأروع زهر رآه في الطبيعة ويدل على رأي الخليفة على إعجابه بشخصية الصولي وحسن معشره، ومن خلال ما تقدم من صلته بمعلميه ومعاصريه من الخلفاء يتحدد ما جناه من ثقافة وما تميزت به شخصيته.

هـ - ثقافته:

تتلمذ الصولي على أساتذة عرفناهم وأولهم المبرد ولعل أبا بكر استمد كثيراً من عناصر ثقافته وعلمه منه فقد اقتبس منه وعرف طريقته في تقصي أخبار العرب من لقاء البدو والأعراب وجمع مفردات اللغة ثم الالتفات إلى تأليف الكتب بعد التأكد من صحة مصادر الأخبار واتباع مذاهب العلماء أمثال أبي عبيدة، فكل ما تلقاه محمد بن يحيى وفّر له ذاكرة قوية وحافظة عجيبة في الشعر والأدب والأخبار ليكون كل ذلك رائده فيما يؤلفه من كتب وإن ثقافته في الفقه والحديث لا تقل عن سابقها، ولعل اتصاله بالخليفة الراضي مورد لا ينضب لثقافته فقد أدبه وعلمه كثيراً من أمور الأدب والشعر العربي إلى غير ذلك من الحديث وفقه اللغة.

وهذا يكفي لإضافة حصيلة ثقافية إليه من خلال جهده وبحثه لينقل العلم إلى تلميذه بأمانة وإن صلاته بالحياة الأدبية للخلفاء أكسبته خبرة بمواهبهم، وكان يوجهها ويستفيد من ذلك ما عرفه من أخلاقهم ومزاياهم التي تختلف عن طبقات العامة أكسبه اطلاعاً وخبرة

بحياتهم، وانعكس ذلك على أدبه ومؤلفاته الزاخرة بأخبارهم وأشعارهم وأخبار من يليهم من الكتاب والندماء والجلساء.

و - جوانب شخصيته:

نستطيع أن نرسم ملامح واضحة لشخصية الصولي من خلال حياته وصلاته وثقافته، وتتداخل جوانبها وتترابط فيما بينها:

١ - وأولها الجانب الاجتماعي المتمثل بصلته بالخلفاء ومنادمتهم فعرف أصنافاً عديدة من البشر، وصار له دراية بمعاملتهم ويبدو حسن معشره ودماثة خلقه في المنادمة ولعب الشطرنج وسبقه أهل زمانه به مما يتصل بتوقد الذكاء وحسن الحيلة والتصرف وأن هذه الشهرة قد تكسبه رفعة في الأدب وشهرة كبيرة.

٢ - ويبدو من الجانب الأدبي رجلاً واسع المدارك فضمن كتبه علمه وأدبه فأغنى طلابه وله شخصية مميزة في الأدب ومنها ننفذ لكونه أديباً ناقداً عالماً كانت نظراته في النقد تنم عن قوة ولمعان والتزام بما يقدم من أداة العلم والمعرفة فينقد في كتابه " أدب الكتاب " ابن قتيبة وينكر شأن كتابه ويتهمه بأنه حشو لألفاظ فارغة لا غنى فيها، وإنما يفضله كتابه المعنيُّ بشأن الكتاب وأحوالهم.

٣ - ويبدو لنا عالماً بالرواية فهو لا يسوق الخبر إلا بعد أن يعرف روايته وإسناده الصحيح، ويستند إلى أصول علمية ليدلنا على نهج علماء عصره العلمي في الرواية والتأليف، وعلى جانبه النقدي العلمي خاصة وبين أيدينا رواية تلقي الضوء على شخصيته النادرة الواعية، قال الصولي وقد عرض في أثناء حديثه عن أحمد بن يوسف إلى رواية تحدث ابن طيفور عنه بها وخلط فيها فلم يدعها الصولي تمر دون أن ينقدها بما طوع له علمه الغزير وروحه العلمية القوية ثم كتب هذه العبارة الدالة على تثبته العلمي من ناحية وعلى مظهر من مظاهر الروح العلمية في ذلك العصر من ناحية أخرى، قال: " وقد رأيته - يعني ابن طيفور - في البصرة سنة سبع وسبعين ومئتين وقدمها إلى أحمد بن علي الماورائي وكتب عليه مجلسين أو ثلاثة فلما رأيته صحفياً لم أر عنده ما أريد تركته ويعز علي أن أذكر أحداً من أهل الأدب بسوء أو أستخفه، ولكن لابد من أن نعطي العلم حقه، ونضع الحق موضعه".

ز - وفاته:

توفي أبو بكر سنة خمس وثلاثين عن ثمانين عاماً وقد يجاوز ذلك إلى عدد من السنوات؛ لأنه إذا التقى ابن طيفور سنة سبع وسبعين ومئتين، وقد صار في تلك الآونة أديباً لامعاً وناقد له دراية بالرواية فإنه يمكن أن يزيد عمره آنذاك على العشرين سنة مع بلوغه هذا الشأن، وإذا نبغ وله من العمر عشرون عاماً فيمكن إثبات مولده سنة خمس وخمسين ومئتين، ولقد مات في البصرة مستتراً وأتاها تاركاً بغداد وبعد أن لحقته الخاصة والعامة لروايته خبراً في حق علي بن أبي طالب ولم تدركه، ويلفتنا أمر مهم في ذلك الحين وهو شيوع المذاهب الفكرية والدينية واختلاطها ومنعكساتها على الحكم على الإمامة الخلافة ولعل كان للصوفي مذهب معين ورأي في الخلافة أو به تشكك بإمامة علي وشخصيته حتى ذكر خبراً في حقه.

وما هذا إلا بنتيجة اختلاف في الآراء حول هذه المسائل في عصره، وتدل الرواية على تجمّع الشيعة وأنصار علي في بغداد حتى لحقوا بالصولي لينالوا منه، ولكنه فر وتركوه فإما تركوه لأنه لا خطر منه ولا مخافة، أو لأنهم لم يستطيعوا الوصول إليه، ومن المعلوم في ذلك الحين التشدد والمغالاة في العقائد مع التشعب والتعدد في الآراء والأفكار حولها.

ح - آثاره ومؤلفاته:

ترك مؤلفنا للأدب العربي آثاراً أغنت لغتنا، فُقد بعضها وبقي بعضها الآخر وثالث وصل ناقصاً لم يتم.

١ - كتاب الأوراق.

٢ - أدب الكتاب.

٣ - كتاب الوزراء.

٤ - اللقاء والتسليم.

٥ - العبادة.

٦ - تفصيل السنان عمله لأبي الحسن علي بن الفرات.

٧ - كتاب الشامل: في علم القرآن ولم يتمه.

٨ - كتاب الأنواع ولم يتمه.

٩ - كتاب الغرر أمالي.

١٠ - أخبار الشعر على حروف الهجاء.

١١ - أخبار القرامطة.

١٢ - أخبار ابن هرمة.

١٣ - ديوان الحماسة لأبي تمام.

١٤ - كتاب الشطرنج.

ط - نوعية تآليفه:

تنوعت كتبه فشملت الأدب واللغة والنحو وضروب الثقافة جميعاً والأدب والتراجم خاصة ككتاب الأوراق مع ما يحتوي من جوانب تاريخية وإلى ما هنالك من كتب في علوم القرآن، ولعبته الشطرنج وهو ثقافي لا شك وكذلك أمالي الغرر.

ي - كتاب أدب الكتاب:

١ - الكتاب:

عثر عليه الأديب محمد بهجت الأثري العراقي في مكتبة الشيخ أبي الثناء الألوسي، وكان مخطوطة على الأصل الذي عمله صاحبه وقد عفا عليها الزمان فتآكلت بعض حروفها وأبهم إعجامها فنسخها من جديد وصحح الحروف وعلق على الحواشي، وقد تصرف في بعض فقراته لضياع أصلها بعض الشيء وأغفل ما غفى عنه وانقطع من الأسانيد ليجنب القارئ التعقيد، ولم يخل الكتاب من الخطأ والتقديم والتأخير والتصحيف، أما الخطأ من المحقق أو من الطبع كما سيبدو في بعض فصول الكتاب

٢ - لمحة عن كتبه وأسلوب تأليفه:

كتابه هذا صغير يقع في ثلاثة أجزاء في مجلد واحد ولكنه عظيم الفائدة وافر الثقافة، ويشير أبو بكر إلى فائدة الكتاب خاصة فهو يأتي بموضوعات لا غنى للكتاب عن معرفتها ليفيدهم في تأليفهم فيذكر فضل الكتاب ويستشهد على ذلك بالقرآن الكريم (اقرأ باسم ربك الذي

خلق، علم الإنسان ما لم يعلم). ويفيد أثرها في جميع القرآن وحفظ اللسند والآثار والعهود ويذكر روايات متعددة في أول من كتب الكتاب العربي منها رواية عبد الله بن عمرو بن العاص وعروة بن الزبير أن أول من وضع الكتاب العربي قوم نزلوا في عدنان وهم أبجد هوز حطي كلمن ووزعوا حروفاً جديدة ليست من أسمائهم كالثاء والخاء والظاء والذال والعين فسميت بالروادف، ولعلها رواية غير صحيحة.

وفي فصل آخر يتحدث عن محاسن الكتابة الشكلية كالنقط والشكل والخط وقيمة التنقيط في بحث التصحيف في الكتابة بعد أن كانت تحط من شأن الكاتب وتشير إلى جهله بالكتابة، وحدثنا عن اللحن ومعناه في اللغة فاللحن بمعنى الخطأ والإمالة عن جادة الصواب أو انه بمعنى الفطنة والفصاحة في الكلام عن حقيقته كما في بيت مالك بن أسماء الغزاوي: منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحناً.

وفي الجزء الثالث يحيطنا الكاتب علماً بأمور الدولة في جوانب أحوالها وتسمياتها، ويذكر عادات العرب في تسمية الحيوانات من الإبل والغنم والخيل، ثم يعرج على مسائل نحوية دقيقة كأحكام النون الخفيفة، وغيرها من أمور الصرف كالإعلال والإبدال.

٣ - قيمة كتابه:

يعتبر أدب الكتاب معيناً ثقافياً جيداً للقارئ والكاتب وقد ساقه بأسلوب جميل وتحري فيه الدقة من ذكر الروايات وتعددها حتى لا يقطع بصحة واحدة إلا بالتأكد والمقارنة ويسوق الشواهد لإيضاح المعنى فقرب إلينا مواد كتابه وعرفنا على ثقافته ومناحي التأليف في عصره، ولكتابه قيمة نقدية من بعض جوانبه حين رد كتاب ابن قتيبة " أدب الكتاب " وحط من شأنه ووصفه بالخلو من المضمون على الرغم من أن كتاب ابن قتيبة نال شهرة كبيرة لم يحظ بها أبو بكر فكان الزمان يجود بنعمة الشهرة والمعرفة على أناس دون غيرهم ولو تساووا في قدراتهم.

ك - كتاب الأوراق:

١ - الكتاب:

حققه وعني بجمعه المستشرق الإنكليزي هيوارث عن نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية كتب في القرن السادس الهجري وهي الأصل الوحيد في مكتبات العالم، وقد خلت من العجام فتشابهت حروفها ومنها ما ضاع مع الزمن، وهذا الكتاب لم يتمه، وذكر ابن النديم أنه لم يتمه والذي خرج منه أخبار الخلفاء وأيامهم من السفاح إلى أيام المعتز بالله بن علي وآخره شعر أبي أحمد محمد بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عيسى بن منصور، ثم شعار الطالبيين ولدا الحسن والحسين وولد العباس بن علي وولد عمر بن علي. وأخبار هرمه. ويبدو من كلام ابن النديم أن الصولي لم يتمم الكتاب وكل ما ذكره في روايته لم يصل إلينا وإنما من قطعه الموزعة في العالم ولم يعثر عليها وهي تحتوي أخبار أبان بن عبد الحميد وصلته بالبرامكة وشعره ومدائحه فيهم، وما نظمه من كتاب كليلة ودمنة في شعر ألفه في ثلاثة أشهر وهو النثر لشعر بناء على طلب يحيى بن خالد البرمكي وشعره التعليمي وعقيدته وأخبار أشجع بن عمرو السلمي وأخيه ومدائحه في البرامكة وهارون الرشيد وأخبار أحمد بن يوسف كاتب المأمون.

٢ - قيمة الكتاب ونقده:

لو قارنا الأوراق مع طبقات، ابن سلام والشعراء لابن قتيبة نجد أنه أضاف شيئاً جديداً فقد سبقه الاثنان إلى ذكر المشاهير من الشعراء وتصنيفهم في طبقات ولكن أبا بكر مال لذكر المغمورين منهم في عصره فنقل شعرهم على السجية والأصالة النفسية التي لم تشوهها قيود الشهرة وتملق الطبقة الخاصة من الممدوحين، فنقل لنا شعراً صافياً صادقاً وأحاطنا علماً بشتى الاختلاطات الفكرية والدينية في عصره وطغيان الشعوبية حتى اتهم البريء منها بها والتشكك بالعقائد كعقيدة إبان؛ لأنه مولى فارسي الأصل، وتتجلى لنا الناحية العلمية في تقسيم كتابه وتوزيع شعرائه حسب أسرهم فأولى القيمة لأثر الوراثة في الأدب وتعدد الملكات وهذا نحو من الفكر العلمي في التأليف.

ويلفت نظرنا إلى ما شاع في عصره من شعر تعليمي نظمه أبان بن عبد الحميد فنمَّ عن روح عامية وخاصة في مجادلته الطالبين في دعواهم للخلافة وشعر أبان التعليمي أثر لما شاع عند اليونان وعرف بالترجمة، ثم شاع عند العرب وكان له جذور في الشعر الجاهلي قديماً،

ولكنه غلب لشيوع المنطق عند اليونان وروح الجدل التي اشبع بها أبان إثر معرفته المنطق وتأليفه به. وكان هذا النوع من الشعر بداية لمنظومات علمية ألفت فيما بعد.

ل - نظمه للشعر:

خلف الصولي أشعاراً مختلفة في المديح والغزل وغير ذلك ولم يكثر منه واتصلت مدائحه بالخلفاء وكبار الرجال وخصهم بالشعر في شعره.

م - موقف الأدباء منه:

أثنى عليه المترجمون القدماء، ولكن ابن النديم اتهمه بأنه اعتمد في تأليف كتابه الأوراق على كتاب المرتدي في الشعر والشعراء، بل نقله وانتحله، قال: (وقد رأيت دستور الرجل في خزانة الصولي فافتضح به) ونرد اتهام ابن النديم بأنه شاعت في عصر الصولي كتب التراجم إثر نشاط حركة التأليف وتلاقي الأدباء وتبادلهم إنتاجاتهم الأدبية، وهذا التلاقي مدعاة لتأثر كل منهم بالآخر واتباع جوانب من أسلوبه في التأليف ولا غرو أن يطلع الصولي على كتاب المرتدي وليس معنى لك أنه نقله ونحله حتى ولو وجد دستور عنده ويعزى اتهام ابن النديم إلى ما شاع في عصره من الوضع والانتحال في الأدب لأسباب متعددة وأمر تخريد رأيه وهو عدم إجماع أدباء عصره على ذلك، وإنما انفرد به وحده، كما وجهت اتهاماً للصولي في وضع بعض الأحاديث.

الباب الثالث والعشرون

أبو الفرج الناشر

صاحب كتاب الأغاني

أ - حياته ونشأته:

ب - شخصيته:

ج - مكانته:

من استقراء المؤلفات الكثيرة التي كتبها أبو الفرج الأصفهاني يتبين للدارس وفرة تآليف أبي الفرج - والمكانة الرفيعة التي احتلتها بين أدباء عصره. ولا ريب أن شهرة أبي الفرج قامت على كتابة الأغاني هذا الذي قيل في حقه: " إنه مكتبة في كتاب والذي كان وما يزال محط أنظار الأدباء والمتأدبين ينهلون من مادته ويعكفون على دراسته.

د - أبو الفرج الناقد:

إذا عرفنا رأي أبي الفرج في التجديد والمحافظة، أدركنا مكانته الأدبية:

١ - فلقد كان يجري مع الزمن ويعلم أن لكل عصر أطواره.

٢ - من ذلك رأيه في شعر ابن المعتز: " وشعره وإن كان فيه:

أ - رقة الملوكية،

ب - وغزل الظرفاء،

ج - وهلهلة المحدثين،

د - فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب - المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين.

هـ - وأشياء ظريفة من أشعار الملوك ليس عليه أن يتشبه فيها بفعول الجاهلية،

٣ - وأبو الفرج في ذلك صاحب مذهب غير النقد فهو من المجددين الذين يرون لكل عصر أحواله وخاصة في الذوق والشعر.

هـ - سقطات كتابه:

إن كثرة المادة الأدبية التي ضمنها أبو الفرج كتابه فتحت للنسيان طريقاً إلى نفسه

١ - فقد يعد بشيء ولا يفي به في موضعه، وهذا ما أخذه عليه ياقوت الرومي، ومن ذلك قوله في أخبار أبي العتاهية: " وقد طالت أخباره هاهنا، وسنذكر خبره مع عتبة في موضع آخر ولم يفعل ذلك، وقال في موضع آخر: " أخبار أبي نواس مع جنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت منها شيء...إلى أشباه ذلك.

٢ - كما أن الأصوات المئة التي قال: إنه بنى عليه كتابه هي في الحقيقة تسعة وتسعون صوتاً، ومرد هذا أحد احتمالين: أما أن الكتاب قد سقط منه شيء، وإما أن وفرة مادته جعلت النسيان يغلب عليه.

٤ - وبالإضافة إلى سقطات أبي الفرج وأخبار مجونه ولهوه التي ضمنها تضاعيف كتابه جعلت ابن الجوري ينظر إلى أبي الفرج وكتابه نظرة ازدراء فقال: " كان يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوى شرب الخمر، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر ".

٥ - وقد أخذ عليه من المحدثين الأستاذ زكي مبارك جانب اللهو والمجون فقال:

" إن إسراف أبي الفرج في اللذات والشهوات انعكس على كتابه، فجاء حافلاً بأخبار الخلاعة والمجون، وحين يعرض للكتاب والشعراء فإنه يتهم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً يدل على قلة عنايته بأخبار الجد والرزانة والتجمل والاعتدال ".

٦ - ومن أهم السقطات التي أخذت عليه: أنه كان يسوق بعض الأخبار والقصص بأسانيدها مما يقربها في أذهان الكثيرين، وإذ بهذه الأسانيد غير صحيحة، ومن اطمأن إليها من الباحثين ضل أو أضل.

و - أسلوبه في الكتاب:

١ - سلك أبو الفرج في أغانيه مسالك المحدثين فكتابه لا يخلو من عبارات " أخبرني فلان. وروى فلان عن فلان... " ثم يذكر بعد هذه العبارات أسانيد الأخبار والروايات

والأحاديث، وأبو الفرج في ذلك كله كاتب منشئ بألفاظه هو، وإنما يدور على معنى الخبر الذي قد يكون جمعه منذ صغره حسب أخباره بذلك، كقوله في نهايات بعض أخباره: " هذا حفظته من أبي جعفر وأنا صغير السن " وقوله: " فإن الحكاية تزيد أو تنقص"، وإذا لم تكن هذه الأخبار من إنشائه فإنه ينبه على ذلك كقوله مثلاً إذ إن كثيراً من مغامرات هذا الشاعر الغرامية، كانت من صنع خياله.

٢ – وأما الأستاذ شفيق جبري فإنه حاول استقراء كتاب الأغاني وخرج من دراسته واستقرائه إلى أن الأغاني يضم بين دفتيه موضوعات من حديث عن العامة والخلفاء والكتاتيب والمساجد والمرأة والحج، لم يشر إليها صاحب الأغاني في مقدمته، فخرج – الأستاذ شفيق جبري من ذلك بتساؤلات عن السبب الذي دعا أبا الفرج إلى التستر عليها وعما إذا كان هذا التستر يخفي وراءه قصداً إلى تجليه حقائق تتعلق بليالي الساسة الخاصة، والتي أغفلتها كتب التاريخ وكأني به قد خشي صولة السلطان، والأستاذ جبري قد غالى في نظرته إلى الأغاني حين اعتبره كتاب تاريخ.

٣ – وهذا الكلام لا يثبت على نظر؛ لأن تعميم ظاهرة سيئة على مجتمع بأكمله مدفوعة بالبداهة، وأمر طبيعي ألا يخلو مجتمع من طبقة من المستهترين العابثين، ولعل أبا الفرج كان واحداً منهم، كما مر معنا في الحديث عن الخلافة.

٤ – ولا يدعي أن كتاب الأغاني قد أفرد لأخبار اللهو والمجون كما أشار إلى ذلك الأستاذ زكي مبارك، وإنما هو كتاب أدب قبل كل شيء، رغم ما تضمنه من أخبار العبث واللهو تلك التي جارته من كثرة تتبعه لسقطات الشعراء، وهفوات الكتاب.

ز - أبو الفرج الشاعر:

١ – إلى جانب ما عرفنا عن أبي الفرج الكاتب المصنف،

٢ – فقد أثر عنه قرضه للشعر وإجادته فيه،

٣ – قال فيه هلال بن المحسن، وله شعر جيد إلا أنه في الهجاء أجود، وكان الناس يتقون هجاءه، ويصبرون في مجالسته ومعاشرته، على كل صعب من أمره، وله أبياته في هجاء السيرافي، وأبيات في وصف الخمرة، وله بعض الأبيات قالها في ضروب مختلفة.

أ – فمن هجائه قوله في عبد الله البريدي لما تولى الوزارة من قصيدة له زادت على مئة بيت:

أيا سماء اسقطي ويا أرض ميدي ... قد تولى الوزارة ابن البريدي

جل خطب وحل أمر عضال ... وبلاء أتى برأس الوليد

ب – وقال من قصيدة يرثي بها ديكاً كان له:

خطب طرقت به أمر طروق ... فظ الحلول علي غير شفيق

أبكي إذا أبصرت ريعك موحشا ... بتحنن وتأسف وشهيق

فتأسفي أبداً عليك مواصل ... بسواد ليل أو بياض شروق

وإذا أفاق ذوو المصائب سلوة ... وتصبّروا أمسيت غير مفيق

الباب الرابع والعشرون

النقد

في العصر العباسي

زخر العصر العباسي بالأدب من جهة وبالنقد من جهة أخرى بسبب تنوع الحياة العباسية، وتلاقح الثقافات العباسية، وإفساح المجال لحرية القول في كافة المجالات ؛ وقد تطور النقد تطوراً كثيراً فبرزت أسماء كثيرة وظهرت كتب جليلة في النقد،أسست لحركة أدبية عظيمة، وتيارات نقدية متميزة.

الباب الرابع والعشرون

الفصل الأول

مفهوم الشعر
في النقد الأدبي العباسي

طرح النقاد العرب القدامى في العصر العباسي مفاهيم عدة للشعرية كعلم موضوعة الشعر ابتداءً من ابن سلام الجمحي الذي يقول: (وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات) إلى آخر النقاد في العصر العباسي، بل تم تطوير مفهوم الشعرية لاحقاً بوضوح أكثر يكاد يقترب من المفهوم المعاصر، ولا يخفى على أحد أن النقاد العرب القدامى استخدموا الشعرية بمفاهيمها الثلاث، بما فيها شعرية الكتابة عبر مصطلحي:

أ – التأليف.

ب – والنظم.

ج – ومصطلح الصناعة ومصطلح الصياغة.

وتتلخص القضايا التي دار حولها النقد العربي القديم على النحو التالي:

١ – قضية اللفظ والمعنى.

٢ – المطبوع والمصنوع.

٣ – الوحدة والكثرة في القصيدة.

٤ – الصدق والكذب في الشعر.

٥ – المفاضلة أو الموازنة بين شاعرين أو شعرين.

٦ – السرقات الشعرية.

٧ – عمود الشعر.

٨ – العلاقة بين الشعر والأخلاق أو الشعر والدين:

أ – يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: ((رتبت البيت من الشعر ترتيب البيت من بيوت الشعر (بفتح الشين) فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع والمخفوض على قافية واحدة، وإنما سميته إقواء لتخالفه، لأن العرب تقول: أقوى القائل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى))، ومرة أخرى: النص هو الأصل والشاعر يضع القوانين من خلال نصوصه، ومهمة الناقد أن يقول هذه القوانين في أنساق وبنى مستمدة من النصوص.

ب – ويقول الخليل بن أحمد أيضاً إن الشعراء هم أمراء الكلام يصرفونه أنى شاؤوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده... فيحتج بهم ولا يحتج عليهم، ويصورون الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل)).

ج – ويطرح الخليل مسألة الصدق والكذب في الشعر.

د – طرح النقاد الأوائل مسألة العلاقة:

١ – بين الشعر والدين.

٢ – وبين الشعر والإيدولوجيا.

٣ – والشعر والأخلاق.

هـ – خذ مثلاً قول الأصمعي عن شعر حسان بن ثابت: ((طري الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان كان قد علا في الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره في باب الخير، لان شعره)). ومعنى هذا أن الليونة هنا ضعف، لأن الأصمعي نفسه يقول: ((طريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة... من صفات الديار والرحل

والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان)).

فالليونة تعادل الضعف والخير. والفحولة تعادل القوة الشعرية وناقض الخير ومن جهة أخرى فإن الشعر حين يحمل الإيدولوجيا يضعف.

ولكن لماذا؟ مع أن الجاهلية كانت تحمل إيديولوجيتها؟ هو يرى أن الموضوع قد تغير من المديح والهجاء ووصف الخيل والتشبيب بالنساء إلى - المرائي. فلماذا يكون التشبيب بالنساء قوة وفحولة والمراثي تصبح ليونة وضعفاً؟

و - والأصمعي أيضاً لا يقف عند حدود موهبة الشاعر الغامضة، بل يحدد مصادر وأدوات ثقافة الشاعر الفحل بأنه:

(لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى:

١ - يروي أشعار العرب.

٢ - ويسمع الأخبار.

٣ - ويعرف المعاني.

٤ - وتدور في مسامعه الألفاظ.

٤ - وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزاناً له على قوله.

٥ - والنحو ليصلح به لسانه وليقيم إعرابه.

٦ - والنسب وأيام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم)).

هذه هي الثقافة العامة للشاعر وهي ثقافة الشائع والسائد في الثقافة العربية آنذاك أو النموذج ولكنه نموذج آني، أي مرتبط بمرحلة. مع هذا ففي النص يفترض الخروج عن الثقافة السائدة.

ز - يقول الأصمعي: ((أجمع أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر أن التشبيهات العقم التي انفرد بها أصحابها ولم يشركهم فيها غيرهم ممن تقدم أو تأخر، أبيات معدودات)).

ح - ونجد تعريفاً للشعر قدمه الناشئ الأكبر (توفي ٢٩٣ هـ) هو:

((أول الشعر إنما يكون:

١- بكاء على دمن.

٢- أو تأسفاً على زمن.

٣- أو نزوعاً لفراق.

٤- أو تلوعاً لاشتياق.

٥- أو تطلعاً لتلاق... إلخ)

وهذا التحديد أضر بفهم الشعر، إذ ظل الكلام النقدي يدور غالباً حول وظيفة الشعر دون الاقتراب من ماهيته.

الباب الرابع والعشرون

الفصل الثاني

كتب ونقاد للأدب

- ١ -

محمد بن سلام الجمحي
(طبقات فحول الشعراء)
(٢٣٢ هـ)

أولاً - ابتسارات:

١ - يتمركز نقد ابن سلام للشعر حول مفهوم الطبقات ومفهوم الفحولة.

٢ - يتحدث عن النقد باعتباره - علم الشعر.

٣ - يتحدث عن الشعر باعتباره صناعة ومعرفة ثقافية، (وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلوم والصناعات..).

٤ - ثم يطرح ابن سلام قضية في غاية الخطورة وهي:

هل ما ورد إلينا من أشعار العرب يكفي لتمثيل واقع الشعر الجاهلي؟

وهل كان الشعر الجاهلي منافياً للعفة، انطلاقاً من طبيعة الحياة الجاهلية؟

يجيب ابن سلام على ذلك بقوله: (ما انتهى إليكم مما قاله العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير، ويضيف فكان من الشعراء من يتأله ويتعفف في شعره ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهكم في الهجاء).

٥ - وليس بالضرورة أن تتطابق الحياة الواقعية للشاعر مع شعره.

٦ – ويواصل ابن سلام تشكيكه في واقع كمية الشعر الذي وصلنا. وأن الشك في صحة نصوص الشعر الجاهلي أمر مطروح للبحث. كما أن قوانين الشعر التي صاغها النقاد العرب القدامى، بما فيها عروض الخليل وضعت لنصوص وصلتنا، ولم توضع للتجربة الشعرية الجاهلية الفعلية، إذ إن هناك شعراً جاهلياً لم يصلنا؛ لأن تاريخ الجاهلية ما زال غامضاً بالفعل حتى الآن.

٧ – ويمضي ابن سلام في كتابه، حيث يعتمد مفهوم (طبقات الشعراء).

ثانياً - مفهوم الطبقات:

١ - طبقات رئيسة لشعراء الجاهلية:

أ – فالطبقة الأولى: هي امرؤ القيس – زهير – الأعشى.

ب – الطبقة الثانية: كعب بن زهير والحطيئة.

ج – الطبقة الثالثة: لبيد بن ربيعة وطرفة وعبيد بن الأبرص.

د – الطبقة السادسة حتى يصل إلى الطبقة العاشرة.

٢ - (طبقات فرعية) وهي:

أ – شعراء المرائي مثل متمم بن نويرة والخنساء.

ب – شعراء القرى العربية: وهي خمس: المدينة – مكة – الطائف – الطائف – البحرين.

ج – وأشعرهن قرية المدينة:

د – شعراؤها الفحول خمسة: ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس.. وأشعرهم حسان بن ثابت.

هـ – شعراء اليهود: وفي يهود المدينة وأكنافها شعر جيد منهم: السموءل – الربيع بن الحقيق – كعب بن الأشرف – شريح بن عمران – سعية بن عادياء (شقيق السموءل) – أبو قيس بن رفاعة – أبو الذيال – درهم بن زيد بن الأوس.

٣ - طبقات شعراء الإسلام

أ – الطبقة الأولى هي: (جرير – الفرزدق – الأخطل – الراعي (عبيد بن حصين).

ب – الطبقة الثانية – ذو الرمة مثلاً.

ج – الطبقة السادسة وابن قيس الرقيات وجميل بثينة مثلاً... إلخ.

ثالثاً - مفاهيم نقدية:

١ – وقد اعتمد ابن سلام على مفاهيم:

أ – الطبقة.

ب – الفحولة، معتمداً مبدأ التشابه بين شعراء الطبقة الواحدة.

٢ – كما اعتمد المبدأ – الكمي – للقصائد في تحديد فحولة الشاعر

٣ – واعتبر أن عيوب الشعر أربعة (قال يونس: الزحاف – السناد – الإقواء – الإيطاء).

٤ – ولم يطبق ابن سلام كمية القصائد كمقياس.

٥ – كذلك فإن تقسيم طبقات فحول الإسلام ليس منطقياً وليس له ما يبرره.

٦ – والمشكل هو أن ابن سلام لم يقدم تبريرات مقنعة من نمط قوله إن أهل العلم، اجتمعوا على أنهم أشعر طبقة.

- ٢ -

ابن قتيبة الدينوري
(الشعر والشعراء)

١ - إن لمقدمة (الشعر والشعراء) قيمة تكاد تعدل قيمة الكتاب كله إن لم نقل تفوقها.

٢ - قصد بالمقدمة هذا القسم من الكتاب الذي وقفه المصنف على حديث الشعر وطبقاته وعناصره وقواعد نقده.

٣ - وهذا البحث من أقدم البحوث النقدية الذي يلمح فيه للمرة الأولى تركيزاً للقواعد النقدية وصياغتها صياغة قوية

٤ - كل ذلك سيجعل لها شأناً كبيراً في توجيه الشعراء والنقاد فيما بعد.

٥ - ولهذا السبب أولاها النقاد العرب عناية كبيرة كما عني بها المستشرقون ونقلوها إلى عدد من اللغات الأجنبية ونوهوا بأثرها في النقد العربي.

٧ - وقد بدأ ابن قتيبة من الصفحات الأولى في كتابه بالإشارة إلى موضوع الكتاب قائلاً غنه: (كتاب في أخبار الشعر والشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم وقبائلهم وما يستحسن من هذه الأخبار ويستجاد من تلك الأشعار).

٨ - ولم ينس أن يعرج على المأخذ التي أخذها العلماء على هؤلاء الشعراء من الغلط والخطأ في اللفظ والمعنى.

٩ - وأشار إلى السبق في المعاني أو ما يسمى في النقد باسم (السرقات الأدبية).

١٠ - ولما كان موضوع (الشعر والشعراء) موضوعاً واسعاً عمد إلى تحديده؛ لأن الإلمام بجميع أخبار الشعراء وأحوالهم في كتاب واحد يكاد يكون مستحيلاً.

١١ - فلذا أشار ابن قتيبة إلى أنه سيقتصر من القدماء على ذكر الشعراء الذين يحتج بشعرهم في الغريب والنحو والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

١٢ - كما أنه سيهمل من بحثه هذا الشعراء المقلين والمغمورين والأشخاص الذين غلب عليهم فن آخر غير فن الشعر.

١٣ - ولم يقصر ابن قتيبة حديثه على الشعراء القدامى الذين يحتج بشعرهم فقط، بل تجاوزهم إلى ذكر مجموعة من الشعراء المحدثين، ثم علل الأسباب التي جعلته يخصص جزءاً من كتابه للحديث عن هؤلاء المحدثين مخالفاً بذلك من سبقه إلى التأليف في هذا الباب، ففتح باب الحديث عن هؤلاء المحدثين على مصراعيه بعد أن أوصده من تقدمه من النقاد السابقين.

١٤ - وأعلن مبدأ المساواة في نظر النقد بين القديم والمحدث؛ لأن القدم والحدوث أمران نسبيان لا صلة لهما بالقيمة الفنية للأثر المدروس وقد ألح على هذه الفكرة التي كثر المراء والجدل حولها في عصر ابن قتيبة وأكدها بجرأة فقال: (فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولأن حداثة سنه كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه).

١٥ - ويبدو أن ابن قتيبة كان عازماً على أن يضمن هذا المصنف كل ما يتصل بالأدب مع ملاحظة المفهوم الواسع لكلمة أدب فكان يتوق إلى الحديث عن قدر الشعر وعن فن المديح والهجاء وما يتطلبه هذان الغرضان من معرفة الأنساب والسير يضاف إليهما فن الحكمة وفن الوصف، وبخاصة وصف الخيل والعلوم المتصلة بها والنجوم والأهواء والرياح والبروق والسحاب غير أنه وجد أن الحديث عن هذه الأشياء سيكون معاداً مكروراً؛ لأنه استوفى الحديث عنها في كتابه الذي سماه (كتاب العرب) لهذا صرف النظر عن الحديث عنها ثانية في هذا الكتاب.

١٦ - وانتقل بعد ذلك إلى شرح بعض مبادئ النقد الأدبي التي لابد لكل من يتصدى لدراسة الآثار الشعرية من الإلمام بها، ولذلك حلل الشعر إلى عنصريه الأساسيين:

(اللفظ والمعنى): وحاول أن يحدد قيمة كل من هذين العنصرين على انفراد، وقاده ذلك إلى تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب تبعاً لحالات كل من العنصرين الأساسيين وهذه الأضرب هي:

١ - ضرب حسن اللفظ والمعنى.

٢ – ضرب حسن اللفظ وليس في معناه كبير طائل.

٣ – ضرب حسن المعنى مقصر اللفظ.

٤ – ضرب متأخر المعنى واللفظ.

وقد أكثر ابن قتيبة في كلامه على هذه الأضرب من الإتيان بالشواهد وقادته بمعنى الشواهد إلى الأقاصيص والأخبار والنوادر التي يستدعيها الاستطراد.

وهو في تنقله بين الشواهد التي يعرضها في كل ضرب من الأضرب الأربعة ينتهز كل مناسبة تسنح له لإبداء رأيه في بعض القضايا النقدية كرأيه في شعر العلماء أمثال الأصمعي وابن المقفع والخليل بن أحمد ومجانبة هذا الشعر للسهولة ولا سماح الخاطر، كما نقد قبيح أسماء الإعلام والكنى والألقاب التي حشدها الشعراء في أشعارهم وهم بغنى عن حشدها وأبدى عجبه من اختيار الأصمعي الذي تهجم به ذوقه على اختيار ميمية المرقش التي نعتها ابن قتيبة بأنها وأمثالها ليست بصحيحة الوزن ولا حسنة الروي ولا متخيرة اللفظ ولا لطيفة المعنى.

١٧ – وانتقل ابن قتيبة بعد ذلك إلى الكلام على موضوع ذي أهمية وخطر في تاريخنا النقدي نعني به أقسام القصيدة العربية أو هيكلها فشرح هذه الأقسام من:

١ – وصف الأطلال.

٢ – إلى النسيب.

٣ – إلى ذكر مشاهد الترحل.

٤ – ووصف الراحلة.

٥ – ثم المدح.

أو غيرها من الأقسام الأخرى وتبدو لفتته البارعة وحسُّه النقدي في تعليله لظاهرة البدء في الوقوف على الأطلال والافتتاح بذكر النسيب والأثر النفسي لهذا في مطلع القصيدة العربية، ثم أوضح تسلسل هذه الأقسام في القصيدة العربية وصرح بأنه من أنصار المحافظة على هذا المنهج التقليدي وجعل من سلوك هذا المنهج ومن العدل بين هذه الأقسام وتوزيعها توزيعاً سوياً شرطاً من شروط الإجادة في الشعر.

١٨ – وعلى الرغم من أن ابن قتيبة أعار المحدثين شيئاً من اهتمامه إلا أنه ظل ينزع إلى القديم وظل يعجب بمذاهب القدامى في الشعر ويدعو المتأخرين إلى الاحتذاء على حذو المتقدمين في مذاهبهم ومناهجهم وتؤخذ عليه هذه النظرة التحكمية في الفن وفي وسائل التعبير عنه.

١٩ – ومن النظرات الأصيلة في كلام ابن قتيبة والتي أكدها في أكثر من موضع في هذه المقدمة قضية(الصنعة والطبع) فوضح الفرق بين هذين المذهبين وأتى بالأمثلة الكثيرة مازجاً في كثير من الأمثلة بين التكلف والتثقيف وبين الطبع والارتجال متحدثاً عن مظاهر التكلف وانعكاسها في شعر الشاعر وإلجائها الناظم إلى ركوب الضرورات الشعرية ومحاولة الشاعر تلفيق الأفكار والتحاليل عليها بالوصف المقتسر بعد أن أعيته الغريزة السمحة عن أسلاس قيادها.

٢٠ – ثم نرى المؤلف ينتقل إلى البحث في موضوعات أخرى تقع على هامش الموضوع الأساسي كالدواعي النفسية التي تسهل قول الشعر على الشاعر كالطمع والشوق والغضب والسرور والدواعي النفسية المضادة التي من شأنها أن تنضب معين الشاعر، فإذا أضفنا إلى العامل النفسي عاملي الزمان والمكان ألفينا ابن قتيبة يفسر على ضوء هذه العوامل سر تفاوت الأبيات في القصيدة الواحدة عند بعض الشعراء.

٢١ – وتكلم ابن قتيبة على الأسباب المختلفة التي يختار عليها الشعر ويحفظ والتي منها بالإضافة إلى:

أ – جودة اللفظ والمعنى.

ب – الإصابة في التشبيه.

ج – وخفة الروي.

د – أو لأن الشعر من النوع العزيز الذي لم يقل قائله غيره.

هـ – أو لندرة معانيه وغرابتها أو لنيل قائله.

٢٢ – ثم اختتم كلامه بذكر بعض عيوب الشعر كعيوب القافية من إقواء وأكفاء وسناد وإبطاء وإجازة وعيوب الإعراب وعلى رأس هذه العيوب التي تمت إلى النقد بصلة تلك التي يسمونها بالضرورات الشعرية.

٢٣ – وقبل أن ينهي كلامه توجه إلى الشاعر المحدث محذراً إياه من تقليد القدامى في:

أ – استعمال وحشي الكلام.

ب – واستعمال اللغات (اللهجات) القليلة في كلام العرب.

ج – وركوب المركب الخشن في الأساليب التي لا تصح في الوزن ولا تحلو في الأسماع.

٢٤ – وتجاوز هذه المقدمة إلى الحديث عن أوائل الشعراء تمهيداً لذكر الشعراء المشهورين فرداً فرداً.

ويقدم ابن قتيبة تصنيفاً لمستويات الشعر على النحو التالي:

أولاً: حسن لفظه وجاد معناه.

ثانياً: حسن لفظه وحلا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

ثالثاً:جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه.

رابعاً: تأخر معناه وتأخر لفظه.

إذاً: فإن ابن قتيبة يعتمد مسألة الفصل بين المعاني والألفاظ، ثم يبدأ ابن قتيبة بشرح مفهومه للشعرية:

أولاً – ذكر الديار والدمن والآثار سبب لذكر أهلها الظاعنين عنها، مع وصل ذلك بالنسيب والتشبيب.

ثانياً – عدم النظر إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره.

ثالثاً – ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب الأقدمين.

رابعاً – ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقافة ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر.

خامساً – وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف: منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب، ومنها الطرب ومنها الغضب.

سادساً – وللشعر أوقات يسرع ويسمح فيها منها الليل ومنها صدر النهار قبل الغذاء ومنها يوم شرب الدواء ومنها الخلوة في الحبس والمسير.

سابعاً – وكل علم يحتاج إلى السماع وأحوجه إلى ذلك علم الدين، ثم الشعر لما فيه من الألفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي وأسماء الشجر والنبات والمواضيع والمياه.

ثامناً – والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك صدر بيته عجزه وفي فتحته قافيته. وتبنيت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة. وإذا امتحن لم يتلعثم والشعراء في الطبع مختلفون. منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ومنهم من يتيسر له المرائي ويتعذر عليه الغزل.

تاسعاً – عيوب الشعر: الإقواء والعيب في الإعراب.

عاشراً – ولكن حين نقرأ موقفه من مسألة القديم والجديد في النص الثاني نكتشف موقفاً يناقض مواقفه الأولى، فهو يوحي لنا في النص الرابع أن الشعر ضد الصناعة لكنه يقف مع الصناعة في النص الثامن.

حادي عشر – أما حين يتحدث عن حوافز الشعر فهو يرجعها إلى عادات إنسانية سلوكية على عكس عرب الجاهلية الذين ردوا الشعر إلى شيطان الشعر.

ثاني عشر – وهو أيضاً في النص السابع يقرر وجود بنى معرفية في الشعر ولابد من معرفتها من قبل القارئ ليسهل وصول الشعر إليه.

ثالث عشر – وهو أيضاً في النص الثاني ينفي قداسة وأسطورية الماضي المنتهي؛ لأنه انتهى.

- ٣ -

عبد الله بن المعتز

((كتاب البديع))

١ - يمثل كتاب البديع مرحلة من مراحل تطور النقد في القرن الثالث.

٢ - فهو بحث في الأساليب التعبيرية التي أولع باستعمالها الشعراء في عصر ابن المعتز وقبل عصره وأطلقوا عليها اسم البديع.

٣ - ويشير ابن المعتز في كتابه إلى أن هذه اللفظة - البديع - من وضع المحدثين وإن كانت معروفة قبلهم، فلذا قال: (فقد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن الكريم واللغة...من الكلام الذي سماه المحدثون البديع)، ثم قال: البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو.

٤ - ولابن المعتز فضل السبق إلى تأليف هذا الكتاب الذي كان أول كتاب جمعت فيه فنون البديع.

٥ - ولهذا يعتبر كتابه هذا حدثاً عظيم الأهمية في تاريخ النقد العربي للسببين التاليين:

أ - الأول: أنه حدد خصائص مذهب البديع ووضح مفهومه.

ب - الثاني: أنه كان ينبوعاً ثرّاً استقى منه النقاد اللاحقون وتأثروا بأحكامه وحذوا حذو مصطلحاته.

٦ - إن كتاب البديع من أول مؤلفات ابن المعتز(ألفه سنة ٢٧٤هـ)

٧ - تضمن كتاب البديع ثمانية عشر نوعاً من الأنواع البديعية وهي:

أ - الاستعارة والتجنيس.

ب - والمطابقة.

ج – ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها.

د – والمذهب الكلامي.

هـ – والالتفات.

و – والاعتراض.

ز – والرجوع.

ح – وحسن الخروج.

ط – وتأكيد المدح بما يشبه الذم.

ي – وتجاهل العارف.

ك – والهزل الذي يراد به الجد.

ل – وحسن التضمين.

م – والتحريض.

ن – والكناية.

ص – والإفراط في الصفقة.

ع – وحسن التشبيه.

ف – ولزوم ما لا يلزم.

س – وحسن الابتداء.

٨ – وفي رأي ابن المعتز: إن الأنواع الخمسة الأولى هي أنواع بديعية حقاً وأما ما سواها فمن محاسن الكلام.

٩ – إن البديع وفنونه كان من الموضوعات التي تشغل في عصر ابن المعتز الأوساط الأدبية وتكثر المناقشة في أمرها فلما أحسن ابن المعتز بإقبال الناس على هذا المذهب البديعي واحتدام جداول الأدباء والنقاد حوله أحب أن يوضح هذا المذهب الأدبي؛ لأنه من الواضح أن كل

مذهب أدبي لا يستقر ولا يأخذ الأدباء في التعصب له أو عليه حتى يصاغ في قواعد أولية ويتبلور في مبادئ نظرية.

وتعتبر محاولته رائدة في توضيح مفهومات الفنون البديعية وتحديدها ومحاولة إحصائها، وكان صنيعه هذا فيما يبدو من أكبر الأسباب التي مكنت المخصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث؛ لأن مبادئ مذهب البديع أصبحت معروفة محددة، ومن هنا جاء فضل ابن المعتز على أكثر النقاد والبلاغيين الذي جاؤوا بعده، فوجدوا طريق الحديث في البديع لاحبة ممهدة لما وضعه ابن المعتز على جانبيها من سوى ترشيد الساري وتأخذ بيده إلى سواء السبيل.

١١ - أما منهج المؤلف في دراسة كل فن من هذه الفنون التي عددها فإنه يقوم على تعريف هذا الفن أولاً ثم الإتيان بشواهد نثرية مختارة من القرآن والحديث، ومن كلام العرب في الجاهلية والإسلام، ثم يرد فيها بشواهد مختارة من الشعر القديم جاهلية وإسلامية يتبعها بالأمثلة التي يختارها من شعر المحدثين ونثرهم، ثم يختم البحث في كل فن بذكر مناسبتها وهو في كل هذا يعزو القول إلى صاحبه والكلمة إلى قائلها ما وسعه ذلك والأمثلة التي أوردها بكثرتها وترتيبها وحسن اختيارها دليل على ما يتصف به المؤلف من ثقافة عربية أدبية واسعة.

١٢ - و الغاية من تأليف الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع.

١٣ - ولذلك نراه يهرع إلى الفنون القديمة من القرآن والحديث وكلام الأعراب والشعر ليستنبط من كل ذلك الأمثلة الكثيرة التي يؤيد بها رأيه.

وعلى الرغم من الحظ القليل الذي أصابه المحدثون من كتاب البديع هذا ومحاولة الرجوع بالبديع إلى جذوره القديمة فإن لهذا الموقف السلبي الذي وقفه ابن المعتز من المحدثين معنى لا يخفى على الباحث وهو الموقف الذي تمليه الرغبة في الدفاع عن التراث الأدبي القديم والحذر من الشعوبية التي كانت تحرص على أن ترد الفضل في كل مظاهر الحضارة الفكرية والفنية والأدبية إلى المحدثين، وبالتالي إلى الأمم الأخرى التي أسهمت في الحضارة العربية.

ملاحظات:

أولاً: ولد البديع في الشعر المتقدم قبل ولادته في شعر المحدثين. وولد البديع قبل أن يولد علم البديع على يدي ابن المعتز سنة ٤٧٢ هـ.

ثانياً: ألغى الحدود بين الشعر والنثر وألغى الحدود بين المقدس والعادي.

ثالثاً: أعطى ابن المعتز أهمية أولى للاستعارة بشكل خاص، ثم لفنون البديع الأربعة الأخرى الأساسية.

رابعاً: حين نقرأ أنواع المحاسن الكلام وعددها(١٢) وصفها بأنها اختيارية وبالتالي ثانوية. ولكننا حين ندقق في مقياسه هذا أي ثنائية الأساسي والثانوي، نجد تناقضاً واضحاً؛ لأنه أولاً اعتبر بعض الفنون ثانوية مع أنها أكثر أهمية من بعض الفنون التي اعتبرها أساسية والعكس صحيح.

- ٤ -

الحسن بن بشر الآمدي
الموازنة بين الطائيين

أولاً - تهويمات نقدية:

١ - روى الآمدي في الموازنة أنه نظر في شعر أبي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلاثمئة/ ٣١٧هـ/ واختار جيدهما وتلقط محاسنهما فإذا تذكرنا أنه توفي سنة/ ٣٧٠هـ/ أدركنا طول عشرة الناقد لهذين الشاعرين، هذه العشرة المستمرة التي بلغت أكثر من خمسين سنة وصفها فقال: ((ثم تصفحت شعريهما بعد ذلك على مر الأوقات)) فكان هذا التصفح نواة لتأليف كتابه العظيم وسفره الضخم الذي يعتبر دستور النقد العربي كتاب الموازنة.

٢ - ويعتبر تأليف كتاب الموازنة هذا تتويجاً للحركة النقدية التي نشأت حول أبي تمام والبحتري في النصف الأول من القرن الرابع الهجري؛ لأن هذه الحركة قد بلغت أوجها في هذه الفترة، وقد كان الآمدي خير من تصدى لها وألف فيها فالقرن الثالث الذي دفع إلى البروز شاعرين من أفحل شعراء العربية هما أبو تمام والبحتري كان وجودهما يتطلب من القرن الرابع أن يدفع إلى الوجود ناقداً فحلاً يتوج بجهوده الحركة النقدية التي نشأت حول مذهبيهما، فكان هذا الناقد هو الآمدي وكان كتابه معجزة النقد الأدبي في القرن الرابع(الموازنة بين الطائيين).

٣ - والآمدي على الرغم من طول باعه في النقد وتصانيفه الكثيرة فيه اتخذ أبا تمام والبحتري موضوعاً لكتابه؛ لأن هذين الشاعرين أغزر شعراء عصرهما إنتاجاً وأكثرهم جودةً شعراً وأبدعهم طرائق فنية ولأنهما صاحبا مذهبين مختلفين في النظم على الرغم من جنوح بعض نقاد زمنه إلى اعتبارهما طبقة واحدة.

٤ - جاء كتاب الموازنة جامعاً لآراء القدماء من نقاد القرن الثالث وقسم كبير من نقاد القرن الرابع مضافاً إليها ما قاله هو ولاحظه من نظرات نقدية ترسّبت لديه من ممارسته لنقد

الشعر القديم والمحدث كما كان خلاصة لما كان يدور في المجالس الأدبية والمحافل النقدية التي كانت تتناول الشعر عامة وشعر أبي تمام والبحتري خاصة.

ثانياً - أجزاء كتاب الموازنة:

أ - قسم الآمدي كتابه - الموازنة - إلى عشرة أجزاء:

الجزء الأول: ويشمل الخصومة وسرقات أبي تمام.

الجزء الثاني: أخطاء أبي تمام.

الجزء الثالث: عيوب أبي تمام.

الجزء الرابع: خاص بالبحتري عن سرقاته وعيوبه.

الجزء الخامس: محاسن الشاعرين.

الجزء السادس: رد الآمدي على القطربلي في كتابه عن أغلاط أبي تمام وخطئه.

الجزء السابع: مناقشة (هل قد).

الجزء الثامن: الموازنة التفصيلية.

الجزء التاسع: التشبيه.

الجزء العاشر: الأمثال.

ثالثاً - خطة الموازنة والمنهج النقدي فيها:

خطة الآمدي تتناول أربعة عناصر:

١ - ذكـــر المساوئ للانتهاء إلى ذكر المحاسن:

وفي حديثه عن المساوئ سيتناول سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره، وكذلك مساوئ البحتري، وخاصة في أخذ ما أخذه من معاني أبي تمام وغير ذلك من غلطه في بعض معانيه، وعلى الرغم من أنه صرح بأنه لم يظفر بشيء من أغلاط البحتري إلا القليل فإنه قد خصص لها نصيباً من كلامه.

٢ - الموازنة التفصيلية بين الشاعرين:

وقد وعد الآمدي أن يكون منهجه في هذه الموازنة قائماً على مقارنة قصيدتين من شعريهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية أو بين معنى ومعنى فهذه الموازنة كفيلة بإبراز محاسنهما وإظهار مواطن تفوقهما وإذا تعذرت الموازنة التفصيلية بسبب انفراد كل شاعر بمعنى قوم الآمدي صنيع الشاعر وسجله على ماله من رصيد من حسنات أو سيئات.

٣ – ما وقع في شعريهما من التشبيهات.

٤ – ما وقع في شعريهما من الأمثال:

لأن مثل هذين البابين كان الحديث عنهما عنصراً من عناصر النقد الذي تقوم فيه إجادة الشاعر فتفننه في باب التشبيه دليل تملكه ناصية الأسلوب وحسن تصرفه فيه وإيراده المثل وسوقه الحكمة أية على شرف معانيه وغزارتها فالحديث عن هذين البابين حديث عن الأفكار والأساليب، كما نعبر عنهما في نقدنا المعاصر، ووعد بأن يختم بهذين البابين رسالته على أن يلحق بها (مقتطفة من شعر الشاعرين)، مرتبة حسب حروف المعجم ليسهل على المراجع طريقة الوصول إليها

وقد افتتح الجزء الذي خصصه للموازنة التفصيلية بقوله: ((وأنا أذكر بإذن الله في هذا الجزء أنواع المعاني التي يتفق فيها الطائيان وأوازن بين معنى ومعنى وأقول: أيهما أشعر بذلك المعنى بعينه)) وقد علل الآمدي مسوغات هذه الخطة بأنها هي الخطة التي توقفنا على محاسن الشاعرين ومساوئهما وتضع أيدينا على نقاط التفوق عند كل واحد منهما فصرح الآمدي بأنه يكتفي بالمفاضلة الجزئية بين الشاعرين والحكم على أيهما أشعر في هذا المعنى بذاته، أما المفاضلة الكلية والحكم النهائي.

فهذا ما يتركه الآمدي للقارئ الذي وضع الآمدي بين يديه كل مقومات الموازنة الصحيحة قال: ((فلا تطالبني أن أتعدى هذا إلى أن أفصح لك بأيهما أشعر عندي على الإطلاق فإني غير فاعل ذلك؛ لأنك إن قلدتني بشيء لم تحصل لك الفائدة بالتقليد وإن طالبت بالعلل والأسباب التي أوجبت التفضيل فقد أخبرتك فيما تقدم بما أحاط به علمي من نعت مذهبيهما وذكر مساوئهما في سرقة المعاني من الناس وانتحالها وغلطهما في المعاني والألفاظ وإساءة من أساء منهما في الطباق والتجنيس والاستعارة ورداءة النظم واضطراب الوزن وغير

ذلك مما أوضحته في مواضعه، وبينته وما سيعود ذكره في الموازنة من هذه الأنواع على ما يقوده القول وتقتضيه الحجة)).

ثم يسترسل الآمدي في الحديث عن خطته فيما يأتي من أبواب الموازنة فيقول: ((وما ستراه من محاسنهما وبدائعهما وعجيب اختراعهما فإني أوقع الكلام على جميع ذلك وعلى سائر أغراضهما ومعانيهما في الأشعار التي أرتبها في الأبواب وأنص على الجيد وأفضله وعلى الرديء وأرذله وأذكر من علل الجميع ما ينتهي إليه التلخيص وتحيط به العبارة)).

هذا ما وعد الآمدي بأن يصنعه في الموازنة التفصيلية ونبه إلى أن هذا وحده غير كاف، بل ينبغي أن يضاف إليه الذوق الذي لا يكتسب قسم كبير منه إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة ليستطيع الإنسان أن ينتفع بما يقدم إليه من معلومات، ثم استفاض الآمدي فكتب نظرات في النقد من أجمل ما تضمنه كتاب الموازنة، بل تضمنته كتب النقد كلها بعض هذه النظرات شارك فيها من سبقه من النقاد كتكوين ملكة النقد وكثرة ادّعاء الناس النقد وهم صفر منه وبعضها انفرد فيها الآمدي كالاحتجاج بكلام من طالت دربته في الشعر وعامل الزمن في انتقال الدربة واختبار الإنسان مدى معرفته في النقد والاستعداد الفطري لتلقي أنواع العلوم وغيرها من النظرات النقدية التي لا نقع عليها في كتاب آخر غير الموازنة.

والموازنة في رأي الآمدي تتم على هذا النحو:

١ - أخذ معنيين في موضعين متشابهين.

٢ - تبيان الجيد والرديء مع إيراد العلة.

٣ - تبيان الجيد والرديء دون إيراد علة؛ لأن بعض الجودة والرداءة لا يعلل.

٤ - إصدار الحكم بأن هذا أشعر من ذاك في هذا المعنى، دون إطلاق الحكم النهائي وهو (أيما أشعر على الإطلاق).

وينقل الآمدي الآراء التي يحتج بها كل فريق ويناقشها وهي:

١ - تلمذة البحتري لأبي تمام.

٢ - استواء شعر البحتري واختلاف أبي تمام.

٤ – تقييم البديع وبيان ما إذا كان أبو تمام اخترعه أو أنه طور أسلوباً فنياً كان موجوداً في عصره.

٥ – وبيان الحد الذي اتفق عليه النقاد حول جدارة كل منهما كشاعر.

٦ – الحديث عما إذا كان الشاعر المثقف أجدر بالثناء من الشاعر غير المثقف.

٧ – بعض أخطاء الشاعرين في النحو وفي التعبير عن المعنى.

٨ – سرقات البحتري من معاني أبي تمام خاصة.

٩ – سرقات الشاعرين بوجه عام.

١٠ – أخطاؤهما في الألفاظ والمعاني أو في استخدام الصور الخيالية.

مصطلحات الآمدي المستخدمة في كتاب الموازنة:

١ – التكلف: تأليف الشعر عن عمد، وهو يقابل النظم التلقائي للشعر (الارتجال) وقد عرف فيما بعد بالتصنع.

٢ – مطبوع: تلقائي وبسيط وطبيعي.

٣ – متكلف: يفكر في شعره قبل أن ينظمه (المصنوع).

٤ – الصنعة: إبداع الشعر بطريقة واعية وهي مجرد استخدام المهارات الأدبية في إبداع الشعر، دون أن يدعم هذا الإبداع إحساس حقيقي.

٥ – التعقيد: صعوبة الفهم أو الأبنية اللغوية الغامضة.

٦ – وحشي: مهجور. أو لم يعد يستعمل.

٧ – غث: العامي.

٨ – ركيك: ضعيف الكلمة أو الأسلوب.

٩ – السبك: البناء.

١٠ – الديباجة: الأسلوب.

١١ – كثير الماء: أسلوب متدفق أو متناسق.

١٢ – كثير الرونق: متألق أو لامع أو مصقول.

١٣ – البديع: استخدام الصور الخيالية.

١٤ – عمود الشعر: المعيار الكلاسيكي للشعر.

رابعاً - رأي الآمدي

أ - يقول الآمدي في البحتري:

١ – البحتري أعرابي الشعر.

٢ – مطبوع.

٣ – وعلى مذهب الأوائل.

٤ – وما فارق عمود الشعر المعروف.

٥ – وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ وحوشي الكلام.

٦ – في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة.

٧ – وانفرد بحسن العبارة وحلاوة الألفاظ وصحة المعاني.

٨ – وقع الإجماع على استحسان شعره واستجابته.

ب - يقول الآمدي في أبي تمام:

١ – شعره لا يشبه أشعار الأوائل.

٢ – ولا على طريقتهم.

٣ – فيه من الاستعارات البعيدة.

٤ – فيه من المعاني المولدة.

خامساً - طريقة الآمدي في قراءة الشاعرين:

١ – دقيق المعاني موجود في كل أمة وفي كل لغة.

٢ – وليس الشعر عند أهل العلم به إلا:

أ – حسن التأني.

ب – وقرب المأخذ.

ج – واختيار الكلام.

د – ووضع الألفاظ في مواضعها.

هـ – وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله.

و – وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وفي غير منافرة لمعناه.

٣ – إذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس، ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب. وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر – قلنا له: قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة، فإن شئت دعوناك حكيماً أو سميناك فيلسوفاً. ولكن لا نسميك شاعراً ولا ندعوك بليغاً. لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم.

٤ – وأنا لا أجمع لك معاني هذا الباب في كلمات سمعتها من شيوخ أهل العلم بالشعر: زعموا أن صناعة الشعر وغيرها من سائر الصناعات لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء هي:

أ – جودة الآلة.

ب – وإصابة الغرض المقصود.

ج – وصحة التأليف.

د – والانتهاء إلى تمام الصنعة من غير نقص بها ولا زيادة عليها.

وهذه الخلال الأربع ليست في الصناعات وحدها، بل هي موجودة في جميع الحيوان والنبات.

٥ – إنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له، إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سبباً من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه، نحو قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف إعجازاً ونآء بكلكلِ.

٦ – وكان ينبغي ألا أذكر السرقات فيما أخرجه من مساوئ هذين الشاعرين؛ لأنني قدمت بالقول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين إذ كان هذا باباً ما ترى منه متقدماً ولا متأخراً)).

سادساً - عبارة: عمود الشعر

أ – معناها: (قوام الشعر الذي لا يستقيم إلا به).

ب – أقدم استخدام نعرفه لعبارة عمود الشعر ورد في كتاب الموازنة) للآمدي.

ج – وصاحب هذا التعبير هو البحتري (ت٧٩٨ م).

د – فالمرجح أن عبارة (عمود الشعر) عرفت وشاعت في القرن الرابع وسجلت للمرة الأولى في الموازنة.

هـ – إضافة لذلك نجد أن منهج الموازنة بدأ يشيع بين النقاد العرب وأولهم الآمدي، فهو يعرض ويرتب عناصر الموازنة ترتيبا منطقياً.

و – وهو ناقد منفتح يترك الفضاء مفتوحاً للقارئ ليشاركه في الحكم دون أن يقرر حكماً قاطعاً: من هو أفضل الشاعرين؟؟!!.

ز – اتّهم الآمدي بالتعصب ضد أبي تمام كما تعصب له الصولي.

ح – كذلك يفرق الآمدي بين الشاعر العالم والشاعر غير العالم: ((وكان الأصمعي شاعراً عالماً وكان خلف الأحمر أشعر العلماء)).

ط – والبحتري يرى أن ((الشعر لمح تكفي إشارته)).

- ٥ -

قدامة بن جعفر
((نقد الشعر))

أولاً - مضمون الكتاب:

يتضمن كتاب نقد الشعر (مقدمة وثلاثة فصول)

١ - المقدمة:

صاغها المؤلف صياغة موجزة مركزة تحدث فيها عن قيمة ما أسماه علم النقد وأهميته بين علوم الأدب الأخرى كعلم العروض وعلم القوافي وعلم الغريب وعلم المعاني وأطلق على هذا العلم الذي يبحث في نقد الأشعار اسم (علم جيد الشعر ورديئه)، وتحدث في هذه المقدمة عن عناية العلماء بهذه العلوم الجانبية الأخرى، وأخذ عليهم إعراضهم عن التصدي للتأليف في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه؛ لأن هذا العلم أولى بالتأليف من غيره من العلوم الأخرى، ولما وجد الناس يخبطون في هذا العلم وأنهم قصروا في تأليف كتاب فيه أحب أن يؤلف كتابه هذا، فكانت هذه هي غايته من تصنيف هذا الكتاب.

٢ - الفصل الأول:

فقد تكلم فيه على حد الشعر وعرفه، فقال: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى، وشرع في الحديث عن هذه العناصر الأربعة التي يتكون منها الشعر أخذاً بعين الاعتبار أن الشعر صناعة من الصناعات وكل صناعة يتوخى من صانعها أن يبلغ بها الكمال ولكن همة الصانع قد تقصر به قليلاً أو كثيراً عن بلوغ هذه الغاية وقيمة الصناعة تكمن في إتقان الصنعة التي ينبغي للشاعر أن يحذقها لا في جودة المادة التي يتخذ منها صناعته وجعل المعاني المادة الأولية في صناعة الشعر وجعل الصورة هي الوسيلة التي يتخذها الصانع للتعبير عن هذه المادة الأولية وقاده هذا الاعتبار إلى أنه لا دخل للقيم الأخلاقية في القيم الفنية كما قاده أيضاً إلى أنه ينبغي أن نغتفر للشاعر مناقضته في مدح الشيء وذمه وعرض الفكرة ونقيضها إذا كان مجوداً

في الحالتين ودافع عن وجهة نظرة هذه بمثال تطبيقي من شعر امرئ القيس في فكرتين تبدوان متناقضتين.

إحداهما: تدعو إلى الطموح

والأخرى: تدعو إلى القناعة ولكنه أجاد في عرضهما وأحسن التعبير عنهما مع أنهما على طرفي نقيض كما تحدث عن اعتزامه على وضع مصطلحات نقدية في هذا الكتاب تساعد على استيعاب الأفكار التي يعالجها متذرعاً بأن من سبقه من المشتغلين في حقل النقد - على قلتهم - لم ينتبهوا إلى قيمة هذه المصطلحات التي تتبلور فيها الأفكار وتتجسد المعاني، ولذا اعتبر نفسه في هذا الصنيع رائداً في ميدان النقد وتعريف الشعر ومصطلحاته النقدية.

وإذا عدنا إلى تعريفه السابق للشعر وجدنا أنه يقصر الشعر على العناصر الأربعة التالية: **اللفظ والمعنى والوزن والقافية**، فهذه هي العناصر البسيطة التي يتركب منها الشعر فإذا ما أردنا تقويم الشعر فينبغي لنا أن نأخذ بعين الاعتبار تقويم هذه العناصر البسيطة ومركبة، ويقصد من تقويمها مركبة أن ينظر إليها في ائتلاف كل عنصر من هذه العناصر البسيطة مؤتلفاً مع عنصر آخر، ولهذا تكونت لدية أربعة عناصر أخرى مركبة من هذه العناصر الأربعة البسيطة هي:

١ - ائتلاف اللفظ مع المعنى.

٢ - ائتلاف اللفظ مع الوزن.

٣ - ائتلاف المعنى مع الوزن.

٤ - ائتلاف المعنى مع القافية.

وهكذا يجد الناقد نفسه إزاء أربعة عناصر أخرى مركبة أو مؤتلفة، فلذا لابد للناقد من النظر إلى هذه العناصر جميعاً إذا أراد تقويم أي أثر من الآثار الشعرية كما لابد له من دراسة كل هذه العناصر بسيطة ومركبة ليتعرف على (نعوتها) و(عيوبها) لتتكون لدية المقاييس التي تعينه على تقويم الأثر الشعري وتقديره حق قدره من حيث جودته أو رداءته، وهذا ما تضمنه الفصلان اللاحقان في هذا الكتاب.

٣ - الفصل الثاني:

أفرده قدامة للحديث عن نعوت هذه العناصر الثمانية، وقصد بالنعوت الشروط التي يجب أن تتوفر فيها العناصر لتكون جيدة.

ابتداء قدامة كلامه هذا الفصل على نعوت العناصر البسيطة، فشرع في الحديث عن (نعوت اللفظ)

أ - فاشترط أن يكون اللفظ سمحاً سهل مخارج الحروف عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ومثَّل لذلك بنماذج من شعر الحادرة الذبياني ومحمد بن عبد الله السلاماني والشماخ وجبها الأشجعي وغيرهم.

ب - ثم انتقل من الحديث عن نعت اللفظ إلى الحديث عن نعت الوزن واشترط فيه أن يكون سهل العروض ومثَّل له أيضاً بنماذج من شعر القدامى والمحدثين.

ج - وقاده الحديث عن نعت الوزن إلى الكلام على (الترصيع) فعرفه وأكثر من التمثيل له، وأشار إلى المواطن التي يحسن فيها الترصيع والمواطن التي يقبح فيها وعلى الرغم من أنه ناقش هذه الظاهرة مناقشة النقاد.

د - إلا أنه أسهم في انحراف النقد من النقد الذي يعتمد الذوق إلى النقد الذي يعتمد الشكل، وبهذا أخذ يبتعد عن النقد الخالص ويقترب من البلاغة وقواعدها فناقش هذه المصطلحات البلاغية التي أخذ على نفسه تبعة تعريفها وتوضيحها والاستشهاد عليها، وهكذا سار في بقية نعوت العناصر البسيطة والمركبة مفتقاً ألواناً كثيرة من البلاغة لم تصل إليها يد من سبقة ممن اشتغلوا في البيان العربي وبلاغته.

٤ - الفصل الثالث:

أ - ويأتي هذا الفصل في الجهة المناظرة للفصل الثاني فإذا كان الفصل الثاني قد تضمن الحديث عن الشروط التي تجعل عناصر الشعر مقبولة مستحسنة.

ب - فإن الفصل الثالث قد قصر على الحديث عن العيوب التي تلحق القبح بهذه العناصر.

ج – ونهج المنهج ذاته الذي اتبعه في عرض نعوت الشعر.

د – فبدأ بعرض:

١ – عيوب اللفظ.

٢ – وثنى بعيوب الوزن.

٣ – ثم خلص من عيوب القوافي والمعاني.

٤ – إلى الحديث عن عيوب العناصر المركبة.

٥ – وهو لا يني يفتق ألواناً أخرى من الألوان البلاغية يعرفها ويمثل لها بالشعر القديم والمحدث أيضاً.

هذه صورة سريعة مقتضبة عن مضمون الكتاب ومن يمعن النظر في هذا المؤلف يجد أن قدامة قد فتح صفحة جديدة في التأليف النقدي عند العرب، ذلك لأن كتابه قائم على نظرة جديدة موضوعية إلى صناعة الشعر كما يجد أن المؤلف قد اعتمد على منهج صارم شامل دونه في مطلع كتابه، ثم التزمه في فصول الكتاب المتعاقبة التزاماً تاماً، ولهذا فإننا أصبحنا مع قدامة في منأى عن الكتابات النقدية السابقة التي لا تعدو أن تكون مجموعة من الخواطر المتناثرة أكثر من أن تكون كتباً نقدية منهجية شاملة.

إن كتاب نقد الشعر يطغى عليه الطابع المنطقي فكرة وتعبيراً ذلك لأن قدامة كان يكتب بوحي من ثقافته المنطقية التي بيّنا جوانب منها قبل قليل وبيّنا الأثر اليوناني فيها بوجه خاص يضاف إلى ذلك ما كان قدامة يستشهد به في غير موضع من الكتاب بآراء فلاسفة اليونان.

ولعل أبرز ما في الكتاب من خصائص تلك النزعة التقريرية في النقد فالذي يتصفح صفحات الكتاب من أوله إلى آخره يلمس إيمان المؤلف بالقواعد النقدية النظرية إيماناً مطلقاً، ولذلك هدر المؤلف بصنيعه هذا كل قيمة للذوق الفردي والشخصية الذاتية في النقد، وكان كل ما يطلب من الناقد هو أن يتعلم القواعد النقدية النظرية وأن يتقن تطبيقها، ثم يطلق أحكامه النقدية التي لا تخطئ على الآثار الشعرية، ومن أجل هذا السبب ألف قدامة كتابه؛ لأن من سبقه من النقاد وصفهم بأنهم ((كانوا يخبطون في تمييز جيد الشعر من رديئه منذ

تفقهوا في العلوم فقليلاً ما يصيبون)) ولكي يجنب الناس الوقوع في هذا الخبط رغب في أن يضع للناس القواعد التي يسلمون بها من الوقوع في الخطأ، وتتصف هذه النزعة التقريرية القاعدية بصفتين أساسيتين:

- **الجدة والخطورة** - ؛ إما **الجدة** فلأن قدامة لم يسبقه أحد من النقاد إلى مثل هذا الاتجاه القاعدي الصارم في النظر إلى الشعر، وهو في ذلك يغاير من سبقه من النقاد الذين يقيمون وزناً كبيراً للقيم الجمالية التي تدرك بالذوق السليم أو بالحس المرهف دون أن يستطيع الناقد التعبير عن هذه القيم وتحديدها بحدود وتعريفات.

وأما **الخطورة**: فهي كامنة بكون هذه النزعة تفسر الأدب المتطور بطبيعته على قوالب متحجرة وتخضعه لقواعد ثابتة فهي بهذا تقضي على الأصالة والذوق الشخصي عند كل من الأديب والناقد على حد سواء.

أثر كتاب قدامة في النقاد:

وقد كان لكتاب (نقد الشعر) أثراً كبيراً في أوساط النقاد والبلاغيين:

١ - فقد كان حافزاً لبعض العلماء على محاولة تكميله أو شرحه أو توضيحه ومن هؤلاء موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي ألف كتابين:

أولهما - (تكملة الصناعة في شرح نقد قدامة).

وثانيهما - (كشف الظلامة عن قدامة) واحتذى أبو عبد الله محمد بن يوسف الكفرطابي حذو قدامة فألف كتاباً سماه كتاب (نقد الشعر).

٢ - كما أحدث مصنف قدامة أثراً عكسياً عند بعض النقاد فتتبعوه وأحصوا ما به من غلط، ومن هؤلاء الحسن بن بشر الآمدي صاحب كتاب الموازنة الذي ألف كتاباً انتقد فيه كتاب قدامة وبين سهوه في كتاب سماه(تبيين غلط قدامة في كتاب نقد الشعر) وكذلك فعل ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة فألف كتاباً سماه(تزييف نقد قدامة).

٣ - يضاف إلى كل هذا ما نهلته كتب النقد الأخرى من كتاب نقد الشعر بعضها صرح بالأخذ منه كالمرزباني في كتابه (الموشح) فقد نهل كثيراً من كتاب قدامة، وخاصة من الفصل

الثالث الذي عالج فيه قدامة عيوب الشعر وبعضها الآخر لم يصرح بالأخذ منه وإن كان يستمد منه كثيراً من أمثلته وتعريفاته.

٤ – وإذا أردنا أن نقوم كتاب نقد الشعر ونضعه في موضعه من كتب النقد فلا يسمعنا إلا أن نقول:

أ – إن الكتاب قد كان له أثر غير محمود لمزجه البلاغة بالنقد مزجاً صميمياً، وذلك بجعله الألوان البديعية جزءاً لا يتجزأ من النقد الأدبي خلال قرون طويلة.

ب – إن جل كتب النقد التي ظهرت بعد قدامة قد امتزج فيها النقد بالبلاغة، وأصبح هذا المزج أصلاً من الأصول المعتمدة فيها حتى ليبدو الفصل عسيراً بين ما هو من اختصاص النقد وما هو من اختصاص البلاغة وغدت الصفة البلاغية مسيطرة على هذه المصنفات سيطرة تامة، فكثير من المصطلحات التي درسها قدامة تحت عنوان النقد كالترصيع الذي هو من نعوت الوزن، والتقسيم والمبالغة والمقابلة والتتعيم والتكافؤ والالتفات التي هي من نعوت المعاني، والإشارة والإرداف والتمثيل وهي من نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى، والتوشيح والإيغال وهما من نعوت ائتلاف القافية مع المعنى.... وغيرها وغيرها من مصطلحات قدامة النقدية؛ لأن كثيراً منها أصبح من مصطلحات البلاغة، بل دخل في باب واحد من أبواب البلاغة هو باب البديع.

٥ – يقسم قدامة بن جعفر الشعرية – كعلم لموضوعة الشعر إلى عدة أقسام تشمل جميعها ما يسمى بالبنية السطحية وهذه الأقسام هي:

أولاً: علم العروض والوزن.

ثانياً: علم القوافي والمقاطع.

ثالثاً: علم لغة الشعر.

رابعاً: علم معاني الشعر.

خامساً: علم الجيد والرديء من الشعر.

ويزعم قدامة أنه لم يجد أحداً قد وضع كتاباً في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه قبله. وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه. وبالتالي فإن قدامة كان يطمح طموحاً واضحاً ومقصوداً لتأسيس (علم الشعرية) بجناحيها: النظري والتطبيقي ونلاحظ أيضاً أن قدامة قدم هيكلاً متكاملاً لنظرية شعرية، وحدد الأجزاء وقام بتركيبها وإن لم يستطع أن يقرأ شرايين الجسد. نعني شبكة العلاقات الداخلية في النص الشعري. وسبب ذلك هو تأثره بالفكر المنطقي لأرسطو كما لاحظ عدد من النقاد، مع هذا فإن محاولته تتسم بالجدية والجهد رغم النتائج.

٦ – يبدأ قدامة كتابه بالبحث عن عناصر ومكونات الشعر أو ما سماه: ((معرفة حد الشعر الجائز عما ليس بشعر ويبدأ بتحديد الشعر بأنه ((قول موزون مقفّى يدل على معنى)) ثم يشرح التعريف على النحو التالي:

أ – ((فقولنا – قولٌ – دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر)).

ب – ((وقولنا موزون، يفصله مما ليس بموزون من القول الموزون وغير الموزون)).

ج – ((وقولنا – مقفّى: فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع)).

د – ((وقولنا يدل على معنى – يصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى، مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى)).

٧ – ثم ينتقل إلى الحد الثاني للشعر فيرى أن الشعر صناعة: ((للشعر صناعة والغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال)). ثم وضع لصناعة الشعر طرفين:

أ – غاية الجودة.

ب – وغاية الرداءة وما بينهما وسماها قدامة (الوسائط) ثم شرح فكرته بأسلوب المنطق الشكلي صفات الجودة وصفات الرداءة وصفات الوسطية. ((وما يجتمع فيه من الحالتين –

الجودة والرداءة – يكون الحكم عليه – بحسب قربه من الجيد أو من الرديء أو وقوعه في الوسط)) مثلما يقال: المزّ هو وسط بين الحلو والحامض إلا أنه لا حلو ولا حامض.

ثم ينتقل إلى المعاني فيرى أن المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها)).

وهنا نلاحظ الفكرة الأفلاطونية وتأثره بها.

ويلغي قدامة بعض تناقضات الشاعر ويصفها بأنها مشروعة ((كأن يصف الشاعر وصفاً حسناً، ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً)). كذلك يرى أن ((ليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه)) وإنما طريقة الاستعمال هي التي تحدد ذلك، ويرى قدامة أيضاً ((لا يوصف الشاعر بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر، لا أن ينسخ ما قاله في وقت آخر)).

ومن هنا فإن – حد الشعر – عند قدامة يتكون من أربعة عناصر أساسية ((اللفظ – الوزن – القافية – المعنى)). وأربعة أخرى تنشأ عن التشكيل وعلاقة الاستعمال بين هذه العناصر في حال ائتلافها: ((ائتلاف اللفظ بالمعنى – ائتلاف اللفظ بالوزن – ائتلاف المعنى بالوزن – ائتلاف المعنى بالقافية)). وإذن يصبح لدينا ثمانية أنواع تنحصر داخلها صفات الشعر في طرفي الجودة والرداءة والوسيطة والتدرجات التي تتشكل بينها.

يقول: ((وصارت أجناس الشعر ثمانية وهي الأربعة المفردات البسائط التي يدل عليها حدة، والأربعة المؤلفات منها)). ثم يبدأ قدامة بشرح الأربعة مفردات:

أولاً - اللفظ: أن يكون سمحاً، سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة.

ثانياً - الوزن: أن يكون سهل العروض من أشعار يوجد فيها وإن خلت من أكثر نعوت الشعر.

ثالثاً - القوافي: أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج والتصريع.

رابعاً - المعاني: أن يكون المعنى موجهاً للغرض المقصود، غير عادل عن الأمر المطلوب.

((ورأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر وهما:

أ - الغلو في المعنى إذا شعر فيه.

ب - والاقتصار على الحد الأوسط فيما يقال منه))

وأغراض الشعراء هي: ((المديح - الهجاء - النسيب - المرائي - الوصف - التشبيه)).

- أغراض المعاني عند قدامة:

ثم يبدأ قدامة في شرح تفريعات أغراض المعاني:

أولاً - المديح: مدح الرجل بما هو فيه وبما يليق به.

ثانياً - الهجاء: ضد المديح ((كلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى)).

ثالثاً - المرائي: ((ليس بين المرثية والمدحة فصل، إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه هالك، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح في حياته)).

رابعاً - التشبيه: إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغايراً البتة، اتّحدا، فصار الاثنان واحداً، فبقي أن يكون التشبيه ينفرد كل واحد منهما بصفتهما وإذ كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيهما حتى يدني بهما إلى حال الاتّحاد.

خامساً - الوصف: هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات. وأحسن الشعراء من أتى في شعره بأكثر من المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحيكه بشعره ويمثله للحسن بنعته.

سادساً - النسيب: هو ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن. أما الغزل فهو التصابي والاستهتار بمودات النساء. أما النسيب فهو ما كثرت فيه الأدلة على

التهالك في الصبابة وما كان فيه من التصابي والرقة والخشوع والذلة والرخاوة والوجد واللوعة.

- صفات تعم جميع المعاني الشعرية:

١ – صحة التقسيم – أن يبتدئ الشاعر فيضع أقساماً فيستوقفها ولا يغادر قسماً منها.

٢ – صحة المقابلة – أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة فيأتي بالموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة.

٣ – صحة التفسير – أن يضع الشاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصنفه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ولا يزيد أو ينقص.

٤ – التتميم – أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئاً إلا أتى به.

٥ – المبالغة – أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد.

٦ – التكافؤ – أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمه ويتكلم فيه، أي معنى كان يأتي بمعنيين متكافئين أي متقابلين إما من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل.

٧ – الالتفات – أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدمه فإما أن يذكر سببه أو يحل الشك فيه.

- نعوت عناصر الشعر الأربعة المركبات:

١ - ائتلاف اللفظ مع المعنى:

ومن أنواعه:

أولاً – المساواة: هو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً، فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر.

ثانياً – الإشارة: أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها كما وصف أحدهم البلاغة فقال: هي لمحة دالة.

ثالثاً – الإرداف: أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني، فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع.

رابعاً – التمثيل: أن يرى الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه.

خامساً – المطابق.

سادساً – المجانس.

٢ - ائتلاف اللفظ والوزن: هو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بنيت لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها وهي الأقوال على ترتيب ونظم لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره. وأن لا يكون الوزن قد اضطر إلى إدخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجاً إليه حتى إذا حذف لم تنقص الدلالة.

٣ - ائتلاف المعنى والوزن:

أن تكون المعاني تامة مستوفاة لم تضطر بإقامة الوزن إلى نقصها عن الواجب ولا إلى الزيادة فيها عليه وأن تكون المعاني أيضاً مواجهة للغرض، لم تمتنع عن ذلك وتعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب لصحته.

٤ - ائتلاف المعنى والقافية:

هو مع ما يدل عليه سائر البيت أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملائمة لما مر فيه من أنواع الائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر معنى البيت مثل:

أولاً – التوشيح: أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ومعناها متعلقاً به حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي لبيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته.

ثانياً – الإيغال: هو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية في ذكره صنع، ثم يأتي بها لحاجة الشعر يزيد بمعناها في تجويد ما ذكره من المعنى في البيت.

عيوب الشعر:

يعدد قدامة عيوب الشعر بأنها عيوب ترجع إلى العناصر الأربعة المفردة:

أولاً – عيوب اللفظ: المعاظلة.

ثانياً – عيوب الوزن.

ثالثاً – عيوب القافية: التجميع – الإقواء – الإيطاء – الإسناد.

رابعاً – عيوب المعاني وهي:

١ – عيوب المديح.

٢ – الهجاء.

٣ – المرائي.

٤ – التشبيه.

٥ – الوصف.

٦ – الغزل.

٧ – والنسيب.

- وهناك عيوب عامة في المعاني منها:

١ – فساد التفسير.

٢ – الاستحالة والرفض.

٣ – إيقاع الممتنع في المعاني في حال ما يجوز وقوعه.

٤ – مخالفة العرف.

٥- أن ينسب إلى الشيء ما ليس فيه وله.

وهناك عيوب ترجع إلى العناصر الأربعة المركبة:

أولاً - عيوب ائتلاف اللفظ والمعنى:

١ - الإخلال.

٢ - التطويل لغير فائدة.

ثانياً - عيوب ائتلاف اللفظ مع الوزن:

١ - الحشو.

٢ - التثليم.

٣ - التذنيب.

٤ - التغيير.

٥ - التعطيل.

ثالثاً - عيوب ائتلاف المعنى والوزن:

١ - المقلوب.

٢ - المبتور.

رابعاً: عيوب ائتلاف المعنى والقافية:

التكلف في طلب القافية.

٢ - الإتيان بالقافية من أجل السجع.

- ٧ -

الفارابي
رسالة في قوانين
صناعة الشعراء

يعتبر كتاب الفارابي مزيجاً من آراء: أرسطو وثامسطيوس والفارابي نفسه:

أ - الأقاويل الشعرية:

١ - إن الألفاظ لا تخلو من أن تكون:

أ - إما دالة.

ب - وإما غير دالة.

٢ - والألفاظ الدالة:

أ - منها ما هي مفردة.

ب - ومنها ما هي مركبة.

٣ - والمركبة:

أ - منها ما هي أقاويل.

ب - ومنها ما هي غير أقاويل.

٤ - والأقاويل:

أ - منها ما هي جازمة.

ب - ومنها ما هي غير جازمة.

٥ - والجازمة:

أ - منها ما هي صادقة.

ب – ومنها ما هي كاذبة.

٦ – والكاذبة:

أ – منها ما يوقع في ذهن السامعين الشيء المعبَّر عنه بدل القول.

ب – ومنها ما يوقع فيه المحاكي للشيء.

ب - وهذه هي الأقاويل الشعرية:

المحاكاة والمغلِّط: تختلفان في وجوه:

منها أن غرض المغلِّط غير غرض المحاكي إذ المغلِّط هو الذي يغلِّط السامع إلى نقيض الشيء حتى يوهمه أن الموجود غير موجود وأن غير الموجود موجود. فأما المحاكي للشيء، فليس يوهم النقيض، لكن التشبيه، ويوجد نظير ذلك في الحس، وذلك أن الحال التي توجب إيهام الساكن أنه متحرك هي الحال المغلِّطة للحس، فأما الحال التي تعرض للناظر في المرائي والأجسام الصقيلة فهي الحال الوهمية شبيه الشيء.

ج - تقسيم الأقاويل بقسمة أخرى:

١ – القول لا يخلو من أن يكون:

أ – إما جازماً.

ب – وإما غير جازم.

٢ – والجازم:

أ – منه ما يكون قياساً.

ب – ومنه ما يكون غير قياس.

٣ – والقياس:

أ – منه ما هو بالقوة.

ب – ومنه ما هو بالفعل.

٤ – وما هو بالقوة:

أ – منه ما هو بالفعل.

ب – ومنه ما هو بالقوة:

٥ – وما هو بالقوة:

أ – إما أن يكون استقراء.

ب – وإما أن يكون تمثيلاً.

والتمثيل أكثر ما يستعمل إنما يستعمل في صناعة الشعر.

فقد تبين أن القول الشعري هو التمثيل.

د - القياسات والأقاويل بقسمة أخرى:

إن الأقاويل:

١ – إما أن تكون صادقة لا محالة بالكل.

٢ – وإما أن تكون كاذبة لا محالة بالكل.

٣ – وإما أن تكون صادقة بالأكثر كاذبة بالأقل.

٤ – وإما عكس ذلك.

٥ – وإما أن تكون متساوية الصدق والكذب.

٦ – فالصادقة بالكل لا محالة هي البرهانية.

٧ – والصادقة بالبعض على الأكثر فهي الجدلية.

٨ – والصادقة بالمساواة هي الخطيبة.

٩ – والصادقة في البعض على الأقل فهي السوفسطائية.

١٠ – والكاذبة بالكل لا محالة هي الشعرية.

فالقول الشعري:

١ – هو الذي ليس بالبرهانية ولا بالجدلية ولا الخطابية ولا المغالطية.

٢ – القياس، أو ما يتبعه من الاستقراء والمثال والفراسة.

هـ - تنوع الأقاويل: إن الأقاويل الشعرية:

١ – إما أن تتنوع بأوزانها.

٢ – وإما أن تتنوع بمعانيها.

و - أنواع الشعر:

يقدم الفارابي أنواعاً من الشعر اليوناني والأقاويل المنسوبة إلى الحكيم أرسطو في صناعة الشعر وإلى غيره من القدماء. ومن هذه الأنواع:

١ – والشعراء إما أن يكونوا ذوي جبلة وطبيعة متهيئة لحكاية الشعر ولهم يأتي جيد للتشبيه والتمثيل ولا يكونوا عارفين بصناعة الشعر على ما ينبغي، بل هم مقتصرون على جودة طباعهم وتأتيهم وهؤلاء عدموا من كمال الرؤية والتثبت في الصناعة.

٢ – وإما أن يكونوا عارفين بصناعة الشعر حق المعرفة وهؤلاء هم المستحقون اسم الشعراء القياسيين.

٣ – وإما أن يكونوا أصحاب تقليد لهاتين الطبقتين ولأفعالهما. وهؤلاء أكثرهم زللاً.

ثم يورد الفارابي ملاحظتين:

الأولى: جودة التشبيه: أن تكون المشابهة قريبة ملائمة.

الثانية: أن بين أهل صناعة الشعر وبين أهل صناعة التزويق مناسبة وكأنهما مختلفان في مادة الصناعة ومتفقان في صورتها وفي أفعالها وأغراضها.

إن الفارابي يلخص آراء أرسطو ويقوم بتعديلها وتخرج ببعض الملاحظات:

أولاً: ينطلق الفارابي من مقولات أرسطو حول تحديد أنواع الخطاب فالأقاويل كمصطلح تعادل الخطاب يعادل الخطاب الكلامي بأنواعه.

ثانياً: الخطاب الشعري هو أقاويل كاذبة كلها لا محالة. والخطاب الشعري يعادل الشعرية، فالشعرية جزء من الخطاب الكلامي.

ثالثاً: الدلالة عنصر من عناصر الخطاب الشعري: كذلك المشابهة والمحاكاة، فالقول الشعري هو التمثيل.

رابعاً: فصل الخطاب الشعري (الشعرية) عن الخطاب البرهاني، والخطاب الجدلي، والخطاب الخطابي، والخطاب السوفسطائي انطلاقاً من مسألة الصدق والكذب.

خامساً: الشعر صناعة قياسية.

- ٦ -

أبو حيان التوحيدي

(٣١٢ - ٤١٤ هـ)

الإمتاع والمؤانسة

أ - في المقابسات يلقي أبو حيان سؤالاً على - أبي سليمان حول النظم والنثر، ويجيب أبو سليمان: (النظم أدل على الطبيعة؛ لأن النظم من حيز التركيب. والنثر أدل على العقل؛ لأن النثر من حيز البساطة).

ب - وحين سأل أبو حيان: (لم لا يطرب النثر كما يطرب النظم؟) يجيب: ((لأننا منتظمون فما لاءمنا أطربنا، وصورة الواحد فينا ضعيفة ونسبتنا إليه بعيدة)).

رؤى أبي حيان في الإمتاع والمؤانسة:

أولاً: قد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ وينتثر النظم كما ينتظم النثر)).

ثانياً: يستغني قارض الشعر بالطبع عن علم العروض.

ثالثاً: صحيح الكلام من سقيمه، يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف وفاسد المعنى من صالحه، يعرف بالعقل.

رابعاً: إذا عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن. أراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون. فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك.

خامساً: إن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها.

سادساً: وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه.

سابعاً: النقد هو الكلام على الكلام، ومن الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال ومنه ما هو مستقيم قبيح ومنه ما هو محال كاذب ومنه ما هو خطأ.

ثامناً: الكلام ينبعث في أول مبادئه إما عن عفو البديهة وإما من كد الروية، وإما أن يكون مركباً منهما وفيه قواهما بالأكثر والأقل.

تاسعاً: المعاني المعقولة بسيطة في بحبوحة الناس، لا يحوم عليها شيء قبل الفكر وإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ألقى ذلك إلى العبارة. والعبارة تتركب بين وزن هو النظم للشعر وبين وزن هو سياقة الحديث.

عاشراً: قالت العرب: ((خير الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام)). وقال أعرابي للأخفش: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا)).

أحد عشر: ((فأما بلاغة الشعر أن يكون نحوه مقبولاً، والمعنى من كل ناحية مكشوفاً واللفظ من الغريب بريئاً والكناية لطيفة والتصريح احتجاجاً والمؤاخاة موجودة والمواءمة ظاهرة. وأما بلاغة النثر أن يكون اللفظ متناولاً والمعنى مشهوراً، والتهذيب مستعملاً، والتأليف سهلاً والمراد سلياً، والرونق عالياً والحواشي رقيقة، والصفائح مصقولة والأمثلة خفيفة المأخذ)).

- مراتب النظم والنثر عند أبي حيان:

يورد أبو حيان التوحيدي الفوارق التالية بين النظم والنثر:

أولاً:

أ – الإنسان – في أول حالة من لدن طفولته – ينطق بالمنثور.

ب – والمنظوم: صناعي داخل في حصار العروض وأسر الوزن وقيد التأليف مع توقّي الكسر واحتمال أصناف الزحاف.

ثانياً:

النظم قد سبق العروض بالذوق، والذوق طباعي.

ب – وقيل: الذوق وإن كان طباعياً فإنه مخدوم بالفكر، كما أن الإلهام مستخدم للفكر، والإلهام مفتاح الأمور الإلهية.

ثالثاً: ((أ – من شرف النثر أنه مبرأ من التكلف)).

ب – وعكسه الشعر.

رابعاً: قال عيسى الوزير: ((أ – النثر من قبل العقل

ب – والنظم من قبل الحس)).

خامساً: ((أ – النثر كالحرة

ب – والنظم كالأمة)).

سادساً:

أ – لشرف النثر قال تعالى: ((إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً))

ب – ولم يقل لؤلؤاً منظوماً.

سابعاً: قال أحمد بن محمد: ((أ – الكلام المنثور أشبه بالوشي

ب – والمنظوم أشبه بالمنير المخطط)).

ثامناً: قال ابن هندو الكاتب: ((أ – المنظوم فيه نثر من وجه،

ب – والمنثور فيه نظم من وجه،

ولولا أنهما يستهمان هذا النعت لما ائتلفا ولا اختلفا)).

تاسعاً: قال السلامي: ((أ – من فضائل النظم صار لنا صناعة برأسها وتكلم الناس في قوافيها وما

ب – هكذا النثر)).

وقال أيضاً: ((أ – من فضائل النظم أنه لا يغني ولا يحدى إلا بجيده)).

عاشراً:

أ – صورة المنظوم محفوظة.

ب – وصورة المنثور ضائعة.

قال ابن نباتة: ((أ – من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا به والحجج لا تؤخذ إلا منه. فالشاعر هو صاحب الحجة والشعر هو الحجة)).

والنقطة الثامنة حول التقارب بين المنظوم والمنثور قد أيّدها بعد ذلك الحاتمي في ((حلية المحاضرة)) حيث قال: (أ – المنثور: مطلق من عقال القوافي فإذا صفا جوهره وطاب عنصره ولطفت استعارته ورشقت عبارته كاد

ب – يساوي المنظوم)).

- ٧ -

القاضي الجرجاني
((الوساطة بين المتنبي وخصومه))

أ- رؤى جرجانية:

١ - يبدأ الجرجاني بوضع نموذجه التصوري الأول انطلاقاً مما قال القدماء: (وما كان القدماء يتبعونه في أشعار الأوائل من لحن وغلط وإحالة وفساد معنى).

٢ - ويعتذر القاضي الجرجاني مستدركاً ومؤكداً ((وليس يجب إذ رأيتني أمدح محدثاً أو أذكر محاسن حضري أن تظن بي الانحراف عن متقدم أو تنسبني إلى الغض من بدوي، بل يجب أن تكشف عن مقصدي منه)).

٣ - هكذا يحدد منهجه في مسألة القديم والجديد والبدوي والحضري الأعرابي والمولد ويواصل قوله: ((الشعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه. فمن اجتمعت به هذه الخصال فهو المحسن المبرز. ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر)).

٤ - وهكذا يحدد موقفه بين القديم والجديد دون أن يفضل أحدهما عن الآخر لذاته، ثم يدلل بالتطبيق: ((لذلك تجد شعر عدي - وهو جاهلي - أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية وهما آهلان، لملازمة عدي الحاضرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب)).

ثم ينظر الجرجاني للمسألة من زاوية أخرى: ((ونرى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم)).

٥ - ثم يشرح الجرجاني أسباب اختلاط مقاييس الشعرية فالعرب حين انتقلوا من البداوة إلى الحضارة ((تجاوزوا في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن، وحتى خالطتهم

الركاكة والعجمة، وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق. وكسوا معانيهم ما سنح من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين بها اللين فيظن ضعفاً)).

٦ – يعلق على بيت لأبي تمام:

جهميـــــة الأوصـــــاف إلا أنهـــــم قـــــد لقبوهـــــا جـــــوهر الأشـــــياء

يقول الجرجاني: (هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطو من هذا البيت)). ولكنه يستدرك ((فلا تظن أني أريد بالسمح السهل – الضعيف الركيك)) ولا باللطيف الرشيق – الخنث المؤنث، بل أريد النمط الأوسع: ما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن البدوي الوحشي. ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً)) ولكن هل يتناقض عمود الشعر مع الجناس والطباق إذا صدر عن الشاعر بعفوية كما في الشعر الجاهلي؟

٧ – الجرجاني يرى ذلك وإن كان يعني التقصد كما في الشعر المحدث: ((ولم تكن العرب تعبأ بالتجنيس حول التقارب بين المنظوم والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض)).

ب- عمود الشعر الجرجاني:

أولاً: كانت العرب تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته.

ثانياً: جزالة اللفظ واستقامته.

ثالثاً: تسلل السبق به لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر.

رابعاً: لمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته.

خامساً: والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور.

وهذه الصفات لعمود الشعر هي الصفات نفسها التي طرحها من سبقوا القاضي الجرجاني.

ج- علاقة الشعر بالدين:

يناقش القاضي الجرجاني مسألة في غاية الخطورة والحساسية وهي - علاقة الشعر بالدين. وإذا كنا قد رأينا أن أبا بكر الصولي قد وضعها في مكانها الصحيح فإن الجرجاني وضعها في المكان الأكثر صحة، والأهم من ذلك أن الجرجاني - أحد القضاة المشهورين، وبالتالي فإن ملاحظة محيي الدين صبحي من أن شهادة الجرجاني حول علاقة الدين بالشعر هي إضافة لكونها رأياً نقدياً (هي فتوى شرعية) ملاحظة صحيحة.

قال الجرجاني (القاضي):

((فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره، إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالذكر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأحزابهما ممن تناول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعاب من أصحابه بكماً خرساً وبكاء مفحمين، ولكن الأمرين متباينان: والدين بمعزل عن الشعر)).

هذه الفتوى الشرعية لا تعني - كما يتوهم البعض - فصل الشعر عن الإيدولوجيا باعتبار الدين جزءاً من الإيدولوجيا، ولكنها تساوي بين الإيمان بالشيء والكفر به في المادة الشعرية كمادة خام، إذ إن العامل المقرر في المسألة الشعرية ليس الكفر والإيمان، وإنما كيف يتم استخدامهما من الناحية الشعرية وليس من الناحية الأخلاقية.

د- السرقات الشعرية:

يتطرق الجرجاني لقضية أخرى مهمة هي قضية (السرقات الشعرية) يضعها في سياقها الصحيح بما يشبه مفهوم (التناص) المعاصر.

يقول الجرجاني:

أولاً: ((متى نظرت رأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبحر والجواد بالغيث والبحر، والبليد البطيء بالحجر والحمار، والشجاع بالسيف...إلخ. أمور متقررة في النفوس متصورة للعقول يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم، حكمت بأن السرقة عنها منتفية)).

ثانياً: قال: ((سألت الشافعي عن مسألة فقال: إني لأجد بيانها في قلبي ولكن ينطلق به لساني)).

ثالثاً: ((والسرقة داء قديم وعيب عنيف. وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه وكان أكثره ظاهراً كالتوارد، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغير المنهاج والترتيب)).

إذن: ((فالمشتركات البديهية وتوارد الخواطر ليست من السرقة، أما الإخفاء بالنقل والقلب والترتيب وتغيير المنهاج فهي السرقة)).

إلا أن القاضي الجرجاني يعود ليضع القديم نموذجاً له ((فلكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها)) ولكن من زاوية أخرى يمكن النظر إلى ذلك من أن القاضي الجرجاني يرى أن الشعرية علم ذو أصول وقواعد معروفة. وفي النهاية يصف الجرجاني المعترضين على منهجه النقدي بأنهم: ((إما نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر. أو معنوي مدقق لا علم له بالإعراب ولا اتساع له في اللغة)).

- ٨ -

المرزوقي
((عمود الشعر))

أولاً - انفتاح جديد على النقد:

تتحدد في عمود الشعر مفاهيم الشعر أكثر بحيث لم يعد الكلام في البدهيات جائزاً، ونقرأ أيضاً تعريفات للشعر لمجموعة من الشعراء مثل:

١ - المرتضى الذي يقول:((حظ اللفظ في الشعر أقوى من حظ المعنى)).

٢ - ونقرأ رأياً معاكساً للرضي: ((إن الألفاظ خدم للمعاني؛ لأنها تعمل في تحسين معارضها وتنميق مطالعها))، وهكذا تبقى قضية الألفاظ والمعاني مفتوحة.

٣ - أما أبو العلاء المعري، فيرى:

أ - أن الشعر((كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس))

ب - ويقول أيضاً: ((الشعر قرآن إبليس والرجز أخفض طبقة)).

ج - يهاجم المعري التكسب بالشعر: ((الشعر إذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنسب)).

د - و((إذا رأيت الشاعر فلا تقل: (والشعراء يتبعهم الغاوون) - فإن الآية وصلت باستثناء فلا تجهلوا فضيلة الشعر)).

ثانياً - المرزوقي الناقد:

إلى أن نصل إلى المرزوقي (٤٢١ هـ) الذي حدد مفاهيم الشعر أكثر واشتهر بأنه صاحب - **نظرية عمود الشعر** - وإن طرحها قبله البحتري والآمدي والقاضي والجرجاني، إلا أنه كان أكثرهم وضوحاً وشرحاً في مقدمته لديوان الحماسة.

أ - وهذه هي **عناصر عمود الشعر** كما حددها المرزوقي:

١ – شرف المعنى وصحته.

٢ – جزالة اللفظ واستقامته.

٣ – الإصابة في الوصف.

٤ – المقاربة في التشبيه.

٥ – التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن.

٦ – مناسبة المستعار منه للمستعار له.

٧ – مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما.

ب - وعيار هذه العناصر هي:

١ – عيار المعنى: العقل الصحيح والفهم الثاقب.

٢ – عيار اللفظ: الطبع والرواية والاستعمال.

٣ – عيار الوصف: الذكاء وحسن التمييز.

٤ – عيار التشبيه الفطنة وحسن التقدير.

٥ – عيار التحام أجزاء النظم: الطبع واللسان.

٦ – عيار الاستعارة: الذهن والفطنة.

٧ – عيار مشاكلة اللفظ للمعنى: طول الدربة ودوام المدارسة.

هذا هو عمود الشعر كما يحدده المرزوقي.

ج - شرح الحمروني لنظرية المرزوقي:

ويشرح الطاهر الحمروني نظرية المرزوقي بلغة المرزوقي:

١ – قضية اللفظ والمعنى:

إن أنصار اللفظ ثلاث فئات:

أ – فئة تصرف اهتمامها إلى اصطفاء اللفظ واعتباره من حيث سلامة التركيب والابتعاد عن الخطأ واللحن.

ب – فئة ثانية تجاوزت ذلك إلى الإعراب وطلب جملة من المحسنات البلاغية.

ج – فئة ثالثة تفضل اللفظ على المعنى وتطلب البديع والتعلق بصوره المختلفة.

أما أنصار المعنى: فقد كانوا أشد حماساً له.

يقول المرزوقي:

١ – ((ومتى اعترف اللفظ والمعنى فتعانقا وتلابسا متظاهرين في الاشتراك وتوافقا)) فهذا هو الصحيح.

٢ – ((أضاف المرزوقي لمقولتي الكذب والصدق)) مقولة ثالثة ((الاقتصاد)).

٣ – الشعر عند المرزوقي: ((وليد جيشان في النفس وحركة في القريحة تتعارض في إبراز شعب المعرفة ومكتسبات العلوم والمطبوع منه لا يأتي ارتجالاً ولا عفوياً، بل لابد له من الرواية والحفظ والسماع والمدارسة حتى يأتي على لسان الشاعر مهذباً شريفاً عذب اللفظ لطيف المعنى)).

- ٩ -

عبد القاهر الجرجاني

((نظرية النظم))

أولاً - العرب أول من وضع البنيوية:

١ - يمكن اعتبار عبد القاهر من خلال نظريته في النظم أول بنيوي عربي كما يؤكد أكثر من باحث معاصر.

٢ - يقول مصطفى الجوزو: إن النظم عند عبد القاهر هو وضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو.

٣ - والنحو هنا لا ينحصر بالإعراب، بل يشمل كذلك علم المعاني والبلاغة والبيان والبديع ويدور حول الشكل، لا المعنى فيتناول الصناعة والاختيار والتحسين.

٤ - والشكل لا يتعلق باللفظ المفرد، بل بموقعه في الجملة ولا بالجملة برأسها، بل بائتلافها مع جاراتها.

٥ - فالجرجاني كما يقول الجوزو ينظر إلى المجموعة أو ما يسمى في أيامنا بالبنية، لا إلى المفردات، ولهذا قد يصح أن نعده بحق - أبا المدرسة البنيوية.

٦ - ويقول إحسان عباس: كانت نظرية النظم (أو التأليف) عند عبد القاهر إنكاراً لتلك الثنائية. أي أن يعني الناقد برؤية الصورة مجتمعة من الطرفين معاً، دون إنكارا لتلك الثنائية، دون فصل بينهما.

٧ - لقد أصبح مصطلح (المعنى) لديه يعني الدلالة الكلية المستمدة من الوحدة.

٨ - ثم انتقل من تفاوت الدلالات إلى مرحلة لم ينتبه إليها أحد قبله من النقاد. إلا وهي **معنى المعنى**.

٩ – يقول عبد القادر في أسرار البلاغة: وإذا عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: **المعنى ومعنى المعنى**. تعني بالمعنى بالمفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة. وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر)).

١٠ – وفي كتابه ((دلائل الإعجاز)) مجموعة من الأفكار الأساسية:

أولاً: يقول: ((ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة)).

ثانياً: تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف. وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلُّق اسم باسم وتعلُّق فعل بفعل وتعلُّق حرف بهما. ولا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لابد من مسند ومسند إليه، وكذلك السبيل في كل حرف يدخل على جملة.

ثالثاً: إن الألفاظ لا تفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مجردة، وإن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها. ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر والألفاظ تابعة والمعاني متبوعة.

رابعاً: في نظم الكلم – تقتفي الحروف في نظمها – أثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس. فهو نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظير النسيج والتأليف والصناعة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع، علّة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح والفائدة في معرفة هذا الفرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل.

خامساً: النظم صنعة يستعان عليها بالفكرة. ومحال أن تفكر في شيء وأنت لا تضع فيه شيئاً وإنما تضعه في غيره لو جاز لك ذلك، لجاز أن يفكر البناء في الغزل ليجعل فكره فيه

وصلة إلى أن يصنع من الآجر، وهو من الإحالة المفرطة. واعلم أن ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكنه شيء بسبب الأول ضرورة، من حيث أن الألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها. فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق. فإما أن تتصور في الألفاظ أن تكون مقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن.

سادساً: إن النظم لا يكون في الكلم، حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضه على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك. ولما كانت المعاني إنما تتبين بالألفاظ وكان لا سبيل للمرتب لها والجامع شملها إلى أن يعلمك ما صنع في ترتيبها بفكره، إلا بترتيب الألفاظ في نطقه، تجوزوا فكنوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ؛ ثم بالألفاظ بحذف الترتيب، ثم اتبعوا ذلك من الوصف والنعت ما أبان الغرض وكشف المراد.

سابعاً: النظم هو: توخي معاني النحو في معاني الكلم إن الشعر لا يختص بقائه من جهة نفس الكلم وأوضاع اللغة. فالحلي لا تختص بصائغها من حيث الفضة والذهب، ولكن من جهة العمل والصنعة. فالاستعارة في أصلها مبتذلة معروفة وإنما كان ما ترى من الحسن، بالمسلك الذي سلك في النظم والتأليف. فالشعر كما قال الجاحظ: ((صياغة وضرب من التصوير)).

ثامناً: لا يصلح تقدير الحكاية في النظم والترتيب: بل لن تغدو الحكاية الألفاظ وأجراس الحروف، وذاك أن الحاكي هو من يأتي بمثل ما أتى به المحي عنه، ولابد أن تكون حكايته فعلاً له وأن يكون بها عاملاً عملاً مثل عمل المحكي عنه، نحو أن يصوغ إنسان خاتماً يبدع فيه صنعة ويأتي في صناعته بخاصة تستغرب، فيعمد آخر يعمل خاتماً على تلك الصورة والهيئة ويجيء بمثل صنعته فيه، ويؤدّيها كما هي فيقال: إنه قد حكى عمل فلان وصنعة فلان.

تاسعاً: التخييل هو: ((ما يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصلها ويقول قولاً لا يخرج فيه نفسه ويريها ما لا ترى (أنه) خداع للعقل وضرب من التزويق.

عاشراً: وراوي الشعر حاك، وليس على الحاكي عيب ولا عليه تبعة، إذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً أو يسوء مسلماً وقد حكى الله تعالى كلام الكفار، فانظر إلى الغرض الذي له روي الشعر ومن أجله أريد.

ملاحظات حول أفكار عبد القاهر الجرجاني:

١ – استخدم عبد القاهر المصطلحات التالية: (التأليف – الصياغة – الباني – الاتحاد – الكلام – التغيير – الإبدال – التحويل – الصورة – الفكر – الحكاية – المرتب – الجامع – الترتيب – التخييل – الإحالة – المسند والمسند إليه – التوالي – النفس – العقل – المعنى – اللفظ – الصنعة – الهيئة – الدال والمدلول والدلالة – التناسق – التعليق – الجملة – الملائمة – معنى المعنى – التحسين – الواسطة – الإفضاء... إلخ).

هذا القاموس المنحوت من الخبرة بعلم الشعر وعلم النظم يوحي لنا – بعد أن نضعه في السياق – بالتأثير الواضح لقاموس عبد القاهر النقدي في الدراسات العربية المعاصرة.

٢ – نظر الجرجاني إلى النص الشعري على أنه مجموعة من البنى لا قيمة لإحداها دون الأخرى. والأهم من ذلك ليس التعرف على البنى وإنما تحديد ماهية العلاقة بينها.

٣ – تجاوز المرحلتين التقليديتين:

أ – المعنى الظاهري.

ب – والمعنى الباطن.

إلى سلسلة لا نهاية لها من المعاني

٤ – كسر ثنائية الألفاظ والمعاني وأقام بدلاً منها بناءً جديداً شاملاً.

٥ – هناك كينونة للألفاظ قبل استعمالها تختلف عن كينونتها بعد الاستعمال حيث تنتقل من الثبات إلى التحويل.

٦ – ربط النظم بالصنعة والحالة النفسية معاً.

٧ – الفصاحة ليست في الألفاظ ((وإنما هي في تلك العملية الفكرية التي تضع تركيباً من عدة ألفاظ)). كما يلاحظ إحسان عباس على أفكار الجرجاني.

٨ – الجملة هي الأصل الجزئي وليس اللفظ.

٩ – إن مفهوم الشعرية هنا يشمل الشعر والنثر.

١٠ – شعرية عبد القاهر هي شعرية الكتابة والتأليف والنظم.

١١ – والنظم نفسه يعني صناعة وتأليف الكتابة

- ١٠ -

عبد الكريم النهشلي
((الممتع في صنعة الشعر))

قدم النهشلي (النصف الأول من القرن الخامس الهجري) مجموعة من الملاحظات المتناثرة ومنها:

أولاً: وظيفة الشعر:

كم من عسير كان الشعر فرج يسره، ونار حرب أطفاها وغضب برده وحقد سله وغناء اجتلبه:

١ - قُتل النضر بن حارث على الشرك، فرأت قتيلة بنت النضر، الرسول (صلى الله عليه وسلم) يطوف بالبيت فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها، وبعد أن سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) القصيدة، قال: ((لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته)).

٢ - وفي قصة أخرى أن عبد الله بن الزبير قد كسا من كان بمكة من الشعراء، ولم يكس الشاعر أبا العباس ابن الأعمى لقربه من بني أمية واتصاله بهم.

ثانياً: ماهية الشعر:

١ - لما رأت العرب المنثور يندّ عليهم ويتفلت من أيديهم ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم تدبروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستوياً، ورأوه باقياً على مر الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعراً.

٢ - والشعر عندهم فطنة.

٣ - وقالوا: اللسان البليغ والشعر الجيد لا يجتمعان إلا قليلاً.

٤ - وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة القلم وبلاغة الشعر.

ثالثاً: التكسب:

١ - الشاعر عند العرب أفضل من الخطيب، وكانت تهنأ بالشاعر إذا نبغ.

٢ - إلا أن المحدثين أخرجوه عن جده، وجعلوه مكتسباً.

٣ - حتى قالوا: الشعر أدنى مروة السرى وأسرى مروة المنى.

٤ - وكانت العرب تأنف عن الطلب بالشعر.

رابعاً: أهمية الشعر:

١ - لا ينبغي لعاقل أن يتعرض الشاعر، فربما كلمة جرت على لسانه فصارت مثلاً آخر الأبد.

٢ - وكانت العرب إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق لا يهجوهم؛ لأن أكرم العرب في أنفسها يشتد تخوفاً من الهجاء. ولو لم تضمن (هذه الفعالة في الشعر) لذهبت مع ما ذهب من سائر المنثور.

٣ - ونجد أن ابن رشيق في (العمدة) يتبنى تعريف النهشلي للشعر كما يقول إحسان عباس.

وفيما يلي بعض الآراء لابن رشيق:

أولاً: اجتمع الناس على قبح الكذب ولكنهم وجدوا الكذب في الشعر حسناً.

ثانياً: ليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه، كالذي لفظه سائر في كل الأرض معروف بكل مكان.

ثالثاً: البيت من الشعر كالبيت من الأبنية، قراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه العلم وبابه الدراية وسانده المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون.

رابعاً: إذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه: أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة. فاللفظ - كما يقول ابن طباطبا - ((جسم وروحه المعنى)).

خامساً: خفاء الصنعة: إن صنعة ابن المعتز الشعرية خفية لطيفة، لا تكاد تظهر في بعض المواضع.

سادساً: الفقر آفة الشعر.

سابعاً: من العرب من يختم القصيدة يقطعها والنفس بها متعلقة وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة.

ثامناً: المطيل من الشعراء أهيب في النفوس من الموجز.

تاسعاً: التجربة: وصفة الإنسان ما رأى يكون لا شك أصوب من صفته ما لم ير، وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر.

عاشراً: السرقات: آخر مظهر من مظاهر السرقات هو ما سماه (التلفيق) كما يقول إحسان عباس: وهو أن يأخذ الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها معنى مؤكداً يكون له كالاختراع، وينظر به جميعها فيكون وحده مقام جماعة من الشعراء وهو مما يدل على حذق الشاعر وفطنته ((ولم أر ذلك أكثر منه في شعر أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري فإنهما بلغا فيه كل غاية)).

الباب الرابع والعشرون

الفصل الثالث

من رموز النقد في العصر العباسي

أولاً - ابن قتيبة

أ - المؤلف:

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أحد العلماء الأدباء النقاد كان إماماً في اللغة والأدب وأخبار الناس وأيامهم متفنناً فيها صادقاً فيما يرويه عالماً بدقيق الشعر ومعانيه.

اختلف في مولده، فقال بعض العلماء: إنه ولد في الكوفة وقال آخرون: إن مولده في بغداد سنة ٢١٣هـ وقد نشأ بها وتثقف على أهلها وأخذ العلم عن شيوخها وقد أقام بالدينور مدة ولايته القضاء فيها فنسب إليها.

ب - شيوخه وتلاميذه:

أخذ ابن قتيبة العلم عن الجلة من علماء بغداد فحدث فيها عن الزيادي وعن إسحق ابن راهويه وأبي حاتم السجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي وحرملة بن يحيى وأبي الخطاب زياد بن يحيى وغيرهم، وممن أخذ العلم عنه ابنه أحمد بن قتيبة الفقيه الأديب وابن درستويه وعبيد الله السكري وإبراهيم الصائغ وعبيد الله التميمي وغيرهم كثير.

أجمع الذين ترجموا لابن قتيبة على أنه كان أحد العلماء الأدباء والحفاظ الأذكياء وعلى أنه كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس وغريب القرآن ومعانيه ومعاني الشعر ونقده، كثير التصنيف غزير التأليف، وقد ذكر النووي أن مؤلفات ابن قتيبة تزيد على ستين في أنواع العلوم على حين ذكر غيره أنها تبلغ زهاء ثلاثمئة مصنف وصل من هذه الكتب مجموعة

طبع بعضها وبعضها لا يزال مخطوطاً، ومنها ما يظهر أنه فقد، ألف ابن قتيبة في كثير من العلوم شأن معاصره شيخه ثم خصمه الجاحظ ألف في الحديث والكلام والفقه والأخلاق والتاريخ والنحو واللغة والأدب، وليس في هذا التنويع ما يستغرب لأن ابن قتيبة كان في عصره يمثل الأديب الحق والأدب في مفهوم العصر هو الأخذ من كل علم وفن بطرف ولهذا قال ابن قتيبة: ((من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم)).

وقد كانت لابن قتيبة عناية شديدة بالشعر والشعراء واطلاع واسع وعميق على دقائق الشعر العربي، ويبدو هذا واضحاً في مصنفه المشهور المعروف بكتاب (المعاني الكبير)،وأوجز ما يقال فيه أنه درس للأبيات الشعرية الغامضة أو الغربية وشرحها بعد أن صنفها في أبواب كثيرة وفق معانيها.

ومن هذا يتضح أن ابن قتيبة عندما ألف كتاب (الشعر والشعراء) وقدم له بهذه المقدمة المشهورة لم يكن غريباً عن ميدان الأدب والنقد فهو عالم بالشعر محب له قد وقف كثيراً من نشاطه العلمي على دراسة الأدب العربي القديم وتتبع خُطا الأدب العربي المعاصر له وجمع كثيراً من الآراء النقدية التي قيلت في هذا الأدب.

ثانياً - ابن المعتز

أ - المؤلف:

أبو العباس عبدالله بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد ولد سنة ٢٤٧هـ وقتل سنة ٢٩٦هـ.

ب - من شيوخه محمد بن عمران بن زياد وأحمد بن سعيد الدمشقي ومحمد بن يزيد المبرد والحسين بن عليل العنزي ومحمد بن هبيرة الأسدي وابن أبي فنن، جالس هؤلاء والتقى بغيرهم كأبي العباس أحمد بن يحيى المشهور بثعلب كما كان يلقي فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم، وكان ابن المعتز بالإضافة إلى عمله شاعراً مجيداً ذكر له أبو بكر الصولي شيئاً من شعره وكتب عنه كثيراً في كتابه أشعار أولاد الملوك وكان أديباً يخالط الأدباء ويناقشهم، وكانت داره مغاثاً لأهل الأدب أما حظه من السلطان فلم يكن إلا قليلاً، فقد آلت إليه مقاليد الخلافة غير أنه لم يهنأ بها ولم يتمتع بلقب الخليفة إلا يوماً أو بعض يوم.

ج - آثاره:

ذكر أصحاب الكتب التي ترجمت لابن المعتز أن له مجموعة من المؤلفات منها:

١ - كتاب الزهر والرياض.

٢ - كتاب البديع.

٣ - كتاب مكاتبات الإخوان بالشعر.

٤ - كتاب الجوارح والصيد.

٥ - كتاب أشعار الملوك.

٦ - كتاب الآداب.

٧ - كتاب حلى الأخبار.

٨ - كتاب طبقات الشعراء.

٩ - كتاب الجامع في الغناء.

١٠ - كتاب فيه أرجوزة له ذم الصبوح.

١١ - كتاب السرقات.

١٢ - وينسب إليه كتاب فصول التماثيل.

١٣ - يضاف إلى ذلك رسالة بعنوان((محاسن شعر أبي تمام ومساويه)).

ثالثاً - الآمدي

أ - المؤلف:

ولد الآمدي في أواخر القرن الثالث في البصرة ونشأ بها وكتب للقضاة من بني عبد الواحد، ثم قدم بغداد وأخذ عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج وسمع على نفطويه كتاب القوافي للمبرد سنة ٣١٣هـ وعاصر الحامض وأخذ عنه وفي بغداد كتب لأبي صقر هارون بن محمد الضبي وكان شاعراً له ديوان شعر يبلغ مئة ورقة ذكر ياقوت نماذج من شعره وقال: كان كثير الشعر حسن الطبع جيد الصنعة مشتهراً بالتشبيهات ووصف بأنه حسن الفهم جيد الرواية والدراية سريع الإدراك وبرز فيها وانتهت رواية الشعر القديم والأخبار في آخر عمره إليه ووصفه ابن النديم بأنه مليح التصنيف جيد التأليف يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب، توفي سنة ٣٧٠هـ وقيل ٣٧١ هـ والحسن بن بشر الآمدي ذروة نقاد الأدب العربي وأخلدهم في تاريخ النقد وتقوم شهرة الآمدي على تركته من التصانيف الجليلة.

ب - تصانيفه:

أُثر عنه أنه ألف أكثر من أربعة عشر مؤلفاً بعضها في النقد والأدب فمنها:

١ - كتاب المختلف والمؤتلف في تراجم بعض الشعراء.

٢ - وكتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما.

٣ - وكتاب فرق ما بين الخاص والمشترك من معاني الشعر تكلم فيه على الألفاظ والمعاني التي يشترك العرب فيها ولا ينسب مستعملها إلى السرقة.

٤ - وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين، وله كتب رد فيها على بعض النقاد.

٥ - رد على ابن طباطبا في (عيار الشعر).

٦ - رد على قدامة بن جعفر في (نقد الشعر).

٧ – رد على ابن عمار في(ما خطأ فيه أبا تمام).

٨ – الموازنة وقد كان نصيب أبي تمام والبحتري من مؤلفاته كبيراً.

٩ – وكتاب (معاني شعر البحتري).

١٠ – (تفسير الغامض من شعر أبي تمام).

رابعاً - قدامة بن جعفر

أ - المؤلـــف:

أبو الفرج بن جعفر بن زياد الكاتب البغدادي ولا يعرف له نسب فوق هذا كان قدامة نصرانياً وأسلم على يد المكتفي بالله، وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء، وممن يشار إليه في علم المنطق اشتغل قدامة كأبيه في خدمة أسرة الوزير ابن الفرات وتولى لهم الكتابة في مجلس الزمام تضاربت الآراء في جعفر بن قدامة والد قدامة هذا فبينما ينعته ابن النديم بأنه ممن لا تفكر فيه ولا علم عنده نجد الخطيب البغدادي يصفه بالعلم والأدب، ويقول عنه: إنه أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم.

ولا يكتفي بنعته بوفرة الأدب وحسن المعرفة، بل يذكر أن له مؤلفات في صنعه الكتابة وغيرها، ويذكر أنه حدّث عن أكابر العلماء والأدباء كأبي العيناء وحماد ابن إسحق والمبرد ومحمد بن عبدالله بن مالك الخزلعي وغيرهم، كان جعفر من أصدقاء ابن المعتز المقربين إليه روى عنه أبو الفرج الأصبهاني توفي سنة ٣١٠هـ ولد قدامة بن جعفر في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري، وتوفي على الأرجح سنة ٣٣٧هـ وكان كاتباً لبني بويه.

ب - شيوخـه:

لقد ضنت كتب التراجم بالحديث عن شيوخ قدامة كما ضنت بالحديث عن نسبه، فلم تذكر من هؤلاء وأولئك إلا النزر اليسير فمما نقله ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء عن أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه أن قدامة قد سأل ثعلباً عن أشياء، ثم قال ياقوت: إن قدامة أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم والأدب يومئذ طريّ فقرأ واجتهد ونقل ياقوت أيضاً عن أبي حيان أن قدامة حضر مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات وقت مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتّى المنطقي في سنة عشرين وثلاثمئة.

ج - مؤلفاته:

ذكر صاحب الفهرست أن له المؤلفات التالية:

١ - كتاب الخراج.

٢ - كتاب نقد الشعر.

٣ - كتاب صابون الغم.

٤ - كتاب صرف الهم.

٥ - كتاب جلاء الحزن.

٦ - كتاب درياق الفكر.

٧ - كتاب السياسة.

٨ - كتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام.

٩ - كتاب حشو حشاء الجليس.

١٠ - كتاب صناعة الجدل.

١١ - كتاب الرسالة في أبي علي ابن مقلة وتعرف بالنجم الثاقب.

١٢ - كتاب نزهة القلوب وزاد المسافر.

١٣ - كتاب سماه زهر الربيع في الأخبار.

١٤ - كتاب الألفاظ.

١٥ - كتاب البلدان.

د - ثقافة قدامة النقديـــة:

إن ثقافة قدامة النقدية التي اغترف منها مادة كتابه تقوم على المصدرين التاليين:

أ - الأول

- مصدر عربـي: يبدو واضحاً في الأفكار النقدية التي سبقه إليها النقاد - ابن سلام - ابن قتيبة - ابن المعتز - ثعلب - العرب كابن سلام مثلاً ففي حديث قدامة عن عيوب القوافي من إقواء وإيطاء دليل واضح على احتذائه حذو ابن سلام ومن تبعه كـابن قتيبـة في مناقـشة هـذه

المصطلحات كما أن جميع الأبيات التي استخدمها قدامة لتفسير الاستعارة في كتاب نقد الشعر ومعظم الأبيات التي أوردها لإيضاح التجنيس وردت في كتاب البديع لابن المعتز.

وعلى الرغم من أن قدامة ضنين بذكر أسماء مثل هؤلاء النقاد الذين أخذ عنهم إلا أنه يكثر من ذكر اسم ثعلب فيردده في غير موضع من كتاب نقد الشعر، وقد يكون مرد ذلك إلى أن كثيراً من الأمثلة الشعرية التي استعان بها قدامة على عرض نظرياته النقدية رواها عن شيخه ثعلب وربما أخذ عنه أيضاً تعبير (المطابق) وهو الاصطلاح الذي اشترك ثعلب وقدامة في إطلاقه على نوع من أنواع التجنيس.

ب - الثاني:

مصدر يوناني: إن ثقافة قدامة النقدية العامة وكتابه (نقد الشعر) خاصة ينمّان عن تأثر قدامة بالثقافة المعاصرة له وخاصة بآراء فلاسفة اليونان أخلاق النفس جالينوس أفلاطون، ويمكن التدليل على ذلك بشيء من آراء قدامة وأقواله وشواهد من كتابه نفسه، فقد صرح المؤلف باقتباسه من كتاب (أخلاق النفس) الجالينوس كما أن تقسيمه للفضائل التي توصف بها شخصية الأبطال الذين ورد ذكرهم في المديح والرثاء يشير فيه إلى أربع فضائل هي العقل والشجاعة والعدل والعفة وهي تتفق والفضائل الرئيسية التي ذكرها أفلاطون متأثراً بالمدرسة الرواقية وكتاب الخطابة والشعر لأرسطو ترك أثراً ملموساً في كتاب نقد الشعر.

الباب الخامس والعشرون

الحكمة العربية والإسلامية

الباب الخامس والعشرون

الفصل الأول

مذهب الأشاعرة

أولاً - نشأة الأشاعرة:

راج مذهب المعتزلة لما فيه من تأكيد على دور العقل في البحث، والاعتماد على أساليب المنطق والجدل، فمالت إليه الطباع، وكثُر أنصاره وأصبح المذهب السائد من بين المذاهب الكلامية، منذ ظهور الاعتزال على يد واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هجري) حتى عام(٢٦٠هجري)(ظهور الأشاعرة).

على أن إسراف المعتزلة في تمسكهم بالعقل تجاه أهل السَّلَف في توقفهم عن ظاهر النص، وغلوهم في استخدام السلطة لِفَرْضِ آرائهم مخالفين في ذلك أحد مبادئ مذهبهم الأساسية وهو (حرية الإنسان) مما عزز مواقف خصومهم، وبدأ عهد جديد أضعف مذهب الاعتزال، وأدى إلى تحجيم دور العقل، وتقييد حرية الفكر والبحث العلمي. قال (أحمد أمين):في رأيي أنَّ من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة، وعلى أنفسهم جنوا حين حاربوا في سبيل الحرية، وأنكروا في الوقت نفسه على من لا يعتنق مذهبهم حرية رأيه ومعتقده.

ولئن زالت المعتزلة بوصفها مذهباً فاعلاً في المجتمع العربي الإسلامي في منتصف القرن الثالث الهجري، فإن أثرها في الفكر العربي الإسلامي كان أعمق من أن يزول. ولئن قاوم خصومها النزعة العقلية المتطرفة التي نزعتها، فإنهم لم يتغلبوا عليها إلا بعد تسلحهم بسلاحها واللجوء إلى مبادئها العقلية للرد عليها.

وهكذا اتجه الفكر العربي مع المعتزلة اتجاهاً لن يحيد عنه، فاتخذ من العقل وسيلة لدعم تعاليم الدين في منهج يرضى عنه الدين، ويُعد الحد الأوسط بين التقليد الذي يتمسك بالحرف تمسكاً مطلقاً، وبين التأويل العقلي الذي يريد أن يُخضِع النص لمقتضيات العقل. وهذا الحد الأوسط أوجده مفكر نشأ على مذهب الاعتزال وتشرَّب روحه، ثم انصرف عنه ليقيم له

مذهباً خالصاً ما لبث أن أصبح هو المذهب السائد في حدود القرن الثالث للهجرة. وهذا المفكر هو "أبو الحسن الأشعري".

ثانياً - حياة الأشعري:

ولد أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحق الأشعري، وترك الصحابي الجليل "أبي موسى الأشعري"، بالبصرة عام (٢٦٠ هجري/ ٨٧٣ ميلادي) التحق منذ صباه بالمعتزلة، فدرس أصولهم على يد (الجبّائي) أشهر أئمتهم في ذلك العصر، ولازمه حتى بلغ الأربعين.

وفي هذه الفترة دافع عن الاعتزال بلسانه وقلمه، وترك في ذلك كتباً متعددة. وفي سن الأربعين احتبس في داره خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى مسجد البصرة ونادى في الناس بأعلى صوته بأنه ترك الاعتزال وتعهد بالرد عليهم ومحاربتهم. وقد تضاربت الآراء في الأسباب التي حملت الأشعري على ذلك. ولعلَّ السبب الرئيسي هو ما رآه من انشقاق في صفوف المسلمين، كان من شأنه أن يقضي على الإسلام نفسه، فهبَّ في وجه المعتزلة، وما أدى إليه مذهبهم العقلي من غلو وتطرف.

كما ناهض الأشعري الذين تمسكوا بحرفية النص دون روحه وكادوا يُفضون بالإسلام إلى حالةٍ من الجمود والتحجر لا ترضي العقل، ولا تغذي العاطفة الدينية عند المؤمنين، ودافع عن (علم الكلام) واعتبره أداة لحماية الدين وصون العقيدة من البدع والشُّبه والضلال.

وقد اتخذ موقفاً وسطاً بين أصحاب النص، وراح يُناضل في سبيل مذهبه المعتدل، ويضع الكتب في الدفاع عنه إلى أن توفاه(الله) سنة(٩٣٥ - ٩٣٦م) ومن أشهر كتبه "مقالات الإسلاميين" و"الإبانة عن أصول الديانة".

ثالثاً: ((مذهب الأشعري))

أ - مميزات مذهب الأشعري:

يتميز مذهب الأشعري عن مذهب أهل السَّلف بعدم اكتفائه بالاستشهاد بالنصوص الدينية وحدها، بل اعتمد في نصرة آرائه على العقل، واستند إلى المذاهب الفلسفية، وهو يتفق مع المعتزلة في أن البرهان المؤسس على العناصر النقلية لا يُعطينا أي يقين. ويقول أحد

أنصاره:"ظهر أن الدلائل النقلية ظنية، أو قليلة قطعية، والظن لا يُعارض القطع". إلا أن الأشاعرة – وهنا خلاف المعتزلة – يعتمدون على الوحي أكثر من اعتمادهم على العقل، بل صرح "الأشعري" بأن النظر العقلي المستقل عن الوحي لا يجوز أن يُتخذ طريقاً إلى العلم بالشؤون الإلهية، وهو وإن رأى أن العقل في وسعه أن يُدرك (الله). إلا أن هذا العقل عنده ليس إلا أداة للإدراك، أما الطريق الوحيد لمعرفة (الله) فهو الوحي، ومن هنا قيل: إن الأشعري لم يكن مجدداً مُبتكراً بقدر ما كان جمّاعاً للآراء مُوفِقاً بينها، بل إنَّ العقل عند الأشاعرة لا يجلب شيئاً من المعارف، ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً.

ب - موقف مذهب الأشعري من صفات الله:

صفات (الله) تعالى قائمة بذاته، أي أنها ليست ذاتَه، ولا غير ذاتِه. إذ لا يُتَصوَّر أن يكون (الله في ذاته) حياً بغير حياة، أو عالماً بغير علم، أو قادراً بغير قدرة، أو مُريداً بغير إرادة. بل (الله) عالم بعلم، وقادر بقدرة، وحيٌّ بحياة، ومُريداً بإرادة، وذلك لأنَّ من قال: إنه عالِم ولا علم، كان متناقضاً، وكذلك القول في القدرة والقادر، والحياة والحي...إلخ. ثم يورد الأشعري الأمثلة، أي الآيات القرآنية على ذلك: ("والله خلقكم من تراب ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه") (سورة فاطر آية – ١٠) و("إن الله عنده علم الساعة، ويُنزل الغيث، ويَعلم ما في الأرحام، وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً، وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير").(سورة لقمان آية – ٣٣)، ويُلاحظ أن هذه الآيات لا تتعارض مع ما يقوله المعتزلة. فالمعتزلة يُثبتون الصفات، ولكنهم أنكروا أن تكون مختلفة عن الذات، إنما هي الذات ؛ أما الأشعري فيقول: إنها قديمة،(فالله) قديم، باقٍ ويتصف بصفات القدرة والعلم والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام. وإذا كان (الله) أزلياً كانت صفاته أزلية، فلا يُمكن تصوّر انفصال الصفة عن ذاتها أو مغايرتها لها، كما لا يُمكن تصور انفصال بعض الصفات عن بعضها الآخر، وعلى هذا فكلام (الله) "القرآن الكريم" ليس مخلوقاً كما قالت المعتزلة، وإنما هو أزلي، وهذا ما دُعي في تاريخ الصراع الفكري والسياسي (بمشكلة خلق القرآن).

ج - نظرية الكسب، عند الأشعري:

توقف "الأشعري" عند قدرة (الله تعالى)، فقال:

إنها غير متناهية، ولا يَحـدُّها شيء، فكـل فعـل، سـواء أكـان اضـطرارياً، أو اختياريـاً،هو خالقه، لكن العبد هو الذي يتصف به، كما أن الحجرَ هو الذي يتـصف بالحركـة التـي يخلقهـا (الله) فيه. وإذا كان الأمر كذلك (فالله) هو خالق أفعال الخير وأفعال الشر، والـشر لـيس شراً بالفعل، وكذا بالعقل - كما قالت المعتزلة - بل كـما ورد في الـشرع لأنَّ (الله) وصـفه بـذلك، والخير والشر حادثان عنه تعالى؛ لأنَّ الشر مثلاً لو حدث بدون إرادته، لكـن ذلـك عـن سـهو وغفلة، أو عجز وقصور، وكل هذا لا يليق به تعالى.

ومسألة أفعال الإنسان من المسائل الرئيسة في مذهب "الأشعري"، ومذهبه فيها أن أفعال العباد مخلوقة لله، وليس للإنسان غير اكتسابها، أي أن الفاعل الحقيقي هو (الله)، وما الإنـسان إلا مُكتسِب للفعل الذي أحدثه (الله) على يديّ هذا الإنسان و(الكسب) هو تعلق قدرة العبـد وإرادته بالفعل المقدور المحدَث من (الله) على الحقيقة.

ولا يَقبل "الأشعري" بقـسمة الأفعـال إلى اضـطرارية واختياريـة، ويقـول: إن الإنـسان (يشعر) بأنَّ الحركات الإرادية تصدر عنه باختياره، وأنَّ له القدرة على القيام بها أو عدم القيام. ولكن القدرة في الإنسان شيء خارج عن الذات، زائد عليها؛ لأنها لو كانت ذاتيـة لمـا فارقـت الإنسان، وهي تُفارقه أحياناً؛لأنه يقدر تارة على الشيء، ويعجز عنه أخرى، وهذه القدرة غـير خالقة للأفعال عند الإنسان، فلو كانت الأفعال الاختيارية من خلـق (الله) والعبـد معـاً لجـاز اجتماع مؤثرين في أثر واحد وهذا مُحال. "فهناك (قدرة) و(فعل) وكلاهما من (الله تعالى)".

وهكذا نجد بأن "الأشاعرة" سلكوا في مشكلة الجبر والاختيار منهجـاً وسـطاً بـين أهـل السَّلف والمعتزلة، فالإنسان عندهم مُسيَّر ومخيَّر معاً، فهو مخيَّر لأن عنده القدرة على الاختيـار، سواء أكان ما اختاره خيراً أم شراً، وهو مسيَّر لأن هذه القدرة نفسها من خلـق (الله) سـبحانه وتعالى.

ويرى "الأشاعرة" أن الإنسان حر في أن يختار فعلاً ما ويعـزُم عـلى أدائـه، فـإن (الله) هـو الذي يخلق هذا الفعل. والإنسان حر في أن يختار ويُقرر، ولكن متى اختار فإنَّ (الله) هو الـذي يقوم بخلق الفعل ولذلك يقولون: إن الفعـل مـن (خلـق الله) و(كـسب العبـد). والمقـصود

بالكسب هنا هو شعور الإنسان بالقدرة على اختيار أفعاله، ونتيجة لتوجيه العبد إرادته شطر العمل. وعلى هذا (الكسب) الذي هو من خلق الإنسان يترتب العقاب والثواب، فالعبد يُسأل عن أفعاله خيراً أو شراً؛ لأنها تمت بإرادته واختياره.

الباب الخامس والعشرون

الفصل الثاني

فلسفة الكندي

١ – ينهل الكندي من أرسطو والأفلاطونية الحديثة إلا أنه في كل حال يبدأ بعرض آراء من تقدمه، بإيجاز، مشيراً إلى ما قصّروا أو أخطؤوا فيه، ثم ينصرف لتصحيح الأخطاء وسدّ الثغرات، إضافة ما يراه هو. إن لديه نزعة قوية إلى أن يأتي بجديد، في كل بحث يتناوله.

٢ – والجديد الذي استطاع تحقيقه هو أنه بين أن تعارض بين الفلسفة والدين، والدين الإسلامي على الأخص.

٣ – غير أنه لم يستطع أن ينشئ مدرسة جديدة أو مذهباً جديداً. حتى من تتلمذوا عليه لا نعرف منهم سوى أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي الذي نشط في الترجمة والتأليف في الفلسفة والموسيقا والمنطق، وكان مربياً للمعتضد بالله، ثم نديماً له، فأفشى للمعتضد سرّاً كان سبباً في نقمته عليه، وحبسه ثم قتله.

٤ – ولقد جهد الكندي في وضع مصطلحات عربية فلسفية تقابل المصطلحات اليونانية، ولكن من جاؤوا بعده لم يتأثروا به، ولم يلتزموا بمصطلحاته.

٥ – إلا أن تأثير الكندي في الموسيقا والطب كان أكبر، ففي الموسيقا وضع نظاماً أبجدياً لتمييز الألحان والأنغام جرى عليه الغرب من بعد الكندي بقرن. وقد كانت كتبه في الموسيقا الخلفية التي بنى عليها الفارابي دراسته الموسيقية. فالكندي عالم لا فيلسوف، بدليل أن كتبه التي ترجمت إلى اللاتينية قليلة بالقياس إلى فلاسفة أُخر من أمثال ابن سينا وابن رشد والفارابي وابن باجة. أما الكندي فقد عرفه الغرب طبيباً صيدلانياً صاحب قانون رياضي في مفعول الأدوية المركّبة استعمله من بعده أبو القاسم الزهراوي. وروجر بيكون.

٦ – كان الكندي فيلسوفاً ذا عقلية رياضية فذة. ولأنه جاء مبكراً، فقد جابه في الفلسفة ما جابه الخوارزمي في الحساب والجبر، وسيبويه والكسائي في قواعد اللغة، والخليل بن أحمد في

العروض: أراد أن يعرض الفلسفة بلغة لم تكن من قبل لغة علم، فكان لابد من وضع مصطلحات جديدة، كما صنع غيره من الرواد في حقولهم المختلفة.

ولكن الرواد الآخرين اختاروا لمصطلحاتهم ألفاظاً عربية مألوفة، وأكسبوها معاني جديدة، كالمتقارب في العروض، والمضارع في قواعد اللغة، والشيء والمال في الجبر. أما الكندي فقد صاغ لمصطلحاته ألفاظاً جديدة لم تعرف من قبله، وبعضها لم يستعمله غيره. فمن كلمة "هو"، أو "ما هو؟" صاغ كلمة "الهُويّة"، واشتق منها ألفاظاً أخرى مثل تهوّى، والمتهوّي. وقد استعمل كلمة "ليس" بمعنى العدم، أو اللاموجود، وجعل ضدها كلمة جديدة هي "ليس".

ثم هو بعقليته العلمية أدرك قيمة الدقة في العبارة، فوضع جدولاً في مصطلحات وضع لها حدوداً موجزاً، ثم راح يكتب مراعياً الدقة اللفظية، في إطار تلك الحدود والرسوم التي وضعها. فجعل هذا عباراته، كمصطلحاته، غير مألوفة، لاسيما للمترجمين إلى اللاتينية. ولذا قل ما عرف من كتبه الفلسفية في الغرب.

٧ – يبدو أن الكندي أراد أن يقيم علم الفلسفة على أساس علمي رصين، كالذي قام عليه علم الهندسة، ولذا عمد إلى بدء كل قضية يطرحها بمقدمات يبرهن عليها بطريقة الخلف، أي أنه يفترض أن الأمر على غير ما فرض، فيستنتج من ذلك نتيجة تؤدي إلى خلاف معقول. وهو في هذا يحذو حذو إقليدس. غير أنه أتى في هذا الأمر ما سبق به زمانه بستة قرون على الأقل. فهو أولاً استعمل الرموز الحرفية في مثل قوله: إذا كان "م" بعضاً من "ب". ولو استعمل الخوارزمي الحروف في الجبر، بدل "شيء" و"مال" و"كعب"، وتقدم علم الجبر قروناً إلى الأمام.

ثم إن الكندي، في ذلك الزمان البعيد، صرف همه إلى المتناهي واللامتناهي حتى تبين له أن القوانين الحسابية التي تصح على المقادير المحدودة المتناهية لا تصح على اللامتناهيات.

٨ – صحيح أن الكندي لم يكن له، أو لم يكوِّن، مدرسةً فلسفية. ولكن لم يكن ذلك تقصيراً منه ذاته، وإنما كان بحكمي العقيدة. فما دام الحصن الحصين الذي يأوي إليه الفيلسوف المسلم هو أن يثبت ألا تعارض بين الفلسفة وبين الدين،

فلابد أن يقوم من الفقهاء من يقول له: وما الجديد في الفلسفة إذاً مما لا يكشفه لك الدين؟ وإذا لم يكن ثمة جديد، فما هذه الأقاويل التي تتشاغلون بها؟ هذا ما قامت عليه الخلافات من قبل الكندي ومن بعده، بين الفقهاء والمعتزلة، وهذا ما جعل الإمام الغزالي يضع كتاب "تهافت الفلاسفة"، ودفع ابن رشد لأن يضع كتابه: "تهافت التهافت".

لعلّ الكندي لم يكن معتزلياً، وإن يكن قد استعمل مصطلحات درج عليها المعتزلة. إلا أن مجرد خوضه في ميدان الفلسفة كان - ولا يزال - مما هو في نظر الفقهاء "اعتزال". قليلون هم الذين يدركون أن كمال الإيمان أن يدرك المرء الحقيقة بنفسه ويقينه الناشئ عن محض تفكيره.

- من أقوال الكندي

هذه مختارات من كتابات الكندي منقولة بتصرف يسير من كتابه إلى المعتصم بالله في **الفلسفة الأولى**:

• والمطالب العلمية أربعة: هل، وما، وأي، ولِمَ.

أما "هل" فإنها باحثة عن الإنية فقط (أي الخبر كالذي يكون في صيغة إن كذا قد حصل)، وكل إنية لها جنس فإن "ما" تبحث عن جنسها. و"ما" و"أي" جميعاً تبحثان عن نوعها. و"لم" تبحث عن علتها التمامية (أي المطلقة).

• إنه تبين عندنا، وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا: أنه لم يقل الحق، بما يستأهل الحق، أحد بجهده، ولا أحاطوا به جميعهم. بل كل واحد منهم نال منه شيئاً يسيراً. فإذا جمع يسير ما نال كل واحد منهم، اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل.

• فينبغي أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق، فضلاً عمن أتى بكثيره، إذ أشركونا في ثمار فكرهم. فإنهم لو لم يكونوا، لم يجتمع لنا، مع شدة البحث، في مُددنا كلها، هذه الأوائل التي بها توصلنا إلى الأواخر.

• وينبغي ألا تستحيي من استحسان الحق، واقتنائه، من أين أتى؟، وإن أتى من الأجناس القاصية؟. فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق.

• ولا ينبغي بخس الحق، ولا تصغير قائله، فلا أحد يُبخس بالحق، بل كل يتشرف به.

• وقد يُظن أن "الكل" لا فرق بينه وبين "الجميع". (وهناك فرق). فنقول كل الماء، وكل البدن، وجميع البدن، ولا نقول جميع الماء، لأنه ليس جمعاً لأشياء مختلفة، كل واحد منها قائم بذاته. وكذلك بين الجزء والبعض فرق: لأن الجزء يقال على ما عدَّ الكل فقسمه بأقدار متساوية؛ والبعض يقال على ما لم يعدَّ الكل، فقسمه بأقدار ليست متساوية.

حدود الأشياء ورسومها: الحد هو التعريف العام الفاصل للشيء عن غيره، مثل قولنا: الإنسان حيوان ناطق.

والرسم: هو تعريف الشيء بما يميزه، مثل قولنا: الإنسان حيوان ناطق.

العقل: جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها.

الإبداع: إظهار الشيء عن ليس، (أي الإتيان به من عدم).

الصورة: الشيء الذي [صار] به الشيء هو ما هو.

الفعل: تأثير في موضوع قابل للتأثير (كعقل القوة في تحريك جسم ساكن).

العمل: فعل بفكر. (لاحظ تمييزه بين الفعل والعمل).

الاختيار: إرادة قد تتقدمها روية مع التمييز.

الزمان: مدة تعدها الحركة، غير ثابتة الأجزاء.

المكان: نهايات الجسم. ويقال هو التقاء أفق المحيط وأفق المحاط به.

الإيقاع: فعل فصل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة.

العلم: وجدان الأشياء بحقائقها.

الصدق: القول الموجب ما هو، والسالب ما ليس هو (من هنا جاءت لفظتا الموجب والسالب في الرياضيات). والصدق هو أيضاً إما إثبات شيء ليس، وإما نفي شيء أيس.

الوهم: وقوف شيء في النفس بين الإيجاب والسلب، لا يميل إلى واحد منهما.

الأزلي: الذي لم يكن ليس، وليس بمحتاج في قوامه إلى غيره.

الوقت: نهاية الزمن المفروض للعمل. (لاحظ الفرق بين الوقت والزمان. فالزمان مدة. والوقت نهاية مدة).

الجزء: لما فيه الكل.

والبعض: لما فيه الجميع.

(والإيجاز هنا جعل التعريفين غامضين، وهما تعريفان رياضيان، فالجزء يكون لما يقسم أجزاء متساوية، فالعشرة مثلاً أجزاؤها ١، ٢، ٥، وهو بلغة اليوم القواسم. أما ٣، ٤، ٦، ٧، ٨، ٩، فكل منها بعض العشرة، وليس جزءاً منها).

المماسَّة: توالي جسمين ليس بينهما من طبيعتهما، ولا من طبيعة غيرهما، إلا ما لا يدركه الحس، وأيضاً هو تناهي نهايات الجسمين إلى خط مشترك بينهما.

الصديق: إنسان هو أنت إلا أنه غيرك.

الاتصال: هو اتحاد النهايات.

الملازقة: إمساك نهايات الجسمين جسماً بينهما.

الباب الخامس والعشرون

الفصل الثالث

فلسفة الفارابي

الباب الخامس والعشرون

الفصل الرابع

فلسفة ابن سينا

الباب الخامس والعشرون

الفصل الخامس

فلسفة الإمام الغزالي

الباب السادس والعشرون
رموز الحكمة والفلسفة
العربية والإسلامية

أولاً - الأشعري

ولد أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحق الأشعري، وترك الصحابي الجليل "أبي موسى الأشعري"، بالبصرة عام (٢٦٠هجري/ ٨٧٣ميلادي)، والتحق منذ صباه بالمعتزلة، فدرس أصولهم على يد (الجبّائي)أشهر أئمتهم في ذلك العصر، ولازمه حتى بلغ الأربعين. وفي هذه الفترة دافع عن الاعتزال بلسانه وقلمه، وترك في ذلك كتباً متعددة. وفي سن الأربعين احتبس في داره خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى مسجد البصرة ونادى في الناس بأعلى صوته بأنه ترك الاعتزال وتعهد بالرد عليهم ومحاربتهم. وقد تضاربت الآراء في الأسباب التي حملت الأشعري على ذلك.

ولعلَّ السبب الرئيسي هو ما رآه من انشقاق في صفوف المسلمين، كان من شأنه أن يقضي على الإسلام نفسه، فهبَّ في وجه المعتزلة، وما أدى إليه مذهبهم العقلي من غلو وتطرف. كما ناهض الأشعري الذين تمسكوا بحرفية النص دون روحه وكادوا يُفضون بالإسلام إلى حالةٍ من الجمود والتحجر لا ترضي العقل، ولا تغذي العاطفة الدينية عند المؤمنين، ودافع عن (علم الكلام) واعتبره أداة لحماية الدين وصون العقيدة من البدع والشُّبه والضلال.

وقد اتخذ موقفاً وسطاً بين أصحاب النص، وراح يُناضل في سبيل مذهبه المعتدل، ويضع الكتب في الدفاع عنه إلى أن توفاه (الله) سنة (٩٣٥ - ٩٣٦م) ومن أشهر كتبه "مقالات الإسلاميين "و"الإبانة عن أصول الديانة".

ثانياً - الكندي

الكندي: هو أبو يوسف، يعقوب بن إسحق الصباح الكندي، أبوه إسحق بن الصباح، كان أميراً على الكوفة، في خلافة المهدي والرشيد. وجدُّه الرابع هو محمد بن الأشعث ابن قيس. والأشعث، صهر أبي بكر الصديق، وكان آخر ملوك كندة، حكام حضرموت واليمامة والبحرين، قبل الإسلام. وصلت إليه الدعوة الإسلامية في دار ملكه، فركب في ستين فارساً، ووفد على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأسلم في حضرته.

وقد تزوج الأشعث بنت أبي بكر، فولدت له ولداً سماه محمداً. ومن نسل محمد، حفيد أبي بكر، جاء فيلسوف العرب، يعقوب بن إسحق الصبح. أما الأشعث فقد التحق بجيش المسلمين، وشارك في دحر جيوش الروم في الغرب، وهدِّ شوكة الفرس في الشرق، فقد خاض معارك اليرموك، والقادسية، والمدائن، وجلولاء، ونهاوند.

وكان مع عليٍّ كرم الله وجهه، في معركة صفين، ومع دعاة التحكيم في النزاع بين عليّ ومعاوية. وفي عهد الرشيد (١٧٠ / ٧٨٩ / ١٩٣ / ٨٠٩) ولد يعقوب في الكوفة. لا ندري متى بالضبط. ولكن قدَّر بعض الباحثين أن ذلك كان حوالي سنة ١٨٢هـ. كان ذلك في مطالع القرن التاسع الميلادي، على كل حال. وفي الكوفة تلقى يعقوب تعليمه الأولي. ثم توفي والده، وقد ترك له بعضاً من رزق يُغنيه عن الناس. فانتقلت به أمّه إلى البصرة، حيث مسيرته الدراسية، إلى أن رأى أن يشدَّ الرحال إلى بغداد ليُكمل مسيرته. وفي بغداد برَّز صاحبنا في كل علوم زمانه، من فلسفة ومنطق وعلم الكلام، ومن رياضيات وفيزياء وفلك وموسيقا.

وكان اهتمامه الذي شد أنظار الناس إليه(الفلسفة)، فقد كان العهد بها أن يتولاها السريان والفرس. لهذا لُقِّبَ صاحبنا الكندي بفيلسوف العرب. وقد أعجب به الخليفة المأمون فاختاره للإشراف على ترجمة الكتب الفلسفية في بيت الحكمة. وقد وصل إلينا بعض من الكتب ترجمها قسطا بن لوقا البعلبكي وصحّحها الكندي، وما وصل إلينا قليل. إلا أن أبا معشر الفلكي الذي كان معاصراً له، ينقم عليه اشتغاله بالفلسفة، قال: "إن حذاق التراجم في

الإسلام أربعة:(حنين بن إسحق، ويعقوب بن إسحق الكندي، وثابت بن قرة الحراني، وعمر بن الفرُّخان الطبري).

ولقد كان حنين وثابت أكبر المترجمين بحق، فوضع الكندي بينهما دليل على أن معاصريه عرفوا عنه ما لم يصل إلينا عمله. وقد اتصلت صداقة الكندي للخلفاء العباسيين، ولم تنقطع حبال الودّ بينه وبينهم حتى أواخر أيام المتوكل. حتى أن المعتصم استدعاه إلى "سُرَّ مَنْ رَأَى" ليكون مربياً لابنه أحمد. ولقد أهدى الكندي بعضاً من كتبه إلى المعتصم وابنه. ويبدو أنه بعد وفاة المتوكل (سنة ٢٤٧ / ٨٦١) فترت علاقة الكندي بالقصر، أو لعلّه آثر العزلة والراحة، والانصراف للكتابة والتأليف. وقد ظل، كغيره من علماء الإسلام، يُنتج ويُبدع إلى أن توفي حوالي سنة ١٩٥هـ / ٨٧٣ م، من مرض في ركبته. قبل ذلك بسنتين ولد الفارابي. وبعد ذلك ببضع سنوات ظهر البتاني. وهكذا كُنّا في القرن الثالث الهجري: نجوم السماء كلما غاب الكوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه.

- نقمة المتوكل

إذن فقد امتد الأجل بالكندي من حوالي ٨٠٠ هـ إلى حوالي ٨٧٣ ميلادية مدة غير قصيرة بالقياس إلى أمر الرجال، ولكنها ليست بالغة الطول في أعمار الدول، ومع ذلك فقد شهدت لا أقل من أحد عشر خليفة، بدءاً بالرشيد، وانتهاء بالمعتمد على الله. فقد بدأت والدولة الإسلامية في أوج قوتها، وانتهت وفي الدولة لكل عين بصيرة بوادر ضعف تؤذن بالتشرذم الذي شهده القرن العاشر الميلادي. لقد شهد الكندي مجالس للمأمون مفتوحة، يجري النقاش فيها بحضرة الخليفة، بحرية مطلقة، في كل ما قد يقضي إليه الحوار، حتى ما كان منه ضد الدعوة العباسية، فلا حرج ولا قيود، سوى قيد الاحتشام والالتزام بالمنطق وعفّة اللسان.

لقد أمنت الدولة، فانصرفت تعمل على تفتيق العقول والأذهان، وتلاقح الأفكار والآراء، كيما ينجم مجتمع جديد متفتح الذهن متوثب، ذو أصالة في التوجه ورصانة في العقل. ولكن التيار جرى في غير ما رسم له، بل لعلّ المحاولة جاءت سابقة لأوانها. فقد اصطدم التيار أول الأمر بقضية كلامية، هي قضية خلق القرآن. ثم زاد الأمر انحرفاً، إذ غلب ضيق الأفق، والمتاجرة باسم الدين، واتهام الناس بالإلحاد أو الكفر أو الاعتزال، ولعلهم لم يلحدوا، ولم

يكفروا، ولم يكونوا من المعتزلة، وإنما آمنوا بما آمن به الخليفة المأمون من حرية الرأي والترفّع عن النفاق.

وكان صاحبنا الكندي من المهتمين. لم يشفع له أنه سليل ملوك، وأنه حفيد رجال كان لهم شرف الجهاد في سبيل الله، وأنه عالم موسوعي لم يكن في عصره ميدان علمي لم يجلّ فيه، ولم يبرز. وكان خصومه من رجال العلم، هم بنو موسى بن شاكر. والناس هم الناس، في كل زمان ومكان. كان موسى بن شاكر عالماً فارساً وصديقاً لهارون الرشيد.

وتذكر كتب التاريخ أنه كان يتغيّب عن بغداد، فيترك أولاده، محمد وأحمد والحسن، في رعاية الخليفة، ومع أولاده. فلعلّ غيابه كان غياب ديدبان يسهر على أمن الدولة، يرقب الآتين إلى بغداد والرائحين. وعلى كل حال فقد نشأ أولاده مع المأمون، وصاروا من رجاله. ثم صاروا ينافسونه في اقتناء الكتب وترجمتها. وقد برعوا في هندسة إقليدس والأعمال الميكانيكية. ولكنهم لم يبلغوا علم الكندي اليونانية والسريانية والهندية، ولم يكن لهم ما في مكتبته من الكتب القيّمة. فلما اشتدت نقمة المتوكل على المعتزلة وأصحاب الرأي، اتهم ابنا موسى، محمد والحسن، صاحبنا الكندي بأنه من هؤلاء، فضربه المتوكل، واعتكف الكندي في بيته، وسارع بنو موسى فصادروا كتبه، وأفردوها في خزانة خاصة سموها المكتبة الكندية.

ولم يقف أذاهم عند ذلك الحد، فقد كانوا ينفسون على كبير المهندسين، سند بن علي، مكانته عند المتوكل، فعملوا على إبعاده، فنفاه المتوكل إلى دار الإسلام. ثم عهد إلى محمد والحسن، ابني موسى بن شاكر، بحفر قناة الجعفري، وعهدا بدورهما إلى أحمد بن كثير الفرغاني، بتنفيذ الحفر. وكان الفرغاني هذا قد لفت الانتباه إليه إذ أنشأ مقياساً جديداً للنيل. فحضر النهر، ولكنه أخطأ الحساب فجاءت الفوهة أخفض من سائر النهر. وبلغ الخبر المتوكل فاستدعى سند بن علي. وقال له، على مسمع من محمد والحسن: اذهب وانظر فإن صح ما بلغني عن هذين اللذين استنفدا مال الدولة فاصلبهما على حافة النهر.

فمضى سند ومعه ابنا موسى. وفي الطريق استلطفاه وطلبا منه العفو عند المقدرة. فاشترط أن يُعاد للكندي ما أُخذ منه. فأعادا للكندي كتبه وأخذا منه وثيقة استلام. فقال لهما سند بن علي: في الأشهر الأربعة القادمة سيفيض دجلة والفرات، وتمتلئ قناة الجعفري، فيختفي

الخطأ. وبعد ذلك يخلق ما لا تعلمون. وقد بلغني أن حساب المنجّمين يدلُّ على أن المتوكل لن يعيش أكثر من هذه المدة. فإن عاش هلكت وإيّاكما. فهلمَّ، وعلى الله الاتكال. ثم ذهب بهما إلى الخليفة، وطمأنه بأن ليس في الأمر ما يريب. وقد وقع ما توقعوا فتوفي المتوكل قبل أن تنقضي مدة الفيضان، ويمثل الخطأ للعيان.

- أعمال الكندي

وتندّر الأقدمون على الكندي. فهذا يصمه بالبخل الشديد، وذاك يتهمه بأنه يلجأ في كتابته إلى أسلوب التركيب دون تحليل، ومن ثم فكتابته عسيرة على المبتدئ؛ وذلك يهزأ بأسلوبه الفلسفي المعقد، ويروى أنه قال لجاريته: إني أرى فرط الاعتياصات من التوقعات، على طالبي المودات، مؤذنات بعدم المعقولات، فقالت الجارية، وهي تنظر إلى لحيته الطويلة: وأنا أرى أن اللحى المسترخيات على صدور أهل الركاكات محتاجات إلى المواسى الحالقات.؟ يعدد له الفهرست وعيون الأنباء حوالي ٢٣٠ كتاباً ورسالة، موزعة على١٧ حقلاً، من فلسفة، ورياضيات، وتنجيم، وطب، وموسيقا، وفيزياء، إلى غير ذلك وصل إلينا بضع عشرات نشر منها حوالي ثلاث وثلاثين رسالة أكبرها بحوالي عشرين صفحة، وأكثرها ورقتان، ومنها أسطر.

ثالثاً - الفارابي

هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، مدينته فاراب، وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خراسان، وكان أبوه قائد جيش، وهو فارسي المنتسب، وكان ببغداد مدة، ثم انتقل إلى الشام وأقام بها إلى حين وفاته، وكان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً وإماماً فاضلاً قد أتقن العلوم الحكمية، وبرع في العلوم الرياضية، زكي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة في صناعة الطب، وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها.

ونقل عن سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي أن الفارابي كان في أول أمره ناطوراً في بستان بدمشق وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها، والتطلع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها، وكان ضعيف الحال حتى إنه كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف، ويستضيء بالقنديل الذي للحارس، وبقي كذلك مدة، ثم إنه عظم شأنه وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه، وصار أوحد زمانه وعلامة وقته، واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان التغلبي وأكرمه إكراماً كثيراً، وعظمت منزلته عنده وكان له مؤثراً.

وقيل: إن أبا نصر الفارابي سافر إلى مصر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، ورجع إلى دمشق، وتوفي بها في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة عند سيف الدولة علي بن حمدان في خلافة الراضي، صلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلاً من خاصته، ويذكر أنه لم يكن يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه، ولم يكن معتنياً بهيئة ولا منزل ولا مكسب، ويذكر أنه كان يتغذى بماء قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط، ويذكر أنه كان في أول أمره قاضياً فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك، وأقبل بكليته على تعلمها، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البتة، ويذكر أنه كان يخرج إلى الحراس بالليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرؤه.

وكان في علم صناعة الموسيقا وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه، ويذكر أنه صنع آلة غريبة يستمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات، ويذكر أن سبب قراءته الحكمة أن رجلاً أودع عنده جملة من كتب أرسطوطاليس، فاتفق أن نظر فيها فوافقت منه قبولاً وتحرك إلى قراءتها ولم يزل إلى أن أتقن فهمها وصار فيلسوفاً بالحقيقة.

ونقل من كلام لأبي نصر الفارابي في معنى اسم الفلسفة قال: اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل في العربية، وهو على مذهب لسانهم فيلسوفاً ومعناه إيثار الحكمة، وهو في لسانهم مركب من فيلا ومن سوفيا، ففيلا الإيثار وسوفيا الحكمة، والفيلسوف مشتق من الفلسفة، وهو على مذهب لسانهم فيلسوفوس، فإن هذا التغيير هو تغيير كثير من الاشتقاقات عندهم، ومعناه المؤثر للحكمة، والمؤثر للحكمة عندهم هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة.

وحكى أبو نصر الفارابي في ظهور الفلسفة ما هذا نصه، قال: إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين، وبعد وفاة أرسطوطاليس بالإسكندرية إلى آخر أيام المرأة، وأنه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً، وتوالى في مدة ملكهم من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلماً أحدهم المعروف بأندرونيقوس، وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة فغلبها أوغسطس الملك من أهل رومية، وقتلها واستحوذ على الملك، فلما استقر له نظر في خزائن الكتب وصنعها، فوجد فيها نسخاً لكتب أرسطوطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس، ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو.

فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي، وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومية ونسخاً يبقيها في موضع التعليم بالإسكندرية؛ وأمره أن يستخلف معلماً يقوم مقامه بالإسكندرية ويسير معه إلى رومية، فصار التعليم في موضعين وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية، وبقي بالإسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده؛ لأنهم رأوا أن في ذلك

ضرراً على النصرانية، وإن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستوراً إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية.

وبقي بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو، فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزي والآخر يوحنا ابن حيلان، وتعلم من الحراني إسرائيل الأسقف وقويري، وسار إلى بغداد فتشاغل إبراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم.

وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضاً بدينه وانحدر إبراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها، وتعلم من المروزي متّى بن يونان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية، وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه أنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان، وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك، وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ، فقال أبو نصر: إنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان.

توفي الفارابي عند سيف الدولة بن حمدان في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة، وكان أخذ الصناعة من يوحنا بن حيلان ببغداد في أيام المقتدر، وكان في زمانه أبو المبشر متى بن ويونان وكان أسن من أبي نصر، وأبو نصر أحد ذهنا وأعذب كلاماً، وتعلم أبو المبشر متى من إبراهيم المروزي وتوفي أبو المبشر في خلافة الراضي فيما بين سنة ثلاث وعشرين إلى سنة تسع وعشرين وثلاثمئة، وكان يوحنا بن حيلان وإبراهيم المروزي قد تعلما جميعاً من رجل من أهل مرو.

وقال القاضي صاعد بن أحمد بن صاعد في كتاب التعريف بطبقات الأمم: إن الفارابي أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفّى بمدينة السلام في أيام المقتدر فبذ جميع أهل الإسلام فيها، وأربى عليهم في التحقق بها، فشرح غامضها، وكشف سرها، وقرب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس، وأفاد

وجوه الانتفاع بها، وعرف طرق استعمالها، وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية، والنهاية الفاضلة.

ثم له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، لا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه، وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون، وأرسطوطاليس يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر وتعرف وجه الطلب اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً، وبين كيف التدرج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً، ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرف بغرضه منها، وسمى تآليفه فيها، ثم أتبع ذلك بفلسفة أرسطوطاليس فقدم له مقدمة جليلة، عرف فيها بتدرجه إلى الفلسفة، ثم بدأ بوصف أغراضه في تآليفه المنطقية والطبيعية كتاباً كتاباً، حتى انتهى به القول في النسخة الواصلة إلينا إلى أول العلم الإلهي والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه.

ولا أعلم كتاباً أجدى على طالب الفلسفة منه فإنه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم والمعاني المختصة بعلم علم منها، ولا سبيل إلى فهم معاني قاطيغورياس وكيف هي الأوائل الموضوعة لجميع العلوم إلا منه، ثم له بعد هذا في العلم الإلهي وفي العلم المدني كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والآخر المعروف بالسيرة الفاضلة عرف فيهما بجمل عظيمة من العلم الإلهي على مذهب أرسطوطاليس في المبادئ الستة الروحانية، وكيف يؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة، وعرف فيهما بمراتب الإنسان وقواه النفسانية وفرق بين الوحي والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة، واحتياج المدينة إلى السيرة الملكية والنواميس النبوية.

وفي التاريخ أن الفارابي كان يجتمع بأبي بكر بن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو وابن السراج يقرأ عليه صناعة المنطق، وكان الفارابي أيضاً يشعر، وسُئل أبو نصر من أعلم أنت أم أرسطو؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه، ويذكر عنه أنه قال: قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة، وأرى أني محتاج إلى معاودته.

ومن شعر أبي نصر الفارابي قال:

لمـــا رأيـــت الزمـــان نكـــسا ولـــيس في الـــصحبة انتفـــاع
كـــل رئـــيس بـــه مـــلال وكـــل رأس بـــه صـــداع
لزمـــت بيتـــي وصنـــت عرضـــاً بـــه مـــن العـــزة اقتنـــاع
أشرب ممـــا اقتنـــيت راحـــا لهـــا عـــلى راحتـــي شعـــاع
لي مـــن قواريرهـــا ندامـــى ومـــن قراقيرهـــا سمـــاع
وأجتنـــي مـــن حـــديث قـــوم قـــد أقفـــرت مـــنهم البقـــاع

وقال أيضاً:

أخـــي خـــل حَـــيّز ذي باطـــل وكـــن للحقـــائق فـــي حـــيز
فـــما الـــدار دار خلـــود لنـــا ولا المـــرء في الأرض بـــالمعجز
وهـــل نحـــن إلا خطـــوط وقعـــن عـــلى كـــرة وقـــع مـــستوفز
ينافـــس هـــذا لهـــذا علـــى أقـــل مـــن الكـــلم الموجـــز
محـــيط الـــسموات أولـــى بنـــا فكـــم ذا التـــزاحم في المركـــز

ولأبي نصر الفارابي من الكتب(شرح كتاب المجسطي لبطليموس)(شرح كتاب البرهان لأرسطوطاليس)، (شرح كتاب الخطابة لأرسطوطاليس)، (شرح المقالة الثانية والثامنة من كتاب الجدل لأرسطوطاليس)،(شرح كتاب المغالطة لأرسطوطاليس) (شرج كتاب القياس لأرسطو طاليس) وهو الشرح الكبير (شرح كتاب باريمينياس لأرسطوطاليس على جهة التعليق)، (شرح كتاب المقولات لأرسطوطاليس على جهة التعليق)، (كتاب المختصر الكبير في المنطق)، (كتاب المختصر الصغير في المنطق على طريقة المتكلمين)، (كتاب المختصر الأوسط في القياس)، (كتاب التوطئة في المنطق)، (شرح كتاب إيساغوجي لفرفوريوس)، (إملاء في معاني إيساغوجي).

(كتاب القياس الصغير)، ووجد كتابه هذا مترجماً بخطه، (إحصاء القضايا والقياسات التي تستعمل على العموم في جميع الصنائع القياسية)،(كتاب شروط القياس)، (كتاب البرهان)، (كتاب الجدل)، (كتاب المواضع المنتزعة من المقالة الثامنة في الجدل)، (كتاب

المواضع المغلطة)، (كتاب اكتساب المقدمات وهي المسماة بالمواضع وهي التحليل، كلام في المقدمات المختلطة من وجودي وضروري، كلام في الخلاء صدر لكتاب الخطابة)، (شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس على جهة التعليق)، (شرح كتاب السماء والعالم لأرسطوطاليس على جهة التعليق)، (شرح كتاب الآثار العلوية لأرسطوطاليس على جهة التعليق).

(شرح مقالة الإسكندر الأفروديسي في النفس على جهة التعليق)، (شرح صدر كتاب الأخلاق لأرسطوطاليس)، (كتاب في النواميس)، (كتاب إحصاء العلوم وترتيبها)، (كتاب الفلسفتين لفلاطن وأرسطوطاليس مخروم الآخر)، (كتاب المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدلة والمدينة الضالة)، ابتدأ بتأليف هذا الكتاب ببغداد، وحمله إلى الشام في آخر سنة ثلاثين وثلاثمئة، وتممه بدمشق في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة، وحرره، ثم نظر في النسخة بعد التحرير فأثبت فيها الأبواب، ثم سأله بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه فعمل الفصول بمصر في سنة سبع وثلاثين، وهي ستة فصول.

(كتاب مبادئ آراء المدينة الفاضلة)، (كتاب الألفاظ والحروف)،(كتاب الموسيقا الكبير)، ألفه للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي، (كتاب في إحصاء الإيقاع) و(كلام له في النقلة مضافاً إلى الإيقاع)، و(كلام في الموسيقا)، و(مختصر فصول فلسفية منتزعة من كتب الفلاسفة)، (كتاب المبادئ الإنسانية)، (كتاب الرد على الرازي في العلم الإلهي)، (كتاب الرد على جالينوس فيما تأوله من كلام أرسطوطاليس على غير معناه)، (كتاب الرد على ابن الراوندي في أدب الجدل)، كتاب الرد على يحيى النحوي فيما رد به على أرسطوطاليس)، (كتاب الرد على الرازي في العلم الإلهي)، (كتاب الواحد والوحدة)، كلام له في الحيز والمقدار.

(كتاب في العقل صغير)، (كتاب في العقل كبير)، كلام له في معنى اسم الفلسفة، (كتاب الموجودات المتغيرة الموجودة بالكلام الطبيعي)، (كتاب شرائط البرهان)، (كلام له شرح المستعلق من مصادر المقالة الأولى والخامسة من إقليدس)، كلام في اتفاق آراء أبقراط

وأفلاطون)، (رسالة في التنبيه على أسباب السعادة، كلام في الجزء وما لا يتجزأ). (كلام في اسم الفلسفة وسبب ظهورها وأسماء المبرزين فيها وعلى من قرأ منهم).

(كلام في الجن)، (كلام في الجوهر)، (كتاب في الفحص المدني)، (كتاب السياسات المدنية ويعرف بمبادئ الموجودات)، (كلام في الملة والفقه مدني)، (كلام جمعه من أقاويل النبي صلى الله عليه وسلم يشير فيه إلى صناعة المنطق)، (كتاب في الخطابة كبير، عشرون مجلداً)، (رسالة في قواد الجيوش)، (كلام في المعايش والحروب)، (كتاب في التأثيرات العلوية)، (مقالة في الجهة التي يصح عليها القول بأحكام النجوم)، (كتاب في الفصول المنتزعة للاجتماعات)، (كتاب في الحيل والنواميس)، (كلام له في الرؤيا)، (كتاب في صناعة الكتابة)(، شرح كتاب البرهان لأرسطوطاليس على طريق التعليق)، أملاه على إبراهيم بن عدي تلميذ له بحلب.

(كلام له في العلم الإلهي)، (شرح المواضع المستغلقة من كتاب قاطيغورياس لأرسطوطاليس ويعرف بتعليقات الحواشي)، (كلام في أعضاء الحيوان)، (كتاب مختصر جميع الكتب المنطقية)، (كتاب المدخل إلى المنطق). (كتاب التوسط بين أرسطوطاليس وجالينوس)، (كتاب غرض المقولات)، (كلام له في الشعر والقوافي)، (شرح كتاب العبارة لأرسطوطاليس على جهة التعليق)، (تعاليق على كتاب القياس)، (كتاب في القوة المتناهية وغير المتناهية)، (تعليق له في النجوم)، (كتاب في الأشياء التي يحتاج أن تعلم قبل الفلسفة فصول له مما جمعه من كلام القدماء).

(كتاب في أغراض أرسطوطاليس في كل واحد من كتبه)،(كتاب المقاييس، مختصر كتاب الهدى)، (كتاب في اللغات، كتاب في الاجتماعات المدنية)، (كلام في أن حركة الفلك دائمة)، (كلام فيما يصلح أن يذم المؤدب)، (كلام في المعاليق والجون وغير ذلك)، (كلام في لوازم الفلسفة)، (مقالة في وجوب صناعة الكيمياء والرد على مبطليها)، (مقالة في أغراض أرسطوطاليس في كل مقالة من كتابه الموسوم بالحروف)، وهو تحقيق غرضه في كتاب ما بعد الطبيعة.

(كتاب في الدعاوى المنسوبة إلى أرسطوطاليس في الفلسفة مجردة من بياناتها وحججها)، (تعاليق في الحكمة، كلام أملاه على سائل سأله عن معنى ذات ومعنى جوهر ومعنى طبيعة)،

(كتاب جوامع السياسة مختصر)، (كتاب بايريمنياس لأرسطوطاليس)، (كتاب المدخل إلى الهندسة الوهمية)، مختصراً،(كتاب عيون المسائل على رأي أرسطوطاليس)، وهي مئة وستون مسألة، (جوابات لمسائل سُئل عنها وهي ثلاث وعشرون مسألة)، (كتاب أصناف الأشياء البسيطة التي تنقسم إليها القضايا في جميع الصنائع القياسية)، (جوامع كتاب النواميس لفلاطون)، (كلام من إملائه وقد سُئل عما قال أرسطوطاليس في الحار)، (تعليقات أنالوطيقا الأول لأرسطوطاليس)، (كتاب شرائط اليقين)، (رسالة في ماهية النفس)، (كتاب السماع الطبيعي).

رابعاً - ابن سينا

ولد أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا عام ٩٨٠ ميلادية، وكان مولده في قرية جميلة من قرى "بخارى"، وقد نشأ "ابن سينا" نشأة هانئة، لأن والده كان والياً على "سامان"، وقد عهد به والده إلى كبار رجال العلم في "سامان" فأحسنوا تربيته وتعليمه، وقد حرص والده على تعليمه الدين قبل أي شيء آخر، لذلك كان "ابن سينا" منذ الصغر على دراية كاملة بأمور الدين والفقه والشرع والسنة.

كان "ابن سينا" منذ الصغر شغوفاً بالعلم والمعرفة وقد أظهر نبوغاً مبكراً تفوّق به على أقرانه، حتى أنه قد حفظ القرآن كله وهو دون العاشرة، وكان حفظه للقرآن في هذه السن المبكرة دليلاً على ما يتمتع به من الذكاء وقوة الذاكرة والقدرة الفائقة على الحفظ والفهم والاستيعاب. وعندما أتم "ابن سينا" حفظ القرآن كله، عهد به والده إلى معلم آخر من أفاضل علماء هذا العصر هو "عيسى بن يحيى" الّذي تولى تعليم "ابن سينا" الطب، ثم تلقى "ابن سينا" بعد ذلك – علوم الفلسفة والمنطق على يد الفيلسوف "أبو عبد الله الناتلي" وبعد ذلك بدأ "ابن سينا" يتعمق في درس الآداب والعلوم الشرعية والهندسة والفلك وعلم النفس والاجتماع والرياضيات.

وكان أول ما درسه "ابن سينا" من العلوم الفلسفية أعمال الفيلسوف اليوناني "أرسطو"، وأعمال عظماء الفلسفة العربية أمثال: "الفارابي" و"ابن رشد"، وقد برع "ابن سينا" في كافة العلوم التي تلقاها على أيدي أساتذته، وقد شهدوا له جميعاً بالتفوق والنبوغ والامتياز، وتنبأ له الجميع بمكانة سامقة بين العلماء والفلاسفة منذ صغره، وقد صدق ظن أساتذة "ابن سينا" في تلميذهم النابه، فقد حقق تقدماً عظيماً في دروسه واتسعت معارفه ونضجت أفكاره حتى لقّب بالعالم الصغير قبل أن يصل إلى مرحلة الشباب.

كان "ابن سينا" شغوفاً بالعلم والحكمة إلى أقصى درجات الشغف والولع، ولذلك فقد أكب "ابن سينا" على كتب القدماء ينهل منها المعرفة، وراح يبحر بين سواحل العلوم وشتى

أنواع المعارف، وفي نفسه ذلك الظمأ الذي لا يرتوي أبداً، فعقل "ابن سينا" منذ صغره كان عقلاً تواقاً للإحاطة بكل أنواع المعرفة، وكأنّ العالم الصغير كان يأبى على نفسه أن يحمل لقب العالم الصغير ولا يرضى لنفسه إلا بلقب "الشيخ الرئيس". لذلك لم يكتف "ابن سينا" بالتعمق في ناحية واحدة من المعرفة، وراح يغوص في أعماق شتى أنواع المعارف والعلوم، وكانت الفلسفة وقتها هي جامعة العلوم، فلم يكن من الممكن دراسة الفلسفة دون دراسة الفلك والكيمياء والرياضيات والطب والمنطق وعلم الاجتماع والموسيقا، أي أن العالم كان عليه أن يدرس كل هذه العلوم والمعارف ويتعمق فيها حتى يصبح من علماء أهل الزمان.

وعلى الرغم من أن دراسة الحكمة بكل علومها وفروعها من المسائل والأمور التي لا تطيقها سوى العقول الجبارة النابغة، فإن "ابن سينا" قد تمكّن من الإبحار بين شواطئ الحكمة، بل والغوص في أعماق معارفها وعلومها بشتى أنواعها. لكنه كان مع ذلك مولعاً بالطب ولعاً أشد من ولعه بسائر العلوم الأخرى التي تعلمها وأتقنها، وكان ولعه هذا سبباً في نبوغه في الطب، حتى أصبح "علم أعلام الطب" في عصره وهو لم يزل بعد في سن الشباب. ومع ذلك لم يكتف "ابن سينا" بما وصل إليه من مكانة بين العلماء، فواصل بحثه وتعمقه في علوم الطب والحكمة حتى تفجرت عبقريته، وساد أهل زمانه من العلماء في فروع المعرفة وشتى أنواع العلوم، ومازال "ابن سينا" يتقدم في شتى ميادين المعرفة، حتى لقّب بلقب "الشيخ الرئيس".

وقد أثارت شهرة ابن سينا ومكانته العلمية حسد بعض معاصريه وغيرتهم عليه، ووجدوا في نزعته العقلية وآرائه الجديدة في الطب والعلوم والفلسفة مدخلاً للطعن عليه واتهامه.

- العلوم الفلكية

كان لابن سينا ريادات في العديد من العلوم والفنون؛ ففي مجال علم الفلك استطاع ابن سينا أن يرصد مرور كوكب الزهرة عبر دائرة قرص الشمس بالعين المجردة في يوم (١٠ جمادى الآخرة ٤٢٣ هـ = ٢٤ مايو ١٠٣٢م)، وهوما أقره الفلكي الإنجليزي "جيرميا روكس" في القرن السابع عشر. قام بدراسات فلكية حينما كان في أصفهان ولاحقاً في همذان. وأثمرت هذه الدراسات عدداً من الاستدلالات التي ثبتت صحتها بعد قرون. وعلى سبيل

المثال استطاع رصد كوكب الزهرة كبقعة على سطح الشمس واستنتج محقاً أن الزهرة لابد وأن يكون أقرب للأرض مما هو للشمس. كما ابتكر أيضاً جهازاً لرصد إحداثيات النجوم. واشتغل ابن سينا بالرصد، وتعمق في علم الهيئة، ووضع في خلل الرصد آلات لم يُسبق إليها، وله في ذلك عدد من المؤلفات القيمة، منها:

- كتاب الأرصاد الكلية.
- رسالة الآلة الرصدية.
- كتاب الأجرام السماوية.
- كتاب في كيفية الرصد ومطابقته للعلم الطبيعي.
- مقالة في هيئة الأرض من السماء وكونها في الوسط.
- كتاب إبطال أحكام النجوم.

علم الأحياء

وله أيضاً قيمة في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) خاصة في المعادن وتكوين الحجارة والجبال، فيرى أنها تكونت من طين لزج خصب على طول الزمان، وتحجر في مدد لا تضبط، فيشبه أن هذه المعمورة كانت في سالف الأيام مغمورة في البحار، وكثيراً ما يوجد في الأحجار إذا كسرت أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها. كما ذكر الزلازل وفسرها بأنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض؛ بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض، وهو إما جسم بخاري دخاني قوى الاندفاع أو جسم مائي سيّال أو جسم هوائي أو جسم ناري.

ويتحدث عن السحب وكيفية تكونها؛ فيذكر أنها تولد من الأبخرة الرطبة إذا تصعّدت الحرارة فوافقت الطبقة الباردة من الهواء، فجوهر السحاب بخاري متكاثف طاف الهواء، فالبخار مادة السحب والمطر والثلج والطل والجليد والصقيع والبرد وعليه تتراءى الهالة وقوس قزح.

- علم النبات

وكان لابن سينا اهتمام خاص بعلم النبات، وله دراسات علمية جادة في مجال النباتات الطبية، وقد أجرى المقارنات العلمية الرصينة بين جذور النباتات وأوراقها وأزهارها، ووصفها وصفاً علمياً دقيقاً ودرس أجناسها، وتعرض للتربة وأنواعها والعناصر المؤثرة في نمو النبات، كما تحدث عن ظاهرة المساهمة في الأشجار والنخيل، وذلك بأن تحمل الشجرة حملاً ثقيلاً في سنة وحملاً خفيفاً في سنة أخرى أو تحمل سنة ولا تحمل أخرى. وأشار إلى اختلاف الطعام والرائحة في النبات، وقد سبق كارل متز الذي قال بأهمية التشخيص بوساطة العصارة، وذلك في سنة ١٣٥٣ هـ = 1934م.

الصيدلة وعلم الأدوية

كتاب المبدأ والمعاد.

وكان لابن سينا معرفة جيدة بالأدوية وفعاليتها، وقد صنف الأدوية في ست مجموعات، وكانت الأدوية المفردة والمركبة (الأقرباذين) التي ذكرها في مصنفاته وبخاصة كتاب القانون لها أثر عظيم وقيمة علمية كبيرة بين علماء الطب والصيدلة، وبلغ عدد الأدوية التي وصفها في كتابه نحو ٧٦٠ عقَّارًا رتبها ألفبائياً. ومن المدهش حقاً أنه كان يمارس ما يعرف بالطب التجريبي ويطبقه على مرضاه، فقد كان يجرب أي دواء جديد يتعرف عليه على الحيوان أولاً، ثم يعطيه للإنسان بعد أن تثبت له صلاحيته ودقته على الشفاء.

كما تحدث عن تلوث البيئة وأثره على صحة الإنسان فقال: "فما دام الهواء ملائماً ونقياً وليس به أخلاط من المواد الأخرى بما يتعارض مع مزاج التنفس، فإن الصحة تأتي". وذكر أثر ملوثات البيئة في ظهور أمراض حساسية الجهاز التنفسي.

الطب:

بالرغم من الشهرة العريضة التي حققها ابن سينا كطبيب والمكانة العلمية العظيمة التي وصل إليها حتى استحق أن يلقب عن جدارة بأمير الأطباء، فإنه لم يسعَ يوماً إلى جمع المال أو طلب الشهرة؛ فقد كان يعالج مرضاه بالمجان، بل إنه كثيراً ما كان يقدم لهم الدواء الذي يعده بنفسه. وكان ابن سينا يستشعر نبل رسالته في تخفيف الألم عن مرضاه؛ فصرف جهده وهمته إلى خدمة الإنسانية ومحاربة الجهل والمرض.

واستطاع ابن سينا أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصل إليه من اكتشافات، وما يسره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فكان أول من كشف عن العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو أول من كشف عن طفيل "الإنكلستوما" وسماها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق الإيطالي "دوبيني" بنحو ٩٠٠ سنة، وهو أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفاً بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم.

كما كشف لأول مرة عن طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جداً لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض، وهو ما أكده فان ليوتهوك في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده، بعد اختراع المجهر. وكان ابن سينا سابقاً لعصره في كثير من ملاحظاته الطبية الدقيقة، فقد درس الاضطرابات العصبية والعوامل النفسية والعقلية كالخوف والحزن والقلق والفرح وغيرها، وأشار إلى أن لها تأثيراً كبيراً في أعضاء الجسم ووظائفها، كما استطاع معرفة بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي، وكان يلجأ في بعض الأحيان إلى الأساليب النفسية في معاجلة مرضاه. ومن كتبه الطبية المهمة: (كتاب عيون الحكمة).

علم الجراحة:

وقد اتبع ابن سينا في فحص مرضاه وتشخيص المرض وتحديد العلاج الطريقة الحديثة المتبعة الآن، وذلك عن طريق جس النبض والقرع بإصبعه فوق جسم المريض، وهي الطريقة المتبعة حالياً في تشخيص الأمراض الباطنية، والتي نسبت إلى "ليوبولد أينبرجر" في القرن الثامن عشر، وكذلك من خلال الاستدلال بالبول والبراز. ويظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة، فقد ذكر عدة طرق لإيقاف النزيف، سواء بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاو، أو بضغط اللحم فوق العرق. وتحدث عن كيفية التعامل مع السهام واستخراجها من الجروح، ويُحذر المعالجين من إصابة الشرايين أو

الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، وينبه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح.

كما يعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية، وهو أول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري كما كان يعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري. وكان ابن سينا جراحاً بارعاً، فقد قام بعمليات جراحية ودقيقة للغاية مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى وشق الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخراج من الغشاء البلوري بالرئة، وعالج البواسير بطريقة الربط، ووصف بدقة حالات النواسير البولية، كما توصل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن، وتعرض لحصاة الكلى وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذكر حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يحذر استعمالها فيها. ومن كتبه في الجراحة (كتاب الطبيعيات).

الأمراض التناسلية:

كما كان له باع كبير في مجال الأمراض التناسلية، فوصف بدقة بعض أمراض النساء، مثل: الانسداد المهبلي والإسقاط، والأورام الليفية. وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء، مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة، وأشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفاً من قبل، وتعرض أيضاً للذكورة والأنوثة في الجنين وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكده مؤخراً العلم الحديث ومن كتبه(كتاب تسع رسائل في الحكمة).

علم الفيزياء:

أما في مجال الفيزياء فقد كان ابن سينا من أوائل العلماء المسلمين الذين مهدوا لعلم الديناميكا الحديثة بدراستهم في الحركة وموضع الميل القسري والميل المعاون، وإليه يرجع الفضل في وضع القانون الأول للحركة، والذي يقول بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة، فقد سبق ابن سينا إلى ملاحظة حركة الأجسام، واستنباط ذلك القانون الذي عبّر عنه بقوله: "إنك لتعلم

أن الجسم إذا خُلي وطباعه ولم يعرض له من خارج تأثير غريب لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين، فإذن له في طباعه مبدأ استيجاب ذلك".

وهو بذلك سبق إسحق نيوتن بأكثر من ستة قرون وجاليليو بأكثر من خمسة قرون وليوناردو دافنشي بأكثر من أربعة قرون؛ مما يستحق معه أن ينسب إليه ذلك القانون الذي كان له فضل السبق إليه: "قانون ابن سينا للحركة والسكون". كما ابتكر ابن سينا آلة تشبه الورنية، وهي آلة تستعمل لقياس الأطوال بدقة متناهية. واستطاع بدقة ملاحظة أن يفرق بين سرعتي الضوء والصوت، وهو ما توصل إليه إسحق نيوتن بعد أكثر من (٦٠٠)سنة، وكانت له نظرياته في (ميكانيكية الحركة)، التي توصل إليها "جان بيردان" في القرن الرابع عشر، و(سرعة الحركة) التي بنى عليها "ألبرت أينشتين" نظريته الشهيرة في النسبية.

الموسيقا:

ولابن سينا إسهاماته في الموسيقا، ويقال: إنه كتب رباعيات شعرية فارسية وقصائد قصيرة، منها:

"من وسط الأرض نهضت للسماء السابعة

وتربعت على عرش زحل

حللت عقداً كثيرة في الطريق

إلا العقدة الكبرى: قَدَر البشر"

من كتبه:

أقدم نسخة لابن سينا الصفحة الثانية من القانون في الطب عام (١٠٣٠) ميلادية.

وضع ابن سينا حوالي(٤٥٠) مؤلفاً، لم يصلنا منها سوى(٢٤٠) تقريباً. ومن بين أعماله المتوفرة لنا اليوم، هناك (١٥٠) في الفلسفة و(٤٠) في الطب وهما الميدانان العلميان اللذان قدم فيهما أكبر إنجازاته. كما وضع أعمالاً في علم النفس والجيولوجيا والرياضيات والفلك والمنطق. وقد كتب كل مؤلفاته باللغة العربية باستثناء كتابين اثنين وضعهما بالفارسية وهي

لغته الأم. أحد هذين الكتابين هو بعنوان "موسوعة العلوم الفلسفية" والثاني هو دراسة عن النبض أصبح ذائع الشهرة لاحقاً.

في الفلسفة:

- **كتاب الإشارات والتنبيهات:** في كتابه كتاب الإشارات الذي ذهب فيه مذهب أرسطو وقربه قليلاً إلى الأديان، فهو مؤسس الاتجاه الفلسفي الذي تحدث عن العقيدة وفكرة النبوة والرسالة في الإسلام، وكان يقول بقدم العالم وإنكار المعاد ونفي علم الله وقدرته وخلقه العالم وبعثه من في القبور كما يدعي بعض الباحثين. وذهب ابن سينا مذهب الفلاسفة من أمثال الفارابي أبي نصر التركي الفيلسوف، وكان الفارابي يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني، ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة، وله مذاهب في ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين، وأعاد تلك الفكرة ابن سينا ونصره، وقد رد عليه الغزالي في تهافت الفلاسفة في عشرين مجلساً له كفَّره في ثلاث منها وهي قوله بقدم العالم، وعدم المعاد الجثماني، وقوله إِنَّ الله لا يعلم الجزئيات، وبدّعه في البواقي.

ولا شك أن صحبته لفلاسفة الباطنية (أبي عبد الله النائلي الذي علمه بصغره) قد أثرت في تفكير ابن سينا، وهيأته للدور الذي لعبه في تنشيط تيار الفلسفة واتخاذها موقف التحدي للعقيدة الإسلامية، ومثال على ذلك "نظرية المعرفة" والتي ساوى فيها الفلاسفة مع الأنبياء، وقد خص الفلاسفة بميزة أخرى وهي أن الفلاسفة استمروا في رسالتهم وارتقاء معارفهم في الوقت الذي ختمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم. وكان أتباعه يدعون بـ"الألى" وقالوا مقالته ومن أشهرهم النصير الطوسي واسمه محمد بن عبد الله ويقال له الخواجا نصير الدين، الذي انتصر لمذهب ابن سينا والذب عنه وشرح إشاراته وكان يسميها "قرآن الخاصة"، ويسمي كتاب الله "قرآن العامة"، ورد على الشهرستاني في مصارعته ابن سينا بكتاب سماه مصارعة المصارع.

- **كتاب الشفاء:** يعتبر موسوعة كبرى في العلوم الطبيعية وما بعد الطبيعة اشتهرت في القرن العاشر الميلادي. أراد ابن سينا أن يغطي به كل ما شملته علوم ما بعد الطبيعة في ذلك الوقت. ويبين ابن سينا الغرض من هذا الكتاب فيقول: "فإن غرضنا في هذا الكتاب الذي

نرجو أن يمهلنا الزمان إلى ختمه، ويصحبنا التوفيق من الله في نظمه، أن نودعه لباب ما تحققناه من الأصول في العلوم الفلسفية المنسوبة إلى الأقدمين... وتحرّيت أن أودعه أكثر الصناعة، وأن أشير في كل موضع إلى موقع الشبهة وأحلها لإيضاح الحقيقة بقدر الطاقة. واجتهدت في اختصار الألفاظ جداً ومجانبة التكرار أصلاً إلا ما يقع خطأ أو سهواً. ولا يوجد في كتب القدماء شيء يعتد به إلا وقد ضمناه كتابنا هذا، وقد أضفت إلى ذلك ما أدركته بفكري وحصلته بنظري وخصوصاً في علم الطبيعة وما بعدها.

- **كتاب النجاة:** يتطرق ابن سينا في كتابه هذا إلى علم المنطق والطبيعيات، ثم الهندسة والحساب، فبعضاً من علم الفلك، ليختمه بالعلم الإلهي وسبل النجاة في الحياتين الدنيا والآخرة. قد أورد في مقدمته "أن طائفة من الإخوان الذين لهم حرص على اقتباس المعارف الحكمية سألوه أن يجمع لهم كتاباً يشتمل على ما لابد من معرفته لمن يؤثر أن يتميز عن العامة وينحاز إلى الخاصة ويكون له بالأصول الحكمية إحاطة وسألوه أن يبدأ فيه بإفادة الأصول من علم المنطق، ثم يتلوها بمثلها من علم الطبيعيات.

ثم يورد من علمي الهندسة والحساب ما لابد منه لمعرفة القدر الذي يقرن بالبراهين على الرياضيات ويورد بعده من علم الهيئة ما يعرف به حال الحركات والأجرام والأبعاد والمدارات والأطوال والعروض دون الأصول التي يحتاج إليها في التقاويم وما تشتمل عليه الزيجات مثل أحوال المطالع والزوايا وتقويم المسير بحسب التاريخ إلى غير ذلك وأن يختم الرياضيات بعلم الموسيقا ثم يورد العلم الإلهي على أن يبين وجهه ويوجزه ويذكر فيه حال المعاد وحال الأخلاق والأفعال النافعة فيه لدرك النجاة من الغرق في بحر الضلالات، فأسعفهم بذلك وصنف الكتاب على نحو ملتمسهم، فبدأ بإيراد الكفاية من صناعة المنطق؛ لأنه الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبله".

في الرياضيات

- رسالة الزاوية.
- مختصر إقليدس.

- مختصر الأرتماطيقي.

- مختصر علم الهيئة.

- مختصر المجسطي.

- رسالة في بيان علّة قيام الأرض في وسط السماء، طبعت في مجموع (جامع البدائع).

الطبيعيات وتوابعها

- رسالة في إبطال أحكام النجوم.

- رسالة في الأجرام العلوية وأسباب البرق والرعد.

- رسالة في الفضاء.

- رسالة في النبات والحيوان.

- كتاب القانون الذي ترجم وطبع عدّة مرات والذي ظل يُدرس في جامعات أوروبا حتى أواخر القرن التاسع عشر.

- كتاب الأدوية القلبية.

- كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية.

- كتاب القولنج.

- رسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب.

- رسالة في تشريح الأعضاء.

- رسالة في الفصد.

- رسالة في الأغذية والأدوية.

حظي كتابه القانون في الطب شهرة واسعة في أوروبا، حتى قال عنه السيد "وليم أوسلر": إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن.

وترجمه إلى اللاتينية "جيرارد من كريمونا"، وطبع نحو ١٥ مرة في أوروبا ما بين عامي (1473 و١٥٠٠)، ثم أعيد طبعه نحو عشرين مرة في القرن السادس عشر.

وظل هذا الكتاب المرجع الأساسي للطب في أوروبا طوال القرنين الخامس والسادس عشر، حتى بلغت طبعاته في أوروبا وحدها أكثر من(٤٠)طبعة.

واستمر يُدرَّس في جامعات إيطاليا وفرنسا وبلجيكا حتى أواسط القرن السابع عشر، ظل خلالها هو المرجع العلمي الأول بها.

أراجيز طبية

- أرجوزة في التشريح.
- الألفية الطبية المشهورة التي ترجمت وطبعت.
- أرجوزة المجربات في الطب.

الموسيقا

- مقالة جوامع علم الموسيقا.
- مقالة الموسيقا.
- مقالة في الموسيقا.

شِعره

نحو نصف أعمال ابن سينا منظومة شعراً، كتب أشعاره بالعربية والفارسية. فعلى سبيل المثال، إدوارد گرانفيل براون يدعي أن الأبيات التالية نُسبت بالخطأ إلى عمر الخيام، بينما مؤلفها هو ابن سينا، في الغرب حظي ابن سينا بتقدير واحترام العلماء والباحثين على مر العصور حتى قال عنه "جورج سارتون": "إن ابن سينا ظاهرة فكرية عظيمة ربما لا نجد من يساويه في ذكائه أو نشاطه الإنتاجي".. "إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى". ويقول دي بور: "كان تأثير ابن سينا في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى عظيم الشأن، واعتبر في المقام كأرسطو".

ويقول "أوبرفيل": "إن ابن سينا اشتهر في العصور الوسطى، وتردد اسمه على كل شفة ولسان، ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره.. وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق". ويصفه "هوليارد" بقوله: "إن علماء أوروبا يصفون "أبا علي" بأنه أرسطو

طاليس العرب، ولا ريب في أنه عالم فاق غيره في علم الطب وعلم طبقات الأرض، وكان من عادته إذا استعصت عليه مسألة علمية أن يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، ثم يعود إلى المسألة بعد الصلاة بادئاً من جديد؛ فيوفَّق في حلها". ولا تزال صورة ابن سينا تزيِّن كبرى قاعات كلية الطب بجامعة "باريس" حتى الآن؛ تقديراً لعلمه واعترافاً بفضله وسبْقه.

خامساً - الإمام أبو حامد الغزالي

الفهرس

مقدمة: الأدب في العصر العباسي ١١
الباب الأول: الحياة العامة في العصر العباسي ١٣
الباب الأول: الفصل الأول: الدعوة العباسية ١٥
الباب الأول: الفصل الثاني: الحياة السياسية في العصر العباسي ٣١
الباب الأول: الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية في البيئة العباسية..... ٣٥
الباب الأول: الفصل الرابع: الحياة الاقتصادية في العصر العباسي..... ٤٥
الباب الأول: الفصل الخامس: الحياة الفكرية في العصر العباسي..... ٤٧
الباب الأول: الفصل السادس: الحياة الدينية في العصر العباسي ٤٩
الباب الأول: الفصل السابع: الحياة الأدبية في العصر العباسي ٥٠
الباب الثاني: التغيرات التي طرأت على الأدب العباسي ٥٢
الباب الثاني: الفصل الأول: التغيرات الجمالية الفنية في الأدب في العصر العباسي ٥٤
الباب الثاني: الفصل الثاني: التلاقح في الشعر في العصر العباسي ٦٣
الباب الثاني: الفصل الثالث: شعراء على الخارطة الإسلامية..... ٦٦
الباب الثاني: الفصل الرابع: الشعراء المتميزون في العصر العباسي ٧٤
الباب الثالث: الشعر العباسي ٧٦
الباب الثالث: الفصل الأول: الأغراض التقليدية في الشعر العباسي ٧٨
الباب الثالث: الفصل الثاني: الأغراض الجديدة في أدب العصر العباسي ٨٦
الباب الثالث: الفصل الثالث: التحولات التي طرأت على الشعر العباسي ٩٧
الباب الرابع: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي ١٠٢
الباب الخامس: أبرز أعلام الشعر في العصر العباسي ١١٣
الباب السادس: النثر في العصر العباسي ٤١٧
الباب السادس: الفصل الأول: أساليب النثر وخصائصه ٤٢٤

الباب السابع: فن الخطـابة في العصر العباسي ٤٢٧
الباب الثامن: الموعظة التقوية ٤٤١
الباب التاسع: القصص ٤٤٢
الباب العاشر: المناظرات ٤٤٦
الباب الحادي عشر: أدب الاستعطاف والاستمناح ٤٧٠
الباب الثاني عشر: الرسائل في العصر العباسي ٤٧٧
الباب الثالث عشر: الوصايا في العصر العباسي ٤٩٥
الباب الرابع عشر: المقامات الأدبية في العصر العباسي ٤٩٦
الباب الخامس عشر: فن التوقيعات في العصر العباسي ٥١٩
الباب السادس عشر: فن الدعاء ٥٢١
الباب السابع عشر: تحليل نص لأبي بكر الصولي ٥٢٦
الباب الثامن عشر: أبرز أعلام النثر في العصر العباسي ٥٢٩
الباب الثامن عشر: الفصل الأول: عبد الله بن المقفع ٥٣١
الباب الثامن عشر: الفصل الثاني: سهل بن هارون ٥٤١
الباب الثامن عشر: الفصل الثالث: القاسم بن الحريري ٥٤٣
الباب الثامن عشر: الفصل الرابع: ابن العميد ٥٤٥
الباب التاسع عشر: الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) نموذج لكتاب النثر ٥٤٦
الباب التاسع عشر: الفصل الأول: ملامح ولادة الجاحظ ٥٤٨
الباب التاسع عشر: الفصل الثاني: العوامل المساعدة في تكوين ثقافة الجاحظ ٥٥٥
الباب التاسع عشر: الفصل الثالث: العوامل المؤثرة والموجهة لشخصية الجاحظ ٥٥٦
الباب التاسع عشر: الفصل الرابع: طور التأليف عند الجاحظ ٥٥٨
الباب التاسع عشر: الفصل الخامس: رسالة التربيع والتدوير ٥٦٢
الباب التاسع عشر: الفصل السادس: البيان والتبيين ٥٦٤
الباب التاسع عشر: الفصل السابع: منزلة الجاحظ وخصائص فنه ٥٦٧
الباب العشرون: أبو العلاء المعري أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (الناثر) ٥٧٠

الباب الحادي والعشرون: أبو حيان التوحيدي الواسطي ٥٨٠
الباب الثاني والعشرون: أبو بكر الصولي ٥٩٦
الباب الثالث والعشرون: أبو الفرج الناشر صاحب كتاب الأغاني ٦٠٤
الباب الرابع والعشرون: النقد في العصر العباسي ٦٠٨
الباب الرابع والعشرون: الفصل الأول: مفهوم الشعر في النقد الأدبي العباسي ٦١٠
الباب الرابع والعشرون: الفصل الثاني: كتب ونقاد للأدب ٦١٤
الباب الرابع والعشرون: الفصل الثالث: من رموز النقد في العصر العباسي ٦٧٢
الباب الخامس والعشرون الحكمة العربية والإسلامية ٦٨١
الباب الخامس والعشرون: الفصل الأول: مذهب الأشاعرة ٦٨٣
الباب الخامس والعشرون: الفصل الثاني: فلسفة الكندي ٦٨٨
الباب الخامس والعشرون: الفصل الثالث: فلسفة الفارابي ٦٩٣
الباب الخامس والعشرون: الفصل الرابع: فلسفة ابن سينا ٦٩٣
الباب الخامس والعشرون: الفصل الخامس: فلسفة الإمام الغزالي ٦٩٣
الباب السادس والعشرون: رموز الحكمة والفلسفة العربية والإسلامية ٦٩٤
أولاً – الأشعري ٦٩٤
ثانياً – الكندي ٦٩٥
ثالثاً – الفارابي ٦٩٩
رابعاً – ابن سينا ٧٠٧
خامساً – الإمام أبو حامد الغزالي ٧١٩